



المشروع القومى للترجمة

التاريخ الشعبى للولايات المتحدة

تأليف : هوارد زن

ترجمة : شعبان مكاوى

الجزء الأول





736

التاريخ الشعبى للولايات المتحدة

(من ١٤٩٢)

(الجزء الأول)

تأليـف : هــــوارد زن

ترجمـة : شعبان مكاوى

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٧٣٦
- التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (من ١٤٩٢) (الجزء الأول)
- هوارد زن
- شعبان مكاوى
- طبعة أولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب :

A People's History of the United States
(1492 - present)
Howard Zinn

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084

فهرس موضوعات الجزء الأول

مقدمة المترجم	9
مقدمة الطبعة العربية	21
الفصل الأول :كولومبس والهنود الحمر والتقدم	23
الفصل الثانى :إرساء حاجز اللون	57
الفصل الثالث :تمرد « الرعاع والدهماء »	83
الفصل الرابع :الطغيان هو الطغيان	113
الفصل الخامس :نوع ما من الثورة	137
الفصل السادس :النساء بين الحميمية والقهر	175
الفصل السابع :مادما عشب أو جرى ماء	209
الفصل الثامن :«نحن لا نأخذ شيئًا عن طريق الغزو .. والحمد لله!»	245
الفصل التاسع :عبودية دون إذعان وتحرير دون حرية	277
الفصل العاشر :الحرب الأهلية الأخرى	335
الفصل الحادى عشر :لصوص وثوار	397
الفصل الثانى عشر :الإمبراطورية والشعب	461
الفصل الثالث عشر :التحدى الاشتراكى	493
المراجع	537

إهداء المترجم

إلى الدكتورة رضوى عاشور

مقدمة المترجم

لا أريد أن أدعى انتصارات لحركات النضال التى قام بها الناس، لكننا إذا اعتقدنا أن كتابة التاريخ تهدف ببساطة إلى عرض أو تلخيص الإخفاقات التى تهيمن على الماضى، فإننا بذلك نجعل من المؤرخين مشاركين فى دائرة لا تنتهى من الهزائم. وإذا كان للتاريخ أن يكون خلاقًا وقادرًا على التنبؤ بمستقبل مستطاع، فإن عليه – من وجهة نظرى – أن يؤكد على وجود احتمالات جديدة عن طريق الكشف عما تم إخفاؤه من أحداث الماضى، حيث أظهر الناس – حتى ولو فى ومضات تاريخية قصيرة – قدرتهم على المقاومة والتلاحم والتضامن من أجل النصر. إننى أفترض، أو ربما آمل فقط، أننا ربما نجد مستقبلنا فى لحظات الماضى القصيرة التى سادتها الرحمة والشفقة، أكثر مما نجده فى قرونه المتعاقبة من الحرب والقتال. هذا هو مدخلى ـ دون مواربة ـ لرؤية وكتابة تاريخ الولايات المتحدة، وأفضل للقارئ أن يدرك ذلك قبل أن يستمر فى القراءة.

هوارد زن

تتأسس الثقافة الأمريكية على عدد من الأفكار والأساطير، التى يصعب بدونها فهم هذه الثقافة. بل إن السياسة الخارجية الأمريكية (فى مواقفها تجاه الآخرين سواء من خلال التدخلات العسكرية أو الاقتصادية أو غيرها من آليات

الهيمنة) تكاد تكون تجليا كاملاً لما تفرزه هذه الأساطير من أدبيات. وقد تكونت هذه الأساطير عبر ممارسات طويلة متراكمة حتى صارت شيئًا قائمًا ومجسداً. والحقيقة أن الثقافة الأمريكية ليست فريدة فى ذلك الأمر، فكل ثقافة ـ تقريبًا ـ تقوم على عدد من الأفكار والمفاهيم التى تتأرجح بين الأسطورة والحقيقة.

ومن أهم الأساطير التى تتأسس عليها الثقافة الأمريكية، ولاسيما فى تدخلاتها ومغامراتها الإمبريالية، أسطورتان مهمتان هما أسطورة "القدر الواضح" **Manifest Destiny** وأسطورة "مدينة فوق التل" **City Upon the Hill** وتُكمل كل منهما الأخرى، حتى إذا ما توفرت القوة، تجلت الأسطورتان فى تغذية الأفكار ومن ثم الأفعال. بيد أن القوة المتمثلة فى التكنولوجيا العسكرية المتقدمة قد وفرت للأسطورتين مناخًا مواتيًا لذلك التجلى.

أما الأسطورة الأولى فقد كان جون إل. أوسوليفان **O'Sullivan** أول مَنْ صك عبارة "القدر الواضح" **Manifest Destiny** عام ١٨٤٥، مفادها، كما يشى اسمها، أن الولايات المتحدة (أو العالم الجديد) لم يكن لديها اختيار، أى أن قيادة العالم نحو المدنية والفضيلة هو قدرها الذى ليس بوسعها أن تفرَّ منه. ويرى تشارلز إل. سانفورد **Sanford** أن مقدمات هذه الأسطورة كانت فاعلة وحاكمة حتى من قبل صك الاسم، وذلك أثناء الحقبة الكولونيالية المبكرة ومروراً بفترة التوسعات باتجاه الغرب على حساب أراضى الهنود الحمر وثقافتهم. وتكاد هذه الأسطورة تُشكِّل طبيعة ثانية للولايات المتحدة، وتتمثل فى أن تقوم الولايات المتحدة بدور المسيح السياسى الذى جاء لإنقاذ العالم. يقول سانفورد إن هذه المقدمات تشكَّلت من اقتناع عميق بأن المستعمرين البيض هم أناس اختارتهم السماء كى يحتلوا العالم الجديد ويقوموا بمهمة خاصة وهى نشر "النور الجديد" للإنجيل فى كافة أرجاء العالم، وأن "البرابرة" أو "الأعداء" الذين يقاومون تلك المهمة يجب قتلهم لأنهم مخلوقات إبليسية. ويقول سانفورد إن هذه الأسطورة قد حددت باختصار إرادة الله ومجرى التاريخ ومصير

شعبٍ مختار يملك أفراده بشرة بيضاء وعيونًا زرقاء(١). وفى أدبيات أسطورة "القدر الواضح"، يُنظر إلى الهنود الحمر، الضحايا الأوائل، بوصفهم مخلوقات أدنى وبرابرة يتوجب عليهم أن يخلوا الطريق أمام الجنس الأسمى كى يقودهم نحو طريق "النور الجديد". ومن هنا، حيث العنصرية الواضحة فى ثنايا تلك الأسطورة، تكونت الأرضية الخصبة لأيديولوجيا الإمبريالية الأمريكية. يقول المؤرخ الأمريكى لورين باريتز:

> **يتوجب علينا توضيح المزاعم التى نزعمها عن بلادنا، تلك المزاعم التى شكلتها القيم والتصورات الذاتية المترسخة فينا ونأخذها مأخذ البدهيات التى لا تكاد تحتاج إلى مناقشة. إن هذه المزاعم تسكن تحت جلودنا وليس فى عقولنا، كما إنها تقوى اعتزازنا بوطننا وبوطنيتنا. إنها مزاعم نتنفسها فى شبابنا وتعززها المدارس والثقافة الشعبية وذلك الإحساس بالرضا الذى تمنحنا إياه على مدار حياتنا. إن الأفكار والسلوكيات والمواقف التى تأتى من هذه المزاعم تساهم فى تكوين الطريقة التى نرى بها أنفسنا والعالم من حولنا. إنها الأساطير الأمريكية القديمة التى تُشكِّل أساس القومية الأمريكية(٢) .**

أما الأسطورة الثانية، والتى ساهمت بدرجة ملحوظة فى تشكيل الأسطورة التى تعرضنا لها منذ قليل، فهى أسطورة "مدينة فوق التل" التى يعود أصلها إلى منتصف القرن السابع عشر، عندما أخبر جون وينثروب **Winthrop** مجموعة البيوريتانيين

(١) Charies L. Sanford, e., **Manifest Destiny and the Imperialism Question** (New York: John Wiley & Sons. , Inc., 1974), p. 2.

(٢) Loren Bariz, Backfire : **A History of How American Culture Led Us into Vietnam** (New York William Morrow and Co., Inc., 1985) , p. 8 .

(المتطهرين) الذين كان يقودهم إلى العالم الجديد بأنهم فى رحلة "لم يباركها الرب فحسب، بل إنه يشارك فيها." وقال: "سوف نجد أن رب إسرائيل بيننا، عندما يصير بمقدور عشرة منا أن يقاوموا ألفًا من أعدائنا... لابد أن نضع فى اعتبارنا أننا سنكون، كمدينة فوق تل، تتطلع إليها عيون الناس جميعًا."(٣) وبمرور السنوات، ووفقًا لهذه الأسطورة، فإن أمريكا مثالٌ أخلاقى على العالم أن يحتذيه. ولأن هذه مشيئة الرب، وفق كلام وينثروب، فإن الولايات المتحدة منوط بها قيادة العالم أخلاقيا، وعليها أن تلعب دور "الناصح" و"المعلم" فيما يخص شئون العالم. ووفقًا للأسطورة وظلالها، فإن المعارضين والمُعادين للإدارة الأمريكية يصيرون أعداء ليس للحرية والديمقراطية والفضيلة فحسب وإنما هم أعداء للرب أيضًا!

وليس من المبالغة القول بأن هاتين الأسطورتين، ونتيجةً لظلالهما العنصرية ودوافعهما الإمبريالية، قد ساهمتا بدرجة كبيرة فى تكوين الصورة النمطية المزيفة التى تقسِّم العالم إلى طيبين Good Guys وأشرار Bad Guys ولعل أدبيات هذا الخطاب وبلاغته بهذه الصورة النمطية قد تجددت على لسان الرئيس الأمريكى الحالى بوش وأفراد إدارته فيما أسموه "الحرب على الإرهاب". وربما يكون مُدهشًا بالنسبة للكثيرين أن كاتبًا عظيمًا بحجم هيرمان ميلفيل قد كتب يومًا يقول

> **نحن الأمريكيين متفردون وشعبٌ مختار، إننا إسرائيل زماننا، نحمل سفينة حريات العالم... لكم تشككنا فى نظرتنا إلى أنفسنا! ولطالما ساورنا سؤالٌ عما إذا كان المسيح السياسى قد جاء. ولكنى الآن أقول إنه قد جاء متمثلاً فينا ولا يبقى سوى أن نعلن خبر مجيئه(٤) .**

(٣) المرجع السابق .

(٤) Robert Hewett, **The Captain America Complex** (Philadelphia : The Westminster Press, 1971) , p. 142.

غير أن « زن » لا ينتهج هذا المدخل الثقافى فى تناوله لأحداث التاريخ الأمريكى، وإن كان يلتقى معه فى نقاط كثيرة. إنه يكتب تاريخًا شعبيا، حيث لا يؤرخ فى هذا الكتاب للقادة السياسيين والعسكريين والدبلوماسيين بقدر ما يؤرخ للناس وحركات نضالهم فى سبيل الحصول على حقوقهم المهضومة. إنه ينظر إلى "الأعمال الجليلة والبطولية" التى قام بها الآباء المؤسسون والقادة الأمريكيون من الجانب الأخر، أى من جانب الذين كانوا ضحايا هذه "الأعمال الجليلة والبطولية". إنه - على نحو ما - يقوم بتعرية الأساطير المؤسِّسة للسياسة الأمريكية (إذا استعرنا عنوان كتاب الفيلسوف الفرنسى روجيه جارودى[٥] . يكتشف القارئ على مدى صفحات الكتاب كيف رفعت الإدارات الأمريكية المتعاقبة - ولا تزال - شعارات نبيلة براقة كالديمقراطية والحرية والمساواة فى الوقت الذى كانت تقوم فيه - ولا تزال - بقتل الآخرين وتشريدهم وإبادتهم (فى اللحظة التى أكتب فيها هذه السطور تقول الأخبار إن قوات الاحتلال الأمريكية قتلت ما يزيد على ٩٠٠ عراقيا فى الفلوجة على مدار الأيام الخمسة الماضية). ومن ثم فإن من ينشد تمجيداً لكريستوفر كولومبس وچورج واشنطن وتوماس چيفرسن وإبراهام لينكولن وتيودور وفرانكلين روزفلت وترومان وچونسون ونيكسون وريجان وبوش الأب وكلينتون وبوش الابن - عليه أن يبحث عن ذلك فى كتب أخرى غير هذا الكتاب، وسوف يجد الكثير والكثير. وذلك لأن هوارد زن يقرأ ويفسر أعمال كل هؤلاء على نحو جد مختلف.

يقدم كتاب «**التاريخ الشعبى للولايات المتحدة: من ١٤٩٢ إلى الآن**» رؤية مغايرة للتاريخ الأمريكى، وهى رؤية تختلف كل الاختلاف عن الرؤية التى قدمتها - ولازالت تروج لها - المؤسسة الأمريكية. يكتب المؤلف التاريخ الأمريكى من وجهة نظر الآخر الذى أغفله وهمشه التاريخ الرسمى للبلاد. وينتصر الكتاب لثقافة وهو الذى دفع ثمنًا

(٥) روجيه جارودى . **الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية** . ترجمة : محمد هشام (القاهرة : دار الشروق . ١٩٩٨) .

باهظًا من عرقه ودمه وثقافته كى تقوم الثقافة والحضارة الأمريكية. ولأن الكاتب ـ كما ينوه فى أجزاء متفرقة من الكتاب ـ يعلن فى وضوح عن انحيازه للآخر الذى كان ضحية الإبادة والرق والقهر والظلم الاجتماعى، فإنه يكتب عن اكتشاف أمريكا من وجهة نظر الهنود الحمر، ويكتب عن الدستور الأمريكى من وجهة نظر من لم ينصفهم ذلك الدستور من الهنود الحمر والملونين والنساء، ويكتب عن أندرو چاكسون من خلال عيون هنود الشيروكى، ويتناول حرب فيتنام بعيدا عن أدبيات الخطاب السياسى البراقة للحكومة الأمريكية، ويؤرخ لغزو الفليبين كما رآه الجنود الأمريكيون السود.

فى هذا الكتاب، يقوم هوارد زن بما يمكن تسميته "إعادة توزيع الأدوار على الأبطال والأشرار" حتى إن الكتاب جاء ـ على حد تعبير إيريك فونر ـ كأنه نيجاتيف فوتوجرافى للتاريخ الأمريكى الرسمى، بحيث تتبادل البقاع المظلمة والبقاع المضيئة أماكنها . والكتاب يقدم رؤية بديلة من منظور شعبى للتاريخ الأمريكى. ومن هنا يحمل الكتاب صدمات شديدة للقارئ الذى كون صورته عن الولايات المتحدة من خلال كتب التاريخ الرسمية أو من خلال الأفلام الأمريكية. يقول المؤلف فى تذييله للكتاب إن عنوان الكتاب يعد بما هو فوق طاقة شخص واحد ، وإن الإمساك بمثل هذا النوع من التاريخ مهمة صعبة. على أنه يبرر اختياره بأنه حاول كتابة تاريخ لا يحرص على احترام الحكومات وينتصر لحركات الشعوب من أجل المقاومة فى سبيل الحرية. فى الفصل الأول من الكتاب، يقول المؤلف:

> **إن كتابة تاريخ أى دولة على أنه تاريخ أسرة ما مثلاً، إنما يخفى التصارع الحاد للمصالح بين المنتصرين والمهزومين، وبين السادة والعبيد، وبين أصحاب رءوس الأموال والعمال، وبين المستبدين والمظلومين سواء فى العرق أو الجنس. وفى عالم متصارع كهذا العالم؛ عالم الجلادين والضحايا، يتوجب على المفكرين ـ كما يقول ألبير كامو ـ ألا يقفوا إلى جوار الجلادين.**

وأعتقد أنه ليس من المناسب هنا استعراض الثناء الذى صدر بشأن هذا الكتاب منذ صدور طبعته الأولى فى ١٩٨٠ وحتى الآن. فيكفى أن نعرف أن الكتاب صدرت منه ست طبعات حتى العام الماضى.

لا يلجأ هوارد زن إلى الدراسات الأكاديمية كثيراً، فمصادره الأساسية تتمثل فى الكتابات المهملة والاتفاقيات المتعمد نسيانها ومقالات الصحف والخطابات الشخصية وسجلات المحاكم وخطابات الناس إلى أعضاء مجلسى النواب والشيوخ وشهادات الناس العاديين، لاسيما شهادات الهنود الحمر (الأمريكيين الأصليين) والسود والعبيد والأمريكيين من أصول مكسيكية وأيرلندية ويابانية وصينية والنساء والجنود والعمال والفلاحين - أى شهادات الذين كانوا ضحايا، على نحو أو آخر، لسياسات الحكومات الأمريكية المتعاقبة وتحالفها الدائم مع النخبة الثرية وأصحاب الشركات الاقتصادية العملاقة.

بدأت قصتى مع هذا الكتاب فى عام ١٩٩٨ عندما كنت باحثًا زائرًا لمدة عامين بجامعة ماساتشوستس بالولايات المتحدة. فى يوم ما من ذلك العام، قامت "هامشر كوليدج" بتنظيم احتفالية للمفكر الباكستانى إقبال أحمد الذى كان يقوم بالتدريس بها لأكثر من ثلاثين عاماً، وقرر أن يعود إلى وطنه الأم ليساهم ببعض الجهد فى النهوض به (سيموت الرجل بعد أقل من عامين من عودته إلى وطنه!) وكان من بين المتحدثين فى هذه الاحتفالية المفكر البارز إدوارد سعيد والمؤرخ هوارد زن الذى لم أكن سمعت به من قبل. وكان الرجلان صديقين لإقبال أحمد. ولما جاء دور زن فى الكلام، أعجبنى كلامه كثيراً وأسرتنى رؤيته للأشياء رغم أنه كان يتكلم عن ذكرياته بوصفه صديقًا لإقبال أحمد وعن النشاط السياسى الذى جمعه بصديقه إبان الحرب فى فيتنام. بحثت عن كتب الرجل وعرفت أن الكتاب الذى أقدمه هنا واحد من أهم كتبه إن لم يكن أهمها فى رأى كثيرين. وعلمت بالضجة التى أثارها الكتاب - ولا يزال - منذ صدور طبعته الأولى عام ١٩٨٠ وعندما عثرت على الكتاب وقرأت فقرات قليلة منه، التزمت أمام نفسى بأن أقوم بترجمته بمجرد انتهائى من رسالة الدكتوراه. وها أنا قد وفيت بالتزامى ذلك ، وأرجو أن أكون قد ساهمت فى إنجاز شىء مفيد.

والحقيقة أننى عندما قررت ترجمة هذا الكتاب، لم أفعل ذلك انطلاقًا من أنه كتاب مهم عن التاريخ الأمريكى. فأنا أرى أنه أكثر من ذلك. إنه كتاب عن الثقافة الأمريكية بكافة تجلياتها، وإن اتخذ من التاريخ مادة ووسيلة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هوارد زن بوصفه مؤرخًا أمريكيا مرنا وناشطا سياسيا مخضرمًا لا يكاد يكون معروفًا فى مصر والعالم العربى. ورغم أننى بدأت فى ترجمة هذا الكتاب فى عام ١٩٩٩، فإن المفكر القدير السيد يس كان - على حد علمى - أول من كتب عن الرجل وكتابه الشهير فى عام ٢٠٠٣، ضمن سلسلة من المقالات تناولت أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وتداعياتها والحملة الأمريكية على ما أسمته الإدارة الأمريكية "الحرب على الإرهاب".(٦)

اعتمدت فى ترجمة الكتاب على طبعته الصادرة عام ١٩٩٨ ثم نظرت فى طبعة ٢٠٠٠ بهدف التأكد من أنه ليس ثمة إضافات جديدة. ثم وقعت أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وكتب زن كتابات أخرى تصب فى الإطار الكبير لكتابه، فأضاف وعدَّل فى الطبعة التالية (٢٠٠٣). ثم جرت بينى وبينه مراسلات، حيث أرسل إلىّ بالإضافات والتعديلات التى جرت.

كان من بين الإضافات أنه عدَّل من الفصل الثالث والعشرين الخاص بفترتى رئاسة كلينتون، وأضاف كثيراً إليه. كما أضاف فصلاً آخر هو الخامس والعشرين وعنوانه:انتخابات ٢٠٠٠ و"الحرب على الإرهاب"، وفيه يتناول زن عملية الانتخابات الرئاسية وما جرى فيها والشكوك التى دارت حول التزوير الذى تم لصالح الرئيس الحالى بوش. وكأن عدم الشرعية التى شابت انتخاب بوش رئيسًا قد ألقت بظلها الكثيف على الطريقة غير الشرعية التى انتهجتها إدارته فى تعاملها مع ما أسمته "الحرب على الإرهاب". ويتوقف زن فى ذلك الفصل، فى أحدث طبعات الكتاب، عند القصف الأمريكى لأفغانستان أوائل عام ٢٠٠٢ ، وبعد احتلال الجيش الأمريكى

(٦) راجع السيد يس . **الحرب الكونية الثالثة** (القاهرة : مشروع مكتبة الأسرة . ٢٠٠٣) .

للعراق، رأيت أن أسأل زن إن كان يود أن يضيف شيئًا بشأن ما حدث فى العراق، فأرسل لى مقالة كتبها فى أغسطس ٢٠٠٣ بعنوان "بلد محتل" وأعطانى حرية التصرف فيها؛ فأضفت من هذه المقالة إلى الفصل الخامس والعشرين. وبذلك يصير العنوان الفرعى للكتاب " من ١٤٩٢ إلى الآن" صادقًا على نحو حرفى!

وفى النهاية أجد نفسى مدينًا بالشكر لعدد من الأصدقاء الذين ساعدونى فى القيام بترجمة هذا الكتاب. أقدم خالص شكرى وامتنانى إلى صديقتى وزوجتى سماح صلاح التى أصرت على أن تقوم بكتابة ترجمة الكتاب على الكمبيوتر بنفسها، وهى التى لم يكن لها سابق تجربة بهذا الأمر. فكان أن كتبت الترجمة كلها بإصبع واحدة أو إصبعين على أكثر تقدير! وكانت الملاحظات التى أبدتها بوصفها قارئة لهذه الترجمة ذات فائدة كبيرة لى.

وأقدم شكرى وتقديرى إلى صديقى العزيز الدكتور محمد هشام ، لكرمه غير المحدود فى الوقت الذى أنفقه معى فى الحديث عن ذلك الكتاب، ومناقشة أفكاره والملاحظات الكثيرة المهمة التى أسداها إلىَّ. كما أشكر صديقى العزيز سليمان جودة على الوقت الذى أمضاه فى قراءة بعض أجزاء هذه الترجمة والملاحظات التى أبداها.

أما الشكر الأخير فهو من حق السيدة النبيلة عزة طه، زوجة أخى الأصغر، التى منحتنى الفص الأيمن من كبدها لكى أعيش وأُتم ترجمة هذا الكتاب وأمارس حياتى التى كان يهددها طائر الغياب. مدين إليك بغير حدود يا عزة!

إهداء المؤلف

إلى «نوح» و «جورجيا» و «سيرينا» و«نوشون» و «ويلْ» - وجيلهم .

مقدمة الطبعة العربية

يسعدنى أن يترجم كتابى هذا إلى العربية، فأنا أنظر إلى أى ترجمة أجنبية لكتابى هذا بأنها محاولة لبناء جسر مع الشعوب الأخرى وإيجادٌ لأرضية مشتركة بين شعوب العالم. ولعل هذا يتضح كثيراً إذ نرى جميعًا أن ما قامت به العسكرية الأمريكية فى العراق قد خلف سخطًا عميقًا بين ملايين الناس فى منطقة الشرق الأوسط.

لقد بات واضحًا الآن، وعلى نحو سريع، أن العراق بعد التدخل الأمريكى ليس بلدًا محررًا. لقد أصبح بلدًا محتلاً. صحيح أننا حررنا العراق من صدام حسين، ولكن لم نحرره من أنفسنا. تمامًا كما حدث فى ١٨٩٨ عندما قمنا بتحرير كوبا، حيث حررناها من الاحتلال الإسبانى ولكننا لم نحررها من أنفسنا. وكانت الولايات المتحدة تقرر نوع الدستور الذى يجب أن يحكم كوبا، تمامًا كما تقوم حكومتنا الآن بوضع دستور جديد للعراق. إن هذا ليس تحريرًا. إنه احتلال. احتلال بغيض.

تتمثل إحدى الأفكار الرئيسية فى الكتاب فى نقد التوسع الأمريكى، بداية من غزو أراضى الهنود الحمر والأراضى المكسيكية فى شمال القارة الأمريكية ثم التحرك باتجاه الكاريبى وعبر المحيط الهادى إلى هاواى والفليبين. فبعد الحرب العالمية الثانية، أصبحت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى القوتين العظميين فى العالم تتسلح كل منهما بآلاف الأسلحة النووية. كان التنافس مع الاتحاد السوفيتى حقيقياً، لكنه كان أيضًا غطاءً للتدخلات الأمريكية المستمرة فى أمريكا اللاتينية وجنوب شرق آسيا والشرق الأوسط. وعندما قامت المخابرات المركزية الأمريكية بتدبير انقلاب فى

إيران للإطاحة بحكومة مصدق فى ١٩٥٣، فإنها جسدت حقيقة مؤداها أن الهيمنة على بترول الشرق الأوسط كانت نصراً أساسيًا بالنسبة للسياسة الأمريكية فى ذلك الجزء من العالم.

إن هذا الكتاب محاولة للنظر إلى الولايات المتحدة، ليس من وجهة نظر البيت الأبيض أو البنتاجون أو الشركات الاقتصادية العملاقة، ولكن من وجهة نظر الأمريكى العادى الذى يشكل الطبقة العاملة والملونين والجنود الذين كانوا من بين ضحايا السياسة الأمريكية. كما إنه محاولة لتوضيح حقيقة مهمة هى أنه كان هناك دائمًا أمريكيون قاوموا التحالف بين أصحاب الشركات الاقتصادية العملاقة وبين الحكومة. يتناول الكتاب حركات التمرد التى قام بها السود والأمريكيون الأصليون (الهنود الحمر). كما يتناول إضرابات العمال من الرجال والنساء والحركات المناهضة للحرب والمؤسسة العسكرية. كتابى أيضًا هو محاولة لإعادة تعريف الديمقراطية، ليس بوصفها مجموعة من الإجراءات الشكلية والقوانين، ولكن بوصفها أفعالاً للمواطنين الذين ينخرطون فى كفاح مستمر من أجل تحقيق السلام والعدل.

هوارد زنْ

الفصل الأول

كولومبس والهنود الحمر والتقدم

خرج الهنود الحمر من قبيلة "أراواك" رجالاً ونساءً عرايا، يملؤهم العجب، متجهين صوب شطآن الجزيرة. وبدافع من الفضول، بدأوا فى السباحة محاولين أن يلقوا نظرة أقرب على السفينة الكبيرة الغريبة. وعندما نزل كولومبس ومن معه من بحارة إلى الشاطئ حاملين السيوف، ومتحدثين بلغة غريبة، هّب هنود "أراواك" لتحيتهم، فقدموا لهم الطعام والماء والهدايا، حتى أن كولومبس كتب فى سجلاته:

> **لقد أحضروا لنا ببغاوات وكرات من القطن وحرابًا وأشياء أخرى كثيرة. كانوا يريدون أن يستبدلوا بها الحلى الزجاجية وأجراس الصقور. كانوا يودون الاتجار طواعية فى كل شئ يمتلكونه. كانوا أقوياء البنية، ذوى أجساد رشيقة وملامح وسيمة.... إنهم لا يحملون الأسلحة، بل إنهم لا يعرفونها، فعندما أريتهم أحد السيوف، لم يعرفوا كيف يتناولونه؛ إذ أمسكوا به من ناحية النصل، فجرحوا أيديهم نتيجة جهلهم بهذا الأمر. ولم يكن لديهم حديد؛ إذ إن حرابهم كانت مصنوعة من القصب... إنهم مطيعون حتى إنه من الممكن اتخاذهم خدمًا رائعين. لقد استطعنا بخمسين رجلاً فقط أن نخضعهم لأمرنا، ونجعلهم يفعلون ما نشاء.**

ولم يكن هنود "أراواك" بجزر الباهاما، يختلفون عن أى هنود آخرين فى العالم الجديد، فكلهم معروفون بالكرم والإيمان بمشاركة ما يمتلكون مع الآخرين (لن يمل المراقبون والمؤرخون الأوربيون من تكرار ذلك). ولم تبرز مثل هذه المزايا والخصال الطيبة فى أوروبا فى عصر النهضة والتى لم تعرف سوى دين الباباوات وحكومات الملوك، والسعار من أجل المال الذى اصطبغت به الحضارة الغربية ورسولها الأول إلى الأمريكتين ـ كريستوفر كولومبس. يقول كولومبس: "بمجرد أن وصلت إلى أرض الهنود، وعلى أول جزيرة اكتشفتها، أخذت بعض أهلها عنوةً كى يدلوا بأى معلومات عما تحويه أراضيهم من أشياء."

وكانت أهم معلومة يبحث كولومبس عنها هى الإجابة عن هذا السؤال:: أين الذهب؟ لقد أقنع ملكة وملك إسبانيا أن يمولا رحلته تلك. كما توقع أن الثروة والخير يقعان على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطى – فى الهند وآسيا؛ حيث التوابل والذهب. لقد توقع كولومبس ذلك لأنه، كغيره من العالمين فى عصره، كان يعرف أن الأرض مستديرة، وأنه يستطيع أن يبحر غربًا، كى يصل إلى الشرق الأقصى.

كانت إسبانيا قد توحدت قبل عهد قريب، وأصبحت واحدة من الدول الحديثة، مثل فرنسا وإنجلترا والبرتغال، وكان ٢٪ فقط من سكانها يملكون أكثر من ٩٥٪ من أرضها، وكان يقوم بخدمة هؤلاء النبلاء معظم السكان، وغالبيتهم من الفلاحين الفقراء. وفى ذلك الوقت، كانت إسبانيا قد ارتبطت بالكنيسة الكاثوليكية، وطردت المسلمين واليهود من أراضيها. وكباقى دول العالم الحديث، كانت إسبانيا تبحث عن الذهب، الذى أصبح العلامة الجديدة على الثروة، وصار أكثر نفعًا من الأرض، لأنه يستطيع أن يشترى أى شئ. وكان يُعتقد أن آسيا تحوى كميات كبيرة من الذهب ومن الحرير والتوابل أيضًا، وذلك لأن ماركو بولو وآخرين كانوا قد جلبوا معهم أشياء رائعة من رحلاتهم الاستكشافية قبل قرون.

ولما كان الأتراك قد سيطروا على القسطنطينية وعلى شرق البحر المتوسط، وسيطروا بالتالى على الطريق البرية إلى آسيا، فقد أصبح الاحتياج إلى طريق بحرى

لآسيا شديداً. وفى ذلك الوقت كان البرتغاليون يعبدّون طريقا لهم عن طريق الطرف الجنوبى لإفريقيا. ومن هنا قررت أسبانيا أن تقامر بالإبحار عبر محيط مجهول من أجل الوصول إلى آسيا. وتمت الصفقة بين كولومبس من جانب وملك وملكة إسبانيا من جانب آخر. ففى مقابل جلب الذهب والتوابل، أخذ كولومبس وعداً بالحصول على ١٠٪ من أرباح رحلته، والإمارة على ما يكتشفه من أراضى، والشهرة التى ستجلبها رتبته الجديدة "أدميرال بحر المحيط." كان كولومبس يعمل كاتبًا لدى أحد التجار فى مدينة "جنوا " الإيطالية، ويعمل نساجًا لبعض الوقت، إذ كان أبوه نساجًا ماهرًا، كما أنه كان بحارًا خبيرًا. وقد انطلق فى رحلته تلك على متن ثلاثة سفن، كانت "سانتا ماريا" أكبرها حجمًا، ربما وصل طولها إلى مائة قدم، وتكون طاقمها من تسعة وثلاثين فرداً.

ولم يكن لكولومبس أن يصل إلى آسيا بأى حال من الأحوال، فقد كانت تبعد آلافًا من الأميال عما قدَّره، إذ لم يكن العالم صغيراً كما تصوره هو ومعاصروه. وكان اتساع البحر وطول الرحلة كفيلين بأن يضعا نهاية له ولمن معه. لكنه كان محظوظًا؛ فبعد أن قطع ربع الطريق، وصل إلى أرض مجهولة غير معروفة المعالم، تقع ما بين أوروبا وآسيا - هى الأمريكتين. كان ذلك فى بدايات أكتوبر ١٤٩٢، بعد ثلاثة وثلاثين يومًا من إبحار كولومبس ورفاقه من جزر الكنارى بالشاطئ الأطلنطى لإفريقيا.

وعندما رأى كولومبس ومن معه أسرابًا من الطيور وفروعًا من الأشجار، تيقنوا أنهم يقتربون من أرض ما. وفى فجر الثانى عشر من أكتوبر ١٤٩٢، شاهد أحد البحارة، ويدعى "رودريجو"، ضوء القمر مشرقًا فوق رمال بيضاء، فبدأ فى الصياح. وكانت هذه الرمال البيضاء، جزيرة من جزر الباهاما بالبحر الكاريبى. أما البحار فراح يصرخ فرحًا لأنه كان من المفترض أن يحصل أول من تقع عيناه على اليابسة على معاش سنوى مقداره مائة ألف مارافيدا. لكن المسكين لم يحصل على شئ، إذ زعم كولومبس أنه كان قد شاهد ضوءًا يغطى تلك الأرض فى المساء، وهذا يعنى أنه هو المستحق للمكافأة، فحصل عليها.

وعندما وطأت أقدام كولومبس ومن معه تلك الأرض، قابلهم هنود "أراواك" الذين خرجوا لتحيتهم. وكان هؤلاء الهنود يعيشون فى تجمعات ريفية على زراعة الذرة والبطاطا وغيرهما، هذا بالإضافة إلى إجادتهم فنون الغزل والنسيج. ومع ذلك، لم يكن لديهم خيول أو حيوانات يعتمدون عليها فى عملهم، كما أنهم لم يعرفوا الحديد، غير أنهم كانوا يتزينون بحلى صغيرة من الذهب يعلقونها فى آذانهم؛ الأمر الذى جلب عليهم عواقب وخيمة. فقد اقتاد كولومبس كثيرين منهم على متن سفنه كسجناء، لأنه أصر على أنْ يقودوه إلى حيث توجد مصادر الذهب.

وأبحر كولومبس بعد ذلك إلى كوبا، ثم إلى هيسبانيولا "وهى الجزيرة التى تشمل اليوم كلاً من هاييتى وجمهورية الدومينيكان." وهناك قدّم أحد زعماء الهنود هدية إلى كولومبس عبارة عن قناع ذهبى. وعلاوة على ذلك رأى كولومبس بنفسه قطعًا من الذهب منثورة فى الأنهار مما أدى إلى خلق أحلام ورؤى خيالية عن مناجم الذهب. وفى هذه الجزيرة بنى كولومبس من حطام السفينة "سانتا ماريا" حصنًا يعد أول قاعدة عسكرية أوروبية فى النصف الغربى للكرة الأرضية، وأطلق كولومبس على هذا الحصن اسم نافيداد "الكريسماس"، وأقام عليه عددًا من الحراس من بين أفراد طاقمه من البحارة، مع بعض التعليمات عن كيفية جمع وتخزين الذهب داخل ذلك الحصن. ثم أسر كثيرًا من الهنود وحبسهم على متن سفينتيه الباقيتين، كما اشتبك مع بعض الهنود الذين رفضوا أن يبيعوه ما أراد من سهام ورماح هو ومن معه، مما أسفر عن ضرب اثنين من الهنود بالسيوف، فنزفا حتى الموت. وبعد ذلك، أبحرت السفينتان "نينا" و "بنتا" إلى الآزور وإسبانيا. وفى الطريق، ونتيجة للبرد القارس، مات عدد من السجناء الهنود.

واتسم تقرير كولومبس إلى البلاط الإسبانى بالغرابة والتهور؛ فآسيا التى أصر فى تقريره على أنه وصل إليها لم تكن إلا كوبا، والجزيرة التى قال إنها تقع على الساحل الصينى لم تكن إلا هيسبانيولا. وهكذا تأرجح كلامه بين الحقيقة والخيال:

إن "هيسبانيولا" معجزة بمعنى الكلمة ، جبالها وهضابها وسهولها ومراعيها خصبة وجميلة ... أما موانيها فرائعة حقًا، وبها أنهار واسعة يحتوى معظمها على الذهب ... كما أن بها الكثير من التوابل، ومناجم الذهب ومعادن أخرى ... .

ويمضى كولومبس قائلاً إن "الهنود سانجون، ويتعاملون مع ممتلكاتهم بشكل لا يصدقه أحد، إذا سألتهم شيئًا مما يملكون، لا يردون عليك بالنفى أبداً. بل على العكس، إنهم يعرضون مشاركة ما يملكون مع أى شخص ... " واختتم تقريره إلى ملك وملكة إسبانيا بطلب العون فى مقابل أن يجلب لهما فى رحلته القادمة "ما شاءا من الذهب، وعدد ما يطلبانه من عبيد."

وتجدر الإشارة إلى أن تقرير كولومبس هذا كان يصطبغ بصبغة دينية؛ فقد جاء فيه: "وهكذا، فإن الرب الخالد، إلهنا، يمنح النصر للذين يسلكون طريقه مهما كانت الصعاب." ولأن تقرير كولومبس كان مليئًا بالوعود والآمال، فقد جاءه العون الذى أراد؛ حيث تكونت رحلته الثانية من سبع عشرة سفينة وأكثر من ألف ومائتين من الرجال. وكان الغرض واضحاً؛ العبيد والذهب. وانتقل كولومبس ورجاله من جزيرة لأخرى، فى منطقة البحر الكاريبى، وأسروا عدداً كبيراً من الهنود. لكن هنوداً كثيرين بدأوا فى الفرار من قراهم لما علموا بنية الأوربيين، حتى أن كولومبس ورجاله وجدوا قرى كثيرة قد خلت من أهلها. وفى هايتى وجد كولومبس ورجاله أن البحارة الذين بقوا فى الجزيرة لحماية حصن نافيداد ومن فيه من سجناء الهنود قد لقوا مصرعهم فى معركة مع الهنود، بعد أن جابوا الجزيرة فى شكل عصابات بحثًا عن الذهب وبعد أن قاموا باختطاف النساء والأطفال كعبيد، وكوسيلة لتحقيق المتعة الجنسية وتلبية حاجتهم للأيدى العاملة.

وفى هذه الأثناء اتخذ كولومبس من هايتى قاعدة له، وأرسل حملة تلو أخرى إلى المناطق الداخلية؛ إلا أن رجاله لم يجدوا أى حقول للذهب، ولم يكن أمامهم إلا أن يملئوا السفن العائدة إلى إسبانيا بما تقع عليه أيديهم. ففى عام ١٤٩٥، قاموا بغارة

كبيرة على الهنود، أسروا فيها أكثر من ألف وخمسمائة من هنود "أراواك" - رجالاً ونساءً وأطفالاً، ووضعوهم فى حظائر يقوم بحراستها الإسبان والكلاب، ثم انتقوا من بين هذا العدد، أفضل خمسمائة كى يتم شحنهم فى السفن. فى رحلة العودة إلى إسبانيا، مات فى الطريق مائتان من الخمسمائة، ووصل الباقون أحياءً سالمين، حيث عُرضوا للبيع فى مزاد أشرف عليه رئيس الشمامسة، الذى صرّح قائلاً: "رغم أن هؤلاء العبيد عرايا كما ولدتهم أمهاتهم، فلم يبد عليهم أى شعور بالحرج أو الارتباك، كأنهم والحيوانات سواء." وكتب كولومبس فيما بعد قائلاً: "دعونا، باسم الثالوث المقدس، نستمر فى إرسال ما نستطيع بيعه من العبيد." لكن عدداً كبيراً من العبيد ماتوا فى الأسر، وكان على كولومبس أن يوفى بوعوده للمضاربين ويعود إليهم بأنصبتهم من الذهب.

ففى منطقة شيكاو "هاييتى" وحيث تخيل كولومبس ورجاله وجود حقول ممتدة من الذهب، أصدر كولومبس أمراً يُلزم كل من بلغ الرابعة عشرة من عمره بأن يجمع كمية محددة من الذهب يسلمها كل ثلاثة شهور. وكان من يحضر هذه الكمية، يعطى عملة نحاسية يعلقها حول عنقه. أما من لم يحضروا الذهب ومن ثَمَّ لم يعلقوا العملات النحاسية حول أعناقهم، فكانت تقطع أيديهم وينزفون حتى الموت. وكانت هذه المهمة مستحيلة بالنسبة للهنود، إذ لم يكن هناك ذهب أكثر من قطع صغيرة مختلطة بالطين يتم استخلاصها من المصارف المائية. وبهذا لم يكن أمام الهنود غير الفرار. بيد أن ذلك لم يكن نهاية المطاف، فكانت تطلق فى أثرهم كلاب الصيد وتنتظر من يقع من الفارين عقوبة القتل. وفى محاولة تكوين جيش للمقاومة، واجه هنود "أراواك" الإسبانيين الذين كانوا يمتلكون السلاح والخيل. ووقع كثير من الهنود فى أيدى الإسبانيين الذين كانوا ينفذون فيهم عقوبة الشنق أو الحرق حتى الموت. وكان أن تفشى الانتحار الجماعى بين هنود "أراواك" وذلك عن طريق تجرع السم، بل كان هؤلاء الهنود يقتلون أطفالهم الرضّع بأيديهم كى لا يقعوا فى أيدى الإسبانيين. وفى خلال عامين، مات حوالى نصف سكان الهنود فى هايتى - وعددهم الأصلى ٢٥٠ ألف

نسمة ـ إما عن طريق القتل أو الانتحار. ولما بات واضحًا أنه لم يكن هناك حقول للذهب، أصبح الهنود مصدراً أساسيًا لجلب العبيد، بحيث كان يتم تسخيرهم بوحشية فى ضياع شاسعة حيث مات فيها آلاف مؤلفة منهم. وبحلول عام ١٥١٥، لم يبق من هنود "أراواك" سوى حوالى خمسين ألفًا، أصبحوا خمسمائة فى عام ١٥٥٠, ويقول أحد التقارير إنه بحلول ١٦٥٠، لم يبق على الجزيرة أحد من هنود "أراواك" الأصليين.

ويتمثل المصدر الرئيسى للمعلومات عما حدث فى جزر الكاريبى بعد وصول كولومبس ـ وهو أيضًا المصدر الوحيد بشأن أمور كثيرة ـ فى شخص "بار تلومى دى لاس كاساس" Bartolome de Las Casas، الذى شارك كقس شاب فى غزو كوبا، وكان يمتلك مزرعة كبيرة يقوم بالعمل فيها عبيد هنود، لكنه تخلى عن ذلك وأصبح ناقداً حاداً للوحشية الإسبانية. فقد نسخ "لاس كاساس" يوميات كولومبس، وبدأ وهو فى الخمسينيات من عمره فى كتابة مؤلفه ذى المجلدات العديدة: **تاريخ الجزر الهندية** History of the Indies ويقول عن الهنود إنهم رشيقو القوام، فهم يسبحون لمسافات طويلة لاسيما النساء. ورغم أنهم مسالمون، فإنهم يتقاتلون، بين الحين والآخر، مع قبائل أخرى، وضحايا معاركهم قليلة، كما إنهم لا يقاتلون تنفيذاً لأوامر صادرة من ملوك أو قادة، وإنما يقاتلون عندما يشعرون أن ظلمًا ما قد وقع عليهم. ويقول لاس كاساس إن المرأة فى المجتمع الهندى كانت تحظى بمعاملة طيبة كريمة، وهو الأمر الذى أصاب الإسبانيين بدهشة بالغة، ويصف لاس كاساس العلاقات الجنسية فى مجتمع الهنود قائلاً:

> **ليس ثمة قوانين للزواج: فالرجال والنساء، سواء بسواء، يختارون رفاقهم، ويفارقونهم متى شاءوا، دون إحساس بالإهانة، أو الغيرة أو الغضب. ويتناسل الهنود بأعداد وفيرة، وتمارس المرأة الحامل أعمالها حتى آخر دقيقة من الحمل، وتضع مولودها دون ألم كثير، وفى اليوم التالى للولادة، تستحم**

المرأة فى النهر، فينطق وجهها بالنظافة والصحة وكأنها لم تلد. وإذا ما سئمت امرأة العيش مع رفيقها، أسقطت حملها منه عن طريق الأعشاب، وغطت أعضاءها الخاصة بورق الشجر أو بغطاء من القطن. هذا رغم أن الرجال والنساء فى مجتمع الهنود ينظرون إلى عرى بعضهم البعض بشكل عَرَضى، تمامًا كما ننظر نحن إلى رأس شخص ما أو إلى يديه.

والهنود لا دين لهم، فليس لديهم دور للعبادة. إنهم يعيشون فى بيوت جماعية كبيرة، يسع الواحد منها ما يقرب من ستمائة شخص... وهذه البيوت مصنوعة من الخشب القوى، أما عروشها فمن سعف النخيل... ويجِّل الهنود ريش الطيور بألوانه المتنوعة والخرز والحلى المصنوع من عظام الأسماك وكذلك الأحجار الخضراء والبيضاء التى يزينون بها الآذان والشفاه. على أنهم لا يرون أية قيمة للذهب وأشياء أخرى ثمينة. وليس للهنود طريقة فى التجارة، لا فى البيع ولا فى الشراء، ويعتمدون بشكل أساسى على بيئتهم الطبيعية فى طلب الرزق. يغلب عليهم كرم مفرط فيما يمتلكون، وبسبب هذا الأمر نفسه، فإنهم يشتهون ما يمتلكه أصدقاؤهم، ويتوقعون منهم نفس الدرجة من السخاء والكرم... .

وفى "الكتاب الثانى" من مؤلفه الذى سبق ذكره، يحكى لاس كاساس عن المعاملة التى كان يلقاها الهنود على أيدى الإسبانيين. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الرجل فى البداية حبّذ ونادى باستبدال العبيد السود بالهنود، ظنًا منه أنهم أكثر تحملاً وأكثر مقدرة على البقاء، إلا أنه غير رأيه عندما رأى تأثير ماحدث على العبيد السود. وما يقوله لاس كاساس فى هذا الصدد مهمٌ وفريد وجدير بالاقتباس:

تبرهن شهادات لا حصر لها... على أن طبيعة الهنود هادئة مسالمة... أما عملنا فكان هدفه القتل والتخريب والتشريد والدمار، فلا عجب إذا حاول الهنود أن يقتلوا واحدًا منا بين الحين والآخر. والحقيقة أن الأدميرال كولومبس كان متهورًا إلى حد العمى، وكذلك كان من أتوا بعده. لقد كان همه أن يسعد الملك، فارتكب مالا يغتفر من الجرائم ضد الهنود....

ويحكى لاس كاساس أن الإسبانيين كانوا "يزدادون مع الأيام علوًا وكبرياء وبعد فترة كانوا يرفضون السير على أقدامهم حتى ولو لمسافات قصيرة "، إذ كانوا يتخذون من ظهور الهنود مطايا، أو يجلسون على محفات يتناوب الهنود حملها، وفى هذه الحالة كان على نفر من الهنود أن يحملوا فروعًا من الشجر كثيفة الأوراق يحمون بها راكبى المحفات من لفح الشمس، بينما كان على آخرين أن يتخذوا من أجنحة الإوز مراوح تلطف الجو للراكبين. وكان من شأن هذه الهيمنة الكاملة للإسبانيين على الهنود أن تولد فيهم وحشية كاملة أيضًا؛ فلم يهتز للإسبانيين طرف وهم يطعنون عشرات الهنود، ولم تهتز ضمائرهم وهم يقتطعون من أجسام الهنود شرائح، كى يختبروا بها مدى حدة نصالهم. ويحكى لاس كاساس كيف "تقابل ولدان من الذين يسمون أنفسهم مسيحيين مع ولدين هنديين يحمل كل منهما ببغاء، فما كان من الولدين المسيحيين إلا أن أخذا الببغاءين لنفسيهما، وعلى سبيل التسرية والمزاح، قاما بضرب عنقى الولدين الهنديين."

ولما باءت كل محاولات الهنود للدفاع عن أنفسهم بالفشل ، كان الملاذ الوحيد لهم هو الفرار، وكانوا إذا فروا، وجدوا دائمًا من يقتفى أثرهم ويجهز عليهم. ولذلك - كما يخبرنا لاس كاساس - فقد "عانوا معاناة شديدة، وماتوا فى المناجم وفى أعمال أخرى ميتةً صامتةً يائسةً؛ إذ لم يكن فى كل هذا الكون من يتوجهون إليه طلبًا للعون والمساعدة." ويصف لاس كاساس أحوال الهنود فى المناجم قائلاً:

> **كان يتم تقسيم الجبال من القمة حتى القاع، ومن القاع حتى القمة، وذلك عن طريق وضع علامات كالخطوط. وكان على الهنود أن يحفروا، ويكسروا الصخور، وينقلوا الأحجار، وينقلوا التراب والوحل على ظهورهم إلى الأنهار وذلك من أجل غسله والكشف عن قطع الذهب فيه. أما الذين يقومون بغسل الذهب، فتظل ظهورهم محنية طول الوقت تكاد تنكسر. وإذا تصادف وغمرت المياه المناجم، يكون على الهنود أكثر الأعمال مشقة، وهو تجفيف المناجم بحرص شديد، وذلك عن طريق نزحها بالأوعية الصغيرة كى لا يضيع الذهب مع الماء... .**

وكان على أفراد كل طاقم من العمال الهنود أن يقوموا بهذه الأعمال طيلة ستة أو ثمانية أشهر، يكونون قد جمعوا فيها ماهو مطلوب منهم من الذهب. وبانقضاء هذه المدة، يكون ثلث العاملين فى المناجم قد لاقوا حتفهم. وبينما كانت هذه مهمة الرجال من الهنود، فقد بقيت الزوجات لرعاية الأرض والزراعة، وكان يتم إجبارهن على تهيئة آلاف الهضاب الصغيرة من أجل زراعة نبات الكاسافا الذى يستخرج منه النشا. ويقول لاس كاساس:

> **وهكذا فلم يكن شمل الأسرة الهندية - زوجا وزوجة ليجتمع إلا مرة واحدة كل ستة أو ثمانية أشهر، ويكون قد بلغ منهما التعب والإحباط مبلغهما... وبالتالى قلّ التكاثر. أما الرضع، فكانوا يموتون فى سن مبكرة، لأن الأمهات، بسبب عملهن الذى يفوق الطاقة وبسبب سوء التغذية، لم تكن تدر من اللبن ما يكفى لتغذية أطفالهن. ولقد رأيت بنفسى، عندما كنت فى كوبا، سبعمائة طفل يموتون بهذا السبب فى ثلاثة أشهر فقط، حتى بلغ اليأس ببعض الأمهات أن قمن بإغراق أطفالهن... وبهذه الطريقة، مات الأزواج فى المناجم، وماتت الأمهات فى العمل،**

ومات الأطفال من نقص اللبن... وفى وقت قصير حُرمت هذه الأرض، التى كانت يومًا عظيمة وعفية وخصبة... من أهلها... إننى أرى أن هذه الأفعال بعيدة وغريبة عن الطبيعة البشرية، وإن جسدى لينتفض الآن وأنا أخط هذه الكلمات...

ويقول كاساس إنه عندما وصل إلى هسبانيولا فى عام ١٥٠٨ "كان يعيش على هذه الجزيرة ستون ألفًا من البشر، بما فيهم الهنود، وذلك لأن ثلاثة ملايين من البشر قد ماتوا مابين عامى ١٤٩٤ و ١٥٠٨ إما فى الحرب، أو فى المناجم، أو بسبب العبودية. وإنى لأسأل: من من أجيال المستقبل سيصدق ذلك؟ إننى نفسى، وأنا شاهد عيان مطلع، لا أكاد أصدق ذلك وأنا أكتبه..."

هكذا، ومنذ خمسة قرون، بدأ تاريخ الغزو الأوروبى للمستوطنات الهندية فى الأمريكتين. وهذه هى بداية الغزو والعبودية والموت. ويكفى دليلاً على ذلك أن تقرأ لاس كاساس، حتى لو كانت هناك مبالغات فى الأرقام التى أوردها فى كتابه. فهل كان هناك حقًا ثلاثة ملايين هندى كما يقول، أم أن الهنود كانوا أقل من المليون كما أحصى بعض المؤرخين، أم أنهم كانوا ثمانية ملايين كما يعتقد البعض الآن؟" والملاحظ أن كتب التاريخ التى يدرسها تلاميذ المدارس فى الولايات المتحدة، تبدأ كلها بمغامرة بطولية - لاسفك فيها للدماء - و"يوم كولومبس" هو أحد الاحتفالات القومية. أما فيما عدا التعليم الأساسى، فلا توجد إلا إشارات أو تلميحات عرضية عن "شئ آخر".

وكان صامويل إليوت موريسن Samuel Eliot Morison، مؤرخ هارفارد الشهير، أبرز من كتب عن كولومبس، إذ كتب سيرته فى مؤلّف متعدد الأجزاء. وكان موريسن نفسه بحارًا، وقد قام بنفس رحلة كولومبس عبر الأطلنطى. وفى كتابه الشهير **كريستوفر كولومبس بحارًا** Christopher Columbus, Mariner، والذى انتهى منه فى عام ١٩٥٤، يتناول موريسن عمليات الاستعباد والقتل التى حدثت على أيدى كولومبس قائلاً: "لقد أدت السياسة الوحشية التى بدأها كولومبس، واتبعه فيها من خلفوه، إلى

الإبادة الكاملة". وقد قال موريسن ذلك فى صفحة واحدة، مدفونة بين سطور وصفحات قصة بطولية عظيمة. ويلخص موريسن، فى آخر فقرة من الكتاب، رأيه فى كولومبس قائلاً:

> **كانت لكولومبس أخطاؤه وعيوبه، لكنها كانت فى الأساس عيوب الصفات التى جعلت منه إنسانًا عظيمًا؛ وهى صفات تمثلت فى إرادته الصلبة وإيمانه العظيم بالله والمهمة التى قام بها كمبشر بالمسيح فى بلاد ما وراء البحار ومثابرته الشديدة فى تحقيق أهدافه، رغم الإهمال والفقر وتثبيط الهمة. لكن لم يكن هناك عيب أو جانب مظلم فى أبرز وأهم صفاته؛ ونقصد بذلك براعته فى الملاحة.**

وربما يستطيع المرء أن يكذب على الماضى، أو أن يسقط حقائق من شأنها أن تؤدى إلى نتائج قد لا يقبلها. والحق أن موريسن لم يفعل هذا ولا ذاك. فهو يرفض أن يكذب فى قصة كولومبس، كما إنه لا يسقط قصة القتل الجماعى التى قام بها كولومبس وأعوانه ضد سكان الأرض الأصليين، بل إنه يصف هذه العملية بأكثر الكلمات قسوة وهى الإبادة. لكنه يفعل شيئًا آخر. إنه يذكر الحقيقة سريعًا، ثم ينصرف إلى أشياء أخرى أكثر أهمية بالنسبة له. وللكذب الصريح ولإسقاط بعض الحقائق ميزة كبيرة، تتمثل فى إثارة القارئ ضد الكاتب الذى يكذب أو يسقط الحقائق. لكن أن تذكر الحقائق، ثم تدفنها وسط ركام هائل من المعلومات، فإن هذا يعنى أنك تقول للقارى بهدوء (نعم، لقد حدث قتل جماعى لكنه ليس بهذه الدرجة من الأهمية بحيث يؤثر فى أحكامنا النهائية، كما أنه لاينبغى أن يؤثر فينا تأثيرًا كبيرًا) .

وليست المشكلة أن المؤرخ بوسعه أن يظهر ويؤكد بعض الحقائق ويسقط أخرى، وذلك لأن هذا أمر طبيعى بالنسبة له كما هو بالنسبة لصانع الخرائط الذى لابد أن يسطح من شكل الأرض وربما يشوهها أولاً، من أجل الوصول إلى رسم محدد

لأغراض محددة، ثم اختيار العناصر التى يحتاجها من بين ركام المعلومات الجغرافية من أجل تحديد الغرض من رسم هذه الخريطة أو تلك. ما أقوله إذن ليس ضد الانتقاء أو التبسيط أو التوكيد، وهى أشياء حتمية لكل من مصممى الخرائط والمؤرخين. لكن التشويه الذى يقع لشكل الأرض على يد مصمم الخرائط، إنما هو ضرورة فنية من أجل تحقيق هدف عام لكل من يحتاجون إلى الخرائط .

أما عندما يقع هذا التشويه على يد المؤرخ، فإنه يكون أكثر من ذلك. إنه تشويه إيديولوجى، يخرج إلى عالم من المصالح المتعارضة والمتصارعة، حيث يخدم أى توكيد أو إظهار لبعض الحقائق "سواء يعنيه المؤرخ أو لا يعنيه" مصلحة ما، سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو عرقية أو قومية أو حتى جنسية.

وعلاوة على ذلك، فإن هذا الهوى الإيديولوجى لا يتم التعبير عنه بوضوح، كما هو الحال مع مصمم الخرائط الذى يكون غرضه الفنى واضحًا "هذا إسقاط ميركاتورى للملاحة طويلة المدى، أما بالنسبة للملاحة قصيرة المدى، يفضل استخدام إسقاط مختلف". لكن ذلك الهوى الإيديولوجى يُعرض وكأن لكل قراء التاريخ غرضًا عاما على المؤرخين أن يبذلوا ما وسعهم من جهد من أجل تحقيقه. على أن هذا لايعد خداعًا متعمدًا؛ فلقد تربى المؤرخ وتدرب فى مجتمع يقدم التعليم والمعرفة كمشاكل فنية، وليس كأدوات أو وسائل تخدم الطبقات الاجتماعية أو الأجناس أو الأمم المتنافسة. ولذلك فإننى أرى أن التأكيد على إبراز بطولية كولومبس وأتباعه كملاحين ومكتشفين والتهوين من جرائم الإبادة التى ارتكبوها ليس ضرورة فنية، إنما هو اختيار إيديولوجى يقدم تبريرًا لما حدث. وليس معنى كلامى أننا يجب - فى كتابتنا للتاريخ - أن نتهم ونحاكم وندين كولومبس غيابيًا فهذا أمر فات أوانه، ولن يكون إلا تمرينًا أكاديميًا عديم الجدوى. المشكلة تكمن فى القبول السهل لفكرة أن الفظائع التى ارتكبت، كانت - رغم فظاعتها - ضرورية وثمنًا كان لابد من دفعه من أجل التقدم. ولازالت مصداقية هذه الفكرة قائمة معنا حتى اليوم (حدث ما حدث فى هيروشيما وفيتنام من أجل إنقاذ الحضارة الغربية؛ وكان ما حدث فى المجر وجزيرة كرونشتات

من أجل إنقاذ الاشتراكية؛ أما الانتشار النووى، فإنه من أجل إنقاذنا جميعًا!) ويكمن أحد أسباب استمرار هذه الفظائع معنا حتى اليوم فى أننا تعلمنا كيف نقوم بدفنها وسط حقائق أخرى كما يتم دفن النفايات النووية فى حاويات بباطن الأرض. لقد تعلمنا أن نولى هذه الفظائع والجرائم نفس النسبة من الاهتمام الذى يوليه المدرسون والكتاب فى أكثر الكتب والفصول الدراسية احترامًا. والمفارقة أن كلام الباحثين، الذى تمليه موضوعيتهم الظاهرة، يقبله الناس بسهولة لايقبلون بها كلام السياسيين فى المؤتمرات الصحفية. ومن هنا كان كلام الباحثين أكثر خطورة.

وتمثل طريقة النظر إلى الأبطال "كولومبس" وضحاياهم "هنود أراواك" - أى القبول الهادئ للغزو والقتل باسم التقدم - ملمحًا واحدًا من ملامح أحد مداخل التاريخ، وهو المدخل الذى يحكى فيه الماضى من وجهة نظر الحكومات والمنتصرين والدبلوماسيين والقادة. ويبدو الأمر وكأن هؤلاء يستحقون - ككولومبس - قبولاً عالميًا، أو كأن هؤلاء - الآباء المؤسسين، جاكسون، ولنكولن، وروزفلت، وكيندى، وأعضاء الكونجرس البارزين، ومشاهير قضاة المحكمة الدستورية العليا - يمثلون الأمة جميعها ومن ثم يكون الادعاء بأن هناك بالفعل شيئًا اسمه "الولايات المتحدة"، وأن المجتمع الأمريكى، رغم الصراعات والاختلافات العرضية، يتكون بشكل أساسى من مجموعة من البشر تجمعهم مصالح مشتركة، وكأن هناك بالفعل "مصلحة قومية" تتمثل فى الدستور والتوسع الإقليمى والقوانين التى يصدرها الكونجرس وقرارات المحاكم وتنمية النظام الرأسمالى وثقافة التعليم ووسائل الإعلام.

وفى أول كتاب صدر له بعنوان **عالم مستعاد** A World Restored، كتب هنرى كيسينجر يقول: "التاريخ هو ذاكرة الدول"، وفيه انطلق المؤلف مستعرضًا تاريخ أوروبا القرن التاسع عشر، من وجهة نظر قادة النمسا وإنجلترا، متجاهلاً الملايين التى عانت من سياسات هؤلاء القادة. وتتمثل وجهة نظر كيسينجر فى أن "السلام" الذى كان يسود أوروبا قبل الثورة الفرنسية، قد تمت "استعادته" عن طريق الجهود الدبلوماسية لعدد من القادة القوميين. لقد كان هذا العالم الذى يتحدث عنه كيسينجر، بالنسبة

لعمال المصانع فى إنجلترا والفلاحين فى فرنسا والملونين فى آسيا وإفريقيا والنساء والأطفال فى كل مكان - باستثناء الطبقات الغنية - عالمًا من الغزو والجوع والاستغلال. لم يكن ذلك عالمًا "مستعادًا "، بل عالمًا مفسخًا.

وتختلف وجهة نظرى، بخصوص كتابة تاريخ الولايات المتحدة، اختلافًا جذريًا عن هذا الكلام. وتتلخص وجهة نظرى هذه فى أنه لا ينبغى النظر للتاريخ حسب التعريف الذى ذكره هنرى كيسينجر. فليست الأمم - ولم تكن فى يوم من الأيام - مجرد جماعة من الجماعات. إن كتابة تاريخ أية دولة على أنه تاريخ أسرة ما مثلاً، إنما يخفى التصارع الحاد للمصالح بين المنتصرين والمهزومين، بين السادة والعبيد، بين أصحاب رؤوس الأموال والعمال، وبين المستبدين والمظلومين سواء فى العرق أو الجنس. وفى عالم متصارع كهذا العالم؛ عالم الجلادين والضحايا، يكون دور المفكرين، حيث يتوجب عليهم - كما يقول ألبير كامو - ألا يقفوا إلى جوار الجلادين، وبالتالى فإننى أفضل، فى ظل حتمية اختيار الوقوف إلى جوار الجانبين وهو الاختيار الذى يأتى من انتقاء بعض حوادث التاريخ وتأكيدها، أن أحكى قصة اكتشاف أمريكا كما رآها هنود أراواك، وأن أحكى عن الدستور من وجهة نظر العبيد، وعن آندرو جاكسون من خلال عيون هنود الشيروكى، وعن الحرب الأهليه كما رآها الأيرلنديون الذين كانوا يقطنون نيويورك. وكذلك أفضل أن أكتب عن الحرب المكسيكية كما رآها جنود جيش سكوت الهاربون، وعن ازدهار التصنيع كما رأته الشابات العاملات فى مصانع لويل للنسيج، وعن الحرب الإسبانية ـ الأمريكية كما رآها الكوبيون، وعن غزو الفلبين من خلال عيون الجنود السود على جزيرة لوزون. وأفضل الكتابة عن الحرب العالمية الأولى كما رآها الاشتراكيون، والحرب العالمية الثانيه كما عاشها دعاة رفض حمل السلاح، وأفضل الكتابة عن الصفقة الجديدة **New Deal** من خلال عيون السود فى هارلم، وعن الإمبراطورية الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية كما يراها الكادحون من شعوب أمريكا اللاتينيه وهكذا .. وذلك إلى الدرجة التى يستطيع بها أى شخص أن "يرى" التاريخ من وجهة نظر "الآخرين".

ولست أقصد بوجهة نظرى تلك التأسى على الضحايا وإدانة الجلادين؛ فمن شأن الدموع والغضب لأحداث الماضى أن تستنزف طاقتنا الأخلاقية تجاه الحاضر. والحقيقة أن الخطوط ليست واضحة دائمًا؛ إذ إن المضطَّهِد ضحية أيضًا. وعلى المدى القصير (وهو المدى الذى لم يعرف التاريخ البشرى غيره حتى الآن) يتحول الضحايا، نتيجة يأسهم وتلوثهم بالثقافة التى تقهرهم، إلى ممارسين للقهر ضد ضحايا آخرين. وانطلاقًا من فهم المواقف المعقدة، فلن يسلم هذا الكتاب من كلام الحكومات الأمريكية المتعاقبة، ومحاولاتها - من خلال السياسة والثقافة - الإيقاع بالناس العاديين فى شراك الأممية تحت زعم مايسمى بالمصلحة المشتركة. كما إننى فى كتابى هذا، لن أتغافل عن القسوة أو الوحشية التى يمارسها الضحايا بعضهم ضد بعض، نتيجة وقوعهم جميعًا تحت قبضة النظام. ورغم أننى لا أود أن أنظر إلى الضحايا نظرة مثالية رومانتيكية، فإننى أذكر جيداً معنى عبارة قرأتها، تقول: "ليست صرخة الفقراء عادلة دائمًا، لكنك إذا لم تنصت إليها، فلن تدرك أبداً ماذا يعنى العدل."

لا أريد أن أدعى انتصارات للحركات التى قام بها الناس، لكننا إذا اعتقدنا أن كتابة التاريخ تهدف ببساطة إلى عرض أو تلخيص الإخفاقات التى تهيمن على الماضى، فإننا بذلك نجعل من المؤرخين مشاركين فى دائرة لا تنتهى من الهزائم. وإذا كان للتاريخ أن يكون خلاقًا وقادراً على التنبؤ بمستقبل مستطاع، فإن عليه، من وجهة نظرى، أن يؤكد على وجود احتمالات جديدة عن طريق الكشف عما تم إخفاؤه من أحداث الماضى، حيث أظهر الناس، حتى ولو فى ومضات تاريخية قصيرة، قدرتهم على المقاومة والتلاحم والتضامن من أجل النصر. إننى أفترض، أو ربما آمل فقط، أننا ربما نجد مستقبلنا فى لحظات الماضى القصيرة التى سادتها الرحمة والشفقة، أكثر مما نجده فى قرونه المتعاقبة من الحرب والقتال. هذا هو مدخلى - دون مواربة - لرؤية وكتابة تاريخ الولايات المتحدة وأفضل للقارئ أن يدرك ذلك قبل أن يستمر فى القراءة.

إن ما قام به كولومبس ضد هنود أراواك بجزر الباهاما، هو نفس مافعله كورتيس Cortes ضد هنود "الأزتيك" بالمكسيك، وما فعله بيزارو Pizarro ضد هنود "لانكا" في بيرو، وهو أيضًا نفس ما قام به المستوطنون الإنجليز في فرجينيا وماساتشوستس ضد هنود "بواتن" و "بيكوت".

لقد خرجت حضارة آزتيك بالمكسيك من تراث الثقافات المايانية والزابوتكية والتولتكية، وشيدت هذه الحضارة معمارًا عظيمًا، ووضعت نظامًا للكتابة ونظامًا للعبادة. وعلينا ألا نغفل أن هذه الحضارة تضمنت القتل الطقسي لآلاف من البشر، من أجل تقديمهم قرابين للآلهة. بيد أن هذه القسوة وتلك الوحشية لم تمح درجة من البراءة لدى الآزتيكيين؛ فعندما وصل الأسطول الإسباني إلى "فيراكروز"، وخرج رجل ذو لحية بيضاء إلى الشاطئ، مصطحبًا بعض الحيوانات الغريبة "الخيول"، اعتقد الآزيتكيون أن هذا الرجل هو الإله الأسطورى المكتنف بالأسرار كتيزال كوتل Quetzalcootl الذى مات قبل ثلاثمائة عام، على وعد بالعودة، ولذلك، رحبوا به واستقبلوه بكرم فياض.

ولم يكن هذا "الإله الأسطورى" سوى فرناندو كورتيس الذى جاء من إسبانيا على رأس حملة مولها التجار وملاك الأراضى، وباركها رجال الله، وكان هدفها الأوحد هو البحث عن الذهب. بيد أن درجة من الشك لابد قد تسربت إلى قلب "مونتزوما" ملك الآزتيكيين، فلقد شك الرجل فى أن "كورتيس" هو إلههم الأسطورى " كتيزال كوتل"، لأنه أرسل إلى "كورتيس" مائة رجل يحملون الكنوز والذهب والفضة فى أشكال رائعة الجمال، لكنه فى الوقت نفسه، توسل إليه أن يعود من حيث جاء.

بيد أن كورتيس بدأ مسيرة القتل من بلدة لأخرى، مستعينًا بالخداع وتحريض الآزتيكيين بعضهم ضد بعض، ومتخذًا من القتل المتعمد استراتيجية تهدف إلى شل إرادة سكان الأرض الأصليين، عن طريق ارتكاب أعمال مفاجئة تبث الرعب فى قلوبهم. وكذلك فعل فى "تشولولو" حيث دعا كبارها إلى ما يشبه الميدان العام، وعند وصولهم ومعهم الآلاف من تابعيهم العزل، انتشر جيش "كورتيس" الصغير حول

الميدان، وأقدم أفراد ذلك الجيش بمدافعهم وسهامهم على قتل وذبح كل المدعوين حتى آخر رجل فيهم. ثم قاموا بالسطو على المدينة وفروا هاربين. وعندما انتهى موكب القتل، كان أفراد الجيش قد وصلوا إلى"مكسيكو سيتى"، وكان الملك "مونيتزوما" قد سقط قتيلاً، وكانت الحضارة الآزتيكية قد تهدمت وسقطت فى أيدى الإسبانيين. ولقد ورد كل هذا فى وثائق الإسبانيين أنفسهم.

وفى بيرو، لجأ الفاتح الإسبانى بيزارو إلى الأساليب نفسها، مدفوعًا بالأسباب نفسها، والتى تمثلت فى هوس دول أوروبا، فى بداية تطور الرأسمالية، بجمع الذهب واقتناء العبيد، وجلب منتجات الأرض وذلك من أجل دفع الأموال لأصحاب الأسهم فى الحملات الاستكشافية وتمويل البيروقراطيات الملكية التى بدأت فى الظهور فى أوروبا الغربية، وكذلك من أجل إعطاء دفعة قوية لاقتصاد الأموال الجديدة الناشئة من نظام الإقطاع، والمشاركة فيما سوف يسميه كارل ماركس فيما بعد "التراكم الطبيعى لرأس المال." كانت هذه هى البدايات العنيفة والقاسية لنظام صارم معقّد قائم على التقنية والتجارة والسياسة والثقافة. وهذا هو النظام الذى كان من شأنه أن يهيمن على مقدرات العالم على مدار القرون الخمسة التالية.

وفى المستعمرات الإنجليزية بأمريكا الشمالية، اتبع المستعمرون النظام نفسه الذى وضعه كولومبس بجزر الباهاما. ففى عام ١٥٨٥، وقبل أن تكون هناك أية مستعمرة إنجليزية دائمة فى فرجينيا، وصل ريتشارد جرينفل على رأس سبع سفن. ورغم الكرم الشديد الذى أبداه الهنود تجاه جرنفل ومن معه، فإنه لم يتورع - عندما سرق أحد الهنود كوبًا فضيًا صغيرًا - عن إشعال النار فى القرية الهندية كلها.

وأُقيمت جيمس تاون نفسها داخل الأراضى الإقليمية لتحالف هندى تحت زعامة "بواتن". وكان "بواتن" يراقب الإنجليز وهم يستوطنون أرض شعبه، لكنه لم يهاجمهم واحتفظ بهدوئه. وفرّ بعض الإنجليز، إبان "زمن المجاعة" فى شتاء ١٦١٠، والتحقوا بالهنود طلبًا لما يقيم الأود. ولما جاء الصيف، أرسل حاكم المستعمرة رسولاً إلى "بواتن" طالبا عودة الفارين، فلم يلق الرسول - حسب ما تقوله الوثائق الإنجليزية -

"غير إجابات غلب عليها التكبر والازدراء". ولذلك، أُرسل بعض الجنود من أجل "الثأر من الهنود"، فلما هبط الجنود إحدى القرى ، قتلوا من أهلها خمسة عشر أو ستة عشر فرداً، ثم أشعلوا النار فى البيوت وخربوا حقول الذرة حول القرية، وخطفوا ملكة القبيلة وأطفالها فى قارب، وانتهت هذه العملية بإلقاء الأطفال فى الماء ثم "إطلاق النار على رؤوسهم وهم يصارعون الغرق." أما الملكة، فقد نزع الجنود ملابسها وراحوا يطعنونها حتى الموت. وبعد اثنى عشر عامًا، زاد انزعاج الهنود من تزايد عدد المستوطنات الإنجليزية، فقرروا أن يقضوا على هذه المستوطنات تمامًا. ولذلك قاموا بثورة كبيرة قتلوا فيها ثلاثمائة وسبعة وأربعين من رجال ونساء وأطفال المستعمرات. وكان ذلك إيذانًا ببدء حرب شاملة بين الهنود والمستوطنين.

ونتيجة لعجز الإنجليز عن استعباد الهنود أو العيش معهم، فقد قرروا أن يبيدوهم؛ ففى كتابه عن بدايات فرجينيا **العبودية الأمريكية، الحرية الأمريكية** **American Slavery, American Freedom**، يقول إدموند مورجان:

> **لما كان الهنود أكثر دراية بشعاب الغابات من الإنجليز، بدرجة يستحيل معها اقتفاء أثرهم، فقد دأبوا على التظاهر بأن نواياهم طيبة. كانوا يتركون الإنجليز يستوطنون ويزرعون الذرة أينما أرادوا. وقبيل الحصاد مباشرة، ينقضون عليهم، ويقتلون منهم ما استطاعوا، ويحرقون المحصول... لكن الأمر لم يتوقف عند ذلك ؛ ففى خلال سنتين أو ثلاث سنوات من هذه المذبحة، ثأر الإنجليز لقتلاهم مرات ومرات.**

وفى العام الأول لوجود الرجل الأبيض فى فرجينيا، أى فى عام ١٦٠٧، أرسل "بواتان" التماسًا إلى جون سميث كان بمثابة نبوءة. ربما كان ثمة شك فى مدى صدق هذا الالتماس التاريخى، لكنه يشبه المقولات الهندية العديدة، حتى يوشك أن يكون بمثابة الروح الرقيقة لكل تلك المقولات. يقول الزعيم الهندى فى التماسه:

شهدتُ موت جيلين من شعبى... وأعرف كما لم يعرف أحد فى بلادى الفرق بين السلام والحرب. وبلغ منى الكبر مبلغه وأوشكت على الموت، ولابد أن تؤول سلطتى إلى إخوتى "أوبتشابان"، "وأوبتشانكانو"، و"كاتاتو"، ثم تؤول بعد ذلك إلى أختى، ثم إلى ابنتىّ. وإنى لأتمنى أن يعرفوا قدر ما أعرف. أتمنى أن يعرفوا أن حبك لهم ربما يكون كحبى لك. فلم تأخذ بالقوة مايمكنك أخذه بالحب؟ ولماذا تستمر فى تحطيمنا نحن الذين نمدك بالطعام؟ ما الذى تستطيع أخذه عن طريق الحرب؟ إن باستطاعتنا أن نخفى كل المؤن فى الغابات، وسوف تموت جوعًا نتيجة إساءتك لأصدقائك. لماذا تغار منا؟ إننا لا نحمل سلاحًا، ونحن مستعدون أن نعطيك ما تطلب، على شرط أن تأتينا بطريقة ودية، وليس بتلك الطريقة التى تنم عن جهل بأننى أفضل أن أتمتع بأكل اللحم الطيب، وأن أنام فى راحة، وأن أعيش فى هدوء وسكينة مع زوجاتى وأطفالى، وأن أمرح وأتضاحك مع الإنجليز، وأن أتعاون معهم فى تجارة النحاس والفؤوس، عن أن أهرب منهم وأرقد فى البرد القارس بالغابات، وأتغذى على ثمار البلوط وجذور الشجر أو ما شابه ذلك، أو أن أكون مستهدفًا وفريسة للصيد، فلا أستطيع الأكل أو النوم. ففى مثل هذه الحروب التى بيننا، لابد أن يظل رجالى ساهرين لرصد أية تحركات، وإذا انكسر فرع شجرة، يصرخون مفزوعين "هاهو الكابتن سميث قد وصل!" ولذا فلابد أن أنهى حياتى التعسة. فإما أن تقوموا بإبعاد أسلحتكم وسيوفكم عنا، وإلا متم جميعًا بالطريقة نفسها .

وعندما وصل الحجاج البيوريتانيون إلى "نيو إنجلاند"، لم ينزلوا بأرض خالية من البشر، بل كانت عامرة بقبائل الهنود، غير أن حاكم مستعمرة Massachusetts Bay، وهو رجل الدين جون ونثروب قدم تبريراً غريبًا من أجل استيطان الأرض، حيث قال بأن المنطقة تعد "خاوية" من الناحية القانونية، وقال إن الهنود لم يقوموا بعملية "إخضاع" للأرض، ولذلك كان لهم فيها حق "طبيعي" لكنه ليس "حقًا مدنيًا"، وليس "للحق الطبيعي" سند قانوني. وعاش البيوريتانيون، الذين كانوا يستوطنون ما هو معروف اليوم بجنوب ولاية كنيتكيت وورود آيلاند، فى هدنة عسيرة مع هنود بيكوت. لكن الهنود كانوا يريدون استرداد أرضهم وإزاحة المستوطنين من طريقهم، وكانوا يتمنون فرض حكم صارم على المستوطنين بهذه المناطق. وكان مقتل تاجر أبيض، عرف عنه خطف الهنود وإثارة الشغب ضدهم، مبرراً لشن الحرب على هنود بيكوت فى عام ١٦٣٦ . وبدأت حملة تأديبية من بوسطن من أجل مهاجمة هنود "ناراجانست" فى بلوك آيلاند، وكان معروفًا عنهم تكتلهم مع هنود بيكوت. وكتب الحاكم ونثروب يقول:

> **كان على أفراد هذه الحملة مهاجمة بلوك آيلاند، وقتل الرجال والنساء والأطفال، واحتلال الجزيرة، ثم التوجه من هناك إلى هنود بيكوت من أجل المطالبة بتسليم قاتلى الكابتن ستون وإنجليز آخرين، وكذلك المطالبة بألف فرسخ من العقود الصدفية كتعويض للخسائر التى لحقت بهم... إلخ هذا بالإضافة إلى خطف بعض أطفال هنود بيكوت كرهائن، وإذا رفض الهنود هذه المطالب، فسوف يحصل عليها أفراد هذه الحملة بالقوة.**

ووصل الإنجليز إلى حيث هنود بيكوت، وقتلوا بعضًا منهم، غير أن الباقين فروا إلى الغابات الكثيفة، وخرج الإنجليز من قرية مهجورة إلى أخرى وهم يخربون المحاصيل، ثم أغاروا على قرى هنود بيكوت المحازية للساحل، وهم يخربون ويدمرون ماتقع عليه عيونهم من محاصيل. ويذكر أحد ضباط هذه الحملة فى مذكراته عبارات

لا تخلو من مغزى: "خرج الهنود الذين شاهدونا، فى أعداد غفيرة بمحاذاة مياه الساحل، وهم يصيحون "يا للفرحة! إنجليز! ماذا تودون؟" لم يدر فى بال هؤلاء أننا جئنا لمحاربتهم، واستمروا فى صياحهم المبتهج ... ."

وهكذا بدأت الحرب مع هنود بيكوت، ووقعت المذابح بين الطرفين. ولقد طور الإنجليز أسلوباً للحرب، كان الإسبانى كورتيس قد استخدمه من قبل، ثم استُخدم بعد ذلك فى القرن العشرين، وبطريقة أكثر تنظيماً. ويتمثل هذا التكتيك فى شن هجمات ضد العزّل وغير المحاربين من أجل إرهاب العدو. ويقدم المؤرخ فرانسيس جيننجس Jennings وهو من هنود بيكوت تفسيراً لهجوم الكابتن جون ماسون على إحدى قرى هنود بيكوت بالقرب من "لونج آيلاند ساون"، قائلاً :

> **"اقترح ماسون تجنب مهاجمة المحاربين البيكوت، لأن ذلك كان كفيلاً بإرهاق قواته محدودة الخبرة. لم تكن معركة مثل هذه هى غرض ماسون. ولما كانت المعركة هى إحدى الطرق لتحطيم إرادة العدو فى الحرب، فإن مذبحة واحدة تستطيع أن تحقق الهدف نفسه وبمخاطرة أقل، ومن هنا كان عزم ماسون أن تكون المذبحة هى هدفه الواضح."**

وبناء على ذلك، أضرم الإنجليز النار فى أكواخ القرية. وحسب ما جاء فى وثائقهم نفسها:، قال الكابتن أيضاً: "لابد أن نحرقهم. ودخلنا مباشرة إلى الكوخ، وأتينا بجمرة من النار، وأشعلناها فى الحصير والقش الذى يغطى الأكواخ ثم قمنا بإحراق الأكواخ جميعاً." وفى كتابه تاريخ **مزرعة بليموث** History of the Plymouth Plantation، الذى كتبه فى ذلك الوقت، يصف وليم برادفورد Bradford غارة جون ماسون على إحدى قرى هنود بيكوت :

> **كان نصيب من هربوا من النيران هو القتل بالسيف، حتى صار بعضهم مجرد أشلاء، ولم ينج منهم إلا قليلون. وقُدّر عدد من ماتوا فى هذه المرة بأربعمائة. كان مشهد موتهم مخيفاً وهم**

يتقلبون وسط النيران، ورائحة كريهة تنبعث من أجسادهم المحترقة. لكن النصر بدا كفداء جميل. وتم تقديم الشكر إلى الرب، الذى كان عونه عظيمًا ورائعًا، إذ أوقع بالأعداء بين يدى جنوده، ومنح جنوده نصرًا سريعًا على عدو متغطرس.

وكما جاء فى مذكرات عالم اللاهوت البيوريتانى الدكتور كوتون ماثر Cotton Mather " يفترض أن عدد من ذهبوا إلى نار جهنم فى ذلك اليوم، من هنود بيكوت، لا يقل عن ستمائة."

واستمرت الحرب، وقام الإنجليز بتأليب القبائل الهندية بعضها ضد بعض، ولم يبد على هذه القبائل أى أمل فى التلاحم لقتال الإنجليز. ويلخص جينينجس Jennings الموقف قائلاً:

كان الرعب الذى دب بين الهنود عظيمًا، لكنهم استطاعوا أن يدركوا أسباب هذا الرعب فى حينه. لقد خرجوا من حرب البيكوت بدروس ثلاثة: أولها أن الإنجليز لا عهد لهم وأنهم يحنثون بالعهد إذا تعارض مع مصالحهم، والثانى أن طريقتهم فى الحرب لا تعرف هوادة ولا رحمة كما أنها بلا حدود. والثالث أن أسلحة الهنود لاقيمة لها إذا ما قورنت مع الأسلحة الأوربية. ولقد حفظ الهنود هذه الدروس عن ظهر قلب.

ويقول أحد الهوامش فى كتاب فيرجل فوجيل Virgil Vogel وعنوانه **هذه الأرض كانت لنا** This Land Was Ours (١٩٧٢) تقول الأرقام الرسمية إن ما بقى اليوم من هنود بيكوت فى ولاية كنيتكيت هم واحد وعشرون شخصاً."

وبعد أربعين عامًا من حرب بيكوت، عاد القتال مرة أخرى بين البيوريتانيين والهنود الحمر، وكان الدور على هنود "وامبا نواج" الذين كانوا يقطنون الشاطئ الجنوبى لخليج ماساتشوستس، وكان هؤلاء الهنود قد بدأوا فى بيع أراضيهم لمن هم

خارج نطاق المستعمرة. كان زعيم هؤلاء الهنود ويدعى ماساسويت، قد مات، وقام الإنجليز بقتل ابنه "وامسوتا"، وأصبح أخوه "ميتاكم" (الذى أطلق عليه الإنجليز فيما بعد لقب الملك فيليب) زعيمًا. ولم يعدم الإنجليز ذريعة من أجل محاربة هنود وامبانواج بهدف مصادرة أراضيهم؛ فقد اتهموا الزعيم ميتاكم بارتكاب جريمة قتل، وكان هذا هو السبب وراء شنهم الحرب على الهنود. وكان واضحًا أنهم المعتدون، لكنهم زعموا أنهم قاموا بالحرب لأغراض دفاعية وقائية. وكما يقول روجر وليامز، وهو الأكثر إبداء للود تجاه الهنود: "يسافر كل أصحاب الضمير وأهل الحكمة والحصافة ضد مهب الرياح كى تبقى حروبهم دفاعية."

ويقول جينينجس Jennings إن صفوة البيوريتانيين كانوا دائمًا يريدون الحرب بينما لم يكن الإنجليزى الأبيض من البشر العاديين يرغب فى تلك الحرب، وكان غالبًا ما يرفض الاشتراك فيها. ورغم أن الهنود بطبعهم لم يميلوا إلى الحرب، فقد كانوا يردون اعتداءً باعتداء مثله. ولما انتهت الحرب فى ١٦٧٦، جفت موارد الإنجليز رغم أنهم كسبوا الحرب ومات من بينهم ستمائة. وفى الوقت نفسه مات من الهنود ثلاثة آلاف بمن فيهم الزعيم ميتاكم. ورغم كل ذلك، لم تتوقف غارات الهنود على الإنجليز.

ولفترة قصيرة، حاول الإنجليز استخدام أساليب أقل عنفًا، لكن ظل هدفهم الرئيسى هو الإبادة لأهل الأرض الأصليين. وقد قلَّ عدد الهنود الذين كانوا يسكنون شمال المكسيك عند وصول كولومبس من عشرة ملايين إلى أقل من مليون. وماتت أعداد غفيرة منهم بسبب الأمراض التى أتى بها المستعمرون البيض. وكتب أحد الرحالة الهولنديين فى ١٦٥٦ يقول: "يؤكد الهنود... أن عددهم قبل وصول المسيحيين وقبل أن يتفشى مرض الجدرى بينهم كان عشرة أضعاف عددهم الآن، وأن هذا المرض قضى على معظمهم، إذ مات منهم تسعة أعشارهم بسبب هذا المرض." وعندما استوطن الإنجليز جزيرة "مارثا فاينيارد" فى عام ١٦٤٢ كان عدد هنود وامبانواج بها ثلاثة آلاف، ورغم أن هذه الجزيرة لم تعرف الحروب، فإنه لم يبق بحلول عام ١٧٦٤،

سوى ثلاثمائة وثلاثة عشر هنديًا فقط من بين السكان الأصليين. وبالمثل فإنه لم يبق سوى واحد وخمسون هنديًا من سكان بلوك آيلاند فى عام ١٧٧٤ وكان عددهم فى عام ١٦٦٢ يتراوح بين ١٫٢٠٠ و ١٫٥٠٠ .

وكان وراء غزو الإنجليز لأمريكا الشمالية، ومذابحهم ضد الهنود الحمر، وخداعهم ووحشيتهم، ذلك الدافع القوى الذى تغذيه الحضارات القائمة على الملكية الخاصة. بيد أن هذا الدافع كان غامضًا من الناحية الأخلاقية؛ فالحاجة إلى الاتساع والأرض كانت تمثل احتياجًا بشريًا حقيقيًا. ولكن تحولت هذه الحاجة، فى ظروف الندرة فى حقبة زمنية بربرية من التاريخ، إلى عملية قتل لشعوب بأكملها. ويصف روجر وليامز هذه الحال قائلاً:

لقد كانت رغبة محمومة فاسدة تجرى وراء مباهج وأحلام هذه الحياة الفانية. فكان ذلك السعى من أجل الاستحواذ على مساحات شاسعة من الأرض فى هذه القفار، وكأن الناس كانت تدفعهم ضرورة كبرى وعوز شديد للاستحواذ على هذه الأرض وكأنهم مجموعة من البحارة التعساء ضربهم الجوع والظمأ بعد رحلة طويلة كانوا فيها نهبًا للعواصف وأشرفوا خلالها على الموت جوعًا. بدا هذا السعى المحموم للاستحواذ على الأرض وكأنه أحد الآلهة فى نيو إنجلاند، التى سوف يقضى عليها الحى القيوم ويصيب أهلها بالجوع.

والآن: هل كان كل هذا الدم المسفوك وهذا الخداع - من كولومبس إلى كورتيس وبيزارو والبيوريتانيين - ضرورة بالنسبة للجنس البشرى كى ينتقل من طور الهمجية إلى الحضارة؟ هل كان صامويل موريسن - صاحب كتاب كريستوفر كولومبس بحارًا والذى تحدثنا عنه قبل صفحات - على حق حين دفن قصة الإبادة وسط ركام قصة أكثر أهمية، هى قصة التقدم البشرى؟ ربما قدم أحدهم حجة مقنعة كما فعل ستالين عندما قتل الفلاحين من أجل التقدم الصناعى فى الاتحاد السوفيتى، وكما فعل

تشرشل وهو يشرح أسباب إلقاء القنابل على دريسدن وهامبورج، أو كما فعل ترومان وهو يبرر ما حدث فى هيروشيما. ولكن كيف لحجة أو حكم أن يقوم إذا كان من الصعب الموازنة بين المكاسب والخسائر، وذلك لأن الخسائر يتم السكوت عنها أو يتم ذكرها بطريقة عابرة؟

وربما كان هذا الحكم المتعسف مقبولاً من الطبقات العليا والوسطى للدول الغازية و"المتقدمة". ولكن هل يقبل بهذا الحكم فقراء آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية أو سجناء معسكرات العمل الإجبارى السوفيتية، أو السود فى أحيائهم الفقيرة، أو الهنود فى محمياتهم ، أى كل ضحايا هذا التقدم الذى تستفيد منه أقلية قليلة فى العالم؟ هل يقبل بهذا الحكم عمال المناجم وخطوط السكك الحديدية فى الولايات المتحدة وعمال المصانع حيث مات مئات الألوف من الرجال والنساء من جراء المرض أو الحوادث، فى سبيل هذا التقدم؟ وحتى تلك الأقلية ذات الامتيازات الواسعة – ألا تعيد النظر فى قيمة هذه الامتيازات عندما يصبح أفرادها مهددين نتيجة غضب الذين دفعوا ثمن هذه الامتيازات فى شكل تمرد منظم أو فى شكل مظاهرات أو فى شكل ارتكاب أحداث فردية وحشية نتيجة اليأس، وهى الأحداث التى يطلق عليها القانون والدولة لقب "جرائم"؟

وإذا افترضنا أن هناك بالفعل تضحيات ضرورية من أجل التقدم البشرى، ألا يجدر بنا أن نتمسك بمبدأ مفاده أن الذين سيتم التضحية بهم يجب أن يكونوا هم من يتخذون هذا القرار؟ بيدنا جميعاً أن نقرر التنازل عن شئ يخصنا، ولكن هل نملك الحق فى أن نلقى بأطفال الآخرين أو حتى أطفالنا فى المحرقة، فى سبيل تقدم لا يكاد يكون واضحاً أو حاضراً كالمرض والصحة والحياة والموت؟

ما الذى جناه الناس فى إسبانيا من القتل والوحشية اللذين مورسا ضد هنود الأمريكتين؟! لقد كان ثمة مجد لإمبراطورية إسبانية فى نصف الكرة الغربى لفترة قصيرة من الزمن. ويلخص هانز كوننج Hans Koning الموقف فى كتابه **كولومبس ومشروعه** Columbus: His Enterprise قائلاً:

لم يكن من شأن ما سرق من الذهب والفضة وما تم جلبه منهما إلى إسبانيا أن يزيد الشعب الإسبانى غنى. لقد منح الذهب والفضة ملوك إسبانيا دفعة فى ميزان القوة فى العالم لبعض الوقت، إذ منحهم فرصة استئجار عدد أكثر من الجنود المرتزقة للاشتراك فى حروب الإمبراطورية الإسبانية. وانتهى الملوك بخسارة هذه الحرب على أية حال، وكل ما بقى كان يتمثل فى تضخم اقتصادى قاتل، وشعب جائع، وقلة غنية زادت غنى، وكثرة فقيرة زادت فقرًا، وطبقه للفلاحين أصابها الانهيار.

وبالإضافة إلى كل هذا، فلابد من التساؤل إلى أى حد يصل يقيننا بأن ما تم تدميره والقضاء عليه كان هو الأدنى مرتبة؟ من كان هؤلاء الناس الذين خرجوا إلى الشاطئ وقاموا بالسباحة صوب سفن كولومبس وطاقمه كى يقدموا لهم الهدايا، والذين كانوا يشاهدون كورتيس وبيزارو وهم يتجولون فى ريفهم، والذين خرجوا من وسط الغابات للترحيب بالمستوطنين البيض الأوائل عندما وصلوا فيرجينيا وماساتشوستس؟ لقد سماهم كولومبس بالهنود، وذلك لأنه أخطأ فى تقدير حجم الكرة الأرضية. وفى هذا الكتاب، فإننا ندعوهم بالهنود أيضًا، وإن كان ذلك على مضض وذلك لأنه يحدث كثيرًا أن ترتبط شعوب بأسماء يخلعها عليهم من يقومون بغزوهم. بيد أن هناك سببًا فى إطلاق لقب "الهنود" على هؤلاء الناس، لأنهم جاءوا بالفعل من آسيا، منذ حوالى خمسة وعشرين ألف سنة ووصلوا إلى ألاسكا. ثم اتجهوا صوب الجنوب طلبًا للدفء والأرض فى هجرة طويلة استمرت آلاف السنين انتهت بهم إلى أمريكا الشمالية ثم أمريكا الوسطى والجنوبية ولازالت آثار أقدامهم قائمة فى نيكاراجوا والبرازيل وإيكوادور جنبًا إلى جنب مع آثار أقدام البيسون وهو الثور الذى انقرض قبل خمسة آلاف عام، الأمر الذى يؤكد أن الهنود لابد أن يكونوا قد وصلوا أمريكا الجنوبية حول هذا الوقت إن لم يكن قبله.

ومع انتشارهم الواسع فوق أراضى الأمريكتين، بلغ عدد الهنود خمسة وسبعين مليونًا منهم خمسة وعشرون مليون تقريبًا فى أمريكا الشمالية. كان ذلك عندما وصل كولومبس. ونتيجة لتفاعل الهنود مع البيئات المختلفة حولهم ومع المناخ والتربة الزراعية، قامت فيما بينهم مئات الثقافات القبلية، وما يقرب من مائتى لغة مختلفة. لقد أجادوا فن الزراعة واستطاعوا زراعة الذرة، وهو المحصول الذى لا ينمو وحده، بل لابد من زراعته وتخصيبه وحصاده وتخزينه. وقام الهنود أيضًا بزراعة العديد من الخضراوات والفاكهة وكذلك الفول السودانى والتبغ.

واندمج الهنود الحمر، دون اعتماد على أحد، فى الثورة الزراعية العظيمة التى كانت تمر بها شعوب آسيا وإفريقيا وأوروبا فى نفس الوقت. وبينما بقيت قبائل عديدة تعيش على الصيد وجمع الطعام فى جماعات زراعية متنقلة، بدأ آخرون فى الاستقرار فى مجتمعات ثابتة حيث أصبح الطعام أوفر، وعدد السكان أكبر، وتقسيم العمل بين الرجال والنساء ثابتًا ومنظمًا. وكان الفائض فى هذه المجتمعات يكفى لإطعام الزعماء ورجال الدين. وعرفت هذه المجتمعاتِ أوقات الفراغ التى كانت تُخصص للأعمال الفنية والاجتماعية وتشييد المنازل.

وقبل مجىء المسيح بألف عام، وفى الوقت الذى كانت فيه مصر تشيد فنًا ومعمارًا عظيمين، كان هنود الزونى والهوبى (نيو مكسيكو الآن) يشيدون القرى والمبانى ذات الشرفات وسط الجبال والمنحدرات الشديدة وذلك طلبًا للحماية من خطر الأعداء. وقبل وصول المكتشفين الأوربيين، كان الهنود يستخدمون قنوات الرى والسدود، كما كانوا يقومون بصناعة البلاط والسلال، وكذلك صناعة الملابس القطنية.

وبمجىء زمن يوليوس قيصر والمسيح، كانت قد قامت فى منطقة وادى نهر أوهايو حضارة من أطلق عليهم "بناة الروابى" وهم الهنود الذين شيدوا آلافًا من الأعمال النحتية، أحيانًا فى شكل تماثيل بشرية ضخمة، وأحيانًا فى شكل طيور وأفاعى، وأحيانًا أخرى فى شكل مدافن كبيرة أو حصون بلغ أحدها ثلاثة أميال

ونصف طولاً. ويبدو أن "بناة الروابى" كانوا جزءًا من نظام مركَّب لجلب الأعمال الزخرفية والأسلحة من مناطق قصية كالبحيرات العظمى والغرب الأقصى وخليج المكسيك.

وعندما بدأت ثقافة "بناة الروابى" فى الانهيار فى نهاية القرن الخامس الميلادى، كانت ثقافة أخرى تمر بمرحلة النشوء باتجاه الغرب، بوادى المسيسبى، وتركزت فيما هو معروف الآن بسانت لويس. وكان لهذه الثقافة نظام زراعى متقدم، كما قامت ببناء الآلاف من القرى، وتشييد روابى طينية ضخمة يتم اتخاذها كمدافن أو أماكن للاحتفاليات بالقرب من مدينة هندية يسكنها ما يقرب من ثلاثين ألف هندى. وبلغ ارتفاع إحدى الروابى مائة قدم، وتكبر قاعدته المثلثة عن قاعدة هرم مصر الأكبر. وكان بهذه المدينة المعروفة باسم "كاهوكيا" صناع مهرة ودباغون وخزافون وصائغون ونساجون وحفارون على النحاس وخياطون. بل لقد قام صناع المدينة بصناعة غطاء جنائزى يتكون من اثنى عشر ألفًا من حبات الصدف. وعاشت فيما بين "اديروندداكس" والبحيرات العظمى (بنسلفانيا الآن) قبيلة "ايروكوا" وهى أقوى القبائل فى الشمال الشرقى، وكانت تضم هنود "موهوك" (أهل الصّوان)، وهنود "اونيلاس" (أهل الحجر) وهنود "اونونداجاس" (أهل الجبل) وهنود "كايوجا" (أهل المرسى) وهنود "سينيكا" (أهل التل العظيم)، وآلافًا أخرى من البشر توحد بينهم جميعًا لغة واحدة؛ هى لغة الايروكوا.

وفى رؤيا "هياواثا" زعيم هنود "موهوك"، تحدث صاحب الشخصية الأسطورية "ديكا نيويدا" إلى هنود "إيروكوا" قائلاً:

ليساند بعضنا بعضًا، وليمسك كل منا بأيدى أخيه بقوة، حتى نشكل دائرة قوية، لا تهتز ولا تنكسر حتى وإن وقعت فوقها شجرة، وذلك كى يبقى شعبنا وأحفادنا وسط هذه الدائرة يعيشون فى أمان وسلام وسعادة.

وفى قرى الإيروكوا، كانت الأرض مشاعًا بين الجميع، ويقوم بالعمل فى هذه الأرض كل الناس، وكان الصيد يتم جماعة، ثم يُقسم ما تم اصطياده بين كل أعضاء القرية، وكذلك كانت البيوت. ولم يعرف هنود الإيروكوا مفهوم الملكية الخاصة للأرض، فقد كتب أحد القساوسة اليسوعيين بعد مقابلتهم فى منتصف القرن السابع عشر قائلاً:

> **ليس ثمة حاجة لإنشاء تكايا أو ملاجئ بين هؤلاء الناس؛ إذ ليس بينهم فقير أو من يعيش عالة على الآخرين. إن عطفهم وحسهم الإنسانى العالى لا يجعلهم كرماء فيما تحوزه أياديهم فحسب، بل لا يسمح لهم بتملك شئ إلا مشاركةً مع الجميع.**

ولقد حظيت المرأة بمكانة مهمة وجليلة فى مجتمع الإيروكوا؛ إذ كانت أنساب الأسر تتم عبر الأم، بمعنى أن نسب أسرة من الأسر كان يمتد عبر أعضاء الأسرة الإناث، ويلتحق الأزواج نسبًا بمن يتزوجون وكذلك الأبناء الذكور. وكانت كل أسرة ممتدة تسكن "بيتًا طويلاً"، وإذا رغبت زوجة فى الطلاق، قامت بوضع حاجيات زوجها خارج باب البيت. وكان يتم تقسيم العائلات إلى عشائر، وربما تشكل كل مجموعة من العشائر قرية. وكانت كبار النساء فى القرية يقمن باختيار الرجال الذين يمثلون العشائر فى القرية أو فى اجتماعات القبائل. كما كن يقمن باختيار الزعماء التسعة والأربعين الذين يشكلون المجلس الحاكم للشعوب الخمسة لكونفدرالية هنود الإيروكوا. وكانت النساء يحضرن اجتماعات العشائر، ويقفن خلف الرجال عند قيامهم بالكلام أو التصويت، بل إن النساء كن يعزلن الرجال من مناصبهم إذا رأين أنهم لم يكونوا عند حسن ظنهن أو لم يحققوا أمانيهن.

وكانت النساء مسئولات عن رعاية المحاصيل وتدبير شئون القرية بينما كان الرجال مشغولين بالصيد. ولما كانت النساء مسئولات عن إمداد حملات المحاربين بنبال الحرب وبالطعام، فقد كانت لهن بعض السيطرة على الشئون العسكرية. ويلاحظ

جارى بى. ناش Gary B. Nash فى كتابه الرائع عن بداية أمريكا، وعنوانه **الأحمر والأبيض والأسود** Red White and Black: وبذلك كان يتم تقاسم السلطة بين الجنسين، ولم يعرف مجتمع الإيروكوا الفكرة الأوروبية الخاصة بهيمنة الرجل وتبعية المرأة فى كافة الأمور."

وفى نفس الوقت الذى كان يتم فيه تعليم أطفال الإيروكوا التراث الثقافى لشعبهم والتضامن مع قبائلهم، كان يتم تعليمهم كيف يكونون مستقلين غير مستسلمين لأية سلطة مستبدة، وكذلك كانت المساواة ومشاركة الأشياء من أهم ما يتعلمه أطفال الإيروكوا. ولم يكن الآباء يلجئون إلى توقيع عقوبات غليظة على الأطفال. بل إن هنود الايروكوا لم يصروا قط على الفطام المبكر للأطفال ولا على تدريبهم على قضاء الحاجة، بل كانوا يتركون الأطفال يتعلمون وحدهم وبالتدرج كيف يهتمون بأنفسهم.

وكانت كل هذه القيم تقف بمثابة الضد للقيم الأوربية التى جلبها المستعمرون الأوائل، الذين جاءوا من مجتمع ينقسم إلى أغنياء وفقراء، ويسيطر عليه حكام وقساوسة ورجال العائلات دون نسائها. وعلى سبيل المثال، فقد نصح جون روبنسن، وهو راعى مستعمرة "بلجريم"، رجال الإبراشيات فى مسألة كيفية التعامل مع أطفالهم، قائلاً: "من المؤكد أن لدى الأطفال جميعاً عناداً وإصراراً على الرأى، ينبع من إحساسهم الطبيعى بالكبرياء. ولابد قبل أى شئ آخر، من كبح مثل هذا العناد، ذلك أنه إذا قام تعليمهم على أساس من التواضع والإذعان، كان ذلك جديراً بأن يهيئ الفرصة لبناء فضائل أخرى كثيرة." ويصف جارى ناش ثقافة الإيروكوا قائلاً:

> **قبل وصول الأوروبيين، لم يكن لدى الهنود قوانين ولا أوامر ولا عُمَد ولا رجال شرطة. كما أنه لم يكن لديهم قضاة أومحلفون أو محاكم أو سجون؛ أى أنه لم يكن لديهم جهاز للسلطة كالذى عرفته المجتمعات الأوربية. ورغم ذلك، كانت هناك حدود صارمة للسلوك المقبول من الجميع. ورغم أن هنود**

الايروكوا كانوا يفخرون باحترامهم لاستقلالية الفرد، فقد كان بينهم حس صارم بالصواب والخطأ ... فمن سرق طعام غيره مثلاً أو تصرف تصرفًا مشينًا فى الحرب، كان أهله يقومون بفضحه و"تجريسه"، وتنبذه صحبته حتى يكفِّر عن أفعاله ويثبت لهم أنه طهر نفسه أخلاقيًا حتى يرضوا عنه.

ولم يكن ذلك مقتصراً على هنود الإيروكوا، إذ كانت هناك قبائل هندية أخرى تفعل ذلك. ففى عام ١٦٣٥ رد هنود ميريلاند على طلب للحاكم الإنجليزى يقضى بتسليم من يقوم من الهنود بقتل أى إنجليزى كى يحاكم طبقًا للقانون الإنجليزى. قال الهنود فى ردهم: "جرى العرف بيننا نحن الهنود، إذا حدث مثل هذا الأمر، أن تدفع دية لمن قتل، تساوى مائة ذراعٍ من حبال الخرز، ولما كنتم أغرابًا فى بلادنا، فأولى بكم أن تخضعوا لأعرافنا وعاداتنا، لا أن تفرضوا أنفسكم وأعرافكم علينا..."

وخلاصة القول أن كولومبس وأتباعه لم ينزلوا أرضًا خالية، لكنهم نزلوا عالمًا تساوى الكثافة السكانية فى بعض مناطقه مثيلتها فى أوروبا، وهبطوا عالمًا ذا ثقافة مركبة؛ حيث العلاقات الإنسانية أكثر مساواة من أوروبا، وحيث تعمل العلاقات بين الرجال والنساء والأطفال والطبيعة فى روعة وجمال ربما لم تعرفه أية منطقة أخرى فى العالم. صحيح أن الهنود لم تكن لديهم لغة مكتوبة، ولكن من خلال عاداتهم وأعرافهم وأشعارهم ظل تاريخهم فى الذاكرة، ينتقل من جيل لآخر، بلغة شفهية أكثر تعقيداً من اللغات الأوربية، تصاحبه الأغانى والرقصات والدراما الاحتفالية. ولقد أولى الهنود اهتمامًا كبيراً لتكوين الشخصية وقوة العزيمة والاستقلالية والمرونة والعاطفة والاحتفاء بالقوة الجنسية. كما احتفى الهنود بقيمة المشاركة سواء بين الأفراد بعضهم البعض، أو بين الأفراد والطبيعة. ولقد كتب جون كولير – الباحث الأمريكى الذى عاش بين الهنود إبان عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين فى الجنوب الغربى لأمريكا – واصفًا روح الهنود قائلاً: "لو أننا استطعنا أن نملك روحًا كروحهم، لصارت الأرض معين خيرٍ لا ينضب، ولسادها سلام أبدى."

وربما غلب على هذا الكلام تفكير أسطورى رومانسى، لكن الدليل الذى قدمه الرحالة الأوربيون على مدار القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر - والذى جمعه حديثًا متخصص فى حياة الهنود هو وليم براندون - William Brandon يؤيد ويدعم كثيرًا من أركان هذه "الأسطورة" على نحو لا يقبل الشك. وحتى لو تجاوزنا عن الشوائب التى تعلق بالأساطير وعن جوانب النقص فيها، فلابد أن نرتاب فى مسألة إبادة الأجناس بزعم التقدم البشرى، كما لابد أن نرتاب فى كتابة التاريخ وسرده من وجهة نظر قادة وغزاة الحضارة الغربية، سواء تعلق ذلك بالماضى أو بالحاضر.

الفصل الثانى

إرساء حاجز اللون

وصف كاتب أمريكى أسود، هو سوندرز ريدينج J. Saunders Redding، وصول إحدى السفن إلى أمريكا الشمالية فى العام ١٦٩١ قائلاً:

> **اخترقت طريقها من البحر بأشرعة ملتفة وعلم يتدلى على مؤخرتها المستديرة. كانت سفينة غريبة، بكل المقاييس، مخيفة وغامضة لا يعرف أحد على وجه الدقة إن كانت سفينة تجارية، أم حربية، أم أنها سفينة خاصة. كان يخرج من جانبها العلوى مدفع أسود فاغر الفم كأنه يتثاءب. وكان العلم الذى ترفعه السفينة هولنديًا، بينما كان طاقمها متعدد الجنسيات، وكان مرفأ التوقف فى جيمس تاون، المستوطنة الإنجليزية، التى تقع فى مستعمرة فرجينيا. رست السفينة، تاجرت، ثم غادرت بعد قليل. ومع ذلك، لم تحمل سفينة فى التاريخ الحديث حمولة أكثر عجبًا من التى حملتها هذه السفينة. كانت تحمل عشرين عبداً.**

لم تلعب العنصرية دوراً خطيراً فى تاريخ العالم ولزمن طويل كما فعلت فى الولايات المتحدة. ومشكلة "حاجز اللون"- كما وضعها دى بوا W.E. B. Du Bois - لا تزال قائمة. ولذلك، فالأمر أكبر من مجرد سؤال تاريخى: كيف تبدأ العنصرية؟ وبشكل أكثر إلحاحاً: كيف تُراها تنتهى؟ ويمكن طرح التساؤل بطريقة أخرى: هل من الممكن أن يتعايش البيض والسود دون كراهية؟

لو استطاع التاريخ أن يساهم فى إجابة هذه الأسئلة، فمن المحتمل أن تمدنا بدايات العبودية فى أمريكا الشمالية ببعض مفاتيح الإجابة.

ويرى بعض المؤرخين أن هؤلاء السود الأوائل فى فرجينيا كانوا بمثابة خدم، مثلهم مثل الخدم البيض الذين جُلبوا من أوروبا. لكن الاحتمال الأقوى هو أنه حتى لو كان تم تصنيفهم بوصفهم "خدمًا" (وهذه فئة أكثر ألفة بالنسبة للإنجليز)، فإن معاملتهم أو النظرة إليهم لم تتساو مع معاملة الخدم البيض، إذ كانت المعاملة والنظرة إليهم جد مختلفة. لقد كانوا - فى حقيقة الأمر - عبيداً. وعلى أية حال فقد تطور الرق سريعًا، وأصبح مؤسسة تنظم علاقة عمل السود فى العالم الجديد. ومع تطور الرق، نما أيضًا هذا الإحساس العنصرى الخاص - سواء كان كراهية أو احتقاراً أو شفقة أو تفضيلاً. بيد أن هذا الإحساس العنصرى سيلازم الوضع الأدنى للسود فى أمريكا لثلاثمائة وخمسين عامًا قادمة. وهذا التلازم بين الوضع الأدنى وبين الإحساس بالازدراء هو ما نسميه "عنصرية".

وكان كل جانب من جوانب حياة أوائل المستوطنين البيض يشكل ضغطًا من أجل استعباد السود. فقد كان الفرجينيون، عام ١٦١٩، فى مسيس الحاجة إلى أيدٍ عاملة، وتمثل ذلك فى زراعة ما يكفى ليبقيهم على قيد الحياة. وكان من بينهم ناجون من الشتاء السابق - زمن المجاعة - عندما ساروا فى مناكب الغابات بحثًا عن أى طعام، حتى أنهم اضطروا إلى نبش القبور وأكل ما فيها من جثث. وماتت منهم أعداد كبيرة حتى أن ستين مستعمِراً فقط من بين خمسمائة بقوا على قيد الحياة.

وثمة وثيقة من عام ١٦١٩ من وثائق مجلس نواب فرجينيا، تحكى جوانب من حياة الاثنى عشر عامًا الأولى فى مستعمرة جيمس تاون. وتقول الوثيقة إن أول مستوطنة كان يقطنها مائة شخص يعيشون على حفنة شعير واحدة لكل وجبة. ولمَّا وصل عدد آخر من المستوطنين، قلَّ الطعام كثيراً، ولم تكن مساكنهم بأحسن حالاً، إذ كان يعيش معظمهم فى خنادق كالكهوف حفروها فى الأرض. وتمضى الوثيقة قائلة:

فى عام ١٦٠٩ - ١٦١٠، دفع الجوع القاتل المستوطنين دفعًا لأكل ما تعافه الطبيعة البشرية كلحم وفضلات الإنسان، سواء كان هذا الإنسان من بين أمتنا، أم من بنى الهنود. واضطر بعضهم لنبش المقابر والإتيان على ما بها من جثث عفنة. وكان الواحد منهم يتربص بالآخر كى يقتله من أجل اتخاذ جثته طعامًا. بل بلغ الحد أن ذبح أحدهم زوجته وهى بين ذراعيه، وقطعها أشلاءً، وقام بتمليح الأشلاء، وتغذى عليها عدة أيام، ولم يبق منها غير الرأس.

وهناك أيضًا التماس وقَّعه ثلاثون مستوطنًا، وقدموه إلى مجلس النواب، يشتكون فيه من حكم السير توماس سميث الذى استمر اثنى عشر عامًا. يقول الالتماس:

> **نشهد ونجزم أن المستعمرة، أثناء هذه الاثنى عشر عامًا من حكم السير توماس سميث، عاشت أوقاتًا عصيبة من الحاجة والبؤس وقسوة القوانين... لم يزد نصيب الفرد فى هذه السنوات عن ثمانى أوقيات من الذرة وقليلاً من البسلة فى اليوم الواحد ومعظم هذا الطعام عفن، يضرب فيه السوس، ويعافه الإنسان ولا يصلح حتى للحيوان، وهو الأمر الذى دفع بالكثيرين إلى الفرار إلى العدو البربرى، طلبًا للغوث. على أنه بعد استعادة الفارين، تم تقتيلهم بطرق شتى، إما بتعليقهم فى الشجر، أو إطلاق النار عليهم أو دهسهم بالمركبات... وكان من بينهم من سرق ثلاث حفنات من الدقيق، فتم ثقب لسانه بمخراز ثم قيد بالسلاسل ورُبط بشجرة حتى مات جوعًا...**

كان مستوطنو فرجينيا فى احتياج شديد للأيدى العاملة لزراعة الذرة طعامًا من أجل البقاء والتبغ من أجل التصدير، وكان المستوطنون قد تعلموا لتوهم كيفية زراعة التبغ. وفى العام ١٦١٧، أرسلوا أول شحنة منه إلى إنجلترا. وعندما اكتشفوا أن التبغ ـ مثله مثل كل المنتجات الجالبة للمتعة والتى لا تقرها الأعراف الأخلاقية ـ يدر

أموالاً كثيرة، لم يثيروا أسئلة من شأنها أن تعطل تجارة رابحة كهذه،بالرغم من تشدقهم الزائف بالعبارات الدينية.

ولم يستطع مستوطنو فرجينيا إجبار الهنود على العمل لديهم، كما فعل كولومبس من قبل، ورغم كثرة عددهم وقوة عتادهم وتفوقه، فقد أدركوا أنهم لو ارتكبوا مذبحة ضد الهنود، فسوف يرد الهنود بمثلها. ولذلك لم يستطع هؤلاء المستوطنون الإمساك بالهنود وإجبارهم على العمل لديهم، بيد أن الهنود لم يكونوا ضعفاء بل أقوياء لا تعوزهم مواردُ ولا تنقصهم روح تعرف التحدى. وعلاوة على ذلك، فقد كانوا يعرفون الغابات معرفة كاملة، ويألفون طرقها، بينما لم يكن الأمر كذلك لمن زرعوا من المستوطنين الإنجليز.

ولم تكن أعداد الخدم البيض متوفرة فى ذلك الوقت، كما أنهم لم يأتوا عن طريق الرق، ولم يكن عليهم سوى الالتزام بشروط عقود عملهم، كوسيلة من أجل المرور إلى العالم الجديد. أما بالنسبة للمستوطنين البيض الأحرار، فقد كان كثير منهم صناعًا مهرة، وكان بعضهم من المترفين فى وطنهم الأصلى ـ إنجلترا، ولم يكن لديهم أى ميل لفلاحة الأرض، حتى أن جون سميث اضطر فى السنوات الأولى لإعلان نوع من الأحكام العرفية، من شأنها أن تنظم الناس فى مجموعات عمل، وتجبرهم على العمل فى الأرض من أجل البقاء. وربما كان هناك غضب مكبوح لدى المستوطنين على وضعهم، وعلى ترفع الهنود عن الاهتمام بشئونهم الخاصة، مما جعل هؤلاء المستوطنين مستعدين لأن يكونوا سادة للعبيد. وفى كتابه العبودية **الأمريكية والحرية الأمريكية** American Slavery, American Freedom، يتصور إدموند مورجان Edmund Morgan الحالة المزاجية للمستوطنين:

> **إذا كنت مستعمِرًا، فقد عرفت أن التكنولوجيا التى تملكها أقوى من التى يملكها الهنود، وأنك متحضر وهم برابرة... لكن قوتك التكنولوجية أثبتت عجزها عن أن تجلب لك شيئًا... لقد سخر الهنود بوسائلهم البسيطة من وسائلك المتفوقة، وعاشوا**

على خير الأرض بوفرة أكثر وجهد أقل من الذى بذلته... وعندما فرَّ مَن معك ولانوا بالهنود، كان ذلك فوق ما تحتمل... لذلك قتلت الهنود، وعذبتهم، وأحرقت قراهم، وخرَّبت محاصيلهم. وهذا هو الذى أثبت تفوقك، على الرغم من فشلك المتكرر. ولقد عاملت من قام من أهلك باتباع طريقة الهنود البربرية فى الحياة نفس المعاملة، بيد أنك لم تنجح ـ بعد كل ذلك ـ فى زراعة ذرة أكثر.

ولما كانت الحال كذلك، كان الحل فى جلب العبيد السود، وكان من الطبيعى اعتبار السود المجلوبين عبيداً، على الرغم من أن مؤسسة الرق لم تكن لتصبح قانونية أو منظمة لعقود عدة. ولعل الشاهد على ذلك هو أنه بحلول عام ١٦١٩، كان قد تم جلب مليون أسود من إفريقيا إلى أمريكا الجنوبية والكاريبى والمستعمرات الأسبانية والبرتغالية، وذلك من أجل العمل كعبيد. كما أنه قبل وصول كولومبس، كان البرتغاليون قد جلبوا عشرة أفارقة سود إلى ليشبونه وكانت هذه هى البداية للتجارة المنتظمة فى العبيد. ومن هنا فلربما بدا الأمر غريباً، لو نظرنا إلى هؤلاء العشرين إفريقيا (المشار إليهم فى بداية هذا الفصل) على أنهم كانوا شيئا آخر غير كونهم عبيداً؛ فقد تم جلبهم عنوة إلى جيمس تاون، وبيعوا كما تباع البضائع إلى مستوطنين يتشوقون إلى مصدر ثابت للأيدى العاملة.

وكان من شأن قلة حيلة السود أن تساعد على تيسير استعبادهم، نتيجة لوضعهم الغريب فى العالم الجديد، فقد كان الهنود يعيشون على أرضهم، والبيض يتمتعون بثقافتهم الأوربية. أما هؤلاء السود، فلقد انتزعوا من أرضهم وثقافتهم انتزاعًا، وأُجبروا على وضع انطمست به لغتهم وعاداتهم وعلاقاتهم الأسرية. لقد انطمست ثقافتهم باستثناء ما استطاع بعضهم أن يمسك به بمثابرة غير عادية. هل كانت ثقافتهم هى الأدنى مرتبة، وبذلك صارت عرضة للدمار؟ قد يكون ذلك صحيحًا من ناحية المقدرة العسكرية، خاصة فى مواجهة البيض بأسلحتهم وسفنهم. لكنها

لم تكن، بأية صورة أخرى، ثقافة أدنى إلا فى نظر من يرى أن الثقافات التى تختلف عن ثقافته، ثقافات أدنى، وخاصة إذا كان مثل هذا الحكم عمليًا ومُربحًا. وحتى من الناحية العسكرية، فلم يكن بوسع الغربيين ـ الذين استطاعوا إنشاء حصون آمنة على الساحل الأفريقى ـ أن يقهروا ذلك الأدنى، وكان لابد لهم أن يدبروا ذلك عن طريق اتفاقهم مع زعماء القبائل.

وكانت الحضارات الإفريقية متقدمة بطريقتها الخاصة، مثلها مثل حضارة أوروبا، بل إنها كانت، فى بعض وجوهها، أكثر روعة ومدعاة للإعجاب. لكنها، فى الوقت نفسه، لم تخل من عيوب كالقسوة والامتيازات الخاصة لأصحاب السلطة والاستعداد للتضحية بالبشر لأسباب دينية أو طلبًا للمال. لقد كانت حضارة أكثر من مائة مليون نسمة، برعت فى الصناعات الحديدية، وأظهرت مهارة واضحة فى الزراعة، كما كانت حضارة ذات مراكز حضارية شاسعة، وكان لها إسهامات بارزة فى مجال الغزل والنسيج والبلاط وفنون النحت.

وعندما زار الرحالة الأوروبيون إفريقيا فى القرن السادس عشر، أبدوا إعجابهم الشديد بالممالك الأفريقية فى تمبوكتو ومالى حيث شيدت دول واستقرت نظم، فى وقت كانت الدول الأوروبية فى بداية طريقها نحو تكوين أمة بالمعنى الحديث وفى عام ١٥٦٣، كتب راموسيو، الذى كان يعمل سكرتيراً لحكام فينيسيا، مخاطبًا التجار الإيطاليين: "فليذهب التجار إلى ملك تمبوكتو ومالى وليعقدوا معه الصفقات التجارية، وليس هناك من شك فى أنهم وسفنهم وبضائعهم سيكونون موضع ترحيب كبير، كما إنه ليس هناك شك فى أنهم سيلقون أحسن المعاملة، وأنهم سيؤتون ما يطلبون...." ويصف تقرير هولندى كتب فى عام ١٦٠٢، مملكة بنين على ساحل غرب إفريقيا قائلاً: "تبدو المدينة غاية فى الروعة، فعندما تدخلها، تجد نفسك فى شارع رئيسى متسع، ورغم أنه غير ممهد، فإنه يبدو فى اتساعه سبعة أو ثمانية أضعاف شارع وارموس بأمستردام. تصطف البيوت فى هذه المدينة فى نظام جميل ولا يخرج بيت من بيوت المدينة عن هذا النظام، وهو نظام يشبه نظام البيوت فى هولندا." ووصف أحد الرحالة

سكان ساحل غينيا فى عام ١٦٨٠ بأنهم "متحضرون وطيبون وحسنو المعاملة، يتلطفون بطريقة متحضرة فيما يطلبه الأوروبيون منهم، كما أنهم على استعداد دائم لأن يردوا الهدايا أضعافًا مضاعفة."

ومثلما هو الحال فى أوروبا، كان فى إفريقيا نوع من الإقطاع الذى قام أيضا على الزراعة، الأمر الذى خلق من المجتمعات سادة يملكون وتابعين يخدمون. لكن الإقطاع الإفريقى كان يختلف عن نظيره الأوروبى فى أنه لم يكن كمجتمعات العبيد فى اليونان وروما، وهى المجتمعات التى وضعت نهاية للحياة القبلية. أما فى إفريقيا، فرغم وجود الإقطاع كانت الحياة القبلية مازالت قوية، وتجلى ذلك فى بعض ملامحها الإيجابية، كروح التعاون بين أبناء المجتمع وإظهار الشفقة فى تطبيق العقوبات. ولأن الإقطاعيين الأفارقة لم يكن لديهم السلاح كنظرائهم الأوروبيين، فلم يحوزوا طاعة تابعيهم بسهولة.

وفى كتابه **تجارة العبيد الأفارقة** **The African Slave Trade**، يقارن بازل ديفيدسون بين قوانين بداية القرن السادس عشر فى الكونغو من ناحية، والبرتغال وإنجلترا من ناحية أخرى. ففى البلدين الأوروبيين، وحيث بدأت فكرة الملكية الخاصة فى الظهور بقوة، كانت تتم معاقبة مرتكبى جريمة السرقة بوحشية. وفى إنجلترا حتى عام ١٧٤٠، كان من الوارد أن يشنق طفل لمجرد سرقة حفنة من القطن. أما فى الكونغو، حيث سادت روح الحياة الجماعية، فقد بدت فكرة الملكية الخاصة غريبة، كما كانت عقوبة جرائم السرقة تتمثل فى دفع غرامات مالية أو قضاء فترات متفاوتة من الأشغال الشاقة. ومن باب الطرفة، يُحكى أن أحد حكماء الكونغو - وكان على دراية بالقانون البرتغالى - داعب أحد البرتغاليين قائلاً: "ما عقوبة من يضع قدميه على الأرض فى البرتغال؟"

ولم تخل البلدان الأفريقية من الرق، وهو الأمر الذى استخدمه الأوروبيون كذريعة لتبرير تجارتهم فى العبيد، ولكن، كما يشير ديفيدسون، كان عبيد إفريقيا يشبهون فى وضعهم عبيد الأرض فى أوروبا، أى أنهم كانوا مثل معظم سكان أوروبا.

ورغم مشقة العمل الذى كانوا يقومون به، فقد كانت هناك حقوق لعبيد الأرض فى أوروبا لم يتمتع بها العبيد الأفارقة الذين جُلبوا إلى أمريكا، كما أنهم "يختلفون تماماً عن عبيد السفن والمزارع الأمريكية." وقد نوَّه أحد المراقبين بأنه فى مملكة أشانتى بغرب إفريقيا:

يحق للعبد أن يتزوج، وأن يتملك، وأن يقتنى لنفسه عبدًا، وأن يؤخذ بقسمه وبشهادته، بل وأن يرث سيده... وفى حالات كثيرة تصل إلى تسع حالات من بين كل عشرة، أصبح العبد الأشانتى فردًا من أفراد أسرة سيده. بل وصل الأمر أن بلغ التزاوج بين أفراد أسرة العبد من ناحية وأفراد أسرة سيده من ناحية أخرى حدًا صار معه من الصعب تحديد نسب الواحد منهم على وجه الدقة.

وكتب أحد تجار العبيد وهو جون نيوتن، الذى أصبح فيما بعد من أبرز قادة المناهضين لتجارة العبيد، يصف شعب ما يعرف الآن باسم "سيراليون" قائلاً:

لم يصل الرق بين هؤلاء البرابرة المتوحشين ـ كما نصنِّفهم ـ الحد الذى بلغه فى مستعمراتنا. وذلك لأنهم، من ناحية، ليس لديهم مزارع شاسعة كمزارعنا فى الهند الغربية، ولذلك فليس هناك ما يستوجب العمل الشاق الذى لا يتوقف ويفوق طاقة العبيد ـ وهذا ما يجهد عبيدنا ـ وبالتالى فإنه من ناحية أخرى، لا يحق لأى شخص أن ينال بالضرب أو التجريح من أى من العبيد.

ولا يعنى ذلك أننا نمتدح الرق فى إفريقيا، لكنه كان يختلف كل الاختلاف عن الرق فى مزارع ومناجم الأمريكتين، وهو رق مدى الحياة، محطم لعلاقات العبيد الأسرية، ومكبل لروحهم المعنوية، لا يترك لهم أى أمل فى المستقبل. كما أن الرق

الإفريقى خلا من عنصرين جعلا الرق الأمريكى أشد أشكال الرق قسوة فى التاريخ. أولهما هو ذلك السعار من أجل تحقيق أرباح لا حد لها، يدعمها نظام الزراعة الرأسمالى، ويتمثل العنصر الثانى فى أنه عن طريق استخدام الكراهية العنصرية، صار العبد فى مكانة دون مكانة البشر، وبوضوح لا لبس فيه، بات اللون فاصلاً، إذ صار معه الأبيض سيداً، والأسود عبداً.

وفى حقيقة الأمر، فلأن السود والأفارقة جاءوا من ثقافة مستقرة، تتميز بطابعها القبلى، وتحتفل بالطقوس التقليدية والعلاقات الأسرية المترابطة والروح الجماعية بين أفراد القبيلة، فقد وجدوا أنفسهم عاجزين وقليلى الحيلة، بعد أن تم اقتلاعهم من ثقافتهم. لقد كان يتم أسرهم داخل أوطانهم (غالبًا عن طريق إخوان لهم سود متورطين فى تجارة العبيد) حيث يباعون عند الساحل، ثم يتم تجميعهم فيما يشبه حظائر الحيوانات مع من تم أسرهم من قبائل أخرى. والحقيقة أن ظروف الأسر والبيع كانت تؤكد حقيقة مريرة للإفريقى الأسود، وهى أنه عاجز تمامًا فى مواجهة قوة أكبر منه. وكانت مسيرات مَنْ أُسروا إلى الساحل الأفريقى مسيرات موت إذ كان يموت اثنان من بين كل خمسة. وكانت هذه المسيرات تزيد فى معظم الأحيان عن ألف ميل يمشيها العبيد وهم مقيدون من الرقاب، وتحت إرهاب السوط والسلاح. وبوصول الأسرى إلى الساحل الإفريقى، يوضعون فى أقفاص حتى يقع عليهم الاختيار ويتم البيع. ويصف جون باربوت أحد المعاصرين لهذه الأحداث في نهاية القرن السابع عشر هذه الأقفاص التى شيدت عند الساحل الذهبى قائلاً:

> **بمجرد أن يصل العبيد إلى "فيدا" قادمين من داخل البلاد، كانوا يوضعون داخل سجون أو ما يشبه ذلك... قريبًا من الشاطئ، وعندما يقترب موعد تسلم الأوروبيين لهم، يتم إحضارهم إلى مكان واسع، حيث يقوم أطباء السفينة باختبارهم جميعًا، رجالاً ونساءً وهم عراة تمامًا... ويُفصل من يثبت الكشف الطبى أنهم أصحاء، ثم يتم ختمهم فى منطقة**

الصدر عن طريق الكى بختم حديدى أخرج لتوه من النار، ويحمل هذا الختم أسماء الشركات الفرنسية أو الإنجليزية أو الهولندية... ويعود العبيد بعد ذلك إلى السجون لكى ينتظروا إجراءات شحنهم التى أحيانًا ما تستغرق أسبوعين ...

وكان يتم بعد ذلك "تعبئة" العبيد فى سفن الشحن فى مساحات لا تزيد كثيراً عن حجم الكفن، حيث يُكبلون بالسلاسل معًا، ثم يوضعون فى قاع السفن لا يكادون يبصرون شيئًا وسط ظلمة القاع مختنقين - بمرور الوقت - بما تبعثه فضلات أجسادهم من رائحة كريهة. وتصف بعض الوثائق مثل هذه الظروف قائلةً:

لم يكن ارتفاع المكان الذى يوضع العبيد فيه يزيد فى بعض الأحيان عن ثمانى عشرة بوصة، الأمر الذى لم يترك لهؤلاء البشر التعساء فرصة أن يتقلبوا أو حتى يغيروا مواضع أجسادهم، إذ لم يكن عرض المكان لكل فرد يزيد عن عرض كتفيه، ناهيك عن أنهم كانوا يُكبلون بالسلاسل من الرقاب والأقدام، وفى مكان كهذا يغدو الإحساس بالبؤس والاختناق عظيمًا، حتى أن الزنوج كانت تنتابهم نوبات تشبه نوبات الجنون.

وفى إحدى المرات فتح البحارة - عند سماعهم صياحًا شديداً آتيًا من مكان الشحن - الأبواب المغلقة على العبيد، كى يجدوا أنهم فى حالة هياج شديد، وأن بعضهم قد مات، وبعضهم يعانى مراحل مختلفة من الاختناق، وأنهم اضطروا إلى قتل بعضهم بعضًا فى محاولات يائسة من أجل الحصول على هواء يستنشقونه. وكثيراً ما قفز العبيد إلى ظهر السفن فى محاولات للانتحار غرقًا، هربًا من المعاناة والمذلة. وقال أحد الشهود إن مكان العبيد بإحدى السفن "كانت تغطيه الدماء حتى صار أشبه بمجزر لذبح الماشية." وفى ظل هذه الظروف، ربما قضى واحد من بين كل ثلاثة أفارقة سود تم نقلهم إلى الخارج – نحبه، لكن الأرباح الكبيرة جعلت من هذه

التجارة عملاً مربحًا لتجار العبيد، ولذلك كان يتم تكديس السود بمخازن الشحن وكأنهم أسماك!

وفى بادئ الأمر سيطر الهولنديون ثم الإنجليز على تجارة العبيد (بحلول العام ١٧٩٥ كانت ليفربول مركزًا لأكثر من مائة سفينة لشحن العبيد، وبالتالى أصبحت مسئولة عن حوالى نصف ما يتم الاتجار فيه من العبيد فى أوروبا). ثم دخل التجار الأمريكيون هذه التجارة، إذ أبحرت أول سفينة أمريكية لنقل العبيد وتدعى "ذا ديزاير" The Desire فى عام ١٦٣٧ من ماربل هيد، وصُممت مخازنها بحيث تنقسم إلى رفوف، مساحة كل رف ٢×٦ قدم، وتم تزويد هذه الرفوف بسلاسل لربط الأقدام، وقضبان لحجز كل عبد فى مكانه.

وبحلول العام ١٨٠٠، كان قد تم نقل ما يتراوح بين عشرة و خمسة عشر مليون أسود من إفريقيا إلى الأمريكتين، ويمثل هذا العدد ثلث من تم أسرهم فى إفريقيا تقريبًا. ومعنى ذلك أن إفريقيا فقدت حوالى خمسين مليونًا من البشر، بين من ماتوا فى سفن الشحن، وبين من وصلوا إلى الأمريكتين، وذلك على مدار هذه القرون التى نسميها بدايات الحضارة الغربية الحديثة. وقد تم ذلك على أيدى تجار العبيد ومالكى المزارع فى غرب أوروبا وأمريكا، وهى البلاد التى تعتبر الأكثر تقدمًا فى العالم اليوم!

وفى عام ١٦١٠ أرسل قس كاثوليكى يعمل فى الأمريكتين ويدعى "الأب ساندوفال"، خطابًا إلى أحد موظفى الكنيسة فى أوروبا، يسأله إن كان أسر وجلب واستعباد السود الأفارقة "شرعيًا" حسب مبادئ الكنيسة. وجاءه الرد فى خطابٍ مؤرخ بتاريخ ١٢ مارس/آذار سنة ١٦١٠ من "الأخ لويس براندون":

> **تقول فى خطابك إنك تود معرفة ما إذا كان أسر الزنوج الذين يتم إرسالهم إليكم شرعيًا. وعن هذه القضية أقول إننى أعتقد أنه يجب ألا يكون لديك أدنى شك فى ذلك لأن هذا الأمر قد تمت مناقشته من قبل فى "مجلس الضمير" فى ليشبونة، وكل**

أعضاء هذا المجلس من أهل العلم والإخلاص. كما أحيطك علمًا أن كل الأساقفة فى "ساو توم" أو "كيب فيرد" أو هنا فى لواندو وكلهم أهل علم وفضيلة ـ لا يرون أى خطأ فى ذلك. ونحن نعمل هنا منذ أربعين عامًا وبيننا آباءً عالمون... لم ينظروا قط إلى هذا الأمر على أنه غير مشروع. وبالتالى فإننا وآباء آخرين فى البرازيل نقتنى هؤلاء العبيد لخدمتنا دون تردد أو حيرة... .

ومن ثم، فقد تضافرت هذه الظروف المتمثلة فى حاجة مستوطنى جيمس تاون الماسة للأيدى العاملة، واستحالة تشغيل الهنود، وصعوبة الاعتماد على البيض، ووفرة السود بأعداد كبيرة عن طريق تجار اللحم البشرى، وسهولة السيطرة على السود الذين مروا بتجربة أليمة، لم تقتلهم، ولكنها خلفتهم فى حالة من العجز البدنى والنفسى. وكل هذه الظروف تجعلنا نتساءل إن كان هناك أى عجب فى استعباد هؤلاء السود.

وفى ظل ظروف كهذه، هل كان السود، حتى وإن اعتُبر بعضهم خدمًا، يلقون نفس المعاملة التى كان يلقاها الخدم البيض؟ تقول الأدلة ـ من سجلات فيرجينيا الاستعمارية فى عام ١٦٣٠ ـ أن رجلاً أبيض يدعى "هيو ديفيز" قد "وقع عليه حكمُ بالجلد.. لأنه أهان نفسه.. ودنس جسده بنومه إلى جوار زنجى." وبعد عشر سنوات فر ستة من الخدم وزنجى من خدم السيد رينولدز فكان أن وقعت أحكام خفيفة على الخدم البيض بينما كان على "إيمانويل" الزنجى أن يتلقى ٣٠ جلدة، وأن يتم كيه فى خده بوضع حرف ((R وهو الحرف الأول من اسم سيده، وأن يؤدى عمله مقيد القدمين لمدة عام أو أكثر، حسبما يرى سيده."

ورغم أن تجارة الرقيق لم يكن قد تم بعد تنظيمها أو تقنينها فى هذه السنوات الأولى، فإن قوائم أسماء الخدم تقول إن السود كان يتم قيدهم فى قوائم منفصلة. ففى عام ١٦٣٩ صدر قانون يحصل بموجبه " كل الأشخاص ما عدا الزنوج" على سلاح وذخيرة – ربما لمحاربة الهنود. وعندما حاول ثلاثة من الخدم الفرار

فى عام ١٦٤٠ عوقب الخادمان البيض بتمديد فترة عملهم. أما الثالث، وهو زنجى يدعى جون بنس، فقد حكمت عليه المحكمة بأن "يخدم سيده أو أعوانه مدى الحياة." وفى العام نفسه كانت هناك قضية أخرى، وهى لامرأة زنجية خادمة وضعت مولودًا ينتمى إلى روبرت سويت، وهو رجل أبيض. وحكمت المحكمة فى هذه القضية بأن تجلد الزنجية المذكورة على عمود الجلد وأن يعلن سويت توبته عما اقترفه، وذلك فى كنيسة جيمس... ."

فهل كانت هذه المعاملة الظالمة، وهذا الخليط من الاحتقار والقهر، سواء فى القول أو الفعل ـ وهو ما نسميه عنصرية ـ نتيجة كراهية "طبيعية" من البيض للسود؟ يكتسب مثل هذا السؤال أهمية كبرى، ليس فقط كأمر يتصل بالدقة التاريخية، ولكن لأن أى تأكيد على العنصرية بصفتها شيئًا "طبيعيًا" إنما يخفف من مسئولية النظام الاجتماعى الذى رعاها ودافع عن وجودها. وإذا كان من الصعب إظهار العنصرية على أنها شئ طبيعى، فلابد أنها ناتجة عن ظروف محددة، يتوجب علينا أن نقضى عليها.

وليس ثمة طريقة لاختبار سلوك البيض والسود تجاه بعضهم البعض فى ظروف طيبة أى ظروف خالية من التبعية وخالية من الدافع المالى للاستغلال والاستعباد، وخالية كذلك من الحاجة الماسة للبقاء، وهو ما دفع البيض إلى استغلال واستعباد السود. لقد كانت كل الظروف ـ بالنسبة للبيض والسود ـ فى أمريكا القرن السابع عشر، عكس ذلك تمامًا؛ إذ كانت تتجه بقوة شديدة نحو البغض وسوء المعاملة. وفى ظل ظروف كهذه، فإن إظهار أدنى قدر من المشاعر الإنسانية بين الجنسين يعد دليلاً على وجود دافع إنسانى أساسى نحو المجتمع وهذا ما لم يحدث.

ومن الملاحظ أنه حتى قبل القرن السادس عشر ـ أى قبل أن تبدأ تجارة الرقيق وقبل أن تُلصق كلمة "رقيق" بالأفارقة، فعلاً أو مجازًا ـ لم تكن كلمة "أسود" تعنى سوى كل ما هو كريه من الصفات: ففى إنجلترا ما قبل القرن السادس عشر، وحسب ما ورد فى "معجم أكسفورد للغة الإنجليزية"، كانت كلمة أسود تعنى ملطخ بالقذارة،

ملوث، شرير، سيئ الطوية، حقود، مميت، مهلك، مسبب للكوارث، باعث على الشؤم، ظالم، مروع، جالب للعار، مثير للوم الدائم، معرض للعقاب... الخ." كما إن الشعر الإليزابيثى كثيراً ما استخدم اللون الأبيض كملازم ومرادف للجمال.

ولعل غياب أى عامل مهيمن آخر هو الذى جعل السمرة والسواد - بارتباطهما بالليل والمجهول - يدلان على مثل هذه المعانى. لكن وجود إنسان "آخر" إنما يمثل حقيقة واضحة، كما أن ظروف هذا الوجود تساعد بشكل أساسى فى تحديد ما إذا كان التحامل الأولى على السود بسبب لونهم ليس إلا تحول إلى كراهية ووحشية.

على أنه بالرغم من مثل هذه المفاهيم المسبقة عن اللون الأسود، وبالرغم من تبعية السود بالأمريكتين فى القرن السابع عشر، فإن هناك دليلاً على أن البيض والسود كانوا يتصرفون فيما بينهم على قدم المساواة متى وجدوا أنفسهم ضحية مشاكل مشتركة أو عمل مشترك أو عدو مشترك يتمثل غالبًا فى صاحب العمل. ويؤكد ذلك أحد الباحثين المتخصصين فى موضوع العبودية - كينيث ستامب **Stampp** - بقوله "إن الخدم من الزنوج والبيض فى القرن السابع عشر لم تكن تشغلهم الاختلافات الفيزيقية فيما بينهم".

لقد عمل الإنسان الأسود إلى جوار الأبيض وتآخيا معًا. ولعل استصدار القوانين التى تمنع مثل هذه العلاقات بينهما تشير إلى مدى قوة هذه العلاقات الإنسانية. ففى عام ١٦٩١ أصدرت فرجينيا قانونًا آخر يقضى بطرد "أى شخص أبيض حر رجلاً كان أو امرأة - إذا تزوج من بين الزنوج أو الهنود عبيداً كانوا أم أحراراً."

وثمة اختلاف كبير بين إحساس بالغربة العرقية كالخوف مثلاً وبين استعباد الملايين من السود الذى حدث فى الأمريكتين على نطاق واسع، إذ أن الانتقال من الأول إلى الآخر يصعب إرجاعه إلى ميول "طبيعية." ولهذا ليس من الصعب أن نفهم هذا الانتقال على أنه نتاج ظروف تاريخية محددة.

وقد ارتبط ازدياد الرق بازدياد نظام المزارع واتساعها ، ولعله من الواضح أن السبب يعود إلى أشياء أخرى غير مجرد البغض العنصرى فى شكله الطبيعى، فعدد المتدفقين البيض ـ سواء كانوا أحراراً أم خدمًا جاءوا طبقًا لعقود وقَّعوها ـ لم يكن كافيًا لتلبية احتياجات المزارع. ولعلنا نلاحظ الارتفاع الواضح فى عدد العبيد المجلوبين من إفريقيا، إذا عرفنا أنه فى عام ١٧٠٠ كان بفرجينيا ٦٠٠٠ من العبيد وكان هذا يمثل نسبة ١٢/١ من جملة السكان، وبحلول عام ١٧٦٣، كان هناك ١٧٠ ألفًا من العبيد، وكان هذا الرقم يقترب من نصف جملة سكان المستعمرة.

ورغم أنه كان أيسر على المستوطنين البيض أن يستعبدوا السود المجلوبين عنوة من إفريقيا عن أن يستعبدوا البيض أو الهنود، فقد قاوم السود هذا الاستعباد منذ بدايته. غير أنه بمرور الزمن تمت السيطرة شبه الكاملة على هذه المقاومة، حتى تم استعباد ثلاثة ملايين من السود فى الجنوب. بيد أنه تحت أكثر الظروف صعوبة، ورغم كل الألم المصاحب للتعذيب والموت، فلم يتخل هؤلاء الأفروأمريكيين خلال قرنين من الاستعباد فى أمريكا الشمالية عن استمرارهم فى التمرد. على أن تمردهم هذا لم يكن منظمًا إلا فى مرات قليلة. ولطالما أظهروا رفضهم الإذعان للرجل الأبيض عن طريق الفرار، ولطالما اشتركوا أيضًا فى أشكال عديدة من المقاومة، كالعمل على تخريب الإنتاج، أو التباطؤ فى العمل، وهو الأمر الذى أكد حرصهم على كرامتهم كبشر، حتى لو كان ذلك أمام أنفسهم. وقد بدأت مقاومة السود لاستعبادهم فى إفريقيا، أى قبل ترحيلهم إلى العالم الجديد، إذ يقول أحد تجار العبيد إن "عناد الزنوج وإصرارهم على عدم ترك بلادهم بلغ ببعضهم أن قفزوا من الزوارق والمراكب والسفن إلى البحر، وظلوا فترة طويلة تحت الماء حتى ماتوا غرقًا."

وهناك أيضا هذه الحادثة المبكرة: عندما وصل أوائل من جلبوا من السود إلى "هسبانيولا" فى عام ١٥٠٢، اشتكى الحاكم الأسبانى إلى المحكمة الأسبانية من أن الفارين من العبيد كانوا يُعلِّمون الهنود فنون العصيان والتمرد. وفى العشرينيات والثلاثينيات من القرن نفسه، اشتعلت ثورات العبيد فى هسبانيولا، وبورتريكو

وسانتامارتا وما يعرف الآن "ببنما"، مما جعل الأسبانيين يشكلون قوات شرطة خاصة لمطاردة الفارين من العبيد. وفى عام ١٦٦٩، أشارت إحدى مواد القانون فى فرجينيا إلى "عناد كثير منهم". وفى ١٦٨٠ رصد مجلس نواب المستعمرة اجتماعات للعبيد تتم "تحت زعم أنها من أجل الاحتفال بعيد ما، أو من أجل المسامرة"، الأمر الذى اعتبره مجلس النواب "ذا عواقب خطيرة." أما فى عام ١٦٨٧، فقد اكتشفت - فى جزء من المستعمرة يسمى "العنق الشمالى" - مؤامرة دبرها العبيد من أجل قتل كل البيض القاطنين فى هذه المنطقة، ثم الفرار أثناء جنازة جماعية كان لابد وأن تقام لمن قُتلوا.

وفى كتابه **الفرار والتمرد** **Flight and Rebellion** يقول جيرالد مولين، الذى درس حركات مقاومة العبيد إبان القرن الثامن عشر:

> **تقدم المصادر المتاحة عن العبودية فى فرجينيا خلال القرن الثامن عشر وصفًا للعبيد المتمردين ولبعض العبيد الآخرين. وتتمثل هذه المصادر فى سجلات المزارع، والمستعمرة عامة، وكذلك إعلانات الصحف عن الفارين. ويُوصف الفارون من العبيد فى هذه المصادر بأنهم لصوص وكسالى، يتظاهرون بالمرض، ويدمرون المحاصيل وأدوات الزراعة، ويخربون المحلات، وأحيانًا يهاجمون أو يقتلون المشرفين عليهم فى العمل. وتضيف المصادر بأن هؤلاء العبيد المتمردين كانوا يسرقون البضائع، وينظمون لها سوقًا سوداء. وكان يتم تصنيف الفارين إلى فئات مختلفة: فهناك المتغيبون (الذين عادة ما يعودون طواعية إلى أسيادهم)، وهناك "الخارجون عن القانون"... وهناك العبيد الهاربون بالفعل، وهم من ذهبوا فى زيارة لأقارب لهم فى محاولة للفرار، أو من سافروا إلى المدن مقدمين أنفسهم على أنهم أحرار، أو من حاولوا الفرار من العبودية بشكل تام، وذلك**

عن طريق التعاون معًا من أجل إيجاد مهرب أو بناء قرى على الحدود. أما الفئة الأخيرة من العبيد المتمردين، فكان التزامهم كاملاً، وأصحاب هذه الفئة هم الذين أصبحوا قتلة، ومشعلى حرائق، وخارجين عن سياسة المستعمرة.

والغريب أنه لوحظ أن العبيد القادمين حديثًا من إفريقيا والمتمسكين بتراث مجتمعهم الجماعى كانوا يهربون جماعات، ويحاولون إنشاء قرى على الحدود أو القفار.. أما من ولدوا من العبيد فى أمريكا، فكانوا عند فرارهم يهربون فرادى، مستعينين بالمهارات التى اكتسبوها من عملهم فى المزارع فى محاولة لتقديم أنفسهم فى مكان آخر على أنهم أحرار. ومن بين الوثائق الاستعمارية لإنجلترا، يذكر تقرير يعود إلى عام ١٧٢٩ وكتبه الضابط الحاكم لفرجينيا إلى مجلس التجارة البريطانى:

دبر حوالى خمسة عشر زنجيًا... مخططًا للفرار من سيدهم والعيش فى معاقل الجبال المجاورة. وقد وجد هؤلاء العبيد وسيلة للحصول على بعض السلاح والذخيرة، واتخذوا معهم بعض المؤن كالملابس والبطاطين وأدوات العمل. ورغم وأد هذه المحاولة، فإنها جديرة بأن تجعلنا أكثر يقظة، وأن تدفعنا لاتخاذ تدابير أكثر فاعلية...

وقد جلبت تجارة العبيد أرباحًا طائلة لبعض السادة، حتى أن جيمس ماديسون أخبر زائرًا بريطانيًا، بُعيد الثورة الأمريكية، بأنه كان يربح ٢٥٧ دولارًا عن كل زنجى سنويًا فى الوقت الذى لا يكلفه هذا الزنجى أكثر من اثنى عشر أو ثلاثة عشر دولارًا. ولكن، ثمة رأىٌ مختلفٌ ، فقبل أن يقول ماديسون هذا الكلام بخمسين عامًا، اشتكى أحد تجار العبيد، ويدعى لاندون كارتر، من أن عبيده أهملوا عملهم وكانوا غير متعاونين (إما أنهم لا يستطيعون العمل أو أنهم لا يريدون أن يعملوا) حتى أنه بدأ يتشكك فيما إذا كان اقتناء هؤلاء العبيد جديرًا بما يلقى فى سبيله من عناء. ولقد

رسم بعض المؤرخين - مستعينين بندرة التمرد المنظم للعبيد وبقدرة الجنوب على إبقاء العبودية لقرنين من الزمان - صورةً للعبيد الذين أرغمتهم ظروفهم على الخضوع، كما حطمت هذه الظروف ميراثهم الإفريقى، حتى تحولوا على حد قول ستانلى إلكينز، إلى مجتمع من السامبو Sambo وهو "مجتمع من التابعين البائسين"، أو أنهم على حد قول مؤرخ آخر - هو أولريتش فيلييس - صاروا "خاضعين بحكم الصفة العرقية." بيد أن نظرة إلى سلوك العبيد بشكل كامل أو إلى مقاومتهم اليومية، بدءاً من عدم التعاون بشكل صامت إلى الفرار، جديرة بأن تجعل الصورة المرسومة لهؤلاء العبيد مختلفة اختلافاً كبيراً.

وفى عام ١٧١٠ قال حاكم فيرجينيا أليكسندر سبوت وود محذراً مجلس نواب المستعمرة:

> **للحرية تاج يستطيع - دون لسان - أن يجمع بين كل من يريدون كسر قيود العبودية، ومن هنا لابد أن نضع فى اعتبارنا العواقب الوخيمة المترتبة على أى سعى لتحقيق ذلك. علينا أن نكون على أعلى درجة من درجات الاستعداد، وذلك عن طريق وضع أنفسنا فى موضع دفاعى أفضل، وإصدار قانون يمنع أى مشاورات أو اتصالات بين الزنوج.**

وفى حقيقة الأمر، فإن هذا الاهتمام بتغليظ العقوبات ضد الفارين من العبيد إنما يدل على قوة التمرد لديهم. ولننظر إلى بعض القوانين الخاصة بعقوبات العبيد فى فيرجينيا فى القرن الثامن عشر:

> **لما كان كثير من العبيد قد دأبوا على الفرار والتخفى فى المستنقعات والغابات أو ما شابه من أماكن، ولما كان أمثال هؤلاء قد أقدموا على قتل الحيوانات وإلحاق الأذى والضرر بالسكان... فإنه إذا لم يعد الفارون فى غضون أيام، فعلى من**

يراهم أن يزهق أرواحهم... بأية طريقة... يراها مناسبة. وإذا ما تم القبض على أى منهم، فإنه يصير من حق المحكمة ـ قانونًا ـ أن تصدر حكمًا بتقطيع أوصاله أو ما شابه ذلك من أحكام. فمثل هذه الأحكام جديرة بأن تقوِّم من لا سبيل إلى إصلاحهم، كما أنها جديرة ببث الرعب فى قلوب الآخرين الذين تسول لهم أنفسهم أن يقوموا بالفرار... .

وعثر جيرالد مولين، صاحب كتاب الفرار والتمرد الذى سبقت الإشارة إليه، على إعلانات بالصحف عن عبيد فارين بلغ عددهم بين عامى ١٧٣٦٠ و١٨٠١ حوالى ١١٣٨ رجلاً و١٤١ امرأة. ويكمن السبب الرئيسى وراء هذا الفرار وبهذه الكثرة فى محاولة كل فرد من هؤلاء العثور على بعض أفراد أسرته. ولعل هذا يوضح أنه رغم كل محاولات نظام الرق لتقطيع الأواصر الأسرية عن طريق منع الزواج وفصل أفراد العائلة بعضهم عن بعض، فإن العبيد لم يرضخوا لذلك، ولم يمنعهم الموت أو تمزيق الأوصال من محاولاتهم اليائسة من أجل لم شمل أسرهم.

رغم أن عدد العبيد فى ميريلاند كان يشكل ثلث سكانها فى عام ١٧٥٠، فإن نظام الرق كان قد صار قانونيًا قبل مائة عام، واستصدرت قوانين للسيطرة على العبيد المتمردين. ومن بين حالات التمرد أن نساءً من العبيد قمن بقتل ساداتهن، أحيانًا بدس السم لهم فى الطعام، أو بإشعال الحرائق فى المنازل ومخازن التبغ. وبالرغم من أن العقوبات تراوحت بين الجلد والحكم بالإعدام، فلم تنته أعمال التمرد هذه. ففى عام ١٧٤٢، أُعدم سبعة من العبيد لقيامهم بقتل سيدهم. ويبدو أن الخوف من ثورات العبيد كان حقيقة ثابتة ودائمة فى حياة المزارع حتى أن أحد مالكى العبيد فى فيرجينيا كتب فى عام ١٧٣٦ يقول:

لدينا الآن ما لا يقل عن عشرة آلاف من أولئك المنحدرين من سلالة حام، وكلهم قادرون على حمل السلاح. وهذه الأعداد فى ازدياد يومى، سواء بالميلاد أو عن طريق الجلب. ولذلك فإذا

حدث وقام من بينهم رجل يحالفه الحظ، فلربما يشعل ضدنا حربًا ... تتلون فيها أنهارنا ـ على اتساعها ـ بالدماء.

وكان نظام السيطرة على العبيد الذى وضعه وطوره أسيادهم محكمًا وقويًا استطاعوا به أن يحافظوا على معدل مستوى معيشتهم وأن يضمنوا به وفرة فى الأيدى العاملة. فقد كان نظامًا صارمًا وقاسيًا يتوسل بكل حيلة توظفها الأنظمة الاجتماعية للحفاظ على الثروة والسلطة حيث ينبغى أن يكونا.

ويقول كينيث ستامب:

لم يكن مالك العبيد الفطن ينظر إلى الفكرة القائلة بأن الزنوج لم يولدوا إلا عبيدًا على محمل الجد. فقد أدرك بفطنته أن الزنوج المجلوبين حديثًا من إفريقيا لابد من إذلالهم وتحطيمهم فى سلاسل العبودية، وأن كل جيل تال لابد من تدريبه بعناية شديدة. وليس هذا بالأمر اليسير، فالعبد لم يذعن طواعية. بل إن إذعانه نادرًا ما كان كاملاً، وفى معظم الحالات، لم تكن الحاجة للسيطرة على العبيد لتنتهى ـ على الأقل ليس قبل أن تدرك العبيد إلى ذلك شيخوخة لا يملكون معها إلا الإحساس بالعجز والاستسلام.

ولم تكن قسوة نظام الرق مقتصرة على الجانب البدنى للعبيد، إذ كانت قسوته فى الجانب النفسى شديدة جداً. وكان على العبيد أن يتعلموا الانضباط وقواعد السلوك، وكانت تتعمق لديهم فكرة أنهم الجنس الأدنى كى "يعرفوا مكانهم"، وأن اللون الأسود علامة على تبعيتهم، وأنهم لابد أن يخضعوا لقوة سيدهم، وأن يروا مصلحتهم من خلال مصلحته، وبذلك لا يبقى لهم شئ من قبيل احتياجاتهم الفردية مثلاً. ولكى يتحقق ذلك الانضباط، كان التركيز منصبًا على العمل الشاق وتقطيع الأواصر الأسرية للعبيد، والتأثيرات المهدهدة للدين (الأمر الذى أحيانًا ما أدى إلى "خطر

عظيم"، كما قال أحد مالكى العبيد)، والتفريق بينهم، بحيث يخدم بعضهم فى المزارع، بينما يخدم الآخرون فى أماكن أفضل، كبيوت سادتهم. كما انصب التركيز على قوة القانون والسلطة المباشرة للمشرف على العبيد، تلك السلطة التى كان من شأنها أن تضع موضع التنفيذ عقوبات كالجلد والحرق وبتر الأعضاء أو تشويهها، أو حتى الحكم بالموت. وكانت عقوبة تمزيق الأوصال قد أُدرجت فى قانون فرجينيا عام ١٧٠٥ وأقرت ميريلاند قانونًا فى عام ١٧٢٣ يسمح بقطع آذان السود الذين تعدوا بالضرب على البيض، كما شمل القانون – فى جرائم أكثر خطورة – عقوبة شنق العبيد ثم تمزيق جثثهم والتمثيل بها.

بيد أن ذلك كله لم يضع حدًا لحركات التمرد. صحيح أنها لم تكن كثيرة، لكنها كانت كافية لبث الذعر فى قلوب أصحاب المزارع. وقد وقع أول تمرد واسع النطاق بمستعمرات أمريكا الشمالية فى نيويورك عام ١٧٢١، وكان العبيد يمثلون حوالى ١٠٪ من مجموع سكان المدينة، وكانت هذه هى أعلى نسبة سكانية فى الولايات الشمالية، حيث لم تتطلب الظروف الاقتصادية أعدادًا كبيرة من عبيد المزارع. وخلال هذا التمرد، قام خمسة وعشرون رجلاً أسود وهنديان بإشعال الحريق فى أحد المبانى، ثم قتلوا تسعة من البيض تصادف وجودهم عند هذا المبنى. وألقى الجنود القبض على المتمردين، وقُدموا للمحاكمة، حيث تم إعدام واحد وعشرين منهم. وقد ورد فى تقرير حاكم نيويورك الذى أرسله إلى إنجلترا أنه "تم حرق البعض، بينما شنق عدد آخر من المتهمين وعُذب واحد حتى الموت، وعلق أحدهم حيًا فى قيوده وسط المدينة...." كما أنه قد تم حرق أحد المتمردين على نار هادئة لمدة عشر ساعات ـ وكل ذلك من أجل أن يرعوى الآخرون من العبيد.

وفى عام ١٧٢٠، وصل لندن خطاب من كارولاينا الجنوبية جاء فيه:

أود أن أحيطكم علمًا بأنه وقع لدينا فى الفترة الأخيرة مؤامرة بربرية خسيسة قام بها جمع كبير من الزنوج. كان

هدف المؤامــرة هو القــضــاء على كل أبناء البلد من البـيض والاستيلاء على مدينة "شارلز تاون" كاملة. لكننا، وبحمد الله، تمكنا من كشف المؤامرة وقمنا بسجن الكثيرين من المتآمرين، بينما تم تنفيذ أحكام بالحرق والشنق والطرد على آخرين.

وفى الفترة نفسها تقريباً، نشبت عدة حرائق فى بوسطن ونيو هافن، اتُهم فيها عدد من العبيد الزنوج، وانتهت هذه الحرائق بإعدام أحدهم فى بوسطن، كما أصدر مجلس مدينة بوسطن قانوناً يقضى بجلد من يتجمع من العبيد فى تجمعات تتكون من فَردين أو يزيد. وفى ستونو بكارولاينا الجنوبية تمرد عشرون عبداً فى عام ١٧٣٩، حيث قاموا بقتل حارسين على مخازن السلاح، وسرقة السلاح والذخيرة، ثم توجهوا صوب الجنوب، مشعلين الحرائق فى المبانى، وهم يقتلون من يعترض طريقهم. وفى الطريق، انضم إليهم آخرون حتى صاروا ما يقرب من ثمانين عبداً. وذكر أحد تقارير تلك الفترة أنهم - "كانوا يدقون الطبول، فى مسيرة زاهية الألوان، صارخين بأعلى حناجرهم: الحرية." لكن التمرد لم يستمر طويلاً، إذ هاجمتهم الشرطة فى معركة قتل فيها خمسون عبداً نصفهم من البيض. وقد خلص هربرت أبثيكر، الذى قام ببحث مفصل عن مقاومة العبيد فى أمريكا الشمالية فى كتابه **ثورات العبيد الزنوج الأمريكيين** American Negro Slave Revolts، إلى أنه كان هناك حوالى ٢٥٠ حركة تمرد قام بها العبيد.

على أن مقاومة العبيد لنظام الرق لم تخل من اشتراك بعض البيض، ففى عام ١٦٦٣ شكَّل الخدم البيض المتعاقدون لخدمة أصحاب المزارع، بالاشتراك مع عبيد مقاطعة جلاوسيستر بفرجينيا، خطة للتمرد طلبًا لحريتهم. إلا أن خطتهم باءت بالفشل بسبب الخيانة وانتهت بإعدام كثيرين منهم. ويذكر مولين صاحب كتاب الفرار والتمرد أن إعلانات الصحف عن الفارين من العبيد كثيراً ما وجهت تحذيرات إلى "ذوى النوايا الخبيثة" من البيض الذين يقومون بإيواء العبيد الفارين. وفى بعض الأحيان، كان بعض البيض الأحرار يشتركون مع العبيد فى محاولات الفرار، وأحيانًا

ما يتعاون الطرفان فى ارتكاب الجرائم ضد مالكى العبيد. وفى أحيان أخرى، كان بعض الرجال من العبيد يفرون بمصاحبة نساء بيض. ومن وقت لآخر، كان البحارة والمشرفون على السفن - وهم من البيض - يساعدون العبيد على الفرار ربما عن طريق إدراجهم ضمن أفراد طاقم السفينة.

وكان يعيش فى نيويورك ١٧٤١ عشرة آلاف من البيض وألفان من العبيد السود، وكان شتاء ذلك العام قاسيًا على الفقراء - بيضًا وسودًا وكانت معاناتهم شديدة. وشبت حرائق لم يعرف أحد مَنْ كان وراءها فاتُّهم كثير من البيض والسود بتدبير هذه الحرائق معًا، حتى نما هلع جماعى من الخوف والكراهية ضد المتهمين. وبعد محاكمة مليئة بالاتهامات والاعترافات القسرية، نُفذ حكم الإعدام فى رجلين وامرأتين من البيض ، أما العبيد فقد شُنق ثمانية عشر منهم، بينما أُحرق ثلاثة عشر حتى الموت. ومع ذلك، بدأ يسود نوع آخر من الخوف يفوق فى حدته المخاوف من تمرد السود فى المستعمرات الأمريكية الجديدة، وهو الخوف من أن ينضم الساخطون البيض إلى العبيد من أجل الإطاحة بالنظام القائم. وكان ذلك أمرًا جديدًا، فمنذ السنوات الأولى لنظام الرق - وقبل أن تصبح العنصرية متأصلة كطريقة للتفكير ورؤية الأشياء - كانت هناك فرصة للتعاون بين الخدم البيض القادمين من أوروبا طبقًا لعقود محددة وبين مالكى العبيد وذلك بالرغم من أن معاملة مالكى العبيد كانت سيئة سواء تجاه الخدم البيض أو العبيد السود. ومن هنا كان الخوف على ضياع هذه الفرصة.

وحول هذا الموضوع يقول إدموند مورجان:

> **ثمة إشارات على أن كل مجموعة من المجموعتين الواقعتين تحت الظلم والاحتقار (العبيد السود والخدم البيض) كانت ترى أن الأخرى تشاركها نفس المصير. فقد كان من الشائع، مثلاً، أن يهرب أفراد المجموعتين معًا؛ يسرقون معًا، ويلهون معًا، بل ويمارسون الحب معًا. وفى "تمرد بيكون" كانت**

آخر مجموعة تعلن استسلامها تتألف من حوالى ثمانين زنجيًا وعشرين خادمًا إنجليزيًا.

وكما يقول مورجان، كان السادة "فى البداية على الأقل، ينظرون إلى الخدم البيض نفس نظرتهم إلى العبيد... فالكل عندهم كسالى غير مسئولين، بعيدون عن الصدق والإخلاص والأمانة" كما أنه "لو رأى الأحرار ذوو الآمال المحبطة مصلحة لهم مع العبيد اليائسين، فربما تكون النتائج أسوأ من أى شئ قام به بيكون فى التمرد الشهير."

ومن ثم، اتخذت الإجراءات اللازمة للحفاظ على الفرصة القائمة للتعاون بين مالكى العبيد والخدم البيض. وفى الوقت نفسه، أصدر المجلس النيابى لفرجينيا عدة قوانين جديدة من شأنها أن تفرض قواعد صارمة للنظام والعقوبات:

إيمانًا منها بأن البيض أرقى مرتبة من السود، قررت الطبقة الحاكمة بفرجينيا أن تقدم عدة مكاسب إلى نظرائها (البيض) الأدنى فى المرتبة الاجتماعية وهى مكاسب لم يتمتعوا بها من قبل. ففى عام ١٧٠٥ صدر قانون يطالب السادة بأن يمدوا الخدم البيض من ذوى العقود طويلة الأجل بزيادة مقدارها عشرة مكاييل من الذرة وثلاثين شلنًا وبندقية. وبمقتضى نفس القانون تحصل الخادمات على خمسة عشر مكيالاً من الذرة وأربعين شلنًا. وعلاوة على ذلك، يحصل الخدم، الذين حازوا حرياتهم حديثًا، على خمسين آكر من الأرض.

ويختتم مورجان قائلاً: "وبمجرد أن شعر المزارع الصغير بأنه لم يعد يُستغل استغلالاً كبيراً عن طريق الضرائب وأن أموره الاقتصادية فى ازدهار، قلّ شغبه وخطره وزاد احترامه. وبهذا بدأ ينظر إلى جاره الأقوى والأكبر على أنه حام لمصالحهما المشتركة وليس مصدراً للاغتصاب والابتزاز."

ونستطيع الآن أن نرى أن شبكة معقدة من الخيوط التاريخية قد أوقعت السود فى شراك العبودية بأمريكا. وتتجلى هذه الشبكة المعقدة فى حاجة المستوطنين الماسة إلى أيدٍ عاملة، وفى قلة حيلة الأفارقة الذين تم اقتلاعهم من أوطانهم، وفى الحافز القوى للربح العائد على تجار العبيد وأصحاب المزارع. كما كان هناك الإغراء بالنمو الاقتصادى للفقراء من البيض، والسيطرة الشديدة على محاولات الفرار والتمرد، ناهيك عن العقوبات الاجتماعية المفروضة على أى تعاون قد يقوم بين البيض والسود.

وخلاصة القول أن خيوط هذه الشبكة خيوط تاريخية وليست "طبيعية"، ولا يعنى هذا سهولة فك هذه الخيوط، وإنما يعنى احتمال وجود شىء آخر، تحت ظروف تاريخية لم تتحقق بعد. وأحد هذه الظروف هو استئصال ذلك الاستغلال الطبقى الذى جعل الفقراء من البيض يتحرقون شوقًا إلى "عطايا" تحسِّن من وضعهم الطبقى، كما حال ذلك الاستغلال الطبقى دون الوحدة الضرورية بين البيض والسود التى كان من شأنها أن تشعل نار التمرد المشترك وتعمل على صناعة ظروف تاريخية أفضل.

وتحمل كلمات أحد التصريحات الصادرة عن مجلس نواب فيرجينيا فى عام ١٧٠٠ مغزى تاريخيًا واضحًا:

> **يتألف غالبية الخدم المسيحيين فى هذا البلد من أكثر العناصر الأوروبية سوءًا ... ولما كان غالبيتهم قد جُلبوا من أيرلندا وأمم أخرى ـ مما يعنى أنهم خدموا فى أوطانهم كجنود فى الحروب ـ فإننا فى ظل ظروفنا الحالية لا نكاد نحكم السيطرة عليهم. ولذلك فإن هناك من الأسباب ما يجعلنا نخشى ثورتهم علينا، خاصة لو سنحت لهم فرصة الحصول على أسلحة أو التجمع بأعداد كبيرة.**

كان هذا وعيًا طبقيًا، بل كان خوفًا طبقيًا. يشهد بذلك ويؤكده ما كان يحدث فى فرجينيا ومستعمرات أخرى.

الفصل الثالث

تمرد « الرعاع والدهماء »

فى عام ١٦٧٦ وبعد سبعين عامًا من تأسيسها وقبل مائة عام من قيامها بقيادة الثورة الأمريكية، واجهت مستعمرة فرجينيا تمردًا تزعمه الرواد الأوائل من البيض، وشاركهم فيه كثير من العبيد والخدم. كان تمردًا كبيرًا، اضطر معه حاكم المستعمرة إلى الفرار من جيمس تاون المحترقة، كما اضطرت إنجلترا إلى إرسال ألف جندى عبر الأطلنطى، على أمل النجاح فى حفظ النظام وسط أربعين ألفًا من المستعمِرين. كان ذلك هو تمرد بيكون. وبعد القضاء على هذا التمرد وقتل قائده ناثانيال بيكون وإعدام رفاقه، جاء وصف لبيكون فى تقرير لإحدى اللجان الملكية كالتالى:

> **قيل إنه كان يبلغ من العمر أربعة وثلاثين أو خمسة وثلاثين عامًا. غير مكترث. طويل لكنه نحيف. كان أسود الشعر، ذا طبيعة متشائمة حزينة، ويملك منطقًا قويًا مسيطرًا. يغلب عليه ميل إلى الإلحاد ونجح فى إغواء السوقة والجهلة، الذين يمثلون ثلثى سكان كل مقاطعة، حتى تعلقت به قلوبهم وآمالهم. اتهم حاكمَ المستعمرة بالإهمال والخسة والخيانة وعدم القدرة على تصريف الأمور، كما وصف القوانين والضرائب بأنها ظالمة ونادى بضرورة الإصلاح. وأثار الفتنة والشغب بين الناس، حتى تبعته الجموع المشاغبة وتمسكت به، فدون أسماءهم على ورقة كبيرة، فى شكل دائرى كى يستعصى على السلطات اكتشاف**

أسماء القادة. وبعد تجميعهم فى تلك الدائرة وتوزيع البراندى عليهم، جعلهم يقسمون بالوقوف إلى جوار بعضهم البعض وبمناصرته، ثم اتجه إلى مقاطعة نيو كينت وبث فيها بذور التمرد.

وقد بدأ تمرد بيكون بنزاع يتعلق بكيفية التعامل مع الهنود الحمر القريبين من الحدود الغربية والذين كانوا يشكلون تهديدًا دائمًا. وكان كثير من البيض، الذين لم يحصلوا على أى أراض فى جيمس تاون، قد اتجهوا غربًا بحثًا عن الأرض، وهناك واجهوا الهنود الحمر. والسؤال الآن: هل كان هؤلاء الفرجينيون الأوائل ناقمين على الساسة والأغنياء الذين تحكموا فى أمور المستعمرة فى جيمس تاون ودفعوهم إلى الاتجاه غربًا داخل الأراضى الهندية، وعند المواجهة، بدأ هؤلاء الأوائل فى محاربة الهنود؟ ربما يساعد ذلك على تفسير طبيعة التمرد، الذى يصعب تصنيفه وتحديد ما إذا كان موجهًا ضد الهنود أم ضد الأغنياء، لأنه كان ينطوى على الأمرين معًا.

ثم ماذا عن وليم بير بركلى، حاكم المستعمرة وبطانته فى جيمس تاون؟ هل كانوا مهادنين للهنود باتخاذ بعضهم جواسيس وحلفاء، حتى استطاعوا أن يحتكروا الجانب الشرقى ولجأوا إلى استعمال بعض الأوائل من البيض كحاجز أو مصدّ طلبًا للأمن والسلام؟ لقد كانت حاجة الحكومة إلى قمع التمرد ذات دافعين، تمثل الأول فى رسم سياسة من شأنها أن تفرق بين الهنود بهدف السيطرة عليهم، خاصة أن الزعيم ميتاكوم كان عامل تهديد للحكومة بمحاولته توحيد قبائل الهنود، كما ألحق ضررًا بالغًا بالمستوطنات البيوريتانية فى "حرب الملك فيليب". وتمثل الدافع الآخر فى تعليم فقراء البيض بأن التمرد لا يفيد، وذلك عن طريق استعراض القوة المتفوقة، وجلب قوات من إنجلترا نفسها، والإعدام الجماعى للمتمردين.

وكان العنف قد تصاعد على الجبهة قبل التمرد؛ حيث استولى بعض هنود "الدويج" Doeg على بعض الخنازير القليلة استيفاءً لدين لدى البيض. فقام البيض،

أثناء استردادهم لهذه الخنازير، بقتل اثنين من الهنود. وعلى إثر ذلك، أرسل الهنود مجموعة محاربين لقتل أحد الرعاة البيض، فردت إحدى الميليشيات البيضاء بقتل أربعة وعشرين من الهنود، وهو الأمر الذى أدى إلى سلسلة من الغارات الهندية، حيث تحول الهنود، الأقل عدداً من البيض، إلى انتهاج أسلوب حرب العصابات. وأعلن مجلس نواب جيمس تاون الحرب على الهنود، مع اقتراح باستثناء المتعاونين منهم. وأثار هذا الاستثناء غضب الرواد البيض Frontierspeople الذين أرادوا شن حرب شاملة، لكنهم، فى الوقت نفسه، أبدوا استياءهم من الضرائب المبالغ فيها والتى فُرضت عليهم من أجل الحرب.

وشهد العام ١٦٧٦ أوقاتا عصيبة. فقد كتب ويلكوم واشبيرن Wilcomb Washburn، الذى أعد دراسة شاملة لتمرد بيكون، معتمداً على التقارير الاستعمارية البريطانية: "كان ثمة كرب وفقر شديدان... إذ تتحدث كل المصادر المعاصرة عن جموع الناس الذين يعيشون تحت وطأة ظروف اقتصادية شديدة القسوة". وكان صيف ذلك العام جافًا، أفسد محصول الذرة، وهو المصدر الرئيسى للطعام، كما أفسد محصول التبغ وهو السلعة الرئيسية للتصدير. وكتب حاكم المستعمرة بيركلى واصفًا موقفه وهو الذى تجاوز السبعين ومّل من شغل وظيفته: "ما أشد بؤس ذلك الإنسان الذى يحكم شعبًا يعانى ستة من بين كل سبعة فيه على الأقل من الفقر والدين وعدم الرضا، فضلاً عن أن كثيرًا منهم مسلحون!"

وتوحى عبارة "ستة من بين سبعة" بوجود طبقة عليا لم يضربها الفقر. والحقيقة أن هذه الطبقة كانت قد تشكلت بالفعل فى فرجينيا، بل وخرج بيكون نفسه من صفوف هذه الطبقة، إذ كان يملك أرضًا، وربما كان حماسه لقتل الهنود أكبر من حماسه لمداواة آلام الفقراء. لكنه أصبح رمزًا للسخط العام ضد المؤسسة فى

فرجينيا، وانتُخب عضواً بمجلس النواب فى ربيع ١٦٧٦ . وعندما أصّر على تشكيل كتائب مسلحة لمحاربة الهنود، خارج النطاق الرسمى، أعلن بيركلى، حاكم المستعمرة، بأن بيكون متمرد وأمر بإلقاء القبض عليه، مما أدى إلى خروج ألفين من مستوطنى فرجينيا فى مسيرة تأييد لبيكون. واضطر بيركلى إلى إطلاق سراح بيكون فى مقابل اعتذاره، لكن بيكون خرج من السجن وجمع ميليشياته وبدأ فى الإغارة على الهنود.

ويحوى "إعلان الشعب ـ يوليو ١٦٧٦" والذى أصدره بيكون، خليطًا من السخط الشعبى ضد الأغنياء وكراهية الرواد للهنود. فقد أدان هذا الإعلان إدارة بيركلى لفرضها ضرائب ظالمة وممارستها للمحسوبية فى الوظائف العليا واحتكارها تجارة الفراء وتقاعسها عن حماية المزارعين من الهنود. بعد هذا الإعلان، خرج بيكون لمهاجمة هنود بامونكى وقتل منهم ثمانية وأخذ بعضهم أسرى ودمّر ممتلكاتهم.

وثمة دلائل على أن جنود جيش بيكون المتمرد وكذلك جنود جيش بيركلى الرسميين لم يكونوا فى درجة حماس قادتهم، وهذا ما دفع كثيراً من جنود الجيشين إلى الفرار، حسب ما ورد فى دراسة واشبيرن. وفى خريف ذلك العام، مرض بيكون ثم مات وهو فى التاسعة والعشرين من عمره وذلك بسبب "أسراب الحشرات التى توالدت فى جسده" حسب ما قال أحد معاصريه. وقام كاهن، لا يبدو عليه أى تعاطف مع بيكون ، بنقش هذه الكلمات على قبره:

مات بيكون. يملؤنى الأسى

أن يكون القمل والإسهال قاتليه.

ولم يستمر التمرد بعد ذلك طويلاً؛ إذ أصبحت سفينة مسلحة بثلاثين مدفعًا، وتتجول فى نهر يورك، قاعدةً لحفظ النظام، ولجأ قائدها توماس جرانثام إلى القوة والخداع من أجل نزع سلاح المتمردين. وعندما وصل جرانثام إلى الحصن الرئيسى

للتمرد، وجد به أربعمائة من المسلحين الإنجليز والزنوج، وكانوا خليطاً من الرجال الأحرار والخدم والعبيد، فوعد بالعفو عنهم جميعًا ووعد الخدم والعبيد بإعطائهم حريتهم، فسلموا أسلحتهم وانصرفوا باستثناء ثمانين من الزنوج وعشرين من الإنجليز أصروّا على الاحتفاظ بأسلحتهم. وعندئذ وعدهم جرانثام باصطحابهم إلى حصن بمحاذاة النهر، ولكن، ما إن أصبحوا على متن السفينة، حتى راح يستعرض قدرات مدافعه عليهم لإنزال الفزع بهم، ونزع أسلحتهم ثم سلمهم إلى سادتهم بعد ذلك. واقتحم القائد الحصون الباقية واحداً واحداً وأعدم ثلاثة وعشرين من قادة المتمردين شنقًا.

وكانت سلسلة القهر فى فيرجينيا شديدة التعقيد، إذ كان البيض الأوائل يستغلون الهنود الحمر، وكانت صفوة جيمس تاون تستغل هؤلاء الأوائل عن طريق فرض ضرائب باهظة عليهم، وكانت إنجلترا تستغل المستعمرة كلها؛ إذ كانت تشترى التبغ من المستعمرين بأسعار تمليها هى، حتى أن نصيب الملك كان يصل إلى مائة ألف من الجنيهات فى العام الواحد، وحتى أن بيركلى حاكم فرجينيا، عند وصوله إلى إنجلترا قبل سنوات للاحتجاج على قوانين البحرية الإنجليزية التى مكنت التجار الإنجليز من احتكار التجارة الاستعمارية، قال:

> **لا نملك إلا أن نعبر عن سخطنا على أن ينزل الفقر الشديد بأربعين ألفًا فى سبيل إثراء ما يزيد قليلاً على أربعين تاجراً، هم المشترون الوحيدون لما ننتجه من التبغ ويحددون السعر الذى يحلو لهم، وبوصوله هنا، يبيعونه بالسعر الذى يحلو لهم وذلك مقابل دفع أجور لأربعين ألفًا من الخدم، وهى أجور زهيدة تقل عما ينفقه مالكو العبيد... .**

ويتضح من شهادة الحاكم نفسه أن التمرد نال تأييداً كبيراً من كل سكان المستعمرة. وقد صرح أحد أعضاء مجلس المستعمرة أن التحول الذى حدث كان "عامًا تقريبًا" وأرجعه إلى "ميول بعض الأشخاص من اليائسين الذى تملكتهم آمال عريضة

بانتزاع البلاد كاملة من أيدى صاحب الجلالة." وقال عضو آخر هو ريتشارد لى إن تمرد بيكون كان فى بدايته منصبًا على السياسة المنتهجة تجاه الهنود، لكن "الميول المتحمسة لغالبية سكان المستعمرة" فى تأييد بيكون كانت بسبب "آمال المساواة".

وكان معنى "المساواة" هو إعادة توزيع الثروة بالتساوى، وكان ذلك الأمل سببًا رئيسيًا لأفعال لا حصر لها قام بها فقراء البيض ضد الأغنياء فى كل المستعمرات الإنجليزية على مدار قرن ونصف قبل الثورة.

وكان الخدم الذين التحقوا بتمرد بيكون يمثلون جزءًا كبيرًا من الطبقات المطحونة البائسة التى جاءت إلى مستعمرات أمريكا الشمالية من مدن أوروبية ضاقت حكوماتها بأمثالهم وكانت تتوق إلى التخلص منهم. ففى إنجلترا، أدى تطور التجارة والرأسمالية إبان القرنين الخامس عشر والسادس عشر ووقف الأراضى على تربية الأغنام من أجل إنتاج الأصواف، مما أدى إلى امتلاء المدن الإنجليزية بالفقراء، وبداية من عصر الملكة اليزابيث، سُنَّت قوانين لمعاقبتهم أو سجنهم فى ورش العمل أو حتى نفيهم خارج البلاد. وكان من بين التعريفات لكلمتى "المتشرد أو المحتال" خلال العصر الإليزابيثى:

> **كل من يدعون أنفسهم متعلمين ويجوبون الشوارع تسولاً، وكل المشتغلين بالبحر ويزعمون أنهم فقدوا سفنهم وبضائعهم ويطلبون من الناس مساعدتهم، وكل العاطلين المتسولين الذين يدعون أنهم من أصحاب الحرف وكذلك كل من يقدمون الألعاب الترفيهية والمهرجين ... وكل المتجولين والعمال صحيحى الأبدان الذين يلجأون إلى التسكع ويرفضون العمل مقابل الأجور المعقولة المتعارف عليها ...**

وعند إلقاء القبض على أمثال هؤلاء، كان يتم تعرية النصف الأعلى لأجسادهم ويجلدون حتى تدمى جلودهم، أو يتم طردهم من المدينة أو يتم إرسالهم للعمل فى

الورش الكبيرة، أو يُطردون من البلاد. وعلى مدار القرنين السابع عشر والثامن عشر، ونتيجة للنفى الإجبارى والوعود والإغراءات والأكاذيب والاختطاف والحاجة الماسة للهروب من ظروف المعيشة على أرض الوطن، أصبح الفقراء الراغبون فى السفر إلى أمريكا سلعة تجلب الأرباح للتجار وملاحى السفن. وبالتالى، أصبحوا نفس الشيء لسادتهم فى أمريكا. ففى دراسته عن جلب الخدم بعقود موثقة، تحمل عنوان **مستعمِرون فى الأغلال** Colonists in Bondage، يقول أبوت سميث :Abbot Smith "من بين العناصر المركبة والمؤدية إلى الهجرة إلى المستعمرات الأمريكية، تبرز إحداها بوضوح كأقوى عامل مسبب لهجرة الخدم؛ تلك هى الفائدة المالية المجلوبة من وراء شحنهم إلى المستعمرات."

وبعد التوقيع على وثيقة، يوافق المهاجرون بمقتضاها على تحمل نفقات شحنهم عن طريق العمل لدى سيد من السادة مدة خمسة أو سبعة أعوام، غالبًا ما كان يتم سجن هؤلاء حتى تقلع السفينة، وذلك للتأكد من أن أحدًا منهم لن يفر. وفى عام ١٦١٩ قام مجلس النواب الخاص بفرجينيا، وهو أول تجمع نيابى فى أمريكا وتأسس فى العام نفسه، بتوثيق العقود بين السادة والعبيد وتنفيذها. وكما هو الحال فى أى عقد بين طرفين غير متساويين، فقد بدا الطرفان متساويين على الورق فقط، أما مسألة تنفيذ ما ورد فى العقود، فكانت بالطبع أيسر على السيد منه على خادمه.

وكانت الرحلة إلى أمريكا تستمر ثمانية أو عشرة أو اثنى عشر أسبوعًا، وكان الخدم يُكدسون داخل السفن كما تُعبأ البضائع، بنفس الدرجة من السعار الشديد لتحقيق الأرباح التى كانت تميز سفن العبيد. وكان الطعام ينفد إذا كان الطقس سيئًا أو إذا استغرقت الرحلة مدة أطول. فقد استغرقت رحلة السفينة "سى فلاور" Sea-Flower، والتى غادرت بلفاست فى عام ١٧٤١، ستة عشر أسبوعًا، وعندما وصلت بوسطن، كان ستة وأربعون من ركابها البالغين ١٠٦ راكبًا، قد ماتوا جوعًا ومن بينهم ستة أقدم الناجون على أكل جثثهم كى يظلوا على قيد الحياة. وفى رحلة

أخرى، مات اثنان وثلاثون طفلاً بسبب الجوع والمرض وأُلقيت جثثهم فى مياه المحيط. وصف جوتليب ميتلبيرجر، وهو موسيقى سافر من ألمانيا إلى أمريكا فى عام ١٧٥٠، رحلته قائلاً:

> **أثناء الرحلة، تمتلئ السفينة بأمارات الكرب والمحن، كالروائح الكريهة، والعوادم، والخوف والغثيان وكل أمراض البحر، والحمى والدوسنتاريا والصداع والحرارة والإمساك والإسقربوط والسرطان وعفونة الفم وما شابه ذلك مما تسببه الدرجة العالية لملوحة الطعام، خاصة اللحوم، والحالة السيئة والقذرة للمياه ... ناهيك عن نقص الطعام والجوع والظمأ والصقيع والخوف والإحساس بالبؤس والأسى والهوان ... وأذكر يومًا هبّت فيه عاصفة شديدة، وكانت هناك امرأة تعانى آلام المخاض وعانت معاناة شديدة فى تلك الظروف السيئة ولم ينجح أحد فى إخراج طفلها، فتم التخلص منها عن طريق دفعها إلى البحر من خلال إحدى الفتحات الجانبية للسفينة ...**

وكان يتم بيع وشراء الخدم المتعاقدين كالعبيد، وهاهو أحد الإعلانات، يعود تاريخه إلى ٢٨ مارس ١٧٧١ ونشر بصحيفة "فرجينيا جازيت": "وصلت توًا إلى ليدز تاون Leedstown السفينة جوستيتيا، وعلى متنها مائة من الخدم الأشداء الأصحاء: رجال ونساء وأولاد ... سيبدأ البيع يوم الثلاثاء، الثانى من إبريل."

ووسط الحكايات الوردية التى تتحدث عن مستويات المعيشة المرتفعة فى الأمريكتين، لابد أن يضع المرء حكايات أخرى كثيرة فى اعتباره، وهى حكايات تشبه كثيراً أحد الخطابات التى أرسلها مهاجر من أمريكا قال فيه: "من كان ميسوراً فى أوروبا، فأفضل له أن يبقى هناك. فهنا البؤس والكرب، كما هو الحال فى كل مكان، ولربما وصل البؤس والكرب بأناس هنا لا سبيل إلى مقارنتهم بالبائسين والمكروبين فى أوروبا."

وكان الضرب والجلد شائعين وكذلك كان اغتصاب الخادمات. وشهد أحد المراقبين قائلاً: "رأيت أحد المشرفين يضرب خادمًا بعصى على رأسه حتى شجها وخرج منها الدم، وذلك لخطأ تافه لا يكاد يذكر." كما سجلت محكمة ميريلاند حالات كثيرة لحوادث انتحار الخدم. وفي العام ١٦٧١، ذكر حاكم فرجينيا أن أربعة أو خمسةً من الخدم ماتوا فى أعوام سابقة نتيجة المرض وذلك بعد وصولهم مباشرة. وكان بين الخدم أطفال كثيرون فقراء، كانوا يتجمعون بالمئات فى شوارع المدن الإنجليزية حيث يتم إرسالهم إلى فرجينيا من أجل العمل.

وكان السيد يحاول طول الوقت أن يتحكم فى الحياة الجنسية للخدم تحكمًا كاملاً ، إذ كان من مصلحته الاقتصادية أن يحول دون زواج الخادمات ودون علاقاتهن الجنسية لأن نتيجة ذلك، وهو الحمل، سوف يتعارض مع ما تقوم به الخادمات من عمل. ولقد نصح بنيامين فرانكلين، الذى كان يكتب فى عام ١٧٣٦ تحت توقيع "ريتشارد المسكين"، قراءه قائلاً: "لتكن خادمتك أمينة، قوية، وعطوفة."

ولم يكن من حق الخدم أن يتزوجوا دون إذن من سادتهم، وإلا فُرق بينهم وبين عائلاتهم أو تعرضوا للجلد، بل إن قانون بنسلفانيا فى القرن السابع عشر كان ينص على أن زواج الخدم "دون موافقة سادتهم سوف ينظر إليه على أنه زنا وفسوق ولن يكون أطفال مثل هذا الزواج سوى لقطاء."

وبالرغم من وجود قوانين لوقف التجاوزات ضد الخدم، فلم يكن ثمة تطبيق سليم لهذه القوانين، وبإمكاننا أن نعرف الكثير من دراسة ريتشارد موريس الشاملة عن سجلات المحاكم والتى تحمل عنوان **الحكومة والعمال فى أمريكا الباكرة** **Government and Labor in Early America .** فلم يكن من حق الخدم أن يشتركوا فى المحاكمات

كمحلفين(*)، وبما أنهم لا يملكون ثروة، فلم يكن من حقهم التصويت فى الانتخابات. فى عام ١٦٦٦، اتهمت إحدى محاكم نيو إنجلاند زوجين بالمسئولية عن مقتل خادم وذلك بعد أن قامت الزوجة بتقطيع أصابع قدمى الخادم، لكن المحلفين صوتوا لصالح إطلاق سراح المتهمين. وفى فرجينيا، فى نفس العقد، اتُهم أحد السادة باغتصاب خادمتين، وكان قد عرف عنه دأبه على ضرب زوجته وأطفاله، كما أنه كبَّل خادمًا آخر وجلده حتى الموت. ورغم الأدلة الواضحة، اكتفت المحكمة بلومه، مبرئة إياه من تهمة الاغتصاب.

وكثيرًا ما نظّم الخدم حركات تمرد، لكن لم يكن ثمة حركة تمرد من ذلك النوع من المؤامرات الواسعة النطاق التى شهدتها باربادوس بجزر الهند الغربية، على سبيل المثال. (وربما يعود ذلك، كما يقول أبوت سميث، إلى أن فرصة نجاح مثل هذه التمردات تكون أكبر إذا حدثت فى جزر صغيرة).

وعلى الرغم من ذلك، فقد حدث فى فرجينيا فى عام ١٦٦١، أن اقترح خادم يدعى إيزاك فريند على خادم آخر، بعد غضب شديد وسخط على الطعام، أن يقوما بجمع أربعين منهم معًا وأن يجمعوا أسلحة، وأنه سيكون أول من يقودهم، ويرفع صوته أثناء مسيرتهم صائحًا "من يريد الحرية والخروج من الأغلال؟" وأن آخرين سوف ينضمون إلى مسيرتهم، وأنهم سوف يجوبون البلاد ويقتلون من تسول له نفسه معارضتهم، وسوف تكون غايتهم إما الحرية أو الموت.

غير أن هذه الخطة لم تنفذ، لكن الخدم خططوا للقيام بانتفاضة عامة وذلك بعد عامين فى مقاطعة جلاوسيستر، إلا أن أحد المخططين للانتفاضة أبلغ عن زملائه،

(*) من المعروف أن هيئة المحلفين فى أى محاكمة تتشكل من المواطنين العاديين ، والإشارة هنا إلى أن هؤلاء الخدم البيض الذين كان يتم جلبهم من أوروبا وفقًا لعقود موقَّعة كانوا يتعرضون لنوع من التمييز الطبقى مثلهم فى ذلك مثل السود العبيد أو الأحرار . والمعنى الذى يقصده الكاتب أن التمييز كان طبقيًا أكثر منه عرقيًا . (المترجم).

حيث أعدم أربعة منهم، ومنح المبلّغ حريته بالإضافة إلى خمسمائة طن من التبغ. ورغم ندرة تمرد الخدم، كان الخطر قائمًا بصفة دائمة، كما كان السادة يخشون دائمًا هذا الخطر.

ونظرًا لصعوبة تحمل الوضع، وثبات عدم جدوى حركات التمرد فى مجتمع يزداد مع الأيام تنظيماً، فقد لجأ الخدم إلى الحلول الفردية؛ إذ تكشف ملفات محاكم البلاد فى نيو انجلاند، أن خادمًا قام بضرب سيده بمذراة القمح، وأن خادمًا صغير السن اتهم "بتهديد... سيده بحركات عنيفة من يده، وبطرحه مرتين على الأرض حتى سال دمه، كما اتهم بأنه هدد بأنه سيكسر رقبة سيده، ملوحًا فى وجهه بأحد المقاعد..." كما جيء بخادمة أمام المحكمة وذلك أنها كانت "سيئة، عنيدة، مثيرة للمشاكل، كما حبىء تفسد أشياء كثيرة حولها ولاتطيع أوامر سيدها."

وبعد اشتراك الخدم فى تمرد بيكون الشهير، أصدر المشرعون فى فرجينيا عدة قوانين لمعاقبة المتمردين منهم، حيث تقول الديباجة التمهيدية لهذه القوانين:

> **فى الوقت الذى هرب فيه الخدم ذوو النفوس التى يملؤها الشر فى الآونة الأخيرة، التى شهدت تمردات مروعة، من عملهم وتبعوا المتمردين، مستغلين مزية الحرية التى ينعمون بها، ومهملين عمل سادتهم، يعانى السادة المذكورون من خسائر وإصابات كبيرة.**

وبقيت مجموعتان من الجنود الإنجليز فى فرجينيا، لمواجهة أية مشاكل قد تظهر فى المستقبل، ويقول التقرير الذى أرسل إلى لجنة التجارة والزراعة بمجلس الشيوخ، والذى يدافع عن بقاء هؤلاء الجنود: "إن فرجينيا فقيرة فى الوقت الحالى، كما إنها أصبحت مأهولة بالناس أكثر من ذى قبل. وثمة خوف كبير من اندلاع ثورة بين الخدم، نظرًا للنقص فيما يحتاجونه من ضرورات، الأمر الذى قد يدفعهم إلى نهب المحلات والسفن."

وكان الهرب أيسر من التمرد. ويقول ريتشارد موريس، الذى عكف على فحص ودراسة الصحف الاستعمارية الخاصة بالقرن السابع عشر: "وقعت أمثلة كثيرة على الفرار الجماعى فى المستعمرات الجنوبية ... وكان الجو العام فى فرجينيا خلال القرن السابع عشر مشحونًا بالمؤامرات والشائعات الخاصة بهروب الخدم." وتقول سجلات محكمة ميريلاند أنه فى عام ١٦٥٠، كان ثمة مؤامرة دبرها اثنا عشر خادمًا لخطف أحد القوارب واللجوء إلى استخدام السلاح إذا حدثت مقاومة، ولكن ألقى القبض عليهم وتم جلدهم.

وكانت آلية السيطرة شديدة الإحكام؛ إذ كان على الغرباء أن يقدموا جوازات مرورهم أو شهادة تثبت أنهم أحرار، كما كانت الاتفاقيات بين المستعمرات تنص على تسليم الخدم الهاربين، وكان هذا هو أساس العبارة التى وردت فى الدستور الأمريكى، التى تقول بتسليم من يعمل فى إحدى الولايات وهرب إلى ولاية أخرى.

كما لجأ الخدم إلى الإضراب عن العمل فى بعض الأحيان. ففى عام ١٦٦٣،على سبيل المثال، اشتكى أحد السادة فى ميريلاند عماله أمام المحكمة الإقليمية قائلاً إنهم "يرفضون، بشكل قاطع، القيام بتأدية عملهم العادى"، فرد الخدم بأن سيدهم لا يطعمهم سوى "الخبز والفاصوليا" وأنهم "ضعاف غير قادرين على أداء ما يطلبه السيد من أعمال"، فما كان من المحكمة إلا أن حكمت بجلد كل منهم ثلاثين جلدة.

وقد جاء أكثر من نصف المستوطنين الذى وصلوا إلى شواطئ أمريكا الشمالية كخدم، وكان معظمهم من الإنجليز فى القرن السابع عشر، بينما كانت غالبيتهم من الألمان والأيرلنديين فى القرن الثامن عشر. وبمرور الوقت، حل العبيد محل الخدم، وذلك لأن هؤلاء فرّوا إلى حريتهم. وبنهاية ١٧٧٥، كان البيض من الخدم يمثلون ١٠٪ من سكان ميريلاند.

ولكن ماذا حدث لهؤلاء الخدم بعد أن باتوا أحرارًا؟ هناك كتابات مبهجة تقول إن أحوال هؤلاء الخدم قد ازدهرت، وأصبحوا مُلاّكا للأراضى كما أصبحوا من الشخصيات البارزة فى المجتمع. لكن أبوت سميث، بعد دراسة دقيقة، يخلص إلى أن المجتمع الاستعمارى "لم يكن ديمقراطيًا، كما أنه لم يؤمن، بكل تأكيد، بالمساواة بين الناس، إذ كانت تسيطر عليه حفنة من الرجال الذين بلغت ثرواتهم حدًا يجبر الآخرين على العمل لديهم." وقليل من هؤلاء الرجال خرج من بين الخدم المؤجرين وفقًا لعقود محددة، وبذلك لم يكن أحد منهم، فى واقع الأمر، ينتمى إلى تلك الطبقة.

وبعد أن يبدى أبوت سميث ازدراءه للخدم، الذين عرّفهم بأنهم "رجال ونساء يتسمون بالقذارة والكسل والفظاظة والجهل. ... أنهم مجرمون فى غالب الأحيان. جوّالون لصوص، لهم أطفال غير شرعيين... وأفسدوا المجتمع بأمراض كريهة"، يقرر أن "واحدًا من بين كل عشرة كان سليمًا صلبًا يستطيع إذا ساعده الحظ أن يحرز بعض النجاح ويمتلك أرضًا وتزدهر معيشته." وربما أصبح واحد آخر من بين كل عشرة مشرفًا على العمال أو صانعًا ماهرًا. أما الباقون من "اليائسين والمحطمين"، وهؤلاء يمثلون حوالى ٨٠٪، فقد "ماتوا أثناء فترة السخرة والاستعباد، أو عادوا إلى إنجلترا بعد انتهاء فترة سخرتهم، أو أصبحوا من فقراء البيض."

ومما يعزز النتائج التى توصل إليها سميث دراسة حديثة عن الخدم فى ميريلاند القرن السابع عشر، حيث ثبت أن الدفعات الأولى من الخدم أصبحوا ملاكًا للأراضى وناشطين سياسيًا داخل المستعمرة، غير أن أكثر من نصفهم، بنهاية القرن نفسه وبعد عشر سنوات من الحرية، بقوا كما هم؛ بلا أراض يملكونها وأصبح كثير منهم مستأجرين يقومون بتوفير العمالة الرخيصة لأصحاب المزارع الكبرى سواء أثناء فترة سخرتهم أو بعدها.

ومن الواضح تمامًا أن الخطوط الطبقية قد باتت جد واضحة خلال الحقبة الاستعمارية؛ إذ أصبح الفارق بين الأغنياء والفقراء أكثر حدة. وبحلول عام ١٧٠٠، كان بفرجينيا خمسون أسرة غنية، يملكون ثروة تعادل خمسين ألف جنيه، وهذا مبلغ

كبير من المال فى تلك الأيام. وكانت هذه الأسر تعيش عيشة رغدة على ما ينتجه الخدم والعبيد السود، وتملك مزارع شاسعة، وتتصدر مجلس حاكم المستعمرة، ويشغل أفراد منها وظائف القضاة المحليين. وفى ميريلاند، كان يحكم المستوطنين صاحب أملاك منحه الملك الإنجليزى حق السيطرة الكاملة على المستعمرة، مما أدى إلى اندلاع خمسة حركات تمرد ضده، فى الفترة من عام ١٦٥٠ إلى عام ١٦٨٩ .

وفى كارولاينا الشمالية والجنوبية، كانت الدساتير الأساسية من وضع جون لوك **John Locke**، فى ستينيات القرن السابع عشر، وهو الذى يعتبر الأب الفلسفى للآباء المؤسسين **Founding Fathers** وللنظام الأمريكى. وكان من شأن دستور لوك خلق أرستقراطية إقطاعية، إذ كان يقضى بأن يملك ثمانية بارونات ٤٠٪ من أراضى المستعمرة، وبأن لا يشغل منصب حاكم المستعمرة إلا مَنْ كان بارونًا. وبعد أن أحكم التاج البريطانى سيطرته على كارولاينا الشمالية، فى أعقاب تمرد كبير ضد تدابير تملك الأراضى، استولى المضاربون الأغنياء على أكثر من نصف مليون أكر لأنفسهم، وبذلك احتكروا الأراضى الزراعية عالية الجودة القريبة من الساحل، بينما وضع الفقراء، الذين هم فى أمس الحاجة إلى الأرض، أيديهم على قطع صغيرة من الأراضى الزراعية، ودافعوا عنها بقوة، خلال الفترة التى سبقت الثورة، ضد محاولات مالكى الأراضى الكبار فى فرض إيجار على هذه الأراضى.

وتكشف دراسة كارل برايدنبو **Carl Bridenbaugh** عن المدن الاستعمارية والتى تحمل عنوان **مدائن فى القفار** **Cities in the Wilderness** عن نظام طبقى صريح، إذ يوضح أن:

> **قادة بوسطن القديمة من ذوى الجاه والثروة سعوا سعيًا دؤوبًا، جنبًا إلى جنب مع رجال الدين، كى يقيموا فى أمريكا نفس النظم والتدابير الاجتماعية فى البلد الأم (إنجلترا). وقد نجح أعضاء هذه الأقلية المهيمنة فى وضع الأسس لطبقة**

أرستقراطية فى بوسطن خلال القرن السابع عشر، وذلك عن طريق سيطرتهم على التجارة والنقل، وهيمنتهم السياسية على الناس من خلال الكنيسة ومجلس المدينة وتحالفات الزواج المحكمة فيما بينهم.

وفى بداية إنشاء مستعمرة "ماساشوسيتس باى" فى عام ١٦٣٠، أعلن حاكمها جون وينثروب John Winthrop، الفلسفة التى تقوم عليها سياسة الحكم: "... فى كل زمان ومكان، لابد أن يكون البعض أغنياء والبعض فقراء، لابد أن يكون بعض الناس من ذوى الجاه والسلطان والشرف ويكون آخرون من أصول وضيعة ويعيشون فى خضوع." وراح أغنياء التجار يشيدون المنازل وكان ذوو الجاه يتنقلون بالمركبات أو المحفات، ويذهبون إلى الرسامين، ويغطون رؤوسهم بالشعر المستعار، وينعمون بأطيب الطعام وأطيب الخمر المجلوبة من جزر ماديرا Madeira وفى عام ١٦٧٨، أرسلت بلدة ديرفيلد التماسًا إلى محكمة ماساتشوستس العامة، جاء فيه: "ربما أسعدكم أن تعلموا أن أفضل أرض وأطيب تربة تقع فى وسط البلدة، أما فيما يخص المساحة، فإن ما يقرب من النصف يملكه ثمانية أو تسعة أفراد..."

ووجد برايدنبو أن الأمر لم يختلف فى نيو بورت برود آيلاند عنه فى بوسطن، ويقول: "لم تكن اجتماعات مجلس المدينة، التى اتخذت مظهرًا ديمقراطيًا، فى الحقيقة سوى مرتعًا هيمنت عليه طبقة التجار الأرستقراطيين عامًا بعد عام، وكانوا يحتكرون معظم الوظائف لأنفسهم..." وكانت أرستقراطية نيويورك الأكثر ولعًا بالتفاخر والتباهى؛ إذ يتحدث برايدنبو عن الستائر المخملية للنوافذ، والطاولات المصنوعة على الطريقة اليابانية، والمرايا المؤطرة بالذهب، والساعات العتيقة الطرز، والجواهر والمشغولات الفضية والمفروشات ذات النقوش السخية ... وخدم البيوت السود." وكانت نيويورك خلال الحقبة الاستعمارية تشبه مملكة إقطاعية؛ إذ أنشأ الهولنديون نظامًا للهيمنة على الأراضى بطول نهر هاديسون حيث سيطر البارونات تمامًا على حياة مستأجرى الأرض. وفى عام ١٦٨٩، اختلطت أحزان الفقراء بثورة الفلاحين

بقيادة جاكوب لايزلر Jacob Leisler وجماعته. وفى الوقت الذى تم فيه شنق لايزلر، استمرت عملية تقسيم الأراضى الشاسعة؛ فأثناء حكم "بنيامين فليتشر"، مُنحت ثلاثة أرباع أراضى نيويورك إلى حوالى ثلاثين شخصًا فقط، حتى أن فليتشر منح أحد أصدقائه نصف مليون أكر مقابل ثلاثين شلنًا كل عام. وتحت حكم اللورد كورنبيرى فى بدايات القرن الثامن عشر، بلغت إحدى المنح لمجموعة من المضاربين مليونى أكر.

وفى عام ١٧٠٠ طالب أمناء كنيسة نيويورك باعتمادات مالية من مجلس المدينة لأن "صرخات الفقراء والمحتاجين بلغت حداً مؤسفًا." وفى ثلاثينيات القرن الثامن عشر، زادت مطالبة المؤسسات باحتواء "الأعداد الغفيرة من المتسولين الذين يعانون يوميًا من التجوال فى الشوارع." ومن ثم صدر قرار من مجلس المدينة يقول:

> **بسبب العوز والحاجة، فإن عدد الفقراء بالمدينة فى تزايد مستمر.. ويأتى هؤلاء الفقراء بأفعال مشينة داخل المدينة... ولأنهم عاطلون، فقد أصبحوا فاسقين منغمسين فى الملذات، بل إنهم أصبحوا يجيدون السرقة وارتكاب الآثام... ومن أجل علاج ذلك... فقد قررنا بناء دار كبيرة ملائمة بالإضافة إلى مسكن من غرف عديدة لإيوائهم. وأُطلق على المبنى الطينى المكون من طابقين اسم "دار الفقراء، دار العمل ودار الإصلاح".**

ويصف أحد الخطابات، الواردة إلى صحيفة "جورنال" بنيويورك فى عام ١٧٣٧ والتى يملكها بيتر زينجر، أطفال الشوارع الفقراء فى نيويورك قائلاً: "إنهم شيء يتخذ شكلاً آدميًا. يوشكون على الهلاك من البرد، لا تستر الملابس أجسادهم وشعرهم أشعث... ومن سن الرابعة حتى الرابعة عشرة، يقضون أيامهم فى الشوارع... وبعد ذلك يتم تشغيلهم كمبتدئين فى شتى الحرف، وربما يستمر ذلك لمدة خمسة أو ستة أعوام..."

وقد نمت المستعمرات بسرعة فى أوائل القرن الثامن عشر، ولحق بالمستوطنين الإنجليز مهاجرون اسكتلنديون وأيرلنديون وألمان، وتدفق العبيد السود حتى وصل عددهم ٨٪ من عدد سكان المستعمرات فى عام ١٦٩٠، ثم زادت نسبتهم حتى وصلت ٢١٪ فى عام ١٧٠٠ وكان عدد سكان المستعمرات ٢٥٠,٠٠٠ فى عام ١٧٠٠ وزاد إلى ٦٠٠,٠٠٠ فى عام ١٧٦٠ وازدهرت الزراعة، وبدأ التصنيع فى النمو وتوسعت حركة التجارة والملاحة، وكبرت المدن الكبيرة مثل بوسطن ونيويورك وفيلادلفيا وشارليستن فى الحجم حتى وصلت إلى الضعفين والثلاثة أضعاف.

ومن خلال هذا النمو كله، كانت الطبقة العليا تحصل على معظم المزايا وتحتكر السلطة السياسية. فقد اكتشف مؤرخ درس قوائم الضرائب فى بوسطن أنه فى عام ١٦٨٧ كان هناك ألف مالك من بين كل السكان البالغ عددهم ستة آلاف، وأن أول خمسة بالمائة كانت عبارة عن خمسين غنياً يستحوذون على خمسة وعشرين فى المائة من الثروات.

ومع اتساع بوسطن فى الفترة من عام ١٦٨٧ إلى عام ١٧٧٠، ازدادت نسبة الفقراء من الشبان، والذين كانوا يستأجرون غرفة للسكن فيها أو ينامون فى الحانات ولا يملكون شيئاً. لقد زادت النسبة المئوية لهؤلاء من ١٤ إلى ٢٩ بالمائة. وفى ذلك الوقت كان من يخسر ما يملك يخسر معه حقوقه الانتخابية.

وكان الفقراء فى كل مكان من البلاد يناضلون من أجل البقاء على قيد الحياة والنجاة من التجمد فى البرد القارس، ومن ثم قامت كل المدن ببناء دور للفقراء فى ثلاثينيات القرن الثامن عشر، ولم تقتصر هذه الدور على إيواء كبار السن والأرامل والعجزة واليتامى، بل كانت كذلك مأوى للعاطلين عن العمل وقدامى المحاربين والمهاجرين الجدد. وفى نيويورك فى منتصف القرن الثامن عشر، كانت هناك دار للفقراء سعتها مائة فرد، ولكن كان يقيم بها أربعمائة. وكتب مواطن من فيلادلفيا فى عام ١٧٤٨ قائلاً: "إن الزيادة فى عدد الشحاذين قد باتت كبيرة وملحوظة فى بلدتنا هذا الشتاء." وفى عام ١٧٥٧، تحدث مسئولو بوسطن عن "عدد كبير من الفقراء ...

الذين لا يكـادون يدبـرون الخبـز اليـومـى لهـم ولأسـرهـم." وفى دراسـة عن نيـو انجلاند، وجد كـينيث لوكريدج أن المشـردين والمعـوزين كـانوا فى ازدياد دائم وأن "الفـقـراء المتجـولين" كـانوا إحـدى علامـات الحـيـاة فى نيو إنجلاند فى منتـصف القرن الثامن عشر. كما لاحظ كل من جيمس ليمون **Lemon** وجارى ناش **Gary Nash**، فى دراسـة لهما عن مـقاطعـة شيسـتر ببنسلفانيا فى القرن الثامن عشـر، تركيزًا شـديدًا للثـروة فى أيدى الأغـنيـاء، كـمـا لاحـظا فـجـوة آخـذة فى الاتسـاع بين الأغنياء والفقراء.

كانت المستعمرات فيما يبدو مجتمعات طبقية متصارعة، وهذه حقيقة تم التعتيم عليها فى كتب التاريخ التقليدية لصالح التأكيد والتركيز على الصراع الخارجى ضد إنجلترا واتحاد المستعمرين فى سبيل القيام بالثورة. ومن ثم فإن أمريكا لم "تولد حرة"، بل ولدت فى صراع بين حر وعبد، سيد وخادم، مالك ومستأجر، وغنى وفقير. ونتيجة لذلك، فكثيرًا ما واجهت السلطات السياسية معارضة "صاخبةً فى أغلب الأحيان وعنيفة أحيانًا، حيث شهد الربع الأخير من القرن السابع عشر حركات تمرد وشغب للإطاحة بالحكومات القائمة فى ماساتشوستس ونيويورك وميريلاند وفرجينيا وكارولاينا الشمالية"، حسبما قال ناش.

ورغـم أن العـمـال البـيض كـانوا أيسـر حـالاً من العـبـيـد والخـدم، فـقـد كـانوا سـاخطين على المعاملة غير العادلة التى تعاملهم بها الطبقات الأكثر ثراءً. ففى عام ١٦٣٦ أبلغ أحد أصحاب العمل على ساحل مينْ **Maine** أن عمّاله وصيـاديه "قاموا بحـركـة عصيـان" لأنه احـتـجز أجـورهـم. وقد فرّ هؤلاء العـمـال جمـيعًا. وبعـد خمس سنوات، نظم النجارون فى مينْ، حركة تباطؤ فى العمل، احتجاجًا على قلة الطعام المقدم لهم. وفى مناطق صناعة السفن فى جلاوسيسـتر، بدأ فى أربعـينيات القرن السابع عشر ما يسميه ريتشارد موريس "أول إغلاق فى تاريخ العمل بأمريكا"، وذلك عندما أبلغت السلطات مجموعة من صناع السفن المثيرين للقلاقل، بأنهم "غير مصرح لهم بالعمل."

ووقعت إضرابات مبكرة نظمها صانعو البراميل والجزارون والخبازون احتجاجًا على هيمنة الحكومة على ما يتقاضونه من أتعاب، ورفض الحمالون فى نيويورك، فى خمسينيات القرن السابع عشر، حمل الملح، كما حُوكم عدد من الحمالين من أصحاب العربات الذين أضربوا عن العمل، وذلك "لعصيانهم الأوامر وعدم القيام بأعمالهم." وفى عام ١٧٤١ تجمع الخبازون وأضربوا عن العمل احتجاجًا على الارتفاع الكبير فى أسعار القمح. وأدى نقص شديد فى الطعام ببوسطن عام ١٧١٣ إلى قيام عدد من صفوة رجال المدينة بإرسال تحذير إلى مجلس نواب ماساتشوستس يقولون فيه إن "الندرة المخيفة للمواد التموينية" أدت إلى "ارتفاع جنونى فى الأسعار باتت معه ضرورات الفقراء، فى الشتاء القادم، شديدة الإلحاح." ويذكر أن آندرو بيلتشر، أحد التجار الأثرياء، كان يصدر الغلال إلى الكاريبى لأن الربح هناك كان أكبر. وفى يوم ١٩ مايو١٧١٣، تظاهر مائتان فى الحديقة العامة ببوسطن وهاجموا سفن بيلتشر، واقتحموا مخازنه بحثًا عن الذرة، كما أطلقوا النار على الحاكم عندما حاول التدخل.

وبعد ثمانى سنوات من مظاهرة الخبز فى الحديقة العامة لبوسطن، احتج أحد مؤلفى الكتيبات على أولئك الذين باتوا أغنياء "عن طريق طحن الفقراء" وذلك بأن درسوا "كيف يقهرون ويغشون ويهيمنون على جيرانهم." وفى ثلاثينيات القرن الثامن عشر، أقدم المحتجون على الأسعار المرتفعة التى فرضها التجار فى بوسطن، على تدمير السوق العامة فى دوك سكوير " Dock Square متهامسين بتذمرهم ضد الحكومة والأغنياء"، على حد قول أحد الكتاب المحافظين. ولم تقبض الحكومة على أى من المتظاهرين، بعد أن جاءت تحذيرات منهم تعنى "أنهم سوف يجلبون خمسمائة من أشد الرجال" يقومون بتحطيم أسواق أخرى قام التجار الأغنياء بتشييدها.

وفى الوقت نفسه تقريبًا، حث أحد المنشورات الانتخابية فى نيويورك الناخبين على أن التصويت لصالح "شاتل" النساج، و"بلين" النجار، و"درايف" الحمال و"مورتر" البنّاء، و"تار" البحار، و"سينب" الخياط، و"سمول رينت" صاحب الأطيان العادل،

و"جون بور" المستأجر، وذلك فى مواجهة "جرايب" التاجر، و"سكويز" صاحب المتاجر، و"سبين تكست" و"كوييل" المحامى. كما طالب الناخبين بالتصويت من أجل إزاحة "ذوى الحيثيات" الذين يحتقرون "أولئك الذين أطلقوا عليهم لقب الرعاع والدهماء وقطيع العمال."

وفى الفترة نفسها، اجتمعت لجنة من مدينة بوسطن للدفاع عن المدنيين من أهالى بوسطن، الذين كانوا فى حاجة إلى إصدار أوراق مالية تسهّل عليهم دفع الديون إلى نخبة التجار، وذلك لأنهم لم يريدوا، كما جاء فى تصريحهم، "أن يقوم باقتسامنا ما نأكل ونشرب هؤلاء الذين يعربدون فى رفاهية وترف اعتماداً على كدنا وعرقنا..."

كما تظاهر أهالى بوسطن احتجاجًا على الخدمة العسكرية الإجبارية، حيث كان يتم تجنيد الرجال فى الخدمة البحرية؛ إذ حاصر المتظاهرون بيت الحاكم وضربوا العمدة وحبسوا نائبه، واقتحموا مجلس المدينة حيث كانت المحكمة العامة تعقد إحدى جلساتها، وعند استدعاء القوة العسكرية للقضاء على المظاهرة، لم تستجب، وفر الحاكم. وأدانت مجموعة من التجار الحشد المتظاهر ووصفته بأنه "جماعة مشاغبة مستهترة تتألف من عدد من البحارة الأجانب والخدم والزنوج وأشخاص آخرين ذوى هيئات اجتماعية مزرية."

وفى نيو جرسى، فى أربعينيات وخمسينيات القرن الثامن عشر، تظاهر فلاحون فقراء، عندما طلب منهم دفع إيجار عن أرض تدور بينهم وبين من يدعون ملكيتها خلافات ونزاعات. ففى عام ١٧٤٥ ألقى القبض على صامويل بالدوين وأودع سجن نيو آرك، لعدم دفعه إيجار أرض عاش عليها طويلاً وأطلق عليها اسمًا هنديًا. ووصف أحد المعاصرين ما حدث بعد ذلك قائلاً: "ولما رأى الناس بصفة عامة أن ما حدث كان مخططًا يهدف إلى تحطيمهم، هربوا إلى السجن وأطلقوا سراح بالدوين." ولما قبض على اثنين ممن أطلقوا سراح بالدوين، تجمع مئات من أهالى نيو جرسى حول السجن، وأرسلت الحكومة تقريراً إلى مجلس لوردات التجارة فى لندن جاء فيه:

> **خرج اثنان من الرؤساء الجدد لشركات نيو أرك، وفقًا لأوامر صادرة من عمدة المنطقة، بطبولهم إلى الناس، والتقوا بهم وطالبوا كل من ينتمى إلى الشركات بأن يتبع دق الطبول وذلك للدفاع عن السجن، ولم يستجب أحد رغم كثرة الناس ... وانطلق جمع كبير من الناس بخيولهم فى الرابعة أو الخامسة عصرًا، واتجهوا صوب السجن ملوحين بعصيهم فى الهواء ... حتى وصلوا إلى حراس السجن وأوسعوهم ضربًا. ولما لم يكن لديهم أوامر بإطلاق النار، قام الحرس برد الضربات بكعوب الأسلحة، وجُرح أشخاص من الجانبين، لكن لم يقتل أحد. واخترق الحشد صفوف الجنود واندفعوا صوب باب السجن، حيث كان العمدة يقف بسلاحه، وأخذ فى إبعادهم، لكنهم وجهّوا له لكمات عديدة وأخرجوه من المكان. ثم اندفعوا بالفؤوس وأدوات أخرى وفتحوا باب السجن وأخرجوا السجينين، وخرج معهم سجين ثالث كان محجوزًا لديون عليه.**

وخلال تلك الفترة، كانت إنجلترا منهمكة فى سلسلة من الحروب (حرب الملكة آن فى العقد الأول من القرن الثامن عشر، وحرب الملك جورج فى ثلاثينيات القرن نفسه)، وحاز بعض التجار أموالاً طائلة من وراء هذه الحروب، بينما لم تعن هذه الحروب لغالبية الناس سوى البطالة والفقر والضرائب العالية. ووصف أحد مؤلفى الكتيبات فى ماساتشوستس الموقف غاضبًا بقوله: "إن الفقر والسخط يعلوان كل الوجوه، عدا وجوه الأغنياء." وتحدث عن فئة من الرجال تغذيهم "شهوة السلطة والجاه والأموال"، وهؤلاء هم الذين اغتنوا أثناء الحرب. ثم مضى قائلاً: "فلا عجب إذا بنى هؤلاء السفن والبيوت، واشتروا المزارع، وامتلكوا العربات، وعاشوا فى ترف، واشتروا الجاه والمناصب الشرفية العليا." لقد سماهم "جوارح الطير... أعداء كل المجتمعات، أينما كانوا."

وفى بوسطن عام ١٧٤٧، أدت الخدمة الإلزامية للبحارة إلى مظاهرة احتجاج على الخدمة العسكرية الإجبارية، وأصبح الناس فى عداء مع توماس هاتشنسن، التاجر الثرى والمسئول الاستعمارى الذى ساند الحاكم فى إخماد المظاهرة، وصاحب فكرة نظام مصرفى خاص بماساتشوستس عرف عنه تحيزه ضد الفقراء. ولما احترق بيت هذا الرجل بشكل مريب، تجمع حشد كبير فى الشارع وأخذ أفراده فى إطلاق اللعنات على صاحب البيت مرددين: "دعوه يحترق!"

وبحلول سنوات أزمة الثورة فى ستينيات القرن الثامن عشر، كان قد بات لدى النخبة الثرية التى هيمنت على المستعمرات البريطانية فى أمريكا مائة وخمسون عاماً من الخبرة، حيث تعلموا ما يمكنهم من أن يسودوا ويحكموا. وقد كانت لديهم مخاوف كثيرة، لكنهم تعلموا وطوروا أساليب تساعدهم على التعامل مع ما يتهددهم أو من يخشونه. وقد اكتشفوا أن الهنود مثيرون للقلاقل بدرجة تجعل من الصعب الاعتماد عليهم كقوى عاملة، وظل الهنود عقبة فى طريق التوسع. أما العبيد فكانوا أسلس قياداً، كما أن الأرباح التى جُنيت من ورائهم، والتى كانت تعود على المزارع الجنوبية شجعت على زيادة هائلة فى عدد من يتم جلبهم، حتى باتوا يشكلون أغلبية فى بعض المستعمرات، وبلغ عددهم خمس عدد سكان المستعمرات جميعًا. غير أن السود لم يذعنوا بدرجة كاملة؛ وكلما ازداد عددهم، كانت تتزايد احتمالات تمردهم.

وفى ظل العداء الهندى والخطر الناجم عن ثورات العبيد، كان على النخبة الاستعمارية أن تنظر بعين الاعتبار إلى الغضب الطبقى لفقراء البيض من الخدم والمستأجرين وفقراء المدن ودافعى الضرائب والجنود والبحارة والمعدمين. وبمرور مائة عام على المستعمرات فى منتصف القرن الثامن عشر، زادت الفجوة بين الأغنياء والفقراء وزاد العنف ومخاطره، كما أصبحت مشكلة السيطرة أو الحكم أكثر خطراً.

ولكن ماذا لو كانت هذه الجماعات المنبوذة من هنود وعبيد وبيض فقراء قد اتحدت؟ يقول أبوت سميث إنه حتى قبل وجود سود كثيرين فى القرن السابع عشر،

كان "ثمة خوف قائم لا يغيب من أن ينضم الخدم إلى الزنوج أو الهنود من أجل التغلب على عدد صغير من السادة."

ولم تكن فرصة توحد البيض والهنود فى شمال أمريكا كبيرة كما كانت فى وسطها وجنوبها، حيث أدت قلة عدد النساء واستخدام الهنود فى المزارع إلى الاحتكاك اليومى. أما فى جورجيا وكارولانيا الجنوبية، فكان هناك قدر من الاختلاط الجنسى بين البيض من الرجال والنساء الهنديات، وذلك لقلة عدد البيض من النساء. وبصفة عامة، كان يتم إبعاد الهنود، غير أن ما كان يسبب انزعاجًا شديدًا للسادة هو أن يهرب البيض من أجل الانضمام إلى قبائل الهنود، أو أن يقع مثل هؤلاء أسرى فى المعارك مع نظرائهم من الهنود. وفى مثل هذه الحالات، كان البيض الذين يُمنحون فرصة الاختيار ويفضلون البقاء بين الهنود وثقافتهم. أما الهنود، فعند منحهم فرصة الاختيار، لم يكن واحد منهم ليختار الانضمام إلى البيض.

ويحكى سان جان كريفكير، الفرنسى الذى عاش عشرين عامًا فى أمريكا، فى كتابه **خطابات من مزارع أمريكى** Letters From An American Farmer، كيف كان الأطفال الذين أُسروا أثناء حرب السنوات السبع، وصاروا كبارًا وعثر عليهم آباؤهم، يرفضون التخلى عن أسرهم الجديدة. يقول: "لابد أن هناك شيئًا آسرًا وفريدًا فى نظامهم الاجتماعى، وهو شىء دونه ما نتباهى به فى أوروبا؛ إذ أن آلافًا من الأوربيين أصبحوا هنودًا، فى الوقت الذى لم يختر واحد من بين هؤلاء الهنود أن يكون أوروبيًا."

ومن هنا كان العمل على الحد من هذا الخطر. فبصفة عامة، كان يتم إبعاد الهنود عن مخالطة البيض، كما أن موظفى المستعمرات توصلوا إلى طريقة من شأنها الحد من ذلك الخطر، وذلك عن طريق احتكار الأراضى الصالحة على السواحل الشرقية، وهو الأمر الذى أجبر البيض الذين لا يملكون أرضًا على التحرك باتجاه الغرب. وكان هذا يدفعهم إلى المواجهة مع الهنود كلما اتجهوا غربًا، مما جعل منهم مصدًا لمخاطر الهنود وحاميًا لأغنياء السواحل الشرقية. وعلاوة على ذلك، كان على

هؤلاء البيض أن يعتمدوا اعتماداً كبيراً على الحكومة من أجل المساعدة فى حمايتهم. وكان "تمرد بيكون" الشهير مليئًا بالعبر والدروس؛ حيث تعلمت النخبة الاستعمارية أنه من المجازفة إرضاء الهنود، الذين يتناقص عددهم يوماً بعد يوم، على حساب قيام تحالف قوى بين التوسعيين البيض. فمن أجل سلامتها، فضّلت النخبة الاستعمارية أن تشن حرباً على الهنود تكفل لها تأييد التوسعيين البيض وتأليبهم ضد الهنود بدرجة تمنع قيام أى صراع طبقى محتمل.

ويمكن التساؤل عما إذا كان من المحتمل أن يتحد السود والهنود فى مواجهة العدو الأبيض؟ والواقع أنه لم تكن ثمة فرصة كبيرة فى المستعمرات الشمالية (باستثناء كيب كود، ومارثا فاينيارد، وورود آيلاند حيث كان ثمة اتصال حميم واختلاط جنسى) لالتقاء الأفارقة والهنود بأعداد كبيرة. أما فى شمال نيويورك، فكان هناك أكبر عدد من العبيد، وكان ثمة اتصال بين السود والهنود وصل إلى حد قيامهما بحركة تمرد فى عام ١٧١٢ ولكنها سرعان ما قُمعت. وكان عدد العبيد السود والقبائل الهندية، فى كل من كارولاينا الشمالية والجنوبية، يفوق عدد البيض؛ حيث واجه خمسة وعشرون ألفًا من البيض، فى خمسينيات القرن الثامن عشر، أربعين ألفًا من الهنود. ويقول جارى ناش:

> **كان من شأن حركات التمرد الهندية التى شهدتها الحقبة الاستعمارية من ناحية، والسلسلة المتعاقبة لثورات العبيد وحركات عصيانهم التى قُمعت فى مهدها، من ناحية أخرى، أن جعلت مستوطنى كارولاينا الجنوبية على وعى بدرجة مُرضية بأنه لا أمل فى أن تكون لهم اليد العليا إلا من خلال التمتع بأعلى درجات الحذر واليقظة وانتهاج سياسات مخططة تكفل زرع أسباب الانشقاق بين أعدائهم.**

وقد أدرك الحكام البيض فى كارولاينا الشمالية وكارولاينا الجنوبية بأنهم فى حاجة إلى سياسة "تجعل الهنود والزنوج يأخذ بعضهم برقاب بعض، خشية أن

يقضى علينا هؤلاء أو أولئك نتيجة أعدادهم الغفيرة"، على حد قول أحدهم. ومن ثم، سنت قوانين تحرّم على الأحرار من السود السفر إلى الأراضى الهندية، واحتوت المعاهدات الموقّعة مع الهنود على عبارات تلزم الهنود بإعادة العبيد الفارين.

وفى عام ١٧٣٨ كتب ليتل تاون حاكم كارولاينا الجنوبية: "إنه لمن دأب حكومتنا هذه أن تخلق فى الهنود كراهية ضد الزنوج." كما كان استخدام العبيد السود، كجزء من الميليشيا التى تحارب الهنود فى كارولاينا الجنوبية جزءًا من السياسة التى انتهجتها الحكومة. غير أن هذا لم يُنه قلق الحكومة من ثورات العبيد، وقُدم اقتراح بتسليح خمسمائة من العبيد لمحاربة الهنود، إبان حرب الشيروكى فى ستينيات القرن الثامن عشر، ولكن فى مجلس نواب كارولاينا الجنوبية لم يقره، وذلك بسبب فارق صوت واحد فى عملية التصويت.

وكثيرًا ما كان السود يهربون إلى القرى الهندية، وكثيرًا ما قام الهنود من قبيلتى شيروكى Cherokee وكريك Creek بإيواء المئات من العبيد الفارين، حتى أن كثيرًا من الفارين اختلطوا بالقبائل الهندية وتزوجوا من بينهم وصار لهم أطفال، غير أن السياسات الوحشية المتبعة ضد السود والرشاوى المقدمة إلى بعض الهنود لتهدئة الثائرين من العبيد، جعلت الأمور دائمًا تحت سيطرة الحكومة الاستعمارية.

وكان احتمال قيام تحالف بين البيض الفقراء وبين السود يمثل أكبر المخاوف بالنسبة للأثرياء من المزارعين البيض؛ فلو كان هناك - كما زعم بعض المنظرين - عداء طبيعى بين الأعراق المختلفة، لكان أمر السيطرة على العبيد والفقراء من البيض أيسر. لكن الجاذبية الجنسية بين الأجناس كانت قوية، حتى أن هيئة محلفين كبرى فى كارولاينا الجنوبية أدانت فى عام ١٧٤٣، "تجاوز الحدود فى شيوع جريمة مخاطبة البيض للزنوج واختلاطهم بالبغايا من العبيد فى هذه المقاطعة." وبالرغم من وجود القوانين التى تمنع الزواج بين البيض والسود فى فرجينيا وماساتشوستس وميريلاند وديلاور وبنسلفانيا وكارولاينا الشمالية وكارولاينا الجنوبية وجورجيا، لم تتوقف العلاقات الجنسية بينهم ولم يتوقفوا عن إنجاب أطفال مخلطين طوال الحقبة

الاستعمارية. وبإعلانها أن الأطفال المخلطين غير شرعيين، عملت الحكومة الاستعمارية على بقاء هؤلاء الأطفال لدى الأسر السوداء، وذلك لكى تُبقى على السكان البيض "أنقياء" وتحت سيطرتها.

وكان هذا التحالف بين العبيد السود والخدم البيض هو الذى جعل "تمرد بيكون" مصدر خوف خاص لحكام فرجينيا. فمن المعروف أن هذا التمرد انتهى باستسلام "أربعمائة إنجليزى وزنجى من المسلحين" فى أحد المواقع، وثلاثمائة "من الأحرار والأفارقة والخدم البيض" فى موقع آخر. ولقد كتب القائد البحرى الذى قهر المسلحين الأربعمائة قائلاً: "لقد أقنعت غالبيتهم بأن يعودوا إلى بيوتهم، وهو ما فعلوه، باستثناء حوالى ثمانين زنجيًا وعشرين إنجليزيا رفضوا أن يسلموا أسلحتهم."

وخلال تلك السنوات الأولى كلها، كان العبيد من السود والبيض وكذلك الخدم البيض يهربون فى كثير من الأحيان، ويشهد على ذلك ما صدر من قوانين لوقف ذلك وما سجلته سجلات المحاكم. ففى عام ١٦٩٨ أصدرت كارولاينا الجنوبية قرارًا يطالب أصحاب المزارع بتوفير خادم أبيض مقابل كل ستة من البالغين الزنوج وذلك من أجل الإشراف على عملهم، كما تضمن أحد الخطابات الآتية من المستعمرات الجنوبية فى عام ١٦٨٢ شكوى تقول "ليس ثمة رجال بيض للإشراف على عبيدنا أو كبح أية محاولة منهم للتمرد." وفى عام ١٦٩١ تلقى مجلس العموم فى بريطانيا "عريضة من التجار وأصحاب السفن والمزارع وآخرين تفيد بأنه يصعب السيطرة على المزارع وأعمال التجارة المختلفة دون وجود عدد معقول من الخدم البيض لإخضاع العبيد ولحمل السلاح فى حالة التمرد أو الغزو."

كما تلقت الحكومة البريطانية، فى عام ١٧٢١ تقريرًا يفيد بأن "العبيد السود فى كارولاينا الجنوبية حاولوا مؤخرًا القيام بثورة جديدة، وكانوا قاب قوسين أو أدنى من النجاح فى ذلك... ولذلك فربما كان من الضرورى... اقتراح سن قانون جديد يحض على استضافة عدد أكبر من الخدم البيض فى المستقبل. فالميليشيات الخاصة بهذه

المقاطعة لا يتجاوز عدد أفرادها الألفين من الرجال." ومن الواضح، أن هذا العدد لم يكن كافيًا لمواجهة التهديدات، حسب ما ورد بالتقرير.

ولعل هذا يساعد فى تفسير الأسباب التى جعلت البرلمان البريطانى فى عام ١٧١٧ يصدر قانونًا يجعل من ترحيل المجرمين إلى العالم الجديد عقوبة قانونية لما يرتكب من جرائم. فبعد إصدار هذا القانون، تمكنت الحكومة البريطانية من ترحيل عشرات الآلاف من المجرمين إلى فرجينيا وميريلاند ومستعمرات أخرى. كما أنه يساعد فى معرفة السبب الذى جعل مجلس نواب فرجينيا، فى أعقاب "تمرد بيكون" الشهير، يصدر عفوًا عامًا عن الخدم البيض الذين شاركوا فى التمرد بينما لم يصدر هذا العفو عن السود. ويذكر أن الزنوج كانوا ممنوعين من حمل السلاح، بينما كان الخدم البيض يتسلمون عند نهاية خدمتهم بعض السلاح بالإضافة إلى بعض الغلال والمال. ومن ثم أصبحت الفوارق بين مكانة كل من الخدم البيض والسود أكثر وضوحًا.

وفى عشرينيات القرن الثامن عشر، ونتيجة للخوف المتزايد من تمرد العبيد، أصبح مسموحًا للخدم البيض فى فرجينيا بأن يلتحقوا بقوات الجيش كبدلاء للأحرار من البيض. وفى الوقت نفسه، تأسست دورية لمراقبة العبيد لمواجهة "الأخطار الكبيرة التى قد تقع ... نتيجة ثوراتهم ..." وكانت هذه الدوريات تتشكل من الفقراء البيض الذين كانوا يحصلون على مكافأة مالية لقاء ذلك.

وكانت العنصرية تتحول مع مرور السنوات إلى شئ عملى ذى نفع كبير، إذ يرى إدموند مورجان، انطلاقًا من دراسته الوافية عن العبودية فى فرجينيا، أن العنصرية ليست شيئًا "طبيعيا" ينتج عن الاختلاف بين البيض والسود، ولكنها تأتى، فى رأيه، نتيجة للاحتقار الطبقى، الذى يمثل وسيلة فعّالة للسيطرة. يقول مورجان:

لو اتحد الأحرار المحبطون مع العبيد اليائسين وجمعت بين الطرفين قضية واحدة، لكانت عواقب ذلك أسوأ من أى شئ

فعله بيكون فى تمرده الشهير. لقد كان حل هذه المشكلة، فى رأى الحكومة، وهو شئ واضح وإن سُكت عنه أو تم الإقرار به على مراحل؛ هو العنصرية أى الفصل بين الخطِرين من الأحرار البيض وبين الخطِرين من العبيد السود عن طريق حاجز من التعالى والاحتقار العرقى.

وبقى نظام آخر للسيطرة كان تنفيذه سهلاً مع نمو المستعمرات، كما كانت له نتائج مهمة لاستمرار حكم النخبة على مدار التاريخ الأمريكى. فبين طبقة شديدى الثراء وطبقة شديدى الفقر، ظهرت طبقة متوسطة بيضاء تتألف من صغار المزارعين والفلاحين المستقلين وحرفيى المدن الذين مثّلوا، عن طريق المكافآت التى حصلوا عليها نظير ضم قوتهم لقوة كبار المزارعين والتجار، حاجزاً أو مصداً فى مواجهة العبيد السود والهنود وشديدى الفقر من البيض.

وقد أفرزت المدن المتنامية أعداداً كبيرة من الحرفيين المهرة، وأمدت حكومات المستعمرات الحرفيين البيض بكل الدعم وذلك عن طريق حمايتهم من تنافس كل من الزنوج العبيد والزنوج الأحرار. ففى عام ١٦٨٦ أصدر مجلس مدينة نيويورك قراراً يقضى بأنه "غير مسموح لا لزنجى ولا لعبد بالعمل كحمال لأية بضائع تُصدر إلى نيويورك أو تستورد منها." كما كانت الحكومات فى المدن الجنوبية تحمى الحرفيين والتجار البيض من منافسة الزنوج. ففى عام ١٧٦٤ حرّم المجلس التشريعى فى كارولاينا الجنوبية على سادة مدينة شارلستن توظيف الزنوج كحرفيين أو فى أى عمل يدوى.

ولربما تمت دعوة أفراد الطبقة الوسطى من الأمريكيين للانضمام إلى نخبة جديدة وذلك عن طريق مهاجمة فساد الأثرياء المخضرمين. ففى عام ١٧٤٧، وفى كتابه **خطاب إلى ذوى الأملاك الحرة** Address to the Freeholders هاجم النيويوركى كادوولدر كولدن، الأثرياء بصفتهم متهربين من الضرائب لا تهمهم رفاهية الآخرين (رغم أنه كان من الأثرياء) وتحدث عن أمانة "الرتبة الوسطى من

البشر" وجدارتها بالثقة، وهى رتبة من البشر يستطيع المواطنون أن يأتمنوها على "حريتنا وأملاكنا."

وكان لهذه الوسيلة البلاغية أهمية بالغة فى حكم النخبة التى تتحدث إلى الغالبية العظمى من الناس عن "حريتنا" و"ملكيتنا" و"بلدنا". وبالمثل فقد تقرّب الثرى جيمس أوتيس James Otis إلى الطبقة الوسطى فى بوسطن، وذلك بمهاجمة الثرى المحافظ توماس هاتشنسن. وقد بيّن جيمس هينريتا أنه فى الوقت الذى كان يحكم فيه الأثرياء مدينة بوسطن، كان ثمة وظائف سياسية متاحة لمعتدلى الثراء من أمثال "مراقبى الحدود" و"وازنى حاويات الفحم". كما اكتشف أوبرى لاند أن ميريلاند كانت بها طبقة من صغار المزارعين الذين لم "يستفيدوا" من مجتمع المزارع كما كان الحال بالنسبة للأثرياء، لكن هذه الطبقة تمتعت بمزية أن يطلق على أفرادها لقب "مزارعين"، كما كانوا "مواطنين محترمين ذوى التزامات تجاه المجتمع، مما سمح لهم بممارسة مهام خاصة كالإشراف على الطرق وتقدير العقارات وما شابه." وكان من شأن ذلك أن يساعد تحالف النخبة على قبول الطبقة الوسطى من الناحية الاجتماعية وذلك فى "عدد من الأنشطة من بينها السياسة المحلية ... والرقصات وسباق الخيول ومصارعة الديكة والشراب أحيانًا ..."

وفى عام ١٧٥٦، كتبت جريدة "بنسلفانيا جورنال": "ينتمى أهل هذه المقاطعة إلى الفئة المتوسطة بصفة عامة، ولعلهم يرتفعون عنها فى الوقت الحاضر، فهم فلاحون وصناع وتجار مجدّون، يتمتعون بالحرية ويعشقونها، ويرى أدناهم أن له حقًّا فى الاحترام والتلطف من قبل الكبار." وفى حقيقة الأمر، كانت هناك طبقة وسطى عريضة ينطبق عليها هذا الوصف. وكان إطلاق كلمة "الشعب" عليهم تعنى حرمان العبيد السود والخدم البيض والهنود المقتلعين من أرضهم من هذه الصفة. وقد أخفى مصطلح "الطبقة الوسطى" حقيقة من الحقائق الثابتة فى هذا البلد (الولايات المتحدة) وهى أنه "كان مجتمع طبقة وسطى تحكمه طبقاته العليا فى أغلب الأحوال"، على حد قول ريتشارد هوفستاتر.

وكان على هذه الطبقات العليا، لكى تحكم، أن تقدم بعض الامتيازات للطبقة الوسطى. دون أن تمس هذه الامتيازات ثروة تلك الطبقات وقوتها بسوء، وكان ذلك على حساب العبيد والهنود وفقراء البيض، وبهذا اشترت الطبقات العليا ولاء الطبقة الوسطى. ولكى تربط هذا الولاء بشىء أكثر قوة حتى من المزايا المادية، وضعت المجموعة الحاكمة، فى ستينيات وسبعينيات القرن الثامن عشر، يدها على حيلة جلبت لها نتائج رائعة. وكانت هذه الحيلة تتمثل فى لغة الحرية والمساواة التى استطاعت أن تجمع تحت رايتها عدداً كافيًا من البيض للقيام بالثورة ضد إنجلترا، دون أن تضع نهاية للعبودية والظلم.

الفصل الرابع

الطغيان هو الطغيان

فى حوالى عام ١٧٧٦ توصل بعض ذوى الأهمية فى المستعمرات الإنجليزية إلى اكتشاف أثبت فاعلية كبيرة على مدار المائتى عام التالية. فقد وجدوا أنهم لو استطاعوا أن يؤسسوا أمةً أو رمزًا أو وحدة شرعية يسمونها الولايات المتحدة، يصير باستطاعتهم أن يستولوا على الأراضى والأموال والسلطة السياسية من أيدى الموالين للإمبراطورية البريطانية. وفى أثناء إتمام هذه العملية، يمكنهم أن يكبحوا حركات التمرد المحتملة، ويهيئوا الظروف لخلق تأييد شعبى لحكم جديد. وعندما ننظر إلى الثورة الأمريكية بهذه الطريقة، نجد أنها كانت إنجازا عبقريًا وأن الآباء المؤسسين يستحقون ما كيل لهم من ثناء وما أُجرى لهم من تكريم على مر السنين؛ فقد أبدعوا أكثر نظم الحكم القومية فاعليةً فى العصور الحديثة، وكشفوا للأجيال التالية عن مزايا الجمع بين السلطة وطريقة الحكم الأبوية.

وبوقوع تمرد "بيكون" فى فرجينيا عام ١٧٦٠ ، كانت قد هبّت ثمانى عشرة انتفاضة تهدف إلى الإطاحة بالحكومات الاستعمارية، كما كانت قد وقعت ست حركات تمرد من قبل السود فى المنطقة من كارولاينا الجنوبية إلى نيويورك، بالإضافة إلى أربعين مظاهرة تعددت مصادرها. وفى الوقت نفسه، ظهرت، حسب ما يقول جاك جرين Greene، "نخب سياسية واجتماعية محلية تتمتع بالثبات والتماسك والفاعلية." وفى ستينيات القرن الثامن عشر، فكرت هذه القيادة المحلية فى إمكانية توجيه قدر

كبير من طاقة التمرد ضد انجلترا وموظفيها والموالين لها فى المستعمرات. ولم يكن ذلك مؤامرة مدبرة بقدر ما كان تراكمًا لردود أفعال تكتيكية.

وبخروج إنجلترا منتصرة على فرنسا من حرب السنوات السبع (المعروفة فى أمريكا بالحرب الفرنسية والهندية The French and Indian War) وبطرد الفرنسيين من أمريكا الشمالية عام ١٧٦٢، لم يعد الفرنسيون يمثلون تهديدًا بالنسبة للطامحين من قادة المستعمرات الذين لم يبق أمامهم الآن سوى غريمين: البريطانيون والهنود. وكان البريطانيون قد قاموا بمغازلة الهنود بأن أعلنوا أن الأراضى الهندية الواقعة خلف جبال أبالاتشيان محظورة على البيض، وهو ما عُرف بإعلان ١٧٦٣ . ورأت النخبة الاستعمارية أنه إذ أُزيح الإنجليز من الطريق، يصبح من السهل التعامل مع الهنود. ومرة ثانية، لم يكن لدى النخبة الاستعمارية استراتيجية مسبقة، لكنه الوعى المتنامى الذى كانت تكتسبه بتطور الأحداث.

وبهزيمة الفرنسيين، استطاعت الحكومة البريطانية أن تولى اهتمامًا أكبر بإحكام السيطرة على المستعمرات؛ إذ كانت فى حاجة إلى موارد لسد تكاليف الحرب وكانت المستعمرات مصدرًا لهذه الموارد. علاوة على ذلك، كانت التجارة الاستعمارية قد أصبحت ذات أهمية كبرى بالنسبة للاقتصاد البريطانى، حيث كانت تحقق أرباحًا كثيرة قاربت على خمسمائة ألف جنيه فى عام ١٧٠٠ ووصلت إلى مليونين وثمانمائة ألف جنيه فى عام ١٧٧٠ . ولما كانت حاجة القيادة الأمريكية للحكم الإنجليزى أقل من حاجة الإنجليز إلى ثروة المستعمرين، فقد توفرت عناصر الصراع .

كانت الحرب قد جلبت المجد للجنرالات والموت للجنود والثروة للتجار والبطالة للفقراء! كان عدد سكان نيويورك خمسة وعشرين ألفًا عندما انتهت الحرب الفرنسية والهندية، فى الوقت الذى كان يسكنها فى عام ١٧٢٠ سبعة آلاف. وكتب رئيس تحرير إحدى الصحف عن تزايد أعداد الشحاذين والفقراء الهائمين على وجوههم فى شوارع المدينة، وطالبت خطابات نشرتها الصحف بالنظر فى مسألة توزيع الثروة؛

جاء فى أحدها: "كم من مرة امتلأت فيها شوارعنا بآلاف من أجولة الدقيق فى الوقت الذى لا يكاد يجد فيه جيراننا الأقربون ما يسد الرمق؟"

وتكشف دراسة جارى ناش حول قوائم الضرائب بمدينة بوسطن عن أن ٥٪ من دافعى الضرائب، فى أوائل سبعينيات القرن الثامن عشر، كانوا يسيطرون على ٤٩٪ من مجمل الأصول الخاضعة للضرائب. وفى فلادلفيا ونيويورك، كانت الثروة متركزة فى أيدى عدد قليل من الأثرياء، كما كشفت الوصايا المسجلة بالمحاكم عن أن أثرياء المدن، فى عام ١٧٥٠ ، كانوا يتركون فى وصاياهم ما قيمته عشرون ألفًا من الجنيهات (أى ما يساوى مليونين ونصف من الدولارات الأمريكية فى الوقت الحاضر).

ولم يكن أمام الطبقات الدنيا سوى الحيلة؛ ففى بوسطن، بدأت هذه الطبقات فى استخدام اجتماعات مجلس المدينة لبث همومهم وشكاواهم، الأمر الذى جعل حاكم ماساتشوستس يكتب أن "أثناء هذه الاجتماعات يمثل أكثر السكان وضاعةً، عن طريق حضورهم المستمر، الأغلبية بشكل عام، ويفوقون، فى عمليات التصويت، عدد المحترمين وكبار التجار والأفاضل من سكان المدينة."

ويبدو أن ما حدث فى بوسطن هو أن قام عدد من المحامين والصحفيين والتجار الذين ينتمون إلى الطبقات العليا بتنظيم "مؤتمر بوسطن" Boston Caucus وكان هؤلاء الرجال، من أمثال جيمس أوتيس James Otis وصامويل آدامز Samuel Adams، مستبعدين من دوائر الحكم المقربة إلى إنجلترا، ومن خلال كتاباتهم وخطبهم "كونوا رأيًا للطبقة العاملة ودعوا العامة إلى التحرك وشكلوا سلوك هذه الطبقة". هذا هو وصف جارى ناش لأوتيس Otis الذى كان "بوعيه الشديد لتدهور الأوضاع وسخط العامة من سكان المدينة، يعكس ويشكل فى الوقت نفسه رأيًا شعبيًا." تنهض أمامنا الآن خطة أو نبوءة تتعلق بالتاريخ الطويل للسياسة الأمريكية؛ وتتمثل فى قيام ساسة الطبقة العليا بتعبئة طاقة الطبقة الدنيا لأغراض ينشدونها. لم يكن ذلك محض

خداع، لكنه كان يتضمن، بشكل ما، الاعتراف بقضايا الطبقة الدنيا وهمومها وهو الأمر الذى يساعد على تفسير فاعليتها عبر القرون. يقول جارى ناش:

> **اعتنق جيمس أوتيس وصاموئيل آدمز ورويال تايلر Royall Tyler وأوكسينبريدج ثاتشر Oxenbridge Thacher وآخرون من المرتبطين بالحرفيين والعمال عبر شبكة من الحانات وشركات إطفاء الحرائق ومؤتمر بوسطن، اعتنق هؤلاء رؤية سياسية كان من شأنها أن تعطى مصداقية لآراء الطبقة العاملة، كما أنها اعتبرت مشاركة الحرفيين وحتى العمال فى العملية السياسية حقًا شرعيًا كاملاً.**

لقد أعطى أوتيس فى عام ١٧٦٢، وفى معرض هجومه ضد الحكام المحافظين لمستعمرة ماساتشوستس ممثلين فى شخص توماس هاتشنسن Hutchinson، مثلاً لنوع البلاغة التى كان يلجأ إليها أحد المحامين من أجل تعبئة تجار وحرفيى المدينة. قال أوتيس:

> **أُضطر مثل معظمكم لكسب قوت يومى من عمل يدى وعرق جبينى وأتحمّل، فى سبيل لقمة العيش المرة، الأخيار والأشرار وعبوس الذين لا يملكون حقًا طبيعيًا ولا سماويًا فى أن يكونوا فى مرتبة تعلونى، بل إن العز الذى يرفُل فيه هؤلاء لآتٍ من ظلمهم الشديد للفقراء.**

ويبدو أن بوسطن كانت تغلى بالغضب الطبقى فى تلك الأيام؛ ففى عام ١٧٦٣، كتب أحد أهالى المدينة فى جريدة "جازيت" Gazette: " إن القلة التى تحكم" كانت تروّج لمشروعات سياسية "تعمل على بقاء الناس فقراء" وذلك كى لا يتحرروا من الذل والقهر."

ربما يشرح لنا هذا الإحساس المتزايد بظلم الأغنياء فى بوسطن انفجار العامة بعد صدور قانون طابع البريد Stamp Act فى ١٧٦٥ وهو القانون الذى كان البريطانيون يفرضون من خلاله ضرائب على سكان المستعمرات وذلك تغطيةً لتكاليف الحرب الفرنسية التى عانى هؤلاء السكان كثيراً بسببها، وذلك فى سبيل توسع الإمبراطورية البريطانية. فى ذلك الصيف قام صانع أحذية بقيادة العامة والغوغاء وحطموا بيت أحد تجار بوسطن الأثرياء ويدعى آندرو أوليفر. وبعد أسبوعين، توجه نفس الجمع إلى بيت "توماس هاتشنس" رمز النخبة الثرية التى كانت تحكم المستعمرات باسم إنجلترا؛ إذ حطموا البيت بالفؤوس وشربوا ما كان يحتفظ به من خمور، ونهبوا ما فى البيت من أثاث ومقتنيات أخرى. وجاء فى تقرير المسئولين إلى إنجلترا أن هذا كان جزءاً من نطاق واسع كان يهدف إلى تدمير بيوت خمسة عشر من أثرياء المدينة كحلقة من حلقات "حرب النهب والسلب العام وإنهاء التمييز بين الأغنياء والفقراء."

كانت تلك إحدى اللحظات التى بلغ فيها الغضب ضد الأثرياء مبلغاً أبعد مما تمناه قادة مثل أوتيس، هل كان يتم توجيه الكراهية الطبقية بحيث تركّز على النخبة الموالية لبريطانيا ولا تنال من النخبة الوطنية؟ لقد حدث فى نفس العام الذى شهد هدم منازل الأثرياء فى بوسطن أن كتب أحد سكان نيويورك فى صحيفة المدينة يتساءل: "هل من العدل أن يعانى ٩٩ ٪ من البشر كى يرتع شخص واحد فى العز والبذخ، خاصة إذا كان مصدر ثراء الأثرياء هو إفقار جيرانهم؟" كان ما يشغل تفكير قادة الثورة هو العمل على محاصرة مثل هذه المشاعر بالظلم داخل حدود لا تتعداها.

كان الحرفيون يطالبون بالديمقراطية السياسية فى مدن المستعمرات؛ حيث طالبوا بعقد اجتماعات مفتوحة للمجالس النيابية، وبناء شرفات للعامة بالقاعات التشريعية كى يروا كيف تُشرَّع القوانين، كما طالبوا بنشر القوائم الخاصة بأسماء الناخبين كى يتمكن الناخبون من مراجعة ممثليهم، وبعقد لقاءات فى أماكن مفتوحة،

بحيث يستطيع الأهالى المشاركة فى وضع السياسات وفى فرض ضرائب عادلة وفى التحكم فى الأسعار وانتخاب الحرفيين والعامة فى وظائف حكومية. وحسب ما يقول ناش، فقد تزايد وعى الطبقات الوسطى والدنيا، لاسيما فى فلادلفيا، إلى درجة لابد أنها سببت إزعاجا شديداً، ليس فقط للمحافظين الموالين لإنجلترا والمتعاطفين معها، بل حتى لقادة الثورة. يقول ناش: "عندما فشلت السياسات الانتخابية، نجح العمال والحرفيون وصغار التجار، بمنتصف عام ١٧٧٦ وعن طريق وعيهم بالإجراءات القانونية والتشريعية، فى أن تصير لهم اليد العليا فى فلادلفيا." وبمساعدة بعض قادة الطبقة الوسطى من أمثال توماس بينْ Thomas Paine وتوماس ينج وآخرين، "شن هؤلاء هجوماً شاملاً ليس على الثروة فحسب وإنما على الحق فى اكتساب ملكية خاصة غير محدودة."

فى أثناء الانتخابات الخاصة بمؤتمر ١٧٧٦ لوضع إطار لدستور بنسلفانيا، حضت لجنة الملكيات الناخبين على معارضة "فاحشى الثراء ... فمثل هؤلاء حرى بهم أن يستصدروا قوانين تحض على التمييز فى المجتمع." كما صاغت اللجنة قائمة خاصة بحقوق المؤتمر كان من بينها: "إن تركيز نسبة كبيرة من الثروة فى أيدى عدد قليل من الأثرياء أمر خطير على حقوق الناس وحرى به أن يقوّض سعادتهم، ومن ثم فإن لكل ولاية حرة الحق، بما تسنه من قوانين خاصة بها، فى ألا تشجع على مثل هذا الأمر." وفى الريف، حيث يعيش غالبية الناس، كان ثمة صراع مشابه بين الفقراء والأغنياء، وهو صراع استثمره القادة السياسيون لتعبئة الناس ضد إنجلترا؛ إذ قاموا بمنح الفقراء المتمردين بعض المزايا ومنحوا أنفسهم المزيد والمزيد منها. لم تكن مظاهرات المستأجرين فى نيو جيرسى فى أربعينيات القرن الثامن عشر ولا انتفاضاتهم فى نيويورك فى العقد التالى ولا المظاهرات التى وقعت فى هاديسن فالى Hudson Valley ولا التمرد الذى اجتاح الشمال الشرقى لنيويورك والذى انتهى بفصل فيرمونت عن ولاية نيويورك – لم يكن كل ذلك من قبيل المظاهرات المتقطعة بقدر ما كان حركات اجتماعية ممتدة ومنظمة أدت إلى خلق ما يشبه الحكومات المضادة.

لقد كان هدف هذه الحركات يتمثل فى حفنة من ملاَّك الأراضى الأثرياء، غير أنه لبعد هؤلاء الملاَّك عن أيدى المتظاهرين، كانوا يوجهون غضبهم تجاه الفلاحين الذين استأجروا الأرض المتنازع عليها (راجع العمل الرائد لإدوارد كنتريمان **Countryman** عن التمرد الريفى).

وكما اقتحم متمردو جيرسى السجون كى يطلقوا سراح زملائهم، قام المتظاهرون فى هاديسن فالى بإنقاذ السجناء من أيدى العمدة، بل قاموا فى إحدى المرات بإلقاء القبض عليه واتخذوه سجينًا. كانت الحكومة ترى أن المستأجرين المتظاهرين ليسوا إلا "حثالة البشر"، وكان الحشد الذى قاده عمدة مقاطعة ألبانى إلى بيننجتون عام ١٧٧١ يتضمن صفوة السلطة المحلية.

كان المتظاهرون فى سبيل الأرض يرون معركتهم معركة فقراء ضد أغنياء؛ وقد قال شاهد على محاكمة أحد قادة المتمردين فى نيويورك عام ١٧٦٦ إن الفلاحين الذين قام أصحاب الأراضى بطردهم "كان لهم سندُ ملكية قانونى، غير أنه كان من الصعب الدفاع عن قضيتهم لأنهم فقراء... ودائمًا ما يقهر الأغنياءُ الفقراء." كما وصف متمردو جرين ماونتين فى فيرمونت أنفسهم بأنهم "شعب فقير ... أعياه الاستيطان فى بلد قفر" ووصفوا معارضيهم بأنهم "عدد من المحامين والوجهاء بكل ما يملكونه من عز ومكانة ودهاء."

توجه الفلاحون الذين يحرقهم الشوق إلى الأرض فى هاديسن فالى إلى البريطانيين طلبًا لدعمهم ضد ملاك الأرض الأمريكيين، كما فعل متمردو جرين ماونتن الشىء نفسه، غير أنه مع تفاقم النزاع مع بريطانيا، قام القادة الاستعماريون لحركة الاستقلال، بتبنى سياسات جديدة للتغلب على أهل الريف، وذلك لأنهم يدركون استعداد المستأجرين الفقراء للانحياز إلى الجانب البريطانى نكايةً فى الأغنياء. وفى كارولاينا الشمالية، قامت حركة قوية من الفلاحين البيض، هدفها التمرد على الأثرياء والموظفين الفاسدين فى الفترة من ١٧٦٦ إلى ١٧٧٧ وبذلك اكتسبت الصراعات الطبقية زخمًا جديدًا. وجدير بالذكر أن هذه هى الفترة التى شهدت سخطًا متزايدًا

ضد الإنجليز. اتخذت هذه الحركة لنفسها اسم "ذا ريجيوليتور" The Regulator (المنظم) وكانت تتكون، كما يقول مارفين مايكل كاى Marvin L. Michael Kay المتخصص فى تاريخ هذه الحركة، من "جماعة من فلاحى الغرب البيض الذين يتمتعون بوعى طبقى ويحاولون جعل الديمقراطية نهجًا للحكومات المحلية فى مقاطعاتهم." كان أفراد هذه الحركة يصفون أنفسهم بأنهم "فلاحون فقراء مكافحون" و"عمال" وبأنهم "المعذبون الفقراء" الذين "تقهرهم... وحوش أثرياء وأشداء." لما رأى أفراد هذه الحركة أن ما يحكم كارولاينا الشمالية هو الثروة والسلطة السياسية، قاموا بإدانة وفضح أولئك المسئولين "الذين لا يشغلهم شئ غير اكتناز الثروات." كذلك فقد عبروا عن رفضهم لنظام الضرائب، الذى كان عبئًا ثقيلاً خاصة على الفقراء، كما أدانوا التجار والمحامين الذين كانوا يعملون بالمحاكم ويطاردون الفلاحين من أجل جمع الديون. فى المقاطعات الغربية، حيث نمت الحركة، كانت نسبة صغيرة فقط من الأسر تستعين بالعبيد، وكان ٤١ ٪ من هؤلاء العبيد يعملون لدى ما يقل عن ٢ ٪ من الأسر. ورغم أن أفراد الحركة لم يكونوا يمثلون الخدم أو العبيد، فقد كانوا يدافعون عن صغار الملاك والمستأجرين وشاغلى الأراضى عن طريق وضع اليد. ويصف أحد التقارير المعاصرة للحركة فى مقاطعة أورينج الموقف قائلاً:

> **هكذا كان الناس فى أورينج؛ يسرقهم العمدة ويسلب ما يملكون. يهملهم ويدينهم ممثلوهم فى البرلمان. ينتهك القضاة حقوقهم. ويجبرهم الضباط بجشعهم على دفع أموال لهم. ويجبرون على دفع ضرائب يعرفون أن هدفها إثراء القلة التى تقوم بفرضها بشكل دائم، وليس أمامهم من سبيل لتجنب كل هذه الشرور، لأن مَنْ يحكمون ويُشرِّعون لا يبتغون إلا قهر العمال والتكسب من عرقهم.**

ولقد نظم المنتمون إلى حركة "ذا ريجيوليتور" فى تلك المقاطعة أنفسهم للعمل على منع جمع الضرائب أو مصادرة أراضى المتهربين من سدادها، وقال المسئولون إن

"تمرداً كبيراً ذا أهداف خطرة قد اندلع فى مقاطعة أورينج" ووضعوا خططاً عسكرية لقمعها، وكان أن ألقى القبض على اثنين من قادة الحركة، لكن وجود سبعمائة من الفلاحين المسلحين أجبر المسئولين على إطلاق سراح القائدين. والشيء الجدير بالذكر أن أفراد الحركة قدموا التماساً فى عام ١٧٦٨ إلى الحكومة يتضمن مظالمهم، ويذكّر الحكومة "بعدم تكافؤ فرص الفقراء والمستضعفين إذا ما قورنت بفرص الأثرياء وذوى النفوذ."

وفى مقاطعة آنسن شكا قائد إحدى الميليشيات المحلية من أن "حركات تمرد واضطراب وفوضى غير مسبوقة تضرب المقاطعة." وبلغ المتمردون حداً بعيداً؛ إذ اقتحم مائة رجل منهم إحدى محاكم المقاطعة وأوقفوا إجراءات الجلسة المنعقدة، كما حاول المتمردون انتخاب الفلاحين للبرلمان، مؤكدين أن "غالبية أعضاء مجلسنا محامون وموظفون وآخرون ذوو علاقة وثيقة بهم... ." أما عام١٧٧٠ فقد شهد مظاهرة واسعة النطاق بمنطقة هيلزبورو فى كارولاينا الشمالية؛ حيث قام المتظاهرون باقتحام إحدى المحاكم وأجبروا القاضى على الفرار، وقاموا بضرب ثلاثة من المحامين وتاجرين، كما قاموا بنهب المتاجر.

كان من نتيجة ذلك أن قام مجلس النواب بإجراء إصلاح تشريعى طفيف، بالإضافة إلى إصدار قانون "يمنع المظاهرات وأحداث الشغب"، فى الوقت الذى كان الحاكم يستعد لإلحاق هزيمة عسكرية بهم. وفى مايو١٧٧١ كانت هناك معركة حاسمة هزم فيها عدة آلاف من حركة "ذا ريجيوليتور" أمام جيش منظم يستخدم المدافع، وبعد هذه المعركة تم إعدام ستة من أفراد الحركة شنقاً. يقول كاى Kay إن فى المقاطعات الغربية الثلاث أورينج، وآنسن، وروان، كانت الحركة تتمتع بتأييد ستة أو سبعة آلاف من إجمالى عدد السكان البيض البالغ عددهم حوالى ثمانية آلاف.

وتتمثل إحدى نتائج هذا الصراع المر فى أن أفراداً قليلين من سكان مقاطعات الحركة قد شاركوا فى الحرب الثورية حيث بقى معظم أعضاء الحركة على الحياد. وكان من حسن حظ الحركة الثورية أن المعارك الرئيسية كانت فى الشمال، وهنا فى

المدن واجه القادة الاستعماريون انقسامًا بين السكان البيض، لكنهم تفوقوا على الحرفيين الذين كانوا يمثلون نوعًا من الطبقة الوسطى وهم الذين راهنوا على الحرب ضد إنجلترا وكانوا يواجهون منافسة من قِبل رجال الصناعة الإنجليز. لكن المشكلة الكبرى كانت تتمثل فى السيطرة على معدومى الأملاك الذين عانوا الجوع فى أعقاب الحرب الفرنسية. وفى بوسطن اختلطت المظالم الاقتصادية للطبقات الدنيا بالغضب الموجه ضد البريطانيين، وانفجرت هذه المظالم وخرجت فى شكل عنف غوغائى، ولجأ قادة حركة الاستقلال إلى الطبقات الدنيا لأنهم أرادوا استخدام غضب العامة والغوغاء وتوظيفه ضد الإنجليز. ولم يكن هذا هو هدفهم فحسب، بل كان ذلك محاولة لاحتواء ذلك الغضب كى لا يكلفهم كثيرًا فيما بعد. وعندما اكتسحت مظاهرات قانون طابع البريد مدينة بوسطن فى ١٧٦٧، قام قائد القوات البريطانية فى أمريكا الشمالية، الجنرال توماس جيج Gage، بتحليل ما حدث قائلاً:

> **انتفضت جماهير بوسطن بعد أن قام بإثارتها عدد من البارزين فى المدينة بعد قليل من اتفاقهم على الانتفاضة وقاموا بمهاجمة البيوت وتدميرها ونهبها وكان بيت الحاكم من بين هذه البيوت... ثم بدأ الناس فى الشعور بالفزع من الروح التى خلقوها وبدأوا يدركون أن الغضب الشعبى من شأنه أن يدمر كل شئ حتى خشى كل فرد من أن يكون الضحية القادمة لنزعة النهب والتدمير التى سيطرت على الجماهير. وانتقلت المخاوف نفسها إلى أماكن أخرى وكانت المعاناة فى وقف تمرد الجماهير كالمعاناة التى تكبدها المحرضون فى إثارتهم.**

يقول تعليق جيج أن قادة حركة التمرد ضد قانون طابع البريد أثارت الجماهير ثم خشى القادة من فكرة أن يتحول الغضب الجماهيرى إلى ثرواتهم أيضًا. يُذكر أن ١٠٪ فقط من دافعى الضرائب فى بوسطن كانوا يملكون ٦٦٪ من ثروات بوسطن الخاضعة للضرائب، بينما كان ٣٠٪ من دافعى الضرائب لا يملكون شيئًا على

الإطلاق، ولما كان المعُدمون لا يملكون حق التصويت فى الانتخابات، فكانوا مثلهم مثل السود والنساء والهنود، لا يملكون حق المشاركة فى اجتماعات مجلس المدينة، وكانت هذه النسبة تشمل البّحارة والرحالة وصبيان الحرف المختلفة والخدم.

يصف ديرك هوردر Dirk Hoerder، وهو باحث درس حركات الجماهير فى بوسطن إبان الحقبة الثورية، أفراد القيادة الثورية بأنهم "أبناء نوع من الحرية آت من مصالح الطبقة الوسطى ومن عالم التجار الموسرين" وبأنهم "قيادة يغلب عليها التردد"، تتمنى أن تثير الغضب الجماهيرى ضد بريطانيا، لكنها فى الوقت نفسه تخشى مغبة الفشل فى احتواء غضب الجماهير داخل الوطن. ولم تفهم القيادة ما ورّطت نفسها فيه سوى بعد الأزمة التى خلقها قانون طابع البريد، إذ قامت جماعة سياسية فى بوسطن تُسمى بجماعة "المخلصون التسعة" The Loyal Nine وتضم بين صفوفها التجار وأصحاب السفن وكبار الحرفيين الذين عارضوا ذلك القانون. ونظمت هذه الجماعة مسيرة فى ١٧٦٥ للاحتجاج على القانون، ووضعت خمسين من كبار الحرفيين فى المقدمة، لكنها كانت فى حاجة إلى تعبئة عمال السفن من الجهة الشرقية، والحرفيين وصبيان الحرف من الجهة الجنوبية، واشترك فى هذا الموكب ألفان أو ثلاثة آلاف، بالرغم من استبعاد الزنوج من المشاركة.

واتجهت المسيرة إلى بيت المشرف على طوابع البريد وقام أفراده بحرق دمية له. غير أنه بعد مغادرة "الوجهاء" الذين نظموا المسيرة، تمادت الجماهير فى إعلان غضبها وقاموا بتحطيم بعض أملاك المشرف على مكتب البريد. لقد كان الناس، على حد قول أحد المخلصين التسعة "مهتاجين إلى درجة تبعث على الاندهاش." ويبدو أن المخلصين التسعة أفزعهم غضب الجماهير وتعديهم المباشر على المفروشات الثمينة لمنزل المشرف على مكتب طوابع البريد.

قام الأثرياء بإنشاء دوريات حراسة مسلحة، ودعوا إلى عقد اجتماع لمجلس المدينة، وأدان نفس القادة الذين خططوا للمظاهرة عنف الجماهير واستنكروا ما قامت به من أفعال. وبينما كان قد تم التخطيط للقيام بمظاهرات أخرى فى

نوفمبر١٧٦٥(حيث يبدأ تطبيق القانون الجديد) وفى يوم البابا (الخامس من نوفمبر)، اتخذت بعض الإجراءات للسيطرة على الموقف؛ تمثلت فى إقامة حفل عشاء لبعض قادة المتظاهرين من أجل كسب ودهم. ولما تم إلغاء ذلك القانون، نتيجة مقاومة الناس الشديدة، قام القادة المحافظون بقطع علاقاتهم مع المتظاهرين، وأقاموا احتفالات سنوية بمناسبة المظاهرات المناهضة لقانون طابع البريد، وهى احتفالات لم تكن توجه الدعوات لحضورها إلى الذين شاركوا فى المظاهرات ولكن، حسب ما يقول هوردر، "كانت توجه بصفة أساسية إلى أبناء الطبقة الوسطى من أهالى بوسطن الذين كانوا يسافرون فى مركباتهم الزاهية إلى روكسبيرى أو دورشيستر حيث تقام لهم الولائم العامرة."

عندما بدأ البرلمان البريطانى فى محاولته التالية لفرض ضرائب على المستعمرات، وهى مجموعة ضرائب تمنى البرلمان ألا تثير معارضة كبيرة هذه المرة، قام قادة المستعمرات بإعلان مقاطعتهم لبضائع الحكومة البريطانية، غير أنهم أكدوا: "لا لحركات الجماهير أو أحداث الشغب، ولتتمتع ممتلكات أعدى أعدائكم ومن يعملون معهم من أفراد بكل أمان." لقد نصح صامويل آدمز بذلك، وقال جيمس أوتيس: "ليس هناك من الأحوال، مهما بلغ ظلمها، ما يفترض أنه يكفى لتبرير أحداث شغب أو اضطرابات خاصة... ."

كانت أعمال المصادرة ونشر القوات البريطانية كبيرة الضرر، بشكل مباشر، على البحارة وكادحين آخرين؛ فبعد عام ١٧٦٨ ، تم نشر ألفين من الجنود فى ربوع بوسطن وتزايدت الاحتكاكات بين الجماهير والجنود؛ إذ بدأ الجنود فى الاستحواذ على وظائف العمال فى وقت كانت الوظائف فيه شحيحة، ومُنى الحرفيون والتجار بخسائر كبيرة وبارت أعمالهم نتيجة مقاطعة المستعمرين للبضائع البريطانية. وفى عام ١٧٦٩ ، أنشأت مدينة بوسطن لجنة "للنظر فى إيجاد فرص عمل لفقراء المدينة الذين يتزايد عددهم وتسوء محنتهم يوماً بعد يوم بسبب بوار عملهم وتجارتهم."

فى الخامس من مارس ١٧٧٠، أدى غضب صانعى الحبال من الجنود البريطانيين الذين يستولون على وظائفهم، إلى معركة بين الطرفين؛ حيث تجمع حشد منهم أمام منفذ الجمارك وبدءوا فى إثارة الجنود، الذين قاموا بدورهم بإطلاق الرصاص على ذلك الحشد فقتلوا فى البداية كريسبس أتوكس، أحد العمال المولَّدين، ثم آخرين. ولقد عُرفت هذه المعركة فيما بعد باسم "مذبحة بوسطن". وتزايدت مشاعر الغضب ضد البريطانيين سريعًا، خاصة بعد الإفراج عن ستة من الجنود البريطانيين بعد الاكتفاء بمعاقبة اثنين منهما بختم أصابع الإبهام ثم تسريحهما من الجيش. ووصف جون آدامز، قاضى الدفاع عن الجنود البريطانيين، أفراد الحشد الغاضب بأنهم "مجموعة من الصبيان الغوغائيين والزنوج والأيرلنديين والبحارة الهمجيين." ويُقدَّر عدد الذين شاركوا فى الموكب الجنائزى لضحايا المذبحة بعشرة آلاف من بين ستة عشر ألفا هم كل سكان بوسطن، الأمر الذى دفع إنجلترا إلى سحب جنودها من بوسطن فى محاولة لتهدئة الموقف.

كانت مصادرة الوظائف هى السبب الرئيسى لوقوع هذه المذبحة، إذ كان الجنود البريطانيون قد قاموا بمصادرة مئات الوظائف مما أدى إلى قيام مظاهرات عديدة فى نيويورك ونيوبورت ورود آيلاند حيث تظاهر خمسمائة من البحارة والفتيان والزنوج. وقبل المذبحة بستة أسابيع كانت هناك معركة فى نيويورك بين البحارة وبين الجنود الذين استولوا على وظائفهم، حيث قتل أحد البحارة. وأثناء حفل الشاى الذى أقيم فى بوسطن، فى ديسمبر ١٧٧٣ ، قامت لجنة بوسطن للاتصالات، وهى لجنة تشكلت قبل عام لتنظيم أعمال مناهضة للبريطانيين، "بتنظيم حشد كبير لمعارضة حفل الشاى من البداية"، على حد قول ديرك هوردر. كان من تأثير ذلك أن قام البرلمان البريطانى باتخاذ عدة قرارات قسرية تمثلت فى فرض ما يشبه الأحكام العرفية فى ماساتشوستس، وحل الحكومة الاستعمارية، وإغلاق ميناء بوسطن وإرسال مزيد من الجنود. بيد أن ذلك لم ينل من المعارضين، بل دفعهم إلى المزيد من المعارضة. فعلى سبيل المثال، أدى استيلاء البريطانيين على أحد متاجر البارود إلى خروج أربعة آلاف

متظاهر من مختلف ربوع بوسطن والتجمع فى كيمبردج حيث بعض المنازل الفخمة للمسئولين الأثرياء. وأجبر المتظاهرون المسئولين على الاستقالة، ورحبت لجان الاتصالات فى بوسطن وغيرها من المدن بهذا الحشد المتظاهر، غير أنها حذرت المتظاهرين من الاعتداء على الأملاك الخاصة.

تؤكد بولين ماير التى درست تطور معارضة الوجود البريطانى فى العقد الذى سبق عام ١٧٧٦ فى كتابها من **المقاومة إلى الثورة** **From Resistance to Revolution** على اعتدال أفراد قيادة الثورة "وتأكيدهم على النظام والانضباط" رغم رغبتهم القوية فى المقاومة. تقول ماير: "يكاد كل قادة وأعضاء لجان أبناء الحرية أن يكونوا من الطبقتين الوسطى والعليا للمجتمع الاستعمارى." ففى نيوبورت برود آيلاند، على سبيل المثال، كان تنظيم "أبناء الحرية" يحوى فى صفوفه "بعض وجهاء المدينة لما يمثّلونه من فخامة وذوق وأدب." وفى كارولاينا الشمالية كان قائد "أبناء الحرية" واحداً من أكبر الوجهاء الموسرين. وكذلك كانت الحال فى فرجينيا وكارولاينا الجنوبية. وفى نيويورك "كان قادة أبناء الحرية يديرون عملاً صغيراً لكنه كان ذا موارد مستقلة ومحترمة." وكان هدفهم توسيع منظمتهم من أجل بناء قاعدة جماهيرية من العمال. ويُذكر أن كثيراً من جماعات أبناء الحرية أعلنوا "رفضهم الشديد" لعدم الالتزام بالقانون، كما أعلنوا معارضتهم "كل المظاهرات أو أشكال التجمهر غير القانونية التى تعكّر الصفو أو السلم العام." وعبّر جون آدمز عن نفس المخاوف حيث قال: "لا يجب، بأى حال من الأحوال، تشجيع هذه الموجات الغوغائية أو اقتحام البيوت من قبل السوقة نتيجة أخطاء شخصية ارتكبت ضدهم أو جرياً منهم وراء أهواء ومشاعر خاصة."

وفى فرجينيا بات واضحًا للطبقة العليا أنه لابد من فعل شىء لإقناع الطبقات الدنيا بالانضمام لقضية الثورة ولتوجيه شحنة غضبهم ضد إنجلترا. فقد كتب أحد أهالى فرجينيا فى يومياته، فى صيف عام ١٧٧٤: "ينتاب الطبقة الدنيا من الناس هنا قلق واضطراب شديدان بشأن الأخبار الواردة من بوسطن؛ إذ يتوقع كثيرون منهم أن

يتم إجبارهم على التطوع من أجل محاربة البريطانيين!" وفى الفترة التى صدر فيها قانون طابع البريد، قام أحد خطباء فرجينيا مخاطبًا الفقراء: "ألم يُخلق الوجهاء من نفس ما خلق منه أدناكم وأفقركم؟... فلا تعطوا آذانكم لمن يرمى إلى التفرقة بيننا، ودعونا نسير معًا يدًا فى يد كما يليق بأخوة...."

جاءت تلك المشكلة فى ظروف مواتية كى تظهر المواهب البلاغية لباتريك هنرى Patrick Henry فى أبهى أشكالها؛ فقد كان، كما يقول ريس إيزاك Rhys Isaac، "وطيد الصلة بعالم الوجهاء والطبقة العليا" لكنه كان يتحدث لغة يفهمها أفقرُ فقراء البيض فى فرجينيا. ويصف ادموند راندولف Randolph، وهو أحد زملاء هنرى، هذه اللغة بأنها لغة "البساطة بل وحتى اللامبالاة ... كانت وقفاته، التى كان لطولها يخشى الكثيرون أن تشتت انتباه مستمعيه، تزيد درجة الانتباه أكثر وأكثر لأنها ترفع من آمالهم." لقد كانت خطبة هنرى فى فرجينيا ترمى إلى تخفيف حدة التوتر الطبقى بين الطبقتين العليا والدنيا وإلى تشكيل رباط متين فى مواجهة البريطانيين وجاءت الخطبة فى لغة تناسب كل الطبقات؛ إذ كانت محددةً بما يكفى لسرد مظالم الناس وملء صدورهم غضبًا تجاه الإنجليز، وكانت، فى الوقت نفسه، لغةً غامضةً بدرجة تساعد على تجنب احتدام الصراع الطبقى بين الغاضبين، كما كانت لغةً مثيرةً للنشاط والتعبئة؛ إذ خلقت إحساسًا وطنيًا من أجل حركة المقاومة.

ولقد صبّ كُتيب توم بينْ Tom Paine وعنوانه **الفطرة السليمة** (١٧٧٦) Common Sense فى المجرى نفسه وهو الكتيب الذى حاز شعبيةً كبرى فى المستعمرات الأمريكية. كان ذلك الكتيب أول مناقشة جريئة لموضوع الاستقلال عن بريطانيا، وجاء فى لغة يفهمها أى شخص ملم بمبادئ القراءة، وهى لغة من قبيل "المجتمع خير فى كل أحواله، أما الحكومة فهى، فى أحسن أحوالها، شر لابد منه ... ." لقد دحض بينْ فكرة الحق الإلهى للملوك فى حكم البلاد وقام بتفنيدٍ موجعٍ وحادٍ للمَلَكية البريطانية، وعاد إلى تاريخ غزو النورمان لبريطانيا فى ١٠٦٦ ، عندما جاء وليم القاهر من فرنسا كى ينصّب نفسه ملكًا على العرش البريطانى. يقول بينْ:

"إن هبوط وغد فرنسى بمساعدة اللصوص وقطاع الطرق وإعلان نفسه ملكًا على إنجلترا ضد رغبة أهلها لفعل دنىء وحقير ومن المؤكد أنه لا يملك أية صبغة إلهية."
واستعرض بينْ المزايا العملية للارتباط بإنجلترا أو الانفصال عنها؛ إذ كان على دراية كبيرة بأهمية الاقتصاد. يقول:

أتحدى أقوى المدافعين أن يُرينا مزية واحدة تجنيها هذه القارة بارتباطها ببريطانيا العظمى. وإننى لأعيد التحدى؛ ليس ثمة مزية واحدة. إن محصولنا من الذرة جديرٌ بأن يأتى لنا بسعره فى أيٍ من أسواق أوروبا. وبأيدينا أن نجلب ما نحتاجه من بضائع من حيث شئنا ... .

وفيما يخص مساوئ الارتباط بإنجلترا، ذكَّر بينْ المستعمِرين بكل الحروب التى ورطَّتهم فيها إنجلترا، وما كابدوه فى هذه الحروب من أرواح وأموال. يقول:

أما عن الأضرار والمساوئ التى نؤيدها بحفاظنا على الارتباط بإنجلترا فهى بلا عدد ... إن الإذعان لبريطانيا العظمى أو الاعتماد عليها ليؤدى بهذه القارة بشكل مباشر إلى التورط فى حروب وصراعات أوروبية، ومثل هذا يجعلنا فى عداء مع أمم تنشد صداقتنا ... .

ثم يتدرَّج حديثه حتى يصل إلى نبرة تثير المشاعر:

كل ما هو صواب ومعقول يدعو إلى الانفصال . فدم مَنْ قُتلوا يصرخ، ويصرخ معه صوت الطبيعة الباكى: آن الأوان لكى ننفصل."

والشيءُ الجديرُ بالذكر أن كتيب توم بينْ أُعيد طبعه خمسة وعشرين مرة فى نفس العام الذى صدر فيه، وبيعت منه مئات الآلاف من النسخ، حتى أن كل مستعمرِ يجيد مبادئ القراءة قد قرأه أو على الأقل عرف ما يحويه. وكان إصدار الكتيبات قد

صار، فى ذلك الوقت، المسرح الرئيسى للجدال حول العلاقات مع بريطانيا، حتى أن الأعوام من ١٧٥٠ إلى ١٧٧٦ شهدت صدور أربعمائة كتيب تناقش جانبًا أو آخر من قانون طابع البريد أو مذبحة بوسطن أو مظاهرات حفل الشاى التى أشرنا إليها قبل قليل أو القضايا العامة مثل عصيان القانون والولاء للحكومة والحقوق والواجبات.

راق كُتيب بينْ لقطاع عريض من المستعمِرين الناقمين على إنجلترا، لكنه أيضًا أثار قلقًا وسط الأرستقراطيين (من أمثال جون آدمز) الذين كانوا يؤيدون القضية الوطنية لكنهم كانوا يخشون أن تأخذ هذه القضية خطوات بعيدة فى الطريق نحو الديمقراطية. وكان بينْ قد ندد بما يسمى الحكومة المتوازنة التى تتشكل من أعضاء مجلس الشيوخ ومجلس العموم وسمّى ذلك غشًا وخداعًا، ودعا إلى تكوين هيئات ذات تمثيل فردى حتى تمثل الشعب. فما كان من جون آدمز إلا أن ندد بخطة بينْ ووصفها بأنها "ديمقراطية الطابع، خالية من أى ضابط أو حتى محاولة توازن، ومثل ذلك لن يأتى إلا بكل شر ولن يجنى من ورائه سوى الارتباك والحيرة." وقال آدمز إنه لابد من مراجعة المجالس الشعبية لأنها "تأتى بنتائج متعجلة وتُصدر أحكامًا عبثية."

لقد خرج بينْ نفسُه من "الطبقات الدنيا" فى إنجلترا حيث عمل صانعًا للحبال وموظفًا فى الضرائب ومدرسًا، قبل أن يصل إلى فلادلفيا مهاجرًا فقيرًا عام ١٧٧٤ حيث كان الغضب ضد بريطانيا قد بدأ فى الظهور بقوة داخل المستعمرات. كان حرفيو فلادلفيا، بالتعاون مع بعض الرحالة والعمال العاديين، يشكلون ميليشيا ذات وعى سياسى، وكان وصف الأرستقراطيين المحليين لهؤلاء أنهم "جماعةٌ من ملاعين الدهماء والأوباش الساخطين وغير المخلصين." ولبساطة لغته وقوة حجته، استطاع بينْ أن يمثل هؤلاء الناس (لقد عارض مؤهلات الملكية الخاصة كشرط لكسب حق التصويت فى بنسلفانيا) بيد أن همّه الأكبر كان فى أن يدافع عن الطبقة الوسطى، ومن كلماته: "ثمة حدود للثراء، كما أن ثمة درجةً قصوى للفقر، وهى درجة تقلل من فرص مَنْ يبلغها فى المعرفة العامة."

وفى أثناء الإعداد للثورة، أعلن بينْ موقفه بوضوح إذ قال إنه لا يؤيد التجمعات الجماهيرية للطبقات الدنيا من أمثال هذه الجماعات التى هاجمت بيت "جيمس ولسن" فى عام ,١٧٧٩ وكان ولسن أحد قادة الثورة الذين عارضوا سياسة مراقبة الأسعار، حيث أراد حكومة أكثر محافظة مما يقول به دستور بنسلفانيا ١٧٧٦ . أصبح بينْ مساعداً لأحد أكبر الأثرياء فى بنسلفانيا، وهو روبرت موريس Morris، كما أصبح إحدى دعامات مؤسسة موريس "بنك أمريكا الشمالية." فيما بعد، وأثناء الجدال الدائر حول الدستور، كان على بينْ، مرة أخرى، أن يمثل حرفيى المدن الذين كانوا يفضلون قيام حكومة مركزية قوية، وبدا أن بينْ صدَّق أن مثل هذه الحكومة من شأنها أن تمثل المصلحة العامة بدرجة كبيرة. وانطلاقًا من اقتناعه ذلك، أعطى بينْ نفسه كاملة لأسطورة الثورة، وهى الأسطورة التى تقول إن الثورة قامت لمصلحة شعب متحد. لقد ساعد إعلان الاستقلال هذه الأسطورة فى الوصول إلى أعلى قمة من الفصاحة والبلاغة.

كان كل إجراء قاسٍ من الحكم البريطانى يصعّد من تمرد المستعمرين إلى درجة الثورة، وكان من بين هذه الإجراءات إعلان ١٧٦٣ الذى جعل جبال أبلاتشيان آخر الحدود لاستيطان المستعمرين، وضريبة البريد، وضريبة الشاى، ونشر الجنود البريطانيين، ومذبحة بوسطن، وإغلاق ميناء بوسطن وإلغاء النظام التشريعى لماساتشوستس. وكان المستعمرون قد ردوا بتكوين مجلس قانون طابع البريد وجماعة أبناء الحرية ولجان الاتصالات وحفل الشاى ببوسطن، وأخيراً بإنشاء مجلس القارة أو مجلس المستعمرات - Continental Congress وهو هيئة غير شرعية تبشر بقيام حكومة مستقلة فى المستقبل. وبعد احتكاك مسلح، وقع فى ليكسنجتون وكونكورد فى أبريل ١٧٧٥ ، بين المستعمِرين من رجال ما يعرف باسم(*) Minutuesmen وبين

(*) المدينون المسلحون الذين أبدوا استعدادهم الكامل للاشتراك فى الحرب من أجل الاستقلال عن بريطانيا ، وقد أطلق عليهم هذا الاسم ، ومعناه الحرفى « رجال الدقيقة » ، لأنهم كانوا يبدون استعداداً للمشاركة بعد دقيقة واحدة من إخبارهم بذلك الذى يدل على قمة حماسهم . (المترجم).

القوات البريطانية، اتخذ مجلس المستعمرات قراراً بالانفصال عن إنجلترا، وشكّل المجلس لجنة لوضع وثيقة إعلان الاستقلال وهى الوثيقة التى كتبها توماس جيفرسون Jefferson حيث وافق عليها المجلس فى الثانى من يوليو وأعلنت رسميًا فى الرابع من يوليو عام ١٧٧٦ .

بحلول ذلك الوقت، كانت قد تكونت بالفعل عاطفة قوية من أجل الاستقلال؛ إذ أعلنت كل القرارات المتخذة فى كارولاينا الشمالية الاستقلال عن إنجلترا فى مايو من عام ١٧٧٦ ، وأكدت أن القانون البريطانى باطل وأنه فقد كل شرعية ملزمة، وطالبت باتخاذ الاستعدادات العسكرية اللازمة. وفى نفس الوقت تقريبًا، ورداً على طلب أرسله مجلس نواب ماساتشوستس يطالب فيه كل المدن بإعلان آرائها فى مسألة الاستقلال، التقى أهل مدينة مالدن Malden بولاية ماساتشوستس بمجلس المدينة وبالإجماع طالبوا بالاستقلال: "... لذا فإننا نعلن، بكل ازدراء، تراجعنا عن الارتباط بمملكة من العبيد، ونودّع بريطانيا وداعًا نهائيًا... ولقد علمنا من تاريخ البشر أنه عندما يصبح من الضرورى لشعب من الشعوب إلغاء روابط سياسية كان مرتبطًا بها، فإن على هذا الشعب أن يكشف عن الأسباب ...." كانت هذه الفقرة هى افتتاحية وثيقة إعلان الاستقلال، وفى الفقرة الثانية، جاء البيان الفلسفى التالى بما يبسطه فى قوة ووضوح:

> **نؤمن أن الرجال جميعًا خُلقوا سواسية، وأن الله قد منحهم حقوقًا ليس من حق أحد إنكارها؛ من بينها الحق فى الحياة والحرية ونشدان السعادة. ومن أجل ضمان هذه الحقوق، قامت حكومات بين الشعوب، تستمد سلطتها العادلة من رضى المحكومين، ومتى أصبح أى شكل من أشكال الحكم هادمًا لهذه الغايات، فإن من حق الشعب أن يسقطه ويأتى بحكومة جديدة... .**

ثم انتقلت الوثيقة إلى سرد ما ارتكبه الملك من مظالم، واصفةً تاريخه بأنه "تاريخ من الظلم واغتصاب الحقوق والمساوئ التى أدت جميعها إلى إقامة طغيان مطلق على هذه الولايات." كما اتهمت الوثيقة الملك بمحاربة حكومات المستعمرات والهيمنة على القضاة وإرسال "أسرابٍ من الموظفين للتحرش بشعبنا" وإرسال جيوشٍ لاحتلال الأراضى، واتهمته بقطع تجارة المستعمرات مع أجزاء العالم المختلفة وفرض ضرائب على المستعمرين دون رضاهم بل ومحاربتهم "والمجيء بأعداد كبيرة من جيوش المرتزقة لإتمام أعمال الموت والخراب والطغيان." كانت هذه اللغة، التى تتحدث عن السلطة الشعبية على الحكومات وحق التمرد والثورة والسخط على الطغيان السياسى والأعباء الاقتصادية، لغة مناسبة لتوحيد أعداد كبيرة من المستعمِرين وتقنع الجميع بنسيان مظالمهم وشكاواهم ضد بعضهم البعض من أجل الاتحاد فى سبيل مواجهة بريطانيا.

بيد أن وثيقة إعلان الاستقلال قد استبعدت، فى وضوح، بعض الأمريكيين خارج دائرة المصلحة المشتركة، وهؤلاء هم الهنود الحمر والعبيد والنساء، بل إن إحدى فقرات الوثيقة اتهمت الملك بتحريض العبيد والهنود على التمرد والثورة: "لقد أثار الاضطرابات الأهلية فيما بيننا وكان يسعى إلى إثارة الهنود الهمجيين الذين لا يعرفون الرحمة ضد مستوطنينا من المستكشفين الرواد، ومعروف عن طريقة حرب الهنود أنها دمار لا يميز بين الأعمار أو الرجال والنساء."

قبل عشرين عامًا من إعلان الاستقلال، أصدر المجلس التشريعى لماساتشوسيتس فى ٣ نوفمبر ١٧٥٥ إعلانا جاء فيه أن هنود بينوبسكوت -Penob scot " متمردون وأعداء وخونة" وقدم الإعلان مكافأة "أربعين جنيهًا لكل فروة رأس لأحد الهنود الذكور ... وعشرين جنيهًا لكل فروة رأس لأحد الهنود دون الثانية عشر سواء كان من الذكور أو الإناث ... ."

كان توماس جيفرسون قد كتب فقرة فى وثيقة إعلان الاستقلال متهمًا الملك البريطانى بجلب العبيد من أفريقيا إلى المستعمرات و"قمع كل محاولة تشريعية تحاول

تحريم أو وضع قيود على هذه التجارة اللعينة." لقد بدا أن ذلك يعبّر عن السخط الأخلاقى على نظام الرق وتجارة الرقيق، غير أن مقت جيفرسون الشخصى من نظام الرق لابد أن يوضع جنبًا إلى جنب مع حقيقة ثابتة تتمثل فى أنه كان يملك مئات من العبيد حتى يوم وفاته. لقد كان السبب وراء ما كتبه جيفرسون هو الخوف المتزايد بين أهالى فرجينيا وبعض آخر من الجنوبيين من العدد المتزايد للعبيد فى المستعمرات (٢٠٪ من جملة السكان) والخوف من تهديد ثورات العبيد كلما زادت أعدادهم. والطريف أن مجلس المستعمرات قام بحذف الفقرة المشار إليها، لأن مالكى العبيد أنفسهم لم يوافقوا على مجرد الرغبة فى إنهاء تجارة الرقيق. وبهذا تم حذف مجرد الإيماءة إلى العبيد فى بيان الحرية العظيم للثورة الأمريكية.

ليس من المحتمل أن استعمال عبارة "خلق الرجال جميعًا سواسية" كان محاولة متعمدة لإصدار حكم ما على النساء، فحقيقة الأمر أن النساء كانت دون الاعتبار بدرجة تجعلهن غير جديرات بالذكر، فضلاً عن غيابهن من الناحية السياسية. ورغم أن الاحتياجات العملية قد منحت النساء بعض السلطة فى البيت وفى المزرعة أو فى وظائف مثل القبِالة (توليد النساء)، فقد كان يتم التغافل أو التغاضى عن أى اعتبار لحقوقهن السياسية أو أى إشارات لمساواتهن بالرجال فى الحقوق المدنية. إن القول بأن إعلان الاستقلال، حتى فى لغته، كان مقتصراً على الرجال البيض فى حديثه عن الحق فى الحياة والحرية ونشدان السعادة، لا يعنى أن ندين صانعى الوثيقة والموقعين عليها لإيمانهم بالأفكار المتوقعة من رجال القرن الثامن عشر؛ فكثيراً ما يُتهم الإصلاحيون والراديكاليون، فى نظرتهم غير الراضية إلى التاريخ، بأنهم يتوقعون أكثر مما ينبغى من حقبة سياسية ماضية- والحقيقة أنهم يفعلون ذلك أحياناً . وليس الهدف من رصد ما نرصده من إغفال إعلان الاستقلال لحقوق البعض وكأنهم خارج نطاق البشر، هو أن نلقى بأعباء أخلاقية على ذلك الزمن بعد قرون خلت، وهى أعباء لن تغير من الأمر شيئًا، إنما الهدف هو محاولة فهم الطريقة التى انتهجها إعلان الاستقلال فى تعبئة جماعات محددة من الأمريكيين متجاهلاً جماعات أخرى. ومن

المؤكد أن اللغة المثيرة الموحية لخلق إجماع فى الرأى لا زالت تستعمل فى زماننا وذلك للتغطية على صراعات المصالح داخل هذا الإجماع، فضلاً عن أهمية هذه اللغة فى التستر على إغفال قطاعات عريضة من الجنس البشرى أو إسقاطها من الحسبان.

غالبًا ما يتم إرجاع فلسفة إعلان الاستقلال - خاصة فيما يخص حق الشعب فى إنشاء حكومة تضمن له حقه فى الحياة والحرية ونشدان السعادة وحقه فى أن يطيح بهذه الحكومة متى أخفقت فى النهوض بدورها - إلى أفكار الفيلسوف الإنجليزى جون لوك فى كتابه **مقالة ثانية عن الحكومة** Second Treatise on Government والتى صدرت فى إنجلترا عام١٦٨٩ عندما ثار الإنجليز على طغيان الملوك وأنشأوا حكومة برلمانية. وكما فعل كتاب لوك، تحدثت وثيقة إعلان الاستقلال عن الحكومة والحقوق السياسية، لكنها تجاهلت التفاوت الكبير فى الثروات. وكيف يكون للناس حقوق متساوية حقًا فى ظل تفاوتات صارخة فى الثروة؟

لقد كان لوك نفسه ثريًا يملك استثمارات واسعة فى تجارة الحرير والرقيق ويملك دخلاً كبيراً من القروض والمرهونات، كما كان من أكبر المشاركين الأوائل فى رصيد "بنك إنجلترا" وكان ذلك بعد سنوات قليلة من كتابته مقالة ثانية عن الحكومة والذى يعتبر نموذجًا كلاسيكيًا للديمقراطية الليبرالية. وفى فترة عمله مستشاراً لكارولاينا الشمالية وكارولاينا الجنوبية، اقترح لوك إنشاء حكومة من مالكى العبيد يديرها بارونات الأراضى الأثرياء. وكان حديثه عن حكومة الشعب تأييداً لثورة فى إنجلترا من أجل تطوير الرأسمالية التجارية سواء داخل الوطن أو خارجه، وأبدى لوك نفسه أسفًا على أن عمل الأطفال الفقراء "يضيع لصالح العامة حتى يبلغوا الثانية عشرة أو الرابعة عشرة" وقدم اقتراحًا يقضى بوجوب ذهاب أطفال الأسر الفقيرة، فى سن مبكرة إلى "مدارس حِرفية" كى "يتمرسوا على العمل منذ الطفولة."

وإذا كان من الصحيح أن ثورات القرن السابع عشر فى إنجلترا قد أدت إلى وجود حكومة تمثيلية وفتحت آفاقًا واسعة لمناقشة الديمقراطية "فإن إرساء السيادة البرلمانية وسيادة القانون"، على حد قول المؤرخ الإنجليزى كريستوفر هيل فى كتابه

الثورة البيوريتانية The Puritan Revolution كان بلا أدنى شك فى مصلحة أصحاب الأملاك" حيث أُطيح بنظام الضرائب التعسفى الذى كان يهدد أمن الثروات، وأُنهيت الاحتكارات لإفساح مجال أكثر حرية للعمل، وبدأ استخدام القوة البحرية لتحقيق سياسة إمبراطورية خارج البلاد تضمنت غزو أيرلندا، كما قامت الثورة بسحق حركتى Levellers (دعاة المساواة) و Diggers (الحفارون)، وهما حركتان سياسيتان كانتا تدعوان إلى تطبيق المساواة فى المجال الاقتصادى.

بإمكاننا أن نرى حقيقة عبارات لوك الرائعة عن الحكومة التى تمثل الشعب، وذلك فى الانقسامات والصراعات الطبقية التى شهدتها إنجلترا فى أعقاب الثورة التى أيدها لوك. ففى نفس الوقت الذى توتر فيه المشهد الأمريكى فى ١٧٦٨ ، كانت تضرب إنجلترا مظاهرات وإضرابات قام بها عمال الفحم وورش النجارة وصناع القبعات والنساجون والبحارة احتجاجًا على ارتفاع أسعار الخبز والأجور البائسة. وقد ورد فى Annual Register (السجل السنوى) عرض لأحداث ربيع وصيف عام ١٧٦٨ جاء فيه: "انتشر، للأسف الشديد، سخط عام بين قطاعات عريضة من أفراد الطبقات الدنيا، وغالبًا ما تجلى هذا السخط، الذى يعود فى جزء منه إلى ارتفاع أسعار المواد التموينية، فى أحداث شغب واضطراب ومظاهرات تسببت فى إحداث أوخم العواقب."إن "الناس" الذين يفترض أنهم يمثلون جوهر نظرية جون لوك عن سيادة الشعب عرّفهم أحد أعضاء البرلمان البريطانى كما يلي: "أنا لا أقصد العامة ... بل أقصد المتوسطين من الناس فى إنجلترا كالصناع والتجار والموظفين وصغار الملاك ووجهاء الريف ... "

وفى أمريكا أيضًا كانت الحقيقة الكامنة خلف كلمات وثيقة إعلان الاستقلال (صدرت فى نفس عام صدور المانيفستو الرأسمالى لآدم سميث **ثروة الأمم** (The Wealth of Nations تتمثل فى أن طبقةً ناهضةً من ذوى الأهمية من الناس كانوا بحاجة إلى أن يضعوا إلى جوار أسمائهم عددًا من الأمريكيين يكفى لهزيمة إنجلترا دون أن ينال ذلك كثيرًا من صفو علاقات الثروة والسلطة التى ترسخت عبر أكثر من

مائة وخمسين عامًا من التاريخ الاستعمارى. لقد كان تسعة وستون بالمائة، فى حقيقة الأمر، من الموقعين على وثيقة إعلان الاستقلال موظفين لدى إنجلترا وتربطهم بها علاقات استعمارية.

ولما قُرأت وثيقة إعلان الاستقلال من شرفة مجلس مدينة بوسطن، كان الذى قرأها هو توماس كرافتس، أحد أعضاء جماعة المخلصين التسعة وهى جماعة من المحافظين الذين عارضوا اتخاذ إجراء عسكرى ضد البريطانيين. وبعد أربعة أيام من قراءة الوثيقة، أمرت لجنة بوسطن للاتصالات رجال المدينة بالتجمع فى حديقة بوسطن العامة وذلك من أجل الالتحاق بالجيش. واستطاع الأغنياء، كما تبين فيما بعد، أن يتهربوا من التجنيد عن طريق دفع أموال لبدلاء لهم؛ وكان على الفقراء أن ينهضوا للخدمة فى صفوف الجيش، الأمر الذى أدى إلى التظاهر والتصايح بكلمات مثل: "الطغيان هو الطغيان أيًا كان مصدره."

الفصل الخامس

نوع ما من الثورة

انتصر الأمريكيون على الجيش البريطانى بفضل وجود شعب كان مسلحًا بالفعل؛ إذ كان يمتلك كل أمريكى أبيض سلاحًا يجيد استعماله، أما العامة من الفقراء، فلم تكن القيادة الثورية تثق بهم. ولما كانت القيادة الثورية تعلم أن الثورة لا تروق الهنود ولا العبيد فقد وجهت جل اهتمامها إلى مغازلة الأمريكيين البيض المسلحين. ولم يكن مثل هذا الأمر هينًا؛ فرغم حماس الحرفيين والبحارة وآخرين ضد البريطانيين، لم يكن الحماس العام من أجل الحرب قويًا، وبينما التحق كثيرون من البيض بالخدمة العسكرية بعض الوقت أثناء الحرب، فلم يبق منهم فى الخدمة إلا قليلون. ويذكر جون شاى Shy، فى دراسته عن جيش الثورة والتى تحمل عنوان **شعب مسلح لا حصر له A People Numerous and Armed**، أن كثيراً من الذين انتظموا فى صفوف الجيش "أرهقتهم ونفّرتهم المعاملة الفظة من قبل لجان الأمن المحلية وفساد وكلاء مندوبى التموين وغلظة جماعات من الغرباء رثّةٌ ثيابُهم يحملون السلاح فى أيديهم ويسمون أنفسهم جنود الثورة." وحسب تقديرات شاى، فإن ثلث السكان تقريبًا كان ضالعًا فى الخيانة، بينما قدر جون آدمز أن ثلث السكان كان معارضًا للثورة فى مقابل ثلث آخر كان مؤيداً لها، بينما بقى الثلث الأخير محايداً.

كتب ألكساندر هاملتن Alexander Hamilton، أحد معاونى جورج واشنطن وأحد الأعضاء الصاعدين فى النخبة الجديدة، من مقر إقامته قائلاً: "... إن أبناء

شعبنا يملكون كل حماقة الحمير ونزقها وكل سلبية الخراف... إنهم مصممون على ألا يكونوا أحراراً... وإذا كان أن تكتب لنا النجاة، فعلى فرنسا وإسبانيا إنقاذنا."

كانت العبودية عقبة في طريق الثورة في الجنوب، فلم تستطع كارولاينا الجنوبية، على سبيل المثال، أن تشارك في حرب الإنجليز منذ أن زعزعت انتفاضة العبيد عام ١٧٣٩ في ستونو إحساسها بالأمان، ومن ثم كان على قواتها أن تبقى مكانها للسيطرة على العبيد.

كان الملتحقون الأوائل بالجيش "علامات على الاحترام أو المواطنة الكاملة على الأقل"، على حد قول شاي، وكان يتم استبعاد الهنود الودودين والزنوج الأحرار والخدم البيض والأحرار البيض الذين لم يكن لهم سكن ثابت. غير أن الاحتياج الشديد أدى في النهاية إلى تجنيد البيض الأقل احتراماً، وسمح القانون في كل من ماساتشوستس وفيرجينيا بتجنيد "المشردين" في صفوف الجيش. لقد أصبحت القوات العسكرية، في حقيقة الأمر، المكان الموعود بالنسبة للفقراء أملاً منهم في الترقي واكتساب بعض المال وتغيير المكانة الاجتماعية. وهنا كانت الخدعة التقليدية التي يقوم من خلالها المسئولون عن أي نظام اجتماعي بتعبئة المتمردين من السكان، وتتمثل الخدعة في تقديم فرصة المغامرة والمكافآت الخاصة بالخدمة في صفوف الجيش وذلك لدفع الفقراء إلى القتال في سبيل قضية ربما لا يرون بوضوح أنها قضيتهم.

ولعل فيما يحكيه ضابط أمريكي مصاب لبيتر أوليفر خير مثال لما نتحدث عنه، ولعل ما حكاه الضابط عن كيفية التحاقه بجيش الثورة كان هو الرد الذي تمناه بيتر أوليفر الذي ينتمي إلى المحافظين. يقول الضابط:

كنت صانع أحذية، أكسب قوت يومي من عمل يدي. ولما حدث هذا التمرد، رأيت بعضاً من جيراني، ممن لا يفضلونني مكانة، يلتحقون بالجيش، وكنت طموحاً ولم أرد أن أرى هؤلاء

فى وضع أفضل منى ... وطلب منى أن أتقدم بطلب للالتحاق بالجيش كجندى خاص ... ولكنى تقدمت لرتبة ضابط ومنحت الرتبة، وتصورت أننى أصبحت فى طريق الترقى؛ بمعنى أننى لو قُتلت فى أحد المعارك تكون نهايتى، أما إذا قتل قائدى، ترقيت وأحظى بفرص أخرى للترقى. كانت هذه ياسيدى الدوافع الوحيدة لالتحاقى بالخدمة فى الجيش، أما فيما يخص النزاع بين بريطانيا العظمى والمستعمرات، فلا أعرف عنه شيئًا... .

قام جون شاى بفحص ودراسة ما حدث بعد ذلك لهذا الضابط، فوجد أنه وليم سكوت من بيتر بورو بولاية نيو هامشير، سجنه الإنجليز لمدة عام، لكنه هرب وعاد إلى الجيش الأمريكى، اشترك فى عدة معارك فى نيويورك، لكن البريطانيين قبضوا عليه مرة أخرى وعاود الهروب سابحاً نهر هدسن ليلة كاملة وساعته مثبته تحت قبعته. عاد إلى نيوهامشير وقام بتجنيد مجموعة من أصدقائه وكان من بينهم ابناه الكبيران. شارك فى معارك مختلفة حتى وهنت صحته. رأى بعينه ابنه الكبير يموت محموماً بعد ست سنوات من الخدمة فى الجيش. باع مزرعته فى بيتربورو مقابل ورقة مالية أصبحت، مع التضخم الاقتصادى، عديمة القيمة. وبعد انتهاء الحرب، اتجهت إليه أنظار الناس عندما قام بإنقاذ ثمانية من الغرق بعد أن انقلب بهم قاربهم فى ميناء نيويورك. حصل على وظيفة قام من خلالها بمساعدة الجيش فى عملية مسح جغرافى للأراضى الغربية، لكنه مات محموماً فى عام ١٧٩٦ .

كان سكوت واحداً من محاربى الثورة ذوى الرتب العسكرية الصغيرة وذوى الخلفيات الاجتماعية الفقيرة والغامضة. وتبين دراسة شاى أن الأثرياء والبارزين من أهل مدينة بيتربورو استمروا فى الخدمة العسكرية إبان الحرب مدة وجيزة، وكان ذلك بمثابة نموذج متكرر فى المدن الأمريكية، ويرى شاى أن:

أمريكا الثورية ربما كانت مجتمعًا من الطبقة الوسطى، أكثر رخاءً وسعادة من أى مجتمع آخر فى ذلك الزمن، لكنها -

أمريكا - كانت تشتمل على عدد كبير ومتزايد من الفقراء الذين اضطلع كثير منهم بالقتال الفعلى ولم يجنوا سوى المعاناة فى الفترة من ١٧٧٥ إلى١٧٨٣ .إنها القصة نفسها القديمة دائمة التكرار.

عن طريق السيطرة على كل شئ، قام النزاع العسكرى نفسه، بتهميش قضايا أخرى، ودفع الناس دفعًا إلى المشاركة فى المنافسة الوحيدة التى حازت اهتمامًا عاما ووجد الناس أنفسهم مجبرين على الانحياز إلى جانب الثورة رغم أن مصلحة كثيرين منهم بشأن مسألة الاستقلال لم تكن واضحة على الإطلاق. ويبدو أن النخب الحاكمة قد تعلمت عبر الأجيال، سواء كانت واعية بذلك أم غير واعية، بأن الحرب تجعلهم أكثر إحساسا بالأمان فى مواجهة القلاقل الداخلية.

كانت لقوة الاستعداد العسكرى طريقتها الخاصة فى دفع المحايدين إلى الانضمام لصفوف الجيش. ففى ولاية كينيكتكت، على سبيل المثال، صدر قانون بتجنيد كل الذكور ما بين سن السادسة عشرة والستين، واستثنى القانون بعض موظفى الحكومة والوزراء وطلاب جامعة ييل Yale وهيئة التدريس بها بالإضافة إلى الزنوج والهنود والمولدّين. ويستطيع من يتم استدعاؤه للخدمة أن يأتى ببديل عنه أو أن يتفادى الخدمة كليةً مقابل دفع خمس جنيهات. وحدث أن تقاعس ثمانية عشر رجلاً عن المثول أمام مركز التجنيد، فألقى القبض عليهم وتم سجنهم واضطروا إلى التعهد بالاشتراك فى الحرب مقابل الإفراج عنهم، وهكذا، وعلى حد قول شاى "كانت القوات العسكرية هى آلية التحول السياسى لهؤلاء."

إن ما يبدو على أنه ممارسة للديمقراطية فى مسألة الانضمام إلى القوات العسكرية فى العصر الحديث ليس سوى طريقة مختلفة لإجبار أعداد كبيرة من المعارضين على الالتحام بالقضية الوطنية، بحيث لا يجدون أمامهم فى النهاية سوى الإيمان بها.

لم تخل الحرب فى سبيل الحرية من المؤامرات ـ الشارة المعتادة للثروات. ففى الوقت الذى لم تزل فيه مظاهرات التجنيد الإجبارى من قبل الإنجليز عالقة فى الأذهان، كانت البحرية الأمريكية تقوم بإجبار البحارة على التجـنيد فى عام ١٧٧٩ أو قبله بقليل، حتى أن أحد المسئولين فى بنسلفانيا علق على ذلك قائلاً:

إننا لا نستطيع منع أنفسنا من ملاحظة مدى تشابه هذا السلوك مع ما سلكه الضباط الإنجليز إبان خضوعنا لبريطانيا العظمى، وإننا لعلى اقتناع كامل بأن ما يحدث الآن ستكون له العواقب السيئة نفسها ، ونقصد بذلك تغريب مشاعر الناس مما ينفرهم من السلطة... وهو أمر من شأنه أن يفضى إلى المعارضة العلنية ... وإراقة الدماء.

عندما رأى أحد قساوسة كونكورد بماساتشوستس النظام الجديد والصارم لجيش واشنطن، كتب يقول: "مجىء سادة جدد يعنى صدور قوانين جديدة. هاهى أكثر الحكومات قوة وحزماً تتبوأ مكانها وهاهو تمييز كبير يأخذ مكانه بين المسئولين والضباط من ناحية وأفراد الشعب من ناحية أخرى، وعلى كل إنسان أن يعرف مكانته ويحافظ عليها، وإلا شُد وثاقه من فوره وتلقى ثلاثين أو أربعين جلدة."

خسر الأمريكيون المعارك الأولى فى بنكرهيل ومرتفعات بروكلين ومرتفعات هارلم وكسبوا معارك صغيرة فى ترينتون وبرنستون، ثم كسبوا معركة كبيرة فى ساراتوجا بنيويورك عام ١٧٧٧. وبينما اضطر جيش جورج واشنطن إلى المرابطة فى فالى فورج لشدة البرد، كان بنيامين فرانكلين يبحث عقد تحالف مع فرنسا التى كانت تتشوق إلى الثأر من إنجلترا. ثم تحولت الحرب إلى الجنوب حيث حاز البريطانيون نصراً بعد نصر حتى تمكن الأمريكيون، بمساعدة جيش فرنسى كبير ونتيجة لقيام الأسطول الفرنسى بسد الطريق أمام الإمدادات البريطانية، من إحراز النصر النهائى فى الحرب وذلك فى يورك تاون – فيرجينيا فى عام ١٧٨١ .

وخلال ذلك كله، لم تتوقف الصراعات المكبوحة بين الأغنياء والفقراء عن الظهور؛ ففى فلادلفيا والحرب على أشدها، أدى التضخم الاقتصادى (حيث ارتفعت الأسعار فى شهر واحد بنسبة ٤٥٪) إلى تحريض الناس والمناداة بالتحرك لإيقاف ذلك، ويصف إريك فونر ذلك الوقت بأنه "زمن الأرباح الكبرى لبعض المستعمِرين والمصاعب الشديدة البأس للآخرين." ونشرت إحدى صحف فلادلفيا نشرة تذّكر بأن "الناس فى أوروبا حصلوا على حقوقهم بأنفسهم عندما زادت ندرة الخبز نتيجة جشع المحتكرين؛ إذ قام الناس باقتحام المحلات وأخذوا من المتاجر ما أخذوا دون أن يدفعوا شيئًا، وفى بعض الحالات قاموا بتعليق المجرمين المسئولين عن عذابهم."

وفى مايو ١٧٧٩ قدمت الفرقة الأولى لمدفعية فلادلفيا التماسًا إلى مجلس النواب يطالب بدراسة مشاكل متوسطى الحال والفقراء وهددت بممارسة العنف ضد "أولئك الذين يملؤهم جشع اكتناز الثروات عن طريق تحطيم الجانب الأكثر عفة فى المجتمع." وفى الشهر نفسه، كان هناك اجتماع جماهيرى، خارج نطاق القانون، يطالب بتخفيض الأسعار وبادر هذا الاجتماع بفحص حالة روبرت موريس أحد أثرياء فلادلفيا الذى اتهم باحتكار الغذاء. وفى أكتوبر، وقعت مظاهرة فورت ويلسون **Fort Wilson** حيث قامت جماعة مسلحة بمسيرة فى المدينة واتجهت إلى بيت جيمس ولسن وهو محامى ثرى وأحد مسئولى الثورة الذى عارض رقابة الأسعار كما عارض الدستور الديمقراطى الذى تبنته بنسلفانيا فى ١٧٦٦ .

كانت غالبية المستعمرين البيض، سواءً كانوا يملكون قطعًا صغيرة من الأرض أو لا يملكون، لا يزالون أفضل حالاً من العبيد والخدم والهنود، وكانت تتم مغازلتهم من أجل الانضمام إلى تحالف الثورة، ولكن لما أصبحت التضحيات من أجل الحرب أكثر مرارة، بات من الصعب على الفقراء أن يقبلوا بأوضاع الأغنياء وبالمزايا التى يتمتعون بها؛ إذ يذكر أن عشرة بالمائة من السكان البيض (حسب تقييم جاكسون مينْ **Jackson Main** فى كتابه **البناء الاجتماعى لأمريكا الثورية** (**The Social Structure of Revolutionary America**) يملكون ألف جنيه فى صورة أملاك شخصية وألفًا أخرى

على الأقل فى صورة أراض. وبذلك فإن هذه النسبة الصغيرة من جملة السكان كانت تملك نصف ثروة البلاد تقريباً وتستعبد سبع عدد السكان مجتمعين.

كان يهيمن على مجلس المستعمرات، الذى كان يحكم أثناء حرب الاستقلال، عدد من الأثرياء الذين تربطهم أواصر أسرية وعلاقات عمل استطاعت أن تربط الشرق بالغرب والشمال بالجنوب؛ ولعل ما كان يربط بين ريتشارد هنرى لى Lee الذى يسكن فرجينيا وبين عائلة آدمز فى ماساتشوستس وعائلة شيبين فى بنسلفانيا خير مثال على ذلك. كما كان ثمة علاقات التجارة وزراعة الأراضى التى تربط ما بين وفود من المستعمرات الوسطى والجنوبية وبين روبرت موريس فى بنسلفانيا. يذكر أن موريس كان مفتشاً للمالية وكان مساعده هو جوفيرنير موريس.

كانت خطة موريس تتمثل فى منح الذين أقرضوا مجلس المستعمرات بعض الأموال وكسب تأييد الضباط والمسئولين وذلك عن طريق تصويته لصالح القرار الخاص بمنح نصف راتب مدى الحياة للذين تمنعهم إصابة الحرب من مزاولة أعمالهم. وكان فى ذلك تجاهل للجندى العادى الذى لم يكن يحصل حتى على راتبه والذى كان يعانى البرد ويموت من المرض وهو يرى المتربحين المدنيين يزدادون ثراءً.

وفى أول أيام عام ١٧٨١ قامت قوات بنسلفانيا، بالقرب من موريس تاون، بالتعدى، ربما بتأثير ما تجرعوه من روم، على ضباطهم حيث قتلوا أحد القادة وألحقوا إصابات بآخرين، وقاموا بمسيرة بكامل أسلحتهم ومدافعهم تجاه مجلس المستعمرات فى فيلادلفيا.

عالج جورج واشنطن هذه المسألة بحرص شديد؛ فعندما أخبره الجنرال أنطونى وينْ بالتطورات التى حدثت، طلب منه واشنطن ألا يلجأ إلى استعمال القوة إذ خشى أن يمتد التمرد إلى قواته، واقترح أن يقوم وينْ بإعداد قائمة بمظالم الجنود، كما طالب مجلس المستعمرات بألا يغادر فلادلفيا وإلا أصبح الطريق مفتوحاً أمام مدنيى

فلادلفيا للحاق بالمجلس ومن ثم فقد أرسل واشنطن نوكس إلى نيو إنجلاند على وجه السرعة ليعود براتب ثلاثة أشهر للجنود، بينما كان يقوم بإعداد ألف رجل للتوجه إلى الغاضبين كملجأ أخير. وكان أن تمت مفاوضات سلام تم من خلالها تسريح نصف الغاضبين وإعطاء اجازة للنصف الآخر. بعد ذلك بقليل، قامت حركة تمرد صغيرة فى نيو جيرسى؛ إذ تحدى مائتان من الرجال قادتهم وانطلقوا صوب عاصمة الولاية فى ترينتون. لكن جورج واشنطن كان مستعداً هذه المرة؛ حيث قام ستمائة من رجاله، كان قد تم إعدادهم إعدادا عاليًا من ناحية الملبس والمأكل، بمسيرة إلى المتمردين وقاموا بنزع أسلحتهم. تمت محاكمة ثلاثة من القادة فى الميدان، حيث صدر عفو عن أحدهم، أما الآخران فقد أطلق عليهما الرصاص من قبل جماعة من أصدقائهما بكوا قبل أن يضغطوا على زناد البنادق. كان ذلك "مجرد مثال" كما قال واشنطن.

بعد عامين وقع تمرد آخر فى بنسلفانيا. كانت الحرب قد انتهت وتم تفريق وحدات الجيش، لكن ثمانين جنديًا، لم يتلقوا رواتبهم، قاموا باقتحام مجلس المستعمرات فى فلادلفيا وأجبروا أعضاء المجلس على الفرار إلى برنستون عبر النهر "إذ قامت حفنة من الغاضبين السكارى بطرد هؤلاء الأعضاء من المبنى بطريقة مشينة" كما كتب – للأسف -أحد المؤرخين؛ ونعنى به جون فيسك فى كتابه **الفترة الحرجة** The Critical Period .

فى الوقت الذى لم يكن يستطيع فيه جنود الثورة أن يتمردوا ضد السلطة، كان باستطاعة المدنيين أن يفعلوا ذلك بسهولة؛ يقول رونالد هوفمان: "لقد أقحمت الثورة ولايات ديلاوير وميريلاند وكارولاينا الشمالية وكارولاينا الجنوبية وجورجيا وبدرجة أقل كثيراً – فرجينيا، أقحمت الثورة هذه الولايات فى صراعات أهلية انقسامية استمرت على مدار حقبة النضال من أجل الاستقلال." وقاومت الطبقات الدنيا فى الجنوب محاولات تعبئتهم فى سبيل الثورة؛ إذ كانوا يرون أنهم تحت سيطرة نخبة سياسية تحارب بريطانيا. فى ميريلاند، على سبيل المثال، وطبقًا للدستور الجديد الذى

صدر عام ١٧٧٦ ، كان على من يريد أن يترشح لوظيفة الحاكم أن تبلغ قيمة أملاكه خمسة آلاف جنيه وألف جنيه لمن يترشح لمقعد سيناتور. ومن ثم كان ذلك حكرًا على ١٠٪ من السكان فقط. يقول هوفمان: "في ظل هذا، كان صغار مالكي العبيد والمزارعون غير المالكين للعبيد والمستأجرون والعمال غير المنتظمين يمثلون مشكلة خطيرة من مشاكل النظام الاجتماعي بالنسبة لأهل النخبة."

ولما كانت نسبة العبيد السود تصل إلى ٢٥٪ من جملة السكان (و٥٠٪ في بعض المقاطعات) كان الخوف من ثوراتهم يتزايد، وكان جورج واشنطن قد رفض طلبات السود للمشاركة في جيش الثورة في مقابل حريتهم. ولذلك فعندما وعد اللورد دنمور Lord Dunmore، قائد القوات العسكرية البريطانية في فرجينيا، من ينضمون إلى قواته من العبيد بالحرية، خلّف ذلك ذعرًا كبيرًا جاء في أحد التقارير الواردة من إحدى مقاطعات ميريلاند – وهو تقرير يعبر عن القلق بشأن فقراء البيض الذين يشجعون الفارين من العبيد:

> **لقد بلغت صفاقة الزنوج حدًا يحتّم علينا ضرورة نزع أسلحتهم، وهو ما قمنا به بالفعل يوم السبت الماضي؛ حيث صادرنا حوالي ثمانين بندقية وبعض الحراب والسيوف. إن الأحاديث الطائشة والحمقاء، التي تأتي من بعض الطبقات الدنيا من البيض، قد جعلت الزنوج يعتقدون أن حريتهم تقوم على نجاح القوات البريطانية وانتصارها . ومن ثم، فإن علينا أن نلتزم الحرص والصرامة تجاه من يبثون هذه الأفكار في عقول عبيدنا.**

والشيء الذي كان أكثر إزعاجا للنخبة الحاكمة هو تمرد البيض في ميريلاند ضد الأسر البارزة التي كانت تؤيد الثورة وتحتكر السلع. إن الحقد الطبقي لدى بعض هؤلاء البيض عبر عنه أحدهم قائلاً: "كان من الأفضل للناس أن يلقوا أسلحتهم ويدفعوا الرسوم والضرائب التي كان يفرضها الملك والبرلمان عن أن يتحولوا إلى عبيد

ليس أمامهم سوى تنفيذ الأوامر الصادرة إليهم." لقد سجّل أحد أثرياء ميريلاند، وهو تشارلس كارول، المزاج الفظ من حوله قائلاً: "ثمة حسد وضيع دنيء يسرى بين الناس لا يسمح بتميز إنسان ما فى الثروة أو المكانة أو العلم، ومثل هذا جدير بأن يجلب سوء النوايا والكراهية تجاه المتميزين."

وبالرغم من ذلك، فقد استطاعت سلطات ميريلاند أن تحافظ على النظام؛ إذ قدمت بعض التنازلات التى تمثلت فى فرض مزيد من الضرائب على الأراضى والعبيد وفى السماح للمدنيين بدفع ديونهم بالعملات الورقية. كان ذلك تضحية من الطبقة العليا من أجل الإبقاء على السلطة، وقد آتت هذه التضحية أكلها سريعاً.

فى الجنوب الأدنى خاصة فى كاولاينا الشمالية وكاولاينا الجنوبية وجورجيا، وحسب ما يقول هوفمان "تركت مناطق شاسعة دون أدنى تقسيم للسلطة" وكان المزاج العام هو عدم المشاركة فى حرب لا تعدهم بشىء. يقول هوفمان:

> **طلب من بيدهم السلطة فى الجانبين الأمريكى والبريطانى من العامة أن يقدموا ما لديهم من مؤن وأن يرشدوا استهلاكهم ويتركوا أسرهم بل ويخاطروا بحياتهم. وأمام مثل هذه اللحظات التى على المرء أن يتخذ فيها قرارات صعبة، تخبط كثيرون بسبب الإحباط ومنهم من كان يتهرب من اتخاذ قرار ومنهم من كان يأخذ قراراً بالانضمام إلى هذا الجانب ثم يغير رأيه بعد ذلك... .**

لقد تعامل ناثانيال جرين القائد العسكرى لجيش جورج واشنطن مع الخيانة والغدر بسياسة منح الامتيازات للبعض وبسياسة القسوة والوحشية مع آخرين؛ فى خطاب إلى توماس جيفرسن، وصف جرين غارة شنتها قواته على الموالين لبريطانيا قائلاً: "لقد جعلوا منهم مذبحة مخيفة حيث قتلوا ما يقرب من مائة ومزقوا معظم الباقين تمزيقاً، الأمر الذى ترك أثراً طيباً لدى غير الموالين لبريطانيا وهم كثيرون فى

هذا البلد." لقد أوصى جرين أحد جنرالاته بأن يزرع "الفزع والرعب فى قلوب أعدائنا" و"الأمل والطمأنينة فى قلوب أصدقائنا." ومن ناحية أخرى، فقد نصح جرين حاكم جورجيا "بفتح الباب على مصراعيه لغير الموالين لبريطانيا فى الولاية كى ينالوا كل ترحيب... ."

كانت الامتيازات، بصفة عامة وفى كل الولايات، مستمرة فى حدها الأدنى، ولم تختلف الدساتير الجديدة التى تبنتها كل الولايات كثيراً عن الدساتير القديمة، ورغم أن مؤهلات الملكية الخاصة للاشتراك فى التصويت وفى شغل المناصب الحكومية قد قلت فى بعض الحالات، فقد زادت هذه المؤهلات فى ولاية ماساتشوستس. كانت بنسلفانيا هى الولاية الوحيدة التى قامت بإلغاء هذه المؤهلات. أما القوانين الجديدة والخاصة بالحقوق فقد تضمنت بعض المواد المعدلة. فى كارولاينا الشمالية، أضيف إلى الدستور الذى ينص على الحرية الدينية، "إنه لن يسمح بتفسير ما ذكر بحيث يعفى الوعاظ من تهم الخيانة أو التحريض على الفتنة، أو يعفيهم من المثول أمام المحاكم وتعرضهم للعقاب." وقامت ميريلاند ونيويورك وجورجيا وماساتشوستس باتخاذ احتياطات مشابهة.

أحياناً ما يقال عن الثورة الأمريكية بأنها هى التى أتت بمسألة الفصل بين الدولة والكنيسة، ولقد صرحت الولايات الشمالية بمثل هذا الكلام، غير أنها بعد عام ١٧٧٦ تبنت قوانين ضريبية تجبر الناس على مؤازرة التعاليم المسيحية. وفى تعليقه على مقولة قاضى المحكمة الدستورية العليا ديفيد بروير فى عام ١٨٩٢ والتى قال فيها "هذه أمة مسيحية"، قال وليم ماكلولين **Mcloughlin** إن مسألة فصل الكنيسة عن الدولة "لم تعر بالاً ولم تنفّذ ... . لم يترك الدين لحاله، بل كان يتسرب إلى كل وجوه الحياة الأمريكية ومؤسساتها ."

إننا لو أردنا أن ندرس تأثير الثورة على العلاقات الطبقية، فبإمكاننا النظر إلى ما حدث للأراضى التى صودرت من أفراد جماعة المخلصين **Loyalists**، لقد وزعت هذه الأراضى بحيث أُعطى قادة الثورة فرصتين، الأولى أن يزدادوا هم وأصدقاؤهم

ثراءً والثانية أن يوزعوا بعض الأراضى على صغار الفلاحين وذلك طمعًا فى خلق قاعدة عريضة لتأييد الحكومة الجديدة. ولقد بات ذلك، فى حقيقة الأمر، صفة من صفات الأمة الوليدة؛ فقد خلقت هذه الأمة، إذ وجدت نفسها تمتلك ثروات طائلة، أغنى طبقة حاكمة فى التاريخ فضلاً عن أنه تبقى لديها ما تقدمه للطبقات المتوسطة كى تقوم بدور الحاجز والمصدّ بين الأثرياء والمعدمين.

كان ما يملكه الموالون لبريطانيا من أراض شاسعة أحد الدوافع الكبيرة للثورة؛ فقد كان اللورد فيرفاكس فى فرجينيا يمتلك أكثر من خمسة ملايين آكر تمر بواحد وعشرين مقاطعة، وكان دخل اللورد بالتيمور من أملاكه فى ميريلاند يتجاوز ثلاثين ألفًا من الجنيهات سنويًا. وبعد الثورة، تمت حماية اللورد فيرفاكس لصداقته بجورج واشنطن، أما باقى الموالين، خاصة الغائبين منهم، فقد تمت مصادرة أراضيهم. وفى نيويورك زادت أملاك صغار الفلاحين بعد الثورة وقلّت أعداد الفلاحين المستأجرين الذين كانوا مصدر اضطرابات كثيرة فى سنوات ما قبل الثورة.

ورغم أن عدد الفلاحين المستقلين قد ارتفع، فإن "البنية الطبقية لم تتغير بطريقة جذرية" – حسب ما يرى رولاند بيرثوف **Rowland Berthoff** وجون ميورين **Murrin**؛ إذ جرت تغييرات على المجموعة الحاكمة "نتيجة تدهور المكانة الاجتماعية بشكل واضح لعائلات التجار سواء فى بوسطن أو نيويورك أو فلادلفيا ... وأحيانًا ظهر هذا التدهور على نفس بيوت الذين فشلوا فى أعمالهم أو عانوا مصادرة الأملاك والنفى لولائهم للتاج البريطانى."

يلخص إدموند مورجان الطبيعة الطبقية للثورة بالطريقة التالية: "إن اشتراك الطبقات الدنيا فى الكفاح من أجل الاستقلال لا يجب أن يخفى أن هذا الكفاح كان من أجل السلطة وحيازة المناصب وكان يدور بين أفراد الطبقة العليا؛ أى بين الجدد وبين المخضرمين." وفى رؤيته للموقف عامة بعد الثورة، يعلق ريتشارد موريس قائلاً: "لا يرى المرء سوى الظلم والتفاوت أينما ولى وجهه."

إنه يرى أن كلمة "الشعب" فى عبارة "نحن شعب الولايات المتحدة" (وهى عبارة من ابتكار جوفيرنر موريس Gouverneur Morris الفاحش الثراء) لم تكن تعنى الهنود الحمر أو السود أو فقراء البيض أو النساء، كما أن عدد الخدم من ذوى العقود قد بلغ أعلى معدل له، والثورة "لم تفعل شيئًا يخفف من حدة الاستعباد الأبيض."

فى كتابه **الخروج من ماضينا** Out of Our Past يقول كارل ديجلر " لم تصل طبقة اجتماعية إلى السلطة عبر باب الثورة، إذ خرج مهندسو الثورة، فى الأساس، من الطبقة الاستعمارية الحاكمة." كان جورج واشنطن أغنى رجل فى أمريكا، وكان جون هانكوك من أثرى تجار بوسطن، وبالمثل كان بنيامين فرانكلين من أثرى أصحاب المطابع. من ناحية أخرى، أُدخل الحرفيون والعمال والبحارة وصغار الفلاحين ضمن كلمة "الشعب"، وذلك عن طريق بلاغة الثورة ورفقة الخدمة العسكرية وتوزيع بعض الأراضى. وهكذا تم تكوين كيان محسوس أو إجماع - شىء من الممكن أن يطلق عليه "أمريكا"، حتى مع استبعاد المقهورين والمهمشين المهملين.

إن دراسة ستوتون ليند Staughton Lynd الدقيقة عن المقاطعة الهولندية (Dutchess County) بنيويورك تؤكد ذلك وتعززه، فقد كانت هناك انتفاضات للمستأجرين إبان الثورة فى عام ١٧٦٦ ضد الضياع الإقطاعية الشاسعة فى نيويورك. فعلى سبيل المثال، كانت تبلغ ضيعة رينسيلرويك مليون آكر، فلما فشل المستأجرون فى الحصول على بعض هذه الأراضى وبعد أن فشلت مساعيهم فى المحاكم، تحولوا إلى ممارسة العنف، وكان ألف وسبعمائة من المستأجرين المسلحين فى ضيعة بوكيبسى قد قاموا بإغلاق المحاكم واقتحام السجون، غير أن هذه الانتفاضة تم سحقها.

كان ثمة نزاع فى المقاطعة الهولندية على كيفية تصريف الأراضى المصادرة من جماعة المخلصين، لكن هذا النزاع كان منحصراً بصفة رئيسية بين جماعات مختلفة من الصفوة، وكان المناهضون للفيدرالية (المعارضون للدستور) anti - Federalists بضيعة بوكيبسى، إحدى هذه الجماعات، وكانت تشتمل على رجال تواقين للصعود

الاجتماعي والمادى من أمثال الوافدين الجدد فى مجالى الأراضى والأعمال. وقد قدّم أفراد هذه الجماعة للمستأجرين وعوداً كثيرة طمعاً فى كسب دعمهم مستغلين آلامهم من أجل تحقيق طموحاتهم السياسية والحفاظ على ثرواتهم. ومن أجل حشد المزيد من الجنود وتبعيتهم أثناء الثورة، وعد المستأجرون بتملك ما يزرعونه من أرض؛ وقد قال أحد ملاك المقاطعة الهولندية فى عام ١٧٧٧ إن إعطاء المستأجرين وعداً بتملك الأرض "يجلب لك على الأقل ستة آلاف من الفلاحين الأشداء إلى أرض المعركة على الفور."

لكن الفلاحين الذين تقدموا للخدمة وتوقعوا أن يحصلوا على شئ ما من وراء ذلك، وجدوا أنهم، بوصفهم جنوداً ، يحصلون على ٦,٦٦ دولاراً شهرياً بينما يتقاضى الضابط خمسة وسبعين دولارا. لقد رأوا المقاولين الحكوميين من أمثال ميلانكتون سميث **Melancton Smith** وماثيو باترسن **Paterson** يصبحون أثرياء، فى الوقت الذى كانت مرتباتهم بالعملة الجديدة الموحدة فى المستعمرات قد أصبحت غير ذات قيمة نتيجة التضخم الاقتصادى. أدى كل ذلك إلى تحول المستأجرين إلى قوة تهديد وخطر فى وقت كانت فيه الحرب على أشدها؛ فقد توقفوا عن دفع الإيجار، ودفع القلق المجلس التشريعى إلى إصدار قانون بمصادرة أراضى جماعة المخلصين وإضافة أربعمائة متملك جدد إلى الألف وثمانمائة الموجودين بالمقاطعة، وكان هذا يعنى وجود قاعدة انتخابية قوية وجديدة تنضم إلى شريحة الأغنياء الذين سيصبحون مناهضين للفيدرالية فى عام ١٧٨٨ .

وبمجرد أن دخل الملاك الجدد دائرة الامتيازات الخاصة بالثورة وبدا أنهم تحت السيطرة، غير قادتهم (مثل ميلانكتون سميث وغيره) رأيهم؛ إذ كانوا يعارضون الدستور فى البداية، لكنهم بدأوا فى تأييد الدستور خاصة بعد التصديق عليه فى نيويورك. واكتشف المتملكون أنهم لم يعودوا مستأجرين، لكنهم أصبحوا مرتهنين عليهم أن يسددوا قروضًا للبنك بدلاً من أن يسددوا الإيجار للمالكين.

يبدو أن الثورة على الحكم البريطانى قد أوجدت جماعة من الصفوة الكولونيالية تحل محل أصحاب الولاء لإنجلترا بحيث تقدم بعض المزايا لصغار ملاك الأرض وتترك العاملين من البيض الفقراء والفلاحين المستأجرين فى وضع لا يختلف عن وضعهم القديم.

ترى ماذا كانت تعنى الثورة لأهل البلاد (الهنود الحمر) أو من يطلق عليهم الآن "أهل البلاد أو الأمريكيون الأصليون " Native Americans لقد تجاهلتهم كلمات إعلان الاستقلال الرائعة، التى لم تعتبرهم متساوين فى الحقوق مع البيض؛ فمن المؤكد أنهم لم يكونوا متساوين فى اختيار من يحكم الأراضى الأمريكية التى يعيشون فيها، كما لم يكونوا كذلك فى حق نشدان السعادة التى بحثوا عنها قروناً طويلة قبل وصول الأوروبيين البيض. والآن، وبعد أن خرج البريطانيون، بات بإمكان الأمريكيين أن يبدأوا ممارسة لا تعرف الرحمة من إزاحة الهنود خارج أرضهم بل وقتلهم متى قاوموا ذلك. خلاصة القول، كما يراها فرانسيس جيننجس Francis Jennings، أن الأمريكيين البيض كانوا يقاتلون الهيمنة الإمبريالية البريطانية فى شرق البلاد تمهيداً لممارسة إمبرياليتهم الخاصة فى غربها.

قبل الثورة، كان يتم قهر الهنود بالقوة فى فرجينيا ونيوانجلاند، وكانوا ينتهجون صيغًا مختلفة فى كل مكان من أجل التعايش مع المستعمرات، غير أنه فى عام ١٧٥٠ ومع تزايد سكان المستعمرات، هيأ الضغط على الهنود للتحرك ناحية غرب البلاد المسرح للصراع والنزاع معهم؛ حيث بدأ وكلاء الأراضى القادمون من الشرق فى الظهور بوادى نهر أوهايو حيث كان يقوم اتحاد كونفدرالى من عدة قبائل ويحمل اسم Covenant Chain (سلسلة العهد) وكان أفراد قبيلة إروكوى Iroquoi المتحدثين باسم الاتحاد. فى نيويورك، وعبر الخداع والاحتيال، أخذت مساحة تبلغ ثمانمائة ألف آكر من أراضى موهوك Mohawk، وبذلك انتهت فترة الصداقة بين هنود موهوك ونيويورك، وتعكس إحدى الوثائق مدى المرارة التى تغلف كلام هندريك، أحد زعماء هنود الموهوك، إلى الحاكم جورج كلينتون والمجلس المحلى لنيويورك فى عام ١٧٥٣:

أخى: عندما جئنا إليك نشكو ما نشعر به من ظلم لمصادرة أراضينا، توقعنا أن يفعل أحد شيئًا ما من أجلنا، وقلنا لكم إن ما حدث فيه نقض لعهود آبائنا، غير أنكم تقولون إنه سيتم تعويضنا فى ألبانى، لكننا نعرف تجار ألبانى تمام المعرفة ولا نثق بهم لأنهم ليسوا بشرًا بل شياطين ... ولتعلموا أننا بمجرد عودتنا إلى ديارنا، سوف نرسل إلى إخوتنا فى كافة أرجاء البلاد ما يفيد أنكم قد نقضتم سلسلة عهدكم معنا. ومن ثم، فليكن ذلك، يا أخى، فراقًا بيننا وبينكم.

لما قامت حرب السنوات السبع بين الإنجليز والفرنسيين، حارب الهنود إلى جوار الفرنسيين؛ فقد كان الفرنسيون تجارًا لا غزاة أو محتلين لأراضى الهنود. أما الإنجليز، فقد كانت عيونهم دائمًا تتطلع إلى ما فى أيدى الهنود من الأراضى وأماكن الصيد. وفى إحدى الوثائق المهمة، سجل أحد الأشخاص ما دار من كلام بين شينجاز **Shingas** زعيم هنود ديلاوير **Delaware** والجنرال الإنجليزى برادوك **Brad-dock** الذى كان يطلب النجدة من الهنود للمساعدة فى الحرب الدائرة:

سأل شينجاز الجنرال الإنجليزى عما إذا كان سيسمح للهنود، إذا صادقوا الإنجليز، أن يعيشوا ويتاجروا وتكون لهم مناطق للصيد تكفيهم ومن يعولون ... فرد الجنرال الإنجليزى بأن الأرض لا يرثها البدائيون والهمج ... فرد عليه شينجاز وزعماء آخرون بأنهم لن يحاربوا من أجل أرض لن يتمتعوا بحرية العيش فيها...

بانتهاء الحرب فى عام ١٧٦٣ ، تخلى الفرنسيون للإنجليز عن الأراضى الواقعة غرب سلسلة جبال أبلانشيان، متجاهلين حقوق حلفائهم القدامى من الهنود، فما كان من هؤلاء إلا أن اتحدوا لشن حرب على الحصون الغربية للإنجليز، وهى الحرب التى سماها الإنجليز "مؤامرة بونتياك"، بينما أطلق عليها فرانسيس جيننجس **Jennings**

"حرب تحرير من أجل الاستقلال"، وبتوجيهات صادرة من الجنرال البريطانى جيفرى أمهرست، منح قائد حصن بيتس Fort Pitts زعماء الهنود، الذين كان يجرى مفاوضات معهم، أغطية جئ بها من مستشفى الجدرى، ويعد هذا جهداً رائداً فيما يسمى الآن بالحرب البيولوجية! فقد انتشر الوباء سريعاً بين الهنود.

وبالرغم من كل ذلك وبالرغم من حرق قراهم، لم يستطع الإنجليز تحطيم إرادة الهنود، الذين استمروا فى شن حرب العصابات، حتى تم توقيع اتفاقية سلام بين الطرفين، تعهد فيها الإنجليز بعدم إقامة أية مستوطنات على الأراضى الهندية الواقعة بعد سلسلة جبال أبالانشيان، وكان ذلك هو "الإعلان الملكى" لعام ١٧٦٣ الذى أوغر صدور الأمريكيين؛ إذ كان الميثاق الأصلى لفرجينيا يقول بأن أراضيها تمتد غرباً حتى المحيط الهادى. ولعل ما حدث يشرح لنا سبب انضمام معظم الهنود إلى القوات البريطانية أثناء حرب الثورة الأمريكية. أما بعد الثورة وبعد رحيل حلفائهم الفرنسيين ثم الإنجليز، كان على الهنود وحدهم أن يواجهوا أمة تشتهى مصادرة أرضهم.

بدأ الأمريكيون فى التصرف عن اقتناع بأن أراضى الهنود هى أرضهم هم، وبدأوا فى إرسال حملات باتجاه الغرب لتأكيد ذلك الزعم، لكن هذه الحملات باءت بالفشل ومن الغريب أن الأمريكيين أطلقوا على هذه الحملات أسماء المعارك التى هزموا فيها؛ فهناك مثلاً حملة إذلال هارمر Harmar's Humiliation وحملة عار سانت كلير St. Clair's Shame وحتى عندما هزم أنتونى وين Anthony Wayne كونفدرالية الهنود الغربية فى عام ١٧٩٨ فى معركة (Fallen Timbers الأشجار المحطمة)، اعترف وأقر بشجاعة الهنود وصلابتهم. وفى "معاهدة جرينفل" Treaty of Grenville، تعهدت الولايات المتحدة، فى مقابل ضمها لبعض الأراضى، بإسقاط مزاعمها بضم أية أراض هندية شمال أوهايو وشرق الميسيسيبى وجنوب البحيرات العظمى، وتعهد الهنود بأن يعرضوا هذه الأراضى على حكومة الولايات المتحدة أولاً إذا ما قرروا بيعها يوماً ما.

يضع فرانسيس جيننجس الشأن الهندى فى قلب الثورة الأمريكية، فالأراضى التى كان يتحارب عليها الجميع أراض هندية فى البدء والمنتهى، وينظر إلى الثورة على أنها عبارة عن "عدد كبير من المقهورين والمستغلين الذين كان يصارع بعضهم بعضًا." فلما كتبت للنخبة الشرقية السيطرة على الأراضى المطلة على البحار، لم يكن أمام الفقراء، الذين كانوا ينشدون الأرض، سوى التوجه ناحية الغرب، حيث سيقومون هناك بدور الحصن أو المتراس الذى يحمى أغنياء الجهة الشرقية من الولايات المتحدة، وذلك لأن "الهدف الأساسى لفأس الهندى كان يتمثل فى رأس المستكشف"، على حد قول جيننجس.

كان موقف العبيد السود، كنتيجة للثورة الأمريكية، أكثر تعقيداً، فقد حارب آلاف منهم إلى جوار البريطانيين، وكان من بينهم خمسة آلاف مع الثوار جاء معظمهم من الشمال، وكان ثمة بعض السود الأحرار من فرجينيا وميريلاند. أما الجنوب السفلى، فلم يكن متحمسًا لتسليح السود. واستغل آلاف من العبيد السود ظروف الحرب ونالوا حريتهم بأن غادروا البلاد على متن السفن البريطانية، بنهاية الحرب، إما للاستقرار فى إنجلترا أو الهند الغربية أو إفريقيا، وآثر آخرون البقاء فى أمريكا كأحرار وذلك عن طريق تفادى اللقاء بسادتهم. وفى الولايات الشمالية، أدى انضمام السود إلى قوات الجيش وقلة الدوافع الاقتصادية لامتلاك العبيد، فضلاً عن النمط البلاغى الذى انتهجته الثورة، إلى نهاية العبودية، وإن كان إيقاع هذه النهاية بطيئًا. ففى عام ١٨١٠ كان لم يزل ثلاثون ألفًا من السود عبيداً، رغم أن هذا العدد يساوى ربع عدد السكان السود فى الشمال، حتى بحلول عام ١٨٤٠ ، كان بالشمال وحده ألف من العبيد. وفى الجنوب الأعلى، تزايد عدد الزنوج الأحرار عن ذى قبل، أما الجنوب السفلى فقد شهد توسعًا فى تجارة الرقيق نتيجة لزيادة مزارع القطن والأرز.

كان من بين ما نتجت عنه الثورة خلق فرص ومجالات أوسع للسود بحيث بدأت مطالبهم من المجتمع الأبيض فى الظهور، وجاءت هذه المطالب، فى بعض الأحيان، من

بين أفراد النخبة الجديدة للسود فى بالتيمور وفلادلفيا وريشموند وسافانا، وخرج بها، فى أحيان أخرى، بعض الشجعان من العبيد.

وتقدم السود إلى الكونجرس والمجالس التشريعية للولايات بالتماس يستشهد بوثيقة إعلان الاستقلال، ويطالب بإلغاء العبودية ومنح السود حقوقًا متساوية مع حقوق البيض. وفى بوسطن، طالب السود بحقهم فى أموال المدينة من أجل تعليم أطفالهم، وهى الأموال التى كان يحصل عليها البيض، وفى نورفوك Norfolk طالبوا بحقهم فى الشهادة أمام المحاكم، وأكد السود فى ناشفيل Nashville على أنه من حق الأحرار السود "الحصول على نفس الفرص فى العيش الكريم ... شأنهم شأن أى شخص آخر."

انضم بيتر ماثيوز، وهو أحد الزنوج الأحرار ويعمل بالجزارة فى شارلز تاون، إلى بعض الأحرار السود الآخرين من الحرفيين والتجار فى كتابة التماس إلى المجلس التشريعى يطالب بإلغاء كافة القوانين التمييزية ضد السود. وفى عام ١٧٨٠ كتب سبعة من السود فى دارتماوث – ماساتشوستس، التماسًا إلى الجهة التشريعية يطالبون فيه بالحق فى التصويت، رابطين بين دفع الضرائب ومسألة التمثيل النيابى:

> **... إننا نرى أننا واقعون تحت ظلم كبير؛ إذ نحرم مما يتمتع به الأحرار، ونمنع من ممارسة الحق فى انتخاب من يفرضون علينا الضرائب، وقد دخل كثيرون من بنى عرقنا أرض المعركة طواعيةً من أجل الدفاع عن حق البلاد فى الاستقلال، مما كلفهم جهودًا أصبح من نافلة القول التذكير بها الآن...**

وكتب بنيامين بانيكر Banneker، وهو رجل أسود تعلّم الرياضيات والفلك وتنبأ فى دقة شديدة بكسوف شمسى حتى أنه عين مخططًا للمدينة الجديدة واشنطن، إلى توماس جيفرسن قائلاً:

أعتقد أن من الحقائق التى تعلمها تمام العلم والتى لا يعوزها برهان جديد أننا جنس من البشر طالما لقى من العالم كل ظلم وعنت وطالما نظر إليه العالم بعين التعالى والاحتقار. وكثيراً ما نظر العالم إلينا على أننا أقرب إلى جنس الحيوان منا إلى جنس البشر وعلى أننا لا نتمتع بأية مواهب عقلية ... وإنى لعلى يقين من أنك سوف تغتنم كل فرصة لاستئصال هذه الأفكار والآراء التى تفتقر إلى الصدق والعقل، كما أننى واثق من أنك ترى ما أراه فى أن إله الكون قد منحنا جميعًا الوجود وفى أنه لم يخلقنا من طينة واحدة فحسب، بل منحنا جميعًا، دون تفرقة، نفس المشاعر والحواس وأسبغ علينا جميعًا نفس النعم... .

كما قال بانيكر لجيفرسن: "عليكم أن تفطموا أنفسكم عن هذه الأهواء الضيقة التى أُرضعتموها." ولقد حاول جيفرسن أن يفعل ذلك بوصفه إنسانًا مستنيراً مثقفاً، غير أن بنية المجتمع الأمريكى وقوة مزارع القطن وتجارة الرقيق والعلاقة بين النخب الشمالية والجنوبية والتاريخ الطويل للتمييز العرقى فى المستعمرات حالت دون تحقيق أحلام السود فى ذلك الوقت، ففى ظل هذا الترابط بين الاحتياج العملى والثبات الأيديولوجى، ظل جيفرسن مالكًا للعبيد طيلة حياته.

كان الوضع المتدنى للسود واستبعاد الهنود من المجتمع الجديد وإرساء مبدأ السيادة للأغنياء والأقوياء فى الأمة الجديدة موجوداً ومستقراً بالفعل فى المستعمرات قبل قيام الثورة، وأمكن الآن، بعد خروج الإنجليز، تثبيت ذلك الوضع على الورق. وجاء دستور الولايات المتحدة، الذى كتبت مسودته فى إحدى جلسات قادة الثورة فى فلادلفيا، لكى يدعم قوة ذلك الوضع ويضع قواعد ثابتة له ويضفى عليه صفة الشرعية.

بدا الدستور، الذى تمَ وضعه فى عام ١٧٨٧، لكثير من الأمريكيين عبر السنين عملاً عبقرياً وضعه عدد من ذوى الحكمة والنزعة الإنسانية وخلقوا به إطاراً شرعيًا

للديمقراطية والمساواة. يعبّر عن هذه الرؤية ما كتبه المؤرخ جورج بانكروفت **Bancroft** فى بداية القرن التاسع عشر فى لغة لا تخلو من المبالغة:

> **لا يرسى الدستور أى مبدأ يبيح التدخل فى مسألة المساواة والفردية؛ إنه لا يعرف التفرقة بين الناس لنسب أو لرأى، ويسوى بين الطبقات والأديان ولا يمنح أصحاب الثروات نفوذًا سياسيًا خاصًا ... وكما يتألف البحر من قطرات الماء، يتكون المجتمع الأمريكى من ذرات حرة منفصلة دائمة الحركة وفى علاقة تبادلية أبدًا ... وبهذا تخرج مؤسسات وقوانين البلاد من بين أفكار الأفراد والجموع، تلك الأفكار التى تتدفق دائمًا كتدفق مياه المحيط.**

وفى بداية القرن العشرين، خرج المؤرخ تشارلس بيرد **Charles Beard** برأى آخر فى الدستور الأمريكى أثار عليه غضبًا وسخطًا شديدين بلغا حد أن خرجت جريدة "نيويورك تايمز" بافتتاحية غاضبة تشجب رأى بيرد. كتب بيرد فى كتابه **تفسير اقتصادى للدستور An Economic Interpretation of the Constitution** :

> **نظرًا لأن الدور الأساسى لأية حكومة من الحكومات، فضلاً عن مجرد كبح العنف البدنى، هو وضع القواعد والقوانين التى تحدد علاقات الملكية بين أفراد المجتمع، فإن الطبقات المهيمنة (التى تحدد هذه القواعد والقوانين حقوقها) لابد أن تحصل من الحكومة بحسب الظروف، على قواعد تتوافق مع ثبات المصالح الأكبر والضرورية لدوام العمليات الاقتصادية، أو لابد أن تهيمن هذه الطبقات على مناصب الحكومة بنفسها.**

قال بيرد، باختصار شديد، إن الأغنياء، انطلاقًا من الحفاظ على مصالحهم، لابد أن يسيطروا على الحكومة إما بشكل مباشر أو يسيطروا على القوانين التى تؤدى بها

الحكومة عملها. ولقد طبق بيرد هذه الفكرة العامة على الدستور عن طريق دراسة الخلفيات الاقتصادية والأفكار السياسية للرجال الخمسة والخمسين الذين تجمعوا فى فلادلفيا فى عام ١٧٨٧ لوضع الدستور، وقد وجد بيرد أن غالبية هؤلاء القادة كانوا يعملون بالمحاماة وأن معظمهم كانوا من الأثرياء الذين يملكون الأرض والعبيد والمصانع والسفن وأن نصفهم تقريبًا من المرابين وأن أربعين منهم كانوا يتقاضون مرتبات من الحكومة، وهذا وفق ما هو مسجل لدى وزارة المالية. ومن ثم، فقد وجد بيرد أن معظم واضعى الدستور كانت لهم مصالح اقتصادية مباشرة فى تأسيس حكومة فيدرالية قوية؛ فأصحاب المصانع فى حاجة إلى تعريفة تحمى مصالحهم، والمرابون كانوا فى حاجة لوقف استعمال النقود الورقية فى سداد الديون، والباحثون عن الأرض كانوا فى حاجة إلى حماية أثناء غزوهم الأراضى الهندية، ومالكو العبيد فى حاجة إلى أمن فيدرالى لكبح ثورات العبيد والفارين منهم، والذين يحصلون على رواتب منتظمة من الحكومة كانوا فى حاجة إلى حكومة قادرة على جمع الأموال عن طريق فرض نظام ضريبى فعال فى كل الولايات.

كان ثمة أربع جماعات، كما يلاحظ بيرد، لم يمثلهم أحد فى الاجتماع الخاص بوضع دستور: العبيد والخدم ذوو العقود والنساء والمعدمون من الرجال، وبذلك فلم يعكس الدستور مصالح هذه الجماعات.

يوضح بيرد أن كلامه لا يعنى اعتقاده بأن الدستور وضع من أجل منفعة الآباء المؤسسين Founding Fathers بصفة شخصية، وإن كان من الصعب علينا أن نتجاهل أو نغض الطرف عن ثروة بنيامين فرانكلين التى كانت تبلغ مائة وخمسين ألف دولارًا أو علاقات ألكسندر هاميلتون بدوائر أصحاب الثروات أو المزارع الكبرى التى كان يملكها جيمس ماديسون أو الأراضى الشاسعة التى كان يملكها جورج واشنطن. لقد وضع الدستور من أجل مصالح ومنفعة الجماعات التى كان يمثلها الآباء المؤسسون؛ أى "المصالح الاقتصادية التى وعوها وأحسوها بشكل محدد وملموس من خلال تجربتهم الشخصية."

بالطبع لم تنطبق رؤية بيرد على كل من حضر اجتماع وضع الدستور فى فيلادلفيا؛ فقد كان ألبريدج جيرى، من ماساتشوستس، من أصحاب الأراضى الأثرياء، إلا أنه عارض التصديق على الدستور. كذلك كان لوثر مارتن، الذى كان أجداده يملكون مساحات شاسعة من الأراضى فى نيو جيرسى. لكن هذا لا يمنع صدق رؤية بيرد الذى وجد علاقة قوية، مع قليل من الاستثناءات، بين الثروة من ناحية وتأييد الدستور من ناحية أخرى.

وبحلول عام ١٧٨٧ لم يكن هناك حاجة ماسة لحكومة مركزية قوية تحمى المصالح الاقتصادية الكبرى فحسب، بل كان هناك خوف مباشر من تمرد الفلاحين الساخطين، وكان السبب الرئيسى لهذا الخوف هو انتفاضة قامت فى صيف ١٧٨٦ فى غرب ماساتشوستس عرفت باسم "تمرد شايز" **Shays' Rebellion**؛ ففى المدن الغربية بماساتشوستس، كان هناك سخط ضد الهيئة التشريعية لمدينة بوسطن؛ فقد رفع الدستور الجديد مؤهلات الملكية من أجل الحصول على الحق فى التصويت، ولم يكن يستطيع أحد أن يشغل منصبًا فى الولاية إلا إذا كان شديد الثراء، فضلاً عن أن الهيئة التشريعية كانت ترفض إصدار الأوراق المالية، أسوة بما تم فى ولايات أخرى مثل رود آيلاند، كى تسهّل على الفلاحين الرازحين تحت وطأة الديون سداد ديونهم. وبدأت تتشكل اجتماعات غير قانونية فى بعض المقاطعات الغربية كى تنظم معارضتها للهيئة التشريعية وفى إحدى هذه الاجتماعات، وقف رجل يدعى بلاو جوجر **Plough Jogger** يعبر عن رأيه فى وضوح وحدة:

> **لقد سُلبت حقوقى، حيث أُجبرت على أن أفعل أكثر مما يتطلبه دورى فى الحرب، وحملت فوق ما أطيق بضرائب المدينة والمقاطعة ومجلس الثورة وغيرها ... تعرضت للمهانة من قبل العمد ورجال الشرطة وجامعى الضرائب وأُجبرت على بيع ماشيتى بثمن بخس... إن الكبار فى طريقهم إلى أخذ كل ما نملك وأنا أرى أنه قد آن الأوان لكى نهب ونضع حدًا لذلك**

بحيث لا يكون لدينا محاكم ولا عمد ولا جامعو ضرائب ولا محامون ...

استخدم رئيس ذلك الاجتماع مطرقته كى يوقف التصفيق، فقد رأى هو وآخرون أن هدفهم هو رفع المظالم عنهم ولكن بطريقة سلمية؛ عن طريق كتابة التماسات إلى المحكمة العامة (الهيئة التشريعية) فى بوسطن. وبالرغم من ذلك، فقبل الموعد المحدد لجلسة المحكمة العامة، كانت هناك إجراءات قررتها المحكمة فى مقاطعة هامبشاير وبالتحديد فى مدينتى نورثهامبتون وسبرنج فيلد، وكانت هذه الإجراءات تقضى بالحجز على ماشية الفلاحين الذين لم يدفعوا ديونهم وبمصادرة أراضيهم فى ذلك الوقت الذى حل فيه موسم الحصاد. وخرج المحاربون القدماء، الذين خدموا فى جيش الثورة وتعرضوا لظلم فى سوء المعاملة بعد تسريحهم وإعطائهم شهادات تفيد بتعويضهم فى المستقبل بدلاً من الحصول على بعض المال مباشرة، خرج هؤلاء لكى ينظموا الفلاحين الساخطين على شكل فرق وكتائب، وكان لوك داى Luke Day أحد هؤلاء المحاربين. وفى صباح اليوم المحدد لجلسة المحكمة العامة، وصل داى إلى المحكمة ومعه فرقة موسيقى عسكرية؛ فلم يكن قد نسى بعد مرارة حبسه فى سجن المدنيين فى حرارة صيف العام السابق.

لجأ العمدة إلى قوات الميليشيا المحلية للدفاع عن المحكمة فى مواجهة الفلاحين المسلحين، غير أن معظم أفراد الميليشيا كانت تناصر لوك داى. لكن العمدة استطاع أن يجمع خمسمائة رجل تحت إمرته، وارتدى القضاة أروابهم الحريرية السوداء فى انتظار العمدة كى يتولى تأمين دخولهم إلى المحكمة. وعلى عتبات المحكمة، كان لوك داى يقف ممسكًا بالتماس مؤكدًا حق الناس الدستورى فى الاحتجاج على الأفعال غير الدستورية للمحكمة العامة وطالبًا من القضاة أن ينفضوا حتى تستطيع المحكمة العامة أن تتصرف بناء على ما فيه مصلحة الفلاحين، ولما كان ثمة ألف وخمسمائة من الفلاحين المسلحين يساندون لوك داى، لم يملك القضاة سوى أن ينفضوا.

بـعد ذلك بوقت قـصير، منع الفلاحون المسلحون فى ورسيستر وأثول القضاة من دخـول المحـاكم والاجـتمـاع من أجل مـصـادرة أمـلاكـهم، ولم يسـتطع أفـراد الميلـيشـيا فعل شـئ إمـا لأنهم كانوا متـعـاطفـين مع الفلاحين أو لأن الفـلاحـين المسلحـين كـانوا يفـوقـونـهم عدداً. وفـى كونكـورد، قـام جوب شـاتوك، البـالغ من العمر واحداً وخمسين عاماً والمحارب القديم الذى اشـترك فى حربين، بقيادة قافلة من العـربات والخيـول والثيـران إلى مـروج المدينة بينمـا كانت رسـالة قـد أرسلت إلى القضاة تقول:

> **اجتمع شعب هذه المقاطعة على صوت رجل واحد وهو أن القضـاة لن يدخلوا المحكمـة حتى ترفع عن الناس المظالم التى تثقل كواهلهم فى الوقت الراهن.**

واقترح اجتماع للمقاطعة أن ينفض القضاة، وهو ما حدث بالفعل.

وفى جريت بارينجتون واجهت ميليشيا تتكون من ألفى رجل أحد الميادين الممتلئة بالرجال والفتيان المسلحين، لكنها انقسمت فى الرأى وعندما اقترح كبير القضاة على الميليشيا أن تنقسم بحيث يتجه من يوافق من أفرادها على انعقاد جلسة المحكمة ناحية اليمين ويتجه ناحية اليسار من يعارض ذلك، اتجه مائتان إلى اليمين وثمانمائة إلى اليسار، وانفض القضاة. بعد ذلك توجه الجمع إلى بيت كبير القضاة الذى وافق على أن يوقع على وثيقة تشهد بأن المحكمة لن تعقد جلساتها قبل أن تجتمع المحكمة العامة لماساتشوستس. فلما تم ذلك، عاد الجمع إلى الميدان حيث قام أفراده باقتحام سجن المقاطعة وأطلقوا سراح المدنيين المسجونين.

وعلق رئيس المحكمة، وهو طبيب ريفى، على ذلك الموقف قائلاً: "لم أسمع قط عن طريقة لرفع الظلم أفضل من الطريقة التى اتخذها هؤلاء الناس."

سبب ذلك الحادث انزعاجاً شديداً لحاكم ماساتشوستس وقادتها السياسيين، حتى أن صامويل آدمز، الذى كان يوصف يومًا ما فى بوسطن بأنه قائد راديكالى،

أصر الآن على أهمية التزام الناس بالقانون وقال إن "الجواسيس البريطانيين" هم المحرضون على تمرد الفلاحين، لكن الناس فى جرينتش ردوا قائلين: "أنتم تكنزون الأموال فى بوسطن ونحن لا نملك شيئًا. ألم تتصرفوا أنتم بطريقة غير قانونية وأنتم تقومون بالثورة؟" وأصبح لفظ "المنظمون" يطلق على المتظاهرين الذين اتخذوا من غصن شجر القونيون السام شعاراً لهم. وتجاوزت المشكلة حدود ماساتشوستس؛ ففى رود آيلاند احتل المدنيون مبنى الهيئة التشريعية وبدأوا فى إصدار الأوراق المالية، وفى نيو هامشير، أحاط عدة مئات من الرجال، فى سبتمبر ١٧٨٦ ، مبنى الهيئة التشريعية فى اكسيتر مطالبين بأن يعود إليهم ما دفعوه من ضرائب وبإصدار أوراق مالية، ولم ينصرف جمعهم إلا بعد أن تم التلويح باتخاذ إجراء عسكرى.

دخل دانيل شايز مشهد الأحداث فى غرب ماساتشوستس. كان عاملاً فقيراً بإحدى المزارع عندما قامت الثورة، والتحق بجيش مجلس الثورة وحارب فى ليكسنجتون وبانكرهيل وساراتوجا، وجرح فى إحدى المعارك. استقال من الجيش فى عام ١٧٨٠ عندما توقفت الرواتب وعاد إلى بلدته، وبعد قليل وجد نفسه ماثلاً أمام المحكمة لتقاعسه عن سداد ديونه، ورأى أيضًا ما كان يحدث للناس من حوله؛ فها هى امرأة مريضة لم تستطع سداد ديونها فصودر سريرها الذى كانت ترقد عليه.

لكن الذى دفع شايز دفعًا إلى قلب الأحداث هو أن المحكمة العليا لماساتشوستس اجتمعت فى ووستر فى ١٩ سبتمبر وأدانت أحد عشر من قادة التمرد بينهم ثلاثة من أصدقائه واتهمتهم بأنهم "أشخاص مخلون بالنظام ومثيرون للشغب" وبأنهم منعوا "تنفيذ قوانين الكومنولث ومنعوا العدالة من أن تأخذ مجراها بطريقة غير قانونية وعن طريق استخدام السلاح." وقررت المحكمة القضائية العليا الاجتماع ثانية بعد أسبوع فى سبرنج فيلد وانتشر بين الناس كلام عن إدانة لوك داى.

وبدأ شايز فى التحرك، فقام بجمع سبعمائة من الفلاحين المسلحين، معظمهم من المحاربين القدماء، وقاد الجمع فى اتجاه سبرنج فيلد، وعندما وصلوا إلى المدينة، وجدوا جنرالاً وتسعمائة جندى ومدفعًا، فطلب شايز من الجنرال السماح للجمع بمسيرة سلمية فوافق الجنرال، وبدأت المسيرة. وكلما سارت تصحبها دقات الطبول وأنغام المزامير، يزداد عددها حتى أن بعض أفراد الميليشيا انضموا إليها وبدأت تصلها تعزيزات من الريف، فلم يجد القضاة بدًا من تأجيل الجلسات ليوم واحد ثم قرروا فض المحكمة.

انزعج حاكم ماساتشوستس جيمس باودوين Bowdoin وطلب من المحكمة العامة التي اجتمعت فى بوسطن أن "تصون كرامة الحكومة التى أهينت"، وهاهم ثوار الأمس ضد بريطانيا يطالبون الآن، وهم آمنون فى وظائفهم، بفرض القانون والتزام النظام؛ فقد سعى صامويل آدمز لإصدار "قانون التظاهر" Riot Act وقرار بتعليق استخدام الأمر القضائى لمثول أفراد الشعب أمام المحكمة وذلك كى تتمكن السلطات من حجز الناس فى السجون دون محاكمة. فى الوقت نفسه، تحركت الهيئة التشريعية لتقديم بعض الامتيازات للفلاحين الغاضبين تمثلت فى السماح بتسديد بعض الضرائب القديمة على شكل بضائع بدلاً من النقود.

لكن ذلك لم يُنه المشكلة؛ ففى ووستر وقف ١٦٠ متظاهرًا أمام المحكمة، فجاء عمدة المدينة وتلى عليهم نص قانون التظاهر غير أن المتظاهرين أعلنوا أنهم لن ينفضوا إلا إذا انفض القضاة، فصاح فيهم العمدة وذكر شيئًا عن الشنق، فما كان من أحد المتظاهرين إلا أن وقف وراءه ووضع غصنًا من شجر القونيون السام فى قبعته، فانصرف القضاة.

وازدادت المواجهات بين الفلاحين وأفراد الميليشيا، لكن عواصف الشتاء الثلجية بدأت تتدخل فى رحلات الفلاحين إلى المحاكم، إذ قاد شايز إحدى المسيرات فى بوسطن، وكانت تتألف من ألف رجل، فأجبرت عاصفة ثلجية شديدة الجمع الحاشد على الرجوع ومات أحد الرجال متجمدًا.

ودعم تجار بوسطن جيشًا لمواجهة المتمردين كان يقوده الجنرال بنيامين لينكولن، وفى إحدى هجمات المدفعية، قتل ثلاثة متمردين، وازداد الشتاء قسوة وسوءًا، وقل عدد المتمردين بعد هروب كثيرين منهم، واتخذ شايز من ولاية فيرمونت ملجأً له وبدأ أتباعه فى الاستسلام. حدثت عدة وفيات فى معركة بين الجيش والمتمردين وبعدها انتشرت أعمال العنف المتفرقة والعشوائية ضد السلطات من قبيل حرق المخازن وذبح خيول أحد الجنرالات. وقتل أحد جنود الحكومة إثر اصطدام مركبتى جليد فى إحدى الليالى.

تمت محاكمة من وقعوا فى الأسر من المتمردين فى مدينة نورث هامبتون وصدر حكم بالإعدام على ستة منهم، وتُركت لدى باب عمدة بيتسفيلد ورقة كتب فيها:

> **بلغنى أن عددًا من أبناء بلدتى قد صدر ضدهم حكم بالإعدام لأنهم قاتلوا فى سبيل العدل. أرجو ألا تساعد فى تنفيذ هذه الجريمة البشعة، لأن من أدان بالموت كمن نفّذ حكم الإعدام سواءً بسواء... عجّل بالاستعداد للموت لأن حياة أحدنا قصيرة. فإذا غطت أوراق الخريف أرض الغابات، سأعود لزيارتك زيارةً قصيرة.**

وحوكم ثلاثة وثلاثون آخرون من المتمردين وصدر حكم بالإعدام على ستة منهم، وبدأ جدال حول ما إذا كان يجب الاستمرار فى تنفيذ أحكام الإعدام شنقًا؛ بينما طالب الجنرال لينكولن بممارسة الرحمة وحث على تشكيل "لجنة للرأفة". قال صامويل آدمز: "فى النظام الملكى، من الوارد أن يتم العفو عن مرتكب جريمة الخيانة أو عقابه عقابًا مخففًا، أما من يتجرأ على التمرد ضد القوانين فلابد من إعدامه فى النظام الجمهورى." واستمرت سلسلة إعدام لبعض المتمردين شنقًا بينما تم العفو عن آخرين. أما شايز فقد تم العفو عنه فى فيرمونت فى عام ١٧٨٨ ، لكنه عاد إلى ماساتشوستس حيث مات فقيرًا منسيًا فى عام ١٨٢٥ .

كان الوحيد الذى تحدث عن هذه التمردات كشىء صحى للمجتمع هو توماس جيفرسن والذى كان يشغل منصب سفير لدى فرنسا وقت وقوع تمرد شايز؛ إذ كتب إلى أحد أصدقائه قائلاً:

> **إننى أومن أنه لشىء طيب أن يحدث تمرد صغير من وقت لآخر... إنه علاج ضرورى لصحة الحكومة... وإنى لأعوذ بالله من أن تمر علينا عشرون سنة دون وقوع تمرد... لابد أن تروى شجرة الحرية من وقت لآخر بدماء الوطنيين والطغاة، فتلك الدماء هى سمادها الطبيعى.**

لكن جيفرسن كان بعيداً عن قلب الأحداث، فنخبة البلاد السياسية والاقتصادية لا تتمتع بالتسامح وكان يقلقها أن يصير تمرد شايز نموذجاً يحتذيه الآخرون. ومن هنا قام الجنرال هنرى نوكس أحد المحاربين القدامى فى جيش جورج واشنطن بتأسيس جمعية لقدامى المحاربين أسماها "وسام سيناتى العسكرى"، وهى جمعية من المفترض أنها تأسست، كما قال أحد المؤرخين "بغرض أن يلتقى قدامى المحاربين لاجترار ذكريات الكفاح الذى شاركوا فيه." لكنها أيضاً، على ما يبدو، كانت تقوم بمراقبة الحركات الراديكالية فى البلد الوليد. وقد كتب الجنرال نوكس إلى جورج واشنطن فى أواخر عام ١٧٨٦ عن تمرد شايز، وكان يعبر بما كتبه عن أفكار ومصالح كثير من قادة البلاد من ذوى الثروة والنفوذ. كتب نوكس:

> **لم يقم المتمردون بدفع أية ضرائب وإذا فعلوا، فهى ضرائب لا تكاد تذكر، غير أنهم يرون ضعف الحكومة؛ إنهم يشعرون بالفقر إذا ما قارنوا أنفسهم بالأثرياء، كما إنهم يشعرون بالقوة وعازمون على حسن استغلال القوة من أجل معالجة الفقر. إن مبدأهم هو: "أن ثروة الولايات المتحدة وأملاكها قد حمتها من المصادرة البريطانية الجهود المشتركة للجميع ولذلك فلابد أن تكون هذه الثروة ملكاً للجميع أيضاً، وأن**

من يحاول الاعتراض على هذا المبدأ لعدو للمساواة والعدل ولابد أن يمحى من على وجه الأرض."

كان ألكسندر هاميلتون، أحد معاونى جورج واشنطن أثناء حرب الاستقلال، واحداً من أقوى أفراد الأرستقراطية الجديدة وأكثرهم دهاءً. عبر عن فلسفته السياسية قائلاً:

تقسّم كل المجتمعات أنفسها إلى صفوة وعامة، يمثل الأولى الأغنياء وذوو الحسب والأصل الكريم ويمثل الثانية عامة الناس. يعتقد كثيرون أن صوت الناس أو عامة الشعب هو صوت الله، وصار هذا الرأى شيئًا بديهيًا ويجرى فى أفئدة الناس مجرى المعتقد، غير أنه، فى حقيقة الأمر، ليس صحيحاً؛ فعامة الناس متقلبون فى أمزجتهم وآرائهم، ونادرًا ما يصدر عنهم حكم صائب. فلتُعْطَ الصفوة نصيبًا مميزًا ودائمًا فى الحكومة... هل يمكن أن ننتظر من تجمع ديمقراطى، يختلط سنويًا بالعامة من الناس، أن ينشد الصالح العام على الدوام؟ لن يكبح صفاقة الديمقراطية سوى هيئة دائمة تراقبها... .

الجدير بالذكر أن هاميلتون، فى الاجتماع الشهير لوضع الدستور، اقترح اختيار رئيس ومجلس شيوخ مدى الحياة.

غير أن الاجتماع لم يأخذ بهذا الاقتراح. لكنه لم ينص على إجراء انتخابات عامة إلا فى حالة انتخاب مجلس النواب، حيث كانت المؤهلات قد أرسيت من قبل الهيئات التشريعية للولايات التى اشترطت حداً ما من الملكية من أجل اكتساب حق التصويت فى الانتخابات، وبالطبع تم استبعاد النساء والهنود والعبيد من هذه العملية برمتها. وقد نص الدستور أن يقوم مشرعو الولاية بانتخاب الشيوخ وأن تنتخب الرئيس مجموعة من الناخبين يختارهم المشرعون وأن يقوم الرئيس بتعيين أعضاء المحكمة الدستورية العليا.

وبالرغم من ذلك، فلم تكن مشكلة الديمقراطية فى مجتمع ما بعد الثورة تقتصر على الحدود الدستورية المفروضة على حق التصويت فى الانتخابات، فقد كانت المشكلة أعمق من ذلك وهى تقسيم المجتمع إلى أغنياء وفقراء؛ فعندما يحوز بعض الناس الثروة والنفوذ الكبير إذا ملكوا الأرض والأموال والصحف والكنيسة والنظام التعليمى، فما الذى يملكه الحق فى التصويت، مهما كان عريضًا، أمام مثل هذه القوة؟ كانت هناك مشكلة أخرى: أليس من طبيعة الحكومة التمثيلية النموذجية، حتى لو كانت عريضة القاعدة، أن تجنح إلى المحافظة وتمنع التغيير وما يصاحبه من صخب وارتباك؟

وجاء وقت التصديق على الدستور بأن يقدم للاقتراع فى اجتماعات الولايات، حيث لابد أن يوافق تسعة من بين الثلاثة عشر صوتًا المطلوبين للتصديق؛ ففى نيويورك، حيث كان الجدال حول التصديق على الدستور حاداً، ظهرت سلسلة من المقالات نشرت دون توقيع، وهى مقالات تنبىء عن الكثير من طبيعة الدستور. تبين بعد ذلك أن كتاب هذه المقالات، التى كانت مؤيدة لتبنى الدستور، هم جيمس ماديسون وألكساندر هاميلتون وجون جاى Jay، وعرفت المقالات باسم "الأوراق الفيدرالية" بينما عرف من عارضوا الدستور بالمناهضين للفيدرالية.

فى الورقة الفيدرالية رقم ١٠، يرى جيمس ماديسون أن الحكومة النيابية كانت ضرورة للحفاظ على سلام مجتمع تمزقه النزاعات الانقسامية التى جاءت من "التوزيع غير العادل والمتفاوت للثروة، فالذين يملكون والذين لا يملكون دائمًا ما تتعارض مصالحهم." كانت المشكلة، كما يقول ماديسون، تتمثل فى كيفية السيطرة على النزاعات الانقسامية التى أتت كنتيجة للتفاوت فى امتلاك الثروات. يقول ماديسون إن عناصر الأقلية من الممكن السيطرة عليها عن طريق مبدأ أن القرارات إنما تحددها أصوات الأغلبية. المشكلة إذن، حسب ما يرى ماديسون، تكمن فى حزب الأغلبية وهنا يأتى الدستور بالحل، وهو تكوين "جمهورية كبرى" أى أمة كبرى تشمل أكثر من ثلاث عشرة ولاية بحيث "يكون من الصعب على العناصر الانشقاقية أن تكتشف نقاط

قوتها، فضلاً عن صعوبة اتحاد بعضها مع الآخر... فربما يشعل القادة الانشقاقيون نارًا داخل ولاياتهم الخاصة، لكنه سيكون من الصعب عليهم أن ينتقلوا بالحريق إلى الولايات الأخرى."

وربما نظر البعض إلى حجة ماديسون على أنها حجة صائبة وذكية تعمل على وجود حكومة من شأنها أن تحافظ على السلام وتتجنب الفوضى المستمرة، ولكن هل يقتصر الهدف الأكبر للحكومة على الحفاظ على النظام كمجرد حَكَم بين متقاتلين متساويين فى الندية؟ أم أن حقيقة الأمر هو أن للحكومة بعض المصلحة الخاصة فى الحفاظ على نوع محدد من النظام وتوزيع محدد للثروة والسلطة لا يكون مسئولو الحكومة فيه مجرد حكام محايدين بل مشاركين؟ وفى هذه الحالة، تكون الفوضى التى تقلقهم هى فوضى التمرد الشعبى ضد الذين يحتكرون ثروة المجتمع. ولعل صحة هذا التفسير تثبت إذا نظر المرء إلى المصالح الاقتصادية والخلفيات الاجتماعية للقادة واضعى الدستور.

يحدد ماديسون بوضوح (فى الورقة الفيدرالية رقم ١٠ وكجزء من دفاعه عن إقامة جمهورية كبرى) السلام الذى يود الحفاظ عليه: "لن يرقى الغضب من أجل إصدار الأموال الورقية أو من أجل إلغاء الديون أو بسبب التقسيم غير العادل للثروة، إلى درجة يمتد بها إلى جسد الاتحاد كله وإنما الأكثر احتمالاً أن ذلك سوف يقتصر على ولاية محددة."

إننا إذا نظرنا إلى المصلحة الاقتصادية المستترة خلف عبارات الدستور، لوجدنا أن هذه الوثيقة لم تكن ببساطة من عمل مجموعة من الرجال الحكماء الذين حاولوا إقامة مجتمع كريم منظم، بل كانت وثيقة وضعتها جماعات محددة هدفها الحفاظ على امتيازاتها هى فى الوقت الذى منحت فيه هذه الجماعات حقوقًا وحريات كافية لعدد من الناس يكفى لضمان التأييد الشعبى.

فى الحكومة الجديدة، سينتمى ماديسون إلى حزب واحد مع جيفرسن ومونرو؛ هو حزب الجمهوريين – الديمقراطيين ، بينما سينضم هاميلتون إلى الحزب المنافس،

وهو حزب الفيدراليين، مع واشنطن وآدمز اللذين اتفقا، وأحدهما مالك للعبيد من فرجينيا والآخر تاجر من نيويورك، على أهداف الحكومة الجديدة التى كانا يحاولان إنشاءها . لقد كانوا يتوقعون الوصول إلى الاتفاق الجوهرى للحزبين السياسيين فى النظام الأمريكى، وكتب هاميلتون فى مكان آخر من "الأوراق الفيدرالية" أن الاتحاد الجديد سيكون باستطاعته أن "يكبح أى انقسام أو شغب محلى"، وأشار صراحة إلى "تمرد شايز" قائلاً: "إن الموقف العاصف والمدمر الذى لم تخرج منه ماساتشوستس بعد يثبت أنه لا يجب التهوين من شأن هذا النوع من الأخطار."

كان ماديسون أو هاميلتون (إذ إن مسألة التأليف الخاصة بالأوراق ليست معروفة) هو الذى كتب فى الورقة الفيدرالية رقم ٦٣ عن أهمية وجود "مجلس شيوخ قوى" لأن مثل هذا المجلس سيكون "فى بعض الأحيان ضرورياً يحمى الشعب من أخطائه وأوهامه العارضة" لأنه "فى بعض اللحظات، ربما ينادى الشعب - مدفوعًا بعاطفة غير معروفة عنه أو ساعيًا نحو مزية ما أو مضللاً بالتفسيرات الخادعة لذوى الأغراض - باتخاذ بعض الإجراءات سيكون هو أول من يدينها ويندم على اتخاذها." كما أنه "فى تلك اللحظات الحرجة كم سيكون تدخل هيئة محترمة وذات هيبة من المواطنين شيئًا سليمًا وصحيًا من أجل اعتدال المسار وتعليق الضربة التى يوجهها الشعب إلى نفسه حتى يستعيد العقل والعدل والحقيقة سلطتهم على الرأى العام؟"

كان الدستور حلاً وسطًا أو تسوية بين المصالح؛ مصالح مالكى العبيد فى الجنوب والمصالح التجارية فى الشمال. لقد أرادت وفود الشمال إصدار قوانين تنظم التجارة فيما بين الولايات وطالبت بأنه يكفى أن توافق أغلبية مجلس النواب (الكونجرس) على مثل هذه القوانين، وكان ذلك بهدف توحيد الولايات الثلاث عشرة وتحويلها إلى سوق ضخم للتجارة، ووافق الجنوب مقابل السماح له بالاستمرار فى تجارة العبيد لمدة عشرين عاماً.

لقد حذرنا تشارلس بيرد من أنه ليست هناك حكومات محايدة بما فيها حكومة الولايات المتحدة، لأن الحكومات تمثل المصالح الاقتصادية المهيمنة وتكويناتها تهدف

إلى خدمة هذه المصالح. فى كتابه **شارلس بيرد والدستور** Charles Beard and the Constitution يطرح روبرت براون Robert E. Brown، وهو أحد ناقدى بيرد، نقطة مثيرة. يقول إذا فرضنا أن الدستور ألغى عبارة "الحياة والحرية ونشدان السعادة"، التى ظهرت فى وثيقة إعلان الاستقلال واستبدل بها "الحياة والحرية أو الملكية" - فلماذا لا يحمى الدستور الملكية؟ كما يقول براون عن أمريكا الثورية: "لقد كان كل فرد فى واقع الأمر معنيًا بمسألة حماية الملكية" لأن كثيراً من الأمريكيين كانوا من ذوى الأملاك.

وبالرغم من ذلك، فإن هذه رؤية مضللّة؛ نعم كان هناك ذوو أملاك كثيرون، لكن بعض الناس كان لديه أكثر من الآخر. لقد كانت لقلة من الناس، فى حقيقة الأمر، أملاك كبيرة، وكثير من الناس لديهم أملاك صغيرة، وآخرون لا يملكون شيئًا على الإطلاق ولقد وجد جاكسون مينْ أن ثلث سكان أمريكا أثناء الثورة كانوا من صغار الفلاحين، بينما كان ٣٪ فقط من السكان يحوزون ثروات ضخمة.

لقد كان ثلث السكان، وهذا عدد لا يستهان به، يشعر أن لديه شيئًا يخشى عليه من الضياع، وكان هذا قاعدة كبيرة من التأييد والدعم للحكومة لم تتمتع به حكومة أخرى فى العالم فى نهاية القرن ١٨, علاوة على ذلك، فقد كان قيام الحكومة يمثل فائدة مهمة لحرفيى المدينة، لأن الحكومة سوف تقوم بحماية أعمالهم من التنافس الخارجى. والسؤال كما يضعه ستوتين ليند هو: "كيف يتأتى أن يؤيد عمال المدن فى كافة أرجاء أمريكا دستور الولايات المتحدة فى سعادة وحماس؟"

كان هذا صحيحًا فى نيويورك على وجه الخصوص؛ فعندما صدّقت الولاية التاسعة والعاشرة على الدستور، قام أربعة آلاف من حرفيى مدينة نيويورك بمسيرة احتفالية حاملين الأعلام؛ حيث ضمت المسيرة الخبازين والحدادين وصانعى الخمور وصناع السفن والرحالين والحمالين والخياطين. يقول ليند إن هؤلاء الحرفيين، الذين يعارضون حكم النخب فى المستعمرات، كانوا وطنيين. كان الحرفيون يمثلون ما يقرب من نصف سكان مدينة نيويورك، كان بعضهم غنيًا وبعضهم فقيراً، لكنهم جميعًا كانوا

أفضل حالاً من العمال العاديين، وكان ازدهارهم يتطلب حكومة تحميهم من القبعات والأحذية البريطانية والبضائع الأخرى التى كانت تغرق المستعمرات بعد الثورة. ومن ثم، كان الحرفيون غالبًا ما يؤيدون المحافظين الأثرياء فى صناديق الاقتراع.

يعكس الدستور إذن مدى تعقيد النظام الأمريكى؛ ذلك أنه يخدم مصالح نخبة ثرية، لكنه أيضًا يخدم مصالح صغار الملاك والحرفيين ذوى الدخل المتوسط والفلاحين وذلك من أجل بناء قاعدة عريضة من الدعم والتأييد. ويمثل هؤلاء نوعًا من المصدات أو المتاريس فى مواجهة السود والهنود وشديدى الفقر من البيض. إن مثل هؤلاء يمكّنون النخبة من أن تحكم سيطرتها بأدنى حد من القوة وأقصى حد من القانون، وأصبح كل ذلك مستساغًا بفضل أدبيات وطنطنة الوطنية والوحدة. وأصبح الدستور أكثر قبولاً لدى العامة، على وجه العموم، بعد أن استجاب أول كونجرس للنقد وأصدر سلسلة من التعديلات عرفت باسم "وثيقة الحقوق" Bill of Rights، وبدا أن هذه التعديلات تهدف إلى جعل الحكومة الجديدة حارسة لحرية الشعب فى التعبير والنشر والعبادة والتجمهر والحق فى محاكمة عادلة والشعور بالأمن ضد التدخل الرسمى. لكن الذى لم يكن واضحًا، إذ كانت لغة الحرية جديدة ولم تختبر بعد، هو اهتزاز حرية أى فرد بائتمان حكومة من الأغنياء والأقوياء عليها.

فى واقع الأمر، كانت المشكلة نفسها قائمة فى المواد الأخرى للدستور، من أمثال تلك العبارة التى تمنع الولايات من أن "تفسد التزام العقود" أو كالتى تمنح الكونجرس السلطة فى فرض ضرائب على الناس وفى الاستيلاء على الأموال، إذ تبدو هذه العبارات محايدة ولا غبار عليها حتى يسأل سائل: فرض ضرائب على من؟ ولأى غرض؟ والاستيلاء على ماذا؟ ولصالح من؟ إن مسألة حماية التزامات العقود قد تبدو غاية فى العدل والمساواة فى المعاملة بين الناس حتى يفكر مفكّر فى أن هذه العقود الموقعة بين غنى وفقير، بين صاحب عمل وعامل لديه، بين مالك ومستأجر، بين دائن ومدين، تنصف بصفة عامة الطرف الأقوى من طرفى العقد. وبالتالى فإن حماية هذه العقود تعنى وضع سلطة الحكومة بما تملكه من قوانين ومحاكم وبوليس فى صف

ذوى الامتيازات، بل إن ذلك سوف يحدث ليس من باب ممارسة القوة الوحشية ضد الضعفاء كما كان يحدث قبل العصر الحديث بل من باب تطبيق القانون.

إن التعديل الأول من وثيقة الحقوق يوضح كيف تختفى المصلحة وراء البراءة؛ لقد نص هذا التعديل، الذى صدر عن طريق الكونجرس فى١٧٩١ ، على أنه "لا يقوم الكونجرس بإصدار أى قانون... من شأنه أن ينال من حرية التعبير وحرية الصحافة... ." لكن بعد أن أصبح هذا التعديل جزءًا من الدستور بسبع سنوات، أصدر الكونجرس قانونًا يحد بوضوح شديد من حرية التعبير.

كان ذلك هو قانون التحريض على العصيان Sedition Act الذى صدر عام ١٧٩٨ أثناء ولاية جون آدمز، وفى وقتٍ كان يُنظر فيه إلى الفرنسيين والأيرلنديين على أنهم ثوار خطرون وذلك بسبب الثورة الفرنسية قبل سنوات قليلة وحركات التمرد الأيرلندية. لقد نص ذلك القانون على أنه يصير مجرمًا كل من يقول أو يكتب شيئًا "مزيفًا أو خطرًا أو فضائحيًا" ضد الحكومة أو الكونجرس أو الرئيس، بهدف تشويه سمعتهم أو إثارة الكراهية ضدهم. ورغم أن هذا القانون قد بدا منتهكًا للتعديل الأول، فقد تم تطبيقه، حيث سجن عشرة أمريكيين لتفوههم بعبارات ضد الحكومة، ورأى كل عضو من أعضاء المحكمة الدستورية العليا فى ١٧٩٨ –١٨٠٠ أن ذلك من صميم الدستور.

إن الذى جعل أعضاء المحكمة الدستورية يقولون بدستورية ما حدث هو أن ثمة أساسًا قانونيًا لا يعرفه إلا خبراء القانون وليس المواطن الأمريكى العادى الذى يقرأ ما ورد فى التعديل الأول ويشعر بثقة فى أنه يستطيع أن يمارس حقه فى التعبير دون أن يتعرض له أحد. ولقد شرح المؤرخ ليونارد ليفى هذا الأساس القانونى قائلاً إنه كان معروفًا بصفة عامة (ليس بين أفراد الشعب ولكن بين دوائر خاصة) أنه بالرغم من التعديل الأول، فإن القانون البريطانى المتعلق بالنشر أو القذف بغرض التشهير والفتنة كان لا يزال مطبقًا فى أمريكا، وهذا يعنى أن الحكومة، وإن لم تستطع أن تمارس وضع "قيود مسبقة" كمنع متحدث من الحديث أو كتاب من النشر، فبإمكانها

فيما بعد أن تعاقب المتحدث أو الكاتب قانونياً. ومن ثم، فقد أصبح للكونجرس أساس قانونى مناسب للقوانين التى أصدرها منذ ذلك الوقت وبذلك استطاع أن يجعل من بعض أنواع التعبير جريمة يعاقب عليها القانون.

وبما أن العقاب بعد ارتكاب الفعل يعد عائقًا فعالاً لممارسة حرية التعبير، فإن الزعم "صرحًا وجود قيود مسبقة" يصبح غير ذى قيمة، الأمر الذى يجعل التعديل الأول لا يبدو صرحًا لحماية حرية الفرد فى التعبير، وهذا يناقض الإحساس الذى يخرج به المرء بعد أول قراءة له.

هل كان يتم تطبيق المواد الاقتصادية من الدستور بنفس درجة الضعف؟ لدينا مثال عالى الدلالة فى ولاية جورج واشنطن الأولى عندما قام ألكسندر هاميلتون وزير المالية بتطبيق القانون الخاص بتخويل الكونجرس فى فرض الضرائب ومصادرة الأموال. وبما أن هاميلتون كان يرى ضرورة تحالف الحكومة مع أكثر عناصر المجتمع ثراء كى تصبح حكومة قوية، فقد تقدم إلى الكونجرس بعدة قوانين تعبر عن فلسفته. فقد تم إنشاء بنك للولايات المتحدة كشراكة بين الحكومة وبعض من ممثلى المصالح البنكية، وصدرت تعريفة جديدة من أجل مساعدة أصحاب المصانع، وتمت الموافقة على إعطاء حاملى سندات الديون - التى تركز معظمها الآن - خاصة سندات ديون الحرب، فى أيدى جماعة صغيرة من الأثرياء، قيمة هذه السندات كاملة وصدرت قوانين جديدة بفرض الضرائب لجمع الأموال الكافية لدفع قيمة السندات.

كان من بين قوانين الضرائب الجديدة "ضريبة الويسكى" التى ألحقت ضررًا كبيرًا على وجه الخصوص بصغار الفلاحين الذين كانوا يزرعون الغلال التى يحولونها إلى شراب الويسكى ثم يبيعونها. لقد بلغ الضرر بهؤلاء حدًا دفع فلاحى غرب بنسلفانيا، فى عام ١٧٩٤ إلى حمل السلاح والتمرد على جباية هذه الضريبة، وقام وزير المالية هاميلتون بقيادة جيش بنفسه من أجل سحق هذا التمرد.

بإمكاننا أن نرى إذن أنه فى السنوات الأولى للدستور، ربما تعاملت الحكومة مع بعض مواده، حتى التى قوبلت بفرح صاخب كالتعديل الأول، باستخفاف ودون قسوة،

لكنها قامت بتطبيق المواد الأخرى، كالمادة التى تمنح الكونجرس سلطة فرض الضرائب، بكل حسم وقوة.

ولا تزال الأسطورة حول ما فعله "الآباء المؤسسون" حية. ولكى نقول، كما فعل أحد المؤرخين مؤخراً وهو بيرنارد بايلن Bernard Baiyln، بأن "أعلى تطلعات للآباء المؤسسين كانت إنهاء الامتيازات وخلق نظام سياسى يتوجب فيه على قادته أن يكون استعمالهم للسلطة استعمالاً مسئولاً وإنسانيًا"، نكون متجاهلين لما وقع بالفعل فى أمريكا فى عهد هؤلاء الآباء. يقول بايلن:

> **لقد علم الجميع بالدور الأساسى الذى يجب أن تضطلع به الحكومة العادلة والحكيمة، ويتمثل هذا الدور فى خلق توازن بين القوى المتنافسة فى المجتمع، بحيث لا تطغى قوة على القوى الأخرى محطمة بذلك، وفى غفلة من الحكومة، حريات الجميع . لقد كانت المشكلة تكمن فى كيفية ترتيب المؤسسات الحكومية بحيث يتحقق هذا التوازن.**

والسؤال الآن: هل كان الآباء المؤسسون رجالاً حكماء وعادلين يحاولون تحقيق التوازن بين قوى المجتمع؟ إنهم، فى حقيقة الأمر، لم يريدوا توازنًا بين القوى المهيمنة على المجتمع فى ذلك الوقت. من المؤكد أن هؤلاء الآباء لم ينشدوا توازنًا متساويًا بين العبيد والسادة، أو بين المعدمين وأصحاب الأملاك، أو بين الهنود والبيض. بل إنهم لم ينظروا إلى ما يقرب من نصف عدد السكان بوصفهم من بين ما أطلق عليه بايلن "القوى المتنافسة" فى المجتمع. إن ممثلى هذا العدد لم تذكرهم وثيقة إعلان الاستقلال، وغاب هذا العدد عن مواد الدستور؛ فقد كان كل هؤلاء غير مرئيين فى الديمقراطية السياسية الجديدة. كان هؤلاء هم نساء أمريكا.

الفصل السادس

النساء بين الحميمية والقهر

عندما نقرأ تاريخ الولايات المتحدة، من الوارد أن نجد نصف سكانها منسيين؛ فقد كان المستكشفون ومالكو الأراضى والتجّار والقادة السياسيون والعسكريون رجالاً، ومن ثم كان غياب النساء والتجاهل الكامل لهن كان علامة على مكانتهن المطموسة.

كانت النساء، فى هذا الاختفاء والتجاهل، تشبه شيئًا كالعبيد السود، ومن ثم واجهت الملونات ظلمًا وقهرًا مضاعفين، وكان التفرد البيولوجى للنساء، كلون البشرة وملامح الوجه بالنسبة للزنجيات، أساسًا لمعاملتهن على أنهن الأدنى مرتبة. وصحيح أن ثمة شيئًا آخر فى التكوين العضوى للنساء غير لون البشرة، وهو إنجاب الأطفال، لكن ذلك لم يكن سببًا كافيًا لدفعهن جميعًا إلى الوراء حتى أولئك اللائى لم ينجبن أطفالاً أو كن صغيرات على الزواج أو تقدم بهن السن على الإنجاب. ويبدو أن الخصائص الفيزيقية للنساء كانت شيئًا ملائمًا بالنسبة للرجال الذين استطاعوا أن يستخدموا ويستغلوا ويتعلقوا بامرأة ما كانت تقوم بدور الخادمة وفى الوقت نفسه كانت عشيقة ورفيقة، ومعلمة وحارسة للأطفال.

لقد وجدت المجتمعات القائمة على الملكية الخاصة والتنافس أنه من المفيد وضع النساء فى هذه المكانة الدونية، وهى مكانة تشبه مكانة عبيد البيوت فيما يتعلق بمسألة الحميمية والقهر، ولكنه وضع يتطلب، نتيجة هذه الحميمية وطول الارتباط بالأطفال،

مكانة خاصة قد تتحول فى موقف ما إلى المعاملة على قدم المساواة مع الرجال. غير أنه من الصعب اقتلاع جذور القهر الخاص؛ أى ذلك القهر الذى يمارسه الرجل على من فى بيته.

وفى المجتمعات الأولى، سواء فى أمريكا أو غيرها، حيث يعيش الأبناء والآباء والأمهات والأعمام والأخوال والأجداد والجدات معًا وحيث الأملاك للجميع، لقيت المرأة معاملة راقية دونها بكثير ما لقيته المرأة من معاملة فى المجتمعات البيضاء، التى غزت المجتمعات الأولى وجلبت معها "الحضارة" والملكية الخاصة.

ففى قبائل زوناى Zuni فى الجنوب الغربى، على سبيل المثال، كانت الأسر الممتدة والطوائف الكبرى تقوم فى أساسها على المرأة حيث يأتى الزوج للعيش مع أسرتها، وكانت النساء يملكن البيوت أما الحقول فهى ملك للطائفة، وللنساء حقوق متساوية مع الرجال فيما تجلبه الأرض المزروعة. وكانت المرأة تشعر بأمان أكثر، لأنها تعيش بين أهلها ولأن بإمكانها تطليق زوجها إذا أرادت مع الاحتفاظ بثروتهما معًا. ولم يكن على النساء فى قبائل السهول، كمثال آخر، أية واجبات يؤدينها فى الحقول، ومع ذلك كان لهن دور أكبر أهمية فى حياة القبائل حيث عملت النساء كمعالجات للمرضى وعشّابات، وفى بعض الأحيان اكتسبت بعضهن قداسة وأصبحن يقدمن النصائح لمن يطلبها. وكان إذا مات قائد إحدى الجماعات، تتولى امرأة رئاسة تلك الجماعة؛ فقد تعلمت النساء التصويب بالنبال وحمل الأسلحة البيضاء، لأنه من المفترض أن تقوم النساء، خاصة بين هنود السيو Sioux، بالدفاع عن أنفسهن ضد أى هجوم. وكان الاحتفال بوصول فتاة هنود "السيو" سن البلوغ يمنحها فخرًا كبيرًا وكانت تُوجه إليها فيه بعض النصائح:

> **بنيتى! اسلكى الطريق الحسن تتبعك قطعان الماشية كظلال الغمام .... ولتنشد عيناك وعقلك دائمًا الطاعة والاحترام وَالتواضع والكرم، وليكن سيرك فى غير خوف أو مذلة. واعلمى يا بنيتى أنه إذا فقدت النساء الكبرياء والفضيلة لن تتبعهن**

القطعان عندما يأتى الربيع بل ستنصرف إلى الحشائش. ولتكونى قوية ودافئة كقلب الأرض. واعلمى أنه ما من قوم ضعفت بينهم النساء وحقّر من شأنهن إلا ذهبت ريحهم.

سيكون من المبالغة أن نقول بأن النساء كن كالرجال، لكن المؤكد أنهن لقين معاملة يكللها الاحترام ومنحتهن طبيعة مجتمعاتهن مكانة عالية.

وكان من شأن الظروف المحيطة بمجيء المستوطنين البيض الأوائل إلى أمريكا أن تخلق أوضاعًا مختلفة بالنسبة للنساء، ولما كانت المستوطنات الأولى تتكون من الرجال، فقد كان يتم جلب النساء كجاريات من أجل التسرية الجنسية وحمل الأطفال.

وفى العام ١٦١٩، وهو العام الذى شهد مجيء أوائل العبيد السود إلى فرجينيا، وصلت على متن سفينة واحدة إلى جيمس تاون تسعون امرأة "تبدو عليهن أمارات القبول والنقاء والبكارة ... تم بيعهن برضائهن إلى بعض المستوطنين كزوجات، وكان مهرهن هو أجرة نقلهن من بلادهن إلى العالم الجديد."

ووصلت إلى أمريكا فى تلك السنوات المبكرة نساء كثيرات من أجل العمل كخادمات لأجل مسمى، وكانت معظمهن من المراهقات، وعشن حياة لا تختلف كثيراً عن حياة العبيد، إذ أن مدة خدمتهن لها أجل معلوم، وكان عليهن أن يكن مطيعات لساداتهن وسيداتهن. ويصف مؤلفو كتاب **نساء أمريكا العاملات America's Working Women**، وهم باكساندول **Baxandall** وجوردون **Gordon** وريفربى **Reverby** ذلك الموقف بقولهم:

كانت النساء يتلقين رواتب زهيدة ومعاملة فظة وكن يحرمن من الطعام الجيد والخصوصية، ولقد أثارت فيهن هذه الظروف القاسية المقاومة؛ ولم يكن أمام هؤلاء الخادمات، اللائى كن يعشن فى أسر منفصلة ويحرمن من الاتصال بمن تعملن مثلهن

فى البيوت الأخرى، سوى طريق رئيسى مفتوح للمقاومة، وهو طريق المقاومة السلبية؛ أى محاولة إنجاز أقل قدر من العمل وخلق المصاعب والمشاكل لساداتهن وسيداتهن.

وبطبيعة الحال، لم يفهم السادة وسيداتهم هذا الأمر على أنه مقاومة، بل رأوا فى سلوك الخادمات علامة على الكسل والغباء والحقد والوقاحة.

وعلى سبيل المثال، فقد أمرت المحكمة العامة فى كينيكتكت عام ١٦٤٥ بأن "تودع امرأة تدعى سوزان سى.، لتمردها على سيدتها، بيت الإصلاح مع الأشغال الشاقة ونظام غذائى قاسٍ وأن يتم تقويمها علانية وبشكل دورى كل أسبوع، حتى تعود سيرتها الأولى."

أصبح الاعتداء الجنسى من قبل السادة على الفتيات الخادمات أمرًا شائعًا؛ إذ تبين سجلات المحاكم فى فرجينيا ومستعمرات أخرى كيف مثل السادة أمام المحاكم بسبب ذلك، وبإمكاننا أن نرى أن فيها حالات فاضحة بشكل خاص. ومن المؤكد أنه كانت هناك حالات كثيرة لم يبلغ عنها. وفى عام ١٧٥٦ ، كتبت اليزابيث سبريجز Sprigs إلى أبيها عن أحوال عملها كخادمة فى أمريكا:

إن ما نعانيه نحن الإنجليز التعساء هنا فوق ما يمكن أن يتصوره الناس فى إنجلترا، ويكفى أننى كواحدة من هؤلاء التعساء أكُد معظم أوقات النهار والليل ولا أسمع سوى عبارات من أمثال "أيتها العاهرة لم تبذلى جهدًا كافيًا"، وأحيانًا يتم قيدى وجلدى إلى درجة لم يرها حيوان. وليس أمامنا ما نقتات عليه سوى الذرة الهندى والملح ... وليس لدينا من راحة سوى أن يلف الواحد منا نفسه فى بطانية وينام على الأرض ... .

وكان من الطبيعى أن يتضاعف الخوف والرعب المصاحبان لنقل العبيد السود إلى أمريكا بالنسبة للنساء السود، اللائى غالبًا ما كن يمثلن ثلث حمولة السفينة، ويقول أحد تجار العبيد::

رأيت بعيونى نساء حوامل يلدن أطفالهن وهن مقيدات بالسلاسل مع جثث من ماتوا أثناء الرحلة ولم يقم المشرفون السكارى بالتخلص من هذه الجثث ... كانت النساء غالبًا ما يضعن حملهن وسط العرق الخانق والمنبعث من الحمولة البشرية للسفينة ... وكان على متن نفس السفينة امرأة زنجية شابة مقيدة إلى ظهر السفينة وكانت قد فقدت وعيها بعد بيعها واقتيادها إلى ظهر السفينة.

وتحكى امرأة تدعى ليندا برنت عن أعباء أخرى، ويذكر أنها استطاعت أن تهرب من أسر العبودية. تقول ليندا:

دخلت الآن عامى الخامس عشر، وهى سن تبعث على الحزن فى حياة فتاة جارية؛ حيث بدأ سيدى يهمس فى أذنى بكلمات بذيئة. ورغم سنى الصغيرة، فلم أكن أجهل معنى ما يقول. لقد كان سيدى يقف لى عند كل مرصد، مذكرًا إياى أننى من بين أملاكه ومقسمًا بالسماء والأرض أنه سوف يجبرنى على الإذعان له. فإذا خرجت من البيت بعد يوم عمل شاق لأتنسم دفقة هواء نقية، تتبعنى خطاه، وإذا ركعت أمام قبر أمى، أجد ظله الداكن يسقط فوقى، ويصبح القلب الرقيق الذى منحتنى إياه الطبيعة مثقلاً بالأحزان ... .

وليس معنى ذلك أن الحرائر البيض كن بمعزل عن المتاعب؛ فحتى هؤلاء، اللائى لم يجئن كإماء أو كخادمات ولكن كزوجات للمستوطنين الأوائل، قد واجهن مصاعب خاصة. ففى إحدى المرات استقلت ١٨ امرأة متزوجة السفينة ماى فلاور Mayflower وكان بينهن ثلاث نساء حوامل، وضعت إحداهن حملها على متن السفينة ونزل الجنين ميتًا، وانتقلت عدوى المرض إلى النساء جميعًا وبمجىء الربيع لم يبق على قيد الحياة سوى أربع نساء من بين الثمانى عشرة.

وكثيراً ما حظى هؤلاء النسوة اللائى شاركن فى بناء حياة فى العراء مع أزواجهن باحترام خاص لأن الرجال كانوا فى أمس الحاجة إليهن. وعلى مدار القرن الأول وأكثر من الوصول إلى أمريكا، كانت النساء يقتربن من مكانة المساواة بالرجال. غير أن النساء جميعًا كن يحملن على كواهلهن أفكاراً جيء بها مع المستعمرين، وهى أفكار تهيمن عليها التعاليم المسيحية، وكان قد تم تلخيص القانون الإنجليزى فى عام ١٦٣٢ على شكل وثيقة أطلق عليها "قانون حقوق المرأة"، جاء فيها:

فى هذا الاندماج الذى نسميه الزواج مصير واحد للطرفين، وصحيح أن الرجل والمرأة شخص واحد، لكن علينا أن نفهم كيف يكون ذلك. عندما يتوحد مجرى مائى صغير أو نهير مع أنهار كبيرة كأنهار رودانوس وهامبر وتيمس، فإن النهير المسكين يفقد اسمه... والمرأة بمجرد زواجها تسمى مقنّعة ... أى "محتجبة"، أى تعيش فى الظل؛ لقد فقدت مجراها الخاص. بل أوشك، بكل صدق، أن أقول لأى امرأة تزوجت بأن ذاتها الجديدة هى ذات من يعلوها مرتبة؛ رفيقها وسيدها ... .

وتصف جوليا سبرويل Spruill وضع المرأة القانونى فى الحقبة الاستعمارية بقولها: "امتدت سيطرة الزوج على شخص زوجته إلى حد الحق فى تأديبها ... غير أنه لم يكن له حق إلحاق إصابة دائمة بها أو ضربها حتى الموت... . " وعن الحق فى الملكية تقول:

علاوة على الحق المطلق فى التحكم فى الأملاك الشخصية لزوجته، كان من حق الزوج أن يأخذ أى دخل مادى لها إذ كان هو الذى يقوم بجمع أجرة عملها... ولقد استتبع ذلك، بطبيعة الحال، أن يحصل الزوج على ما يجلبه أى عمل مشترك مع زوجته من عوائد.

وكان حمل المرأة خارج نطاق الزواج جريمة تستوجب العقاب. وتمتلئ وثائق المحاكم فى الحقبة الاستعمارية بحالات كثيرة لنساء "حملن سفاحًا" بينما آباء

الأطفال لا يمسهم القانون بسوء ويمشون أحراراً طلقاء. وقد نشرت إحدى دوريات الحقبة الاستعمارية حديثًا فى عام ١٧٤٧،"عن آنسة تدعى بولى بيكر، مثلت أمام محكمة كينيكتكت القضائية بالقرب من مدينة بوسطن فى نيو إنجلاند، وحوكمت للمرة الخامسة لحملها بطفل غير شرعي." تقول المرأة مدافعة عن نفسها:

استأذن المنصة الكريمة فى أن أذكر كلمات قليلة: إننى امرأة فقيرة تعيسة ليس لديها من المال ما يسمح لها باستئجار محامين للدفاع عنها ... إن هذه، يا سادتى، خامس مرة أُجَّر فيها جرًا أمام عدالتكم لأحاكم عن نفس التهمة، مرتين أدفع غرامة فادحة، ومرتين يتم عقابى علانية لعدم استطاعتى دفع غرامات أخرى. ربما يكون ما تم معى متسقًا مع القوانين وأنا لا أناقش القوانين، ولكن إذا كانت القوانين نفسها، فى بعض الأحيان، غير منطقية، فلابد من إبطالها وإذا كانت قوانين أخرى تجور على المتهم فى ظروف خاصة، ... فإن لى مطلق الحرية فى أن أقول إن القانون الذى أحاكم الآن فى ظله غير منطقى وشديد القسوة فى حالتى. وبغض النظر عن القانون، فإننى لا أفهم ... طبيعة جريمتى؛ فقد جئت إلى هذا العالم بخمسة أطفال خاطرت فى سبيلهم بحياتى وقمت على تربيتهم من كدى دون أن أطلب أية معونة من مجلس المدينة، وكان بإمكانى أن أفعل معهم الكثير والكثير لولا الغرامات الفادحة التى قمت بدفعها. ليس لأحد أن يشكونى اللهم إلا وزراء العدل لأننى أنجبت أطفالاً دون زواج مما فوّت عليهم تحصيل رسوم الزواج. ولكن هل هذا خطئى أنا؟ ما ضر لو قامت الفتيات، وهن اللائى حرمتهن الطبيعة والتقاليد من مقاضاة الرجال واللائى لا يستطعن فرض أنفسهن على الرجال بل يعاقبهن القانون

لو أنجبن دون زواج، ما ضرّ لو قامت هذه الفتيات بتلبية النداء الأعظم للطبيعة وإله الطبيعة بالتناسل والتكاثر، وهو واجب لم يقصني عنه شيء، بل خاطرت في سبيله بسمعتي وتحملت في سبيل الحصول عليه نظرات العامة وعقاب القانون، ومن ثم فعليكم، في رأيي المتواضع، أن تصدروا أمرًا بإقامة تمثال يخلد ذكراي لا أن تجلدوني.

وعن مكانة الأب في الأسرة، جاء في "ذا سبيكتيتور" The Spectator، وهي إحدى الدوريات الواسعة الانتشار في أمريكا وإنجلترا:

لا شيء يشبع عقل الرجل كالقوة أو الهيمنة .... ولأنني أب في أسرة، فإنني مشغول دائمًا بإعطاء الأوامر، وتحديد الواجبات، والاستماع إلى أطراف النزاع داخل الأسرة، وإحقاق الحق وتحديد المكافآت والعقوبات ... باختصار، يا سيدي، فإنني أنظر إلى الأسرة كمكان للسيادة الأبوية أقوم فيها بنفسي بدوري الملك والقس.

فلا عجب أن تحافظ نيو إنجلاند البوريتانية الطابع على هذا الاستعباد للنساء. ويكفي أن نذكر أنه أثناء محاكمة امرأة تجرأت على تقديم شكوى ضد نجار بسبب عمل أداه ولم يتقنه، علق أحد الآباء من ذوي المكانة العالية لكنيسة بوسطن وهو جون كوتون Cotton قائلاً: "... إنه لمبدأ كاذب أن يطيع الرجل زوجته لا الزوجة زوجها، لأن الله قد كتب على النساء:: أيتها الزوجات، أطيعوا أزواجكن في كل شئ."

ونشر في لندن أحد كتب الجيب، وكان من أكثر الكتب رواجًا، وكان يقرأ على نطاق واسع في المستعمرات الأمريكية في سبعينيات القرن الثامن عشر، وكان عنوانه **نصيحة إلى ابنة** Advice to a Daughter، حيث ينصح أب ابنته قائلاً:

بادئ ذى بـدء، عليك أن تسـلمى، بصـفة عامـة، بأنه لا مسـاواة بين الجنسـين، وأنه من أجل إعـمـار الدنيـا، كـان للرجال، وهم الواضعون للقوانين، نصيب أوفر من العقل، وهذا يعنى أن جنسكن هو الأفضل إعدادًا للانصياع لهذه القوانين، وهذا أمر ضرورى لجنسكن كى يقـوم بالـدور المنـوط به ... إن جنسكن لفى حاجة إلى عقلنا من أجل حسن التصرف وإلى قوتنا من أجل حمايتكم، أما جنسنا فيحتاج إلى رقتكن كى يتلطف ويلين ويشعر بالبهجة من حول....

ورغم هـذه التـربيـة القـوية الأسس، فـمن الملحـوظ أن النسـاء تمردن على هذه النظرة وواجـهن عراقيل كثيرة فى الطريق؛ فعيون سادتهن ترصد حركاتهن وكلهن مـعزولات بعضـهن عن بعـض داخـل البيـوت، ومن ثم فـقـد كن يفـتقـدن الرفـقـة اليومية التى من شأنها أن تقوى الجماعات الأخرى من المقهورين المتمردين. فعلى سبيل المثـال كانت آن هاتشـنسون Hutchinson، امرأة متدينة وأمًا لثلاثة عشر طفلاً، وعلى دراية كبيرة بالعلاج بالأعشاب، وقد تحدت آباء الكنيسة فى السنوات المبـكرة لمستعمرة "مـاسـاتشـوستس باى" عندمـا أصـّرت على أن بإمـكانهـا هى وغيرها من الناس العاديين فهـم وتأويل الإنجـيل دون وصـاية من أحد. ولما كـانت خطيبة مفوهة، فقد عقدت لقاءات أتت إليها أعداد كبيرة من النساء وحضرها بعض الرجال، وبدأت تجمـعات كثيرة تحـضر إلى بيتـها فى بوسـطن كى تستمـع إلى نقدها لرجال الدين المحليين. وقد وصـفها الحاكم جون ونثروب بأنها "امرأة تمتلك درجـة عالية من الشـجاعة والذكاء وأن لـهـا روحًـا وثـابة ولسـانًا طليـقًـا، وأنها أجـرأ من الرجال وإن كانت دون نـسـاء كثـيرات فيما يتـعلق بأمور الفهم والحكم على الأشياء."

وحوكمت آن هاتشنسون مرتين؛ مرة عن طريق الكنيسة بتهمة الهرطقة ومرة عن طريق الحكومة بتهمة تحدى السلطات. وفى المحاكمة المدنية، كانت هاتشنسون حاملاً

وتعانى من المرض، لكنهم لم يسمحوا لها بالجلوس حتى أوشكت على الانهيار، وفى محاكمتها الدينية، تم استجوابها على مدار أسابيع، ورغم مرضها فقد تحدت المحققين معها بمعرفتها العريضة للإنجيل وبفصاحتها الواضحة، ولما استتابوها، قدمت توبتها مكتوبة، ولكن لم يبد عليهم الرضا، حيث قالوا: "إن تعبيرات وجهها لا تعكس صدق توبتها." وطردت هاتشنسون من المستعمرة، وعندما غادرت المستعمرة فى طريقها إلى رود آيلاند عام ١٦٣٨ ، تبعتها خمسة وثلاثون أسرة، فلما وصلت إلى شواطئ لونج أيلاند، اعتقد الهنود هناك، والذين صودرت أراضيهم، أنها واحدة من الأعداء، فقاموا بقتلها هى وأسرتها. وبعد عشرين عامًا، قامت حكومة المستعمرة بتنفيذ حكم بالإعدام شنقًا فى مارى داير Dyer، وهى الوحيدة التى دافعت عن آن هاتشنسون أثناء محاكمتها، وكذلك فى اثنين آخرين بتهمة "التمرد وإثارة الفتنة والتطفل الوقح."

وظل من النادر أن تشارك النساء فى الأمور العامة رغم أن الظروف على الجبهات الغربية والجنوبية سمحت بذلك فى بعض الأحيان. فقد وجدت جوليا سبرويل فى السجلات المبكرة لجورجيا قصة مارى ماسجروف ماثيوز، وهى ابنة لأم هندية وأب إنجليزى، حيث استطاعت مارى إجادة اللغة الكريكية وأصبحت مستشارة الشئون الهندية لحاكم جورجيا. وترى سبرويل أنه كلما زاد استقرار المجتمعات، زادت إزاحة النساء من الحياة العامة بل وزاد خوف النساء عن ذى قبل. وقد ورد بأحد الالتماسات: "ليس من صميم جنسنا التفكير بعمق فى سياسة النظام الحاكم." وتقول سبرويل إنه بالرغم من ذلك، فقد حتّمت الظروف، أثناء الثورة، على النساء المشاركة فى الشئون العامة، حيث قمن بتشكيل جماعات وطنية مناهضة للوجود البريطانى، وكتبن مقالات تدافع عن الاستقلال، ونشطن فى الحملات المناهضة لضريبة الشاى البريطانية والتى جعلت أسعار الشاى فلكية، بل وقمن بإنشاء جماعات "بنات الحرية" Daughters of Liberty التى دعت إلى مقاطعة البضائع البريطانية وحثت النساء على صنع ملابسهن وعلى شراء المنتجات الأمريكية الصنع فقط. وفى

عام ١٧٧٧ كانت هناك جماعة نسائية موازية لحزب الشاى فى بوسطن، وهى جماعة "حزب القهوة" التى وصفتها أبيجيل آدامز Abigail Adams فى أحد خطاباتها لزوجها قائلة:

> **كان لدى تاجر معروف بثرائه وجشعه جوال من القهوة فى حانوته، لكنه رفض أن يبيع للجنة ما تحتاجه من قهوة مقابل ستة شلنات للرطل، فتجمعت مجموعة من النساء، يقول البعض مائة ويقول البعض الآخر بأن العدد كان أكبر من مائة، لدى الحانوت واصطحبن عربة وعدة صناديق، وطلبن من التاجر أن يسلمهن المفاتيح، لكنه رفض. وعندئذٍ، أخذت إحداهن بخناقه وألقت به داخل العربة، ولما لم يجد التاجر أملاً فى المقاومة، سلمهن المفاتيح. وقلبت النسوة العربة وأفرغنها من حمولتها (التاجر)، ثم قمن بفتح الحانوت ورفعن جوال القهوة ووضعنه فى الصناديق ومضين إلى حال سبيلهن ... بينما وقفت جماعة من الرجال مذهولين صامتين إزاء ما شاهدوه.**

وقد بينت المؤرخات، مؤخراً أنه تم تجاهل إسهامات نساء الطبقة العاملة فى الثورة الأمريكية على عكس ما حدث مع زوجات القادة الأرستقراطيات (دولى ماديسون ومارثا واشنطن وأبيجيل آدمز). ومع مرجريت كوربين، التى كانت معروفة باسم "كيت القذرة" وديبورا سامسون جارنت و"مولى بيتشر"، وهن نساء من الطبقة الدنيا جمّلت أقلام المؤرخين صورهن بحيث تحولن إلى سيدات، أما النساء الفقيرات اللائى التحقن بمعسكرات الجيش فى السنوات الأخيرة للحرب وحاربن وساعدن الجنود، فقد تم تصويرهن فيما بعد على أنهن عاهرات، فى الوقت نفسه الذى منحت فيه مارثا واشنطن مكانة خاصة فى كتب التاريخ لزيارتها زوجها فى فالى فورج. بل وفى الأغلب لم تكن حتى الخواطر والدوافع النسائية التى سجلها التاريخ، سوى كتابات ذوات النفوذ من النساء اللائى كانت لهن مكانة منحتهن حرية كبيرة فى

الحديث والكتابة وحصلن، من خلالها أيضًا، على فرصة لتسجيل ذلك. فعلى سبيل المثال، كتبت أبيجل آدمز، إلى زوجها فى مارس ١٧٧٦ قائلة:

... آمل، وأنتم تتخذون من القرارات الجديدة ما تفترضون أنه ضرورى لكم، ألا تنسوا السيدات، وأتمنى أن تكونوا أكثر كرمًا من أجدادكم. أتمنى ألا تضعوا سلطة غير محدودة فى يد الأزواج، وتذكروا أن الرجال جميعًا طغاة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. ولتعلموا أنه إذا لم تحظ السيدات بالاهتمام الواجب، فإننا عازمات على التمرد ولن نجبر أنفسنا على طاعة قوانين لم نساهم فى وضعها.

وبالرغم من ذلك، فقد أتبع جيفرسن عبارته "ولد كل الرجال متساوين" **All men are created equal** بعبارة تقول إن النساء "أحكم من أن يصدّعن رؤوسهن بأمور السياسة"، وبعد الثورة لم تمنح دساتير الولايات الجديدة المرأة الحق فى التصويت باستثناء نيو جيرسى التى علقت هذا الحق فى عام ١٨٠٧ . أما دستور نيويورك فقد استبعد النساء باستخدامه كلمة "ذكور".

والجدير بالذكر أنه بينما كان حوالى ٩٠٪ من جملة السكان الذكور البيض يجيدون القراءة والكتابة فى حوالى عام ١٧٥٠، كانت نسبة النساء ٤٠ ٪ فقط؛ حيث لم يكن أمام النساء العاملات سوى وسائل محدودة للاتصال كما لم تكن لديهن أية وسيلة لتسجيل وتوثيق أية مشاعر بالتمرد قد يكن خبرنها نتيجة تبعيتهن للرجال. ولم يقتصر دور النساء العاملات على إنجاب الأطفال بأعداد كبيرة وتحت ظروف صعبة، بل كن يعملن بالبيت؛ فإبان إعلان الاستقلال كان أربعة آلاف من النساء والأطفال يعملون بالنسيج فى بيوتهم لصالح بعض المصانع المحلية فى فلادلفيا. وبالإضافة إلى ذلك، كانت نساء كثيرات يعملن بالمخابز ومحلات صناعة الخمور وصناعة الحبال والبيع فى المحلات والأعمال الخشبية والطباعة وإجراءات دفن الموتى. بل كانت بعضهن يعملن بالتجارة.

وشاع الحديث عن مساواة المرأة بالرجل أثناء الثورة وبعدها، ودافع توم بينْ عن حقوق النساء وطالب بمساواتهن بالرجال، وأعيد فى أمريكا طبع الكتاب الرائد **دفاع عن حقوق النساء** A Vindication of the Rights of Women الذى كتبته مارى وولستونكرافت Wollstonecroft فى إنجلترا، وذلك فى أعقاب نهاية حرب الثورة. وكانت المؤلفة ترد على إدموند بيرك Burke ذى النزعة المحافظة والمعادى للثورة الفرنسية والذى ورد فى كتابه **تأملات فى الثورة فى فرنسا** Reflections on the Revolution in France أن "المرأة ليست إلا حيوانًا، وليس الحيوان كالبشر." وكان من بين ما ورد فى كتاب وولستونكرافت::

> **كم أتمنى أن أقنع النساء بأن يجاهدن من أجل اكتساب القوة؛ سواء قوة العقل أو قوة البدن، وأن أرسّخ فى أذهانهن أن العبارات الناعمة، وحساسية القلب، ورقة العواطف، وتهذيب الذوق، ما هى إلا مرادفات للضعف، وأن اللاتى يقعن ضحية لمثل هذه المفاهيم ... لن يجنين من ورائها، بمرور الوقت، سوى الاحتقار... كما أن بودى أن أبين للنساء أول هدف للطموح العالى وهو الحرص على بناء واكتساب شخصية قوية كما يليق بمخلوق بشرى بغض النظر عن الهوية الجنسية.**

وخلال الفترة ما بين الثورة الأمريكية والحرب الأهلية، تغيرت عناصر كثيرة فى المجتمع الأمريكى كالنمو السكانى والتوسع غربًا وتطوير النظام الصناعى والتوسع فى منح الحقوق السياسية للذكور من البيض وازدياد التعليم من أجل مواكبة الاحتياجات الاقتصادية الجديدة. وكان من المحتم أن تؤثر هذه التغيرات فى وضع المرأة. وكان الاحتياج إلى النساء فى المجتمع الأمريكى، قبل التطور الصناعى، قد أدى إلى خلق نوع ما من المساواة بين الرجال والنساء حيث عملت النساء فى وظائف مهمة كإصدار الصحف وطباعتها وإدارة الحانات ودباغة الجلود ووظائف أخرى تتطلب مهارات عالية فضلاً عن احتكارهن لمهن محددة كالتوليد. وتحكى نانسى كوت

Cottعن جدتها لأمـها، وكيف كانت الجدة مارثا مور بولارد، فى مزرعتها بولاية مينْ Maine، تقـوم "بصناعـة المخـبـوزات والمشـروبات والمخللات وحـفظ الطعـام والغـزل والخياطة وصناعة ما تحتاجه من صابون وشموع" وكيف قامت هذه الجدة، على مدار خمسة وعشرين عاماً، بتوليد أكثر من ألف مولود. وبدأت المرأة تشغل وضعاً خاصاً داخل الأسرة مع بداية انتشار التعليم.

كانت ثمة حركة مركبة فى اتجاهات مختلفة. فبسبب النمط الجديد الذى ولدته الحياة الصناعية، كانت النساء تضطر اضطراراً إلى الخروج والمشاركة فى صنع الحياة خارج البيت، ولكن فى الوقت نفسه، كان ثمة ضغط شديد لإبقائهن فى البيوت حيث تسهل السيطرة عليهن. لقد خلق العالم الخارجى، الذى اقتحم البيوت، مخاوف وتوترات شديدة فى عالم الذكور المهيمن، وجلب معه حيلاً أيديولوجية للسيطرة بحيث تحل محل المفاهيم التى أدت إلى تحرر الأسرة، والغريب أن كثيراً من النساء قبلن بفكرة "مكان المرأة" التى تعنى أن تلزم بيتها، متناسيات أن الرجال هم الذين أذاعوا هذه الفكرة وروّجوا لها.

ومع تطور الاقتصاد، ساد الرجال كالحرفيين والتجار وهيمنوا وأصبحت صفة الكفاح أو الإيجابية تقتصر أكثر وأكثر على الذكور، أما النساء، فقد رسخ فى أذهانهن أن يلتزمن السلبية وربما كان ذلك لأن كثيرات منهن اضطررن للخروج إلى العالم الخارجى الذى تحفه المخاطر.

وتطورت أنماط الملابس بالنسبة للأغنياء وأفراد الطبقة الوسطى بطبيعة الحال وأصبحت ملابس النساء، كالكورسيه والتنورة، تؤكد على فصل أو ابتعاد النساء عن عالم النشاط ويسر الحركة. بل أصبح من المهم تنشيط مجموعة من الأفكار سواء فى الكنيسة أو المدرسة أو الأسرة، مفادها أن تلزم النساء البيوت حتى وإن كانت هذه البيوت قد باتت لا تعرف الاستقرار. وقد خرجت باربرا ويلتر Welter بكتابها **دلائل الرقة** Dimity Convictions كى تؤكد على أهمية "مذهب الأنوثة الحقيقية"، وذلك فى السنوات التى تلت عام ١٨٢٠ وكان المتوقع من المرأة أن تكون تقية ورعة؛ إذ يقول

أحد الرجال فى كتاب **مستودع أسرار السيدات** **The Ladies' Repository:** إن الدين هو ما تحتاجه المرأة، لأنه يمنحها كرامة تتناسب مع تبعيتها"، وفى كتابها المرأة فى **صورتها الاجتماعية والمنزلية** **Woman in her Social and Domestic Character**، تقول السيدة جون سانفورد: "إن الدين هو بالضبط ما تحتاج إليه المرأة ؛ فبدونه لا تعرف سعادة ولا استقرارًا."

كما كان المتوقع من المرأة أن تتمتع بفضيلة خاصة هى العفة الجنسية. فانطلاقًا من الطبيعة البيولوجية للرجال، كان من المفترض أنهم قد يقعون فى الخطيئة، أما المرأة فليس لها أن تستسلم، وكما قال أحد الكتاب الرجال: "فإذا فعلتِ، فسوف تُتركين فى حزن صامت تبكين سذاجتك وبلاهتك وازدواجيتك وتنوحين عهرك الذى جاء قبل الأوان." وكتبت امرأة تقول إن النساء لن يجنين سوى المشاكل والمتاعب إذا أصبحن "مقدِمات جريئات لا عاقلات حصيفات." وكانت المشكلة تبدأ مبكرًا مع فترة المراهقة. وكان للطاعة دور فى تدريب الفتاة على الإذعان لأول رفيق مناسب، وتصف باربرا ويلتر هذه المشكلة قائلة:

> **الافتراض هنا ثنائى، فالأنثى الأمريكية يفترض فيها أن تكون محبوبة ومثيرة إلى درجة غير محدودة بحيث لا يتمالك أى شاب نفسه إذا حدث وكان معها فى نفس الغرفة، ونفس الفتاة، وهى تخرج من شرنقة الحماية الأسرية، يخفق صدرها بعاطفة حرة، وتمتلئ عن آخرها بمشاعر رقيقة حانية بحيث يأسر قلبها أول محب تقع عليه عيناها. إنها تستيقظ من حلم منتصف الليلة الصيفى للمراهقة وتتمثل مسئولية الأسرة والمجتمع فى التأكد من أن عين الفتاة تقع على محب يناسبها وليس على مهرج برأس حمار. وتقوم الأسرة والمجتمع بذلك الدور عن طريق فرض القيود من قبيل الفصل بين الأطفال فى المدارس سواء كان ذلك طبقًا للجنس أو الطبقة الاجتماعية أو لكليهما معًا،**

أو فرض القيود على دروس الرقص أو السفر وما شابه ذلك من قيود السيطرة الخارجية. وعلى الفتاة الأمريكية أن تطيع. إن هذا التركيب الثنائى يشكل نوعًا من حزام العفة المجتمعى وهو حزام يظل مغلقًا حتى يصل شريك الزواج ويعلن رسميًا انتهاء فترة المراهقة.

وعندما اقترحت إميليا بلومر فى إحدى كتاباتها النسوية، فى عام ١٨٥١، أن ترتدى النساء تنورة أو سراويل قصيرة كى يتحررن من قيود الزى التقليدى، لاقت هجومًا كبيرًا فى كتابات النساء القصصية. ففى إحدى القصص، تعجب فتاة بالملابس القصيرة، لكن أستاذها يذكّرها بأن هذه الملابس "إحدى تجليات الروح الوحشية للاشتراكية وراديكالية الإصلاح الزراعى الذائعة الصيت فى وطننا فى الوقت الحاضر"! وفى **كتاب الفتاة** The Young Lady's Book، الذى نشر عام ١٨٣٠، نجد أن "المرأة دائمًا، من مهدها إلى لحدها، روح للطاعة والإذعان وسماحة المزاج وخضوع العقل، وهذا هو المطلوب منها."

وكتبت إحدى النساء، فى عام ١٨٥٠ : "إن عبقرية الأنثى الحقيقية فى حيائها وتقلبها وتبعيتها الشديدة، إنها طفولة لا تعرف الهرم." وفى كتاب ذكريات راعية جنوبية : Recollections of a Southern Matron : لو ضايقتنى إحدى عادات زوجى، حدثته فيها مرة أو مرتين بهدوء وإذا لم يستجب، تحملتها دون شكوى." وبإعطاء النساء "قواعد السعادة الزوجية والمنزلية" ينتهى أحد الكتب بهذه العبارة: "لا تتوقعين الكثير."

وكانت وظيفة المرأة تتمثل فى بث روح المرح فى البيت والحفاظ على الطابع الدينى بالإضافة إلى الرعاية والتمريض والطهى والخياطة وتنسيق الزهور، ولا يجب عليها أن تقرأ كثيرًا، بل كان يحال بينها وبين أنواع معينة من الكتب. فعلى سبيل المثال، عندما نشرت هاريت مارتينو Harriet Martineau، وهى إحدى دعاة الإصلاح

فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كتابها **المجتمع فى أمريكا** **Society in America**، نادى أحد الصحفيين بأن تمنع النساء من قراءة هذا الكتاب: "فمثل هذه الكتب كفيل بأن يزعزع همتهن ويثنيهن عن تحقيق غاياتها السامية، كما أنه سوف يلقى بالعالم مرة أخرى إلى الفوضى والارتباك." وجاء فى إحدى المواعظ الدينية فى عام ١٨٠٨ بنيويورك:

> **كم هى مهمة وجليلة الواجبات التى على الزوجة القيام بها ... فالزوجة هى سمير الزوج وصديقه، واجبها اليومى هو أن تخفف عنه متاعبه وتلطف من أحزانه وتشاركه فيما يبعث فى نفسه البهجة، وتسهر كالملاك الحارس، على مصلحته، وتحذره من أى خطر، وتحاول دائمًا، بورعها وملاطفتها وجاذبيتها، أن تجعل منه إنسانًا أكثر نفعًا وسعادة وأكثر تمسكًا بالفضيلة والشرف.**

وكان يتم حث النساء، خاصة منذ اضطلاعهن بتعليم الأطفال، على أن يكن وطنيات؛ وقدمت إحدى المجلات النسائية جائزة لمن تكتب أفضل مقالة عن "أفضل طريقة تظهر بها المرأة الأمريكية وطنيتها." وفى كتابها **أغلال الأنوثة** **The Bonds of Womanhood**، تحكى نانسى كوت أن عشرينيات القرن التاسع عشر وثلاثينياته شهدت وفرة كبيرة فى الروايات والقصائد والمقالات والمواعظ والحوليات التى تناقش أمور الأسرة والأطفال ودور النساء. وكان العالم الخارجى يتحول إلى عالم أكثر صعوبة وتجارية وقسوة، وأصبح البيت، إلى حد ما، يمثل حنينًا نحو ماضٍ طوباوى أو ملاذًا من الحاضر.

وربما ساعد ذلك على جعل القبول بالنظام الاقتصادى الجديد أيسر، وذلك بالنظر إليه على أنه جزء من الحياة الخارجية، بينما البيت هو الملاذ الآمن. وفى عام ١٨١٩ ، كتبت امرأة متدينة تقول: "... هواء العالم بات سامًا، لابد أن تحمل معك دائمًا بعض الدواء وإلا ستكون العدوى ذات أضرار قاتلة." ولم يكن كل ذلك، كما تبين

نانسى كوت، من أجل تحدى عالم التجارة والصناعة والتنافس والرأسمالية، ولكن كى يجعله أكثر استساغة وقبولاً.

وكان المبدأ القائل إن المرأة خلقت للبيت بمثابة وسيلة لتهدئتها باستخدام طريقة "منفصلة ولكن متساوية فى الحقوق" وهى الطريقة التى تعطى دورها فى البيت أهمية مساوية لعمل الرجل، وليس ثمة فرق سوى الاختلاف فى طبيعة الدور المنوط به كل منهما.

وتنطوى هذه "المساواة" على فكرة مؤداها أن المرأة لا تختار من تتزوجه وبمجرد زواجها يكون مصيرها قد تحدد. وفى عام ١٧٩١، كتبت إحدى الفتيات تقول: "سيسبق السيف العذل بعد قليل، الأمر الذى سيحدد سعادتى أو شقائى فى المستقبل ... . لقد انتظرت هذا الحدث دائمًا بدرجة من الحزن والجلال تكاد تساوى انتظارى للموت."

وكان الزواج قيداً على المرأة، ويأتى الأطفال كى يزيدوا قيودها. فقد كتبت إحداهن، فى عام ١٨١٣، تقول: "يؤرقنى كثيراً أننى أقترب من وضع مولودى الثالث والواجبات التالية التى لابد أن أقوم بها، إننى أشعر وكأنى أغرق." ويخفف من هذا القنوط الاعتقاد بأن على المرأة أن تفعل شيئًا مهمًا وهو أن تنقل لأطفالها القيم الأخلاقية لضبط النفس والتقدم من خلال التفوق الفردى أكثر من الفعل الجماعى.

وقد آتت الأيديولوجية الجديدة ثمارها، فقد ساعدت على وجود الاستقرار الذى يحتاجه اقتصاد فى أطوار النمو، بيد أن وجود هذه الأيديولوجية نفسه أظهر أن ثمة تيارات أخرى كانت فى حالة احتشاد للخروج، وهى تيارات ليس من السهل احتواؤها، كما أدى إعطاء المرأة مجالاً خاصًا بها إلى توفر إمكانية أن تستخدم ذلك الفراغ وذلك الوقت كى تجهّز نفسها من أجل نوع آخر من العيش.

ولم يستطع "مذهب الأنوثة الحقيقية" أن يمحو تمامًا ما كان ظاهرًا كدليل على تبعية المرأة. فقد كان واضحًا وضوح الشمس أنها لا تستطيع التصويت فى الانتخابات وليس لها أى حقوق فى الملكية. وإذا عملت فأجرها يتراوح ما بين الربع إلى النصف مقارنة بأجر الرجل فى نفس الوظيفة، كما كان يتم استبعاد النساء من مهنٍ محددة كالعمل بالقانون أو الطب فضلاً عن استبعادهن من الكليات والوزارات. ولقد أدى وضع كل النساء داخل فئة واحدة؛ أى إعطائهن جميعًا المجال المنزلى للعمل به، إلى خلق تصنيف على أساس الجنس، الأمر الذى نتج عنه تداخل الخطوط الطبقية، كما توضح نانسى كوت. وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت ثمة قوى تعمل دائمًا على طرح القضية الطبقية. وعندما أدخل صامويل سلاتر **Slater** صناعة الغزل إلى نيو إنجلاند فى عام ١٧٨٩، زادت الحاجة إلى فتيات، "عوانس" بالحرف، كى تدرن ماكينات المصنع. وفى عام ١٨١٤ ، دخلت صناعة النسيج إلى ولتهام **Waltham** فى ولاية ماساتشوستس، وسرعان ما تضاعفت أعداد مصانع النسيج، وكانت النساء يمثلن ما بين ٨٠٪ إلى ٩٠٪ من عمالة هذه المصانع، وكانت أعمار معظمهن تتراوح بين الخامسة عشرة والثلاثين.

والجدير بالذكر أن بعض الإضرابات المبكرة فى مجال الصناعة وقعت داخل هذه المصانع الخاصة بالنسيج، وكان ذلك فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر. وفى كتابها قرن من النضال **A Century of Struggle**، تقدم اليانور فليكسنر **Eleanor Flexner** أرقامًا تثير التساؤل. فلماذا، على سبيل المثال، كان متوسط الأجر اليومى بالنسبة للنساء فى عام ١٨٣٦ يقل عن سبعة وثلاثين سنتًا ونصف؟ ولماذا كانت تتقاضى الآلاف منهن خمسة وعشرين سنتًا فى اليوم مقابل العمل لمدة تتراوح بين اثنتى عشرة إلى أربع عشرة ساعة؟

وقد وقع أول إضراب معروف للنساء فى بوتاكيت برود آيلاند عام ١٨٢٤، حيث انضم ٢٠٢ من النساء العاملات بالمصانع إلى الرجال من أجل الاحتجاج على خفض الأجر وزيادة ساعات العمل، إلا إنهن شاركن بشكل مستقل عن الرجال. وبعد أربعة

سنوات، أضربت النساء فى دوفر بولاية نيو هامبشير وحدها. وفى عام ١٨٣٤، عندما تم فصل فتاة من عملها فى لويل بماساتشوستس، تركت فتيات أخريات مصانعهن، وتسلقت واحدة منهن مضخة الماء الخاصة بالمدينة وألقت، على حد قول إحدى الصحف، "خطبة نارية على غرار أحاديث مارى وولستونكرافت عن حقوق النساء وجور الطبقة الأرستقراطية، تركت أثرًا قويًا فى مستمعيها اللاتى قررن أن ينلن حقوقهن، حتى وإن متن فى سبيلها."

وتتضمن يوميات أحد سكان تشيكوبى Chicopee بولاية ماساتشوستس تسجيلاً لإحدى مسيرات النساء المضربات وقع فى الثانى من مايو عام ١٨٤٣، ويبدو من كلمات الرجل أنه لم يكن متعاطفًا مع هؤلاء المضربات؛ يقول:

جمع كبير من الفتيات ... سار حول الميدان بعد فطور اليوم فى مسيرة تسبقها إحدى ستائر النوافذ الملونة تمثل راية مرفوعة، وكان عدد المشتركات ست عشرة. وبعد قليل، مرت المسيرة ثانية ووصل عددها هذه المرة إلى ٤٠ , استمرت المسيرة لفترة ثم انفضت ... وبعد العشاء تجمعت المشاركات فى المسيرة وأصبح العدد ٤٢ ... ثم سرن فى الشوارع لفترة دون فائدة جنوها.

وفى أربعينيات القرن التاسع عشر قامت إضرابات فى مدن مختلفة، وكانت أكثر قوة من "الاجتماعات أو الإضرابات" المبكرة فى نيو إنجلاند، لكنها لم تكلل بالنجاح فى معظم الأحوال. فقد طالبت سلسلة متتابعة من الإضرابات فى أليجانى بالقرب من بيتسبيرج بتخفيض ساعات العمل، وفى مرات عديدة من هذه الإضرابات، اقتحمت بعض النساء المسلحات بالعصى والحجارة البوابات الخشبية لأحد مصانع النسيج وأوقفن الأنوال عن العمل. وكتبت كاثرين بيتشر، وهى إحدى مصلحات ذلك الزمان، عن نظام المصانع، تقول:دعونى الآن أقدم الحقائق التى عرفتها بالملاحظة المباشرة أو بالسؤال عنها. كنت هناك فى منتصف الشتاء، وكنت أصحو كل يوم فى

الخامسة على صوت الأجراس المعلنة بدء العمل، وكان الوقت المخصص لارتداء الملابس وتناول الفطور قصيراً جداً، كما أخبرنى الكثيرون، بحيث يتم الانتهاء منهما سريعًا ويبدأ العمل على ضوء المصابيح، ويستمر دون كسل حتى الثانية عشرة، وتؤدى العاملات عملهن واقفات. وتخصص نصف ساعة فقط للغذاء يخصم منها الوقت المستغرق فى الخروج والعودة، ثم يستأنف العمل حتى السابعة. وجدير بالذكر أن ساعات العمل هذه يتم قضاؤها داخل غرف تنيرها مصابيح الزيت ويوجد فى كل منها ما بين ٤٠ إلى ٨٠ شخصًا ما يلبثون طويلاً حتى يستهلكوا الهواء الصحى ... وعلاوة على أن الهواء محمل بذرات القطن التى تلفظها آلاف المغازل والأنوال.

وماذا إذن عن حياة نساء الطبقة الراقية؟ كتبت فرانسيز ترولوب Frances Trollope، وهى امرأة إنجليزية، فى كتابها **السلوكيات العائلية للأمريكيين Domestic Manners of the Americans** تقول:

> **اسمحوا لى أن أصف لكم ما تفعله إحدى أرستقراطيات فلادلفيا بيومها ... ستكون هذه السيدة زوجة لسيناتور ومحامٍ ذائع الصيت .... تصحو من نومها ثم تقضى أول ساعة فى عملية ترتيب ثوبها؛ تنزل إلى شرفتها المرتبة النظيفة الهادئة، يأتى خادمها الأسود الحر إليها بالفطور، تتناول لحمًا محمرًا وسمكًا مملحًا وتشرب قهوتها فى صمت، بينما يقرأ زوجها جريدة ويضع أخرى تحت مرفقه، وربما تقوم بعد ذلك بغسل أكوابها وصحونها. تأمر بأن تأتى عربتها فى الحادية عشرة، تقضى الوقت، حتى مجىء العربة، فى غرفة صناعة الحلوى بينما تحمى فوطتها الشاهقة البياض ثوبها الحريرى، وقبل مجىء العربة بعشرين دقيقة، تأوى إلى غرفتها ... وهى لا تزال تطبق فوطتها الشاهقة البياض وتعدّل من ثوبها ثم تضع غطاء شعرها الأنيق ... ثم تنزل إلى الطابق الأرضى فى اللحظة التى**

يعلن فيها سائقها الأسود لخادمها الأسود بأن العربة فى انتظار السيدة. تخطو إلى داخل العربة وتعطى الأمر للسائق: "إلى جمعية دوركاس."

وفى لويل، وضعت رابطة إصلاح العمل النسائى سلسلة من "كراسات المصنع"، كان عنوان أول كراسة "حياة المصنع كما تحياها المرأة العاملة" جاء فيها أن النساء العاملات فى مصانع النسيج "لسن أكثر من جاريات بكل ما تعنيه الكلمة من معان! نعم جاريات لنظام عمل يطلب منهن أن يكدحن من الخامسة حتى السابعة وليس لديهن سوى ساعة واحدة لتلبية مطالبهن البيولوجية.

وفى عام ١٨٤٥ جاء فى صحيفة "صن" النيويوركية هذا الإعلان:

"اجتماع حاشد للفتيات"

نود أن نلفت انتباه فتيات المدينة العاملات فى المهن الصناعية إلى الدعوة إلى اجتماع حاشد فى الحديقة العامة وذلك فى الرابعة من عصر اليوم. وإننا نناشد كياسة رجال هذه المدينة ... ونطلب منهم بكل احترام ألا يحضروا هذا الاجتماع، لأن من سيعقد بشأنهن هذا الاجتماع يفضّلن أن يتدارسن أمورهن بأنفسهن.

فى الوقت نفسه تقريباً، نشرت صحيفة "هيرالد" النيويوركية قصة عن اجتماع "سبعمائة من النساء اللائى بدون فى مظهر حسن من أجل الكفاح لرفع الظلم الذى يعملن تحت وطأته"، وقالت الصحيفة فى افتتاحيتها عن مثل هذه الاجتماعات: "... نشك كثيراً فى أن مثل هذه الاجتماعات يمكن أن تعود بأى نفع أو خير على النساء فى عملهن... إذ تنتهى كلها إلى لا شئ."

ويعكس عنوان كتاب نانسى كوت أغلال الأنوثة ما كان يحدث للنساء فى بدايات القرن التاسع عشر. فقد كن، من ناحية، أسيرات للأيديولوجية الجديدة الخاصة

بما يسمى "مجال المرأة" فى البيت. وحتى إن اضطررن للخروج للعمل فى المصانع أو فى بعض وظائف الطبقة الوسطى، فقد كن يواجهن أنواعًا أخرى من القيود، إلا أن هذه الظروف، من ناحية أخرى، خلقت وعيًا عامًا بوضع النساء ودعمت روابط التضامن بينهن.

ولما كان يحال بين نساء الطبقة الوسطى وبين التعليم العالى، فلم يكن أمامهن إلا احتكار مهنة التدريس فى المدارس الابتدائية. وبحكم ما تقتضيه المهنة، فقد كن يقرأن أكثر ويتواصلن فيما بينهن، وأصبح التعليم مدمرًا لطرق التفكير القديمة. وبدأت هؤلاء النساء فى الكتابة فى الصحف والمجلات، كما بدأت فى إصدار بعض المطبوعات الخاصة بالسيدات، وتضاعف عدد المتعلمات بين عامى ١٧٨٠ و ١٨٤٠، وأصبحت النساء مصلحات صحيات وقمن بحركات مناهضة للمعايير المزدوجة فيما يتعلق بالسلوك الجنسى والتجنى على العاهرات. وعلاوة على ذلك، التحقت النساء بالهيئات الدينية، والتحقت من تتمتع منهن بالشجاعة بالحركة المناهضة للعبودية. ومن ثم، وبحلول الوقت الذى ظهرت فيه حركة نسائية خالصة فى أربعينات القرن التاسع عشر، كانت النساء قد أصبحن متمرسات فى تنظيم الحركات وفى التحريض فضلاً عن الخطابة.

وعندما خاطبت إيما ويلارد Emma Willard المجلس التشريعى بنيويورك فى عام ١٨١٩، حول موضوع تعليم النساء، كانت بذلك تناقض ما صرّح به توماس جيفرسن قبل عام، فى أحد خطاباته، حيث قال إنه يجب على النساء ألا يقرأن الروايات لأنها ليست سوى "كومة كبيرة من القمامة" إلا فى عدد قليل منها، وأضاف أن النساء لا يجب أن يقرأن كثيرًا من الشعر، إذ أن التعليم النسائى يجب أن يركز، على حد قوله، على "زينات الحياة ومباهجها... كالرقص والرسم والموسيقى."

وقالت إيما ويلارد للمجلس التشريعى إن التعليم النسائى "مُوجَّه بحيث لا يخلق من النساء سوى عارضات لمفاتن جمالهن." لكن المشكلة، كما قالت، هى أن "ذوق

الرجال، مهما كان، تحول بحيث أصبح معياراً لتكوين الشخصية النسائية." كما قالت ويلارد إن العقل والدين "يعلماننا بأننا أيضًا بشر من الدرجة الأولى ... ولسنا تابعات للرجال."

وفى عام ١٨٢١ ، أنشأت ويلارد معهداً نسائيًا هو الأول من نوعه، لتعليم الفتيات. وتحكى كيف أصابت الناس بالارتباك عندما كانت تشرح لطالباتها درسًا عن الجسم البشرى:

> **أصيبت الأمهات اللائى قمن بزيارة للمعهد فى بداية الثلاثينيات بصدمة كبيرة عند رؤيتهن تلميذة ترسم قلبًا وأوردة وشرايين على السبورة وذلك لشرح عملية دوران الدم فى الجسم وغادرن غرفة الدرس فى خجل ورعب. ومن أجل الحفاظ على حياء الفتيات وعدم تعرضهن للإثارة والارتباك، تم لصق ورق ثقيل على صفحات الكتب التى تصور الجسم البشرى.**

وناضلت النساء كثيراً للالتحاق بالمدارس والكليات المهنية التى كان يهيمن عليها الذكور؛ فقد رُفض التحاق الدكتورة هاريوت هانت بمدرسة الطب بجامعة هارفارد مرتين، وكانت قد بدأت ممارسة الطب فى عام ١٨٣٥، لكنها استمرت فى عملها كطبيبة للنساء والأطفال. وكانت تؤمن بقوة فى أهمية الالتزام بنظام غذائى محدد والتمرينات الرياضية وعادات النظافة البدنية والصحة العقلية، وأسست "الرابطة الفسيولوجية للسيدات" فى عام ١٨٤٣ حيث كانت تقوم بإلقاء أحاديث شهرية، وظلت دون زواج، متحدية التقاليد فى ذلك أيضًا.

أما إليزابيث بلاك ويل، فقد حصلت على شهادة الطب فى عام ١٨٤٩ بعد أن تغلبت على عراقيل كثيرة قبل قبولها فى جينيفا كوليدج، ثم أسست مستوصف نيويورك لفقراء النساء والأطفال "لمنح النساء الفقيرات الفرصة لاستشارة من يماثلهن فى النوع." وكتبت بلاك ويل فى تقريرها السنوى الأول تقول:

كانت أول استشارة طبية لى تجربة غريبة؛ ففى إحدى حالات الالتهاب الرئوى الحاد، حيث كانت تعانى من هذا المرض امرأة مسنة، استدعيت طبيبًا طبيب القلب ويتمتع بسمعة طيبة فى مجال عمله... بعد رؤية المريضة، ذهب الطبيب معى إلى الردهة حيث بدا عليه التوتر والارتباك وتعجب قائلاً: "حالة غاية فى العجب! هذا شئ لم يحدث لى من قبل؛ لست أعرف ماذا أفعل!" استمعت إليه فى دهشة وارتباك، لأن الحالة كانت التهابًا رئويًا واضحًا وخطره هو الخطر العادى المرتبط بهذا المرض، حتى اكتشفت أخيرًا أن ارتباكه كان بسببى أنا وليس بسبب المريضة أو المرض، ومدى ملائمة الاشتراك مع طبيبة فى فحص أحد المرضى.

وكانت كلية "أوبرلين كوليدج" الرائدة فى قبول النساء للالتحاق بها، لكن أنطوانيت براون، أول طالبة يتم قبولها فى مدرسة اللاهوت وتخرجت عام ١٨٥٠، وجدت أن اسمها أسقط من قائمة الفصل. إلا إن طالبة أخرى تدعى لوسى ستون قاومت ذلك بصلابة شديدة، حيث كانت تمارس نشاطًا واسعًا فى رابطة السلام والعمل المناهض للعبودية وتعليم الطلاب الملونين وإنشاء نادٍ خاصٍ بمناظرات الفتيات. وعندما طلب منها أن تكتب كلمة حفل التخرج، رفضت عندما علمت أنه غير مسموح لها أن تقوم بقراءة الكلمة ومن ثم فسوف يقرأها أحد الشباب. وبدأت لوسى ستون تلقى محاضرات حول حقوقهن فى عام ١٨٤٧ وذلك بأحد الكنائس فى جاردنر بماساتشوستس، حيث كان أخوها يعمل راعيًا. كانت صغيرة الحجم، لا يزيد وزنها عن مائة رطل، لكنها كانت خطيبة مفوهة، ولطالما هاجمها العوام بالهتاف ضدها ورميها بالكتب أو الماء البارد لمجرد أنها كانت تحاضر، أحيانًا بوصفها ممثلة للرابطة الأمريكية المناهضة للعبودية. وعندما تزوجت من هنرى بلاك ويل، أخذ كل منهما بيد الآخر فى حفل الزواج وبدءا فى قراءة الكلمات التالية:

إننا إذ نقر بمحبة كل منا للآخر بإشهار علاقتنا كزوج وزوجة ... لنرى أنه من الضرورى أن نعلن أن ما فعلناه ليس إقرارا منا أو وعداً بالتطوع بطاعة قوانين الزواج الحالية التى ترفض الإقرار بأن الزوجة كائن عاقل ومستقل، بينما تمنح الزوج سلطة أعلى لم تمنحه إياها الطبيعة... .

وكانت لوسى ستون أول امرأة ترفض التخلى عن لقبها بعد الزواج، وعندما رفضت دفع الضرائب بحجة أن أحداً لا يمثلها فى الحكومة، صودر كل ما هو موجود فى بيتها بما فى ذلك سرير طفلها. وبعد أن قامت إيميليا بلومر، التى كانت تعمل بالبريد فى بلدة صغيرة بولاية نيويورك، بتصميم التنورة، تبنتها النساء الناشطات كى تحل محل الصدرية، التى كانت تصنع من عظام الحوت، والكورسيه. وتحكى إليزابيث كادى ستانتون Cady Stanton، إحدى زعيمات الحركة النسائية فى ذلك الوقت، عن أول مرة رأت ابنة عمها ترتدى سراويل تحتية:

ذات يوم رأيت ابنة عمى تحمل مصباحًا فى يد وطفلها فى اليد الأخرى وهى تصعد الدرج إلى الدور العلوى بكل سهولة ويسر، بينما أنا أجر نفسى بصعوبة شديدة وسط الأرواب الفضفاضة، ناهيك عن استحالة أن أحمل ما تحمله هى، وعندئذ اقتنعت تمام الاقتناع بأن هناك حاجة ملحة لإصلاح ثياب النساء، وارتديت من فورى زيًا مماثلاً.

وأصبحت النساء أكثر جرأة ووعيًا بوضعهن بعدما انخرطن فى حركات الإصلاح كمناهضة العبودية وأحوال السجون وأنماط الملابس والدعوة إلى الامتناع عن شرب الخمور. وقد رأت أنجلينا جريمكى Angelina Grimke، وهى جنوبية بيضاء أصبحت خطيبة شرسة ومنسقة ضد العبودية، أن حركة مناهضة العبودية جديرة بأن تؤدى إلى تغييرات أخرى فى المجتمع الأمريكى. قالت:

دعونا جميعًا نوقظ الأمة كى نرفع ملايين العبيد رجالاً ونساءً من التراب إلى مرتبة البشر وبعد ذلك سيكون سهلاً أن نأخذ بأيدى ملايين النساء كى يقفن على أقدامهن، أو أن نحولهن، باختصار، إلى نساء كى لا يظلوا أطفالاً.

وربما كانت مارجريت فوللر Margaret Fuller من أكثر المثقفات صلابة بين الناشطات فى مجال الحركة النسائية، وكانت نقطة انطلاقها، بخصوص وضع المرأة فى القرن ١٩، هى فهمها "أن الرجال يحملون فى أذهانهم إحساسا تجاه المرأة هو نفس الإحساس الذى يحملونه تجاه العبيد"، وتقول : "لسوف نحطم كل العوائق التعسفية التى وضعت فى طريقنا، ولسوف نفتح كل طريق أمام المرأة كى تسير فيه، شأنها شأن الرجل، بحرية كاملة ودون أن يعوقها عائق." وتضيف: "ليس الحكم هو ما تحتاجه المرأة كامرأة، ولكنها تحتاج إلى أن تكون عقلاً يفكر وروحًا تمارس الحياة فى حرية ودون عائق."

وكان ثمة الكثير الذى ينبغى التغلب عليه. فعلى سبيل المثال كان جون تود Todd من أكثر الكتاب شعبية فى منتصف القرن التاسع عشر (وكان أحد أكثر كتبه انتشارًا يقدم النصح للشباب فيما يتعلق بعواقب ممارسة العادة السرية التى قال إن نتائجها هى التدهور الشديد للعقل). وعلق تود على طريقة الزى الجديدة التى تبنتها الحركات النسائية قائلاً:

حاولت بعض النساء أن يتشبهن بالرجال عن طريق ارتداء السراويل، ودعونى أقول لكم فى اختصار شديد أن ذلك لا يمكن أن يحدث، لأن المرأة جميلة ما دامت تتزيا بالطويل من الثياب. إذا سارت كان سيرها جميلاً، أما إذا حاولت أن تجرى، ذهبت عنها فتنتها ... كذلك إذا خلعت المرأة ثوبها الطويل وارتدت سراويل قصيرة وظهر منها ما كان خافيًا، ولىّ عنها جمالها وغابت فتنتها.

وفى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أمر خطاب مرسل من الرابطة العامة لكهنة ماساتشوستس جميع الكهنة بأن يمنعوا النساء من التحدث من فوق منابر الكنائس، وذلك لأنه "... عندما تتحدث المرأة حديث الرجل وتستخدم نبرته... فإننا نضع أنفسنا موضع الدفاع عن النفس فى مواجهتها." ورداً على ذلك، كتبت سارة جريمكى Sarah Grimke، أخت إنجيلينا، سلسلة من المقالات أسمتها "مقالات حول أحوال النساء والمساواة بين الأجناس"، جاء فيها:

كُتب علىّ، أثناء الفترة الأولى من حياتى، أن أكون من بين فراشات العالم الحديث، وكواحدة من طبقة النساء، فإننى، اعتماداً على التجربة والملاحظة، أقول إن تعليم النساء ناقص إلى درجة التعاسة، وإنه الشىء الوحيد الذى يحتجنه والطريق الوحيد للتميز... . إننى لا أطلب مميزات لجنسى، ولن أتنازل عن طلب المساواة. إن كل ما أطلبه من إخوتنا الرجال هو أن يزيحوا أقدامهم عن رقابنا وأن يتركونا نقف على الأرض التى خلقها الله .... من الواضح تماماً، من وجهة نظرى، أن ما هو صحيح من الناحية الأخلاقية بحيث يفعله الرجل هو أيضاً صحيح من الناحية الأخلاقية نفسها بحيث تفعله المرأة.

وكما كانت سارة قوية الحجة فى الكتابة، كانت أختها إنجيلينا قوية الحجة شديدة الحماسة فى الخطابة، حتى أنها ألقت ستة خطب فى ست ليالٍ متتالية بدار الأوبرا فى بوسطن. وكان بعض حسنى النية من المطالبين بإلغاء الرق يرون عدم الدفاع عن المساواة الجنسية لأن ذلك ربما يصدم العامة مما يؤثر بالسلب على الحملة المطالبة بإلغاء نظام الرق، فردت عليهم إنجيلينا:

لن نستطيع أن نقوى مبدأ إلغاء الرق بكل ما أوتينا من قوة إلا إذا تولينا بأنفسنا إزالة كافة العوائق من الطريق ... فلو تنازلنا عن الحق فى التعبير علانيةً هذا العام، فلابد أن نتنازل

عن الحق فى الاحتجاج العام القادم، والحق فى الكتابة بعد ذلك وهكذا. فما الذى تستطيع المرأة أن تفعله من أجل العبيد إذا كانت هى نفسها ترزح تحت أقدام رجل ومكرهة على الصمت؟

وكانت إنجيلينا أول امرأة تتحدث إلى لجنة من المجلس التشريعى لولاية ماساتشوستس فى عام ١٨٣٨ عن الاحتجاجات التى تطالب بإلغاء الرق، وقالت فيما بعد: "كنت على وشك الإغماء تحت تأثير الضغط الشديد على مشاعرى ...". فقد جذب حديثها جمعًا كبيرًا، واقترح أحد النواب بأن "تشكل لجنة ... من مجلس نواب الولاية، كى يحدد ما إذا كان المجلس يتحمل محاضرة أخرى للآنسة جريمكى.

وكان من شأن الحديث عن قضايا أخرى أن يمهد الطريق من أجل تناول وضع النساء. ففى عام ١٨٤٣، ألقت دوروثيا ديكس خطابًا أمام المجلس التشريعى لولاية ماساتشوستس تناولت فيه ما رأته فى السجون وملاجئ الفقراء فى منطقة بوسطن:

إننى أحكى ما رأيته مهما كانت التفاصيل مؤلمة وصادمة ... إننى أود، أيها السادة، أن ألفت انتباهكم إلى الوضع الراهن لمن فقدوا عقولهم ويتم حجزهم داخل أقفاص وغرف وزنزانات وزرائب وهم مقيدون وعرايا، يضربون بالسياط من أجل إكراههم على الطاعة والإذعان ....

كانت فرانسيز رايت Frances Wright كاتبة ومؤسسة لمجتمع طوباوى؛ هاجرت من اسكتلندا فى عام ١٨٢٤، وكانت محاربة صلبة فى مجالات تحرير العبيد وتنظيم النسل والحرية الجنسية، وطالبت بتوفير التعليم المجانى العام لكل الأطفال ممن تزيد أعمارهم عن سنتين وفى مدارس داخلية تتولى كل ولاية الإنفاق عليها. وعبرت رايت فى أمريكا عما عبر عنه الاشتراكى المثالى شارل فوريير Charles Fourier فى فرنسا من أن تقدم الحضارات قام فى أساسه على تقدم النساء. وكان من بين ما قالت:

أكاد أجزم كل الجزم بأن التقدم البشرى لن يخطو خطوات واسعة حتى تتبوأ النساء المكانة اللائقة فى المجتمع، وهى المكانة التى يمليها كل منطق سليم وكل إحساس نبيل ... سيرقى الرجال دائمًا أو يهبطون إلى مستوى الجنس الآخر .... لا تتركوهم يتخيلون أنهم يعرفون شيئًا عما يمكن أن يمنحه الاتصال الجنسى من متع ومباهج حتى يدركوا معنى أن يتعاطف عقل مع عقل وقلب مع قلب، وحتى يجلبوا لهذا الاتصال كل عاطفة ومقدرة وثقة ورقى واحترام، وحتى تسقط القوة من جانب، والخوف والطاعة من جانب آخر، فيستعيد كل منهما حق الميلاد من جديد؛ هذه هى المساواة.

وقامت النساء بأعمال عظيمة فى الجمعيات المناهضة لنظام الرق، فى شتى أنحاء البلاد، حيث جمعن آلاف الاحتجاجات والالتماسات وقدمنها إلى الكونجرس. وتقول إليانور فليكسنر Eleanor Flexner فى كتابها قرن من الكفاح A Century of Struggle (١٩٧٥) :

تقف اليوم أعداد لا تحصى من الصناديق التى تحوى الملفات فى السجلات الوطنية فى واشنطن شاهدة على هذا العمل المجهول والمضنى؛ لقد اصفرّت الاحتجاجات والالتماسات وتهرأت، وتم لصقها بالأصماغ صفحة فوق صفحة، تغطيها بقع الحبر وتملؤها توقيعات تمت على عجل، وأحيانًا ما تجد توقيعًا مسحه صاحبه الذى آثر السلامة وخشى من مغبة الاشتراك فى خطوة جريئة كهذه ... كما تحمل السجلات أسماء النساء اللائى شاركن فى حركة مناهضة الرق والجمعيات التى كن عضوات فيها من نيو إنجلاند إلى أوهايو ....

وفى أثناء إنجاز هذا العمل، تحركت الأحداث حاملةً معها حركة النساء من أجل المساواة بحيث سارت جنبًا إلى جنب مع الحركة المناهضة للرق. ففى عام ١٨٤٠، كان هناك مؤتمر فى لندن للجماعة الدولية لمناهضة الرق، وبعد جدال عنيف، تم التصويت باستبعاد النساء من الحضور، ثم تمت الموافقة على أنه بإمكان النساء حضور الاجتماعات ولكن من وراء حجاب، وجلست النساء فى احتجاج صامت بشرفة قاعة الاجتماعات وجلس معهن وليم لويد جاريسن وهو من أبرز المطالبين بإلغاء الرق والمدافعين عن حقوق النساء.

وكان ذلك هو الوقت الذى التقت فيه اليزابيث كادى ستانتون مع لوكريشيا موت Lucretia Mott وأخريات، وبدأ هؤلاء فى وضع الخطط التى أدت فى النهاية إلى عقد أول "مؤتمر لحقوق النساء" فى التاريخ. وعقد المؤتمر فى منطقة شلالات سينيكا بنيويورك حيث عاشت اليزابيث كادى ستانتون كأم وربة بيت يملؤها السخط على حالها عندما أعلنت: "المرأة لا تساوى شيئًا بينما تساوى الزوجة كل شئ." ثم كتبت فيما بعد:

أدركت الآن بشكل كامل الصعوبات الفعلية التى اضطرت معظم النساء إلى الرضوخ لوضعهن نتيجة العزلة داخل جدران البيت، وفهمت كذلك استحالة تطور المرأة وتقدمها إذا كانت تقضى جل حياتها مع الخدم والأطفال .... لقد أسرنى ذلك السخط العام عن وضع المرأة بوصفها زوجة وأمًا وربة بيت وطبيبة ومرشدة روحية والحال الفوضوية التى تدهور فيها كل شئ دون إشراف مستمر منها، كما أسرتنى تلك النظرة المتشوقة فى عنف من غالبية النساء؛ إذ نقلت إلىّ إحساسا قويًا بأنه لابد من اتخاذ إجراءات فعالة لتصحيح أخطاء المجتمع بشكل عام وتصحيح أوضاع النساء بشكل خاص. إن كل ما رأيته فى المؤتمر العالمى لمناهضة الرق وما قرأته عن الوضع

القانونى للمرأة والظلم والقهر الذى رأيته فى كل مكان، كل ذلك أصاب روحى بزلزال شديد .... لم أستطع أن أفكر فيما يجب فعله أو من أين تكون البداية ... وأصبح كل ما يشغل تفكيرى هو عقد اجتماع عام من أجل الاحتجاج والمناقشة.

وفى ١٩ يوليو، نُشر إعلان فى صحيفة "سينيكا كاونتى كوربيير" يدعو إلى اجتماع لمناقشة "حقوق المرأة"، وحضر ذلك الاجتماع حوالى ثلاثمائة من النساء وبعض الرجال. وتم التوقيع على إعلان للمبادئ فى نهاية الاجتماع، حيث وقعت ٦٨ امرأة و ٣٢ رجلاً، واستفاد هذا الإعلان من اللغة والإيقاع المستخدمين فى إعلان الاستقلال:

لما كان من الضرورى، عبر أحداث التاريخ البشرى، لشريحة من الأسرة البشرية أن تتخذ لنفسها، بين أهل الأرض، مكانة تختلف عن تلك التى كانت تشغلها... فإننا نؤمن أن هذه الحقائق واضحة ولا تحتاج لبرهان؛ نؤمن أن كل الرجال والنساء قد خلقوا متساوين، وأن لهم حقوقًا منحها الخالق وليس لأحد أن ينكرها على أحد، من بينها الحق فى الحياة والحرية ونشدان السعادة... . إن تاريخ الجنس البشرى تاريخ لمظالم وإهدار متكرر للحقوق من جانب الرجل ضد المرأة، وكان هدفه المباشر هو ممارسة طغيان مطلق ضدها... .

ثم جاءت قائمة الحقوق التى سلبت من المرأة: لا حق لها فى التصويت، لا حق لها فى الملكية أو تسلم أجورها، لا حقوق لها فى حالات الطلاق، لا حق لها فى فرص عمل متساوية، لا حق لها فى دخول الجامعة. وتنتهى القائمة بهذه الكلمات: "لقد حاول الرجل، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، أن يحطم ثقتها فى نفسها وفيما تملكه من قوة وطاقة، وأن يقلل من احترامها لنفسها مما يدفعها دفعًا إلى القبول بأن تحيا حياة تابعة ذليلة."

ثم كانت هناك سلسلة من الحلول والقرارات من بينها: "إن كل القوانين التى تمنع المرأة من أن تشغل مثل هذه المكانة فى المجتمع كما يملى عليها ضميرها أو التى تضعها موضعًا دون مكانة الرجل، منافية للمبدأ العظيم للطبيعة، ومن ثم فمثل هذه القوانين لا قيمة لها ولا سلطة."

وتوالت سلسلة من مؤتمرات النساء فى كل أرجاء البلاد بعد مؤتمر شلالات سينيكا، وفى أحد هذه المؤتمرات التى عقدت أثناء عام ١٨٥١ ، كانت هناك عجوز سوداء طويلة نحيفة، ترتدى ثوبًا رماديًا وغطاء شعر أبيض وهى من مواليد نيويورك. استمعت المرأة العجوز إلى بعض الكهنة الذين هيمنوا على المناقشة، ثم نهضت على قدميها وقالت كلامًا يحمل سخط عِرقها جنبًا إلى جنب مع سخط جنسها:

يقول ذلك الرجل الواقف هناك إن المرأة تحتاج لمن يأخذ بيدها وهى تركب العربة أو وهى تعبر الحفر... غير أن أحدًا لا يفعل ذلك معى. ألست امرأة؟ انظروا إلى ذراعى لقد حرثا الأرض وزرعاها وجمعا المحصول فى المخازن ولم يسبقنى يومًا رجل! ألست امرأة؟ لقد كنت أعمل كرجل وآكل كرجل إذا توفر لى طعام، وأتحمل وقع السوط أيضًا. ألست امرأة؟ لقد ولدت ثلاثة عشر طفلاً ورأيتهم يباعون واحدًا بعد الآخر أمامى فى سوق العبيد. ولم يكن يسمع أحد صراخى ونواحى سوى المسيح! ألست امرأة؟

وهكذا بدأت النساء، فى ثلاثينيات وأربعينيات وخمسينيات القرن التاسع عشر، فى مقاومة محاولات إلزامهن البيوت، وشرعن فى المشاركة فى كل أنواع الحركات من أجل المسجونين والمجانين والعبيد السود وأيضًا من أجل كل النساء. ووسط هذه الحركات، واعتمادًا على قوة الحكومة وسلطة الأموال، تفجرت الحاجة إلى المزيد من الأراضى وتولد الحافز على التوسع.

الفصل السابع

« ... ما نما عشب أو جرى ماء »

إذا كانت النساء، من بين كل الجماعات التابعة فى مجتمع ذكورى أبيض، هن الأقرب للوطن، فقد كان الهنود الحمر هم الأجانب من وجهة نظر ذلك المجتمع. ولما كانت النساء الأقرب ويمثلن احتياجًا ضروريًا، فقد كان يتم التعامل معهن بأسلوب الوصاية أكثر منه بأسلوب القوة والقسوة. أما الهندى، الذى لم يكن يمثل احتياجًا بل عقبة، فلم يكن يلق سوى القوة والقسوة، وفيما عدا ذلك، كانت اللغة الأبوية، فى بعض الأحيان، تسبق القيام بحرق القرى. وبذلك، فقد أدت عملية إزاحة الهنود، وهو الاسم المهذب لإبادتهم، إلى تمهيد الطريق أمام الاحتلال الأبيض فيما بين سلسلة جبال أبلانشيان وبين الميسيسيبى، حيث أخليت الأرض من أجل زراعة القطن فى الجنوب والغلال فى الشمال، وأصبح الطريق ممهدًا من أجل التوسع والهجرة وشق القنوات وتمهيد الطرق وبناء المدن الجديدة وتشييد إمبراطورية قارية تمتد إلى المحيط الهادى.

وليس بمستطاع تقدير ما تكلفه ذلك من أرواح البشر على وجه الدقة، أما ما سببه من معاناة فهو مما يصعب تقديره ولو حتى بشكل جزافى تقريبى، ولا تكاد معظم كتب التاريخ التى يدرسها التلاميذ تتوقف عند هذا الموضوع، بل تمر عليه بشكل عابر. غير أن الإحصائيات لديها الخبر اليقين.

ففى كتاب آباء وأبناء **Fathers and Children** يكل روجين، نجد الأرقام التالية: فى عام ١٧٩٠ كان عدد الأمريكيين ثلاثة ملايين وتسعمائة ألفًا ، وكان معظمهم

يعيشون فى نطاق خمسين ميلاً من المحيط الأطلنطى، وفى عام ١٨٣٠، وصل عددهم ثلاثة عشر مليونًا، وبعد عشر سنوات عبر أربعة ملايين ونصف المليون سلسلة جبال أبلانشيان ووصلوا إلى ميسيسيبى فالى، وكان هذا التوسع الكبير فى الأرض تجتازه أنهار تصب فى الميسيسيبى من الشرق والغرب. أما الهنود، فقد كان مائة وعشرون ألفًا منهم يعيشون، فى عام ١٨٢٠ ، شرق الميسيسيبى، لكن بحلول عام ١٨٤٤ ، لم يبق منهم هناك سوى أقل من ثلاثين ألفًا حيث أُجبر معظمهم على الهجرة باتجاه الغرب. غير أن كلمة "أُجبر" لا تصور ما حدث بالفعل.

ففى أثناء حرب الثورة الأمريكية، حاربت كل القبائل الهندية تقريبًا إلى جانب البريطانيين. لكن البريطانيين وقعوا معاهدة سلام ورحلوا إلى بلادهم، أما الهنود فكانوا فى ديارهم بالفعل، ومن ثم استمروا فى محاربة الأمريكيين على جبهات القتال فى سلسلة من المعارك. ولم تستطع قوات جورج واشنطن، التى كانت قد أوهنتها المعارك، على دفع المحاربين الهنود إلى الخلف، وبعد أن سقطت القوات الاستكشافية واحدة بعد الأخرى، حاول واشنطن اتباع سياسة الاسترضاء مع الهنود؛ حيث صرح وزير الشئون الحربية هنرى نوكس "بأن الهنود يمتلكون الأرض بوصفهم المحتلين السابقين"، وأعلن توماس جيفرسن، وزير الخارجية فى عام ١٧٩١ ، بأنه لا يحق التدخل فى شئون الهنود ماداموا يعيشون داخل حدود الدولة، وأن على الحكومة أن تمنع المستوطنين البيض من انتهاك حقوق الهنود.

ومع استمرار تحرك البيض باتجاه الغرب، تزايد الضغط على الحكومة. فعندما أصبح جيفرسون رئيسًا للبلاد فى عام ١٨٠٠ ، كان هناك سبعمائة ألف من المستوطنين البيض يعيشون غرب الجبال حيث انتقلوا إلى أوهايو وانديانا وإلينوى فى الشمال، وإلى آلاباما والميسيسيبى فى الجنوب، وفاق هؤلاء البيض الهنود عددًا حتى أصبحت نسبتهم العددية ٨ إلى ١ من الهنود.

وما كان من جيفرسون سوى أنه ألزم الحكومة الفيدرالية بأن تعمل على إزاحة هنود الكريك **Creek** والشيروكى **Cherokee** من جورجيا، وتصاعد النشاط

العدوانى ضد الهنود فى إنديانا فى عهد حاكمها وليم هنرى هاريسون. وبعد أن ضاعف جيفرسون حجم الدولة بشرائه منطقة لويزيانا من فرنسا عام ١٨٠٣ وامتدت الجبهة الغربية من جبال أبلانشيان مرورًا بالميسيسيبى حتى جبال روكى، اعتقد أن الهنود ربما انتقلوا إلى هناك، واقترح على الكونجرس تشجيع الهنود على الاستقرار على مساحات صغيرة من الأرض يقومون بزراعتها، كما اقترح أن يتم تشجيعهم على التجارة مع البيض وأن تقدم لهم قروض يردونها فى صورة تنازل عن قطع الأرض التى يزرعونها. "... وبهذا فإن هناك إجراءين يحققان الغرض؛ الأول هو تشجيع الهنود على التخلى عن ممارسة الصيد... والثانى هو تشجيعهم على بناء المنازل والتجارة فيها فيما بينهم بحيث يؤدى ذلك إلى ممارسة الزراعة والصناعة والحضارة ...."

إن حديث جيفرسون عن "الزراعة ... والصناعة ... والحضارة" مهم جداً؛ إذ كانت إزاحة الهنود ضرورية لفتح الأراضى الشاسعة أمام الزراعة والتجارة والأسواق والأموال وتطوير الاقتصاد الرأسمالى الحديث. لم يكن كل ذلك ممكنًا بدون الأرض، وبعد الثورة قام الأثرياء بشراء مساحات كبيرة من الأراضى، ومن بين هؤلاء جورج واشنطن وباتريك هنرى. وفى كارولاينا الشمالية عُرضت الأراضى الخصبة التى كان يملكها هنود شيكاساو للبيع، رغم أن هؤلاء الهنود كانوا من بين القبائل القليلة التى حاربت فى صفوف الثورة رغم وجود اتفاقية مع الهنود لضمان عدم التعدى على أراضيهم. وانتهى عرض البيع بأن خرج جون دوينلسون، الذى كان مسَّاحًا للأراضى، وفى حوزته عشرون ألف آكر بالقرب مما يعرف الآن يشاتانوجا وقام زوج ابنته آندرو جاكسون باثنتين وعشرين رحلة خارج ناشفيل لعقد صفقات الأراضى.

وكان جاكسون من ملاك الأراضى وتاجرًا ومقتنيًا للعبيد وأكثر أعداء الهنود عدوانية فى بداية التاريخ الأمريكى. كما كان بطلاً فى حرب ١٨١٢ والتى لم تكن

مجرد حرب ضد الإنجليز، كما تصفها دائماً كتب المدارس الأمريكية، بل كانت حرب توسع للأمة الوليدة فى فلوريدا وكندا والأراضى الهندية.

وحاول تيكومسيه، أحد زعماء هنود شونى وأحد خطبائها البارزين، توحيد صفوف الهنود فى مواجهة الغزو الأبيض، ومن بين كلماته:

> **إن الطريق الأوحد لوقف هذا الشر هو أن يتحد أبناء الجنس الأحمر فى المطالبة بحقهم فى الأرض كما كانت الحال فى البداية وكما ينبغى أن تظل، وذلك لأن الأرض لم تقسّم فى يوم من الأيام، بل هى ملك للجميع ولمنفعة كل فرد، وليس لأحد الحق فى بيعها حتى ولو فيما بينهم ـ فضلاً عن الغرباء، أولئك الذين يريدون كل شئ و لا يرضون بما دون ذلك.**

ولما أغضبه قيام أهله من الهنود بالتنازل عن مساحة أرض كبيرة لحكومة الولايات المتحدة، نظم تيكومسيه حشداً من خمسة آلاف من الهنود، فى عام ١٨١١ ، وجمعهم على ضفة نهر تالابوسا بآلاباما وخطب فيهم قائلاً: "ألا فليهلك الجنس الأبيض! إن أبناءه يغتصبون أرضكم، ويفسدون نساءكم، ويدهسون رفات موتاكم! ولابد من إرغامهم على العودة مدحورين من حيث أتوا."

لكن الهنود الكريك، الذين كانوا يشغلون معظم أراضى جورجيا وآلاباما والميسيسيبى، انقسموا على أنفسهم؛ فرغب بعضهم فى تبنى حضارة الرجل الأبيض من أجل العيش فى سلام، بينما أصر الآخرون على التمسك بأرضهم وثقافتهم وكانوا يعرفون باسم "العصى الحمراء". وفى عام ١٨١٣ ارتكب هؤلاء مذبحة قتلوا فيها مائتين وخمسين من البيض فى فورت ميمس، قامت على أثرها قوات جاكسون بحرق قرية كاملة من قرى الهنود الكريك وقتل كل من فيها ـ رجالاً ونساء وأطفالاً. وأرسى جاكسون أسلوب منح المكافآت سواءً كانت أرضًا أو غنائم، حيث قال: "... كل من يستولى على شئ من أملاك العصى الحمراء يأخذها لنفسه، سواءً كان من قبائل الشيروكى أو الكريك الأصدقاء أو كان من البيض."

ولم يكن كل أفراد قوات جاكسون متحمسين للقتال، وكانت هناك موجات تذم بينهم، حيث عانوا من الجوع ومن الشروط المجحفة لانضمامهم إلى الجيش كما أنهم ملوا القتال وكانوا يتمنون العودة إلى أسرهم، حتى أن جاكسون كتب لزوجته عن "المتطوعين الذين كانوا يومًا ما شجعانًا وطنيين ... أصبحوا الآن لا يجيدون سوى الشكوى والأنين وإثارة الفتن والاضطرابات..." وعندما رفض جندى يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا أن ينظف مكان طعامه، وكان قد هدد ضابطه بإطلاق النار عليه، حكمت عليه إحدى المحاكم العسكرية بالإعدام، ورفض جاكسون التماسًا بتخفيف الحكم وأمر بتنفيذ حكم الإعدام ثم انصرف بعيداً عن مكان تنفيذه كى لا يسمع دوى الرصاص.

وأصبح جاكسون بطلاً وطنيًا عندما خاض معركة **Horseshoe Bend** عام ١٨١٤ ضد ألفٍ من هنود الكريك، حيث قتل ما يزيد على ثلاثة أرباع عددهم، بينما قتل الهنود نفرًا قليلاً من جنوده.

وكانت قواته البيضاء قد فشلت فى مواجهة الكريك، لكن هنود الشيروكى، الذين وعدوا بصداقة الحكومة، عبروا النهر سباحةً وحاصروا الكريك من الخلف وانتصروا فى المعركة لصالح جاكسون. ولما انتهت الحرب، بدأ جاكسون وأصحابه فى شراء أراضى الكريك التى حاصروها، حيث عين جاكسون مفوضًا فى توقيع اتفاقية أملى فيها شروطه وأخذ بموجبها نصف أراضى هنود الكريك.

ويقول مايكل روجين أن هذا "كان أكبر تنازل هندى عن الأرض يتم دفعة واحدة"؛ إذ أخذت أراضٍ من الكريك الذين حاربوا إلى جوار جاكسون فضلاً عن أراضى الذين حاربوا ضده. وعندما احتج المحارب الكبير **Big Warrior** وهو أحد زعماء الهنود الأصدقاء من الكريك، رد عليه جاكسون:

> **لو قامت الولايات المتحدة بأخذ أراضى أمة الهنود جميعهًا، لما أدانتها الروح العظمى ... Great Spirit حقيقة الأمر**

هى أن غالبية زعماء ومحاربى الكريك لم تحترم قوة الولايات المتحدة؛ فقد حسبوا أننا أمة لا قيمة لها وأننا مهزومون لا محالة أمام البريطانيين. لقد بشموا من أكل اللحوم، وكانوا بحاجة إلى الجلد بالسياط ... وفى مثل هذه الحالة، فإننا نستنزف أعداءنا إلى أن يعودوا إلى صوابهم.

وبذلك، "قهر جاكسون صفوة الكريك مما ضمن الازدهار للجنوب الغربى؛ فقد أمد مملكة القطن الممتدة بأراضٍ شاسعة وغنية"،على حد قول مايكل روجين وقد بدت اتفاقية ١٨١٤ التى وقعها جاكسون شيئًا جديدًا ومهمًا؛ فقد منحت الهنود حق الملكية الفردية للأرض، وبذلك تنازع الهندى مع أخيه وانكسرت الملكية الجماعية، خاصة أن الحكومة قد رشت البعض بالأرض وتركت البعض الآخر مما زرع روح التنافس والتواطؤ التى ميزت الرأسمالية الغربية. وكانت هذه الفكرة متسقة كل الاتساق مع فكرة جيفرسون القديمة عن كيفية التعامل مع الهنود وذلك عن طريق إدخالهم فى "الحضارة".

وفى خلال عشر سنوات، أى بين عامى ١٨١٤ و١٨٢٤ ، استولى البيض، من خلال سلسلة من المعاهدات مع الهنود الجنوبيين، على ثلاثة أرباع آلاباما وفلوريدا وثلث تينيسى وخمس جورجيا وميسيسيبى وأجزاء من كينتاكى وكارولاينا الشمالية. وقد لعب جاكسون دورًا رئيسيًا فى هذه المعاهدات، وحسب ما يقول روجين "فقد حصل أقاربه وأصدقاءه على امتيازات كبرى تتمثل فى أنهم أصبحوا وكلاء لشئون الهنود، وتجارًا ومفوضين لتوقيع المعاهدات ومساحين ووكلاء للأراضى ...." ووصف جاكسون نفسه كيف كان يتم توقيع الاتفاقيات قائلاً: "كنا نركز كل التركيز على العاطفة الظاهرة والمهيمنة لكل قبائل الهنود؛ وأعنى بذلك إما حب المال والجشع أو الخوف." وكان جاكسون يشجع المحتلين البيض على دخول الأراضى الهندية ثم يقول للهنود بأن الحكومة لا تستطيع إزاحة هؤلاء وأنه من الأفضل لهم التنازل عن هذه الأراضى وإلا أزيحوا هم منها، كما لجأ جاكسون إلى"استخدام الرشوة على نطاق واسع"، على حد قول روجين.

ووضعت هذه الاتفاقيات وعمليات سلب الأراضى الأساس لملكة القطن والمزارع التى كانت تقوم على العبيد. وفى كل مرة يتم فيها توقيع اتفاقية تدفع هنود الكريك من منطقة إلى أخرى مع وعد بتمتعهم بالأمن هناك، كان البيض ينتقلون إلى المنطقة الجديدة مما يضطر الهنود إلى توقيع اتفاقية جديدة متنازلين عن الأرض مقابل وعد بالأمان فى منطقة أخرى. وأفضى العمل الدءوب الذى كان يقوم به جاكسون إلى امتداد مستوطنات البيض حتى وصلت إلى حدود فلوريدا التى كانت تملكها إسبانيا وحيث تقع قرى هنود سيمينول Seminole وحيث يعيش بعض اللاجئين من العصى الحمراء. وكان البريطانيون يشجعون هنود سيمينول على مقاومة الأمريكيين. وعندما دخل المستوطنون البيض الأراضى الهندية، فهاجمهم الهنود ووقعت خسائر كبيرة على الجانبين، وعندما رفضت بعض القرى تسليم من اتهموا بقتل البيض، أمر جاكسون بتدميرها.

وكان هنود سيمينول يمثلون استفزازاً من نوع آخر للمستوطنين البيض والحكومة؛ فقد لجأ إلى قرى هؤلاء الهنود العبيد السود الهاربون، وكان بعض الهنود يشترون العبيد أو يقومون بأسرهم، لكن طريقتهم فى معاملة الرقيق كانت أقرب إلى الرق الإفريقى منه إلى رق المزارع؛ فقد كان للعبيد قراهم الخاصة بهم فى أغلب الأحوال، وكثيراً ما كان أبناؤهم يحصلون على الحرية، كما كان هناك زواج مختلط بين الهنود والسود بل وكانت هناك قرى يعيش فيها السود مع الهنود، وهو الأمر الذى أثار حفيظة أهل الجنوب من ملاك العبيد الذين رأوا فيه فتنة لعبيدهم الذين ينشدون الحرية.

وبدأ جاكسون سلسلة من الغارات على فلوريدا بزعم أنها كانت ملاذاً للعبيد الهاربين والهنود النهابين. وقال جاكسون إن فلوريدا حيوية فيما يتعلق بالدفاع عن الولايات المتحدة، وكان ذلك بمثابة مقدمة تقليدية حديثة لحرب هدفها الغزو، ومن ثم بدأت حرب سيمينول التى وقعت عام ١٨١٨ وانتهت بضم الولايات المتحدة لفلوريدا. وتظهر هذه العملية على خرائط الفصول المدرسية تحت اسم مهذب هو "شراء فلوريدا

– ١٨١٩ " إلا أن فلوريدا لم تُشترى بل أتت عن طريق الحملة العسكرية التى قام بها جاكسون والتى قامت بحرق قرى الهنود السيمينول وحصار الحصون الإسبانية حتى "اقتنعت" إسبانيا بأن تبيع فلوريدا.

ويقول جاكسون إنه كان يتصرف انطلاقًا من "القوانين الثابتة للدفاع عن النفس." وأصبح جاكسون حاكمًا لأراضى فلوريدا، وبات فى إمكانه أن يقدم النصائح لأصدقائه وأقاربه. فقد اقترح على ابن أخيه أن يحافظ على أملاكه فى بنساكولا، وأوصى صديقًا له يعمل جراحًا عامًا فى الجيش بأن يشترى ما يستطيع من العبيد لأن سعرهم سوف يرتفع فى القريب.

كما قدم جاكسون خبرته العسكرية للضباط عن كيفية التعامل مع مشكلة ارتفاع معدل الهروب من الجيش. وربما اكتشف فقراء البيض، حتى الذين كانوا على استعداد للتضحية بأرواحهم، أن خيرات الحرب تذهب إلى الأغنياء. وكان من نصائح جاكسون للضباط أن يُجلد من يحاول الهرب فى أول محاولتين وفى الثالثة ينفذ فيه حكم الإعدام.

والملاحظ أن أبرز الكتب التى تتناول الحقبة الجاكسونية والتى كتبها مؤرخون محترمون مثل كتاب آرثر شليزنجر **Schlesinger** عصر جاكسون **The Age of Jackson** وكتاب مارفن مايرز **Marvin Meyers** المذهب الجاكسونى **The Jacksonian Persuasion**، لا تذكر شيئًا عن سياسة جاكسون فى التعامل مع الهنود، بل تتحدث كثيرًا عن نظم التعريفة والبنوك والأحزاب والبلاغة السياسية. ولو نظرت فى كتب التاريخ الأمريكى التى تدرس فى المدارس، فسوف تجد جاكسون المحارب ورجل الشعب والرائد والديمقراطى وليس جاكسون مقتنى العبيد ومالك الأراضى وجلاد الجنود المتذمرين ومبيد الهنود.

وليس هذا من قبيل الرؤية المراجعة، أى التفكير فى الماضى بطريقة مختلفة. فبعد انتخاب جاكسون رئيسًا للبلاد فى ١٨٢٨ ، خرج مشروع إزاحة الهنود أمام

الكونجرس وأطلق عليه فى ذلك الوقت "الإجراء الرئيسى" لإدارة جاكسون و"أعظم قضية نظر فيها الكونجرس على مدار تاريخه" باستثناء أمور الحرب والسلام. وفى ذلك الوقت، كان ثمة حزبان سياسيان هما حزب الديمقراطيين وحزب المحافظين، وكانت قضايا البنوك ونظم التعريفة هى ما يختلف حولها هذان الحزبان، ولم يكن تشغلهما قضايا فقراء البيض أو السود أو الهنود، وذلك رغم أن الطبقة العاملة البيضاء كانت ترى فى جاكسون بطلاً لها.

وفى ظل حكم جاكسون، والرجل الذى اختاره لخلافته وهو مارتن فان بيورين Van Buren، أجبر سبعون ألفًا من الهنود الذين كانوا يعيشون شرق الميسيسيبى على الاتجاه غربًا. وفى الشمال، لم يكن ثمة كثير من الهنود وبقيت كونفدرالية ايروكوا فى نيويورك كما هى، أما هنود ساك Sac وفوكس Fox الذين كانوا يعيشون فى إلينوى فقد أُزيحوا من أراضيهم بعد حرب الصقر الأسود Black Hawk War التى كان إبراهام لنكولن ضابطًا فيها وإن لم يشارك فى القتال. وعندما هزم الزعيم الهندى "الصقر الأسود" ووقع فى الأسر عام ١٨٣٢ ، ألقى خطابًا يعلن فيه الاستسلام:

> **لقد قاتلت ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، لكنكم تجيدون تصويب البنادق. كانت رصاصات بنادقكم تطير فى الهواء وكأنها الطيور، وتئز فى آذاننا أزيز الرياح فى الأشجار شتاءً. لقد تساقط حولى رجالى المحاربون ... وأشرقت شمس الصباح علينا وكان ضوءها كليلاً، وفى الليل غرقت وسط غمامة مظلمة وبدت وكأنها كرة من لهب. كانت هذه آخر شمس تشرق على الصقر الأسود ... إنه الآن أسير الرجل الأبيض... لم يرتكب من الأفعال ما يندى له الجبين؛ فمن أجل أهله من هنود سكوا وبابوس، حارب البيض الذين جاءوا عامًا بعد عام كى يغشونهم ويسلبونهم أرضهم. إنكم تعرفون لماذا نشن عليكم الحرب**

ويعـرف ذلك كل رجل أبيض، ولا يملك البـيض إلا الشـعـور بالخجـل ممـا اقترفتـه أيديهم. إن الهـنود لا يعرفون الغـش أو الخداع، لكن أصحاب البشرة البيضاء يتحدثون عنهم بكل سوء وينظرون إليهم فى احتقار. الهنود لا يكذبون ولا يسرقون. والهندى الذى يكون سيئًا سوء البيض لا يستطيع أن يعيش بين أمتنا، إذ لابد من أن يقتل ويلقى به إلى الذئاب. أهل البشـرة البيضاء معلمون رديئون، يحملون كتبًا زائفة ويرتكبون أفعالاً سيئة، إنهم يبتسمون فى وجه الهنود ليخدعونهم، ويصافحونهم لكسب ثقتهم، ويسقونهم الخمور ويفسدون زوجاتهم. طلبنا منهم أن يتركونا لحالنا، لكنهم استمروا فى أفعالهم ولفوا أنفسهم حولنا كالثعابين، حتى سمموا حياتنا ولم نشعر معهم بالأمان. لقد عشنا فى خطر وكنا نتحول حتى أصبحنا مثلهم منافقين، كذابين، زناة، كسالى، ثرثارين دون عمل ... نعرف أن أصحاب البشرة البيضاء لا يسلخون فروة الرأس، لكنهم يفعلون ما هو أسوأ؛ انهم يسممون القلوب ... الوداع أمتى! الوداع أيها الصقر الأسود.

ربما تعود المرارة التى تغلف نبرة حديث الصقر الأسود إلى الطريقة التى أُسر بها؛ فقد اضطر إلى رفع الراية البيضاء نتيجة نقص الإمداد اللازم لمقاومة القوات البيضاء. كما تضور رجاله جوعًا مما جعلهم تحت إمرة البيض الذين طاردوهم عبر الميسيسيبى. وقد شرح القائد الأمريكى ما حدث قائلاً: "كلما اقتربنا منهم، رفعوا راية بيضاء وحاولوا الإيقاع بنا لكننا لم نكن سانجين." أطلق الجنود النار على النساء والأطفال فضلاً عن المحاربين، وهرب الصقر الأسود، لكن بعض هنود السو الذين يعملون لدى الحكومة اقتفوا أثره وألقوا القبض عليه. وقال أحد وكلاء الحكومة لهنود ساك وفوكس: "لم يعد أبونا الأعظم (الرئيس الأمريكى) يحتمل أكثر من ذلك. لقد

حاول إصلاحهم لكنهم يزدادون سوءًا، وهو يعتزم أن يمحوهم من على وجه الأرض ... . ليس هناك سوى قتلهم إذا لم ينصلح حالهم."

ويشرح لويس كاس Lewis Cass، الذى كان وزيرًا للحربية وحاكمًا لميتشيجان وسفيرًا لبلاده فى فرنسا وأحد المرشحين لرئاسة البلاد، فلسفة إزاحة أو إزالة الهنود قائلاً:

إن مبدأ التقدم والتطور شىء أساسى فى الطبيعة البشرية... فجميعنا يجاهد فى الحياة من أجل اكتساب مكانة أسمى أو نفوذًا أكبر أو لتحقيق ما شابه من الأهداف وهى أشياء طالما حلمنا جميعًا بها، وتشكل هذه الجهود فى إجمالها تقدم المجتمع. بيد أن هؤلاء الهمجيين لا يكادون يعرفون عن هذا الأمر شيئًا.

لقد كان كاس، ذلك المتعجرف التياه، يزعم أنه خبير فيما يتعلق بشئون الهنود، ومن العجائب أن جامعة هارفارد كرمته ومنحته درجة الدكتوراه الفخرية فى القانون عام ١٨٣٦، وكان ذلك فى أوج عملية إزالة الهنود. لكنه أفصح مرة بعد أخرى عن "جهل يثير الاندهاش بحياة الهنود" على حد قول ريتشارد درينون فى كتابه العنف فى التجربة الأمريكية: الفوز بالغرب Violence in the American Experience: Winning the West . فعلى سبيل المثال، وقّع كاس، عندما كان حاكمًا لميتشيجان، اتفاقية مع الهنود أخذ بموجبها ملايين الآكرات وقال: "علينا أن نقوم بشكل متكرر بوضع مصلحتهم فى موضع مضاد لما يتمنون."

كما كان من شأن مقالته فى "نورث أمريكان ريفيو" عام ١٨٣٠ أن تسهل مسألة إزاحة الهنود، إذ قال بأنه "ليس علينا أن نندم على تقدم الحضارة والتطور وانتصار الصناعة والفنون التى عن طريقها صلح حال هذه المناطق التى تشهد انتشار الحرية والدين والعلوم." وتمنى أن يتم كل هذا مقابل "تضحية صغيرة وأن يؤقلم السكان

الأصليون أنفسهم مع ظروفهم الجديدة... بيد أن مثل هذه الأمنية ليست إلا هباء، فالبربر، باعتمادهم على ما يقدمه الطيبون من عون، لا يمكن أن يعيشوا على اتصال بمجتمع متحضر." ويعلق درينون على ذلك فى عام ١٩٦٩ قائلاً: "هذه هى كل الأسباب الضرورية لحرق القرى واقتلاع السكان الأصليين بداية من الشيروكى والسيمينول والشينيين إلى الفليبينيين والفيتناميين."

وفى عام ١٨٢٥ وعد كاس هنود شونى الشيروكى فى مجلس أحد الاتفاقيات بأنه لو انتقل الهنود إلى أراضٍ جديدة عبر الميسيسيبى "فلن تطلب منكم الولايات المتحدة أن تتنازلوا عن أرضكم هناك. أعدكم بذلك باسم أبيكم العظيم – (الرئيس الأمريكى).

وقد عهد الأب العظيم بهذه الأرض الجديدة إلى أصحاب البشرة الحمراء وأطفالهم وأطفال أطفالهم إلى الأبد. وأخبر رئيس تحرير "نورث أمريكان ريفيو" كاس أن مشروعه "يؤجل فقط مصير الهنود، فخلال نصف قرن ستصير أحوال الهنود فيما وراء الميسيسيبى إلى ما هى عليه الآن فى هذا الجانب لأن انقراضهم شيء حتمى." ورغم أن كاس لم يجادل فى ذلك الأمر، كما يقول درينون، فقد نشر مقالته كما هى.

والجدير بالذكر أن كل شيء فى التراث الهندى يدعو إلى عدم التخلى عن الأرض. عندما قدمت الحكومة بعض الأموال لهنود الكريك مقابل تخليهم عن أرضهم، على سبيل المثال، اجتمع كبارهم فى مجلس ووصلوا إلى رأى مفاده: "إننا لا نتسلم أموالاً كى نتنازل عن أرض دفن فيها آباؤنا وأصدقاؤنا." ومن الردود المشابهة رد أحد زعماء هنود شوكتو Choctaw قبل سنوات على الرئيس مونرو الذى كان يتحدث عن مسألة إزالة الهنود؛ حيث قال الزعيم: "يؤسفنى أننى لن أستطيع الانصياع لأوامر أبى (الرئيس الأمريكى).... إننا نود البقاء هنا حيث كبرنا كأعشاب الغابات ولا نتمنى أن نزرع فى أرض أخرى." وكذلك كان رد أحد زعماء هنود السيمينول على جون كوينسى آدامز: "هنا قطعت حبالنا السرية وشربت الأرض الدماء التى نزلت من هذه الأحبال وهو ما يجعل هذه الأرض عزيزة علينا."

ولم يستجب كل الهنود لوصف موظفى الحكومة البيض لهم بوصفهم "أطفالاً" والرئيس الأمريكى بوصفه "أبًا" لهم، فعندما التقى تيكومسيه مع وليم هنرى هاريسون مقاتل الهنود الذى أصبح رئيسًا للبلاد، قال المترجم للزعيم الهندى "يطلب منك أبوك أن تتفضل بالجلوس"، فرد عليه تيكومسيه "أبى! الشمس أبى والأرض أمى، وسوف أستريح على صدرها."

وبمجرد انتخاب جاكسون رئيسًا، بدأت جورجيا وآلاباما وميسيسيبى فى إصدار قوانين تقضى بتوسيع سلطتها على الهنود داخل أراضيهم. وألغت هذه القوانين القبيلة كنظام شرعى، وحرمت الاجتماعات القبلية ونزعت عن الزعماء سلطاتهم، وأجبرت الهنود على دفع الضريبة العسكرية وضرائب الولاية، لكنها أنكرت عليهم الحق فى التصويت ورفع الدعاوى أو الشهادة فى المحكمة، كما قامت حكومات الولايات بتقسيم الأراضى الهندية كى توزعها الولاية بنظام القرعة، وشجعت المستوطنين البيض على الاستقرار فى الأراضى الهندية.

وبالرغم من ذلك، فقد منحت الاتفاقيات والقوانين الفيدرالية الكونجرس وليس الولايات سلطة على قبائل الهنود، وجاء فى قانون التجارة والاتصال الهندى الذى أصدره الكونجرس فى عام ١٨٠٢ أنه لا يحق تخلى الهنود عن أرضهم إلا بموجب اتفاقية مع قبيلة من القبائل وأن القانون الفيدرالى سارٍ فى الأراضى الهندية، غير أن جاكسون تجاهل كل ذلك وأيد الولايات فيما تتخذه من قرارات. وكان ذلك توضيحًا محكمًا لمزايا النظام الفيدرالى؛ فاللوم يوضع على حسب الظروف، فهو يعود مرة على الولايات ومرة على شىء غير محدد كالقانون الذى لا يملك الناس، مهما بلغ تعاطفهم مع الهنود، إلا أن يحنوا له الجباه. وقد شرح وزير الحربية جون إيتون Eaton الأمر لهنود الكريك بآلاباما، وهى بالمناسبة كلمة هندية تعنى بإمكاننا أن نستريح هنا: "ليس أبوكم الأعظم من يفعل ذلك بل قوانين البلاد التى لا يملك هو وكل فرد من أفراد شعبه إلا أن يطيعوها." وبذلك تكشّف الضباب عن الأسلوب الصحيح، فلن "يجبر" الهنود على التحرك غربًا، لكنهم إذا اختاروا البقاء فإن عليهم طاعة قوانين الولاية، وهى التى

قوضت حقوقهم الشخصية والقبلية وجعلتهم عرضة لتحرش لا ينتهى من المستوطنين البيض الذين يقومون بغزوهم والاستيلاء على أراضيهم. أما إذا غادروا أرضهم وتوجهوا غرباً، فسوف تمدهم الحكومة الفيدرالية بالعون المالى وتعدهم بامتلاك أراضٍ جديدة فيما وراء الميسيسيبى. وقد عبرت التعليمات التى أصدرها جاكسون إلى أحد قادة الجيش بشأن الحديث مع هنود الشوكتو والشيروكى عن هذا التكتيك:

قل لأبنائى من هنود الشوكتو الشيروكى أن يصيخوا السمع إلى كلماتى. إن أبنائى البيض فى ميسيسيبى وسعوا نطاق قانونهم كى يشمل كافة أرجاء بلدهم... فأبلغ أبنائى الحمر أينما كانوا بأن أباهم لا يستطيع أن يحول بينهم وبين قوانين ولاية ميسيسيبى... وأن الحكومة العامة سوف تضطر إلى دعم الولايات فى ممارسة حقها. قل للزعماء والمحاربين إننى صديق لهم وإننى أود أن أتصرف كما يليق بصديق، لكن عليهم أن يشعرونى بذلك، وذلك بأن يخرجوا من ولايتى ميسيسيبى وآلاباما وأن يستقروا فى الأرض التى أقدمها لهم. وهناك، وخارج حدود أى ولاية، سوف يملكون أرضًا وسوف تبقى هذه الأرض لهم طالما نما عشب أو جرى ماء، ولسوف أحميهم وأكون لهم صديقًا وأبًا.

وسوف تتذكر أجيال عديدة من الهنود هذه العبارة "طالما نما عشب أوجرى ماء" بمرارة شديدة. فعلى سبيل المثال كرر أحد الجنود الهنود، الذين شاركوا فى حرب فيتنام وهو يقدم شهادته على الملأ فى عام ١٩٧٠ ليس عن رعب الحرب ولكن عن سوء المعاملة التى كان يلقاها بوصفه من الهنود، كرر هذا الجندى تلك العبارة ثم بدأ فى البكاء.

وعندما تولى جاكسون الرئاسة فى عام ١٨٢٩ ، اكتُشف الذهب فى أرض الشيروكى بجورجيا، فقام آلاف البيض بغزو هذه المنطقة وحطموا ممتلكات الهنود

ودقوا أوتاداً زعموا أنها تعين حدود أرضهم. وأمر جاكسون القوات الفيدرالية بإزاحة المستوطنين، لكنه أمر الهنود والبيض على السواء بالتوقف عن استخراج الذهب من المناجم، ثم أزاح القوات وسمح بعودة البيض وقال إنه لا يستطيع التدخل فى سلطة ولاية جورجيا، واستولى الغزاة البيض على الأرض والمخازن وأجبروا الهنود على توقيع عقود لهم، وضربوا من اعترض على ذلك، وباعوا الخمور للهنود كى يوهنوا مقاومتهم، وقتلوا الطيور والحيوانات التى كان الهنود يعتمدون عليها كطعام لهم. بيد أن وضع اللوم كله على العامة من البيض، كما يقول روجين، يعد تجاهلاً لأمر مهم هو "الأدوار الأساسية التى انتهجتها الحكومة." لقد أدى نقص الطعام وتعاطى الخمور والهجمات العسكرية إلى عملية تفكك قَبلَى، وتزايد عنف الهنود بعضهم ضد بعض. كما أسفرت المعاهدات التى وُقعت تحت الضغط والخداع عن تفتت أراضى هنود الكريك والشيكاسو والشوكتو إلى أملاك فردية صغيرة، وصار كل فرد فريسة للمقاولين والمضاربين على الأرض والساسة، وباع هنود الشيكاسو أرضهم بشكل فردى وبأسعار معقولة واتجهوا غرباً دون معاناة تُذكر، وبقى هنود الكريك والشوكتو على خططهم الفردية لكن أعداداً كبيرة منهم وقعت تحت خداع شركات الأراضى وغشها. وأصبحت "السرقة"هى شعار اليوم ونظامه، وفقًا لما قاله رئيس بنك فى جورجيا كان يملك أسهمًا فى إحدى شركات الأراضى.

وأرسل الهنود شكاواهم إلى واشنطن، وجاءهم رد لويس كاس:

> **ليس للحكومة أى تدخل على الإطلاق، فالذى حدث هو أن مواطنينا أرادوا الشراء وأراد الهنود البيع، وليس للحكومة سلطان على رغبة البيع والشراء أو على ما تم دفعه من أموال... والقوانين لا تستطيع أن تتحكم فى عادات الإسراف والتبذير لدى الهنود، فإذا أضاع الهنود أموالهم، كما هى الحال غالبًا، فإن ذلك لمما يؤسف له، لكنه فى الوقت نفسه حقهم الذى منحتهم إياه المعاهدات.**

ولما سلبت الأرض من هنود الكريك وشحت أموالهم ونقص طعامهم، رفضوا التحرك غرباً، ونتيجة للجوع الذى عانوه، بدأوا يشنون غارات على مزارع البيض، بينما هاجمت قوات جورجيا والمستوطنون البيض مستوطنات الهنود، وبذلك بدأت حرب الكريك الثانية، وكتبت إحدى صحف آلاباما، وكانت متعاطفة مع الهنود، قائلة: "إن الحرب ضد الهنود الكريك لا أساس لها، إنها نظام وضيع وشيطانى ابتدعه أصحاب المصالح للحيلولة دون حصول جنس جاهل على حقوقه العادلة ولمنع أفراده من البقية الباقية من الأرض التى تحت سيطرتهم." ورد أحد شيوخ الكريك، وكان يبلغ من العمر أكثر من مائة عام ويدعى "الثعبان المنقط"، على سياسة آندرو جاكسون الخاصة بإزالة الهنود قائلاً:

> **إخوتى! لقد استمعت إلى أحاديث كثيرة لأبينا الأبيض العظيم. عندما جاء عبر البحار الواسعة، كان رجلاً قليل الجسم... كانت قدماه متشنجتين لطول جلسته فى قاربه الكبير، فتوسل إلى الهنود كى يعطونه قطعة أرض صغيرة يوقد عليها ناره... لكنه عندما سرى الدفء المنبعث من نار الهنود فى أوصاله وامتلأ جوفه بطعامهم، صار كبير الحجم. وبخطوة واحدة أحاط برجليه الجبال وغطت قدماه السهول والوديان، أما يداه فقد أحاطتا بالبحار الشرقية والغربية، واستراح رأسه على القمر. ثم أصبح هو نفسه أبانا العظيم. أحب أبناءه الحمر وقال لهم: "ابعدوا قليلاً! إنى أخشى أن تدهسكم قدماى." يا إخوتى! لقد استمعت إلى أحاديث كثيرة من أبينا العظيم، لكنها دائمًا كانت تبدأ وتنتهى بهذه العبارة: "ابعدوا عنى قليلاً."**

وفى كتابه المحرومون من الميراث The Disinherited، يلخص ديل فان إيفرى Dale Van Every ما الذى كانت تعنيه كلمة إزالة للهندى:

فى سجل الإنسان الحافل بالإنسانية، استنزف المنفى صرخات الألم من شعوب كثيرة، بيد أنه لم ينزل بوطأة أكثر شدة من التى نزل بها على رؤوس الهنود الشرقيين. كان الهندى، على وجه الخصوص، شديد الحساسية والتأثر بكل العناصر الطبيعية فى بيئته؛ فقد كان يعيش فى العراء، وعرف كل المستنقعات والتلال والنهيرات والصخور والينابيع كما يعرفها الصياد. لم يعرف مبدأ الملكية الخاصة للأرض وكان يرى أن الأرض كالهواء لا تباع ولا تشترى، وأحب الأرض بعاطفة قوية دونها عاطفة من يملكها. كان يشعر أنه جزء منها كالصخور والأشجار والحيوانات والطيور. كانت الأرض مقدسة لديه؛ ينظر إليها بوصفها المكان الذى تستريح فيه عظام أجداده وهى أيضًا مهبط ديانته. كان يؤمن أن الشلالات والتلال والغمام والضباب والوديان الصغيرة والمروج هى مسكن الأرواح التى يجمعها به لقاء يومى. إن أرض هذه الغابات التى تغسلها الأمطار وأنهارها وبحيراتها التى تربطه بها عادات آبائه وأجداده وتجلياته الروحية، هى الأرض التى كان على الهندى أن يهجرها إلى أرض معزولة فى غرب البلاد لا شجر فيها ويُعرِّفها الجميع بأنها الصحراء الأمريكية الكبرى.

ويذكر فان إيفرى فى كتابه أنه فى عشرينيات القرن التاسع عشر، قبل أن يتولى جاكسون رئاسة الولايات المتحدة، كان الهنود الجنوبيون والبيض، قد استقر بهم العيش فى أعقاب حرب الكريك، وتوثقت العلاقة فيما بينهم، وكانوا يعيشون فى سلام فى بيئة بدت أن بها ما يكفى الجميع. وبدأ الطرفان فى مواجهة مشاكلهم العامة وتطورت الصداقة فيما بينهما وأصبح شيئًا طبيعيًا أن يزور بعضهم بعضاً. وفى هذا

المناخ، خرج ديفى كروكيت Davy Crockett وسام هيوستن Houstonاللذان أصبحا أصدقاء للهنود مدى الحياة، ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لجاكسون. ويؤكد فان إيفرى أن القوى التى أدت إلى إزالة الهنود لم تأت من الفقراء البيض الذين كانوا جيراناً للهنود، ولكنها أتت من التصنيع والتجارة والزيادة السكانية وزيادة مد الطرق الحديدية والمدن، كما أتت من ارتفاع قيمة الأرض وجشع رجال الأعمال، ويقول: "استغل مديرو الأحزاب والمضاربون على الأراضى الإثارة المتنامية... وألهبت الصحافة والمنابر حدة الاهتياج." ومن نوبة الاهتياج هذه، لم يبق أمام الهنود سوى أحد أمرين؛ الموت أو النفى، ونتيجة لهذه النوبة، زاد المضاربون على الأرض غنىً والسياسيون قوة ونفوذاً. أما فقراء البيض المستوطنون على الجبهة، فقاموا بدور الرهائن، يدفع بهم فى المواجهات العنيفة ثم يتم الاستغناء عنهم. بعد ذلك قام هنود الشيروكى بثلاث موجات من الهجرة غرباً دونما ضغط من الحكومة الأمريكية، انتهت بهم إلى منطقة أركانسو ذات الغابات الجميلة، لكنهم وجدوا أنفسهم بعد قليل محاطين ومخترقين من كل ناحية تقريباً من المستوطنين البيض والصيادين. وكان على هؤلاء الهنود التحرك ناحية الغرب مرة أخرى ولكن هذه المرة إلى أرض جرداء لا تمثل مطمعاً للمستوطنين البيض. وهنالك وقعت الحكومة الفيدرالية معاهدة مع هؤلاء الهنود فى عام ١٨٢٨ تقول بأن هذه الأرض "وطن دائم... للهنود وسوف يظل كذلك إلى الأبد وهذا عهد تضمنه حكومة الولايات المتحدة." بيد أن ذلك أيضاً لم يكن إلا كذبة جديدة للحكومة، وأصبح مصير هنود الشيروكى الغربيين معروفاً لثلاثة أرباع أبناء قبيلتهم الذين كانوا لا يزالون فى الشرق، وهو مصير يتمثل فى ضغط الرجل الأبيض عليهم بالتحرك غرباً.

ولما وجد هنود الشيروكى فى جورجيا وآلاباما وتينيسى أنهم ١٧ ألفا يحوطهم ٩٠٠ ألفٍ من البيض، قرروا أن بقاءهم يتطلب التأقلم مع عالم الرجل الأبيض، ومن ثم أصبحوا يعملون بالفلاحة والحدادة والنجارة والبناء كما أصبحوا أصحاب أملاك.

وحسب إحصاء أُجرى فى عام ١٨٢٦، كان هناك ٢٢ ألفًا من الماشية وسبعة آلاف وستمائة من الخيل و٤٦ ألفا من الخنازير و٧٢٦ نولاً وألفان وثمانية وأربعين مغزلاً و١٧٢ عربة وثلاثة آلاف محراثًا وعشرة ماكينات لنشر الخشب وإحدى وثلاثون طاحونة و٦٢ محلاً للحدادة وثمانية ماكينات لحلج القطن وثمانى عشرة مدرسة.

وكانت لغة الشيروكى دائمًا تعتمد على الصوت والإيماء وتتصف بالشعرية الخالصة وتتوسل بالمجاز وجمال التعبير، وفى ظل الظروف التى جدت عليهم، اخترع زعيمهم سيكويا Sequoyah لغة مكتوبة وبدأ هنود القبيلة فى تعلمها، وصوّت المجلس التشريعى المستحدث لصالح إنشاء دار للطباعة حيث بدأت فى الحادى والعشرين من شهر فبراير ١٨٢٨ فى إصدار صحيفة باللغة الإنجليزية واللغة الشيروكية وأطلق عليها اسم "شيروكى فينكس" (Cherokee Phoenix عنقاء الشيروكى).

وقبل ذلك الوقت، لم يكن هنود الشيروكى، مثلهم مثل بقية الهنود بصفة عامة، فى حاجة إلى وجود حكومة رسمية. يقول فان إيفرى:

> **كان المبدأ الأساسى لطريقة الحكم الهندية هو رفض الحكومة، إذ كانت حرية الفرد، خاصة بين الهنود فى شمال المكسيك، لا نهائية وتعتبر فى نظر الجميع أكثر أهمية من واجب الفرد نحو جماعته أو أمته، وكانت هذه النظرة الفوضوية الرافضة للحكومة تحكم كل أشكال السلوك بداية من أصغر وحدة اجتماعية وهى الأسرة، ولم يكن رب الأسرة يميل إلى تربية أطفاله وفق طريقة محددة؛ إذ كان كل ما يفعله الأطفال انطلاقًا من تعبيرهم عن إرادتهم ونواتهم الخاصة مقبولاً بوصفه إشارة إيجابية على تطور الشخصية ونضجها... .**

وكان شكل الحكومة بالنسبة للهنود يتمثل فى عقد لقاء من حين إلى آخر، على شكل مجلس ذى عضوية غير محددة بل وغير ثابتة، ولم تكن قرارات هذا المجلس

تطبق إلا عن طريق تأثير الرأى العام. وقد وصف كاهن من مورافيا، عاش بين الهنود، مجتمعهم قائلاً:

> **حافظ الهنود عبر الأزمان، ودون تبرم أو اضطراب، على شكل حكومتهم التقليدية، وهى حكومة ربما لا يوجد لها مثيل فى العالم. ليس لهذه الحكومة قوانين محددة بل تعتمد على عادات وتقاليد تضرب بجذورها فى المجتمع، وليس لهذه الحكومة قوانين تشريعية بل خبرة التجارب السابقة. ليس ثمة قضاة بل ناصحون يطيعهم الناس طواعية. وفى هذا المجتمع يحدد السن مكانة الفرد، وتمنحه الحكمة قوة وسلطانًا، ويضمن له حسن أخلاقه احترام الجميع.**

غير أن كل ذلك بدأ يتغير بعد أن أصبح الهنود محاطين بالمستوطنين البيض ومجتمعهم؛ حيث بدأ الهنود فى تقليد المجتمع الأبيض، بل أصبح كثير منهم يقتنون العبيد، وبدأوا يتشبهون بالحضارة التى عبر عنها المجتمع الأبيض وبذلوا ما أسماه فان إيفرى "جهوداً مذهلة" لكسب مودة الأمريكيين. والأكثر من ذلك أنهم رحبوا بالمسيحية والمبشرين بها، بيد أن أرض الهنود، لا الهنود أنفسهم، هى التى كانت تروق فى عين الأمريكيين. ولقد أعلن جاكسون موقفه بوضوح فى رسالته إلى الكونجرس فى عام ١٨٢٩، حيث قال: "لقد أبلغت الهنود الذين يعيشون فى أجزاء من جورجيا وآلاباما أن محاولتهم لإقامة حكومة مستقلة لن تحظى بتأييد الولايات المتحدة، ونصحتهم بالهجرة إلى ما وراء الميسيسيبى أو بالانصياع لقوانين هذه الولايات." وانتقل الكونجرس سريعًا إلى إصدار مشروع قانون إزاحة الهنود من هذه المناطق.

وكان ثمة بعض المدافعين عن حقوق الهنود، ولعل أفصحهم هو السيناتور تيودور فريلنجهايزن Frelinghuysen من نيو جيرسى الذى عارض قانون الإزاحة وقال مخاطباً مجلس الشيوخ:

لقد كومنا القبائل بعضها فوق بعض داخل عدة مناطق بائسة من جبهتنا الجنوبية، وهذا هو كل ما بقى لهم من أرضهم التى كانت يومًا بغير حدود، ولا يزال جشعنا الذى لا يشبع يصرخ: المزيد! المزيد!... يا سيدى... هل تتغير موازين العدل وفقًا للون البشرة؟

وكان الشمال بصفة عامة معارضًا لقانون الإزاحة، أما الجنوب فكان مؤيدًا لها، وأُجيز القانون فى مجلس النواب بنسبة ١٠٢ إلى ٩٧، بينما أُجيز بفارق ضئيل جداً من مجلس الشيوخ. ولم يأت ذكر لاستخدام القوة فى تنفيذ ذلك القانون، لكن القانون نص على مساعدة الهنود على الانتقال، وألمح إلى ترك الهنود دون حماية تحت رحمة قوانين الولايات وبغير أية مساعدات مالية فى حالة عدم انتقالهم. وبدأت الضغوط تتوالى على القبائل واحدة تلو الأخرى. فهنود الشوكتو، على سبيل المثال، لم تكن لديهم رغبة فى الانتقال، لكن خمسين فرداً من ممثليهم تلقوا رشاوى سرية من الحكومة ووقعوا معها معاهدة "الأرنب الراقص" التى قضت بأن يتخلى الشوكتو للولايات المتحدة عن أرضهم الواقعة شرق الميسيسيبى مقابل المساعدة المالية فى الانتقال والتعويض عن الممتلكات التى خلفها المنتقلون والطعام أثناء العام الأول فى موطنهم الجديد وضمان بألا تطالبهم الحكومة بالانتقال مرة أخرى. ورغم أن هذه المعاهدة لم تكن موضع قبول لغالبية الشوكتو البالغ عددهم عشرين ألفًا فى ولاية ميسيسيبى، فقد كان من الصعب مقاومة الضغوط الواقعة عليهم. وبدأ البيض، بما فيهم تجار الخمور والمهربون، يندفعون أسرابًا إلى الأرض التى تخلى عنها الهنود، وأصدرت الولاية قراراً بتجريم أية محاولة للشوكتو بإقناع بعضهم البعض برفض قرار الإزاحة.

وفى أواخر عام ١٨٣١ بدأ ثلاثة عشر ألفًا من هنود الشوكتو الرحلة الطويلة غربًا إلى أرض ومناخ غير الذى عرفوه وألفوه طول حياتهم. يقول فان إيفرى: "كانوا يسيرون، تحت أعين الحراس والمقاولين، إلى وجهة مجهولة نائية، وكأنهم قطيع من

الغنم أصابه المرض." كانت رحلتهم على عربات تجرها الثيران أو على ظهور الخيل أو سيراً على الأقدام إلى نهر الميسيسيبى حيث يعبرونه إلى موطنهم الجديد. وكان من المفترض أن يتولى الجيش ترتيب الرحلة والإشراف عليها، لكنه تنازل عن ذلك إلى المقاولين الذين أخذوا من الحكومة قدر ما يستطيعون من أموال وضنوا على الهنود قدر ما يستطيعون أيضًا. وأصابت الفوضى كل شئ؛ فغاب الطعام وظهر الجوع. يقول فان إيفرى:

سارت طوابير العربات التى تجرها الثيران مصدرة أنينًا، بينما كان المترجلون من الهنود يسوقون أمامهم القطعان، والكل يتجهون نحو الغرب يخوضون الأنهار والغابات ويرتقون التلال فى كفاحهم الزاحف من أرضهم المورقة الغنية إلى أرض الغرب القاحلة. وفيما يشبه إحدى نوبات الموت، كانت إحدى البقايا لعالم الهنود الأصلى يتم تمزيقها وتتجمع بقاياها أو أشلاؤها فى عالم جديد غريب.

وكان أول شتاء للهجرة واحداً من أقسى الفصول على مدار سنوات، وبدأ الناس يموتون بسبب الالتهاب الرئوى، وفى الصيف ضرب ولاية ميسيسيبى وباء الكوليرا ومات مئات من هنود الشوكتو. ورفض السبعة آلاف الباقون من الشوكتو أن يغادروا الولاية، مفضلين الموت على الاستبعاد. ولايزال كثير منهم يعيشون فى ولاية ميسيسيبى حتى اليوم.

أما فيما يتعلق بهنود الشيروكى فقد واجهوا عدداً من القوانين أصدرتها ولاية جورجيا؛ حيث صودرت أرضهم وألغيت حكومتهم وحظرت اجتماعاتهم وسجن مَنْ ينصح الآخرين بعدم الهجرة ومنعوا من الشهادة فى المحاكم ضد البيض ومنعوا من البحث عن الذهب الذى اكتشف حديثًا فى أرضهم. ولما قدم وفد منهم احتجاجًا إلى الحكومة الفيدرالية، جاءهم رد من إيتون Eaton وزير الحربية الذى عينه جاكسون حديثًا يقول: "اذهبوا إلى حيث تغرب الشمس؛ فهناك سوف تنعمون بالسعادة والسلام

والهدوء ما جرت مياه ونما شجر. هناك ستضمنون ذلك المكان لأنفسكم ولن يسمح لأبيض بالاستيطان قريبًا منكم."

ووجه هنود الشيروكي حديثًا لا ينسى إلى الأمة، كان عبارة عن مطالبة بالعدل تستعرض تاريخهم:

> **بعد معاهدة السلام في ١٧٨٣ ، كان هنود الشيروكي يمثلون شعبًا مستقلاً كل الاستقلال كأي شعب آخر على وجه الأرض؛ فقد كانوا حلفاء لبريطانيا العظمى.... لم تستعبدهم الولايات المتحدة، بل على العكس؛ فقد ظل آباؤنا مالكين لأرضهم وأسلحتهم .... وفي عام ١٧٩١ وُقعت معاهدة هولستون... وأقر هنود الشيروكي أنهم في حماية الولايات المتحدة وأنهم لا يخضعون لأية سيادة أخرى... وتخلوا عن كثير من أرضهم لها. وفي المقابل... تعهدت الولايات المتحدة بعدم قيام البيض بالصيد فوق هذه الأراضي أو حتى السماح لهم بدخول البلاد دون جواز سفر، كما تعهدت بألا تطالب هنود الشيروكي بما تحت أيديهم من أراضٍ... .**

وناقش الحديث موضوع الإزاحة:

> **نعلم أن البعض يفترض أنه من مصلحتنا أن ننتقل إلى ما وراء نهر الميسيسيبي، ولكنا نؤمن بعكس ذلك وجميع شعبنا في كل مكان يؤمن بعكس ذلك... إننا نود البقاء على أرض آبائنا، ولنا كل الحق في البقاء دون تدخل من أحد. إن كافة المعاهدات التي وقعتها معنا الولايات المتحدة وقوانين الولايات المتحدة تضمن بقاءنا والتمتع بامتيازاتنا وحمايتنا ممن يتدخلون في شئوننا. إن مطلبنا الوحيد هو الالتزام بهذه المعاهدات وتنفيذ تلك القوانين... .**

ثم انتقل الخطاب إلى ما هو أكثر من التاريخ والقانون:

إننا نناشد من وجهت إليهم الفقرات السابقة أن يتذكروا القانون العظيم للمحبة. "عامل الآخرين بمثل ما تحب أن يعاملك به الآخرون." ...إننا نتوسل إليهم أن يتذكروا أن آباءهم أجبروا على مغادرة العالم القديم وأن رياح الاضطهاد ألقت بهم، عبر البحار العظمى، إلى شواطئ العالم الجديد الذى كان الهندى سيده ومالكه – فليتذكروا كيف استقبلهم الهمجي الذى كان سيد هذا العالم الجديد عندما كان يملك من القوة والضراوة ما لا يصده سلاح بشرى. ليضع هؤلاء فى اعتبارهم أن الذين لا يطلبون منهم كوبًا من الماء البارد أو قطعة أرض... هم أحفاد الأوائل الذين لا يكفى أصلهم، كسكان لشمال أمريكا، ولا تاريخهم ولا تراثهم لكشف الحقيقة. ولتكن هذه الحقائق فى ذاكرتهم، ونحن على يقين أنهم يتذكرونها جيدًا، وليتعاطفوا معنا فى محننا ومعاناتنا.

فى رسالته السنوية الثانية إلى الكونجرس فى ديسمبر ١٨٣٠، أشار جاكسون فى رده على ذلك إلى أن هنود الشوكتو والشيكاسو وافقوا بالفعل على مسألة الإزاحة والانتقال وأن "سرعة انتقال" من بقوا ستعود على الجميع بمزايا كثيرة؛ إذ أنها، بالنسبة للبيض، "ستجلب زيادة سكانية كثيفة ومتحضرة فى بقاع كثيرة من الأراضى التى تشغلها الآن قلة من الصيادين الهمج." وبالنسبة للهنود، "فسوف تؤدى بهم هذه العملية، بالتدريج وتحت حماية الحكومة ونفوذ المساعى، إلى التخلى عن عاداتهم الهمجية بحيث يصبحون مجتمعًا مسيحيًا متحضرًا." ثم كرر كلامه المعتاد: "لا أحد يحمل من المشاعر الودية تجاه السكان الأصليين للبلاد مثلى ...." ورغم هذا الكلام، يضيف جاكسون "إن موجات السكان والمدنية تتدفق صوب الغرب ونحن نقترح الآن ضم المناطق التى يشغلها هنود الجنوب والغرب من خلال مقايضة عادلة... ."

وأصدرت جورجيا قانونًا يُجرم بقاء أى شخص من البيض فى المناطق الهندية دون أداء قسم الولاء للولاية، ولما أعلن المبشرون البيض عن تعاطفهم مع هنود الشيروكى وطالبوهم بالبقاء، دخلت قوات جورجيا المنطقة فى ربيع ١٨٣١ وألقت القبض على ثلاثة من المبشرين كان من بينهم صامويل ووستر، وأُفرج عنهم لما طلبوا الحماية بوصفهم موظفين فيدراليين (كان ووستر مديراً لأحد مكاتب البريد الفيدرالية). وفى أعقاب ذلك قررت إدارة جاكسون فصل ووستر من وظيفته، ودخلت القوات العسكرية مرة أخرى فى ذلك الصيف وألقت القبض على عشرة مبشرين بالإضافة إلى مالك المطبعة الأبيض الذى يصدر جريدة "شيروكى فينكس"، حيث تعرضوا للضرب وأجبروا على السير مقيدين مسافة ٣٥ ميلاً حتى بلغوا سجن المقاطعة. وتمت محاكمتهم، وأُفرج عن تسعة منهم عندما وافقوا على القسم بالانصياع لقوانين جورجيا. أما صامويل ووستر وإليزور باتلر Elizur Butler اللذان رفضا الإقرار بشرعية القوانين القامعة لهنود الشيروكى، فصدر ضدهما حكم بالأشغال الشاقة لمدة أربع سنوات.

ولدى استئناف الحكم أمام المحكمة الدستورية العليا أعلن جون مارشال، ممثل الأغلبية، أن قانون جورجيا، الذى سُجن ووستر بسببه ، ينتهك المعاهدة الموقعة مع هنود الشيروكى وهى المعاهدة المُلزمة لكل الولايات، وقضت المحكمة بإطلاق سراح ووستر، غير أن ولاية جورجيا تجاهلت القرار ورفض جاكسون تطبيق قرار المحكمة. وعرضت جورجيا أراضى الشيروكى للبيع وحركت قواتها لقمع أية مقاومة، واتبع هنود الشيروكى سياسة اللاعنف رغم مصادرة أرضهم وحرق منازلهم وإغلاق مدارسهم وسوء معاملة نسائهم وبيع الخمور فى كنائسهم بهدف النيل من همتهم.

وفى نفس العام الذى أعلن فيه جاكسون حق ولاية جورجيا على هنود الشيروكى، هاجم كارولاينا الجنوبية لأنها مارست حقها بإلغاء إحدى التعريفات الفيدرالية. وكانت إعادة انتخاب جاكسون فى ١٨٣٢ إشارة إلى أن سياسته

المناهضة للهنود كانت موضع تأييد من الإرادة الشعبية، أو على الأقل من الذكور البيض الذين يملكون حق التصويت (يبلغ عددهم مليونين من بين ثلاثة عشر مليونًا). وتحرك جاكسون من أجل التعجيل بإزاحة الهنود، وغادر معظم هنود الشوكتو وبعض الشيروكى أراضيهم واتجهوا غربًا، غير أن هنودًا آخرين آثروا البقاء؛ فبقى اثنان وعشرون ألفًا من الكريك فى آلاباما وثمانية عشر ألفًا من الشيروكى فى جورجيا وخمسة آلاف من السيمينول فى فلوريدا.

وقد حارب هنود الكريك دفاعًا عن أرضهم منذ أن وطأت قدما كولومبس أرضهم؛ أى أنهم حاربوا الأسبان والإنجليز والفرنسيين والأمريكيين. لكن بحلول عام ١٨٣٢ كانوا قد أصبحوا عددًا قليلاً يعيشون فى مساحة صغيرة فى آلاباما، بينما كان عدد سكان آلاباما المتزايد قد أصبح ٣٠٠ ألف. وعلى أساس الوعود المسرفة من الحكومة الفيدرالية، وقعت وفود الكريك معاهدة واشنطن التى وافقوا فيها على التحرك إلى ما وراء نهر الميسيسيبى؛ وبذلك تنازلوا عن خمسة ملايين آكر على أن تظل مساحة مليونى آكر تحت أيدى أفراد الكريك الذين يملكون إما بيعها أو البقاء فى آلاباما تحت الحماية الفيدرالية. يقول فان إيفرى عن هذه المعاهدة:

> **لم يسجل تاريخ العلاقات الدبلوماسية بين الهنود وذوى البشرة البيضاء حالة واحدة لمعاهدة التزم بها أصحاب البشرة البيضاء حتى عام ١٨٣٢.. مهما زينت هذه المعاهدة كلمات من قبيل "دائمة" و "أبدية" و "طوال الزمان" و "طالما أشرقت شمس." ...بيد أنه لم يتم نقض معاهدة بالسرعة التى حدثت مع معاهدة واشنطن ١٨٣٢، إذ تكسرت فى خلال أيام الوعود التى أخذتها الولايات المتحدة على عاتقها.**

وبدأ غزو البيض لأراضى الكريك، وراح النهابون والسفاحون وقطاع الطرق والباحثون عن الأرض وبائعو الخمور يطاردون الهنود من بيوتهم إلى المستنقعات والغابات. ولم تحرك الحكومة الفيدرالية ساكنًا بل بدأت فى التفاوض من أجل توقيع

معاهدة جديدة تنص على الهجرة فوراً إلى الغرب بحيث يتولى الكريك أنفسهم تدبيرها على أن تتحمل الحكومة تكاليفها. وكتب أحد قادة الجيش، وكان متشككًا فى جدوى هذه الطريقة، قائلاً:

> **إنهم يخشون الموت جوعًا فى الطريق، والأكثر من ذلك أن كثيرين منهم أوشك الآن على الموت جوعًا قبل تجشم عناء الرحلة الطويلة... إنكم لا تعرفون مدى التدهور الذى عاناه الهنود خلال العامين أو الأعوام الثلاثة الأخيرة؛ فبعد أن كانوا يعيشون فى وفرة نسبية أصبحوا الآن فى حالة من البؤس والحاجة. إن انقضاض البيض عليهم واغتصاب أرضهم حتى الحقول المزروعة منها، وإلحاق الإهانات بهم وانقضاض التجار وبائعى الخمور عليهم انقضاض الجراد، كل ذلك ذهب برغبة الهنود فى زراعة أرضهم... . إنهم الآن مقهورون ومكسورو الهامة، يقتلهم الإحساس بأن الحكومة الأمريكية لا تقدم لهم حماية كافية، كما أنهم غير قادرين على حماية أنفسهم.**

وبدا أن حماس السياسيين فى الشمال مع الهنود قد تبخّر نتيجة انشغالهم بقضايا أخرى. فقد كان دانيل ويبستر يلقى حديثًا عاصفًا أمام مجلس الشيوخ عن "سلطة القانون... . وقوة الحكومة العامة"، لكنه لم يُشر إلى آلاباما وجورجيا والهنود، إذ كان يتحدث عن إلغاء كارولاينا الجنوبية لتعريفة ما. وبالرغم من كل المصاعب، رفض هنود الكريك أن يتزحزحوا، لكن بحلول عام ١٨٣٦، قررت كل من الولاية والمسئولون الفيدراليون أن على الكريك أن يرحلوا، ومن ثم لجأت الحكومة إلى ما ارتكبه بعض الكريك اليائسين من هجمات على المستوطنين البيض واستعملته كذريعة، وأعلنت أن الكريك، بإعلانهم "الحرب"، ضيعوا حقوقهم فى المعاهدة التى وقعوا عليها. وبدأ الجيش فى إجبار الكريك على الهجرة غربًا. ولم يشارك فى "الحرب" سوى أقل من مائة، بينما هرب حوالى ألف كريكى إلى الغابات خوفًا من

انتـقام البيض، لكن جيشاً قوامه أحد عشر ألفاً من الجنود أُرسل فى أثرهم، فلم يكن أمام الكريك سوى الاستسلام. وجمع الجيش من ظن أنهم متمردون أو متعاطفون ووضع السلاسل فى أقدامهم وأجبرهم على السير غرباً تحت الحراسة العسكرية تتبعهم نساؤهم والأطفال، وأخذ الجيش يشن حملات على المجتمعات الكريكية لدفع الهنود إلى مراكز للتجمع تمهيداً لإجبارهم على الهجرة غرباً فى جماعات تضم ألفين أو ثلاثة آلاف. ولم يكن ثمة أى حديث عن تعويض هؤلاء عن الأرض أو الممتلكات التى خلفوها وراءهم.

وتم توقيـع عقود خاصة بشأن مسيرة الكريك، وهى مثل نفس العقود التى فشلت بالنسبة لهنود الشوكتو، ومرة أخرى كان هناك نقص فى الطعام والمأوى والأغطية والخدمة الطبية، ومرة أخرى كانت هناك المراكب المتهالكة والعبّارات المتعثرة المزدحمة فوق طاقتها وهى تنقلهم عبر الميسيسيبى، وتسبب المرض والجوع فى موت أعداد كبيرة. يقول فان إيفرى: "كان من السهل معرفة مرور المنفيين من الهنود من مسافة بعيدة وذلك بسماع عواء قطعان الذئاب وحومان أسراب الصقور."

وتطوع ثمانمائة من الكريك بمساعدة جيش الولايات المتحدة فى حربها ضد هنود السيمينول فى فلوريدا مقابل وعد بأن تبقى أسرهم فى آلاباما تحت حماية الحكومة الفيدرالية حتى يعود الرجال من الحرب، بيد أن الحكومة حنثت بوعدها وتعرضت الأسر الكريكية لهجمات من اللصوص البيض المتعطشين للاستحواذ على الأرض حيث أقدموا على نهب البيوت واغتصاب النساء. ثم قام الجيش، تحت زعم حماية هؤلاء، بنقلهم إلى معسكر اعتقال فى موبيل باى، حيث مات مئات منهم نتيجة المرض ونقص الطعام.

فلما عاد المحاربون من حرب السيمينول، طوردوا وأسرهم صوب الغرب، وعند مرورهم بنيو أورلينز ضربهم وباء الحمى الصفراء، وعبروا نهر الميسيسيبى مكدسين على ظهر السفينة المتهالكة مون ماوث، فلم تتحمل السفينة وغاصت بهم فى النهر،

ومن بين ٦١١، غرق ٣١١ كان من بينهم الأبناء الأربعة لقائد المتطوعين الكريك الذين حاربوا فى فلوريدا. وكتبت إحدى صحف نيو أورلينز تقول:

> **تقع المسئولية الكبرى لهذه المأساة البشرية على عاتق المتعهدين.... لقد دفعهم جشعهم الكريه لزيادة الأرباح إلى الاعتماد على مراكب قديمة متهالكة لا يمكن الاعتماد عليها، وذلك لأن هذه المراكب من فئة لا تكلف كثيرًا فى استئجارها، هذا من ناحية، ومن أجل أن تزيد الأرباح أكثر وأكثر، كدس المتعهدون الهنود على هذه المراكب الجنوبية وبأعداد كبيرة جدًا دون أدنى مراعاة لأمنهم أو راحتهم أو حتى آدميتهم.**

وكان هنود الشوكتو والشيكاسو قد وافقوا سريعًا على الهجرة غربًا، بينما كان هنود الكريك عنيدين لا يقبلون بذلك طواعية، وكان هنود الشيروكى يمارسون المقاومة السلمية. وقررت إحدى القبائل، وهى قبيلة السيمينول، أن تحارب فى سبيل البقاء. ولما كانت فلوريدا قد أصبحت تتبع الولايات المتحدة، فقد باتت منطقة السيمينول مفتوحة أمام لصوص الأرض الأمريكيين الذين تحركوا إلى شمال فلوريدا بمحاذاة الشريط الساحلى الخصب. وفى عام ١٨٢٣ وقع عدد من السيمينول معاهدة "كامب مولترى" ووافقوا على أن يغادر هنود السيمينول شمال فلوريدا وأية منطقة ساحلية وأن ينسحبوا إلى الداخل، وكان هذا يعنى الانسحاب إلى مستنقعات وسط فلوريدا، حيث لا يستطيع الهنود زراعة ما يأكلون وحيث لا تستطيع حيوانات وطيور الصيد الحياة.

وتصاعد الضغط على الهنود للخروج من فلوريدا باتجاه الغرب، وفى عام ١٨٣٤ اجتمع قادة السيمينول وأخبرهم ممثل الحكومة الأمريكية أن عليهم أن يغادروا فلوريدا، وكان من بين ما رد به القادة:

لقد سوانا جميعًا خالقُ واحد، وجميعنا أطفاله، وولدتنا جميعًا نفس الأم وأرضعنا من نفس الثدى. ومن ثم فكلنا، كأخوة، يجب أن يعامل بعضنا بعضًا بكل محبة. حديثك حسن، لكن أهلنا لا يستطيعون القول بأنهم سيغادرون أرضهم. إننا لا نرغب فى ذلك. ولو نطقت ألسنة أهلنا بالموافقة، لصرخت قلوبهم بالرفض واتهمتهم بالكذب. ولو قمنا فجأة بقطع قلوبنا من البيوت الموصولة بها، لتقطعت حبالها.

إلا إن ممثل الحكومة الأمريكية تمكن من إقناع خمسة عشر من زعماء السيمينول بتوقيع معاهدة تقضى بخروجهم من فلوريدا، وصدّق مجلس الشيوخ عليها من فوره، وبدأت وزارة الحربية فى الإعداد لهجرة الهنود، وانفجر العنف بين البيض والهنود.

وأصبح أوسيولا Oseola، أحد الزعماء الشبان لهنود السيمينول الذى سبق أن سُجن ووضعه ممثل الحكومة طومسون فى القيود وبيعت زوجته فى سوق الرقيق، قائداً للمقاومة المتزايدة. ولما أصدر طومسون أوامره إلى هنود السيمينول فى ديسمبر ١٨٣٥ بالتجمع من أجل الرحيل إلى الغرب، لم يأت أحد إلى مركز التجمع، بل بدأوا سلسلة من هجوم العصابات على المستوطنات الساحلية بطول الحدود الخارجية لفلوريدا وتوالت هجماتهم المفاجئة والمتتابعة من الداخل، حيث قتلوا عدداً من الأسر البيضاء وأسروا العبيد وحطموا الممتلكات، وقام أوسيولا نفسه، أثناء إحدى ضربات البرق، بإطلاق النار على طومسون وضابط بالجيش. وفى ذلك اليوم، هاجم هنود السيمينول طابوراً من الجنود وقتلوهم جميعًا إلا ثلاثة، وقال أحدهم فيما بعد:

كانت الساعة الثامنة . فجأة سمعت دويًا لطلقة بندقية... تبعه صوت طلقة أخرى... لم يكن لدى وقت لكى أفهم معنى هذه الطلقات قبل أن يُصب علينا وابل من الطلقات، كأنه آت من ألف

بندقية، من المقدمة ومن ناحية اليسار.... ولم أستطع إلا رؤية رؤوسهم وأسلحتهم بين الحشائش الطويلة. كانت بعيدة وقريبة ومن خلف أشجار الصنوبر....

كان هذا هو الأسلوب الهندى المعتاد ضد عدو يملك أسلحة متفوقة، وهو أسلوب وعاه الجنرال جورج واشنطن الذى أعطى لأحد ضباطه نصيحة يومًا ما قائلاً: "أيها الجنرال! نصيحتى إليك ثلاث كلمات: حاذر من المفاجأة!"

وخصص الكونجرس الأموال اللازمة لشن حرب ضد السيمينول، وفى مجلس الشيوخ عارض سيناتور كنتاكى هنرى كلاى الحرب؛ حيث كان معروفًا بعدائه لجاكسون ودائم الانتقاد لإزاحة الهنود إلى الغرب، لكن زميله المحافظ دانيل ويبستر استعرض مسألة الوحدة بين كافة الأحزاب التى أصبحت بعد ذلك معيارًا لابد من مراعاته أثناء الحروب الأمريكية. قال ويبستر :

إن الموقف الذى اتخذه زميل كينتاكى الفاضل موقف سليم بغير شك، لكن الحرب تزيد اشتعالاً والعدو يزداد قوة، وهو الأمر الذى ينذر بأوخم العواقب. لقد طالبت الحكومة بالوسائل التى تكفل لها وضع حد لهذه العداوات ومن ثم تتوجب الموافقة على مشروع القرار.

واضطلع الجنرال وينفيلد سكوت Winfield Scott بمهمة تنفيذ القرار الذى يقضى بإزاحة السيمينول، ودخلت قواته، التى كانت تستعرض قوتها فى خيلاء، أراضى السيمينول، لكنها لم تجد منهم أحدًا، وأُصيبت بالإرهاق الشديد نتيجة الخوض فى الوحل والمستنقعات، كما نال منها المرض والجوع؛ أى لقد نال من هذه القوات ما ينال جيشًا متحضرًا يحارب شعبًا على أرضه. وقد عزف كثيرون عن مواجهة هنود السيمينول فى مستنقعات فلوريدا. ففى عام ١٨٣٦ ، استقال من الجيش مائة وثلاثة من الضباط ولم يبق من الضباط المنتظمين فى الجيش سوى ستة

وأربعين ضابطًا. وفى ربيع ١٨٣٧ قاد الجنرال العام جيساب جيشًا قوامه عشرة آلاف جندى لشن الحرب على السيمينول، لكنه لم يجد أحدًا منهم، إذ كانوا يختفون وسط المستنقعات ويظهرون من وقت لآخر لضرب بعض القوات المنعزلة.

واستمرت الحرب لسنوات، وحبّذ الجيش تجنيد هنود آخرين لمحاربة هنود السيمينول، ولكن هذا كله لم يكن مجديًا. يقول فان إيفرى: "إن تأقلم هنود السيمينول مع بيئتهم لم يكن يضاهيهم فيه سوى طائر أبى قردان والتماسيح." واستمرت الحرب ثمانى سنوات وكلفت الأمريكيين ألفًا وخمسمائة من الأرواح. وفى نهاية الأمر، بدأ الإرهاق ينال من الهنود إذ كانوا جماعة صغيرة العدد تواجه أمة كبيرة ذات موارد دائمة، وطالبوا بعقد أكثر من هدنة من الحرب، لكنهم عندما ساروا مطمئنين تحت رايات الهدنة، ألقى القبض على الزعيم أوسيولا ووضع فى القيود حتى مات من المرض داخل السجن، وبدأت الحرب تضع أوزارها.

وفى الوقت نفسه، لم يكن هنود الشيروكى، يحاربون الأمريكيين بالأسلحة، بل كانوا يقاومون بطريقتهم الخاصة، ولذلك بدأت الحكومة فى تأليب بعضهم ضد بعض؛ أى أنها بدأت فى ممارسة اللعبة القديمة. وتزايدت الضغوط على المجتمع الشيروكى ومن ثم توقفت صحيفتهم عن الصدور، وانحلت حكومتهم وتم توزيع أرضهم على البيض طبقًا لنظام القرعة. وفى عام ١٨٣٤، وافق سبعمائة من الشيروكى ، كان قد أرهقهم الكفاح ضد البيض، على الاتجاه غربًا، ومات منهم واحد وثمانون فردًا فى الطريق من بينهم سبعة وأربعون طفلاً مات معظمهم من الملاريا والكوليرا، ووصل مَن نجوا إلى غايتهم عبر نهر الميسيسيبى فى وقت كان فيه وباء الكوليرا منتشرًا فمات نصف عددهم فى أقل من عام.

واستدعى هنود الشيروكى لتوقيع معاهدة إزاحة فى نيو إيكوتا بجورجيا فى عام ١٨٣٦ ولم يلب الاستدعاء سوى ٥٠٠ من بين الشيروكى البالغ عددهم ١٧٠٠٠ وعلى أية حال، فقد تم التوقيع على المعاهدة، وصدّق مجلس الشيوخ، بما فى ذلك الأعضاء الشماليون الذين كانوا يدافعون يومًا ما عن حقوق الهنود، بل إن سيناتورًا

ماساتشوستس إدوارد إيفيريت Everett برر ذلك وأرجعه إلى " قوة الظروف... وما تمليه الضرورة" ، وبدأ البيض فى جورجيا فى شن هجمات على الشيروكى للإسراع فى إزاحتهم من الولاية.

ولم تتحرك الحكومة من فورها ضد هنود الشيروكى. وفى إبريل ١٨٣٨ وجّه رالف والدو إيمرسن خطاباً مفتوحًا إلى الرئيس فان بيورين مشيرًا فيه بغضب وسخط إلى معاهدة الإزاحة مع الشيروكى والتى تم توقيعها من وراء ظهر غالبيتهم العظمى، ومتسائلاً عما لحق بميزان العدل فى أمريكا:

إن روح الإنسان وعدله ورحمته التى هى بمثابة لب قلوب الناس من ولاية ميْن Maine إلى ولاية جورجيا، لتشمئز من ذلك العمل... إن ما حدث لجريمة تُحيِّر بمغزاها عقولنا. إنها جريمة تحرم هنود الشيروكى، كما تحرمنا نحن أيضًا، من الوطن. إذ كيف نطلق على من قاموا بتدبير هذه المؤامرة، التى من شأنها القضاء على هؤلاء الهنود التعساء، حكومتنا؟ وكيف نسمى الأرض التى تعشش فيها لعنات فراقهم وموتهم وطننا؟ يا سيدى! لسوف تهوى بكرسيك الذى تجلس عليه إلى حيث الخزى والعار إذا أمهرت هذه الوسيلة من وسائل الغدر بتوقيعك، ولسوف تسوء سمعة اسم هذه الأمة فى كل أرجاء العالم، وهو الاسم الذى لا زال فألاً حسنًا للدين والحرية.

وقبل ثلاثة عشر يوماً من إرسال إيمرسن لخطابه، كان الرئيس بيورين قد أمر الجنرال العام وينفيرد سكوت بدخول المناطق التابعة لهنود الشيروكى واستخدام ما شاء من قوة عسكرية لإزاحة الهنود إلى الغرب، وتدافع إلى أراضى الشيروكى خمس كتائب من الجنود النظاميين بالإضافة إلى أربعة آلاف من الميليشيا والمتطوعين، وألقى الجنرال العام خطاباً إلى الهنود قال فيه:

أرسلنى رئيس الولايات المتحدة على رأس جيش قوى لإجباركم، وفقًا لمعاهدة ١٨٣٤، على اللحاق بإخوانكم الذين استقروا وازدهرت حياتهم على الجانب الآخر من نهر الميسيسيبى... إن قمر شهر مايو بدأ فى الاختفاء ولن يظهر مرة ثانية إلا ويكون كل رجل وامرأة وطفل من هنود الشيروكى قد بدأ فى التحرك إلى أقصى الغرب.... إن قواتى تحتل بالفعل مناطق كثيرة من التى عليكم إخلاؤها ولازال يأتينا آلاف مؤلفة من الجنود من جهات البلاد الأربع، وليس أمامكم من سبيل إلى المقاومة أو الهرب.... أيها الزعماء والقادة والمحاربون! هل فى نيتكم أن تقاوموا وتدفعون دفعًا إلى اللجوء للسلاح؟ ندعو الله ألا يحدث ذلك. أم أنكم سوف تهربون وتحتمون بالجبال والغابات ومن ثم تجبرون على مطاردتكم واصطيادكم؟

كان بعض الشيروكيين قد أقلعوا عن سياسة المقاومة السلمية؛ حيث عُثر على ثلاثة من الزعماء الذين وقعوا معاهدة الإزاحة مقتولين. ولم يلبث أن حُوصر بالسبعة عشر ألف شيروكى ووُضعوا داخل معتقلات تحوطها الأسلاك الشائكة، وفى الأول من أكتوبر ١٨٣٨ خرجت أول دفعة منهم متجهة للغرب فيما أُطلق عليه بعد ذلك "قافلة الدموع" وبينما بدأوا فى الاتجاه غربًا، مات منهم كثيرون بسبب المرض والجفاف وسوء الأحوال الجوية. وكانت القافلة تضم ٦٤٥ عربة يسير هنود الشيروكى بمحاذاتها.

وقد حكى الناجون من الرحلة، بعد سنوات، عن توقفهم عند حافة نهر الميسيسيبى فى منتصف الشتاء، وكيف أن "مئات من المرضى والمحتضرين حبسوا أنفسهم داخل العربات أو تمددوا فوق الأرض" إذ كان النهر يمتلئ عن آخره بالثلوج. ويقدر جرانت فورمان، الذى كان يشرف على عملية إقصاء الهنود، من ماتوا سواء أثناء فترة الاعتقال أو أثناء الرحلة الطويلة باتجاه الغرب بأربعة آلاف من هنود

الشيروكى. وفى ديسمبر ١٨٣٨ ، تحدث الرئيس فان بيورين أمام الكونجرس قائلاً: "إنه لمن دواعى سرورى وسعادتى أن أُخبر الكونجرس بالانتهاء من الإقصاء الكامل لأمة هنود الشيروكى إلى غرب الميسيسيبى. لقد كان للإجراءات التى خولنا الكونجرس فى اتخاذها فى جلسته الأخيرة أعظم الأثر."

الفصل الثامن

" نحن لا نأخذ شيئًا عن طريق الغزو .. والحمد لله !"

كان إيتان ألن هيتشكوك جنديًا محترفًا، تخرج فى الأكاديمية العسكرية، وقاد الكتيبة الثالثة للمشاة وقرأ شيكسبير وتشوسر وهيجل وإسبينوزا. وقد كتب فى يومياته:

فورت جيساب، لويزيانا ـ ٣٠ يونيو ١٨٤٥:

جاءت أوامر عاجلة ليلة أمس من مدينة واشنطن تطلب من الجنرال تيلور التحرك دون إبطاء إلى نقطة ما عند الساحل بالقرب من نهر سابين أو أى مكان آخر، وعندما يسمع بقبول مؤتمر تكساس لقرارات الكونجرس الخاصة بالضم، عليه أن يتحرك فورًا بكل قوته إلى أقصى الحدود الغربية لتكساس وأن يتخذ وقواته موقعًا على ضفاف نهر ريو جراند أو بالقرب منه، وأن يقوم بطرد أى قوة مسلحة للمكسيكيين قد تعبر النهر. قرأ بليس علىّ الأوامر ليلة أمس على عجل عند عودة الجنود إلى ثكناتها فى المساء. لم تكد عيونى ترى النوم ورحت أفكر فى الاستعدادات التى نحتاجها. إننى أكتب هذه الكلمات على ضوء الشموع وأسمع نفير البوق لإيقاظ الجنود، وأنتظر إشارة احتشاد الجنود.... إن العنف يؤدى إلى العنف وإنى لموقن أن تحركنا هذا سوف يؤدى إلى تحركات أخرى وإلى سفك الدماء.

لم يكن هيتشكوك مُخطئًا. كانت صفقة جيفرسن بشراء لويزيانا قد ضاعفت من مساحة الأراضى الأمريكية وامتدت بها حتى وصلت إلى جبال روكى. وكانت المكسيك تقع جنوب غرب الأراضى الأمريكية، وكانت قد حصلت على استقلالها بعد حرب كبيرة ضد إسبانيا فى عام ١٨٢١ ، كما أنها كانت بلدًا كبيرًا يضم تكساس وما هو معروف الآن بنيو مكسيكو وأوتاه ونيفادا وأريزونا وكاليفورنيا بالإضافة إلى جزء من كولورادو. وبعد حركة تحريضية ومساعدة من الولايات المتحدة، انفصلت تكساس عن المكسيك فى عام ١٨٣٦ وأعلنت نفسها تحت اسم "نجم الجمهورية الوحيد." وفى عام ١٨٤٥ قبل الكونجرس انضمام تكساس إلى اتحاد الولايات ومن ثم أصبحت ولاية أمريكية.

وكان رئيس الولايات المتحدة فى ذلك الوقت هو جيمس بوك Polk الديمقراطى التوسعى الذى أسر إلى وزير بحريته فى ليلة توليه الحكم بأن ضم كاليفورنيا هو أحد أهدافه الرئيسية. وكان أمره الصادر إلى الجنرال تيلور، والخاص بتحريك قواته إلى نهر ريو جراند، تحديًا للمكسيكيين. فلم يكن واضحًا بأى حال من الأحوال أن نهر ريو جراند كان الحد الجنوبى لتكساس، رغم أن تكساس كانت قد أجبرت الجنرال المكسيكى المهزوم سانتا أنّا Santa Anna أن يقبل بذلك فى سجنه. وكان نهر نويسس يمثل الحدود التقليدية بين تكساس والمكسيك، وهو الذى يبلغ طوله حوالى ١٥٠ ميلاً ناحية الشمال، وكانت هذه الحدود مُعترفًا بها من الولايات المتحدة والمكسيك. غير أن الرئيس بوك شجع سكان تكساس على قبول مسألة الانضمام إلى الولايات المتحدة وأكد لهم أنه سيدعم ادعاءهم القائل بأن نهر ريو جراند هو الذى يمثل الحدود الجنوبية.

وكان تحريك القوات الأمريكية إلى نهر ريو جراند وإلى أراضى يقطنها مكسيكيون استفزازًا واضحًا للمكسيكيين. وكان الجنرال تيلور قد أدان مسألة ضم تكساس، لكن يبدو أنه غير موقفه بعد أن جاءته الأوامر بالتحرك بقواته. وقد وصف مساعده هيتشكوك زيارة تيلور له فى خيمته لمناقشة مسألة التحرك بالقوات قائلاً

يبدو أنه فقد أى احترام لحقوق المكسيكيين وأنه راغب فى أن يكون أداة للرئيس بوك لدفع الحدود الأمريكية ناحية الغرب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وقلت له إنه لو اقترح القيام بالتحرك (وهو الأمر الذى كان فى نيته كما قال لى) فإن الرئيس بوك سوف ينتهز الفرصة ويلقى بالمسئولية كاملة على عاتقه، فقال على الفور إنه يرحب بذلك، وأضاف بأن الرئيس لو خوله لفعل ما يراه، فلن ينتظر الأوامر، بل سيتوجه إلى نهر ريو جراند حالما تتوفر له وسائل النقل. إننى أعتقد أن الجنرال فى حاجة إلى ترقية وأنه مستعد لفعل أى شئ للحصول عليها.

وحرك تيلور قواته إلى كوربس كريستى فى تكساس عبر نهر نويسس وانتظر وصول تعليمات أخرى، وجاءت التعليمات فى فبراير ١٨٤٦ بالتحرك إلى نهر ريو جراند. وسارت قوات تيلور فى طوابير متوازية عبر المروج المفتوحة، تسبقها جماعات استكشافية، وعلى القضبان يسير معهم قطار الإمدادات. وبمحاذاة طريق ضيق، وعبر حزام من الأدغال الكثيفة، وصلت القوات فى ٢٨ مارس إلى منطقة من الحقول المثمرة والأكواخ المغطاة بالقش كان يسكنها المكسيكيون الذين يبدو أنهم غادروها على عجل وفروا عبر النهر إلى مدينة ماتا موروس. وأقام تيلور معسكراً وبدأ فى إنشاء حصن وصفّ مدافعه فى مواجهة البيوت البيضاء لمدينة ماتا موروس التى حدّق ساكنوها بفضول فى الجيش الذى تقف قواته على ضفاف النهر الهادئ.

وكانت صحيفة "يونيون"، التى تصدر فى واشنطن وتعبر عن موقف الرئيس بوك والحزب الديمقراطى، قد عبرت فى بداية عام ١٨٤٥ عما تعنيه عملية ضم تكساس إلى الاتحاد، فكتبت تقول: "فلتتم الخطوة العظيمة لضم تكساس وليُحسم معها الجدال حول الحدود. إذ من ذا الذى يوقف السيل الذى سينهمر باتجاه الغرب؟ ولسوف ينفتح الطريق إلى كاليفورنيا أمامنا. من ذا يستطيع أن يقاوم مسيرة شعبنا الغربى؟" كان بإمكان هذه الكلمات أن تعنى مسيرة سلمية نحو الغرب لولا أن كلمات أخرى جاءت

فى الصحيفة نفسها تقول: "سوف تقوم جماعة منظمة من المتطوعين بغزو واحتلال المكسيك، وسوف يمكنوننا ليس فقط من أخذ كاليفورنيا بل من الاحتفاظ بها." وبعد ذلك بوقت قصير، وبالتحديد فى صيف عام ١٨٤٥، استخدم جون أوسوليفان **John O'Sullivan** محرر "ذا ديموكراتيك ريفيو" **Democratic Review**، العبارة التى صارت شهيرة فيما بعد، حيث قال: "قدرنا الواضح **Manifest Destiny** هو أن ننتشر فى القارة التى خصتنا بها العناية الإلهية من أجل التطوير الحر لملايينا التى تتضاعف سنوياً." نعم! قدرنا الواضح!

وكان كل ما يحتاجه الأمر فى ربيع ١٨٤٦ هو حادثة عسكرية تكون ذريعة لشن الحرب التى أرادها الرئيس بوك، وجاءت هذه الذريعة فى أبريل عندما اختفى أحد مساعدى الجنرال تيلور وهو الكولونيل كروس أثناء جولة له فى النهر، وعثر على جثته بعد أحد عشر يوماً وكانت جمجمته محطمة نتيجة ضربة قوية على الرأس. وبالطبع افترض أنه لابد أن يكون قد قُتل على أيدى عصابات مكسيكية، وأُقيمت لكروس مراسم دفن عسكرية مهيبة على مرأى من المكسيكيين من سكان مدينة ماتا موروس الذين تزاحموا فوق أسطح منازلهم، وأطلقت ثلاث دفعات من رصاص البنادق تكريماً له.

وفى اليوم التالى (٢٥ أبريل)، هاجم مكسيكيون مجموعة من جنود تيلور كانت فى جولة استكشافية، وقتلوا ١٦ جندياً وأسروا الباقين، فأرسل تيلور رسالة إلى حاكمى تكساس ولويزيانا يطلب منهم تجنيد خمسة آلاف من المتطوعين، وكان تيلور قد حصل على هذا التفويض من البيت الأبيض قبل أن يتحرك بجنوده إلى تكساس، ثم أرسل رسالة إلى الرئيس بوك يقول فيها: "من الممكن الآن أن نعتبر أن الحرب قد بدأت."

لقد بادر المكسيكيون بإطلاق النار أولاً، لكنهم فعلوا ما كانت تتمناه الحكومة الأمريكية، كما كتب هيتشكوك فى يومياته، حتى قبل هذه الحوادث الأولى. يقول هيتشكوك:

لقد قلت من البداية إن الولايات المتحدة هى الطرف المعتدى... ليس لنا ذرة من حق فى أن نكون هنا... يبدو أن الحكومة قد أرسلت قوة صغيرة بشكل متعمد كى يؤدى ذلك إلى اندلاع حرب كذريعة لأخذ كاليفورنيا وما تستطيع ضمه من أرض هذه البلاد، إذ ليس ثمة شك فى أن حربًا لابد أن تنشب بين الولايات المتحدة والمكسيك. إننى لا أبارك هذا العمل، لكننى، كرجل عسكرى، لا أملك إلا تنفيذ الأوامر.

وقبل تلك المناوشات الأولى، كان تيلور قد أرسل عدة رسائل إلى الرئيس بوك جعلته يقول: "إن الاحتمالات تقول إن الحرب ربما تقع فى القريب." وفى التاسع من مايو، وقبل أية أخبار عن المعارك، كان الرئيس بوك يقترح على إدارته إعلان الحرب بحجة بعض المزاعم المالية ضد المكسيك وبحجة رفض المكسيك استقبال مفاوض أمريكى يُدعى جون سليدل. وقد سجل الرئيس بوك ما قاله لإدارته فى يومياته قائلاً:

لقد قلت... إنه حتى الآن، كما عرفنا، لم نسمع عن وقوع أى اعتداء قام به الجيش المكسيكى، لكن الخطر كان محدقًا بدرجة تسمح بوقوع مثل هذه الاعتداءات، وقلت إن من رأيى أن يكون لدينا سبب كبير للحرب وإنه من المستحيل... أن أظل صامتًا أكثر من ذلك... وإن البلاد فى حالة من الإثارة والترقب لهذا الموضوع... .

لم تكن البلاد "فى حالة من الإثارة والترقب"، بل كان الرئيس. فعندما وصلت رسائل الجنرال تيلور تحكى عن ضحايا الهجوم المكسيكى، استدعى بوك إدارته كى يسمع الأخبار ووافقوا جميعًا على أن يقوم الرئيس بإعلان الحرب. وكانت رسالة بوك إلى الكونجرس ساخطة:

لقد عيل صبرنا حتى قبل وصول الأخبار التى وردت مؤخرًا من جبهة نيل نورت (نهر ريو جراند)، أما الآن وبعد التهديدات المتكررة، فقد عبرت المكسيك حدود الولايات المتحدة وغزت أرضنا وسفكت دمًا أمريكيًا فوق أرضٍ أمريكية... . ما دامت الحرب قد اندلعت، بالرغم من جهودنا لتجنبها، فإن الواجب والوطنية يحتمان علينا أن نتخذ من القرارات ما يحمى شرف وحقوق ومصالح بلادنا.

وتحدث بوك عن إرسال قوات أمريكية إلى نهر ريو جراند بوصفه إجراءًا دفاعيًا ضروريًا، ولكن وفقًا لما يقوله جون شرودر Schroeder فى كتابه **حرب السيد بوك** Mr. Polk's War : " فإن العكس هو الصحيح، لقد أشعل الرئيس بوك الحرب وذلك بإرساله جنودًا أمريكيين إلى أراض مُتنازع عليها وساكنوها والمسيطرون عليها تاريخيًا هم المكسيكيون."

ثم كان اندفاع الكونجرس فى موافقته على شن الحرب، ويعلق شرودر قائلاً: "لقد استجابت الأغلبية الديمقراطية بكل حماس وكفاءة لتوصيات الرئيس بوك فى الحادى عشر من مايو بشن الحرب على المكسيك." والغريب أن الوثائق الرسمية، والتى وضعت فى أكياس ويُفترض أن تكون دليلاً على كلام بوك، لم تُفتح أو تُفحص بل وضعت مباشرة على إحدى الطاولات فى مجلس النواب، واقتصر النقاش حول إمداد القوات الأمريكية بمتطوعين وأموال بحيث لا يتجاوز النقاش ساعتين، وانقضى معظم الساعتين فى قراءة أجزاء مختارة من الوثائق حتى لم يكد يتبقى نصف ساعة من أجل المناقشة الفعلية للقضايا.

وكان حزب المحافظين The Whig Party، كما هو مفترض، معارضًا للحرب، لكنه لم يكن معارضًا لمبدأ التوسع، إذ كان أفراد هذا الحزب يتمنون ضم كاليفورنيا لكن دون حرب. ويقول شرودر إن "مبدأهم كان توسعيًا تجاريًا من أجل تأمين جبهة البلاد من ناحية المحيط الهادى ودون لجوء إلى الحرب." كما أنهم لم يكونوا معارضين

للعمل العسكرى بشكل حاسم أو بدرجة تمنعهم من تجنيد المتطوعين وإرسال الأموال من أجل إتمام العملية، وكل ما فى الأمر أنهم لم يريدوا المخاطرة باتهامهم بتعريض الجنود الأمريكيين للخطر بحرمانهم من الموارد اللازمة للحرب، ومن ثم كانت النتيجة أن انضم المحافظون إلى الديمقراطيين فى التصويت لصالح قرار الحرب الذى جاءت نسبة تأييده ١٧٤ مقابل ١٤ صوتًا معارضًا. وعارض القرار جماعة صغيرة من المحافظين المناهضين للرق، أو "شرذمة صغيرة من المتطرفين" كما وصفها نائب ماساتشوستس فى الكونجرس والذى صوت لصالح إجراء الحرب.

وكان ثمة جدل فى مجلس الشيوخ حول قرار الحرب، لكنه لم يستمر أكثر من يوم واحد "وتكررت أساليب التشتت" على حد قول المؤرخ فريدريك ميرك **Merk**، وتم التصويت لصالح قرار الحرب بنسبة ٤٠ صوتًا مقابل صوتين معارضين، وانضم المحافظون إلى الديمقراطيين. وفى خلال الحرب، كما يقول شرودر، "لم تملك الأقلية المحافظة إلا أن تضايق الإدارة الأمريكية من خلال حملات كلامية بينما تؤيد كل إجراء تتطلبه الحملات العسكرية." وتبنت صحيفة المحافظين "ذا ناشيونال إنتليجنسر" التى تصدر فى واشنطن هذا الموقف. وخير دليل على هذا الموقف نائب ماساتشوستس جون كوينسى آدمز الذى صوّت فى الأصل لصالح "العنيدين الأربعة عشر" ثم قام بعد ذلك بالتصويت من أجل الاستعداد للحرب.

ولم يكن إبراهام لينكولن، نائب إلينوى، قد دخل الكونجرس بعد عندما بدأت الحرب، ولكنه بدأ فى ممارسة حقه فى التصويت والحديث عن الحرب بعد انتخابه فى عام ١٨٤٦، وحازت مجادلاته التى عرفت باسم قرارات الموقع **Spot Resolutions** شهرة كبيرة، إذ تحدى الرئيس بوك فى أن يحدد بالضبط المكان **Spot** الذى شهد سفكًا للدم الأمريكى "على أرض أمريكية." لكنه لم يكن ليحاول إنهاء الحرب بوقف تمويلها بالرجال والإمدادات؛ ففى السابع والعشرين من يوليو، وقف لنكولن فى الكونجرس، وقال فى معرض حديثه لتأييد ترشيح الجنرال زاخارى تيلور لرئاسة البلاد:

ولكن بما أن الجنرال تيلور هو بطل الحرب المكسيكية بلا منازع، وبما أنكم أيها الديمقراطيون تقولون إننا كمحافظين دائمًا ما عارضنا شن الحرب، فربما ظننتم أن موقفنا محير ومربك لأننا نرشح الجنرال تيلور. إن التصريح بأننا عارضنا الحرب شيء حقيقي أو مزيف وهذا يتوقف على ما يفهمه المرء من عبارة "يعارض الحرب"؛ فإذا كان القول بأن "الرئيس أعلن حربًا غير ضرورية وغير دستورية" يعني معارضة الحرب، فإن المحافظين قد عارضوا الحرب بصفة عامة... ولو كان تسيير جيش إلى وسط أراضٍ مكسيكية مسالمة وبث الرعب في قلوب ساكنيها مما أدى إلى هروبهم مخلفين وراءهم محاصيلهم وممتلكاتهم للدمار، لو كان ذلك، من وجهة نظركم إجراءا مقبولاً مسالمًا وغير مثير للاستفزاز، فإنه ليس كذلك بالنسبة لنا... . ولكن إذا كانت الحرب قد بدأت بالفعل وأصبحت هي قضية البلاد، فإن ما نقدمه من أموالنا ودمائنا هو من أجل الحرب ويصبح من غير الصحيح القول بأننا عارضنا الحرب. وباستثناء حالات قليلة، فقد حصلتم على تأييدنا هذا فيما يتعلق بالإمدادات الضرورية... .

وقد صوتت حفنة من رجال الكونجرس المناهضين للرق ضد إجراءات الحرب، إذ رأت فيها وسيلة لتوسيع الأراضي الجنوبية التي يعمل فيها العبيد. وكان جوشوا جيدنجز Joshua Giddings، نائب أوهايو أحد هؤلاء وكان خطيبًا لاذعًا قوى البنيان، وأعلن أن تلك "حرب عدوانية دنسة ظالمة"، وشرح سبب تصويته ضد إرسال الرجال والسلاح إلى الحرب قائلاً: "لا أستطيع المشاركة فى قتل المكسيكيين على أرضهم أو فى سلبهم أرضهم، لا أستطيع ذلك الآن ولا فيما بعد. لا يمكننى أن أشارك فى هذه الجرائم...." وأشار جيدنجز إلى المحافظين البريطانيين الذين أعلنوا فى عام ١٧٧٦

فى البرلمان، أثناء الثورة الأمريكية، بأنهم لن يوافقوا على إرسال إمدادات لحرب تهدف إلى قمع الأمريكيين.

وبعد أن أصدر الكونجرس قراره فى مايو ١٨٤٦، قامت مسيرات تأييد للحرب فى نيويورك وبالتيمور وأنديانابوليس وفلادلفيا وأماكن أخرى كثيرة، وتدافع آلاف من أجل التطوع فى صفوف الجيش، وكتب الشاعر والت ويتمان فى "إيجل" التى تصدر فى بروكلين فى الأيام الأولى للحرب يقول: "نعم! لابد من تأديب المكسيك ... ولتُحمل أسلحتنا الآن بروح تُعلم العالم بأن أمريكا، فى الوقت الذى لا تسعى فيه إلى النزاع، قادرة على أن تردع وأن تتوسع على السواء!"

واقترنت هذه الدرجة من العدوانية بفكرة مؤداها أن الولايات المتحدة تمنح بركات الحرية والديمقراطية إلى مزيد من الناس، وكانت هذه الفكرة تختلط بأفكار التفوق العرقى بالتطلع إلى الاستيلاء على الأراضى الجميلة لنيومكسيكو وكاليفورنيا وكذلك بأفكار المؤسسات التجارية عبر المحيط الهادى. فعلى سبيل المثال، كتبت جريدة "ذى إلينوى ستيت ريجستر" فى معرض الحديث عن كاليفورنيا تقول: "هل ستترك هذه الجنة فى خصوبتها البرية دون استغلال؟... سيتدافع عشرات الآلاف من رجال الأعمال الأمريكيين إلى مروجها الغنية الجذابة، وستدوى أصوات المصانع الأنجلو - أمريكية فى أوديتها، وستقوم المدن فى سهولها وسواحلها، وستزيد موارد الأمة وثروتها بدرجة يصعب تقديرها." وتحدثت "الأمريكان ريفيو"عن استسلام المكسيك "لسكان أرقى، يتقاطرون دون وعى إلى أراضيها ويغيرون من عاداتها وأساليب الحياة والتجارة فيها ويبدلونها بدمها الضعيف دمًا قويًا...." وقالت "الهيرالد" النيويوركية فى عام ١٨٤٧: "باستطاعة أمتنا أن تُصلح شعب المكسيك وتحرره فى سنوات معدودة، وإننا لنؤمن أنه من صميم مصيرنا أن نمدن هذه البلاد الجميلة."

وظهر خطاب فى "نيويورك جورنال أوف كوميرس" يجعل الذات الإلهية طرفًا فى هذه القضية. يقول الخطاب:

يبدو أن الحاكم الأسمى للكون يتدخل لمنح الإنسان مزيداً من الطاقة والعون لما فيه خير البشرية. وإنى لأرى... أن نجاح جيشنا هو علامة تدخل الذات الإلهية... إن تخليص أرواح سبعة ملايين من كل الخطايا التى يبتلى بها الجنس البشرى... هو الهدف الظاهر... وإنه ليبدو جليًا.

وقال السيناتور إتش. فى. جونسون:

سنكون خونة وجبناء إذا رفضنا العمل على تنفيذ الإرادة الحكيمة للذات الإلهية. إننا نعرف أن للحرب شرورها وأنها على مدار الزمن كانت راعية للموت والخراب، ورغم ذلك فقد كانت أيضًا وسيلة مُصَرِّف أمور الكون لتحقيق الهدف العظيم للارتقاء بالبشر وسعادتهم. وانطلاقًا من هذه الرؤية، فإننى أُقر وأؤيد مبدأ "القدر الواضح Manifest Destiny ".

كما جاء فى صحيفة "الكونجريشنال جلوب "الصادرة فى الحادى عشر من فبراير ١٨٤٧:

السيد جايلز، من مريلاند:

إننى أنظر إلى الأمر على أنه شئ بديهى، سوف نكتسب المزيد والمزيد من الأراضى قبل أن نغلق أبواب معبد جانوس... يجب أن تكون مسيرتنا من المحيط إلى المحيط، وأن تمتد أراضينا من تكساس إلى المحيط الهادى مباشرة لا يحدها إلا زئير الأمواج... إنه قدر الجنس الأبيض. قدر الجنس الأنجلو أمريكى....

على الجانب الآخر، قالت الرابطة الأمريكية لمناهضة الرق إن الحرب "لم تقم إلا تحقيقًا للغرض البغيض وهو التوسع الأمريكى فى تجارة الرقيق فى الأراضى

الشاسعة للمكسيك." وفى بوسطن بدأ جيمس راسل لويل Lowell، وكان شاعرًا يبلغ من العمر سبعة وعشرين عامًا وأحد الداعين لإلغاء الرق، فى كتابة قصائد ساخرة، وكان ينشرها فى "البوسطن كوريار"، وجمعت هذه القصائد فيما بعد تحت عنوان **أوراق بيجلو Biglow Papers**، وفيها يتحدث فلاح من نيو إنجلاند اسمه خوسيه بيجلو بلهجته الخاصة عن الحرب.

ولم تكد تبدأ الحرب فى صيف عام ١٨٤٦، حتى رفض هنرى ديفيد ثورو Thoreau، الذى كان يعيش فى كونكورد بماساتشوستس، أن يدفع ضريبة الاقتراع الخاصة بالولاية، منددًا بالحرب المكسيكية، فأُخذ إلى السجن وقضى ليلة هناك، وقام أصدقاؤه بدفع ضرائبه دون معرفته ومن ثم أطلق سراحه. وبعد عامين ألقى محاضرة عنوانها "مقاومة الحكومة المدنية" والتى نشرت بعد ذلك كمقالة تحت عنوان "العصيان المدنى"، جاء فيها:

> **ليس من التضليل أن نزرع فى الناس احترام القانون بالقدر الذى نزرع فيهم احترام الحق... لم يجعل القانون الناس، فى أى يوم من الأيام، أكثر عدلاً. بل إنه عن طريق احترام القانون، يتحول الناس يوميًا، حتى من يملكون النوايا الطيبة، إلى أدوات للظلم. إن أحد الأمثلة للاحترام غير الواجب للقانون هو أن ترى جماعة من الجنود... يسيرون فى نظام يبعث على الإعجاب عبر الوديان والتلال ضد إرادتهم، نعم، ضد إرادتهم وضد إحساسهم العام وضمائرهم، وهو الأمر الذى يجعل سيرهم حادًا ويولد خفقان القلوب.**

وافقه زميله وصديقه الكاتب رالف والدو إيمرسون Ralf Woldo Emerson، لكنه رأى أن الاحتجاج لا يجدى، وعندما زار إيمرسون صديقه ثورو فى السجن وسأله: "ماذا تفعل هنا داخل السجن؟" رد عليه ثورو: "بل ماذا تفعل أنت خارج السجن؟"

أما الكنائس فكان موقفها من الحرب أحد اثنين؛ إما الإدانة الصريحة أو الصمت، وبصفة عامة لم تهاجم الحرب بشكل واضح سوى الكنائس الاتحادية والمستقلة. كما ألقى أحد الرعاة المعمدانيين، وهو الكاهن فرانسيس واى لاند رئيس جامعة براون، ثلاث مواعظ فى كنيسة الجامعة ذكر فيها أن حروب الدفاع عن النفس هى الحروب العادلة، أما الحروب غير العادلة فيجب على المرء أن يقاومها أخلاقيًا وألا يقدم العون المادى للحكومة لدعمها. أما الكاهن تيودر باركر، أحد رعاة الكنائس الاتحادية فى بوسطن، فقد جمع فى موقفه ما بين النقد الفصيح للحرب واحتقار الشعب المكسيكى الذى أطلق عليه "الشعب التعيس فى أصوله وتاريخه وصفاته"، ومن ثم، كما يقول الكاهن، فإن على هذا الشعب أن يفسح الطريق لأبناء الجنس الأبيض كما فعل الهنود. نعم على الولايات المتحدة أن تتوسع، هكذا قال، ولكن ليس عن طريق الحرب ولكن بقوة أفكارها وضغط تجارتها، "بتقدم مستديم لجنس أرقى، وأفكار أرقى ومدينة أفضل... بأفضليتها عن المكسيك، وبكونها أكثر حكمة وأكثر إنسانية وأكثر حرية وشجاعة." وحث باركر الناس على المقاومة النشطة للحرب فى عام ١٨٤٧ قائلاً: "عار على من ينضم إلى صفوف الجيش من أبناء نيو إنجلاند، وعلى كل تاجر يقدم أمواله للحكومة أو يجعل من سفنه وسيلة عون لهذه الحرب الشريرة، وعار على كل صاحب مصنع يصنع مدفعًا أو سيفًا أو ذرة بارود لقتل إخوتنا..."

غير أن عنصرية باركر انتشرت انتشارًا واسعًا؛ فها هو ديلانو Delano نائب أوهايو فى الكونجرس وأحد المحافظين المناهضين للرق، يعارض الحرب لأنه كان يخشى مخالطة الأمريكيين بشعب أدنى مرتبة "يجمع بين ظلال كل الألوان... فهو مركب تعيس من الدماء الإسبانية والإنجليزية والهندية والزنجية، الأمر الذى أدى إلى جنس من البشر لا يعرف إلا الجهل والكسل."

ومع استمرار الحرب، اشتدت المعارضة وزادت. فقد أصدرت رابطة السلام الأمريكية صحيفة "أدفوكيت أوف بيس" التى كانت تنشر القصائد والخطب والالتماسات والمواعظ الموجهة ضد الحرب، كما كانت تنشر تقارير شهود عيان للحرب

تتناول تدهور الحياة العسكرية وفظائع المعركة. وأدان المطالبون بإلغاء الرق، عبر صحيفة "ليبراتور" التى كان يصدرها وليم لويد جاريسون، الحرب المكسيكية واعتبروها حرب "عدوان وغزو وفتح وسلب، تتصف بالخداع والغش والفساد الوطنى...." وبالرغم من الجهود الكبيرة التى كان يبذلها قادة الأمة من أجل بناء تأييد وطنى للحرب، فقد كان السخط والنقد الصريحين ملحوظين، وكانت هناك اجتماعات مناهضة للحرب، بالرغم من هجوم الغوغاء المؤيدين لشن الحرب.

وبينما كان الجيش يقترب من مكسيكو سيتى، أعلنت صحيفة "ذا ليبراتور"، فى جرأة شديدة، عن أمنياتها بهزيمة القوات الأمريكية:

> **على كل محب للحرية والإنسانية فى كل أرجاء العالم أن يتمنى لهم (المكسيكيين) الانتصار.... نحن فقط نأمل أنه إذا سالت دماء، فلتكن دماء أمريكية، وأن تكون أول أخبار تأتينا بعد ذلك هى وقوع الجنرال سكوت وجيشه فى أيدى المكسيكيين... إننا لا نتمنى له ولقواته أى أذى بدنيًا، لكننا نتمنى لهم العار والهزيمة.**

أما العبد السابق والكاتب والخطيب البارع فريدريك دوجلاس، فقد كتب فى صحيفته "ذا نورث ستار" فى ٢١ يناير ١٨٤٨ عن "الحرب الدنيئة والمخجلة التى تدور رحاها ضد الجمهورية الشقيقة. يبدو أن المكسيك ستكون ضحية الجشع وحب الهيمنة للأنجلو ساكسونيين." وكان دوجلاس يحتقر تقاعس المعارضين للحرب عن اتخاذ فعل إيجابى، إذ كان الداعون لإلغاء الرق مستمرين فى دفع الضرائب. يقول دوجلاس:

> **لقد بات عزم رئيسنا، الذى لا يزال يحتفظ بالعبيد، على الاستمرار فى الحرب واحتمال نجاحه فى تجنيد الناس وجلب الأموال اللازمة للاستمرار فيها واضحًا، ساهم فى ذلك المعارضة المراوغة للحرب؛ إذ يبدو أن ليس ثمة معارض سياسى**

من ذوى المكانة والشهرة يرغب فى أن يخاطر بشعبيته داخل حزبه... كما يبدو أن ليس ثمة من يرغب فى اتخاذ موقف واضح من أجل السلام مهما كانت المخاطر، بل ويبدو أن الجميع راغبون فى استمرار الحرب بشكل أو بآخر.

لكن أين كان الرأى الشعبى؟ من الصعب الإجابة عن هذا السؤال؛ فبعد موجة الاندفاع الأولى، قلت أعداد من ينضمون إلى الجيش للمشاركة فى الحرب، وأظهرت انتخابات ١٨٤٦ تزايداً فى سخط الناس على الرئيس بوك، ولكن من يستطيع أن يجزم أن ذلك كان بسبب الحرب؟ ففى ماساتشوستس، انتخب نائبها فى الكونجرس روبرت ونثروب ونجح نجاحًا كاسحًا فى مواجهة مع أحد المناهضين للحرب من المحافظين. ويخلص شرودر إلى أنه بالرغم من هبوط شعبية بوك، "فإن الحماس العام للحرب المكسيكية بقى عاليًا." لكن هذا مجرد تخمين؛ إذ لم يكن ثمة تقارير للرأى العام فى ذلك الوقت. وأما بالنسبة للاعتماد على عامل التصويت، فلم يكن من حق غالبية الناس ممارسة ذلك، فكيف كان هؤلاء ينظرون إلى الحرب؟

لقد تحدث مؤرخو الحرب المكسيكية بكل سهولة عن "الشعب" و"الرأى العام"، ومن بين هؤلاء المؤرخين جاستين سميث، الذى ظل كتابه ذو المجلدين **الحرب مع المكسيك** The War With Mexico مرجعًا معتمداً لهذه الحرب. يقول سميث: "كان لابد من الاعتراف بالضغط الذى مارسته عاطفة الحرب فيما بين شعبنا... وهذا شىء بديهى... إذ هكذا دائمًا طبيعة الحكومة الشعبية." غير أن دليل سميث لم يأت من "الشعب" بل من الصحف التى تزعم أنها صوت الشعب، فقد كتبت النيويورك هيرالد فى أغسطس ١٨٤٥ تقول: "صرخة الجموع المدوية من أجل الحرب"، وقالت "نيويورك جورنال أوف كوميرس" نصف جادة ونصف هازلة: "فلنذهب إلى الحرب، فقد أصبح العالم راكداً وماسخًا، فلابد من مصادرة كل السفن، وسحق كل المدن، وحرق العالم، حتى نبدأ من جديد. لن يخلو مثل هذا الأمر من الإثارة وتحقيق بعض المصالح، وسوف يكون لدينا شىء نتحدث عنه." وقالت "نيويورك مورنينج نيوز": "لا تحتاج

الأرواح الشابة والمتحمسة التى تملأ المدن... إلا إلى طريق يصبون فيه طاقاتهم التى لا نهاية لها، وقد تم بالفعل توجيه انتباهكم إلى المكسيك."

تُرى هل كانت الصحف تسجل مشاعر الرأى العام أم أنها كانت تخلق مشاعر محددة داخل الرأى العام؟ إن الذين يسجلون هذه المشاعر، من أمثال جوستن سميث، إنما يعبرون عن آرائهم هم والتى تنادى بالحاجة إلى شن تلك الحرب. فسميث (الذى أملى كتابه على هنرى كابوت لودج أحد أشد المتحمسين لمبدأ التوسع فى التاريخ الأمريكى) يقدم قائمة بالخطايا التى ارتكبتها المكسيك فى حق الولايات المتحدة، وينهيها قائلاً: "لذلك، كان حتمًا على حكومتنا، كحامية للكرامة والمصالح الوطنية، أن تبحث عن علاج." ويعلق على نداء الرئيس بوك لشن حرب على المكسيك بقوله: "فى حقيقة الأمر، ليس ثمة طريق أكثر حكمة أو وطنية من ذلك."

ومن المستحيل معرفة مدى التأييد الشعبى للحرب المكسيكية، لكن ثمة دليل على أن كثيرين من الطبقة العاملة عارضوها. وقبل ذلك، وبينما كان الجدل دائرًا حول ضم تكساس، احتج كثيرون من أبناء الطبقة العاملة فى اجتماع لهم فى نيو إنجلاند على مسألة الضم. وكتبت إحدى صحف مانشيستر بولاية نيو هامبشير:

> **لقد التزمنا الصمت حتى الآن فيما يتعلق بمسألة ضم تكساس، وذلك كى نرى ما إذا كانت أمتنا ستحاول ارتكاب فعل دنىء كهذا. إننا نسمى هذا فعلاً دنيئًا لأنه سيمنح مَن يعيشون على دماء الآخرين فرصة الخوض أعمق وأعمق فى خطيئة العبودية.... أليس لدينا الآن ما يكفى من عبيد؟**

كما قامت مظاهرات نظمها العمال الأيرلنديون فى نيويورك وبوسطن ولويل ضد ضم تكساس، حسب ما يذكر فيليب فونر. وعندما بدأت الحرب المكسيكية فى مايو، دعت جماعة من العمال فى نيويورك إلى اجتماع لمعارضة الحرب، وحضره عدد كبير من العمال الأيرلنديين. ووصف الاجتماع هذه الحرب بأنها مؤامرة نظمها

تجار العبيد، وطالب المجتمعون بانسحاب القوات الأمريكية من الأراضى المتنازع عليها. وفى العام نفسه أدان مؤتمر رابطة عمال نيو إنجلاند الحرب، وأعلن أفراد الرابطة بأنهم لن "يحملوا السلاح لمؤازرة تاجر العبيد الجنوبى فى سلب عرق أهلنا."

وفى الوقت نفسه، احتجت بعض الصحف على الحرب منذ بدايتها؛ فقد كتب هوراس جريلى فى "نيويورك تربيون" فى الثانى عشر من مايو ١٨٤٦ يقول:

> **بإمكاننا أن نهزم الجيوش المكسيكية بكل سهولة، ونذبح الآلاف من الجنود، ونطاردهم ربما إلى عاصمة بلادهم؛ بإمكاننا أن نقهرهم و"نضم" أراضيهم، لكن ماذا بعد؟ أليس فى الدمار الذى سببه الإغريق والرومان، والذى خلفته توسعات الإمبراطورية عن طريق السيف، درس لنا؟ مَن قال إن عدة انتصارات على المكسيك و"ضم" نصف أقاليمها سيمنحنا حرية أكثر وأخلاقًا أفضل وصناعة أكثر ازدهارًا مما نحن عليه الآن؟... أليس فى الحياة ما يكفى من شقاء وبؤس؟ أو ليس الموت بدانٍ على رقابنا دون أن نلجأ إلى آلة الحرب المشينة؟**

ولكن ماذا عن الذين قاتلوا فى الحرب؛ الجنود الذين خاضوا الحرب وسال عرقهم ونال منهم المرض وأنهى حياتهم الموت، سواء أكانوا من الجنود المكسيكيين أو الأمريكيين؟ إننا لا نعرف إلا قليلاً عن تأثير الحرب على الجنود المكسيكيين، لكننا نعرف جيداً أن المكسيك كانت دولة للاستبداد؛ فأراضيها يعيش عليها الهنود (ثلاثة ملايين) والهنود ذوو الدماء المختلطة بالدماء الإسبانية (مليونان) بينما يسيطر على هذه الأراضى مليون من البيض ذوو الدماء المختلطة بالدماء الإسبانية. فهل تغلبت الروح الوطنية، التى أثارها مجىء غازٍ، على العزوف الطبيعى للفلاحين عن الحرب من أجل بلد يحكمها من يملكون أرضها؟

وإذا كنا نعرف قليلاً عن الجنود المكسيكيين، فإننا نعرف الكثير عن الجيش الأمريكى وعن المتطوعين الذين أغرتهم الأموال وفرص الصعود الاجتماعى عن طريق الترقى فى قوات الجيش. لقد كان نصف جيش الجنرال تيلور يتكون من المهاجرين الجدد ومعظمهم من الأيرلنديين والألمان. والجدير بالذكر هنا أنه بينما كانت نسبة مَن ولدوا خارج الولايات المتحدة تمثل ١٪ من جملة السكان فى عام ١٨٣٠، فإن هذه النسبة وصلت، بوقوع الحرب المكسيكية، إلى ١٠٪. ولم يكن الحس الوطنى لدى هؤلاء قويًا، ولم يكن إيمانهم عميقًا بالمناقشات والمجادلات الخاصة بمبدأ التوسع والتى كانت تستعرضها الصحف. بل إن كثيرين منهم فروا من الجيش ولجأوا إلى الجانب المكسيكى تحت إغراء المال، وبلغ الأمر أن انضم بعضهم إلى الجيش المكسيكى وكونوا كتيبة خاصة بهم وأطلقوا عليها اسم "كتيبة القديس باتريك."

وفى البداية بدا الحماس شديداً على الجيش، تزكيه الرواتب العالية والحس الوطنى. وكانت الروح العسكرية مرتفعة فى نيويورك حيث فوّض المجلس التشريعى حاكم الولاية فى استدعاء خمسين ألفًا من المتطوعين، وكانت اللافتات فى كل مكان تحمل شعار "المكسيك أو الموت"، وتجمع حشد هائل يضم عشرين ألفًا من الناس فى فلادلفيا، وتطوع ثلاثة آلاف فى أوهايو. غير أن هذه الروح ما لبثت أن بدأت فى الخفوت. فعلى سبيل المثال سجلت امرأة من جرينزبورو بكارولاينا الشمالية فى يومياتها الكلمات التالية:

> **الثلاثاء. الخامس من يناير ,١٨٤٧.. كان هناك اليوم جمع عام استمع إلى خطابات السيدين جوريل وهنرى، واستقبلهم الجنرال لوجان فى شارعنا هذا وطلب من كل المتطوعين أن يتبعوه، وبينما راح فى الشارع وجاء، رأيت ستة أو سبعة من ذوى الهيئات المزرية يتقدمهم المسكين جيم لينْ. كم من التعساء تمت أو ستتم التضحية بهم على مذبح الكبرياء والطموح؟**

وكانت هناك لافتات كثيرة تطلب متطوعين فى ماساتشوستس: "يا رجال إيسكس القديمة! يا رجال نيوبيرى بورت! تجمعوا حول القائد الصلب والشجاع كوشنج، فسوف يقودكم إلى النصر والمجد!" ووعد المسئولون المتطوعين براتب يتراوح بين سبعة وعشرة دولارات شهريًا، وتحدثوا عن منحة فيدرالية تصل إلى أربعة وعشرين دولارًا ومائة وستين آكر من الأرض الزراعية. لكن شابًا مجهولاً كتب إلى "كرونيكل" التى تصدر فى كامبردج يقول:

ليس لدى أدنى تفكير فى "الالتحاق" بكم أو المساعدة بأى شكل من الأشكال فى شن حرب ظالمة على المكسيك. ليس لدى أية رغبة فى المشاركة فى العمليات "المجيدة" لذبح النساء والأطفال... كما لا تحدونى أية رغبة فى أن أضع نفسى تحت إمرة طاغية عسكرى لا أملك إلا الإذعان لأوامره وتنفيذ رغباته. لا أيها السادة! مادام فى إمكانى أن أعمل أو حتى أتسول أو أعيش فى ملاجئ الفقراء، فلن أذهب إلى المكسيك كى أهيم على وجهى نصف جائع وأصير نهبًا للبعوض والزواحف والعقارب، ثم ينتهى أمرى بأن يطلق أحدهم الرصاص علىّ، وكل ذلك مقابل ثمانية دولارات شهريًا وبعض الطعام الفاسد. لن أفعل ذلك... لقد ولى زمن ذبح البشر... ونحن الآن نقترب من زمن سيتساوى فيه الجندى المحترف باللص والسفاح.

وجاءت التقارير من رجال أُجبروا على التطوع والخدمة فى صفوف الجيش. فقد احتج أحدهم واسمه جيمس ميلر من نورفوك بفرجينيا على أنه "قد تم إقناعه تحت تأثير كميات كبيرة من المسكرات القوية" كى يوقع على ورقة انضمامه لصفوف الجيش، "وفى الصباح التالى جُررت جرًا وأُخذت على متن سفينة رست بنا فى فورت مونرو حيث حُجزت لمدة ستة عشر يومًا." وكانت ثمة وعود كبيرة وأكاذيب صارخة من أجل بناء وحدات المتطوعين. وأعلن رجل كتب تاريخ المتطوعين فى نيويورك:

إذا كان من القسوة أخذ السود بالقوة من أوطانهم فالقسوة الأشد هى نزع الرجال البيض من بيوتهم تحت إغراءات كاذبة وإجبارهم على ترك زوجاتهم وأطفالهم دون مال أو حماية وفى أقسى فصول السنة، لا لشيء سوى الموت فى بلاد غريبة!... لقد تطوع كثيرون بالانضمام إلى الجيش وذلك لحماية أسرهم فى ظل غياب فرص العمل ولاسيما أن الجيش قدم لهم "رواتب ثلاثة شهور مقدمًا"... . إننى أعلن بكل جرأة أن هذه الكتيبة قامت على الخداع والغش على كل من الجندى ومدينة نيويورك بل وحكومة الولايات المتحدة.

وبنهاية عام ١٨٤٦ انخفض معدل التجنيد، فكان لابد من التغاضى عن كل المؤهلات البدنية، وكان كل من يجلب مجندين يمكن قبولهم يحصل على دولارين عن كل مجند، بيد أن ذلك لم يكن كافيًا، فما كان من الكونجرس إلا أن أمر بتجهيز عشر كتائب من الجنود النظاميين للخدمة على مدار الحرب، ووعد الجنود بمائة آكر من الأرض الزراعية عند التسريح المشرف من الخدمة. ومع ذلك، استمرت حالة السخط، حيث اشتكى المتطوعون من أن الجنود النظاميين يلقون معاملة خاصة، كما اشتكى أفراد الجيش من المعاملة السيئة التى يلقونها على أيدى الضباط.

وبعد قليل، تكشفت حقيقة المعركة، عندما واجه جيش مكسيكى، قوامه خمسة آلاف ويقوده الجنرال أريستا، جيش الجنرال تيلور المكون من ثلاثة آلاف، عند ضفاف نهر ريو جراند، حيث تطايرت القذائف ورأى قائد المدفعية صامويل فرنيش الموت بعينه فى تلك المعركة. ويصف جون ريمز ما رآه فرنيش قائلاً:

تصادف أن كان فرنيش يحدق فى رجل على ظهر حصان قريب منه عندما رأى طلقة نارية تخترق مؤخرة السرج وتمزق جسد الرجل ثم تخرج من الجانب الآخر تتبعها دفقة قرمزية، كما مزقت قطع من العظم والمعدن مؤخرة الحصان وشطرت فم آخر وكسرت فك حصان ثالث.

أما الضابط جرانت المرافق للكتيبة الرابعة، فقد "رأى كرة تخترق الصفوف القريبة، وتمزق خوذة أحد الجنود وتطيح برأسه وتشطر وجه أحد القادة." فلما انتهت الحرب، كان قد مات أو أصيب خمسمائة مكسيكى، واقترب عدد الضحايا الأمريكيين من الخمسين. ويصف ويمز المشهد فى أعقاب الحرب قائلاً:

لفّ الليل الرجال المتعبين الذين غلبهم النوم حيث سقطوا على حشائش المروج، بينما يرتمى حولهم الجرحى من الجيشين المتحاربين يصرخون ويئنون من الجروح، وعلى ضوء المشاعل "راح منشار الطبيب يعمل طوال الليل دون كلل."

وبعيداً عن أرض المعركة، وحيث معسكرات الجيش، كانت قصة الشعارات الخاصة بتجنيد الرجال فى سبيلها إلى النسيان السريع. ففى عام ١٨٤٥ وقبل بداية الحرب، كتب أحد الضباط الشبان عن الرجال المتمركزين فى كورباس كريستى يقول:

لقد بات من صميم مهمتنا المؤلمة أن نُلمّح إلى المرض والمعاناة والموت الناتجين عن الإهمال الإجرامى. إن ثلثى الخيام التى تم إمداد الجيش بها فى بلد يكاد يغطيها الماء ثلاثة شهور فى العام قديمة ورثة ... فأثناء شهرى نوفمبر وديسمبر كانت تهطل علينا الأمطار العنيفة أو السيول الشمالية الغاضبة، وهو الأمر الذى لم تتحمله الخيام البالية. وعلى مدار أيام وأسابيع،

غمرت المياه كل شئ فى مئات الخيام، وبات من المستحيل حصر الجنود المرضى الذين تزاحموا على خيام العلاج... .

كما ضرب البرد والمرض أفراد الكتيبة الثانية التى كانت فى طريقها إلى نيو أورلينز، وقال الطبيب المرافق لهذه الكتيبة: "بعد ستة أشهر من التحاق كتيبتنا بالخدمة، كانت الحصيلة موت ١٦٧ جنديًا وخسارة جهد ١٣٤ نظرًا لتسريحهم من الخدمة." ثم وقعت الكتيبة تحت رحمة وسائل النقل، حيث خصصت ثلاث سفن لنقل ثمانمائة فرد. ويقول الطبيب:

كانت سحابة المرض القاتمة لا تزال تحلق حولنا... بعد قليل ازدحمت عنابر السفن بالمرضى، وكانت الروائح الكريهة تنبعث بدرجة لا تُحتمل .... وهاج البحر... حتى أن السفينة كانت تطيح بالمريض من جانب إلى آخر لا يستقر على مضجع مما تسبب فى إلحاق الجروح بالكثيرين. لقد رسمت صرخات الخائفين وأنات المرضى وحشرجات المحتضرين مشهدًا ثابتًا للارتباك والفوضى... أربعة أسابيع ونحن مرتبطون بتلك السفن الكريهة، وعندما وصلنا براسوس كنا قد استودعنا الأمواج المظلمة ثمانية وعشرين من رجالنا.

وفى الوقت نفسه، كانت القوات الأنجلو أمريكية تدخل كاليفورنيا عن طريق البر وعن طريق البحر. وكتب أحد الضباط البحريين فى يومياته، بعد الرحلة البحرية الطويلة حول الساحل الجنوبى لأمريكا الجنوبية وحتى مونتيرى فى كاليفورنيا:

ستأتى آسيا... حتى أبوابنا، وسيتدفق السكان إلى المناطق الخصبة من كاليفورنيا، وسنطور موارد البلاد كلها... وسوف تتحول الأراضى الصحراوية بطول الطريق إلى حدائق خضراء، وسيستقر بها عدد كبير من السكان... .

أما الحرب التى دارت فى كاليفورنيا، فكانت حربًا منفصلة، حيث أغارت القوات الأنجلو أمريكية على المستوطنات الإسبانية وسلبتها خيولها وأعلنت انفصال كاليفورنيا عن المكسيك. وكان كثير من الهنود يعيشون فى كاليفورنيا وجمع الضابط البحرى ريفرى زعماء الهنود وتحدث معهم قائلاً:

لقد اجتمعت بكم كى أُجرى حوارًا معكم. إن البلاد التى تسكنوها لم تعد تنتمى إلى المكسيك، بل إلى أمة قوية تمتد أراضيها من المحيط العظيم الذى رأيتموه أو سمعتم عنه إلى محيط عظيم آخر بآلاف الأميال نحو الشمس الغاربة.... إننى أحد ضباط هذه الأمة العظيمة، ولكى أصل إلى هنا، اجتزت هذين المحيطين العظيمين فى إحدى سفن الحرب التى تقذف بكتل اللهب وتحمل معدات الدمار وتلحق الموت بكل أعدائنا. إن جيوشنا فى المكسيك وسوف تقهر هذا البلد فى وقت قريب، لكن عليكم ألا تخافوا منا ما دمتم تفعلون الصواب... وما دام لديكم ولاء لحكامكم الجدد. لقد جئنا هنا لإعداد هذه المنطقة العظيمة لمنفعة أناس آخرين، فسكان العالم فى حاجة إلى مكان، وهنا مكان يكفى لملايين كثيرة يعيشون فيه ويزرعون أرضه. ولكن، ونحن نقبل قدوم الآخرين، لن ننتزعكم من هنا ما دمتم تحسنون التصرف... سهل عليكم أن تتعلموا، لكنكم كُسالى. أرجو أن تغيروا عاداتكم وأن تكونوا نشطين، وأن تتخلوا عن الرذائل الدنيئة التى تمارسونها، أما إذا بقيتم كما أنتم، فلابد أن تنقرضوا. سوف نساعدكم ونمنحكم حرية حقيقية، ولكن احذروا إثارة الفتن والتمرد على القانون والجرائم الأخرى، لأن الجيش الذى يحمى بإمكانه أن يُعاقب ، وسوف يدرككم أينما تكونوا .

ودخل الجنرال كيرنى "نيو مكسيكو" بسهولة ووقعت "سانتا فى" دون قتال، وفى السطور التالية يصف أحد الضباط الأمريكيين ردود أفعال المكسيكيين تجاه دخول الجيش الأمريكى للمدينة العاصمة:

> **اتخذ دخولنا المدينة... شكلاً عسكريًا إلى حد بعيد، فكانت السيوف مشهرة والخناجر فى كل نظرة. ومن كل اتجاه كان الرجال، بملامح ونظرات حادة وقاسية، ينظرون إلينا فى حذر، إن لم يكن فى رعب، والعيون السوداء تنظر إلى صفوف الفرسان عبر النوافذ، بعضها ينطق بالسعادة والأخرى تملأها الدموع.... ولما رُفع العلم الأمريكى وأطلقت المدافع تحيتها الوطنية المجيدة من فوق التل، لم تملك النساء التحكم فى مشاعرهن المكبوتة... بينما ارتفع عويل الحزن على جلبة الخيل ووصل مسامعنا من أعماق البيوت التى تبعث على الحزن والكآبة.**

كان ذلك فى أغسطس. ولم يكد يأتى ديسمبر حتى تمرد المكسيكيون فى تاوس بنيومكسيكو ضد الحكم الأمريكى. وذكر أحد التقارير المرسلة إلى واشنطن أن "كثيرين من ذوى التأثير من سكان الجزء الشمالى لهذه المنطقة كانوا أطرافًا فى التمرد." ومع ذلك، قمعت الثورة وألقى القبض على كثيرين، بيد أن ذلك لم يمنع عدداً من المتمردين من الفرار وتنفيذ هجوم متواصل أدى إلى مقتل عدد من الأمريكيين، وكان هؤلاء المتمردون يتخذون من الجبال ملجأً يحتمون به. ولم يسكت الأمريكيون، إذ قام الجيش الأمريكى باقتفاء أثر المتمردين ووقعت معركة فاصلة اشترك فيها ستمائة أو سبعمائة من المتمردين حيث قتل منهم حوالى مائة وخمسون وبدا أن التمرد قد انتهى.

وفى لوس أنجليس اندلعت حركة تمرد أخرى، حيث أجبر المكسيكيون الحامية الأمريكية على الاستسلام فى سبتمبر ١٨٤٦، ولم تتمكن الولايات المتحدة من استعادة سيطرتها على المدينة إلا فى يناير وبعد معركة دموية فاصلة.

وكان الجنرال تيلور قد سار عبر نهر ريو جراند واحتل منطقة "ماتاموروس" ثم اتجه صوب الجنوب إلى المكسيك، غير أن المتطوعين فى قواته أصبحوا أقل انضباطاً فى المكسيك، وأقدم كثيرون منهم على نهب القرى المكسيكية. وكتب أحد الضباط فى يومياته فى صيف ١٨٤٦: "وصلنا بوريتا فى حوالى الخامسة مساءً وكان هناك كثيرون من متطوعى لويزيانا وهم غوغاء سكارى لا يبالون باحترام القانون، لقد طردوا السكان واستولوا على ديارهم وكانوا يتبارون فى ارتكاب الأفعال الحيوانية." كما تضاعفت حالات الاغتصاب.

وبينما اتجه الجنود إلى كامارجو فى أعالى نهر ريو جراند، كانت حرارة الشمس غير محتملة والماء ملوثًا، وانتشرت الأمراض كالإسهال والدوسنتاريا حتى مات ألف من الجنود. وفى البداية، كان يتم دفن مَن ماتوا على أصوات اللحن الجنائزى الذى تعزفه فرقة عسكرية، ومع تزايد عدد الموتى فيما بعد توقفت إقامة مراسم الدفن العسكرية. وفى جنوب "مونتيرى" نشبت معركة أخرى مات فيها كثير من الرجال والخيل، ووصف أحد الضباط الأرض بأنها كانت "زلقة بما تحمله من زَبَدٍ ودماء."

وبعد أن استولى الجنرال تيلور على مونتيرى، أبلغ عن "بعض الفظائع المخجلة" التى ارتكبها المشاة من جنود تكساس، فقام بتسريحهم بمجرد أن انتهت مدة خدمتهم. غير أن غيرهم استمروا فى سلب المكسيكيين وقتلهم . فعلى سبيل المثال، اقتحمت جماعة من الرجال من إحدى كتائب كنتاكى أحد البيوت المكسيكية، وألقوا بالزوج خارج البيت واغتصبوا زوجته. وكانت عصابات الحرب المكسيكية ترد فى قسوة بالغة.

وبينما تقدمت الجيوش الأمريكية، قامت معارك، ومات وجُرح ومرض آلاف وآلاف؛ ففى أحد المعارك فى شمال تشيواوا، قُتل ثلاثمائة مكسيكى وجُرح خمسمائة، حسب ما ورد بالتقارير الأمريكية ولم يسقط سوى عدد قليل من الضحايا فى الجانب

الأمريكى: "إن الأطباء يعملون الآن على قدم وساق على التخفيف عن الجرحى المكسيكيين، وياله من مشهد فيه كومة كبيرة تضم الأرجل والأذرع التى بُترت!"

ويحكى جون فينتون، أحد قادة المدفعية، فى رسالة لأمه عن الإبحار إلى فيرا كروز قائلاً:

> **الطقس رائع وأفراد قواتنا فى صحة طيبة ويتمتعون بروح معنوية عالية وكل شئ حولنا يبشر بالنجاح. ليس ثمة ما أخشاه سوى ألا يقابلنا مكسيكيون ويشتبكون معنا فى معركة، ذلك أننا لو فزنا بكل شئ دون حرب وبعد كل هذه الاستعدادات الكبيرة، فلن يكون أمام ضباطنا فرصة لكسب المآثر وميداليات الشرف.**

غير أن فينتون لقى حتفه أثناء حصار فيرا كروز، حيث كان قصف الجيش الأمريكى للمدينة عملية قتل عشوائية للمدنيين، وسقطت إحدى قذائف البحرية على مكتب البريد، وأصابت قذائف أخرى كل أرجاء المدينة. وكتب أحد المراقبين المكسيكيين:

> **عانت المستشفى، الواقعة فى سانتو دومنجو، من إطلاق النار وقُتل كثيرون من نزلائها بسبب ما تعرضت له المستشفى من قصف بالقنابل، ففى أثناء إجراء عملية جراحية لأحد الجرحى، أدى انفجار إحدى القذائف إلى إطفاء الأنوار، وعندما جيء بأنوار جديدة، وُجد المريض ممزقًا بينما سقط آخرون بين قتلى وجرحى.**

وعلى مدى يومين، أُطلقت على المدينة ألف وثلاثمائة قذيفة، حتى اضطرت المدينة إلى الاستسلام، وكتب مراسل "نيو أورلينز دلتا" يقول: "يقدر المكسيكيون خسارتهم بما يتراوح بين خمسمائة وألف قتيل وجريح، لكن الجميع متفقون على أن عدد من قتل وجرح من العسكريين قليل نسبيًا إذا ما قورن بالعدد الكبير للنساء والأطفال."

وكتب الكولونيل هيتشكوك، بعد دخوله المدينة، يقول: "لن أنسى ما حييت النيران المخيفة التى كانت ترسلها مدافعنا... والتى كانت تنطلق فى يقين مخيف وغالبًا ما كانت تنفجر داخل البيوت، لقد كان مشهداً فظيعًا لدرجة أننى لا أحب التفكير فيه."

ولكن هيتشكوك، الجندى المنضبط، كتب للجنرال سكوت ما يشبه الخطاب الموجه إلى الشعب المكسيكى، وهو الخطاب الذى طُبعت منه عشرات الآلاف من النُسخ باللغتين الإنجليزية والإسبانية. وجاء فى هذا الخطاب: "إننا لا نحمل ذرةً واحدةً من سوء الطوية نحوكم، ونتعامل معكم بكل أدب. إننا لسنا أعداءً لكم؛ فنحن لا ننهب شعبكم أو نهين نساءكم أو دينكم ... لم نأت إلى هنا ابتغاء غرض دنيوى وليس لنا من غرض سوى الحصول على السلام."

كان هذا هو هيتشكوك المحارب. ثم لدينا الآن ويمز Weems المؤرخ الذى يقول:

> **إذا كان هيتشكوك، الفيلسوف المناهض للحرب، يلائم وصف هنرى ديفيد ثورو فى أنه "مستودعات وحصون صغيرة متحركة تعمل فى خدمة حاكم جائر"، فلابد أن نتذكر أن هيتشكوك كان محاربًا قبل كل شىء، بل ومحاربًا جيدًا كما شهد بذلك رؤساؤه الذين كان يعاديهم.**

كانت هذه حربًا بين النخبة الأمريكية والنخبة المكسيكية، تستنزف وتقتل كل نخبة فيها أهلها وأهل النخبة الأخرى. لقد قام القائد المكسيكى سانتا أنّا بسحق تمرد تلو آخر وقامت قواته بنهب البيوت واغتصاب النساء عقب كل انتصار، وعندما وصل الكولونيل هيتشكوك والجنرال وينفيلد سكوت إلى ضيعة سانتا أنّا، وجدا جدرانها مزدانة باللوحات الفنية وكان نصف جيشه قد مات أو جُرح فى المعارك.

واتجه الجنرال سكوت إلى مكسيكو سيتى حيث خاض آخر معاركه وكان معه عشرة آلاف جندى لم يبد عليهم الحماس الشديد لخوض المعركة. وبعد مسيرة ثلاثة

أيام من مكسيكو سيتى، وعند هالابا، تبخرت سبع كتائب من كتائبه الإحدى عشرة حيث كانت قد انتهت مدة خدمتهم. ويقول جاستن سميث:

ربما كان من الأفضل لو تباطأ الجيش عند هالابا... لكن الجنود كانوا قد تعلموا ماذا تعنيه حقًا الحملات الدعائية. لقد تُركوا فى مهمتهم دون رواتب ودون إمدادات كافية، وواجهوا مصاعب لم يقدروها حق قدرها وقت الانضمام إلى صفوف الجيش. وأصبح المرض والموت والمعارك والعمل المضنى والمسيرات المرعبة حقائق مؤكدة لا شك فيها... وبالرغم من رغبتهم القوية فى رؤية أروقة مونتيزومس، فلم يكن هناك، من بين ثلاثة آلاف وسبعمائة جندى، سوى ما يكفى لتكوين فرقة واحدة، كما أن الإغراءات الخاصة التى قدمها الجنرال سكوت للجنود كى يبقوا كجماعة واحدة قد أثبتت فشلها الكامل.

وفى ضواحى مكسيكو سيتى، وعند تشوروبسكو، اشتبكت الجيوش الأمريكية والمكسيكية لمدة ثلاث ساعات، ويصف ويمز ذلك قائلاً:

كانت الحقول المحيطة بتشوروبسكو قد غطتها جثث الضحايا من البشر التى اختلطت بجثث الخيول والبغال حيث سدت الطرق وملأت الأخاديد، وسقط من الجانب المكسيكى أربعة آلاف قتيل وجريح، وألقى القبض على ثلاثة آلاف (من بينهم تسعة وستون من الفارين من الجيش الأمريكى، الذين طلبوا حماية ضباط الجنرال سكوت كى لا يُعدموا على أيدى رفاقهم السابقين)... وخسر الجانب الأمريكى ما يقرب من ألف رجل بين قتيل وجريح ومفقود.

وكما هو الحال فى غالبية الحروب، فقد خيضت المعارك دون هدف واضح، فبعد معركة كالتى وقعت قرب مكسيكو سيتى وما سقط فيها من ضحايا، ألقى ضابط بحرية باللوم على الجنرال سكوت قائلاً: "لقد كان مسئولاً عن قيام هذه المعركة من الأساس، فقد خاض المعركة وهو مخطئ ولم يكن يملك قوات كافية، بل ولم يكن هناك هدف من وراء هذه المعركة."

وفى المعركة الأخيرة حول مكسيكو سيتى، استولت القوات الأمريكية على مرتفع تشابولتبك، ودخلت المدينة التى يسكنها مائتا ألف من البشر، ولم يملك الجنرال المكسيكى سانتا أنّا سوى الاتجاه شمالاً. كان ذلك فى سبتمبر ,١٨٤٧ وكتب تاجر مكسيكى إلى صديقه عن ضرب المدينة بالقنابل يقول: "فى بعض الحالات، كان يتم تدمير تجمعات كاملة من البيوت مما أدى إلى مقتل وإصابة عدد كبير من الرجال والنساء والأطفال." وهرب الجنرال سانتا أنّا إلى هومانتلا حيث خاض معركة أخرى واضطر إلى الفرار من جديد. وكتب أحد ضباط المشاة خطاباً إلى أبويه يحكى لهما ما حدث بعد مقتل ضابط اسمه ووكر فى أحد المعارك. يقول الضابط:

> **طلب منا الجنرال لينْ أن "نثأر لمقتل ووكر الجسور وأن... نستولى على أى شىء تقع عليه أيدينا." وقد نُفذ الأمر بحذافيره، فاقتحمت القوات محلات الخمور أولاً، ثم ارتكب الجنود، الذين ذهبت الخمر برؤسهم، كل أنواع الجرائم؛ أُجبرت النساء والفتيات على خلع ملابسهن... وأُطلقت النار على الرجال بالعشرات... ثم نهبت بيوتهم ومتاجرهم وكنائسهم وأملاكهم. ... تكومت جثث البشر على جثث الخيول بينما الجنود السكارى يصيحون ويصرخون مقتحمين البيوت أو مطاردين بعض المكسيكيين التعساء الذين هجروا بيوتهم وفروا بحياتهم. مثل هذا المشهد لا أتمنى أن أراه ثانيةً. لقد أتاح لى أن أشهد الواقع الحزين للطبيعة البشرية... وجعلنى لأول مرة أشعر بالخزى والعار من بلادى.**

ويلخص محررو "حوليات جرينجوز" مشاعر الجنود الأمريكيين تجاه تلك الحرب فى الكلمات التالية:

رغم أنهم تطوعوا بالذهاب إلى الحرب، والتزم كثيرون منهم وخاضوا المصاعب والمعارك وتصرفوا كما ينبغى أن يتصرف جنود فى بلد معادية، فإنهم لم يحبوا الجيش ولم يحبوا الحرب، وبصفة عامة، لم يحبوا المكسيك أو المكسيكيين. كانت هذه هى مشاعر الأغلبية: كراهية للوظيفة التى قاموا بها، وسخط على نظام الجيش القائم على الطبقية والأوامر، ورغبة فى التخلى عن هذه الوظيفة والعودة إلى البيت.

وكتب أحد المتطوعين من بنسلفانيا، أثناء تمركزه فى ماتا موروس، يقول:

تحكمنا هنا الأوامر الحاسمة والقاسية. بعض ضباطنا طيبون لكن الغالبية يتصرفون بعجرفة ووحشية مع الجنود... فالليلة، على سبيل المثال، قام أحد ضباط التدريب بشج رأس جندى بالسيف. ... ربما فى وقت قريب، يستطيع الجنود أن يقفوا على قدم المساواة مع الضباط ... إن حياة الجندى تبعث حقًا على الاشمئزاز.

وفى ليلة الخامس عشر من أغسطس ١٨٤٧، تمردت كتائب المتطوعين من فرجينيا وميسيسيبى وكارولاينا الشمالية وذلك فى شمال المكسيك ضد الكولونيل روبرت تريت بيْن. وقتل بيْن أحد المتذمرين ولكن اثنين من ضباطه رفضا مساعدته فى قمع التمرد أو تهدئته. وتمت فى النهاية تبرئة المتمردين فى محاولة للحفاظ على السلام.

لكن معدل الفرار من الجيش أخذ فى التزايد. ففى مارس ١٨٤٧ أبلغ الجيش عن فرار أكثر من ألف جندى. وبلغ عدد الفارين أثناء الحرب حوالى عشرة آلاف من

الجنود النظاميين وأربعة آلاف من المتطوعين. أما الذين لم يفروا فقد بات من الصعب السيطرة عليهم؛ فقد أشار الجنرال كوشنج إلى خمسة وستين من جنود الكتيبة الأولى لمشاة ماساتشوستس على أنهم "عُصاة متمردون لا سبيل إلى تقويمهم."

وعاد النصر بالمجد للرئيس والجنرالات ولم يجن الفارون ولا الموتى ولا المصابون شيئًا. فعلى سبيل المثال، مات مائة وسبعة وستون من الكتيبة الثانية لرماة ميسيسيبى بسبب المرض. وهناك كتيبتان من بنسلفانيا لم يعد من جنودهما، البالغ عددهم ألفًا وثمانمائة، سوى ستمائة. وخلال جلسة للكونجرس قال جون كالون، عضو الكونجرس عن كارولاينا الجنوبية، إن عشرين فى المائة من الجنود ماتوا فى المعارك أو بسبب المرض. وبدأت جماعة متطوعى ماساتشوستس بستمائة وثلاثين جنديًا، لكنهم عادوا دون ثلاثمائة منهم كانوا قد ماتوا بسبب المرض فى معظم الحالات، وفى حفل الاستقبال الذى أُقيم على شرفهم، تعرض قائدهم الجنرال كوشنج لكلمات النقد وصيحات الازدراء من جنوده. وكتبت "ذا كيمبريدج كرونيكل" The Cambridge "Chronicle : تتواتر كل يوم اتهامات خطيرة ضد المسئولين العسكريين من قبل المتطوعين."

ولما عاد المحاربون، ظهر على الفور المضاربون من أجل شراء ضمانات الأرض التى منحتها الحكومة للجنود، ونتيجة حاجتهم الماسة للمال، باع كثير من الجنود المائة وستين آكر فى مقابل خمسين دولارًا أو أقل. وقالت "نيويورك كوميرشيال أدفرتايزر" فى يونيو ١٨٤٧: "من الحقائق المعروفة أن ثروات كبرى قد صُنعت من وراء الجنود التعساء الذين حملوا أرواحهم على أكفهم فى الحرب. والذين صنعوا الثروات هم المضاربون الذين افترسوا الجنود وتاجروا بمعاناتهم. ولقد وقع جنود الحرب الأخيرة فريسة لنظام مشابه."

وفى نهاية المطاف استسلمت المكسيك. وخرجت أصوات تطالب بضم المكسيك كلها. لكن الولايات المتحدة لم تحصل إلا على نصف المكسيك بعد توقيع معاهدة "جوادالوب هيدالجو" والتى وقع عليها الجانبان فى فبراير ١٨٤٨، وتم اعتماد نهر ريو

جراند على أنه الحدود الجنوبية لتكساس، وتنازلت المكسيك عن نيو مكسيكو وكاليفورنيا مقابل خمسة عشر مليونًا من الدولارات، وهو الأمر الذى جعل مجلة "ويج انتيليجنسير" Whig Intelligencer المعبرة عن حزب الجمهوريين تقول: "نحن لا نأخذ شيئًا عن طريق الغزو... والحمد لله!"

الفصل التاسع

عبودية دون إذعان وتحرير دون حرية

كان دعم حكومة الولايات المتحدة لنظام الرق يقوم على مدى النفع الكبير لهذا النظام. ففى عام ١٧٩٠، كان الجنوب ينتج ألف طن من القطن كل عام. وصل معدل الإنتاج فى عام ١٨٦٠ إلى مليون طن. فى الفترة نفسها، زاد عدد الرقيق من خمسمائة ألف إلى أربعة ملايين. لكن مؤامرات العبيد وحركات تمردهم (حركة تمرد جابريل بروسير فى ١٨٠٠ ودينمارك فيسى فى ١٨٢٢ ونات تيرنر فى ١٨٣١) عجلت بإنشاء نظام للسيطرة على العبيد فى الولايات الجنوبية، تؤيده القوانين والمحاكم والقوات المسلحة والتحامل العنصرى لقادة الأمة السياسيين.

لم يكن ليقوض هذا النظام الحصين سوى تمرد شامل للعبيد أو حرب شاملة. فلو كان تمرداً، فربما يخرج عن الحدود المرسومة له ويتحول بغضبه إلى ما وراء نظام الرق؛ أى إلى نظام الإثراء الرأسمالى الناجح. ولو كانت حرباً، فسوف يتولى مَن دبروها ترتيب عواقبها. ومن ثم فإن إبراهام لنكولن، وليس جون براون، هو الذى حرر العبيد. فى عام ١٨٥٩، شنق جون براون، بمشاركة فيدرالية، لأنه حاول أن يقوم، عن طريق عنف ضيق النطاق، بتحقيق ما سيقوم لنكولن بتحقيقه عن طريق عنف واسع النطاق بعد سنوات عديدة، ونعنى بذلك إنهاء العبودية.

وبإلغاء العبودية بقرار حكومى، حيث دُفعت الحكومة دفعًا لفعل ذلك من قبل السود أحراراً وعبيداً والبيض المناهضين للعبودية، صار بإمكان الحكومة أن تضع

حدوداً لتحرير العبيد. إن تحرير العبيد عندما يبدأ من القمة، فإنه يعنى أنه سوف يسرى إلى الحد الذى تسمح به مصالح الجماعات المهيمنة. ولو تجاوز الحدود المرسومة له، مدفوعة بقوة كقوة الحرب أو أدبيات حملة عسكرية، يظل بإمكان الجماعات المهيمنة إلجامه وردّه إلى مكان آمن. ومن ثم، فبينما أدى إنهاء العبودية إلى إعادة بناء السياسة والاقتصاد الوطنيينْ، فان عملية إعادة البناء هذه لم تكن جذرية بل عملية آمنة. فى الحقيقة كانت عملية مربحة.

امتد نظام المستعمرة، القائم على زراعة التبغ فى فرجينيا وكارولاينا الشمالية وكنتاكى وزراعة الأرز فى كارولاينا الجنوبية، إلى الأراضى الخصبة والجديدة للقطن فى جورجيا وألاباما وميسيسيبى، ومن ثم كان ازدياد الحاجة إلى مزيد من العبيد. لكن استيراد العبيد أصبح غير قانونى منذ عام ,١٨٠٨ ولذلك ، فان هذا القانون، كما يقول جون هوب فرانكلين John Hope Franklin فى كتابه **من العبودية إلى الحرية** From Slavery to Freedom : " لم يُطبق منذ صدوره." ويقول فرانكلين: "إن الساحل الطويل المهمل والأسواق المضمونة ومطامع الأرباح الكبيرة كانت أكبر من أن يقاوم التجار الأمريكيون إغراءها..." ويُقدر أن عدد من جُلبوا من العبيد قبل الحرب الأهلية بطريقة غير قانونية كان ربع مليون تقريباً.

كيف يمكن وصف العبودية؟ ربما لا يستطيع من لم يقع ضحية هذا النظام أن يصفه على الإطلاق. غير أن كتاباً صدر عام ١٩٣٢، وكان من أكثر الكتب رواجًا فى ذلك الوقت ومؤلفاه مؤرخان ينتميان إلى الشمال الليبرالى، يرى أن نظام الرق ربما كان، بالنسبة للزنجى، "نقلة ضرورية إلى التمدين." لقد حاول الاقتصاديون والمؤرخون الأخصائيون تقييم نظام الرق عن طريق تقدير ما تم إنفاقه من أموال على العبيد كالطعام والرعاية الطبية. ولكن هل بإمكان ذلك أن يصف حقيقة الرق كما كانت قائمة بالنسبة لإنسان عاش داخل هذا النظام؟ هل "الظروف" التى أوجدت نظام الرق تتساوى فى الأهمية مع "الوجود الفعلى" له؟

كتب جون ليتل Little وكان عبداً يوماً ما:

> **يقولون إن العبيد سعداء لأنهم يضحكون ويمرحون. لقد تلقيت أنا وثلاثة أو أربعة آخرون مائتى جلدة فى النهار، لكننا، فى المساء، كنا نغنى ونرقص بل ونجعل الآخرين يضحكون من صلصلة قيودنا. من المؤكد أننا كنا سعداء! كنا نحاول ذلك كى لا تنفطر قلوبنا كل الانفطار إن هذا صادق صدق الإنجيل! فكِّر مليًا! أليس من المؤكد أننا كنا سعداء؟ لقد فعلتها أنا نفسى، فقد رقصتُ مرحًا فى السلاسل.**

يسجل دفتر أحوال إحدى المزارع، وهو وثيقة يضمها الآن أرشيف جامعة كارولاينا الشمالية، أعمار كل من ماتوا بها وسبب موتهم وذلك فى الفترة ما بين ١٨٥٠ إلى ١٨٥٥, تقول الوثيقة إن عدد من ماتوا فى غضون تلك السنوات الخمس هو خمسة وثلاثون فرداً، بلغ أربعة منهم فقط سن الستين، وأربعة آخرون ماتوا فى سن الخمسين، وسبعة فى سن الأربعينات، وسبعة فى ثلاثينات أو عشرينات أعمارهم، وخمسة ماتوا قبل أن يبلغوا الخامسة.

لكن هل تستطيع الإحصائيات أن تسجل ما عناه تمزق الأسُر، عندما قام سيد، ابتغاء الربح، ببيع زوج أو زوجة أو بيع ابن أو ابنة؟ فى عام ١٨٥٨، كتب أبريم سكريفن Abream Scriven إلى زوجته، بعد أن باعه سيده: "بلغى سلامى إلى أبى وأمى وودعيهما نيابةً عنى، وإذ لم يُكتب لنا لقاء فى هذا العام، فأملى أن نلتقى فى السماء."

فى كتابهما **زمن على الصليب** Time on the Gross والذى صدر حديثًا، يناقش روبرت فوجيل Fogel وستانلى إنجرمان Engerman عملية الجلد التى تعرض لها مائتان من العبيد فى مزرعة بارو فى لويزيانا بين عامى ١٨٤٠ و ١٨٤٢, يقول المؤلفان: "تبين السجلات أن إجمالى مرات الجلد التى وقعت فى خلال عامين قد

بلغ ١٦٠ مرة، أى بواقع ٠,٧ لكل عامل فى العام. وهذا يعنى أن نصف العمال لم يتعرض للجلد على الإطلاق خلال تلك الفترة." لكن بإمكان المرء أن يقول إن "نصف العبيد قد تعرضوا للجَلْد." وكذلك إذا قيل أن نسبة ٠,٧ المشار إليها تُبين أن عملية الجلد لم تكن متكررة، لكن إذا تفحصنا الأمر من قريب، لوجدنا أن عبداً كان يتعرض للجلد كل أربعة أو خمسة أيام.

لم يكن بارو، صاحب المزرعة المذكورة، أسوء من أى مالك آخر؛ فقد أنفق أموالاً على كسوة العبيد ومنحهم إجازات للاحتفالات وبنى صالة للرقص من أجلهم. لكنه أيضًا بنى سجنًا للعبيد "ودائمًا ما كان يأتى بطرق عبقرية لعقابهم، لأنه أدرك أن الشك وسيلة مهمة فى السيطرة على مَنْ يعملون عنده."

كان الجلد وما شابهه من عقوبات من صميم نظام العمل. لكن هربرت جاتمان Gutman، الذى يحلل إحصاءات فوجل وإنجرمان فى كتابه **العبودية ولعبة الأرقام** Slavery and Numbers Game، يكتشف أن "أربعة من بين كل خمسة من جامعى القطن، بصفة عامة، كانوا طرفًا فى أفعال تمردية فى العامين ١٨٤٠ و ١٨٤١ .... وكانت نسبة النساء المشتركات فى أعمال تمردية أعلى قليلاً من نسبة الرجال." وبالتالى، فان جاتمان يعارض ما يقوله فوجل وإنجرمان من أن عبيد مزرعة بارو أصبحوا "عبيداً مخلصين يمتازون بالولاء ويعملون بكل جد لأنهم رأوا فى مصلحة سيدهم مصلحة لهم وفى خيره خيراً لهم."

لم تكن ثورات العبيد فى الولايات المتحدة شائعة ولا واسعة النطاق كثورات العبيد فى جزر الكاريبى أو فى أمريكا الجنوبية. وربما كانت أكبر ثورة للعبيد فى أمريكا هى تلك التى وقعت بالقرب من نيو أورلينز فى عام ١٨١١، حيث تجمع ما يقرب من خمسمائة من العبيد بعد ثورة قاموا بها فى مزرعة شخص يُدعى ميجور آندرى، حيث قاموا، بما تسلحوا به من عصى وسكاكين وفؤوس، بإصابة صاحب المزرعة وقتل ابنه، ثم بدأوا فى مسيرة من مزرعة لأخرى ما جرّاً عبيداً آخرين على

الانضمام إليهم. غير أن قوات الجيش الأمريكى هاجمتهم وقتلت منهم ستة وستين فرداً وأصابت ستة عشر آخرين.

أما خطة دينمارك فيسى Denmark Vesey، والذى كان زنجيًا حرًا، فقد وأدت قبل أن تُنفَّذ فى عام ١٨٢٢، وكانت الخطة هى القيام بإحراق مدينة شارلستون فى كارولاينا الجنوبية، وكانت سادس أكبر مدينة فى أمريكا فى ذلك الحين، ثم البدء فى ثورة عامة يقوم بها العبيد فى المنطقة. وقال شهود كثيرون إن آلافًا من العبيد كانوا بصدد الاشتراك فى هذه الخطة بطريقة أو بأخرى، وكانوا قد جهزوا حوالى ٢٥٠ رُمحًا وحربة وما يزيد على ثلاثمائة خنجر، حسبما ما أورده هربرت أبثيكر Aptheker. لكن الخطة أُحبطت وشنق خمسة وثلاثون أسود كان من بينهم فيسى نفسه. أما سجل المحكمة فقد أُمر بالتخلص منه، بعد أن كانت قد تمت طباعته، وذلك لخطورته إذا حدث ورآه العبيد.

أما تمرد نات تيرنر فى مقاطعة ساوثهامبتون بفرجينيا فى صيف ١٨٣١، فقد بث الرعب فى قلب الجنوب الأمريكى، الذى كان مركزًا لاقتناء العبيد، مما جعله يبذل جهوداً منظمة لإبقاء نظام الرق. قام تيرنر، تحت زعم رؤى دينية، بجمع حوالى سبعين من العبيد، حيث قاموا بثورة من مزرعة إلى أخرى وقتلوا حوالى خمسة وخمسين من الرجال والنساء والأطفال. كما قاموا بجمع المؤيدين لهم، لكن ألقى القبض عليهم بعد أن نفدت ذخيرتهم. ونُفذّ حكم الإعدام شنقًا فى تيرنر وحوالى ثمانية عشر آخرين.

والسؤال الآن: هل أخرّت هذه الثورات قضية تحرير العبيد كما زعم المعتدلون من المناهضين لنظام الرق فى ذلك الوقت؟ جاءت إحدى الإجابات على لسان جيمس هاموند، أحد المؤيدين لنظام الرق، وذلك فى عام ١٨٤٥, يقول هاموند:

> **هل تظنون أنكم، حتى لو اتخذتم طريقة مختلفة كل الاختلاف بحيث استقطرتم الرحيق من شفاهكم وغنيتم كأجمل ما يكون الغناء، هل تظنون أن بإمكانكم إجبارنا على التخلى**

عن ألف مليون من الدولارات هى قيمة ما نملكه من عبيد، ومثلها نتيجة انخفاض القيمة الشرائية لأراضينا....؟

لقد فهم مالك العبيد ذلك واتخذ تدابيره. يقول هنرى تراجل Tragle فى كتابه ثورة عبيد ساوثهامبتون ١٨٣١ The Revolt of Southampton Slave :

فى ١٨٣١، كانت فرجينيا ولاية عسكرية مسلحة ... لقد استطاعت، بعدد سكانها الذى بلغ ١،٢١١،٤٠٥، أن تكون قوة عسكرية قوامها ١٠١،٤٨٨ فردًا بما فيهم الفرسان ورجال المدفعية والرماة والمشاة الخفيفة! ورغم أن ذلك كان "جيشًا من ورق" بطريقة أو بأخرى، بمعنى أن الكتائب لم تكن مجهزة أو مسلحة بشكل كامل، فان ذلك يعكس بدرجة مدهشة الحالة التى كان عليها الرأى العام فى ذلك الوقت؛ ففى الوقت الذى لم تواجه فيه فرجينيا أو الأمة كلها أى تهديد خارجى، نجد أن فرجينيا شعرت بالحاجة إلى تكون قوة أمنية بلغ عددها نسبة ١٠٪ من جملة سكانها. سواء من السود أو البيض، الذكور أو الإناث، العبيد أو الأحرار!

كان تمرد العبيد، رغم ندرته، خوفًا مقيمًا بين مالكى العبيد؛ فى كتابه **عبودية الزنجى الأمريكى** American Negro Slavery، والذى يُعتبر من الدراسات الكلاسيكية الآن، يقول الجنوبى ألريتش فيليبس Ulrich Phillips :

من بين الأفكار التى كانت راسخة لدى الجنوبيين أن الزنوج طيعون سهلو القياد وودودون تجاه البيض، على وجه العموم، وراضون إلى درجة يستحيل معها قيامهم بأى تمرد أو ثورة. بيد أن كان ثمة قلق أكبر مما تحدث عنه المؤرخون ... .

وفى دراسته الشاملة لنظام الرق تحت عنوان **تدحرج يا جوردان!** Roll, Jordan, Roll، يرى يوجين جينوفيز Genovese أن تاريخ الزنوج كان سجلاً "من التأقلم مع

نظام الرق ومقاومة له فى الوقت نفسه." تمثلت المقاومة فى سرقة ممتلكات السادة وتعطيل العمل والبطء فى إنجازه وقتل المشرفين على العمل والسادة وإحراق المزارع والفرار. حتى عملية التأقلم كانت لا تخلو من "روح ناقدة وأعمال تخريبية متخفية." ورغم أن معظم أفعال المقاومة كانت تفتقر إلى التنظيم أو الثورة المنظمة، فإن مغزاها، كما يؤكد جينوفيز، كان كبيراً سواء بالنسبة للسادة أو العبيد.

كان الهرب أكثر واقعية من التمرد المسلح؛ ففى أثناء عقد الخمسينيات من القرن التاسع عشر، كان يفر حوالى ألف عبد كل عام إلى الشمال أو كندا أو المكسيك، وفرّ آلاف آخرون لفترات قصيرة وذلك بالرغم من الرعب الذى كان يواجهه الفارون إذ كثيراً ما قامت الكلاب المستخدمة فى مطاردة الفارين "بعضّهم وتمزيقهم بل وقتلهم إذا لم يتم إيقافهم" على حد قول جينوفيز.

شـــقت هاريت توبمان Harriet Tubman، التى ولدت وتربت فى نظام الرق وأصابها أحد المشرفين فى رأسها وهى فى الخامسة عشر، طريقها إلى الحرية بمفردها وهى امرأة شابة، وأصبحت أشهر مُحصّلة تذاكر لمترو الأنفاق. لقد قامت بتسع عشرة رحلة ذهاباً وإياباً، وهى متنكرة، حيث ساعدت أكثر من ثلاثمائة من العبيد للوصول إلى الحرية، وكانت دائماً ما تحمل مُسدساً وتقول للفارين: "إما أن تصبحوا أحراراً أو تموتوا." وعبّرت عن فلسفتها قائلة: "كان لى الحق فى شيئين: الحرية أو الموت؛ فإذا لم أتمكن من أحدهما، فلابد أن أحقق الآخر، إذ ليس لأحد أن يملكنى وأنا على قيد الحياة ... ." وحكى أحد المشرفين لزائر جاء لزيارة المزرعة التى يعمل بها الأول أن "الزنوج عازمون على ألا يسمحوا لرجل أبيض بجلدهم، وإذا حاولت ذلك، فسوف يقاومونك وبالطبع فلابد أن تقتلهم فى مثل هذه الحالات." كانت إحدى طرق المقاومة عدم الاكتراث بالعمل؛ ففى كتابه **هبة السود** The Gift of Black Folk، يقول وى. إى. بى. دى بوا :W. E. B. Du Bois

لأنه إنتاج استوائى ذو تفتح حسى لجمال العالم، لم يكن من السهل أن يتحول الإنسان الأسود إلى عامل آلى كما هو

الحال مع نظيره الأوربى الشمالى. لقد كان ... يجب أن يعمل طالما أسعدته نتائج عمله وكان يرفض العمل ما استطاع إلى ذلك سبيلا طالما جاء المردود الروحى لهذا العمل ناقصاً، ومن ثم فقد كان من السهل أن يُتهم بالكسل وأن يُساق كعبد بينما فى الحقيقة هو الذى جلب إلى العمل اليدوى الحديث قيمة متجددة للحياة.

لقد وصف ألريتش فيليبس المقصود بكلمات أو عبارات من قبيل "التهرب من أداء العمل"، و"التغيب عن العمل أو الفرار" و"الإجازات دون إذن" و"الجهود التى لا تهدأ من أجل الهرب من القيود بشكل نهائى." كما وصف فيليبس الأعمال الجمعية قائلاً:

أحيانًا ما كانت تقوم جماعة بالإضراب احتجاجًا على القسوة التى كانوا يلقونها فى المزارع، وقد وردت قصة من هذا النوع فى خطاب أرسله أحد المشرفين على مزرعة بفرجينيا كان قد أرسله إلى صاحب العمل الذى يبدو أنه كان على سفر: "سيدى، أكتب إليك هذه السطور القليلة كى أحيطك علمًا بأن ستة من عمالك قد غادروا المزرعة ... . لم يؤدوا عملهم على أكمل وجه، فأنزلت بهم بعض الجلدات ... . وفى يوم الأربعاء، لم أجدهم.

إن الحالات التى قام فيها فقراء البيض بمساندة العبيد لم تكن كثيرة، لكنها كافية بدرجة توضح الحاجة إلى التكاتف ضد الآخر. يقول جينوفيز:

كان لدى مالكى العبيد ... شك فى أن البيض من غير مالكى العبيد كانوا يشجعون العبيد على العصيان والتمرد لا تعاطفًا معهم ولكن كراهية فى الأثرياء من أصحاب المزارع وسخطًا على الفقر الذى كانوا يعيشون فيه. وكان البيض، فى

بعض الأحيان، طرفًا فى أحداث التمرد التى قام بها العبيد وكان شئ كهذا كفيلاً بأن يُشعل مخاوف الأثرياء. ولعل هذا يفسر لنا الإجراءات البوليسية الصارمة التى فُرضت لمواجهة البيض الذين تآخوا مع السود.

يقتبس هربرت أبثيكر تقريراً ورد إلى حاكم فرجينيا عن إحدى مؤامرات العبيد فى ١٨٠٢: "تلقيت لتوى ما يفيد أن ثلاثة أفراد من البيض لهم صلة بالمؤامرة وأن لديهم ذخيرة وأسلحة يخفونها تحت منازلهم وأنه كان من المفترض أن يمدوا الزنوج بالعون عندما يبدءون مؤامرتهم." وقال أحد العبيد المتآمرين بأن هؤلاء "من فقراء البيض."

وفى المقابل، قام السود بمساعدة ذوى الحاجة من البيض؛ وعلى سبيل المثال، فقد تحدث أحد الهاربين السود عن امرأة سوداء تلقت خمسين جلدة من سوط سيدها لأنها قدمت طعاماً إلى جارها الأبيض الذى كان يعانى الفقر والمرض.

عند شق قناة برنزويك فى فرجينيا، لم يكن ثمة اختلاط بين العبيد والعمال الأيرلنديين البيض تحت زعم أن كليهما سيمارس العنف ضد الآخر. ربما كان ذلك صحيحاً، لكن فانى كيمبل Fanny Kemble، الممثلة الشهيرة وزوجة أحد أصحاب المزارع، كتبت فى يومياتها تقول:

رغم أن الأيرلنديين معروفون بميلهم إلى العراك والشغب والتقاتل والشراب واحتقار الزنوج، فإنهم عاطفيون مندفعون وطيبو القلب كرماء. لهم سخط شديد يندلع فجأة إذا لم يواجه بشدة، كما أنهم يميلون إلى التعاطف مع الآخرين ... ومن ثم كان الخوف من أن يتعودوا على التعاطف مع العبيد، واترك لكم الحكم على العواقب التى قد تأتى نتيجة ذلك. إننى على يقين أنكم تدركون أن أمثال هؤلاء لا يمكن أن يُسمح لهم، بأية حال من الأحوال، بالعمل فى قناة برنزويك.

إن الحاجة إلى السيطرة على العبيد أدت إلى اختراع وسيلة ذكية تتمثل فى استئجار فقراء البيض، الذين كانوا أنفسهم مصدراً للقلق طوال قرنين فى الجنوب، كى يعملوا مشرفين على العبيد وبالتالى يقومون مقام الحواجز أو المصدات للكره الأسود.

وكان الدين وسيلة للسيطرة على السود؛ إذ كان ثمة كتاب لا يخلو عنوانه من غرابة **سجل مزارع القطن ودفتر الحساب** **Cotton Plantation Record and Account Book**، وقد قدم ذلك الكتاب النصائح التالية إلى المشرفين: "ولسوف تجد أن تخصيص ساعة من صباح كل سبت لتوجيههم الدينى والأخلاقى سيكون عوناً عظيماً لك تكسب به رضا الزنوج."

أما فيما يخص الوعاظ السود، فكان عليهم، كما يقول جينوفيز، "أن يتحدثوا لغة قوية تحافظ على الروح المعنوية فيما بين السود، لكنها ليست حماسية بحيث تورط السود فى معارك لا قبل لهم بها، ولا هى تشاؤمية بحيث تثير حنق القوى الحاكمة."

لقد أملى الواقع، على حد ما يرى جينوفيز، الحقيقة التالية: "رغم حصارها بين الكثرة البيضاء المتميزة والقوية، فإن جماعات الزنوج قد توصلت إلى استراتيجية مفادها الصبر والقبول بما لا يملكون منه فكاكا والحفاظ على حياتهم وصحتهم. إنها استراتيجية البقاء التى، كنظيرتها الإفريقية، تقول: نعم للحياة فى هذا العالم."

كان من المُعتقد أن نظام الرق قد قضى على الأسرة السوداء، ومن ثم كانت أحوال السود تُرد إلى هشاشة الأسرة أكثر منها إلى الفقر والتحامل؛ إذ أن السود الذين لا عائلة لهم ولا قرابة ليس لديهم رغبة فى المقاومة. غير أن المقابلات التى أجراها مع العبيد السابقين أعضاء المشروع الفيدرالى للكتّاب لصالح مكتبة الكونجرس فى ثلاثينيات القرن العشرين، كشفت عن قصة مختلفة يلخصها جورج رويك **Rawick** فى كتابه من **الغروب إلى الشروق** **From Sundown to Sunup** :

كان مجتمع العبيد يتصرف كنظام قرابة ممتد وعام، يقوم فيه كل الكبار برعاية كل الأطفال، ولم يكد يكون هناك فرق بين "أطفالى" و"أطفالك" .... إنه نظام أسرى تقع فيه مسئولية كبيرة على الأطفال الأكبر لرعاية الصغار ويسير بشكل متكامل، لا تعرفه الأسر الحديثة للطبقة المتوسطة والتى تتألف من أفراد يميلون إلى النزعة الفردية والتنافس أحيانًا... لقد قامت جهود العبيد، فى حقيقة الأمر، بما هو أكثر من مجرد خلق نظام أسرى متكامل يحول دون هدم أو تحطيم شخصية الإنسان الأسود ... . فقد كان ذلك جزءًا لا يتجزأ من العملية الاجتماعية التى خرجت من عباءتها مفاهيم من قبيل الفخر الأسود والمجتمع الأسود والتمرد الأسود والثقافة السوداء والهوية السوداء فى أمريكا.

خرج المؤرخ هربرت جاتمان، فى كتابه **الأسرة السوداء فى الرق والحرية** The Black Family in Slavery and Freedom، ببعض الخطابات والوثائق إلى النور، وهى تعكس المقاومة الصلبة التى أبدتها الأسرة السوداء فى مواجهة ضغوط التشتيت. كتبت امرأة إلى ابنها الذى أُبعدت عنه مدة عشرين عامًا تقول: "بى شوق لأن أراك بعد أن تقدم بى العمر... . أتوسل إليك يا ولدى العزيز أن تأتى لرؤية أمك العزيزة المُسّنة ... أحبك يا كاطو فأحبب أمك لأنك ولدى الوحيد ... ." وكتب رجل إلى زوجته التى بيعت هى وأطفالها يقول: "أرسلى إلىّ ببعضٍ من شعر الأطفال فى ورقة منفصلة واكتبى أسماءهم على الورقة ... . كم تمنيت لو أن شيئًا آخر قد ألم بى غير افتراقى عنك والأطفال ... . أحبك كثيرًا يا لورا ... ." كما وجد جاتمان، عند تصفحه سجلات الزواج الخاصة بالعبيد، أن نسبة الزواج بينهم كانت عالية وثابتة. ولما درس السجلات المحفوظة كاملة لأحد المزارع فى كارولاينا الجنوبية، وجد سجلات المواليد لمائتين من العبيد تبدأ من القرن الثامن عشر وحتى قبيل الحرب الأهلية. وعكست هذه

السجلات علاقات قرابة ثابتة وإخلاصاً غير عادى فى علاقات الزواج ورفضًا للزواج الإجبارى.

تعلق العبيد فى إصرار بذواتهم وحبهم لأسرهم كما تمسكوا بإحساسهم بالتمام والكمال. وقد عبر صانع أحذية من كارولاينا الجنوبية عن هذا المعنى بطريقته الخاصة فى قوله: "لقد فقدت أحد ذراعىّ لكنه موجود فى عقلى." وانتقل هذا الترابط والتضامن الأسرى إلى القرن العشرين، ويتذكر الفلاح الجنوبى الشهير نيت شو Nate Shaw أن أباه، بعد موت أخته تاركةً وراءها ثلاثة أطفال، اقترح عليه المشاركة فى رعاية الأطفال. ويتذكر شو أنه رد على أبيه قائلاً:

نعم يا أبى ... لتكن رعايتنا لهم كالتالى: ليبق الولدان الأصغران فى بيتك وليبق الولد الأكبر فى بيتى بحيث يظل الأولاد بعيدين لا يرى كل طرف منهما الآخر. وسوف آتى إليك بولدى الكبير كى يعيش فى بيتك ثم بعد ذلك تُرسل إلىّ بولديك بحيث يكبر جميع الأولاد كأخوة. وأرجو ألا تفرق بينهم كى لا ينسى أحدهم الآخر. لا تفعل شيئًا كهذا يا أبى.

وفى كتاب **الثقافة السوداء والوعى الأسود** Black Culture and Black Consciousness يؤكد لورانس ليفاين Levine على قوة السود حتى فى فترة العبودية، ويقدم صورة لثقافة العبيد الغنية والتى هى خليط من التأقلم والتمرد وذلك من خلال إبداع القصص والأغانى. تقول إحدى الأغنيات:

نزرع القمح

فيعطونا الذرة.

نصنع الخبز

فيعطونا الفتات.

نجهز لهم الطعام

فيعطونا البقايا.

نشفى لهم اللحم

فيعطونا الجلد.

وهذه هى الطريقة

التى يخدعونا بها.

نقشد لهم القشدة

فيعطوننا الخمر،

ويقولون إنه طيب للزنجى.

وكان هناك أيضًا التهكم الذى يسير السخرية، ويحكى الشاعر وليم كولن برانيت، بعد أن حضر عملية تقشير الذرة فى عام ١٨٤٣ بكارولاينا الجنوبية، عن رقصات العبيد التى تحولت إلى تقليد العروض العسكرية "وهو نوع ساخر لتدريبات قواتنا العسكرية... ."

وكانت للروحانيات، فى أغلب الأحيان، معان مزدوجة؛ فأغنية مثل "كنعان! يا حبيبى! أنا فى طريقى إلى أرض كنعان." غالبًا ما كانت تعنى الشمال التى كانت تمثل أرض كنعان العبيد. وفى أثناء الحرب الأهلية، بدأ العبيد فى تأليف روحانيات جديدة ذات رسائل وأهداف جريئة مثل: "قبل أن أكون عبداً، أتمنى أن أُدفن فى قبرى وأعود إلى بارئى لينقذنى." ويشير ليفاين إلى مقاومة العبيد باعتبارها "ممهدة للموقف السياسى pre - political تم التعبير عنها فى مواقف لا تحصى فى الحياة اليومية. كانت الموسيقى والفن والدين والسحر وسائل، كما يقول ليفاين، للعبيد كى يتمسكوا بإنسانيتهم.

وبينما انتظر العبيد فى الجنوب، فإن السود الأحرار فى الشمال، والذين وصل عددهم إلى ٢٠٠,٠٠٠ فى عام ١٨٥٠، قاموا بالتحريض من أجل إلغاء نظام الرق. فى عام ١٨٢٩ انتقل ديفيد ووكر، الذى كان ابن عبد لكنه ولد حراً فى كارولاينا الشمالية، إلى بوسطن حيث عمل فى تجارة الملابس القديمة، وقام ووكر بتأليف كُتيب ونشره تحت عنوان **مناشدة ووكر Walker's Appeal** وأصبح ذلك الكُتيب معروفاً على نطاق واسع، الأمر الذى أشعل غضب مالكى العبيد الجنوبيين حتى وصل الأمر أن رصدت جورجيا عشرة آلاف دولار مكافأة لمن يسلمه حياً أو ألفاً لمن يقتله. ومَن يقرأ ما كتبه ووكر يدرك لماذا كانت المكافأة كبيرة إلى هذا الحد. قال ووكر إن التاريخ لم يشهد نظاماً للرق، بما فى ذلك ما شهده بنو إسرائيل فى مصر، أسوء من استعباد الرجل الأسود فى أمريكا: أرونى صفحة من التاريخ، سواء المقدس أو غير المقدس، عليها أشعار تقول بأن المصريين ألحقوا ببني إسرائيل إهانة من قبيل اتهامهم بأنهم ليسوا بشراً."

كان ووكر شديد القسوة لمن يفهمه من إخوانه السود عندما قال:

كم أتمنى أن يفهم الجميع أننى، بكل صدق، لا أدفع ما يحمله إصبعان من نشوق كى أتزوج من أية امرأة بيضاء رأيتها على مدار حياتى.

وقال ووكر إن على السود أن يقاتلوا فى سبيل حريتهم:

فليستمر أعداؤنا فى ظلمهم وغيّهم حتى تمتلئ كؤوسهم. ولا تحاولوا كسب حريتنا أو حقنا الطبيعى من تحت أيدى قاهرينا وقاتلينا إلا عندما ترون الطريق إلى ذلك واضحاً، وعندما تحين هذه الساعة وتبدءون فى التحرك، لا تدعوا خوفاً أو فزعاً يثنيكم عن الطريق... لقد منحنا الله، كما منحهم، عينين ويدين ورجلين وعقلاً فى رؤوسنا. ومن ثم فلاحق لهم فى استعبادنا إلا كحقنا فى استعبادهم ... لسوف تنتهى آلامنا

> **ومعاناتنا رغم أنف الأمريكيين، ويومئذٍ سوف نكون بحاجة إلى كل معرفة وموهبة بيننا، وربما أكثر، كى نحكم أنفسنا. وإذا كان المثل يقول: "الدهر يومان: يوم لك ويوم عليك." ويوم الأمريكيين قد بدأت نهايته.**

وفى أحد أيام صيف ١٨٣٠، عُثر على ديفيد ووكر ميتًا قرب مدخل حانوته فى بوسطن.

غير أن بعض الذين ولدا فى نظام الرق استطاعوا تحقيق رغبة الملايين التى لم يحققوها. لقد استطاع فريدريك دوجلاس، العبد الذى أُرسل إلى بالتيمور للعمل كخادم وعامل فى صناعة السفن، أن يتعلم القراءة والكتابة، وفى الواحدة والعشرين من عمره، أى فى عام ١٨٣٨، هرب إلى الشمال حيث أصبح أشهر رجل أسود فى زمانه، إذ صار مُحاضراً ومحرراً صحفيًا وكاتبًا. فى سيرته الذاتية **قصة حياة فريدرك دوجلاس** Narrative of the Life of Frederick Douglass، يتذكر دوجلاس كيف كانت ظروف حياته وأفكاره عندما كان طفلاً:

> **لماذا أكون عبدًا؟ لماذا يكون بعض الناس عبيدًا والآخرون سادة؟ هل كان ثمة زمن لم يكن فيه الأمر كذلك؟ كيف بدأت هذه العلاقة؟ غير أننى، ذات يوم، باستغراقى فى التفكير فى ذلك الأمر، لم أقض وقتًا طويلاً للعثور على حل لهذه المسألة. ليس الأمر فى اللون بل فى الجريمة، ليس الله مسئولاً عن ذلك بل الإنسان، كما لم أقض وقتًا طويلاً فى اكتشاف حقيقة أخرى مهمة وهى: يستطيع الإنسان ألا يصنع ما يستطيع أن يصنعه ... . أذكر الآن بوضوح شديد كم كانت سعادتى بفكرة أن أكون حرًا يومًا ما. كانت هذه الفكرة المبهجة حلمًا فطريًا لطبيعتى البشرية وتهديدًا دائمًا لعبوديتى. كانت الفكرة حلمًا قويًا لم تستطع كل قوى نظام الرق على إطفائه أو إسكاته.**

كان قانون العبد الهارب، الذى صدر فى ١٨٥٠، امتيازاً للولايات الجنوبية فى مقابل قبولهم بأن تكون الأراضى التى ضُمت بعد الحرب المكسيكية إلى الاتحاد كولايات (كاليفورنيا، على وجه الخصوص) خالية من العبيد. وقد سهّل هذا القانون على مالكى العبيد أن يلقوا القبض على العبيد السابقين أو على السود والإدعاء بأنهم عبيد هاربون. فلم يسكت السود فى الشمال ونظموا مقاومة ضد القانون الذى صدر وأدانوا الرئيس فيلمور Fillmore الذى وقعّه والسيناتور دانيال ويبستر Daniel Webster الذى أيده. كان أحد هؤلاء ج. و. لوجوين J. W. Loguen وهو ابن لامرأة سوداء حملت من مالكها الأبيض. وكان قد هرب على ظهر فرسة سيده سعياً للحرية، والتحق بإحدى الكليات وأصبح راعياً فى سيراكوز بنيويورك. فى عام ١٨٥٠ تحدث فى جمع من أهل المدينة، بعد صدور القرار المشار إليه، قائلاً:

> **آن الأوان كى تتحول نبرات الإذعان إلى نبرات للتحدى، وإننا لنقول للسيد فيلمور والسيد ويبستر أن يأتيا بكلاب المطاردة إذا أرادا تطبيق هذا القانون علينا ... . لقد جاءتنى حريتى من السماء، وجاءنى معها الأمر بالدفاع عنها ... . إننى لا أحترم هذا القانون ولا أخشاه ولن أطيعه! .... لن أعيش عبداً ، وإذا تم اللجوء إلى القوة لاستعبادى ثانية، فسوف أتخذ استعدادات للتعامل مع هذه الأزمة كما يليق برجل. ... إن قراركم الليلة بالمقاومة سوف يعطى مُتنفساً للحرية ويفرق شمل أعدائكم ويبعث بالسرور إلى كل ربوع الشمال... إن السماء تعرف أن هذا الفعل الجرىء والنبيل سوف يندلع فى مكان ما، وندعو الله أن تتشرف سيراكوز بأن تكون هذا المكان الذى سيرسل صوتاً مُزلزلاً إلى كل مكان فى البلاد!**

وفى العام التالى، جاءت الفرصة لسيراكوز، حيث قُبض على عبد فار يُدعى جيرى ووضع فى السجن انتظاراً للمحاكمة، فخرج جمع حاشد يحمل أفراده قضبان

الحديد لاقتحام المحكمة، ووسط أسلحتهم المشهرة، وفى تحدٍ لحراس السجن، قاموا بإطلاق سراح جيرى. وجعل لوجين من بيته فى سيراكوز محطة رئيسية لمترو الأنفاق، وقيل إنه ساعد ١٥٠٠ عبداً فى الهرب إلى كندا. ووقعت مذكراته عن أيام استعباده فى أيدى سيدته السابقة، فكتبت إليه تطلب منه إما العودة إليها أو إرسال ألف دولار على سبيل التعويض. ونُشر رد لوجين فى جريدة "المحرر" The Liberator لسان حال الداعين إلى إلغاء نظام الرق، وجاء فيه:

السيدة سارا لوج ...

تقولين إن لديك عروضًا لشرائى وإنك سوف تبيعيننى إذا لم أرسل إليك ألف دولار وفى نفس الجملة تقريبًا، تقولين: "تعرف أننا ربيناك كما ربينا أطفالنا." هل ربيت أطفالك من أجل السوق، يا امرأة؟ هل ربيتهم من أجل عمود الجَلْد؟ هل ربيتهم كى يُساقوا مقيدين فى السلاسل؟ ... عار عليك ما تقولين! وتقولين إننى لص لأننى أخذت معى المهرة العجوز، هل علمت أن لى حقًا فيها أكبر من حق زوجك فىّ؟ هل من الخطيئة أن أسرق حصان سيدى بينما لم يرتكب هو الخطيئة عندما اقتحم سرير أمى وسرقنى؟ وهل علمت أن الحقوق البشرية متبادلة وأنك عندما تأخذين حريتى وحياتى، فإنك تخسرين حريتك وحياتك؟ وهل لإنسان أمام الله، قانون خاص دون بقية البشر؟ فإذا أردتِ أنت أو أى مراهن آخر على جسدى وحقوقى أن تعرفوا كيف أرى حقوقى، فليس عليكم سوى أن تأتوا إلى هنا وأن تضعوا أيديكم علىّ كى تستعبدونى من جديد ... .

لقد عرف فريدريك دوجلاس أن العار المرتبط بنظام الرق لم يقتصر فقط على الجنوب وأن الأمة كلها متورطة فى ذلك العار. وفى الرابع من يوليو عام ١٨٥٢، ألقى دوجلاس خطابًا فى عيد الاستقلال جاء فيه:

إخوانى المواطنين: أرجو المعذرة واسمحوا لى أن أسأل: لماذا دُعيت للحديث هنا اليوم؟ ما علاقتى وما علاقة من أمثلهم بيوم استقلالكم؟ هل تنطبق علينا المبادئ العظيمة للحرية السياسية والعدل التى يجسدها إعلان الاستقلال؟ وهل، من أجل ذلك، دُعيت كى آتى بقرباننا المتواضع وأقدمه إلى المذبح الوطنى، وأن اعترف وأعبر عن الامتنان الشديد للنعم التى جلبها استقلالكم إلينا؟ ما الذى يعنيه الرابع من يوليو للعبد الأمريكى؟ وإجابتى تقول إنه يوم يكشف للعبد الأمريكى، أكثر من أى يوم آخر، عن الظلم الفادح والقسوة الشديدة اللذين كان ضحية دائمة لهما. إنه يرى فى احتفالكم عارًا وفى حريتكم التى تتباهون بها شيئًا لا يبعث على الاحترام. إن عظمتكم الوطنية وخيلاءكم المنتفخ وصخب فرحكم أشياء فارغة لا تعرف الرحمة. وليست إدانتكم للطغاة ووقاحتكم النحاسية ونداءاتكم بالحرية والمساواة سوى شعارات فارغة تبعث على السخرية. كما أن صلواتكم وترنيماتكم ومواعظكم ليست، فى عين العبد الأمريكى، إلا خداعًا وغشًا ونفاقًا وتقوى زائفة وحجابًا رقيقًا لتغطية جرائم تفضح أمة من الهمج. ليس على وجه الأرض شعب مذنب بما يمارسه من أفعال دموية كشعب الولايات المتحدة فى هذه الساعة. اذهبوا أين شئتم وابحثوا أين أردتم وجوبوا كل الممالك وكل بلاد الظلم فى العالم القديم وسافروا إلى أمريكا الجنوبية وفتشوا عن كل انتهاك، ثم قارنوا ما رأيتموه مع ممارسات هذه الأمة التى تحدث كل يوم، وسوف تقولون معى إن أمريكا لا نظير لها فى البربرية والكذب اللذين لا يعرفان الخجل ... .

لم يكن ثمة علامة على تمرد للسود فى الجنوب بعد مرور عشر سنوات على ثورة نات تيرنر، لكن حادثة وقعت فى عام ١٨٤١ كان من شأنها أن تبقى على فكرة الثورة والتمرد حية. فأثناء نقل جماعة من العبيد على ظهر السفينة كريول Creole، قام عدد منهم بمهاجمة طاقم السفينة وقتلوا أحد أفراد الطاقم ثم أبحروا بالسفينة إلى الهند الغربية حيث أُلغى نظام الرق فى عام ١٨٣٣, ورفضت بريطانيا إرجاع العبيد إلى أمريكا إذ كان ثمة قلق شديد فى إنجلترا ضد نظام الرق الأمريكى، وأدى قرار بريطانيا بعدم إرجاع العبيد إلى حديث غاضب فى الكونجرس يلوح بالحرب مع إنجلترا وكان يدعم هذا الحديث وزير الخارجية دانيال ويبستر. وأدانت صحيفة الملونين The Colored Peoples Press الموقف المندفع لويبستر وكتبت منوهة بحرب الثورة وحرب ١٨١٢:

هل سنقاتل، إذا أُعلنت الحرب، دفاعًا عن حكومة تنكر علينا أغلى حق لنا وهو حق المواطنة؟ ... لقد استفادت الولايات التى نعيش فيها من خدماتنا التطوعية مرتين ولم نلق منها سوى القيود والاستعباد. فهل سنقبَلُ للمرة الثالثة الأقدام التى تدوسنا؟ إننا لو فعلنا، فلن نستحق سوى قيودنا.

ومع تزايد التوتر شمالاً وجنوبًا، أصبح السود أكثر راديكالية وتسليحًا. لقد تحدث فريدريك دوجلاس، فى عام ١٨٥٧، قائلاً:

اسمحوا لى أن أعطيكم نبذة عن فلسفة الإصلاح. يقول تاريخ تقدم الحرية على امتداده بأن كافة الامتيازات التى أنجزت باسمها لم تأت إلا عن طريق النضال. فليس هناك تقدم ما لم يكن هناك نضال، والذين يتمنون الحرية فى الوقت الذى يستنكرون فيه الثورة والغضب كالذين يتمنون المحصول دون أن يحرثوا الأرض. فمثل هؤلاء يتمنون مطرًا بغير برق أو رعد، ويريدون المحيط دون أن يتحملوا زئير الأمواج. قد يكون النضال

أخلاقيًا وربما يكون بدنيًا وربما كان الاثنين معًا، لكن من المؤكد أنه نضـال. إن القـوة لا تتنازل عن أى شـىء دون أن يكون وراءه مطالبون؛ لم تفعل ذلك يومًا ولن تفعله ... .

كان ثمة اختلافات تكتيكية بين دوجلاس ووليم لويد جاريسون رئيس تحرير مجلة "ذا ليبـرايتور" The Liberator والداعى لإلغـاء الرق، وهى اختـلافـات بين المناهـضين لنظام الرق من البيض من ناحية والسود من ناحية أخرى؛ فقد كان السود أكثر رغبة فى الاشـتراك فى التمرد المسلح، لكنهم كانوا أيضًا على استعداد لاستغلال الحيل السـياسيـة القـائمـة مثل صناديق الاقتـراع والدسـتـور أو أى شئ من شـأنه تدعيم قضيتهم. لم ينطلق السود من مبادئ أخلاقية مطلقة كما كان حال المناهضين للرق من البيض. كان السـود يعرفون أن الضـغط الأخـلاقى وحده لا يكفـى، بل لابد من اللجـوء إلى كل التكتيكات بداية من الانتخابات وحتى التمرد والثورة.

تعكس أحد المواقف التى تعرض لها أطفال سود بمدرسة خـاصة يمولها الزنوج فى سينسيناتى كيف كانت قضـية الرق حاضـرة دائمًا فى عقول وقلوب زنوج الشـمـال. كان على الأطفـال أن يجيبـوا عن سؤال يقـول: ما الشـىء الذى تفكر فـيـه بشكل دائم؟ وتحـفظ السـجلات خمس إجابات وكلها تشـير إلى العـبودية. فى إحدى هذه الحلقـات كتب طفل فى السابعة:

زمـلاء المدرسة الأعزاء! سـوف نشـترى فى الصـيف القـادم مزرعـة نعمل بهـا جزءًا من اليـوم وندرس فى جزء آخـر، ونعـود إلى البيت فى جزء ثالث لنرى أمـهاتنا وأخواتنا وبنات عمـومتنا ونرى أهلنا الطيبين، ونحـاول أن نكون أولادًا صـالحين ونحلم أن يأتى رجل يُخلّص العبيد التـعسـاء من الأسر وإنه ليـحزننى أن أسمـع خبر السـفينة... التى غرقت فى النهر وعلى متنها مائتان من العبيد المسـاكين. يحزننى كثيرًا أن أسـمـع ذلك حتى أكاد أسقط فاقد الوعى خلال دقيقة واحدة.

قام المناهضون لنظام الرق من البيض بأعمال رائدة وشجاعة سواء عن طريق إلقاء الخطب أو الكتابة فى الصحف. غير أن نظراءهم من السود، والذين كانوا أقل شهرة، كانوا العمود الفقرى لحركة مناهضة الرق؛ فقبل أن يُصدر جاريسون مجلة "ذا ليبرايتور" The Liberator فى بوسطن عام ١٨٣١، كان أول مؤتمر وطنى للزنوج قد عُقد، وكان ديفيد ووكر قد نشر كُتيبه الشهير مناشدة ووكر كما صدرت بالفعل مجلة ناطقة بلسان المناهضين السود للرق اسمها" "Freedom's Journal"، وكان معظم أول خمسة وعشرين مشتركًا فى "ذا ليبرايتور" من السود. كان على السود دائمًا أن يقاوموا العنصرية الكامنة فى العقل الباطن للمناهضين للرق من البيض، كما كان عليهم أن يصروا على استقلال صوتهم؛ فقد كان دوجلاس يكتب فى "ذا ليبرايتور" ، ولكنه أصدر جريدته الخاصة عام ١٨٤٧ فى روشيستر تحت اسم "نورث ستار"، الأمر الذى أدى إلى قطيعة مع جاريسون. وفى عام ١٨٥٤ أُعلنت فى مؤتمر للزنوج الكلمات التالية: "إنها معركتنا بكل تأكيد، ولا يستطيع شخص آخر أن يخوضها نيابة عنا... . ولابد أن تتغير علاقاتنا مع الحركة المناهضة للرق، وعلينا أن نستبدل باعتمادنا عليها قيادتنا لها."

واجهت بعض النساء السود العائق الثلاثى الذى تمثل فى كونهن مناهضات للرق فى مجتمع يقوم على نظام الرق، وكونهن سوداً بين إصلاحيين بيض، بالإضافة إلى كونهن نساءً داخل حركة إصلاح يهيمن عليها الرجال. وعلى سبيل المثال، قام هذا العائق الثلاثى عندما وقفت سوجورن تروث للحديث فى مدينة نيويورك عام ١٨٥٣ فى "المؤتمر الوطنى الرابع لحقوق المرأة" إذ قابلها العامة بالصياح والصراخ العدائى، عندئذٍ قالت:

> **أعرف كم يبعث على الازدراء والسخرية أن تروا امرأة ملونة تقوم بينكم وتتحدث عن حقوق المرأة وأشياء أخرى. لقد أُلقى بنا فى الحضيض وهو ما جعل أحدًا لا يتوقع أننا سوف ننهض ثانية، ولكن ... اعلموا أننا سوف نقف على أرجلنا مرة**

أخرى، وهاأنا ذا أمامكم الآن... . ولسوف نحصل على حقوقنا ... ولن يحول أحد بيننا وبينها. حولوا بينها وبيننا إن استطعتم ... صيحوا ما شاء لكم الصياح ... وهاأنا أجلس بينكم كى أرى، وسوف أقف بين الحين والآخر كى أقول لكم كم بلغت ساعة المساء ... .

بعد التمرد العنيف الذى قاده نات تيرنر والذى قمعته فرجينيا بكل وحشية، أصبح النظام الأمنى داخل الجنوب أكثر تشدداً. وكان لابد أن يأتى شخص من خارج دائرة السود الذين بدا وكأنهم فقدوا الأمل فى القيام بثورة أو تمرد جديد. وجاء رجل أبيض يتصف بشجاعة وعزم لا يعرفان التراجع، وبلغت شجاعته حد القيام بحصار ترسانة الأسلحة الفيدرالية فى هاربرز فيرى بفرجينيا ثم الانطلاق بثورة للعبيد فى الجنوب. كان هذا هو جون براون.

كانت هاريت توبمان، التى كان يبلغ طولها خمسة أقدام وتساقطت بعض أسنانها وساعدت فى مهمات سرية لإرشاد العبيد إلى الفرار من قيود العبودية، طرفاً فى خطط جون براون، غير أن المرض منعها من الانضمام إلى حركته التمردية. كما التقى فريدرك دوجلاس بجون براون وناقشه فى خطته معارضاً إياه فى فرص نجاح حركته التمردية، لكنه حمل إعجابا شديداً للرجل المريض الذى بلغ الستين واشتعل رأسه شيبًا. وحدث ما توقعه دوجلاس، فما كان لخطة براون أن تنجح إذ قامت القوات العسكرية المحلية، بعد أن انضم إليها مائة من أفراد البحرية تحت قيادة روبرت إى. لى، بمهاجمة المتمردين، فقتُل من قُتل وأسُر من أُسر. لكن براون رفض أن يستسلم وتمترس داخل مبنى صغير من الطوب بالقرب من باب مستودع الأسلحة. القوات المهاجمة اقتحمت الباب ودخل ضابط بحرية وضرب براون بالسيف، وتم استجوابه وهو جريح مريض. يقول دى بوا فى كتابه **جون براون**:

تخيلوا الموقف: رجل مُسن، مُلطخ بالدماء، بين الحياة والموت بما يعانيه من جروح وإصابات نزلت به قبل ساعات،

رجل يرقد فى البرد والقذارة دون نوم أو طعام لمدة خمس وخمسين ساعة حتى تحطمت أعصابه، تحوطه جثتا ولديه وجثث رفاقه السبعة وأمامه زوجة وأسرة ثكلى وقضية خاسرة، هى حلم حياته، ترقد بلا حراك داخل قلبه ... .

وفى حالته تلك، قال براون لحاكم فرجينيا الذى كان يستجوبه: "من الأفضل لكم، يا أهل الجنوب جميعًا، أن تعدوا أنفسكم لتسوية هذه القضية.... ربما تتخلصون منى بسهولة ولقد حدث ذلك توًا، لكن هذه القضية، قضية الزنوج، لابد أن تجد حلاً."

وفى تقييمه لما قام به براون يقول دى بوا:

لو كان ما قام به براون من تدبير حفنة من المتعصبين يقودهم معتوه، لكان تجاهل ما حدث وعقاب أبرز المتهمين والعفو عن القائد المخدوع أو إرساله إلى مصحة عقلية هو الإجراء السليم ... لكن الولاية، فى الوقت الذى تُصّر فيه على تواضع وسخف ما حدث، أنفقت ٢٥٠,٠٠٠ دولارًا لمعاقبة المتمردين ونشرت من ألف إلى ثلاثة آلاف جندى فى المنطقة المجاورة وأدخلت الأمة كلها فى اضطراب شديد.

وكان آخر ما كتبه جون براون فى سجنه وقبل شنقه هو الجملة التالية: "يملؤنى، أنا جون براون، اليقين بأن الجرائم التى ارتكبها هذا البلد المذنب لن يطهرها سوى الدم." وعن إعدام براون، قام رالف والدو إمرسن الذى لم يكن له نشاط سياسى: "سوف يمنح المشنقة قداسة كقداسة الصليب."

كان من بين الخمسة والعشرين رجلاً، الذين يمثلون قوة براون الضاربة، خمسة رجال من السود؛ قتل منهما اثنان فى الحال، وهرب ثالث، وشنق الآخران. قبل تنفيذ حكم الإعدام فيه، كتب جون كوبلاند إلى أبويه يقول:

تذكروا أننى إذا متُ، فإننى أموت فى محاولة لتحرير عدد قليل من المقهورين التعساء من أسر العبودية التى أدانها الله فى كتابه المقدس أقسى إدانة ... . لست خائفًا من المشنقة... وأتخيلكم جميعًا، أمى وأبى وأخواتى وإخوتى، تقولون: "لا! ليس ثمة قضية تستوجب أن نراك تموت فى سبيلها." صدقونى إذا قلت لكم إننى، رغم سجنى وانتظارى تنفيذ حكم بإعدامى، قد قضيت وقتًا سعيدًا هنا، لأننى أشعر أننى سألقى وجه ربى قريبًا... .

قامت ولاية فرجينيا بتنفيذ حكم الإعدام فى جون براون بموافقة الحكومة الوطنية. كانت هذه هى الحكومة نفسها التى لم تكن تعرف الحزم فى تطبيق القانون الذى يقضى بإنهاء تجارة الرقيق، لكنها كانت تطبق، بكل حزم وحسم، القوانين التى تنص على إرجاع الفارين من العبيد إلى سجن العبودية. إنها نفس الحكومة التى تآمرت مع الجنوب، فى عهد إدارة آندرو جاكسون، فى التخلص من كل ما يدعو إلى مناهضة نظام الرق من البريد الوارد إلى الولايات الجنوبية. كما أن المحكمة الدستورية العليا للولايات المتحدة هى التى أعلنت عام ١٨٥٧ أن العبد دريد سكوت ليس بإمكانه رفع قضية تطالب بحريته لأنه ليس شخصًا بل مملوكا.

إن حكومة كهذه لم تكن لتقبل إنهاء نظام الرق عن طريق التمرد، بل عن طريق شروط يمليها البيض وفى الوقت الذى تحتمه الاحتياجات السياسية والاقتصادية لنخبة الشمال. ولقد قام إبراهام لنكولن بذلك عندما جمع باقتدار بين احتياجات العمل والطموح السياسى للحزب الجمهورى الجديد وبلاغة المذهب الإنسانى. فلم يكن لينكولن ليضع مسألة إلغاء الرق على قمة أولوياته، بل وضعها بالقرب من قمة أولوياته بدرجة تكفى لدفعها مؤقتًا إلى القمة فى حالة ضغط الداعين إلى إلغاء الرق أو فى حالة تحقيق مكاسب سياسية ملموسة.

استطاع لينكولن بمهارة فائقة أن يزاوج بين مصالح الأثرياء ومصالح السود فى لحظة تاريخية التقت عندها هذه المصالح، كما استطاع أن يربط هذه المصالح بمصلحة قطاع متنامٍ من الأمريكيين البيض وهو قطاع يشمل الواعدين الطامحين اقتصادياً والناشطين سياسياً من أبناء الطبقة الوسطى. ويتحدث ريتشارد هوفستاتر عن لينكولن وأسلوبه قائلاً:

لأن أفكاره هى أفكار الطبقة الوسطى، فقد تحدث لمصلحة أولئك الملايين من الأمريكيين الذين بدأوا حياتهم كعمال مستأجرين كعمال المزارع أو مدرسين وصغار موظفين وحرفيين وعمال شق طرق السكك الحديدية ثم انتقلوا بعد ذلك إلى فئة أصحاب الأراضى أو البقالين الأثرياء أو المحامين والتجار والأطباء والسياسيين.

كان باستطاعة لينكولن أن يجادل بحجة قوية وعاطفة جياشة ضد العبودية وذلك على أساس أخلاقى ، لكنه عند التنفيذ، كان يتصرف بالحذر الذى تمليه عليه الظروف السياسية. كان يؤمن أن "مؤسسة الرق قامت على الظلم، ولكن نشر الأفكار والمذاهب التى تتعلق بإلغائها يضُر بها ولا يقلل من شرها." (يقابل ذلك ما ذكره فريدرك دوجلاس عن النضال أو عبارة جاريسون التى يقول فيها: "يا سيدى! لن يتم القضاء على العبودية دون هياج وإثارة شديدين.") قرأ لينكولن الدستور على نحو دقيق كى يُبين أن الكونجرس ليس بإمكانه حظر العبودية فى الولايات وذلك بسبب المادة العاشرة التى تمنح الولايات سلطة لا تملكها الحكومة الوطنية.

عندما اقتُرح إلغاء العبودية فى حى كولومبيا District of Columbia (*) والذى لا يتمتع بحقوق الولاية ويخضع مباشرة لتشريعات الكونجرس، قال لينكولن إن هذا من

(*) أصبح هذا الحى فيما بعد العاصمة واشنطن ولكى نفرق بينها وبين واشنطن الولاية ، أطلق عليها « واشنطن دى سى » . (المترجم)

صميم الدستور، لكن لا يجب الإقدام على هذه الخطوة إلا إذا رغب سكان الحى فى ذلك. ولما كان معظم سكان هذا الحى من البيض، فقد وأدت الفكرة فى مهدها. إن عبارة لينكولن، كما وضعها هوفستاتر، "تتضح بإصرار لا يعرف التراجع بالاعتدالية." لقد رفض لينكولن أن يدين علانيةً قانون الفارين من العبيد، وكتب إلى أحد أصدقائه يقول: "أعترف بأننى أكره أن أرى تعقب واصطياد هؤلاء التعساء... لكننى أعض شفتىّ وألتزم الصمت."

ولما اقترح لينكولن نفسه، كأحد رجال الكونجرس فى عام ١٨٤٩، إصدار قرار بإلغاء العبودية فى حى كولومبيا، ضمّن اقتراحه جزءًا يقضى بأن تقوم سلطات الحى بالقبض على أى عبد فارٍ وإرجاعه إلى الولاية التى هرب منها. الأمر الذى جعل ويندل فيليبس، أحد الدعاة إلى إلغاء العبودية فى بوسطن، يشير إلى لينكولن بعد عدة سنوات بأنه "صائد العبيد." لقد عارض لينكولن العبودية، لكنه لم يستطع أن يرى السود مساوين للبيض، وكان من بين أفكاره الرئيسية والثابتة فى نظرته لمشكلة العبودية أن يقوم بتحرير العبيد ثم يقوم بإرجاعهم إلى إفريقيا.

فى حملته الانتخابية لمجلس الشيوخ بولاية إلينوى فى عام ١٨٥٨ وفى مواجهة ستيفن دوجلاس، كان لينكولن يتلون فى أحاديثه وفقًا لآراء من يتحدث إليهم، وربما أيضًا وفقًا لقرب ما يتحدث فيه من موعد الانتخابات؛ ففى أحد أحاديثه فى شيكاغو شمال إلينوى، قال:

> **دعونا نتخلى عن المواربة والاختلاف حول هذا الرجل أو ذاك، أو أن هذا العرق أدنى من ذاك ولابد أن يوضع فى مرتبة أقل. دعونا نتخلى عن كل هذه الأشياء ونتحد كشعب واحد حتى نستطيع أن نقف مرة أخرى معلنين أن كل البشر قد خُلقوا سواسية.**

لكنه قال، بعد شهرين فقط وفى أثناء حديثه فى تشارلستون بجنوب إلينوى:

لست إذن، ولم أكن فى يوم من الأيام، من المؤيدين، بأية طريقة من الطرق، للمساواة الاجتماعية والسياسية بين البيض والسود (تصفيق). ولست ولم أكن يومًا من المؤيدين لأن يكون هناك ناخبون أو محلفون من الزنوج. كما أننى لا أؤيد توليهم المناصب أو زواجهم من بنى الجنس الأبيض... . وطالما أنه ليس بإمكانهم أن يعيشوا كالبيض، بينما يتمسكون بالبقاء سويًا، فلابد أن يكون هناك مرتبتان للأعلى والأدنى، وأنا، كأى إنسان آخر، أرى أن تكون المرتبة الأسمى للجنس الأبيض.

كان وراء انسحاب الجنوب من الاتحاد، بعد انتخاب لينكولن رئيسًا للبلاد فى خريف ١٨٦٠ كمرشح للحزب الجمهورى الجديد، سلسلة طويلة من الصراعات بين الشمال والجنوب. لم يكن الصراع حول نظام الرق كمؤسسة أخلاقية؛ فالشماليون لم يشغلهم نظام الرق بالدرجة التى تجعلهم يقدمون تضحيات فى سبيله، كما لم يكن هذا الصراع بين أهل الشمال والجنوب؛ إذ أن معظمهم من فقراء البيض الفلاحين الذين لم يتمتعوا بنفوذ اقتصادى وسياسى ولم يكونوا من صناع القرار، لقد كان صراعًا بين نخبتى الشمال والجنوب.

كانت النخبة الشمالية ترغب فى التوسع الاقتصادى الذى يتمثل فى توفير الأراضى والعمل الحر والسوق الحرة وتعريفة عالية لحماية أصحاب المصانع ويتمثل كذلك فى إنشاء بنك للولايات المتحدة. لكن الأرباح التى يجلبها نظام الرق فى الجنوب كان يعارض ذلك، ورأت النخبة الجنوبية أن لينكولن والجمهوريين لا يشغلهم سوى استمرار نمط حياتهم بما فيه من متع ورفاهية. ومن ثم، فعند انتخاب لينكولن رئيسًا للبلاد، قامت سبع ولايات جنوبية بالانفصال عن الاتحاد. وبدأ لينكولن الحرب عندما حاول استعادة القاعدة الفيدرالية فى فورت سومتر بكارولاينا الجنوبية، فانفصلت أربع ولايات جنوبية أخرى عن اتحاد الولايات، فتم تشكيل الكونفدرالية واندلعت الحرب الأهلية.

كان الخطاب الافتتاحى الأول الذى ألقاه لينكولن فى مارس ١٨٦١ خطاباً استرضائيًا للجنوب والولايات التى انفصلت عن الاتحاد . قال لينكولن: "ليس لدىّ هدف مباشر أو غير مباشر للتدخل فى مؤسسة نظام الرق حيث وُجدت فى الولايات، فليس لى حق قانونى ولا ميل لأن أفعل ذلك." بعد مرور أربعة أشهر على اندلاع الحرب، وعندما أعلن الجنرال جون سى. فريمونت فرض القانون العسكرى وقال إن العبيد الذين يقاوم سادتهم الولايات المتحدة أحرار، قام لينكولن بنسخ هذا الأمر، إذ كان يخشى انفصال الولايات التى تتبنى نظام الرق مثل ميريلاند وكينتاكى وميزورى وديلاوير.

ومع ازدياد مرارة الحرب، تزايدت أعداد الضحايا وزادت درجة اليأس من الانتصار، وهدد نقد الداعين لإلغاء نظام الرق بحل التحالف المهترئ وراء لينكولن، الأمر الذى جعل لينكولن يبدأ فى معاداة نظام الرق. وقد وصف هوفستاتر الأمر كالتالى: "لقد سجل لينكولن، كباروميتر دقيق، اتجاه الضغوط، وكلما زاد الضغط الراديكالى اتجه أكثر ناحية اليسار." وقال ويندل فيليبس إنه إذا كان لينكولن قد نما ونضج، فذلك "لأننا قد رويناه."

كانت العنصرية مترسخة فى الشمال رسوخ العبودية فى الجنوب وكان على الحرب أن تهز أركانهما. كان السود فى نيويورك لا يستطيع الواحد منهم أن يمارس حقه فى الانتخاب إلا إذا كان يملك ٢٥٠ دولاراً وهو الشرط الذى لم يُطبق على البيض. وتم الاقتراع على اقتراح يقضى بإلغاء ذلك الشرط وكانت النتيجة رفض هذا الاقتراح بنسبة ٢ إلى ١ رغم أن لينكولن خرج من نيويورك ومعه ٥٠ ألف صوتٍ. وعلق فريدرك دوجلاس على ما حدث قائلاً: "يبدو أن الطفل الزنجى قبيح إلى الدرجة التى لا تسمح له بالظهور فى مناسبة عظيمة كهذه. لقد تم إخفاء الزنجى بعيداً بنفس الطريقة التى يُخفى بها الناس أطفالهم المشوهين عن عيون الزائرين."

وقد أقّر ويندل فيليبس، رغم كل النقد الذى وجّهه إلى لينكولن، بفرص نجاحه فى انتخابات الرئاسة، وقال فى معرض حديثه فى معبد تريمونت ببوسطن فى اليوم التالى لانتخابات لينكولن:

لو صدقت البرقية، تكون هذه أول مرة فى تاريخنا يقوم فيها العبيد باختيار رئيس الولايات المتحدة ... . لقد قبل السيد لينكولن، الذى لم يكن من دعاة إلغاء العبودية ولا يكاد يكون رجلاً مناهضًا لنظام الرق، أن يمثل فكرة تُناهض العبودية. إن قيمته كقيمة أحد العساكر على طاولة الشطرنج السياسية، تنبع من مكانته، وببعض الجهد ربما نستطيع قريبًا أن نستبدل به حصانًا أو فيلاً أو ملكًا ونكتسح المباراة. (تصفيق)

ورغب المحافظون من الطبقات العليا فى بوسطن فى مصالحة الجنوب، وقاموا بعقد اجتماع مناهض للعبودية فى نفس المعبد الذى ألقى فيه ويندل فيليبس كلمته، وطالبوا بمنح الجنوب عدة امتيازات فى مجالات "التجارة والصناعة والزراعة." وظهرت روح الكونجرس، حتى بعد بداية الحرب، فى القرار الذى أصدره فى صيف ١٨٦١ وعارضه عدد قليل من أعضاء الكونجرس. جاء فى ذلك القرار: "لم تقم هذه الحرب ... بغرض الانقلاب على أو التدخل فى الحقوق التى تتمتع بها مؤسسات الولايات، ولكنها قامت ... للحفاظ على الاتحاد."

زاد المناهضون لنظام الرق من إيقاع حملتهم، وتوالت التماسات تحرير العبيد على الكونجرس عامى ١٨٦١ و ١٨٦٢، وفى مايو من العام ١٨٦٢ قال ويندل فيليبس: "ربما لا يرغب إبراهام لينكولن فى ذلك، لكنه لا يملك منعه، وربما لا ترغب الأمة فى اتخاذ هذه الخطوة، لكنها لا تستطيع منعها. وأنا لا يعنينى ما يتمناه الناس أو يرغبوا فيه، فالزنجى الآن حصوة تمنع الماكينة من الدوران ولابد من إخراجها كى يدور دولاب العمل."

فى يوليو أصدر الكونجرس قانون المصادرة الذى مكّن العبيد الذين يناهض سادتهم اتحاد الولايات من أن يكونوا أحراراً، غير أن هذا القانون لم يوضع موضع التنفيذ من قبل جنرالات الاتحاد، وتجاهل لينكولن ذلك، ووصف جاريسون سياسة لينكولن بأنها "متعثرة أو مُتخبطة، ضعيفة، وغير حاسمة" وقال فيليبس إن لينكولن

"زعيم من الدرجة الثانية بكل جدارة." وسمح تبادل لينكولن خطابات مع هوارس جريلى رئيس تحرير "تربيون" النيويوركية (أغسطس ١٨٦٢) له بالتعبير عن الكثير من آرائه. كتب إليه جريدى يقول:

سيدى العزيز. ليس من قبيل التدخل منى أن أقول لك، لأنك من المؤكد على علم بما يدور، أن نسبة كبيرة من الذين فازوا معك فى الانتخابات ... محبطون ويتألمون للسياسة التى تنتهجها فيما يخص عبيد السادة المتمردين ... . إننا نطلب منك، بصفتك الموظف الأول فى الجمهورية والمسئول الأول فيها، أن تقوم بتنفيذ القوانين... . إننا نعتقد أنك تتراخى بدرجة غريبة ومخيفة فيما يتعلق بالمواد التحررية التى يتضمنها قانون المصادرة الجديد... . كما أننا نرى أنك واقع تحت تأثير نفوذ بعض سياسى الولايات الحدودية التى تتبنى نظام العبودية.

وأكد جريلى على الحاجة الملحة للانتصار فى الحرب، قائلاً: "لابد أن يكون لدينا كشافة ومرشدون وجواسيس وطباخون وحفارون وجزارون من بين سود الجنوب سواء سمحنا لهم بالقتال من أجلنا أم لم نسمح... . إننى أرجوك أن تعلن طاعة مطلقة لقانون الأرض." وكان لينكولن قد عبّر بالفعل عن موقفه عندما فشل فى نقض أمر لأحد قادة الجيش وهو الجنرال هنرى هاليك الذى منع الزنوج الهاربين من الدخول فى صفوف جيشه. وقد رد لينكولن على جريلى بقوله:

سيدى العزيز: لم يكن قصدى أن أترك شكًا لدى أى أحد ... إن هدفى الأكبر من هذا الكفاح هو إنقاذ الاتحاد وليس إنقاذ أو تدمير نظام الرق. فلو كان باستطاعتى أن أُنقذ الاتحاد دون تحرير أى عبد، لفعلت، ولو كان باستطاعتى إنقاذ الاتحاد عن طريق تحرير كل العبيد، لفعلت، ولو كان باستطاعتى أن أحقق هدفى عن طريق تحرير بعض العبيد وترك الباقى منهم،

لفعلت أيضًا. لست أفعل ما أفعله بخصوص العبودية والجنس الملون إلا لأنه يساعد على حماية هذا الاتحاد، والذى لا أفعله لا أفعله إلا لأنه، فى رأيى، لا يساعد على تحقيق هدفى.... ها أنا قد أوضحت هدفى وفقًا لما يمليه علىّ الواجب الرسمى، وإننى لا زلت متمسكًا برغبتى الشخصية، دون أى تعديل، وهى أن بإمكان كل الناس، فى كل مكان، أن يكونوا أحرارًا.

وبذلك، ميّز لينكولن بين "رغبته الشخصية" وبين "واجبه الرسمى".

لما قام لينكولن، فى سبتمبر ١٨٦٢، بإصدار الإعلان التمهيدى لتحرير العبيد، كان ذلك خطوة عسكرية، حيث منح لينكولن الجنوب أربعة أشهر لإنهاء التمرد، مهدداً بتحرير عبيد سادة الجنوب إذا استمروا فى تمردهم، وواعداً بعدم المساس بنظام الرق فى الولايات التى تعلن استسلامها للشمال. ومن ثم، فعندما صدر إعلان تحرير العبيد فى الأول من يناير ١٨٦٣، كان ذلك يعنى تحرير العبيد فى تلك المناطق التى كانت فى حالة حرب مع الاتحاد، وهى مناطق حددها الإعلان بكل دقة، بينما لم يذكر شيئًا عن العبيد فى المناطق الأخرى التى تساند الاتحاد. وعلقت جريدة "لندن سبكتيتور" على ما حدث بدقة بالغة إذ قالت: "ليس المبدأ فى ألا يكون لإنسان الحق فى امتلاك إنسان آخر، لكن المبدأ هو أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك إلا إذا كان موالياً للولايات المتحدة."

وعلى الرغم من أن إعلان تحرير العبيد كان محدوداً، فقد شحذ من عزم القوى المناهضة للعبودية، وبمجىء صيف ١٨٦٤، جُمع ٤٠٠ ألف توقيع يطالب المجالس التشريعية بإنهاء العبودية، وأرسلت التوقيعات إلى الكونجرس وهو أمر غير مسبوق فى تاريخ البلاد. وفى إبريل من ذلك العام، تبنى مجلس الشيوخ المادة الثالثة عشر من الدستور، وأعلن إنهاء العبودية فى البلاد، وفى يناير من عام ١٨٦٥ تبعه مجلس النواب.

ومع إعلان تحرير العبيد، صار جيش الاتحاد مفتوحًا أمام السود، وكلما زاد عدد السود فى دخول الحرب، بدت الحرب وكأنها قامت من أجل تحريرهم، وكلما زادت تضحيات البيض، زادت درجة السخط بينهم، خاصة بين فقرائهم فى الشمال والذين جُنّدوا وفقًا لقانون يسمح للأثرياء بالحصول على إعفاء من الاشتراك فى الحرب مقابل ٣٠٠ دولار. وبذلك قامت مظاهرات التجنيد وانتفاضات الغاضبين البيض فى المدن الشمالية، ولم يكن هدف هذه الانتفاضات الأثرياء بل السود الذى كانوا فى متناول البيض. لقد بدت هذه الانتفاضات وكأنها طقس للعنف والموت. وصف رجل أسود فى ديترويت ما رآه وكان عبارة عن جماعة من الغوغاء، ترافقهم عربات تحمل براميل الجعة، ويحملون العصى والحجارة، يجوبون شوارع المدينة، ويهاجمون السود من الرجال والنساء والأطفال، وسمع أحدهم يقول: "إذا كان علينا أن نُقتل فى الحرب فى سبيل الزنوج، فسوف نقوم بقتل كل فرد منهم فى هذه المدينة."

كانت الحرب الأهلية من أكثر الحروب دموية فى تاريخ البشرية حتى ذلك الوقت؛ إذ مات فيها من الجانبين ٦٠٠ ألف شخص من إجمالى عدد السكان الذى كان يبلغ ثلاثين مليونًا، وهذا العدد من القتلى يساوى، فى الولايات المتحدة عام ١٩٧٨ والتى يبلغ عدد سكانها ٢٥٠ مليونًا، خمسة ملايين من الموتى. ولما زادت حدة المعارك وزادت أعداد الضحايا، بات وجود السود فى الجنوب، والذين يبلغ عددهم أربعة ملايين، يُشكل عائقًا أكبر وأكبر على عاتق الجنوب، فى الوقت الذى كان يمثل هذا العدد فرصة كبرى للشمال. وقد وضح المناضل الأفرو أمريكى دى بوا فى كتابه **إعادة بناء السود** Black Reconstruction حيث قال:

> **... صار لهؤلاء العبيد قوة عظيمة فى أيديهم؛ كان بإمكانهم تهديد الكونفدرالية بالموت جوعا وذلك بالتوقف عن العمل، كما أظهروا للمتشككين الشماليين، بدخولهم المعسكرات الفيدرالية، سهولة استعمالهم، ولكن، وعن طريق الالتفاته نفسها، سهولة حرمان أعدائهم من استعمالهم فى هذه المجالات فقط...**

. كان هذا البديل البسيط الواضح هو الذى تسبب فى استسلام لى Lee المفاجئ. وكان على الجنوب إما أن يوفق أوضاعه مع عبيده عن طريق تحريرهم واستعمالهم فى محاربة الشمال ثم لا يعاملهم بعد ذلك معاملة العبيد، وإما أن يستسلم الجنوبيون للشمال على فرض أن الشمال لابد أن يساعدهم بعد الحرب فى الدفاع عن نظام الرق كما فعل من قبل.»

يصف جورج رويك Rawick، عالم الاجتماع والأنثروبولوجى، تطور السود قبيل تجربة الحرب الأهلية وأثناءها، قائلاً:

انتقل العبيد من كونهم بشرًا خائفين، يُلقى بهم بين الغرباء بما فيهم إخوانهم من العبيد الذين لا تربطهم بهم صلة قرابة ولا يتحدثون لغتهم ولا يفهمون عاداتهم وتقاليدهم، إلى ما وصفه دى بوا مرةً بمرحلة الإضراب العام الذى فرّ فيه مئات الآلاف من المزارع والمستعمرات، الأمر الذى قوّض مقدرة الجنوب على توفير الإمدادات اللازمة لجيشه.

ولقد لعبت النساء السود دورًا مهمًا فى الحرب لاسيما قرب نهايتها؛ إذ صارت سوجورنر تروث Sojourner Truth التى لعبت دورًا بارزًا فى حركة حقوق النساء، مُجنّدة لقوات السود لصالح جيش الاتحاد، وكذلك فعلت جوزفين سان بيير روفين من بوسطن. وقامت هاريت توبمان بالإغارة على المزارع، متولية قيادة القوات السوداء والبيضاء، وفى إحدى الغارات قامت ومن معها بتحرير سبعمائة وخمسين عبدًا.

وتحركت النساء مع الكتائب الملونة التى تشكلت كلما توغل جيش الاتحاد فى الجنوب، حيث كن يقمن بمساعدة أزواجهن، متحملات المصاعب الشديدة التى صاحبت الرحلات العسكرية الطويلة، بل وشهدن موت كثير من أطفالهن أثناء هذه الرحلات. لقد تحملوا نفس مصير الجنود فى الحرب كما حدث فى أبريل من عام

١٨٦٤ عندما قامت القوات الفيدرالية، عند فورت بيلو بكنتاكى، بذبح جنود الاتحاد الذين كانوا قد أعلنوا استسلامهم، حيث قامت بذبح الجميع سوداً وبيضًا، نساءً وأطفالاً.

ترددت أقوال بأن قبول السود بنظام الرق حقيقة تأكدت أثناء الحرب الأهلية؛ فعندما سنحت الفرص بالهرب، رفض معظم العبيد الهرب وبقوا فى المزارع. لقد هرب، فى حقيقة الأمر، نصف مليون من العبيد؛ أى هرب عبد من بين كل خمسة، وهى نسبة عالية إذا اعتبرنا أن كان ثمة صعوبة كبيرة أمام العبد تتمثل فى أنه لا يعرف إلى أين هو ذاهب وكيف سيعيش. كتب أحد أصحاب المزارع الكبرى فى كارولاينا الجنوبية وجورجيا، فى عام ١٨٦٢، فى يومياته الكلمات التالية: "لقد علمتنا هذه الحرب الاستحالة الكاملة لوضع أقل درجة من الثقة فى الزنجى، ففى حالات كثيرة، كان مَن وثقنا بهم ونالوا تقديرنا أول مَن هرب منا." وفى العام نفسه، كتب ضابط فى الجيش الفيدرالى، وشغل قبل ذلك منصب عمدة سافانا بجورجيا، يقول: "يؤسفنى كل الأسف أن أعرف بأن الزنوج لم يتوقفوا عن الفرار إلى العدو."

وفى عام ١٨٦٥، كتب أحد أصحاب المزارع بكارولاينا الجنوبية إلى صحيفة "تريبيون" النيويوركية يقول:

> **جعلنى سلوك الزنوج فى الأزمة الأخيرة أقتنع بأننا جميعًا كنا نعيش فى وهم كبير... لقد كنت على يقين أن هؤلاء الناس راضون سعداء ومتمسكون بسادتهم، غير أن الأحداث التى وقعت جعلتنى أغير من موقفى... فلو كانوا راضين وسعداء ومتمسكين بسادتهم حقًا، فلماذا فرَّ مَن فرَّ منهم وتخلى عن سيده وقت الشدة، وذهب إلى عدو لا يعرفه وبذلك فقد ترك سيده الذى ربما كان طيبًا حقًا وعرفه حق المعرفة منذ طفولته؟**

ويلاحظ جينوفيز أن الحرب لم تؤد إلى نقلة عامة للعبيد، ولكن "العبيد فى مقاطعة لافاييت بولاية ميسيسيبى، تجاوبوا مع إعلان تحرير العبيد بأن أزاحوا المشرفين عليهم وقسّموا الأرض بما عليها فيما بينهم." ويذكر أبثيكر خبراً عن مؤامرة للزنوج فى أركانسو عام ١٨٦١ لقتل مستعبديهم. وفى العام نفسه، قام الزنوج فى كنتاكى بحرق البيوت ومخازن المحاصيل، وفى مدينة نيو كاسل خرج العبيد إلى شوارع المدينة وقاموا "بغناء أغان سياسية والهتاف بحياة لينكولن"، حسب تقارير إحدى الصحف. كما أُلقى القبض، بعد إعلان تحرير العبيد، على نادل زنجى فى ريشموند بفرجينيا وذلك لقيادته "مؤامرة من تدبير العبيد"، وفى مدينة يازو Yazoo بولاية ميسيسيبى، أحرق العبيد محكمة وأربعة عشر منزلاً. كما قام روبرت سمولز Smolls، الذى أصبح فيما بعد عضواً فى الكونجرس عن كارولاينا الجنوبية، وآخرون بالاستيلاء على الباخرة "بلانتر" وأبحروا بها إلى حيث لا تطالها نيران الكونفيدرالية وسلموها إلى جيش البحرية التابع للاتحاد.

الجدير بالذكر أن معظم العبيد لم يستسلموا ولم يثوروا؛ واستمروا فى عملهم انتظاراً لما تسفر عنه الأحداث. ولما حانت الفرصة، غادروا عملهم وانضموا، فى غالبيتهم، إلى جيش الاتحاد، حتى بلغ عدد من انضم إلى الجيش مائتى ألف فرد، وقتل منهم ثمانية وثلاثون ألفا. يقول المؤرخ جيمس ماكفرسون: "لم يكن الشمال ليستطيع أن ينتصر فى الحرب بهذه السرعة، وربما لم يكن لينتصر فيها، لولا مساعدة السود."

وكان ما حدث للسود فى جيش الاتحاد وفى المدن الشمالية أثناء الحرب مؤشراً على محدودية عملية تحرير العبيد، حتى مع النصر الكامل على الكونفدرالية. وكثيراً ما كان يُهاجم الجنود السود خارج الخدمة فى المدن الشمالية، كما حدث فى زانيزفيل بأوهايو فى فبراير ١٨٦٤ حيث كانت تسمع صرخات تقول "اقتلوا الزنجى." كان على السود أن يقوموا بأشق الأعمال وأكثرها قذارة؛ كان عليهم حفر الخنادق وتعبئة الأسلحة والمدافع بالذخيرة وحفر الآبار من أجل كتائب البيض. وفى الوقت الذى كان

الجند الأبيض يحصل على ثلاثة عشر دولارًا شهريًا، كان نظيره الأسود يحصل على عشر دولارات.

وفى الفترة الأخيرة من الحرب، قاد رقيب أسود من الكتيبة الثالثة للجنوب اسمه وليم ووكر فرقته إلى خيمة قائدة، وهناك أمرهم بإلقاء سلاحهم والاستقالة من الجيش احتجاجًا على ما اعتبره إخلالا بالعقد، لأن مرتباتهم كانت أقل من مرتبات نظرائهم من البيض. فقُبض عليه وتلقى محاكمة عسكرية ونُفّذ فيه الإعدام رميًا بالرصاص عقابًا على العصيان والثورة. وفى يونيو ١٨٦٤، أصدر الكونجرس قانونًا يقضى بدفع مرتبات للجنود الزنوج تساوى مرتبات نظرائهم من البيض.

بلغ يأس الكونفدرالية، فى أواخر شهور الحرب، مبلغًا كبيرًا حتى أن بعض قادتها اقترحوا تجنيد بل وتحرير العبيد الذين كانوا يمثلون عقبة فى طريق الجنوب. وبعد عدد من الهزائم العسكرية، كتب وزير حربية الكونفدرالية، جوده بنيامين فى أواخر ١٨٦٤ إلى رئيس تحرير إحدى الصحف فى شارلستون يقول: "من المعروف أن الجنرال لى Lee، الذى يحظى بثقة الناس على نطاق واسع، يؤيد استخدامنا للزنوج فى سبيل الدفاع عن قضيتنا، بل وتحريرهم، إذا لزم الأمر، من أجل هذا الهدف... ." لكن أحد الجنرالات الرافضين لهذا الإجراء كتب ساخطًا: "إذا كان بإمكان العبيد أن يكونوا جنوداً صالحين، فإن نظريتنا الخاصة بنظام الرق خاطئة برمتها."

وفى أوائل ١٨٦٥، تزايدت الضغوط، وفى مارس وقّع رئيس الكونفدرالية قانون "تجنيد الزنوج" الذى يقضى بتجنيد الزنوج ثم تحريرهم بموافقة مالكيهم وحكومات ولاياتهم، ولكن قبل أن يكون لهذا القانون تأثير يذكر، كانت الحرب قد انتهت.

فى ثلاثينيات القرن العشرين عقد أعضاء "المشروع الفيدرالى للكُتّاب" لقاءات مع بعض العبيد السابقين حيث تحدثوا عن ذكرياتهم عن نهاية الحرب. قالت سوزى ميلتون:

كنت فتاة صغيرة، فى العاشرة تقريبًا عندما سمعنا أن لينكولن بصدد تحرير الزنوج، وقالت السيدات العجائز إن شيئًا كهذا لن يحدث. ثم قال أحد الجنود لأحد سكان وليامز بيرج أن لينكولن وقّع بالفعل على إعلان تحرير الزنوج. كان الوقت شتاءً والبرد قارسًا تلك الليلة، لكن أخذ كل فرد منا فى الاستعداد للرحيل، ولم يعد يبالى أحد بالعجائز وما يقلنه... ورقص العبيد وغنوا فى تلك الليلة كما لم يفعلوا من قبل، فعلوا ذلك خارج البيوت وفى عز البرد القارس. وفى فجر اليوم التالى، انطلقنا ونحن نحمل الأغطية والملابس والأوانى والدجاج على ظهورنا لأن السيدات العجائز قالوا إننا ليس لنا أن نأخذ خيلاً أو عربات، ولما طلعت الشمس وغطت الشجر، بدأ الزنوج فى الغناء:

يا شمس! أنت هنا وأنا مسافر

يا شمس! أنت هنا وأنا مسافر

وداعًا! لا تحزنى بعدى

لن أعطيك مكانى، ليس مكانى مكانك

وداعًا! ولا تحزنى بعدى

لأنكِ هنا وأنا مسافر.

وقالت أنّا وودز:

لم نكن قد مكثنا طويلاً فى تكساس عندما جاء الجنود وأخبرونا أننا صرنا أحرارًا... أذكر الآن امرأة واحدة. قفزت فوق برميل وظلت تصيح. ثم قفزت على الأرض وظلت تصيح. وظلت تفعل ذلك وقتًا طويلاً ولا تَمل من تكراره.

وقالت آنى ماى ويزرس:

أذكر أنى سمعت أبى يقول إنه لما جاءه شخص وصاح فيه: "أخيرًا صرتم أحرارًا أيها الزنوج"، ألقى بمجرفته وصاح بصوت عالٍ كأن به مسًا: "الحمد لله على ذلك."

وسجل أصحاب المشروع الفيدرالى للكُتاب ما قالته امرأة ذاقت مرارة العبودية وتدعى فانى بيرى:

أخذ الزنوج يصيحون ويصفقون ويغنون ويجرون فى كل مكان يضربون الأرض بأقدامهم فرحًا! تملكهم الفرح جميعًا! وأذكر أنى جريت إلى المطبخ وصحت من الشباك: "لا تطبخى بعد اليوم يا أمى. إنك الآن حرة، إنك حرة!"

أدرك كثير من الزنوج أن وضعهم بعد الحرب، أيًا كان موقفهم من الناحية القانونية، سيعتمد على ما إذا كان سيملكون الأرض التى عملوا فيها أم أنهم سيجبرون على أن يكونوا أشباه عبيد لدى الآخرين. وفى عام ١٨٦٣، كتب زنجى من كارولاينا الشمالية يقول: "لو طُبق قانون الحق والعدل، لصارت الأراضى التى حولى ميراثًا للأمريكيين ذوى الأصل الأفريقى، الذين اشتروها بعرق أجدادهم الذى لا يُقدر بثمن طوال حياة من الدموع والأنين تحت ضربات السوط وتحت نير الطغيان."

صارت المزارع المهجورة معروضة للإيجار للمزارعين السابقين وللفقراء من بيض الشمال، وكما قالت إحدى صحف الملونين: "تحول العبيد إلى رقيق للأرض وكأنهم قُيدوا فى سلاسلها... . وكانت هذه هى الحرية التى تفاخر الملونون باكتسابها على أيدى اليانكى(*) ."

(*) أحد السكان البيض الذين يعيشون فى الشمال وخاصة فى منطقة نيو إنجلاند . (المترجم).

ووفقًا للسياسة التى خطها الكونجرس ووافق عليها لينكولن، كان من شأن الأراضى، التى صودرت أثناء الحرب وفقًا لقانون المصادرة الذى صدر فى يوليو ١٨٦٢، أن تؤول إلى ورثة مُلاّك الفيدرالية. فما كان من الدكتور جون روك، وهو طبيب أسود كان يعيش فى بوسطن، إلا أن وقف فى أحد الاجتماعات وقال:

لم الحديث عن تعويض السادة؟ تعويضهم عن ماذا؟ ما الذى تدينون به لهم؟ وما الذى يدين به العبد لهم؟ بل ما الذى يدين به المجتمع لهم؟ نعوض السيد؟ ... أولى بكم أن تعوضوا العبد لا السيد، إن ما يملكه الجنوب لهو حق للعبيد... .

وصودرت بعض الأراضى لأسباب تتعلق بالانحراف الضريبى وتم بيعها فى المزاد، فلم يكن فى مقدور السود، باستثناء قلة قليلة، أن يشترونها. فعلى سبيل المثال، لم يتمكن السود المحرَّرون إلا من شراء ألفى آكر من بين ١٦،٠٠٠ آكر من أراضى Sea Islands بكارولاينا الجنوبية، وهى الأراضى التى عرضت للبيع فى مارس ١٨٦٣، وقام مستثمرون وتجار من الشمال بشراء ما لم يستطع السود شراءه. فقام أحد المُحررين بإملاء مدرس سابق خطاب جاء فيه:

أنساتى الغاليات: ليتكن تخبرن لينكولن أننا نريد الأرض، نفس الأرض التى رويت بعرقنا ودمائنا ... لقد كان بإمكاننا أن نشترى ما نريد، غير أنهم قسموها إلى أجزاء كبيرة تفوق طاقتنا الشرائية ... لابد أن تأتى الكلمة من لينكولن نفسه، بحيث تقضى بحقنا من أن ندخل هذه الأراضى ونزرعها ... . أين لينكولن؟

فى بداية عام ١٨٦٥، عقد الجنرال وليم تى. شيرمان Sherman مؤتمراً مع عشرين من رجال الدين والمسئولين الزنوج فى سافانا بولاية جورجيا. وكان معظم هؤلاء من العبيد السابقين. فى ذلك المؤتمر عبّر أحدهم عما يحتاجونه: "إن أفضل طريقة نرعى بها مصالحنا هو أن نملك أرضًا ونُفلحها بأنفسنا... ." فأصدر شيرمان

قراراً بعد أربعة أيام يقضى بتخصيص الساحل الجنوبى كاملاً والبالغ مساحته ثلاثين ميلاً لإنشاء مستوطنة للزنوج. ووفقًا لهذا القرار، استطاع السود المحررون من الاستيطان هناك ولم يزد نصيب كل أسرة من الأرض عن أربعين آكر. وفى منتصف العام نفسه، انتقل أربعون ألفًا من السود المحررين إلى مزارع جديدة فى المنطقة نفسها ، غير أن الرئيس آندرو جاكسون (الذى تولى رئاسة البلاد بعد اغتيال لينكولن) استعاد هذه الأراضى لصالح المالكين الفيدراليين وأجبر السود على التخلى عن هذه الأراضى ولم يخرج بعضهم إلا تحت تهديد السلاح. وفى حديث للعبد السابق توماس هول للمشروع الفيدرالى للكتّاب:

> **لقد حاز لينكولن الثناء لتحريرنا، ولكن هل حقًا حررنا؟ لقد منحنا الحرية دون أن يمنحنا أية فرصة كى نعيش لأنفسنا، وكان لابد أن نعتمد على الرجل الأبيض كى نحصل على العمل والغذاء والملبس، ومن ثم فقد أبقانا لينكولن، تحت ضغط الحاجة والعوز، فى حالة لا تفضُل العبودية كثيرًا.**

كانت الحكومة الأمريكية قد بدأت، فى ١٨٦١، فى محاربة الولايات المؤيدة لنظام الرق، ولم يكن ذلك بغية إنهاء العبودية بل كان الهدف هو الحفاظ على الأراضى الوطنية الشاسعة وكذلك على السوق والموارد. بيد أن ذلك كان فى حاجة إلى حملة كبيرة كان من شأنها إدخال قوى جديدة فى معمعة السياسة الوطنية. تمثلت هذه القوى فى أن كثيراً من السود أصبحوا عازمين على أن يجعلوا من حريتهم معنىً كبيراً لهم، وأن كثيراً من البيض، سواءً لدوافع إنسانية أو لطموحات شخصية، أصبحوا معنيين بقضية المساواة العرقية. كان ثمة أيضًا الاهتمام الكبير من قِبل الحزب الجمهورى من أجل فرض سيطرته على الحكومة الوطنية مع إمكانية الحصول على أصوات الجنوب الانتخابية من أجل تحقيق ذلك. ولما رأى رجال الأعمال الشماليين السياسة التى يخطها الحزب الجمهورى وراقت فى أعينهم ووافقت مصالحهم، لم يترددوا فى مجاراة هذه السياسة ولو لفترة.

وتمثلت نتيجة ذلك فى تلك الحقبة الصغيرة التى أعقبت الحرب الأهلية التى شارك فيها الزنوج الجنوبيون بأصواتهم، وقام مَنْ انتخب منهم بتوفير تعليم مجانى متعدد الأعراق لأهل الجنوب. وقام إطار قانونى عام يضمن ذلك، حيث جرّم التعديل الثالث عشر نظام الرق: "ليس ثم عبودية ولا استعباد فى الولايات المتحدة أو أى مكان يخضع لشريعتها، إلا ما كان عقوبة لجريمة يرتكبها من يُستعبد." وألغى التعديل الرابع عشر قرار دريد سكوت الذى صدر قبل الحرب وأعلن التعديل أن "كل من ولد أو تجنّس فى الولايات المتحدة" يتمتع بحقوق المواطنة. كما تضمّن التعديل نصًا قويًا فى صالح المساواة العرقية، مقلصًا بشدة "حقوق الولايات":

> **ليس من حق ولاية من الولايات أن تفرض قانونًا ينال من حقوق مواطنى الولايات المتحدة وامتيازاتهم، أو أن تحرم أى إنسان من الحق فى الحياة والحرية والملكية ... أو أن تنكر على أى شخص يخضع لتشريعها ما توفره له القوانين من فرص متساوية من الحماية.**

وجاء بالتعديل الخامس عشر: "ليس من حق الولايات المتحدة أن تنكر على مواطنيها الحق فى التصويت أو أن تأتى بما ينال من هذا الحق بدافع من العرق أو اللون أو الوضع السابق المرتبط بالعبودية مثلاً... ."

كما مرر الكونجرس عدة قوانين تتسم بالروح نفسها وذلك فى أواخر الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر، وهى قوانين تُجرّم حرمان الزنوج من حقوقهم، وتطالب المسئولين الفيدراليين بضمان هذه الحقوق، مانحة للزنوج الحق فى توقيع العقود وشراء العقارات دون أى تمييز. وفى عام ١٨٧٥، حرم أحد قوانين الحقوق المدنية استبعاد الزنوج من الفنادق والمسارح والقطارات والوسائل العامة الأخرى.

وفى ظل هذه القوانين ووجود جيش الاتحاد فى الجنوب وتوفيره الحماية ووجود جيش مدنى من المسئولين فى مكتب المحررين من أجل مساعدتهم، تقدم زنوج الجنوب إلى الأمام، ومارسوا حقهم الانتخابى وكونوا هيئات سياسية وعبروا بكل قوة عن أنفسهم فى القضايا التى تهمهم. وكان الرئيس آندرو جاكسون قد حال بينهم وبين ذلك لسنوات طويلة عندما تولى رئاسة البلاد بعد اغتيال لينكولن قرب انتهاء الحرب الأهلية، وذلك بأن عارض صدور قوانين لمساعدة الزنوج، كما سهّل عودة الولايات الكونفدرالية إلى الاتحاد دون أى ضمان لحقوق متساوية للزنوج. وفى فترة رئاسته، قامت الولايات العائدة إلى الاتحاد بوضع "شفرات خاصة بالسود". جعلت ولاية ميسيسيبى من استئجار المحررين للأراضى الزراعية عملاً غير قانونى فى عام ١٨٦٥، واشترطت عليهم العمل وفقًا لعقود عمل لا يستطيعون الفكاك منها حتى ولو لقضاء عقوبة بالسجن، بل وأصدرت الولاية من القوانين ما يمنح المحاكم الحق فى إجبار الأطفال الذين لم يتجاوزوا الثامنة عشرة أو من ليس لهم آباء أو من كانوا من الأسر الفقيرة على عمل إجبارى يتعلم فيه الأطفال حرفة من الحرف ومعاقبة الفارين منهم.

ودخل آندرو جاكسون فى صراعات مع بعض أعضاء مجلسى الشيوخ والنواب الذين أيدوا، سواءً كان ذلك من إحساس بالظلم الواقع على الزنوج أو كان نتيجة حسابات سياسية، حصول المحرَّرين على حقوق متساوية وكذلك على الحق فى التصويت ولقد نجح هؤلاء الأعضاء فى محاكمة الرئيس جاكسون فى عام ١٨٦٨ متذرعين بأنه انتهك أحد القوانين التشريعية، وأوشكوا على عزله لولا أن العزل تطلب موافقة ثلثى أعضاء مجلس الشيوخ، الأمر الذى لم يتحقق نتيجة عجز فى صوت واحد. وفى الانتخابات الرئاسية التى جرت فى العام نفسه، نجح المرشح الجمهورى يوليسيس جرانت بفارق ٣٠٠,٠٠٠ صوت، وكان قد اشترك فى الانتخابات ٧٠٠,٠٠٠ زنجى، ومن ثم خرج جاكسون لأنه كان يمثل عقبة فى طريق جرانت. ولم يكن أمام الولايات الجنوبية من سبيل للعودة إلى الاتحاد سوى عن طريق الموافقة على التعديلات الدستورية الجديدة.

وأياً ما كان يفعله سياسيو الشمال من السود لخدمة قضيتهم، فقد كان السود الجنوبيون عازمين على أن يحسنوا استغلال حريتهم بالرغم من افتقارهم الشديد إلى الأرض والموارد. ففى دراسته عن السود فى آلاباما فى أعقاب الحرب الأهلية ، يقول المؤرخ بيتر كولشين Kolchin أنهم بدأوا بعد الحرب مباشرة فى التأكيد على استقلالهم عن البيض، وكونوا كنائس خاصة بهم، وأصبحوا ناشطين فى مجال السياسة. كما بدأوا فى تقوية روابطهم الأسرية وتعليم أطفالهم. ويعارض كولشين ما ذهب إليه بعض المؤرخين فى أن العبودية خلقت عقلية السامبو بخضوعها واستسلامها بين السود، ويقول "بمجرد أن أصبحوا أحراراً، بدأ هؤلاء الزنوج، المفترض فيهم أنهم تابعون كالأطفال، فى التصرف كمستقلين رجالاً كانوا أو نساء."

كان من ثمار ذلك انتخاب الزنوج أعضاءً فى المجالس التشريعية فى الجنوب، رغم أنهم كانوا أقلية، باستثناء المجلس التشريعى فى كارولاينا الجنوبية. وقامت حملة دعائية انتشرت شمالاً وجنوباً (وهى حملة استمرت حتى القرن العشرين وفى كتب التاريخ بالمدارس الأمريكية) مفادها أن السود كسالى وفاسدون ومثيرو شغب ضد الحكومات والنظام. ومما لا شك فيه أن الفساد لم يكن غائباً، بيد أنه كان مستحيلاً أن يزعم المرء أن السود هم الذين اخترعوا التآمر السياسى، ولاسيما فى ذلك المناخ المالى الفوضوى الذى ساد شمال البلاد وجنوبها بعد الحرب الأهلية.

وبالرغم من حقيقة أن الديون العامة لكارولاينا الجنوبية، والتى كانت تبلغ سبعة ملايين دولاراً فى عام ١٨٦٥ ، ارتفعت إلى تسعة وعشرين فى عام ١٨٧٣ ، إلا أن المجلس التشريعى الجديد وفّر تعليماً مجانياً ومدارس عامة لأول مرة فى الولاية. ولم يقتصر الأمر على التحاق سبعين ألفاً من الأطفال الزنوج بالمدارس فى عام ١٨٧٦ وهم الذين لم يلتحق منهم واحد بالمدارس من قبل، بل كان يذهب إلى المدارس خمسون ألفاً من الأطفال البيض ولم يكونوا يزيدون فى ١٨٦٠ عن عشرين ألفاً.

نتج أيضًا عن اشتراك الزنوج فى الانتخابات بعد عام ١٨٦٩ أن وصل منهم عضوان إلى مجلس الشيوخ (هيرام ريفلز وبلانش بروس وكلاهما من ولاية ميسيسيبى) كما أصبح عشرون منهم أعضاءً فى الكونجرس ـ ثمانية من كارولاينا الجنوبية وأربعة من كارولاينا الشمالية وثلاثة من آلاباما وواحد من كل الولايات الفيدرالية السابقة (بيد أن هذه القائمة سوف تتضاءل سريعًا بعد عام ١٨٧٦، إذ سيغادر آخر عضو أسود الكونجرس فى عام ١٩٠١).

لقد أشار جون بيرجيس، أحد الباحثين المتخصصين فى القرن العشرين بجامعة كولومبيا، إلى عملية إعادة **بناء السود** Black Reconstruction بالكلمات التالية:

> **بدلاً من أن تقوم حكومة تتألف من أكثر الناس ذكاءً وفضيلة، من أجل مصلحة المحكومين، نرى هنا حكومة تتألف من أكثر الناس جهلاً وأسوأهم رذيلةً ... . إن البشرة السوداء تعنى الانتماء إلى جنس من البشر لم ينجح قط فى أن يتغلب العقل لديه على جموح العاطفة، ومن ثم فهو جنس من البشر لم يقم بصنع حضارة من أى نوع.**

ولا يملك المرء إلا أن يُقدّر، فى مواجهة هذه الكلمات، القادة السود فى جنوب ما بعد الحرب الأهلية. فعلى سبيل المثال، قام هنرى ماكنيل تيرنر، الذى هرب من أغلال العبودية فى سن الخامسة عشرة من إحدى مزارع كارولاينا الجنوبية، بتعليم نفسه القراءة والكتابة، وقرأ كتب القانون أثناء عمله ساعيًا فى مكتب أحد المحامين فى بالتيمور، وقرأ فى كتب الطب إبان عمله موظفًا صغيرًا فى مدارس بالتيمور الطبية، كما عمل قسيسًا ملحقًا بإحدى كتائب الزنوج، وانُتخب عضوًا لأول مجلس تشريعى فى جورجيا بعد الحرب الأهلية. ولما صوت مجلس جورجيا التشريعى فى عام ١٨٨٨ بطرد كل أعضائه الزنوج؛ أى اثنين من مجلس الشيوخ وخمسة وعشرين من مجلس النواب، وقف تيرنر موجهًا كلامه إلى رئيس مجلس نواب جورجيا (وهى الكلمات التى ألقت عليها الضوء فيما بعد امرأة سوداء تخرجت فى جامعة أطلنطا). قال تيرنر:

السـيـد الرئيس ... أرجـو أن يفـهـم أعـضـاء هذا المجلس المكانة التى أتمتع بهـا. إننى عـضـو بـهـذا المجلس، ومن ثم فلن أتودد إلى أى أحـد أو أتذلل لأى شـخـص أو أتوسل إليـهم طلبًا لحـقـوقى... إننى هنا كى أطالب بحـقـوقى وكى أشن العـواصف على من يتجرأ على إنسانيتى... .إن ما حدث بهذا المجلس اليوم لسابقة فى تاريخ العالم ....، فلم يحدث فى تاريخ العالم من قبل أن يُتهم إنسان، أمام هيئة تشريعية قضائية تنفيذية، بارتكاب جريمة لكونه ذا بشرة غير بيضاء كبشرة أقرانه. لم يبق أمام ولاية جورجيا، فى القرن التاسع عشر، إلا أن تستدعى إنسانًا أمام المحاكم وتتهمه بارتكاب فعل هو غير مسئول عنه إلا إذا كان المرء مسئولاً عن رأسه التى يحملها فوق كتفيه. إن الجنس الأنجلو ساكسونى، يا سيدى، جنس غريب... . لم أكن أدرى أن هذا الجنس يحمل فى طبيعته كل هذا الجبن... إن قضية كهذه، يا سيدى، لن تنتهى اليوم، فسوف تحكيها الأجيال فى عصور قادمة مع كل شروق للشمس على التلال... . لقـد قـيـل لـنـا، يا سيدى، إنه لو أراد السود أن يتكلموا، فلابد أن يفعلوا ذلك من خلال البيض، وإذا أرادوا أن يعبروا عن مشاعرهم، فلابد أن يزيفوها ويرسلونها عبر رُسلٍ بيض يراوغون ويتهربون كبندول الساعة .... إن القضية الكبرى يا سيدى، تسكن هذا السؤال: هل أنا إنسان؟ وإذا كنتُ إنسانًا، فإننى أطالب بحقوقى كما يليق بإنسان .... يا سيدى، رغم أننا لا ننتسب إلى الجنس الأبيض، فقد حققنا الكثير؛ لقد مهدنا طريق الحضارة هنا؛ فقد شيدنا بلدكم وزرعنا حقولكم وحصدنا لكم المحاصيل على مدار قرنين ونصف! وماذا نطلب منكم مقابل ذلك؟ هل نطالبكم بتعويض عن عرق أجدادنا وآبائنا، أو عن الأرواح التى

أزهقتموها والدماء الذى سفكتموها؟ نحن لا نطالب بتعويض عن ذلك. إننا لا نود أن ننبش فى الماضى وما فيه، لكننا نطالبكم الآن بحقوقنا ... .

وفى مدارس السود كان المدرسون سواء كانوا من السود أو البيض، يشجعون التلاميذ على أن يعبروا عن أنفسهم بحرية، وأحياناً عن طريق السؤال، وتحمل وثائق إحدى مدارس لويزفيل بكنتاكى أمثلة لهذه الطريقة:

المدرس: والآن يا أطفال، أنتم لا تعتقدون أن البيض أفضل منكم بما لهم من وجوه بيضاء وشعور ناعمة مرسلة؟

التلاميذ: نعم يا سيدى، لا نعتقد ذلك.

المدرس: لا، ليسوا أفضل منكم، لكنهم مختلفون عنكم، انهم يملكون سلطة كبيرة، فهم يشكلون الحكومة ويحكمون هذه البلاد الواسعة ... ولكن، ما الذى يجعلهم مختلفين عنكم؟

التلاميذ: ما يملكونه من أموال.

المدرس: نعم ولكن ما الذى مكنهم من الحصول عليها؟ كيف حصلوا عليها؟

التلاميذ: لقد سرقوها منا!

كان للسود من النساء دور كبير فى إعادة بناء الجنوب بعد الحرب الأهلية. ولعل فرانسيس إلين واتكينز هاربر Frances Ellen Watkins Harper خير مثال على ذلك؛ فقد قامت بإلقاء الخطب فى الولايات الجنوبية بعد الحرب. ولدت هاربر حرة فى بالتيمور، وصارت تعول نفسها بداية من سن الثالثة عشرة، وعملت بالتمريض ثم أصبحت خطيبة من خطباء مناهضة الرق، بل كانت تكتب الشعر وتقوم بإلقائه فى الاجتماعات العامة. نادت هاربر بالمساواة بين الجنسين، وشاركت فى مؤتمر حقوق

المرأة عام ١٨٦٦، وأسست الرابطة الوطنية للنساء الملونات. وفى تسعينيات القرن التاسع عشر كتبت أول رواية تنشر لامرأة سوداء وهى رواية **إيولا ليروى أو ظلال نهضت** Iola Leroy or Shadows Uplifted. وفى عام ١٨٧٨، وصفت هاربر ما شاهدته وسمعته فى الجنوب قائلة:

> **أخبرتنى إحدى معارفى، التى تعيش فى كارولاينا الجنوبية وتعمل بالأعمال التطوعية، أن النساء يُمثّلن الدعامة الأساسية للأسرة وأن ثلثى أعمال البستنة تقوم بها النساء فى كارولاينا الجنوبية، وأنهن أكثر جدية ودأبًا من الرجال فى المدن ... . كما أنهن يقفن إلى جوار الرجال إذا فقدوا عملهم نتيجة انتماءاتهم السياسية قائلات لهم: "ظلوا أوفياء لمبادئكم."**

وعبر حلقات نضالهن فى سبيل اكتساب حقوق متساوية من أجل السود، تحدثت بعض النساء السود عن مواقفهن الخاصة؛ ففى أحد اجتماعات الرابطة الأمريكية للحقوق المتساوية، تحدثت سوجورنر تروث قائلة:

> **ثمة نشاط كبير فيما يتعلق بحصول الرجال الملونين على حقوقهم دون كلمة واحدة عن حقوق النساء الملونات. إن ذلك جدير بأن يجعل الرجال سادة للنساء وبالتالى فسوف يستمر الوضع السيئ كما كان من قبل .... إننى الآن أتجاوز الثمانين عامًا، وأوشك أن أغادر هذه الحياة، لقد عشت أربعين عامًا فى ظل نظام الرق ثم أربعين عامًا فى ظل الحرية ويبدو أننى احتاج أربعين عامًا أخرى كى أنال حقوقى كاملة كما نالها الرجال. أرى أننى ما زلت على قيد الحياة لأن هناك شيئًا على أن أقوم به، لا زال بإمكانى أن أساعد فى كسر القيود. لقد قمت بأعمال كثيرة كأى رجل، غير أنى لم أتقاض ما يتقاضاه الرجل. لقد عملت بالحقول وتربية الأطفال ولم أتقاض سوى نصف ما كان**

يتقاضاه الرجال الذين لم يقوموا بأعمال أكثر منى. اعتقد أننى المرأة الملونة الوحيدة التى تتحدث عن حقوق الملونات. أود أن تظل إثارة هذا الموضوع قائمة ويبدو أن شيئًا ما سيتحقق قريبًا ... .

ورغم صدور الإصلاحات الدستورية وقوانين المساواة العرقية وحصول الرجل الأسود على حقه الانتخابى، فقد ظل الزنوج تابعين للبيض الأغنياء وذوى النفوذ وذلك من أجل العمل، ومن ثم فقد وقعت أصوات الزنوج الانتخابية ضحية تحت وطأة الحاجة وسطوة القوة، وبالتالى فقد باتت القوانين المطالبة بالمساواة غير ذات معنى. وبينما ظلت قوات الاتحاد، بما فيها من ملونين، فى الجنوب، فقد تأخرت عملية المساواة بين السود والبيض.

لجأ كثيرون من بيض الجنوب إلى قوتهم الاقتصادية من أجل تنظيم جماعة كوكلوكس كلان وجماعات إرهابية أخرى، وبدأ السياسيون الشماليون فى تقدير أهمية الدعم السياسى من قِبل السود شديدى الفقر بما يمثلونه من قوة انتخابية فى مواجهة موقف أكثر استقرارًا فى الجنوب الذى عاد إلى الهيمنة الجمهورية البيضاء وتشريعات العمل التى تحافظ على تفوق البيض. ولم يلبث السود أن عادوا إلى ظروف لا تبعد كثيرًا عن ظروف نظام الرق. وبدأ العنف بعد نهاية الحرب الأهلية مباشرة؛ ففى ممفيس بتينيسى، قتل البيض ستة وأربعين من الزنوج كان معظمهم من المحاربين القدامى فى جيش الاتحاد، كما قتل فى هذه الواقعة اثنان من المتعاطفين البيض مع الزنوج. كان ذلك فى مايو من عام ١٨٦٦ واغتصبت فى الواقعة نفسها خمسة نساء سود، كما أحرق البيض تسعين بيتًا من بيوت السود وأربعة كنائس واثنى عشر مدرسة. وفى صيف العام نفسه فى نيو أورلينز، قام البيض بمظاهرة قتلوا فيها خمسة وثلاثين زنجيًا بالإضافة إلى ثلاثين من المتعاطفين البيض. وفيما يلى جزء من شهادة السيدة سارا سونج أمام لجنة مستقلة للتحقيق فيما حدث:

س: هل كنت يوما من العبيد؟

ج: نعم

س : ماذا رأيت من المظاهرة؟

ج: لقد رأيتهم يقتلون زوجي، كان ذلك بين العاشرة والحادية عشرة مساء الثلاثاء. أطلقوا الرصاص على رأسه وهو مريض فى سريره ... . لقد دخل حجرته ما بين عشرين وثلاثين رجلاً ... . رجع أحدهم خطوة إلى الوراء ثم وقف من زوجى على بعد ياردة واحدة ووضع مسدسه فى رأسه وأطلق ثلاث رصاصات ... . ثم ركله أحدهم ثم أطلق آخر الرصاص عليه مرة أخرى ... . ولم ينطق زوجى بكلمة واحدة بعد أن وقع على الأرض. ثم خرجوا بعد ذلك مسرعين ولم يعودوا ثانية ....

تصاعدت موجة العنف فى أواخر ستينات وأوائل سبعينات القرن التاسع عشر، حيث قامت جماعة كوكلوكس كلان بتنظيم الغارات وممارسة ضرب الزنوج وقتلهم وحرقهم أحياء، ففى كنتاكى وحدها، تسجل الوثائق وقوع مائة وستة عشر عملاً من أعمال العنف ما بين عامى ١٨٦٧ و١٨٧١، وفيما يلى عينة من العينات التى تحفظها السجلات الوطنية:

١ - غوغائى يزور هارودز بيرج فى مقاطعة ميرسر فى ١٤ نوفمبر١٨٦٧ كى يُخرج رجلاً من السجن يدعى روبرتس... .

٥ - يقوم غوغائى آخر بشنق سام ديفز فى ٢٨ مايو ١٨٦٨ بهارودز بيرج.

٦ - يشنق غوغائى آخر وليم بيرس فى ١٢ يوليو ,١٨٦٨

٧ - يموت جورج روجر شنقًا على يد أحد الغوغائيين فى براذرفورد فيل بمقاطعة مارتن فى ١١ يوليو ١٨٦٨ .

١٠ - يُضرب سيلاس وودفورد، البالغ من العمر ستين عاماً، ضرباً مبرحاً من قبل أحد الغوغاء المتنكرين ... .

١٠٩ - يموت زنجي قتلاً على أيدى جماعة كوكلوكس كلان فى مقاطعة هاى فى ١٤ يناير ١٨٧١ .

وفى عام ١٨٦٨ قام أحد القضاة البيض فى ولاية ميسيسيبى بإطلاق النار على زنجي يعمل حداداً ويسمى شارلس كالدويل. كان قد ولد عبداً ثم انتخب فيما بعد عضواً بمجلس شيوخ ميسيسيبى وأطلق عليه البيض لقب "الزنجى المشاغب والمثير للقلق". غير أن كالدويل بادل ابن القاضى إطلاق الرصاص فأرداه قتيلا، وحاكمته هيئة من المحلفين البيض، وأطلق سراحه بعد أن رد التهمة عن نفسه بقوله انه كان فى حالة دفاع عن النفس وكان بذلك أول زنجي يقتل شخصاً أبيض فى ميسيسيبى ثم تُبرأ ساحته بعد تقديمه للمحاكمة. بيد أن كالدويل لم يترك لحاله؛ فبعد ست سنوات تقريبًا مات قتيلاً على أيدى عصابة بيضاء أطلقت عليه النار. وكان ذلك إشارة على بدء البيض فى استعادة سطوتهم السياسية فى ميسيسيبى وفى كل مكان من الجنوب.

وبينما تصاعدت درجات العنف فى سبعينيات القرن التاسع عشر، فقد أصبحت الحكومة الوطنية، حتى تحت حكم الرئيس جرانت. أقل حماساً فى الدفاع عن حقوق السود، كما أصبح من المؤكد أنها ليست على استعداد لتسليحهم ومارست المحكمة الدستورية العليا دورها فى دفع الحكومة دفعًا نحو اتجاهات أكثر محافظة إذا رأت أنها جاوزت الخطوط الحمراء، وبدأت المحكمة فى تفسير أو تأويل التعديل الرابع عشر، وهو التعديل الذى يتضمن ويحفز على المساواة العرقية، بطريقة تعجزه عن تحقيق غرضه. وفى عام ١٨٨٣، قامت المحكمة العليا بإلغاء قانون الحقوق المدنية لعام ١٨٧٥ والذى كان يُحرّم التمييز ضد الزنوج المستخدمين للوسائل والخدمات العامة، وقالت المحكمة "إن عدم الالتزام على المستوى الفردى بهذا التعديل ليس هو لب الموضوع" وقالت إن التعديل الرابع عشر كان موجهاً إلى الولايات وليس الأفراد حيث يقول التعديل "ليس من حق ولاية من الولايات... ."

غير أن جون هارلان Harlan، أحد قضاة المحكمة العليا والذى كان فيما سبق مالكًا لبعض العبيد فى كنتاكى، عبر عن سخطه قائلاً أن التعديل كان يحمل من الدستورية ما يجعله كفيلاً بحظر ممارسة التمييز على المستوى الفردى. كما قال إن التعديل الثالث عشر، الذى حرّم نظام الرق، كان ينطبق على مالكى المزارع، أى على المستوى الفردى، وليس فقط على مستوى الولايات، ثم بيّن أن التمييز هو إحدى علامات العبودية ومن ثم فهو مُحرّم قانونيًا، وأشار إلى أول عبارة فى التعديل الرابع عشر والتى تقول بأن كل من ولد فى الولايات المتحدة هو مواطن أمريكى، وأشار كذلك إلى المادة الرابعة من القسم الثانى للقانون والتى تقول "لمواطنى كل ولاية الحق فى كل الامتيازات والحصانات التى يتمتع بها المواطنون فى الولايات الأخرى."

بيد أن هارلان كان يحارب قوة أكبر من المنطق وأكبر من العدل؛ إذ أن مزاج المحكمة العليا كان يعكس اتحاداً جديداً بين أصحاب المصانع فى الشمال من ناحية وبين أصحاب المزارع فى الجنوب من ناحية أخرى. ووصل مزاج المحكمة إلى ذروته عندما أصدرت فى عام ١٨٩٦ قرارًا، اشتهر باسم بليسى/فيرجسون، عندما حكمت المحكمة بأن من حق أحد وسائل السكة الحديدية ممارسة عزل السود عن البيض إذا تساوت المرافق، وجاء بالقرار:

> **ليس من شك فى أن هدف التعديل هو تطبيق المساواة المطلقة بين العرقين أمام القانون، غير أن طبيعة الأشياء تقول إن التعديل لا يمكن أن يكون قد رمى إلى إلغاء الفروق القائمة على اللون، أو أنه كان يرمى إلى تطبيق المساواة الاجتماعية، التى تختلف كل الاختلاف عن المساواة السياسية، أو إلى اختلاط العرقين وفقًا لشروط غير مرضية لأى منهما.**

وعبّر هارلان ثانية عن سخطه بقوله: "إن دستورنا مصاب بعمى الألوان."

كان ذلك عصر التصالح بين النُخب فى الشمال والجنوب، ويتساءل سى. فان وود وارد C. Vann Woodward : هل وقع الجنوب، الذى كان يعانى الأزمات

الاقتصادية نتيجة توقف تجارة الرقيق، تحت إغراء الاتحاد مع محافظى الشمال بحيث أصبح مصدر مساعدة لا تهديداً لقيام نظام رأسمالى جديد؟ يلخص وودوارد الموقف بقوله:

> **لم تقم صفقة ١٨٧٧ باستعادة النظام القديم فى الجنوب، ... بل أكدت ودعمت انفراد البيض بالهيمنة السياسية وضمنت عدم التدخل فى الأمور التى تتعلق بالسياسة العرقية فى نظير أن يحصل الجنوب على نصيبه من نعم النظام الاقتصادى الجديد... .**

إن أهمية الرأسمالية الجديدة فى قلب قوة السود فى جنوب ما بعد الحرب الأهلية تؤكدها دراسة هوراس مان بوند عن إعادة تشكيل أو إعادة بناء آلاباما وهى العملية التى تعكس "صراعًا بين رأسماليين مختلفين." صحيح أن العنصرية كانت عاملاً مساعداً، ولكن، كما يقول بوند، "تراكمات رأس المال ومن يتحكمون فى هذه التراكمات لم تنل من أهواء الناس وتحاملهم؛ فقد قلب مَنْ يسعون إلى التربح من وراء استغلال موارد آلاباما الطبيعية، دون رحمة أو شفقة، تحامل الآخرين لصالحهم، بل وفعلوا ذلك بمهارة كبيرة."

كان ذلك عصر الفحم والطاقة وكانت آلاباما تملكهما معا، "وقد عرف أصحاب البنوك فى فلادلفيا ونيويورك، وحتى فى لندن وباريس، ذلك قبل عقدين. وكانت المشكلة تتمثل فى وسائل النقل." ولذلك، كما يقول بوند، بدأ أصحاب بنوك الشمال فى الظهور فى أدلة خطوط السكك الحديدية الجنوبية؛ ففى عام ١٨٧٥، ظهر جيه. بى. مورجان J. P. Morgan كمدير للعديد من خطوط السكك الحديدية فى آلاباما وجورجيا. وفى عام ١٨٨٦، تحدث هنرى جريدى Grady رئيس تحرير مجلة "كونستيتيوشن" Con-stitution التى تصدر فى أطلنطا، فى عشاء بنيويورك، وكان بين الجمهور ج. بى. مورجان وفلاجلر (أحد شركاء روكفيلر) وراسل سيج وتشارلز تيفانى. كان عنوان كلمته "الجنوب الجديد" وكانت فكرته الرئيسية: عفا الله عما سلف، ولنبدأ عصراً

جديداً للسلام والرخاء، لقد كان الزنجى يمثل طبقة عاملة مهمة وكان يتمتع بحماية القوانين وصداقة أهل الجنوب. وتفكه جريدى من الشماليين الذين باعوا العبيد إلى أهل الجنوب وقال إن الجنوب بإمكانه الآن أن يعالج مشكلته العرقية. ونال جريدى تصفيقًا كبيراً من الحاضرين، وأنشدت فرقة موسيقية أغنية "Dixie" (*) وفى الشهر نفسه، ظهر مقال فى "ديلى تريبيون" Daily Tribune النيويوركية جاء فيه:

> **سيعود البارزون فى تجارة الفحم والحديد، الذين أمضوا الأيام العشرة الأخيرة فى هذه المدينة، إلى بيوتهم لتمضية إجازة عيد الميلاد وهم فى كامل السعادة والرضا عن عمل العام، وكلهم أمل فى المستقبل. والحقيقة أنهم محقون فى سعادتهم هذه؛ فقد جاء أخيرًا الوقت الذى انتظروه عشرين عامًا تقريبًا وهو الوقت الذى أصبح فيه رأسماليو الشمال مقتنعين ليس فقط بالأمان ولكن أيضًا بالأرباح الضخمة العائدة من استثمار أموالهم فى تنمية الموارد الغنية بالفحم والحديد فى كل من آلاباما وتينيسى وجورجيا.**

ومما هو جدير بالذكر أن الشمال لم يضطر إلى المرور بثورة فى تفكيره من أجل أن يقبل بتبعية الزنوج؛ فعندما انتهت الحرب الأهلية، قامت تسع عشرة ولاية من الولايات الأربع والعشرين الشمالية بحرمان السود من حق التصويت. وبحلول عام ١٩٠٠ كانت كل ولايات الجنوب قد ضمنت دساتيرها ما يحرم الزنوج من حق التصويت بل وعزلهم عن البيض، وجاء بافتتاحية نيويورك تايمز: "لم يعد أهل الشمال يشجبون حرمان الزنوج من حق التصويت .... وقد أقر القانون الدستورى بأهمية وضرورة ذلك من أجل الحفاظ على الذات." هذا بالإضافة إلى الفكر العنصرى

(*) ترمز هذه الكلمة إلى الولايات الجنوبية ولاسيما تلك التى انضمت إلى الكونفدرالية أثناء الحرب الأهلية . (المترجم)

والممارسة العنصرية فى الشمال دون حاجة إلى أن تكون متضمنة فى القوانين بشكل صريح. لقد ورد، على سبيل المثال، الخبر التالى فى جريدة "ترانسكريبت"Transcript الصادرة فى بوسطن فى ٢٥ سبتمبر ١٨٩٥:

قُبض ليلة أمس على شخص ملون يحمل اسم هنرى دبليو. تيرنر بعد أن أُرتيب فى أنه قاطع طريق، وقد اقتيد هذا الصباح إلى ستوديو السود حيث التقطت له صورة لوضعها فى "معرض المتشردين"، الأمر الذى أغضبه وأظهر عليه علامات السخط والنفور حيث قاوم رجال البوليس أكثر من مرة فى الطريق إلى المصور ما استطاع إلى ذلك سبيلا، مما دفعهم إلى ضربه بالهراوات.

وفى أدب ما بعد الحرب الأهلية، جاءت صور الزنجى غالبًا من كتابات الكتاب البيض الجنوبيين من أمثال توماس نيلسون بيج Thomas Nelson Page الذى يشير فى روايته **صخرة حمراء** Red Rock إلى إحدى الشخصيات الزنجية على أنها "ضبع فى قفص"، "حيوان زاحف"، "إحدى سلالات الدود"، و "حيوان متوحش".

وسط هذا الجو، لم يكن من المدهش أن يقوم قادة الزنوج، الذين كانوا يلقون قبولاً من المجتمع الأبيض من أمثال بوكر تى. واشنطن الذى دعاه الرئيس تيودور روزفلت مرة بالبيت الأبيض، بتشجيع السلبية السياسية للزنوج. وعندما دُعى من قِبل المنظمين البيض لأحد المؤتمرات الخاصة بالولايات المنتجة للقطن فى أطلنطا عام ١٨٩٥، حث واشنطن الزنوج قائلاً: "أدلوا بدلائكم أينما كنتم"؛ بمعنى البقاء فى الجنوب وبمعنى أن يظلوا فلاحين وحرفيين، بل وأن ينجحوا فى أعمالهم. كما حث واشنطن أصحاب العمل البيض على أن يستأجروا الزنوج لا المهاجرين "غريبى اللسان والعادات"، وقال إن الزنوج كانوا، "دون صراعات عمل أو إضرابات، أكثر الناس صبراً وأمانة وطاعة للقوانين، كما أنهم أقل الناس سخطًا فى تاريخ العالم."

وأضاف واشنطن: "إن أكثر الناس حكمة من بين أبناء عرقى يعلمون أن إثارة قضايا المساواة الاجتماعية تعتبر من أكثر الحماقات تطرفًا."

ربما كان من رأى واشنطن أن ما يدعو إليه خطوة وتكتيك ضرورى من أجل بقاء الزنوج فى الجنوب فى زمن شهد موت كثيرين منهم شنقًا وحرقًا. أما توماس فورشن Fortune، المحرر الشاب الأسود لجريدة "جلوب" Globe النيويوركية، فقد شهد أمام إحدى لجان مجلس الشيوخ عن وضع الزنوج فى الولايات المتحدة، فكان حديثه يدور حول "الفقر المنتشر" وعن خيانة الحكومة ومحاولات الزنوج اليائسة من أجل تعليم أنفسهم. قال فورشن إن متوسط أجر العمال الزنوج بالمزارع كان حوالى خمسين سنتًا فى اليوم، وكان العامل يحصل على أجره فى صورة "حوالات" لا يستطيع أن يستعملها إلا من خلال متجر صاحب المزرعة نفسه "نظام من الاحتيال والخداع." كان المزارع الزنجى يُضطر إلى أن يعد أحد التاجر بتسليم المحصول كى يحصل من صاحب المتجر على بعض المال مقدمًا للصرف على المحصول، وفى نهاية العام يجد المزارع الزنجى نفسه مدينًا دائمًا. ومن ثم فقد كان محصوله دائمًا مرهونًا لصالح شخص ما، وكان الزنجى نفسه مربوطًا بالأرض التى يزرعها ومقيداً بالسجلات التى يحفظها صاحب الأرض وصاحب المتجر.

تحدث فورشن عن "نظام العقاب فى الجنوب ولاسيما ما عرف باسم العُصبة المسلسلة وهى طريقة مشينة يُشد فيها السجناء فى سلسلة حديدية واحدة ... والهدف من ذلك هو إرهاب السود وتوفير ضحايا يعملون لدى المقاولين الذين يشترون طاقة هؤلاء المساجين التعساء من الولاية بثمن بخس ... . وبينما يطلق سراح الأبيض دائمًا إذا ما قتل زنجيًا، يدفع بالزنجى إذا سرق خنزيراً إلى العصبة المسلسلة لمدة عشر سنوات."

ولجأ كثير من الزنوج إلى الفرار، فقد هرب من تكساس ولويزيانا وميسيسيبى ستة آلاف منهم وهاجروا إلى كانساس وذلك هربًا من العنف والفقر. ورأى فريدريك دوجلاس وقادة آخرون انه ليس من الحكمة فعل ذلك، غير أن المهاجرين رفضوا هذه

النصيحة وقال أحدهم: "لم نجد قائداً نثق به غير الله." وقال هنرى آدمز، وهو مهاجر أسود وأمى وكان محاربًا فى جيش الاتحاد، أمام إحدى لجان مجلس الشيوخ فى ١٨٨٠ عن سبب مغادرته شريفبورت Shreveport، لويزيانا: "لقد وجدنا أن كل ولايات الجنوب أصبحت فى أيدى نفس مَنْ كانوا يملكونا عبيداً."

لم يتوقف الزنوج الجنوبيون، حتى فى أسوء الأوقات، عن الالتقاء من أجل تنظيم أنفسهم دفاعًا عن النفس، وها هو هربرت أبثيكر يقوم بإعادة طبع ثلاثة عشر وثيقة من وثائق الاجتماعات وهى عبارة عن مناشدات ومرافعات الزنوج فى ثمانينيات القرن التاسع عشر- فى بالتيمور ولويزيانا وكارولاينا الجنوبية وكارولاينا الشمالية وفرجينيا وجورجيا وفلوريدا وتكساس وكانساس، وكلها وثائق تعكس روح التحدى والمقاومة التى أبداها الزنوج فى كل أرجاء الجنوب. وكان ذلك يتم فى مواجهة إحراق ما يزيد على مائة زنجى من قبل البيض سنويًا فى ذلك الوقت.

وبالرغم من قلة الحيلة واليأس الظاهرين فى موقف الزنوج، كان هناك من القادة السود الذين رأوا أن بوكرت واشنطن كان مخطئًا فى دعوته إلى الحذر والاعتدال، وها هو الشاب الأسود جون هوب من جورجيا يتحدث إلى زملائه من الطلاب بإحدى كليات السود فى ناشفيل بتينيسى بعد سماعه خطاب واشنطن فى معرض القطن الذى أشرنا إليه سابقًا. قال هوب:

> **إذا لم نناضل من أجل المساواة، ففيم حياتنا بحق السماء؟ إننى أرى أنه من الجبن والخيانة أن يقول أى ملون للبيض أو الملونين بأننا لا نناضل من أجل المساواة... . نعم يا أصدقائى أنا لا أبغى ما هو أقل من المساواة... . والآن، فلتحبسوا أنفاسكم لأننى سأقول شيئًا خطيرًا: إننى أطالب بالمساواة الاجتماعية... فلست حيوانًا متوحشًا أو شيئًا قذرًا. انهضوا، يا اخوتى! وتعالوا نمتلك هذه الأرض... . ولتكونوا ساخطين ناقمين... . كونوا كالأمواج القلقة المتلاطمة فى بحر**

لا حدود له، وليضرب سخطكم جدار الظلم حتى يقوض أركانه جميعًا... .

وهذا دى بوا W. E. B. Du Bois، وهو مناضل أسود آخر جاء للتدريس بجامعة أطلنطا. وكان يرى أن خيانة قضية الزنوج فى أواخر القرن التاسع عشر إنما هى جزء من مؤامرة أكبر كانت تحدث فى الولايات المتحدة، وهى مؤامرة لم تكن موجهة ضد السود فحسب، وإنما أيضًا ضد فقراء البيض. يقول دى بوا فى كتابه **إعادة بناء السود** Black Reconstruction الذى كتبه فى عام ١٩٣٥:

لقد بكت السماء، ولكن ذلك لم يشغل بال عصر لم تعد تهمه السماء إلا قليلا. الأهم من ذلك أن العالم بكى وما زال يبكى حتى امتلأت عيونه بالدموع والدم، ذلك أن رأسمالية جديدة واستعبادًا جديدًا بدءا فى الظهور فى أمريكا فى عام ١٨٧٦ .

لقد رأى دى بوا هذه الرأسمالية الجديدة كجزء من عملية استغلال ورشوة تحدث فى كل البلاد "المتحضرة" فى العالم؛ ذلك أن ديكتاتورية رأس المال ابتزت العمال بل وكانت ترشيهم عن طريق رفع الأجور أحيانًا ووضعهم فى الوظائف السياسية أحيانًا أخرى، الأمر الذى جعل من السهل استغلال الأيدى العاملة البيضاء والصفراء والسمراء والسوداء سواء فى البلاد المتحضرة أو غير المتحضرة.

هل كان دى بوا على صواب عندما رأى أنه بنمو الرأسمالية الأمريكية، قبل الحرب الأهلية وبعدها ، كان البيض والسود على السواء يتحولون إلى عبيد على نحو من الأنحاء؟

الفصل العاشر

الحرب الأهلية الأخرى

في خريف ١٨٣٩، وبينما هو في طريقه عبر التلال لتحصيل إيجار الأراضي الشاسعة التي تملكها عائلة رينسيلر في وادي نهر هاديسون، تسلم مفتش خطاباً من أحد المستأجرين جاء فيه:

> **قام المستأجرون بتنظيم أنفسهم، وقرروا ألا يدفعوا أي إيجار حتى يُرفع عنهم الظلم الذي وقع عليهم... إن للمستأجرين الآن حقًا في أن يعاملوا مالك الأرض بنفس الطريقة التي يعاملهم بها على مدار سنوات طوال. فلا تظنن أن هذا من قبيل مزاح الأطفال. فلو عدت إلينا ثانية بصفتك الرسمية، فإنني لا أضمن لك عودةً سالمة... .**

وعندما وصل أحد نواب المفتش إلى الأراضي الزراعية وبين يديه وثائق تطالب بالإيجار، ظهر المزارعون فجأة وتجمعوا على صوت الأبواق الصفيحية، وأخذوا منه الوثائق وقاموا بحرقها، في ديسمبر من نفس العام وصل أحد المفتشين، ومعه حشد يتكون من خمسمائة فرد لحفظ النظام، إلى المنطقة المشار إليها، لكنهم وجدوا أنفسهم، وسط نفير الأبواق الصفيحية، محاصرين بين ألف وثمانمائة مزارع يسدون في وجههم الطريق، بينما يحاصرهم من الخلف ستمائة آخرون، وكلهم مسلحون بالعصي وما شابه. فلما وجه المفتش ومن معه وجوههم إلى الخلف في إشارة إلى الرغبة في الانصراف، أفسح لهم المزارعون الطريق.

كانت هـذه بدايـة حـركة مناهضـة الإيجار فى هـاديسون فالى، كما وصفـها هنرى كريستـمان فى كـتـابه **الأبـواق الصـفـيحية والقطن** Tin Horns and Calico . كانت هـذه الحركة احتـجاجًا على نـظام يعـود إلى بدايات القـرن السـابع عشـر عندمـا كـان يحكم الـهولنديون نيـويورك، حيـث كـانت "حـفنة أُسـر" على حد قـول كريستمان، "ذات علاقــات مصاهرة، تتحكم فى مصائر ثلاثمـائة ألـف من البشر، كـمـا كـانت تحـكم بطريقـة تشـبـه طريقـة الملـوك حـوالى مليـونى آكـر من الأراضى الزراعية."

كان المستأجرون يقومون بدفع إيجار الأراضى بالإضافة إلى الضرائب، وكان النصيب الأكبر من الأراضى ملكًا لأسرة رينسيلر التى كانت تتحكم فى مصير ما يزيد على ثمانين ألف مستـأجر، وتراكمت ثروتهم حتى زادت عن أربعين مليونًا من الدولارات. كان كبير العائلة، كما قال أحد المتعاطفين مع المستأجرين، "يحيا حياة منعمة، لا ينفد الطعام لديه ولا الشراب ولا ينفَّض الناس من حوله، يأخذ مركبته التى تجرها خمسة من الخيول ويطوف بها أرجاء وادى النهر الجميل ... ."

وبحلول صيف عام ١٨٣٩، كان المستأجرون يعقدون اجتماعهم الأول، وكانت الأزمة الاقتصادية التى وقعت عام ١٨٣٧ قد ملأت المنطقة بالعاطلين الباحثين عن الأراضى، ولاسيما أن الموجة الأولى من بناء السكك الحديدية كانت قد انتهت وخلفت وراءها فائضاً فى العمالة. فى ذلك الصيف قرر المستأجرون: "سوف نلقف كرة الثورة من حيث وقف بها آباؤنا، ثم ندحرجها حتى نصل إلى مرحلة الحرية والاستقلال للجماهير." كان من نتائج حركة المستأجرين أن أصبح بعضهم قادة ومنظمين من أمثال سميث بوتن، الطبيب الذى كان يجوب الريف على ظهر فرس، إينج ديفر Ainge Devyr الثورى الأيرلندى، الذى كان قد رأى كيف جلب احتكار قلة من الناس، للأرض والصناعة، الفقر والبؤس لسكان الأحياء الفقيرة فى لندن وليفربول وجلاسجو، فقام بتحريض الناس من أجل التغيير، فألقى القبض عليه، ففر إلى أمريكا. دُعى ديفر للمشاركة فى احتفال لعيد الاستقلال (الرابع من يوليو) نظمه فلاحو رينسيلر، فقام

محذراً سامعيه: "إنكم لو سمحتم للجشعين، الذين لا تحكمهم مبادئ سامية، باحتكار الأرض فسوف يصبحون، حتماً، سادة لهذا البلد، كما يقول بذلك قانون السببية... ".

انضم آلاف من فلاحي رينسيلر فى جمعيات مناهضة نظام الإيجار، واتفقوا على أن يكون ملبسهم هو الملبس القطنى للهنود الحمر، فى إشارة إلى أنهم هم ملاك الأرض وليس من يحتكرونها. كذلك كان البوق الصفيحى يرمز إلى نداء الهنود الحمر بعضهم بعضاً من أجل حمل السلاح. ولم يمضى وقت طويل قبل أن يصبح عشرة آلاف من المستأجرين كاملى التدريب والاستعداد. وانتقلت عملية تنظيم المستأجرين من مقاطعة لأخرى وفى العديد من البلاد الصغيرة التى تنتشر على ضفاف نهر هاديسون، وخرجت المنشورات التى تطالب كافة المستأجرين بأن يقوموا من سباتهم وأن يحاربوا حتى يموت آخر عدو مسلح.

وأحاط المستأجرون، الذين أتوا تلبية لنداء الأبواق الصفيحية، بالمفتشين أو العُمد ونوابهم الذين جاءوا لتحصيل الإيجار عن الأراضى، حتى أن جريدة "هيرالد" النيويوركية، التى كانت يوماً متعاطفة مع الفلاحين، أدانت "روح التمرد" التى كانت تحركهم.

كان من بين البنود الظالمة لعقد الإيجار أن لمالك الأرض الحق فى أخشاب المزارع. وذات يوم قُتل أحد ممثلى مالك الأرض، الذى أتى مطالبًا بخشب إحدى المزارع. واشتعل الغضب وقُتل غلام فلاح بطريقة غريبة ولم يعرف أحد مَن الجانى، وأُودع الدكتور بوتن السجن، وأمر الحاكم رجال المدفعية بالتحرك، وجاءت جماعة من الفرسان من مدينة نيويورك.

قام خمسة وعشرون ألفًا من المستأجرين بالتوقيع على التماس يطالب بإلغاء نظام الإيجار القائم. قدم المستأجرون الالتماسات إلى المجلس التشريعى فى ١٨٤٥، ولم تنجح هذه الحركة، فقامت حرب تشبه حرب العصابات، وكانت بين جماعات "الهنود" من ناحية وبين رجال المفتشين والعُمد من ناحية أخرى. وبقى الدكتور بوتن

فى السجن لسبع شـهور، منهـا أربعة ونصف فى القيود الثقيلة وذلك قبل الإفراج عنه مقابل كفالة. لم تكن اجتماعات الرابع من يوليو عام ١٨٤٥ نهاية المطاف، بل كانت علامة على استمرار المقاومة.

ففى إحدى المرات، حاول المفتش أن يبيع ماشية فلاح يُدعى موسى ايرل، وكان عليه دين بلغ ستين دولارًا، فقامت مشاجرة سقط فيها المفتش قتيلاً، وباءت محاولات أخرى لبيع ماشية الفلاحين لتسديد ديونهم بالفشل مرات ومرات. وكان أن أرسل الحاكم قوات بلغ عددها ثلاثمائة رجل وأعلن وجود حالة تمرد، وأُلقى بحوالى مائة من المناهضين لقانون الإيجار فى السجون. وتمت محاكمة الدكتور بوتن، واتهمه المفتش بسرقة أوراق منه، لكن القاضى أعلن أن بوتن "ارتكب، فى حقيقة الأمر، جريمة الخيانة العظمى، والتمرد ضد الحكومة، والتحريض المسلح" وحُكم على بوتن بالسجن مدى الحياة.

أعلن قاضى المحكمة أن أولئك "الهنود" المسلحين الذين تخفوا فى مزرعة موسى إيرل، حيث قُتل المفتش، مدانون بارتكاب جريمة قتل وأعطى القاضى هيئة المحلفين تعليمات تفيد بذلك، وحُكم على أربعة من المدانين بالسجن مدى الحياة وعلى اثنين بالإعدام شنقًا، وطُلب من اثنين من القادة كتابة خطابين يطالبان أعضاء الحركة بالانفصال عنها لأن ذلك كان يمثل الفرصة الوحيدة لتجنب الأحكام المشددة. وكُتب الخطابان.

كانت قوة القانون هى التى سحقت حركة المناهضين للإيجار، وكان الهدف هو أن يفهم الفلاحون إن ليس بإمكانهم أن يكسبوا شيئًا عن طريق الشجار أو التمرد، وأن جهودهم يجب أن تقتصر على الحق فى التصويت والطرق القانونية المقبولة إذا أرادوا اصلاحًا لما هم فيه. وفى عام ١٨٤٥، انتخب المناهضون للإيجار أربعة عشر عضوًا للمجلس التشريعى للولاية، وقام حاكم الولاية سايلاس رايت بتخفيف حُكم الإعدام، وطالب المجلس التشريعى بالتخفيف عن المستأجرين وذلك بإنهاء النظام الإقطاعى فى هاديسون فالى، ولم تنجح تلك المقترحات الخاصة بتفتيت الملكيات

الكبرى ... بوفاة أصحابها، لكن المجلس التشريعى جعل من بيع أملاك المستأجرين لتسديد ما عليهم من إيجار عملاً غير قانونى. فى ذلك العام، قضى مؤتمر دستورى بتحريم تحرير عقود إقطاعية جديدة.

كان الحاكم التالى للولاية، المنتخب فى عام ١٨٤٦ بمساعدة المناهضين للإيجار، قد وعد بإصدار عفو عن سجناء الحركة، وقد فعل ذلك فور انتخابه. وخرج السجناء وحيتهم عند خروجهم أعداد غفيرة من الفلاحين. غير أن قرارات المحكمة فى الخمسينيات بدأت فى تحجيم أسوء ما فى النظام الإقطاعى من عيوب دون أن تغير من أسس العلاقة بين المالك والمستأجر.

زاد غضب ومقاومة الفلاحين عند المطالبة بدفع الإيجارات المتراكمة فى الستينيات من القرن التاسع عشر، وما برحت جماعات "الهنود" حتى عام ١٨٦٩، تعارض المفتشين الذين كانت سياستهم تخدم والتر تشيرش وقد قُتل نائب أحد المفتشين الذى كان يحاول نزع ملكية أحد الفلاحين لصالح تشيرش. فى ذلك الوقت، كانت ملكية معظم الأراضى قد انتقلت لأيدى الفلاحين، وفى أكبر ثلاث مقاطعات لحركة مناهضة نظام الإيجار، لم يبق من بين ١٢,٠٠٠ فلاح سوى ثلاثة آلاف يخضعون لنظام الإيجار الإقطاعى القديم. حارب الفلاحون كثيراً وتعرضوا لشدة وطأة القانون، غير أن كفاحهم اقتصر على الحصول على الحق فى التصويت، واستقر النظام عن طريق توسيع طبقة صغار الملاك دون مساس بالبنية الأساسية للفوارق بين الأغنياء والفقراء. وظل هذا النسق شائعاً إلى اليوم فى التاريخ الأمريكى.

فى الوقت الذى نشطت فيه حركة مناهضة نظام الإيجار الإقطاعى فى نيويورك، كان هناك اهتمام كبير ب"تمرد دور" فى رود آيلاند. كان "تمرد دور"، كما يشير مارفين جيتيلمان فى كتابه **تمرد دور** **The Dorr Rebellion**، حركة من أجل الإصلاح الانتخابى ومثالاً للتمرد الراديكالى. وقد أشعل هذا التمرد ميثاق رود آيلاند الذى يقصر حق الانتخاب على مُلاّك الأرض.

لما هجر كثير من الناس المزارع وانتقلوا إلى المدن، زاد عدد المحرومين من الحق فى الانتخاب، وقام سيث لوثر، وهو نجار علم نفسه بنفسه وكان متحدثًا باسم العمال، بكتابة مقال فى عام ١٨٣٣ ندد فيه باحتكار القوة السياسية من قِبل "أشباه اللوردات ومخلفات النبلاء وأذناب الأرستقراطية" فى رود آيلاند. وقام لوثر بتحريض العمال على عدم التعاون مع الحكومة، رافضًا دفع الضرائب أو الخدمة فى الجيش، وتساءل: لماذا يذعن ١٢,٠٠٠ من عمال رود آيلاند، لا يتمتعون بالحق فى الانتخاب، لإرادة خمسة آلاف يملكون الأرض وحق الانتخاب؟

أصبح توماس دور، وهو محام من أسرة ثرية، زعيمًا للحركة التمردية، وشكل العمال رابطة لهم. وفى ربيع ١٨٤١، قام آلاف منهم بمسيرات فى الشوارع حاملين لافتات تدعو إلى الإصلاح الانتخابى. ولما كانت حركتهم خارجة عن النظام القانونى، فقد قام أعضاء الحركة بتشكيل "مؤتمر شعبى" خاص بهم ووضعوا مسودة بدستور جديد يُسقط مزايا الملكية أو الحق فى الانتخاب. فى بداية عام ١٨٤٢، دعا أعضاء الحركة لإجراء انتخابات على الدستور الجديد، وصوت ١٤ ألفًا بالموافقة من بينهم حوالى خمسة آلاف من أصحاب الأملاك؛ أى أولئك الذين يعطيهم ميثاق الولاية الحق، دون من لا يملكون، فى الانتخاب. وفى إبريل، عقد أعضاء الحركة انتخابات غير رسمية، حيث تقدم دور، دون معارضة، للترشيح كحاكم للولاية وانتخبه ستة آلاف. فى الوقت نفسه سعى حاكم الولاية للحصول على وعد من الرئيس الأمريكى جون تايلير بإرسال قوات فيدرالية فى حالة وقوع التمرد؛ وهى خطوة دستورية يكفلها الدستور الأمريكى لمعالجة مثل هذا الموقف.

لكن قوات دور لم تبال بذلك، وعقدت، فى الثالث من مايو ١٨٤٢، حفل تنصيب للحاكم الجديد اشترك فيه الفنانون والحرفيون والبائعون والعسكريون. وبعد تنصيب اللجنة التشريعية الشعبية، قاد دور هجومًا على ترسانة الأسلحة الخاصة بالولاية دون إطلاق للنار، غير أن الحاكم الرسمى للولاية أصدر أمرًا بالقبض على دور الذى هرب من الولاية فى محاولة للحصول على دعم عسكرى.

الشيء الجدير بالذكر هو أنه بالرغم من اعتراض دور وقلة آخرين، فإن "دستور الشعب" قد أبقى على كلمة "أبيض" فى عبارته التى تحدد من لهم حق الانتخاب، الأمر الذى دفع بالسود فى رود آيلاند إلى الانضمام إلى الوحدات العسكرية المنوط بها الحفاظ على القانون والنظام، حيث وُعدوا بأن يمنحهم الدستور الحق فى الانتخاب. فلما عاد دور إلى رود آيلاند، لم يجد من بين اتباعه سوى عدة مئات، معظمهم من الطبقة العاملة، وكانوا على استعداد للقتال فى سبيل "دستور الشعب"، كان ذلك فى الوقت الذى انضم فيه آلاف إلى الجيش النظامى للولاية، ففَّر دور من رود آيلاند بعد أن هوت أركان حركته التمردية.

أُعلنت الأحكام العرفية، وقامت قوات الجيش النظامى بالقبض على جندى متمرد ووضعت عصابة على عينيه، ثم وضعته أمام فرقة عسكرية متخصصة فى إطلاق النار، حيث قامت بتصويب الطلقات الفارغة عليه إمعانًا فى تخويفه وإرهابه. وأُودع عدة مئات من جنود الحركة السجون، ووصف أحدهم كيف رُبطوا ثمانيةً ثمانية، وأجبروا على السير مسافة ستة عشر ميلاً "تلامس أسنةُ السلاح ظهورنا إذا أبطأنا السير من التعب، والحبال تحز بقسوة على أذرعنا... مُنعنا من الماء حتى وصلنا إلى جرينفيلد... ومُنعنا الطعام حتى اليوم التالى... وبعد أن عرضونا على الناس، أودعونا السجون."

وجاء دستور جديد ببعض الإصلاح، لكنه أعطى قوة تمثيل مبالغ فيها للمناطق الريفية، وقصر حق التصويت على أصحاب الأملاك أو من يطيقون دفع ضريبة مقدارها دولار كى يمارسوا هذا الحق. أما من تجنَّس بالجنسية الأمريكية، فمن حقه ممارسة حق التصويت إذا ما قدم ما يدل على أنه يملك عقارًا يبلغ ثمنه مائة وأربعة وثلاثين دولارًا.

وفى خريف ١٨٤٣، عاد دور إلى رود آيلاند، غير أنه قُبض عليه فى الشارع ثم حوكم بتهمة الخيانة. طلب القاضى من هيئة المحلفين تجاهل كل القضايا السياسية وأن ينظروا فقط فيما إذا كان دورْ قد ارتكب جرائم واضحة ومحددة (أى جرائم

لم يُنكر هو ارتكابه لها). ومن ثم أدانته هيئة المحلفين وحكم عليه القاضى بالأشغال الشاقة المؤبدة، قضى منها عشرين شهراً، حتى جاء حاكم جديد أراد أن يُنهى آلام دورْ، فأمر بالعفو عنه.

فشلت إذن القوة المسلحة، وفشلت الانتخابات، وانتصرت المحاكم لصالح القوى المحافظة. فلجأت حركة دور إلى المحكمة الدستورية العليا عن طريق قضية رفعها مارتن لوثر فى ١٨٤٢ ضد "رجال القانون وحفظ النظام العسكريين" دافعًا بأن "حكومة الشعب" هى الحكومة الشرعية فى رود آيلاند. قام دانيال ويبستر بمهاجمة أتباع دور، وقال لو أن الناس زعمت أن لها حقًا دستوريًا فى الإطاحة بالحكومة القائمة، فلن يكون هناك قانون ولا حكومة بل ستكون الفوضى سيدة الموقف.

وأرست المحكمة الدستورية، فى قرارها، قاعدة ممتدة ومذهبًا ثابتًا، وذلك بقولها إنها لا تتدخل فى قضايا "سياسية" معينة، وإنها تترك مثل هذه القضايا للسلطات التشريعية والتنفيذية، الأمر الذى قوّى من الطبيعة المحافظة للمحكمة الدستورية، التى قالت إنها تترك البّت فى القضايا المهمة والبالغة الحساسية، كالحرب والثورة، لما يراه الكونجرس ورئيس البلاد.

إن القصص التى تتناول حركة مناهضة نظام الإيجار الإقطاعى أو تمرد رود غير موجودة فى الكتب التى تتناول تاريخ الولايات المتحدة، التى لا تحتوى، وهى التى تقدم لملايين الطلبة الأمريكيين، إلا على قليل عن الصراع الطبقى فى القرن التاسع عشر، فى الوقت الذى تمتلئ فيه هذه الكتب على أحداث الانتخابات ونظام الرق والمسألة العرقية. حتى الكتب المتخصصة فى الفترة الجاكسونية، فإنها عندما تتناول القضايا الاقتصادية والعمالية، فإنها تركز على دور الرئاسة، وبالتالى فإنها تكرس مبدأ التبعية التقليدية للقادة الأبطال أكثر من التركيز على كفاح الشعب.

كان جاكسون يقول إنه يدافع عن "الأعضاء المتواضعين فى المجتمع، من أمثال الفلاحين والحرفيين والعمال... " بيد أنه، من المؤكد، لم يكن يدافع عن الهنود الذين

أُزيحوا من أرضهم أو عن العبيد. لكن الذى دفعه إلى قول ذلك هو درجات التوتر التى أثارها نظام المصانع الآخذ فى النمو، والهجرة المتزايدة، الأمر الذى تطلب من الحكومة أن تبنى قاعدة تأييد ودعم شعبيه بين البيض، وهذا بالضبط ما حققته "الديمقراطية الجاكسونية".

فى ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر، ووفق ما قاله المتخصص فى الحقبة الجاكسونية ميللر، فى كتابه ميلاد أمريكا الحديثة "تركزت السياسة فى هذه الحقبة بدرجة كبيرة حول خلق صورة شعبية ومغازلةِ العوام." غير أن ميللر يساوره شك حول دقة العبارة "الديمقراطية الجاكسونية"، حيث يقول:

> **اتسمت السياسة الجاكسونية بالجو الشعبى والعروض التى تجوب الشوارع. ورغم أن الحزبين الرئيسيين كانا يوجهان بلاغتهما إلى العوام، ويعلنان تقديسهما للديمقراطية، فإن ذلك لم يعنِ أن أمريكا حكمها العوام أو الإنسان العادى. كان من النادر أن يخرج من بين العوام مَنْ كانوا يتصدرون الساحة من السياسيين المحترفين. لقد كان يهيمن على الحزبين الرئيسيين الأثرياء وذوو الطموحات الكبيرة، من أمثال رجال الصناعة والتجار ورؤساء تحرير الصحف والمحامين وأصحاب الأطيان.**

لقد كان جاكسون أول رئيس يجيد البلاغة الليبرالية من أجل الحديث عن مصلحة الإنسان العادى، إذ كان ذلك ضرورياً من أجل انتصار انتخابى ولابد من الحصول على أصوات انتخابية، كما حدث فى رود آيلاند عندما قام المجلس التشريعى للولاية بتخفيف قيود عملية التصويت. بعد دراسة الأرقام الانتخابية الخاصة بانتخابات ١٨٢٨ و ١٨٣٢، يقول روبرت ريمينى Remini فى كتابه **عصر جاكسون**:

> **تمتع جاكسون بتأييد واسع النطاق مِن قبل كل الطبقات والقطاعات المختلفة للمجتمع الأمريكى. لقد التف حوله الفلاحون والحرفيون والعمال والموظفون ورجال الأعمال. كل ذلك دون أن**

يُظهر جاكسون ما إذا كان منحازًا لاتجاه دون آخر أو طبقة دون سواها. غير أنه كان واضحًا أن جاكسون يجيد إنهاء الإضرابات وفى أوقات أخرى كان يلقى هو والديمقراطيون دعم العمال.

كانت تلك سياسة الغموض الجديدة، التى كانت تتمثل فى الدفاع عن الطبقات الوسطى والدنيا للحصول على دعمهم فى أوقات الحاجة. لقد جاء النظام السياسى القائم على وجود حزبين فى وقته تماماً، إذ كان ذلك يعطى الناس فرصة الاختيار بين حزبين مختلفين، ويسمح لهم، فى أوقات التمرد والقلق، باختيار أكثر الحزبين ديمقراطية، وهى ديمقراطية لا تكاد تختلف عن ديمقراطية الحزب الآخر. وتلك هى عبقرية هذا النظام التى تهدف إلى السيطرة، ولم يأت ذلك نتيجة تخطيط شيطانى لمتآمرين محترفين، بل كان، شأنه شأن كثير من أحداث التاريخ الأمريكى، نابعًا بشكل طبيعى من ظروف أملاها الموقف.

يقارن المؤرخ ريمينى بين الديمقراطى الجاكسونى مارتن فان بورين **Van Buren**، الذى خلف الرئيس جاكسون كرئيس للبلاد، وبين السياسى النمساوى المحافظ ميترنيخ قائلاً: "كما كان ميترنيخ ينشد تشتيت السخط الثورى فى أوروبا، كان فان بورين وأشباهه من السياسيين يحاولون التخلص من القلق والفوضى السياسية فى الولايات المتحدة وذلك عن طريق إيجاد ميزان للقوة يتحقق من خلال حزبين نشيطين ذوى هيئات منظمة."

كانت فكرة جاكسون هى تحقيق الاستقرار والسيطرة عن طريق تحقيق مكاسب معقولة للحزب الديمقراطى، كما كانت فكرته تحقيق "إصلاح قضائى مدروس..."، وهو إصلاح لا يُزعن إلا قليلاً، وكانت كلمات روبرت رانتول **Rantoul**، الذى كان مصلحًا ومحاميًا وديمقراطيًا جاكسونيا، تنبوءًا بنجاح الحزب الديمقراطى، وأحيانًا الحزب الجمهورى، فى القرن العشرين.

وكانت مثل هذه الأشكال الجديدة من السيطرة على زمام الأمور مهمة، ولاسيما فى أوقات القلق واحتمالات وقوع أحداث مِن قِبل حركات التمرد. لقد أصبح هناك قنوات للمياه وسكك حديدية وظهر التلغراف فى ١٧٩٠، كان أقل من مليون أمريكى يسكنون المدن، أما فى ١٨٤٠، فقد ارتفع العدد إلى إحدى عشر مليونًا. وكان بنيويورك، فى ١٨٢٠، ١٣٠ ألفًا، أما فى ١٨٦٠، فقد وصل العدد إلى مليون شخص. وبينما عبَّر الرحالة أليكس دى توكوفيل Alexis de Tocqueville عن اندهاشه من "الأحوال العامة للناس"، فإنه لم يكن يجيد لغة الأرقام، كما قال صديقه بومون Beoumont . وفى كتابه **أمريكا الجاكسونية**، يقول إدوارد بيسين Pessen، أحد مؤرخى الحقبة الجاكسونية، إن ملاحظات توكوفيل لم تكن متسقة مع الحقيقة.

فى فلادلفيا، عاشت الأُسر العاملة، كلٍ فى غرفة دون حمامات أو نظام مستقر للتخلص من القمامة، ودون ماء أو هواء صحى. ورغم وجود ماء صحى، كان يُضخ من نهر Schuylkill، فقد تم توصيله إلى منازل الأثرياء فقط. أما فى نيويورك، فقد كان الفقراء ينامون فى الشوارع إلى جوار أكوام القمامة، ولم يكن ثمة صرف صحى فى الأحياء العشوائية الفقيرة، الأمر الذى جعل الماء الملوث يتسرب إلى الحارات والمنازل حيث كان يسكن أكثر الناس فقرًا، وجلب لهم أوبئة كالكوليرا والتيفود فى ١٨٣٢ و١٨٣٧ و, ١٨٤٢ وأثناء انتشار الكوليرا عام ١٨٣٢، فرَّ الأغنياء وبقى الفقراء يواجهون الموت وحدهم.

لم يكن أمثال هؤلاء الفقراء من الذين تعِّول عليهم الحكومة كحلفاء سياسيين. كانوا هناك، مثل العبيد والهنود، لا يكاد يراهم الأغنياء وأصحاب النفوذ، لكنهم كانوا بركانًا كامنًا تُخشى ثورته.

فى الوقت نفسه، كان ثمة مواطنون يمثلون دعامة قوية للنظام، وهؤلاء هم ذوو الأجور العالية من الموظفين والفلاحون المالكون للأطيان. كان هناك أيضًا صاحب الياقة البيضاء الذى ينتمى إلى المناطق الحضرية. فى كتابه **عصر المؤسسة** The Age of Enterprise، يصف توماس كوكران Cochran ووليم ميللر ذلك الموظف ذى الياقة

البيضاء بأنه "متأنق، ينحنى على مكتب عال... يملأ الفواتير ويرتب البيانات والملفات... يتقاضى راتبًا عاليًا ويقضى وقت فراغ ممتع. يتابع الأحداث الرياضية وأخبار المسارح والبنوك وشركات التأمين... يقرأ "نيويورك صن" و "هيرالد" أو صحف ما يُطلق عليه اسم "صحافة السنت"، وهى صحافة تقوم على الإعلان وتمتلئ بتقارير البوليس وأخبار الجرائم ونصائح الإتيكيت الخاصة بالبرجوازية الصاعدة... ."

كان هذا النموذج هو الحرس المتقدم لحماية طبقة صاعدة من ذوى الياقة البيضاء فى أمريكا، وهى طبقة ستنال اهتمامًا ومرتبات كافية بحيث يعتبر أفرادها أنفسهم أعضاء من الطبقة البرجوازية ويؤيدونها ويدعمونها فى أوقات الأزمة. من ناحية أخرى، ساعدت ميكنة المزارع على تنمية وتوسيع الغرب الأمريكى. لقد ساعدت المحاريث الحديدية على توفير الوقت والجهد، وبحلول الخمسينيات، كانت شركة جون ديرى تنتج ألف محراث سنويًا، وكان سايراس ماكورميك Cyrus McCor-mick ينتج ألف حصادة ميكانيكية كل عام فى مصنعه بشيكاغو. لم يكن هناك مقارنة تذكر بين ما يؤديه العامل وما تؤديه الماكينة؛ ففى الوقت الذى يستطيع الحصّاد، الذى يحصد بمنجله، أن يحصد نصف آكر من القمح فى اليوم، كانت الحصادة تقوم بحصد عشرة أضعاف.

وساعد العمران وأسبابه على اتجاه كثير من الناس إلى الغرب، كما ساعد ذلك على جلب المزيد من المنتجات إلى شرق البلاد، حتى أصبح من الضرورى إحكام السيطرة على الغرب الأمريكى الذى لم يعد أحد يعرف ما سوف ينتجه. ولما أُنشئت الكليات والمعاهد فى الغرب، كان رجال الأعمال المنتمين إلى الشرق الأمريكى، مثل كوكران وميللر، "عازمين منذ البداية على السيطرة على التعليم الغربى." كان هناك أيضًا إدوارد إيفريت، خطيب ماساتشوسيتس وسياسيها الشهير، الذى تحدث فى عام ١٨٣٣ عن الموقف من تقديم المساعدات المالية لبناء الكليات بالغرب الأمريكى:

لا تحسبن أن من حق أى رأسمالى من بوسطن أو من له رصيد كبير فى نيو إنجلاند... أن يمارس ليبراليته عن بُعد، أى

لصالح هؤلاء الذين لا يمثلون أهمية كبيرة بالنسبة له... . إنهم يطلبون منك أن تؤمِّن ثروتك عن طريق نشر نور المعرفة والحقيقة فى المنطقة حيث تقيم القوة التى تستطيع أن تحافظ على هذه الثروة أو أن تخسف بها الأرض... .

كان رأسماليو الشرق على علم بالحاجة إلى "التأمين على الثروة"؛ ومع تطور التكنولوجيا، زادت الحاجة إلى رأس المال، وأصبح على هؤلاء مواجهة المزيد من المخاطر، وكان لابد من الاستقرار لضمان نجاح الاستثمار؛ ففى نظام اقتصادى لا يحركه احتياج بشرى بقدر ما تحركه الحاجة إلى تحقيق أرباح عالية وبشكل فوضوى، كان من الصعب تجنب الصعود والهبوط الحادين فى هذا النظام. ففى عامى ١٨٣٧ و١٨٥٣، شهد الاقتصاد الأمريكى هبوطًا حادًا. كان أحد طرق تحقيق الاستقرار هو تقليل التنافس وتنظيم العمل والتحرك صوب الاحتكار، حتى أصبحت ترتيبات تنظيم الأسعار والاحتكارات شائعة بحلول خمسينيات القرن التاسع عشر؛ فقد احتكرت شركة نيويورك للسكك الحديدية المركزية كثيرًا من السكك الحديدية، وتكونت رابطة النحاس الأمريكية وقالت إنها قامت "لإنهاء التنافس المدمر"، كما تكونت رابطة مقاطعة هامتون لغزل القطن من أجل السيطرة على الأسعار، وكذلك كان الهدف من إنشاء الرابطة الأمريكية للحديد.

وكان ثمة طريقة أخرى لتقليل المخاطر، تمثلت فى التأكد من قيام الحكومة بدورها التقليدى؛ بالرجوع إلى ما فعله الكسندر هاميلتون والكونجرس الأول الذين كانوا يخدمون مصالح رجال الأعمال، وحيث قامت المجالس التشريعية للولايات بمنح الهيئات الاقتصادية حقوقًا قانونية لإدارة الأعمال وجمع الأموال ، وقد بدأ ذلك بمنح تصاريح خاصة لبعض الهيئات، ثم أصبحت عامة حتى أصبح هناك ألفان وثلاثمائة هيئة اقتصادية تتمتع بهذه الحقوق فى عام ١٨٦٠ .

وكان رجال السكك الحديدية يسافرون إلى واشنطن أو عواصم الولايات مسلحين بالأموال وأسهم البورصة والتصاريح المجانية لاستعمال السكك الحديدية.

وبين عامى ١٨٥٠ و ١٨٥٧، حصل هؤلاء على خمسة وعشرين مليون آكر من الأراضى العامة خالية من الضرائب، كما حصلوا على ملايين الدولارات فى شكل سندات وذلك بمساعدة المجالس التشريعية للولايات ، وفى ويسكنسون عام ١٨٥٦، حصلت شركة لاكروس وميلوكى للسكك الحديدية على مليون آكر من الأراضى مجانًا وذلك بعد أن وزعت الشركة تسعمائة ألف دولار فى شكل سندات على تسعة وخمسين من أعضاء مجلس النواب وثلاثة عشر عضواً من أعضاء مجلس الشيوخ، بالإضافة إلى حاكم الولاية نفسه. وبعد عامين، أفلست الشركة وأصبحت السندات عديمة القيمة.

وفى الشرق الأمريكى، كان مالكو مغازل القطن قد أصبحوا أقوياء ذوى نفوذ، حتى أنه بحلول عام ١٨٥٠، كان ببوسطن خمس عشرة عائلة تسيطر على عشرين بالمائة من غزل القطن بالولايات المتحدة وتسعة وثلاثين بالمائة من رأس مال التأمين فى ماساتشوستيس وأربعين بالمائة من موارد البنوك فى بوسطن، وفى كتب المدارس عن هذه الحقبة، يدور كلام كثير حول قضية نظام الرق، لكن الأموال والأرباح، لا مواجهة الحكومة لنظام الرق، كانت تمثل أهم قضية بالنسبة لمن بيدهم أمر البلاد عشية الحرب الأهلية. أو كما يقول كل من كوكران وميللر:

> **كان ويبستر - لا إمرسون أو باركر أو جاريسون أو فيليبس - البطل والنموذج فى الشمال الأمريكى. إنه، وهو السياسى والمحامى والثرى وصاحب الأطيان، القائل: "إن الهدف الأسمى للحكومة هو حماية الملكيات داخل الوطن والحفاظ على احترام الوطن وسمعته فى الخارج." هذه هى المبادئ التى كان يروج لها داخل الاتحاد والتى من أجلها كان يقوم بتسليم الفارين من العبيد.**

ويصف المؤرخان أغنياء بوسطن فى ذلك الوقت بقولهما:

يعـــيش أثرياء بوسطن فى بيكون هيل Beacon Hill، وينالون إعـجـاب جـيـرانهم لثـقـافـتـهم ورعـايتـهم للفنون. كـان هــؤلاء يمـارســون التــجــارة فى State Street، بينمــا يدير مصـانعهم مشرفون، ويدير شركاتهم للسكك الحديدية مديرون ويتــاجـر فى عـقـاراتهم وكـلاء. كـان هـؤلاء الأثرياء ســادة غـائبـين بكل مـا تحـويه كلمـة "غـائبين" من مـعـان؛ فلم يكونوا يتعرضون لتلوث وأمراض المصانع، كما أنهم كانوا بمنأى عن سمــاع شكاوى العمـال، بالإضافة إلى أنهم كانوا بعيـدين عن كل مـا يصيب عيونهم من مخلفات المصـانع القذرة. كان هؤلاء يسكنــون المدينة حـــيث كـــانت الفنون والآداب والعلوم تدخل عـصــرها الذهــبى. كـان ذلك فى وقــت يذهــب فـيـه أطفــال المناطق الصناعـيـة إلى العـمل مع آبائهم وأمـهـاتهم، ولم تكن المدارس والمستشفيات إلا وعودًا فى الهواء. أما أن يكون للفرد من هــؤلاء ســرير خــاص به، فــكان فى عــداد الرفــاهيــات النادرة الحدوث.

باءت محاولات الاستقرار السياسى والهيمنة الاقتصادية بالفشل التام، فقد أدت الحـركـة الصـنـاعـيـة الجـديدة والمدن المزدحـمـة وسـاعـات العـمل الطويلة فى المصـانـع والأزمـات الاقـتـصـادية التى كـانت ترفـع الأسـعـار وتطيح بالوظائف، ونقص الطعـام والماء، والبرد القـارس شـتـاءً والحر الخـانق صـيـفًا، والأوبئة وموت الأطفـال - كل ذلك أدى إلى إثارة ردود أفـعـال متـبـاينة لدى الفـقـراء. فـأحـيـانًا كـان رد الفـعل فـى شكل انتفـاضـات تلقـائيـة غير منظمـة ضـد الأثرياء، وفى أحـيـان أخرى كـان رد الفـعل يأخذ شكل كراهية عرقية ضد السود، أو يتمثل فى صورة حرب دينية ضد الكاثوليك، أو فى صورة غضب عنيف ضد المهاجرين الجدد. وفى أحيان قليلة، كان رد الفعل منظمًا فى شكل مظاهرات وإضرابات.

كانت "الديمقراطية الجاكسونية" قد حاولت خلق تعداد سكانى لدعم النظام وتأمينه، وبالطبع ـ كان السود والهنود والنساء والأجانب خارج هذا التعداد. غير أن كثيراً من المنتمين إلى الطبقة العاملة من البيض أعلنوا، بأعداد كبيرة، أنهم خارج نطاق هذا التعداد.

أما عن مدى وعى الطبقة العاملة فى تلك السنوات، فقد ضيعته كُتب التاريخ، غير أن شذرات دالة قد بقيت، وهى شذرات تجعلنا نتساءل عن مدى هذا الوعى الذى كان كامناً خلف جدران الصمت التى احتمى بها العمال. فى عام ١٨٢٧، كان ثمة "حديث... أمام حرفيي وعمال... فلادلفيا"، وهو حديث سجله "حرفىٌ غير متعلم" جاء فيه:

ها نحن نجد الظلم يقع علينا من كل اتجاه؛ نكد كى تصنع أيدينا ما يجلب الراحة للآخرين، بينما لا نحصل إلا على الفتات، وحتى هذا الفتات يتحكم فيه أصحاب العمل فى الوقت الراهن.

وفى عام ١٨٢٩، دُعيت فرانسيس رايت، الاشتراكية المثالية وإحدى رائدات الحركة النسائية باسكتلندا، لإلقاء كلمة فى احتفال الرابع من يوليو بفلادلفيا، من قِبل إحدى أكبر النقابات العمالية فى الولايات المتحدة. تساءلت رايت فى كلمتها عما إذا كانت الثورة قد قامت "لتحطيم الأبناء والبنات... وتركهم نهباً للإهمال والفقر والرذيلة والجوع والمرض، فى سبيل نجاح حركة الصناعة... ." كما تساءلت إذا كانت التكنولوجيا الجديدة من شأنها أن تنال من قيمة العمل الإنسانى وتجعل من البشر أتباعاً للآلات وتعوق أذهان الأطفال العاملين وأبدانهم.

بعد فترة من العام نفسه، قام جورج هنرى ايفانز Evans، محرر مجلة Workingman's Advocate بكتابة "إعلان استقلال العمال" الذى تضمن عدداً من "الحقائق" المقدمة لذوى "الإخلاص والنزاهة" من المواطنين، من بينها:

• تتحمل طبقة واحدة من بين طبقات المجتمع... تطبيقات النظام الجائر للضرائب... .

• تقوم قوانين الملكية الخاصة على الانحياز الكامل... بحيث أنها تحابى طبقة واحدة على حساب باقى الطبقات... .

• حرمت القوانين تسعة أعشار المواطنين، وهم غير الأثرياء، من السُبل المتساوية للتمتع ب"الحياة والحرية ونشدان السعادة... إن القانون الجائر الذى صدر لصالح أصحاب الأطيان ضد مستأجريها... لخير مثال على قوانين أخرى لا حصر لها.

كان إيفانز يرى أن "من حق من وصلوا سن الرشد الحصول على ملكية متساوية." وأشارت إحدى النقابات العمالية، فى بوسطن عام ١٨٣٤، وتضم بين أعضائها حرفيى شارلزتاون والنساء العاملات، إلى إعلان الاستقلال فى كلمة جاء فيها:

> **إننا نرى... أن أية قوانين ترفع من قدر طبقة على حساب بقية المواطنين، بمنحها امتيازات خاصة، لهى قوانين تناهض وتتحدى المبادئ الأساسية... . حتى نظامنا التعليمى العام، الذى يُعتبر ليبراليًا فيما يقدمه، فإنه غير متاح سوى للأثرياء، فى حين مدارسنا العامة تعانى فقرًا شديدًا فى وسائلها... . ومن ثم فإنه حتى فى مرحلة الطفولة فليس أمام الأطفال الفقراء سوى أن يشعروا بالدونية... .**

وفى كتابه **الجاكسونيون المغمورون** Most Uncommon Jacksonians، يقول إدوارد بيسين: "كان قادة حركة جاكسون العمالية راديكاليين... . إذ كيف يوصف رجال آمنوا بأن الصراع الاجتماعى كفيل بأن يحطم المجتمع الأمريكى، ويجلب الشقاء للجماهير، ويعطى فرصة لنخبة جشعة تهيمن عليه وترى أن أى شئ فى الحياة

الأمريكية يقوم على الملكية الخاصة؟" ومما يؤسف له أن كتب التاريخ التقليدية لم تسجل كثيراً من حلقات الثورة والتمرد فى التاريخ الأمريكى، منها على سبيل المثال تلك المظاهرة التى وقعت فى بالتيمور فى صيف عام ١٨٣٥، عندما انهار بنك مريلاند وفقد المودعون مدخراتهم فيه. ولما ساور بعضهم الشك فى أن نوعًا من الخداع قد حدث، احتشد جمع منهم وبدءوا فى تحطيم نوافذ غرف موظفى البنك. ولما حطم المتظاهرون أحد المنازل، هاجمتهم القوات العسكرية وقتلت منهم أكثر من عشرين شخصًا، كما جُرح مائة آخرون. وفى المساء التالى، هاجم المتظاهرون بيوتًا أخرى. ونشرت جريدة " Niles' Weekly Register" ما وقع من أحداث فى ذلك المساء:

> **تجدد ليلة أمس (الأحد) ووسط الظلام الهجوم على بيت ريفيردى جونسون. لم تكن ثمة معارضة، وقد شهد ما حدث آلاف من الناس: فقد اقتحم البيت وأحرق كل ما فيه من مفروشات ومكتبة قانونية كبيرة. لقد أُحرق كل شئ فى كومة أمام البيت... ثم انطلق المتظاهرون بعد ذلك إلى بيت عمدة المدينة جيسى هانط، حيث اقتحموا البيت وأخرجوا ما فيه من مفروشات وأحرقوها أمام الباب... .**

وكانت النقابات تتشكل فى هذه السنوات، ويحتوى كتاب فيليب فونر **تاريخ الحركة العمالية فى الولايات المتحدة** تفاصيل هذه النقابات كاملة. فى ذلك الوقت، أطلقت المحاكم على هذه النقابات صفة اللاقانونية بل وقالت إنها مؤامرات. وعلق قاضى فى إحدى المحاكمات قائلاً: "فى هذه الأرض؛ أرض القانون والحرية، الطريق مفتوح أمام الجميع... إن كل أمريكى يعرف، أو يجب أن يعرف، أنه لا صديق له أفضل من قوانين البلاد، وأنه ليس بحاجة إلى أى تجمع يحميه. إن مثل هذه التجمعات أجنبية الأصول، وإنى لأجد نفسى مدفوعًا للاعتقاد بأن كل من يؤمن بها أجنبى." فانتشرت فى المدينة منشورات تحمل الكلمات التالية:

إن القاضى ادواردز هو سلاح الأرستقراطية الموجه إلى صدور أفراد الشعب من حرفيين وعمال! لقد وجهت ضربة مميتة إلى حريتكم!... لقد أرسوا سابقة بأن العمال لاحق لهم فى تحديد أجورهم، أو بمعنى آخر، الأغنياء هم القضاة الوحيدون الذين يقدرون احتياجات الفقير.

وفى حديقة مجلس المدينة، اجتمع سبعة وعشرون ألفًا من أجل التنديد بقرار المحكمة، وقاموا بانتخاب لجنة اتصالات، عقدت بعد ثلاثة أشهر مؤتمرًا من الحرفيين والفلاحين والعمال قام بانتخابه فلاحون وعمال من مناطق مختلفة بولاية نيويورك. والتقى أعضاء المؤتمر فى أوتيكا وقاموا بوضع إعلان للاستقلال عن الأحزاب السياسية الموجودة وأنشأوا حزبًا للحقوق المتساوية. وبالرغم من أنهم وقفوا إلى جوار مرشحيهم فى الانتخابات، لم يكن ثمة ثقة كبيرة فى جدوى صندوق الانتخابات كوسيلة لتحقيق التغيير. وقام أحد خطباء الحركة العظام، وهو سيث لوثر، محدثًا جمعًا فى الاحتفال بالرابع من يوليو قائلاً: "سوف نجرب صندوق الانتخاب أولاً، وإذا لم يفلح فى أن يأتى لنا بحقوقنا، فسيكون البديل الآخر والأخير هو صندوق الذخيرة."

وقد أدت أزمة عام ١٨٣٧ إلى تجمعات واجتماعات فى مدن كثيرة؛ حيث أوقفت البنوك دفع المقابل المالى للأوراق البنكية التى كانت قد أصدرتها، وارتفعت الأسعار خاصة أسعار الدقيق واللحوم والفحم. وفى فلادلفيا تجمع عشرون ألفًا من المحتجين على الأوضاع الاقتصادية فى "ميدان الاستقلال" وكتب أحدهم إلى الرئيس فان بورين يصف له ما حدث. وفى نيويورك، أعلن أعضاء حزب "الحقوق المتساوية"، والمعروفون أيضًا باسم the Locofocos عن اجتماع: "الخبز، واللحوم، والإيجار، والوقود! لابد أن تنخفض أسعارهم! سيلتقى الناس فى الحديقة العامة، فى الرابعة من عصر الاثنين، صحوًا كان الجو أو ممطرًا... . كل أصدقاء الإنسانية، المقاومون للمحتكرين

والمستغلين، مدعون للحضور." وسجلت The Commercial Register، إحدى صحف نيويورك، وقائع الاجتماع وما تبعه من أحداث:

في الرابعة، اجتمع عدة آلاف أمام مبنى مجلس المدينة... . وقام أحد الخطباء مركزًا في كلماته على الغضب الشعبي ضد السيد إلى هارت أحد أكبر تجار الدقيق في المدينة. قال الخطيب: الأخوة المواطنون! لدى السيد هارت الآن ثلاثة وخمسون ألف جوال من الدقيق في متجره، فلنذهب إليه ونعرض عليه ثمانية دولارات مقابل جوال الدقيق، وإذا رفض... ." وانطلقت غالبية الجمع باتجاه متجر السيد هارت... حيث كُسر الباب الأوسط وقذف بعشرين أو ثلاثين جوالاً من الدقيق إلى الشارع. عند هذه اللحظة، وصل السيد هارت ومعه قوة من البوليس، تعرضت لضرب مبرح على أيدي العامة... . وقذف بأجولة الدقيق إلى الشارع بالمئات... ووصل الأمر بالمهاجمين أنهم كانوا يعبثون بالدقيق والقمح بدرجة غير إنسانية. كان أكثر المهاجمين تخريبًا من الأجانب، بل إن معظم من كانوا بالاجتماع نفسه من الأجانب.

ووسط أجولة الدقيق المتساقطة والممزقة، اندست نساء كثيرات وسط الجموع وقمن، كمن تجمعن غنائم الحرب، بملئ صناديق وأجولة، جئ بها لهن، بالدقيق والقمح ثم يفرون من المكان... .

خيم الظلام الآن على المكان، غير أن ما كان يحدث لم يتوقف إلا بعد وصول قوات بوليس كافية وتبعتها، بعد قليل، قوات عسكرية أخرى... .

كانت هذه "مظاهرة الدقيق" في عام ١٨٣٧، وفي أثناء أزمة ذلك العام كان خمسون ألف عامل (ثلث الطبقة العاملة) دون عمل في نيويورك وحدها، ومائتا ألف

(أى ما يمثل نصف مليون نسمة) يعيشون حياة تعيسة لا أمل فيها. والمؤسف أن ليس ثمة سجلاً كاملاً للاجتماعات والمظاهرات والأحداث، التلقائى منها أو المُنظم، العنيف أو السلمى، التى وقعت فى منتصف القرن التاسع عشر، لأن البلاد كانت فى حالة نمو وتوسع، والمدن تزداد ازدحامًا، وأحوال العمل تزداد سوءًا، وظروف المعيشة لا تُحتمل، بينما يقبض على الاقتصاد نخبة من رجال البنوك وملاك الأطيان والتجار.

وفى عام ١٨٣٥، أُنشأ أكثر من خمسين اتحادًا أو نقابة فى فلادلفيا، ونجح إضراب عام نظمه عمال المصانع وعمال الصاغة والفحم والجزارة وتجليد الكتب من أجل خفض ساعات العمل اليومى إلى عشر ساعات. ولم يمض وقت طويل حتى صدرت قوانين فى فلادلفيا وغيرها من الولايات تحدد ساعات العمل اليومى بعشر ساعات، لكن هذه القوانين نصت على أنه من حق أصحاب العمل أن يوقعوا عقودًا مع العمال للعمل لمدة ساعات عمل يومية أطول. كان القانون فى ذلك الوقت يخلق دفاعًا قويًا عن العقود؛ ذلك أنه من المفترض أن العقود تتم طواعية لا إكراه فيها وأنها تقوم بين ندين متساوين.

وفى بداية الأربعينيات من القرن التاسع عشر، أضرب نساجون فى فلادلفيا، معظمهم من المهاجرين الايرلنديين الذين يعملون بمنازلهم لصالح أصحاب العمل، كى تُرفع أجورهم، وقاموا بمهاجمة منازل مَنْ لم يشتركوا فى الإضراب وحطموا أعمالهم، وحاولت قوة مصاحبة للعمدة القبض على بعض المضربين، غير أنهم لم ينجحوا ولاسيما فى مواجهة أربعمائة نساجٍ مسلحين بالعصى وما شابه. بعد وقت لم يطل، نما عداءُ بين هؤلاء الايرلنديين الكاثوليك وبين نظرائهم من البروتستانت أبناء البلد حول قضايا دينية. ففى مايو عام ١٨٤٤، وقعت أحداث عنف فى كينجستون، بضواحى فلادلفيا، بين العمال الكاثوليك ونظرائهم من البروتستانت، حيث حطم أبناء البلد، المعادون للمهاجرين، عدة منازل للنساجين الايرلنديين وهاجموا كنيسة كاثوليكية. لم يلبث سياسيو الطبقة الوسطى أن قادوا الجماعتين المعاديتين إلى الحزبين القائمين بالبلاد، حيث انضم أبناء البلد البروتستانت إلى الحزب الجمهورى، وانضم

الايرلنديون إلى الحزب الديمقراطى، وبذلك حلت سياسة الأحزاب والقضايا الدينية محل الصراع الطبقى.

يقول ديفيد مونتجومرى، مؤرخ مظاهرات كينجستون، إن نتيجة ذلك كله كان تشظى أو تفتت الطبقة العاملة فى فلادلفيا. لقد "أدى ذلك بالمؤرخين أن يعيشوا فى وهم أن المجتمع الأمريكى لم يكن به صراع طبقى"، بينما فى واقع الأمر كانت أوجه الصراع الطبقى، فى أمريكا القرن التاسع عشر "قاسية قسوتها فى أى مجتمع بالعالم الصناعى."

كان المهاجرون الأيرلنديون، بهروبهم من المجاعة فى بلدهم عند انتكاس محصول البطاطس، يأتون إلى أمريكا على متن سفن متهالكة، ولا تختلف قصص السفن التى أتت بالعبيد ثم بالمهاجرين الألمانيين والإيطاليين والروسيين عن قصص هؤلاء سوى فى بعض التفاصيل. وهاك وصفُ معاصر لإحدى السفن القادمة من إيرلندا وتم حجزها عند جروس أيل على الحدود الكندية:

فى الثامن عشر من مايو عام ١٨٤٧، وصلت السفينة "أورانيا" وعلى متنها عدة مئات من المهاجرين الذين وُضع معظمهم فى الحجر الصحى إذ كان عدد كبير منهم بين مريض ومحتضر نتيجة حمى التيفوس. وقبل حلول الأسبوع الأول من يونيو، دفعت رياح شرقية بما يقرب من أربعة وثمانين سفينة مختلفة الأحمال. ولم تنجُ واحدة من هذه السفن من لعنة التيفوس، حتى أن مرورًا سريعًا لهذه السفن قد استغرق من ستة إلى ثمانية أسابيع.... من ذا الذى يستطيع أن يتصور الأهوال التى تمر بها سفينة مهاجرة، حتى عبر أقصر الممرات، تحمل فوق طاقتها تعساء من كل الأعمار، تنتشر فيما بينهم الأوبئة... بينما طاقمها من البحارة يترنح تحت سياط اليأس والفزع، أو يصيبه شلل أتى خوفًا من الوباء، والمسافرون

البؤساء لا يملكون مساعدة أنفسهم، ولا طاقة بهم للتخفيف عن بعضهم البعض. فربعهم أو ثلثهم أو نصفهم دخل مراحل مختلفة من الأمراض؛ فيحتضر بعضهم ويموت بعضهم، وسط جو يسممه هواء فاسد يستنشقونه مرة بعد مرة، ووسط صرخات الأطفال وأنات الألم القاتل!

... لم يكن ثمة سكن من أى نوع على الجزيرة... فأُعدت سقائف على عجل وأُلقى بالبائسين تحت ظلها ... وترك مئات على الشاطئ وسط الأحجار والطين إذ زحفوا على بطونهم إلى الأرض الجافة قدر ما استطاعوا، ... حتى أن كثيراً من هؤلاء فاضت أرواحهم على هذا الشاطئ المميت بعد أن عجزوا عن جَر أنفسهم بعيداً عن الوحل والقذارة. ... ولم يغلق الحجر الصحى الخاص بجروس آيل قبل بداية شهر نوفمبر، بعد أن ورى عشرة آلاف من أبناء الجنس الأيرلندى التراب على تلك الجزيرة القاحلة....

كيف يصبح هؤلاء المهاجرون الأيرلنديون الجدد متعاطفين، وهم أنفسهم فقراء منبوذون، مع العبد الأسود، الذى كان مثار مزيد من الانتباه ومصدراً للقلق فى البلاد؟ لقد تجاهل، فى حقيقة الأمر، معظم ناشطى الطبقة العاملة قضية الإنسان الأسود، حتى أن إلي مور Ely Moore، زعيم اتحاد نقابات نيويورك المنتخب فى الكونجرس، وقف يطالب أعضاء الكونجرس بعدم تسلم شكاوى ودفاعات المناهضين لنظام الرق. لقد أصبح العداء العرقى بديلاً سهلاً للصراع أو الإحباط الطبقى.

ومن ناحية أخرى، كتب صانع أحذية أبيض فى عام ١٨٤٨، فى جريدة "Awl" وهى جريدة مصنع Lynn للأحذية، يقول:

لسنا جميعًا إلا جيشًا يعمل بكل جد على إبقاء ثلاثة ملايين من إخوتنا فى القيود.... كيف لنا أن نعيش ونطالب بحقوقنا وننكرها فى الوقت نفسه على الآخرين لأن لون بشرتهم أسود؟ لا عجب إذن فى أن يغضب علينا الرب ويعاقبنا بأن نتجرع كأس الخزى!

وكثيراً ما كان يخرج غضب فقراء المدن فى شكل عنف لا طائل من ورائه، إذ كان عنفًا ناتجًا عن الاختلاف فى الجنسية أو الدين؛ ففى نيويورك عام ١٨٤٩، خرجت جماعة من العامة، معظمهم من الأيرلنديين، وأمطروا دار أوبرا آستور بليس Astor Place بالحجارة، حيث كان الممثل الإنجليزى وليم تشارلز ماكريدى يلعب دور ماكبث، وكان ثمة ممثل أمريكى، هو ادوين فوريست، يلعب نفس الدور فى عرض آخر للمسرحية. وكان الجمع وهم يلقون دار الأوبرا بالحجارة يطلقون صيحة: "احرقوا عرين الأرستقراطية اللعين." جاءت قوات الجيش واشتبكت معها الجماعة الغاضبة، الأمر الذى أسفر عنه مقتل وإصابة مائتين.

وجاءت أزمة اقتصادية أخرى فى عام ١٨٥٧؛ فنتيجة الطفرة الكبيرة فى إنشاء السكك الحديدية وفى الصناعة، ونتيجة لقدوم أعداد كبيرة من المهاجرين، ونتيجة الفساد والسرقة والانتهازية وزيادة ثروات الأغنياء، وقع صراع كبير جاء بعد أن أصبح مائتا ألف، فى ذلك العام فى نيويورك، من العاطلين، وامتلأت الموانئ الشرقية بآلاف المهاجرين الجدد فى محاولة منهم للعودة إلى أوروبا. وكتبت جريدة "نيويورك تايمز" تقول:"تحمل كل سفينة متجهة إلى ليفربول أقصى طاقة لها من المسافرين، ويكتب كثيرون تعهدات بالعمل مقابل إرجاعهم إلى أوروبا."

وفى نيو آرك بولاية نيو جرسى، خرج جمع يقدر عدده بالآلاف يطالب بأن تقوم المدينة بتوفير عمل للعاطلين. وفى نيويورك، التقى خمس عشرة ألف شخص فى ميدان تومكينز بمانهاتن، حيث ساروا من هناك إلى وول ستريت وقاموا بمظاهرات حول أسواق البورصة وكلهم صيحة واحدة: "نريد عملاً!" فى ذلك الصيف، وقعت مظاهرات

فى أحياء نيويورك الفقيرة، حيث هاجم، فى أحدها، جمع من خمسمائة شخص البوليس بالسلاح والطوب، كما قامت مسيرات للعاطلين تطالب بالخبز والعمل ووقعت أحداث سرقة ونهب للمحلات بهذه الأحياء. وفى نوفمبر، قام جمع من العاطلين باحتلال مبنى مجلس المدينة، الأمر الذى أدى إلى استدعاء القوات البحرية الأمريكية لإنهاء هذا الاحتلال.

من بين قوة العمل فى البلاد والتى كان يبلغ عدد العاملين فيها ستة ملايين عام ١٨٥٠، نصف مليون امرأة، حيث كانت تعمل ثلاثمائة وثلاثون ألفًا بالوظائف المنزلية، وخمسة وخمسون ألفًا كمدرسات، والباقيات يعملن بالمصانع، لاسيما مصانع النسيج. فكان لابد أن تعرف النساء التنظيمات، وأضربن لأول مرة فى عام ١٨٢٥، حيث قامت "خياطات نيويورك المتحدات" بالإضراب عن العمل مطالبات برفع أجورهن. وفى عام ١٨٢٨، وقع أول إضراب للنساء العاملات بمصانع النسيج فى دوفر بنيوهامشر عندما قامت عدة مئات من النساء بمسيرات وهن يرفعن اللافتات والأعلام، بل وأطلقن البارود احتجاجًا على القوانين الجديدة للمصانع والتى تفرض غرامات عن التأخير فى الذهاب إلى العمل وتمنع الكلام بين العاملات وفرضت الذهاب إلى دروس الكنيسة على العاملات فرضًا. غير أن هؤلاء العاملات أُجبرن على العودة إلى العمل، دون تلبية لمطالبهن، بل وبعد فصل العناصر القيادية من العمل ووضع أسمائهم فى القوائم السوداء.

وفى إكستير بنفس الولاية، أضربت النساء العاملات بالمصانع لأن المشرفين عليهم كانوا يقومون بتأخير الساعة كى تقوم العاملات بأداء أكبر قدر من الإنتاج، ونجح الإضراب بعد أن تعهد أصحاب المصانع بألا يلجأ المشرفون إلى ذلك ثانية.

وفى ولاية ماساتشوستس، بدا "نظام لويل"، الذى يقضى بأن تعمل الفتيات الصغيرات بالمصانع وتعيش فى مساكن تخضع للإشراف، نظامًا مفيدًا واجتماعيًا للفتيات، بل ومهربًا من العمل بالبيوت. وكانت بلدة "لويل" بولاية ماساتشوستس هى

أول بلدة تعرف صناعة النسيج، وسميت على اسم عائلة لويل الواسعة الثراء. غير أنه مع بعض الوقت، بدا السكن الذى تعيش فيه الفتيات وكأنه سجن تحكمه القيود والقوانين. لقد كانت وجبة العشاء، على سبيل المثال، تتكون من الخبز وبعض الشوربة، ولا تُقدم إلا بعد أن تكون الفتيات قد استيقظن فى الرابعة صباحًا وعملن حتى السابعة والنصف مساءً.

فلم يكن أمام هؤلاء الفتيات سوى أن يعرفن أهمية التنظيم، وبدأن فى عمل صحف خاصة بهن، وكتبن محتجات على غرف الغزل التى كانت سيئة الإضاءة والتهوية ولم تعرف هذه الغرف سوى الحرارة القاسية صيفًا والبرد القارس شتاءً. وفى عام ١٨٣٤، أدى خفض فى أجور العاملات إلى قيامهن بإضراب عن العمل معلنات: "الاتحاد قوة. إن هدفنا الآن هو أن يكون لنا نقابة وحقوق لا نتنازل عنها...." غير أن التهديد بتوظيف عاملات جدد جعل المضربات يتراجعن ويعملن مقابل أجور أقل (مع فصل العناصر القيادية من العمل).

وعقدت الفتيات العزم على أن يكن أكثر تنظيمًا فى المستقبل، فقمن بتكوين "رابطة فتيات المصانع"، وأضربت منهن ألف وخمسمائة عن العمل فى عام ١٨٣٦ بعد رفع أجرة السكن. وتتذكر هاريت هانسون، التى كانت تبلغ عندئذ أحد عشر عامًا، ما حدث قائلة:

> **كنت أعمل فى غرفة منخفضة حيث كنت قد سمعت كافة التفاصيل والمناقشات عن الإضراب المقترح. وكنت استمع بحماس شديد لكل ما قيل عن محاولة المصنع "قهرنا"، وأخذت، بالطبع، جانب المضربات. ولما جاء يوم الإضراب المتفق عليه، بدأ الإضراب مَن كن يعملن بالغرف العلوية، ولما رأيت الفتيات العاملات معى واقفات لا يعرفن لأنفسهن قرارًا... لم أعد أحتمل مزيدًا من الصبر، وبدأت فى مغادرة الغرفة وأنا أنظر إليهن وأصيح بطريقة طفولية: "لا أبالى ماذا تنوون فعله، سأُضرب عن**

العمل سواء أضرب غيرى أم لم يُضرب". فلما بدأت فى مغادرة الغرفة وجدتهن جميعًا خلفى، ولما نظرت خلفى استعرض الطابور الطويل الذى لحق بى، شعرت بكبرياء لم أعرفها ثانية بعد هذا اليوم....

وجابت المضربات شوارع بلدة لويل وهن يغنين. وظللن مضربات وقاومن لمدة شهر، لكن أموالهن نفدت، وطُردن من سكن المصانع، وعادت كثيرات منهن إلى العمل. وفصل قادة الإضراب بما فيهن أم هاريت هانسون الأرملة والتى كانت تعمل مشرفة بمساكن المصانع وليمت على سماحها لطفلتها بالإضراب عن العمل.

لكن المقاومة لم تتوقف، فقد سرَّح مصنع واحد من مصانع لويل، كما يقول هربرت جوتمان، ثمانية وعشرين من العاملات به لأسباب مثل "سوء السلوك" و"العصيان" و"التكاسل فى العمل" و"إثارة الشغب." فى الوقت نفسه، حاولت الفتيات التمسك بحقهن فى العمل فى هواء نظيف وصحى وفى حياة أقل لهثًا. تقول إحداهن: "لم أعط كثير اهتمام للماكينات، فلم أفهم يومًا كيف تدور أو أشعر بفضول لمعرفة ذلك. وفى طقس يونيو الجميل، كنت أطل مدة طويلة من النافذة وأحاول تجنب سماع أصواتها التى لا تتوقف".

وفى ولاية نيو هامشر، تقدم خمسمائة من الرجال والنساء بالتماس إلى شركة "أموسكيج" يطلبون فيه من الشركة عدم قطع أشجار الدردار من أجل إنشاء مصنع جديد. قالوا فى التماسهم إنها "شجرة جميلة وطيبة" تمثل زمنًا "كانت تُسمع فيه صيحات الرجل الأحمر وصرخات النسر وحدها على ضفتى نهر مريماك بدلاً من إنشاء عملاقين صناعيين لا يصدران إلا أصواتًا منفرة مزعجة."

وفى عام ١٨٣٥، أضرب العاملون فى عشرين مصنعًا، لتقليل عدد ساعات العمل من ١٣ إلى ١١ ساعة، والحصول على أجورهم فى شكل أموال وليس فى صورة صكوك المصانع، ولإنهاء الغرامات المفروضة على التأخير فى القدوم إلى العمل.

واستمر الإضراب، الذى شارك فيه ١٥٠٠ من الآباء والأطفال، ستة أسابيع. وجئ بمن يحل محل العمال المضربين، وعاد بعض العمال إلى العمل، غير أن المضُربين فازوا بتقليل عدد الساعات من ١٣ إلى ١٢ ساعة يوميًا، على أن يكون السبت ٩ ساعات. وقد شهد ذلك العام والذى يليه ١٤٠ إضرابًا فى الجزء الشرقى من الولايات المتحدة.

وقد أدت الأزمة، التى أعقبت حالة الذعر فى عام ١٨٣٧، إلى تشكيل "رابطة لويل لإصلاح عمل النساء"، فى عام ١٩٤٥، وهى الرابطة التى قامت بإرسال آلاف الطلبات والالتماسات إلى المجلس التشريعى لماساتشوسيتس تطالب بيوم عمل لا يزيد عن عشر ساعات. وفى النهاية، قرر المجلس عقد جلسات عامة، مثلت أول بحث أو تحقيق فى ظروف العمل تعقده هيئة حكومية فى البلاد. تحدثت اليزا هيمنجواى إلى لجنة التحقيق، عن الهواء المشبع بالدخان المنبعث من المصابيح الزيتية التى تُنار من قبل طلوع الشمس حتى إلى ما بعد غروبها. وتحدثت جوديث بيْن عن مرضها بسبب طول ساعات العمل بالمصانع. وبعد أن زارت اللجنة المصانع، حيث اتخذ أصحاب المصانع كافة التدابير لاسيما فى مجال النظافة، عادت اللجنة، "وهى راضية كل الرضا بأن النظام والأسلوب والمظهر العام للأشياء، سواء داخل المصانع أو خارجها، لا يمكن تحسينها، عن طريق أى اقتراح لها، أو حتى عن طريق المجلس التشريعى."

وأدانت "رابطة إصلاح عمل النساء" تقرير اللجنة، وبدأت فى العمل بنجاح على إسقاط رئيس اللجنة فى الانتخابات التالية بالرغم من أنه ليس للنساء حق الانتخاب. غير أن التغيير الذى تم لتحسين أحوال العمل فى المصانع لم يكن كبيراً. وفى أواخر أربعينيات القرن ١٩، بدأت نساء المزارع فى نيو إنجلاند، اللائى كن يعملن فى المصانع، فى تركها، بينما حل محلهن مهاجرون أيرلنديون.

وبدأت مدن وقرى صغيرة فى النمو حول الشركات والمصانع فى رود أيلاند، وكينيكتيكت وبنسلفانيا ونيو جيرسى، يعيش بها عمال مهاجرون، يوقعون على عقود تلزمهم وأفراد أسرهم بالعمل فى هذه المصانع لمدة عام. كان هؤلاء يسكنون مساكن

فقيرة عشوائية يملكها أصحاب المصانع والشركات، ويتقاضون أجورهم فى شكل صكوك صادرة من الشركة، لا يمكن لهم أن يستخدموها إلا فى محال الشركة ومتاجرها، ويتم فصلهم إذا لم يكن عملهم مُرضياً.

وفى "باترسون" بنيو جيرسى، كانت بداية سلسلة من الإضرابات بالمصانع على أيدى الأطفال، وذلك عندما أجلت الشركة ساعة الغذاء إلى الواحدة بعد الظهر بدلاً من الثانية عشرة، فما كان من الأطفال إلا أن غادروا عملهم بينما آباؤهم يشجعونهم بالهتاف. ولحق بهم عمال آخرون كالنجارين وعمال الآلات والبناءين الذين حولوا الإضراب إلى كفاح من أجل تقليل ساعات العمل إلى عشر ساعات. ولكن بعد إسبوع، وبعد التهديد باستدعاء قوات الجيش، عاد الأطفال إلى عملهم، أما القادة فقد تم فصلهم. وبعد فترة قصيرة، عادت الشركات، فى محاولة لمنع المشاكل، بساعة الغذاء إلى الساعة الثانية عشرة.

أما أكبر إضراب يحدث فى الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية، فقد بدأه عمال مصانع Lynn للأحذية بماساتشوستس، إذ كان أصحاب هذه المصانع أول من استخدم ماكينات خياطة الأحذية كى تحل محل العمال. وأنشأ عمال هذه المصانع، الذين بدأوا فى تنظيم أنفسهم فى ثلاثينيات القرن ١٩، جريدة نضالية تحمل اسم AWL، التى جاء فيها عام ١٨٤٤، أى قبل أربع سنوات من ظهور البيان الشيوعى لماركس وإنجلز، ما يلى:

إن تقسيم المجتمع إلى طبقة منتجة وأخرى غير منتجة، وما يتبع ذلك من توزيع غير متساو للقيمة بين الطبقتين، ليؤدى بنا مباشرة إلى تمييز آخر بين رأس المال من ناحية والعمل من ناحية أخرى... إذ يصبح العمل سلعة... ويعرف المجتمع عداء وتضارب المصالح، إذ يتحول كل رأس المال والعمل إلى عنصرين متعارضين.

وعندما وقعت الأزمة الاقتصادية عام ١٨٥٧، تعثرت صناعة الأحذية، وفقد عمال مصانع Lynn وظائفهم، وكان هناك الغضب من إحلال ماكينات خياطة الأحذية محل

العمال. فعلى الرغم من ارتفاع الأسعار، تم خفض أجور العمال أكثر من مرة، وبحلول خريف ١٨٥٩، كان أجر الرجل ثلاث دولارات فى الأسبوع وأجر المرأة دولاراً واحداً، وكان يوم العمل ست عشرة ساعة.

وفى أوائل عام ١٨٦٠، عقدت رابطة المشرفين على إصلاح الماكينات اجتماعًا حاشداً، وطالبت برفع الأجور. ولما رفض أصحاب المصانع الالتقاء مع لجان الرابطة، حدد العمال يوم عيد ميلاد واشنطن موعداً لإضراب لهم. وفى صباح اليوم المحدد، التقى ثلاثة آلاف من صناع الأحذية، وقاموا بتشكيل لجان قوامها مائة فرد، لحصر أسماء من لم يشتركوا فى الإضراب، ولضمان عدم حدوث أعمال عنف، والتأكد من عدم إرسال الأحذية إلى مكان آخر لوضع اللمسات الأخيرة. وفى خلال أيام قليلة، انضم صناع الأحذية، فى نيو انجلاند، إلى الإضراب. وفى خلال اسبوع واحد، بدأت الإضرابات فى معظم المناطق والبلدات المنتجة للأحذية فى نيو إنجلاند، حيث أضرب أعضاء رابطة المشرفين على الماكينات فى خمسة وعشرين بلدة، واشترك فى الإضراب عشرون ألفًا من صناع الأحذية، حتى أن الصحف أطلقت على ما حدث "ثورة فى الشمال"، و"الثورة بين عمال نيوإنجلاند" و"بداية الصراع بين رأس المال والعمل."

وسار خمسة آلاف من العمال، يرافقهم ألف امرأة، فى شوارع Lynn، يحملون اللافتات والأعلام الأمريكية. وكتب أحد محررى جريدة "هيرالد" النيويوركية عن مشاركة النساء فى الإضراب: "إنهن يهاجمن أصحاب العمل بطريقة تُذِّكر المرء بالسيدات العظيمات اللائى شاركن فى الثورة الفرنسية الأولى." ونظمت النساء موكبًا ضخماً، جاب الشوارع، دون اكتراث بالثلوج المتساقطة، ويحملن اللافتات التى تقول: "لن تُستعبد النساء الأمريكيات... ضعيفات فى الجسم لكن فى الشجاعة أقوياء... سنحارب من أجل الحق، جنبًا إلى جنب آبائنا وأزواجنا وإخوتنا." بعد عشرة أيام، جاب موكب، قوامه عشرة آلاف من الرجال والنساء من مناطق عديدة، شوارع Lynn فيما عرف بأكبر مظاهرة للعمال تحدث فى نيوإنجلاند حتى ذلك الوقت.

وجاءت قوات شرطة وقوات عسكرية، من بوسطن، للحيلولة دون تدخل المضربين فى عمليات شحن الأحذية إلى خارج الولاية من أجل إتمامها. غير أن مواكب الإضراب لم تتوقف، وقام تجار المواد التموينية فى المدينة بإمداد المضربين بالطعام. واستمر الإضراب بروح عالية حتى مارس، لكنه بدأ يفقد قوته فى إبريل، حيث قام أصحاب المصانع بتقديم أجور أعلى للعمال كى يعود المضربون إلى عملهم، لكن دون اعتراف بالاتحادات، ومن ثم كان على العمال مواجهة صاحب العمل كأفراد.

فى دراسته **الطبقة والمجتمع** Class and Community، يقول ألن دولى Dawly عن إضراب Lynn إن معظم صناع الأحذية ولدوا بأمريكا. لكنهم لم يقبلوا النظام الاجتماعى والسياسى الذى جعلهم فقراء، وذلك رغم الثناء الذى كان يناله هذا النظام فى المدارس الأمريكية والكنائس والصحف. فى Lynn، كما يقول دولى، "انضم عمال الجلود والأحذية من النشطاء الأيرلنديين إلى اليانكيين (البيض)، فى رفضهم الواضح لأسطورة النجاح؛ إذ كان كل من العمال الأيرلنديين واليانكيين يبحثون معًا... عن المرشحين العماليين، عندما يذهبون إلى صناديق الانتخاب، وقاوموا معًا محاولات الشرطة إنهاء إضراباتهم." وفى محاولة لفهم السبب الذى لم يجعل هذه الروح الطبقية القوية تؤدى إلى عمل سياسى ثورى مستقل، ينتهى دولى إلى أن السبب هو أن السياسة الانتخابية قامت بامتصاص طاقات المعارضين والمقاومين، وتوزيعها على قنوات النظام.

ويختلف دولى مع بعض المؤرخين الذين قالوا إن الدرجة العالية لاحتشاد وتعبئة العمال منعتهم من التنظيم الثورى، ويرى إن الانقلاب على ما حدث فى Lynn، "لا يمنع أن كان هناك وجود شبه دائم لأقلية لعبت الدور الرئيسى فى تنظيم سخط الناس ومقاومتهم." كما يرى دولى أن التعبئة وتحريك الجماهير الساخطة تساعدهم على أن يروا أن ثمة آخرين يعيشون، مثلهم، فى نفس الظروف، ويعتقد أن نضال العمال الأوربيين فى سبيل الديمقراطية السياسية، حتى فى ظل سعيهم من أجل المساواة الاقتصادية، جعلهم ذوى وعى طبقى. ولما كان العمال الأمريكيون قد حصلوا

بالفعل على الديمقراطية السياسية فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، فقد تولت الأحزاب السياسية قضايا هؤلاء العمال الاقتصادية، وكان أن قامت هذه الأحزاب بإخفاء الفواصل الطبقية والسكوت عنها أو التحايل عليها.

ويقول دولى إنه لولا أن "جيلاً بأكمله قد تعرَّض للتشتيت فى ستينيات القرن التاسع عشر بسبب الحرب الأهلية"، لما استطاع النظام السياسى أن ينال من النضال العمالى وازدهار الوعى الطبقى. لقد أصبح العمال الشماليون، الذين أيدوا قضية اتحاد العمال، متحالفين مع أرباب عملهم، وتمت الغلبة للقضايا القومية على حساب القضايا الطبقية؛ "ففى الوقت الذى كانت فيه مجتمعات كثيرة، مثل منطقة Lynn، تغلى بمقاومتها لحركة التصنيع، كانت السياسة القومية مشغولة بقضايا الحرب وإعادة البناء." وقامت الأحزاب السياسية باتخاذ مواقف من هذه القضايا، وقدمت حلولاً، وطمست حقيقة أن النظام السياسى نفسه وطبقة الأثرياء التى يمثلها كانا مسئولَيْن عن المشاكل التى كانوا يحاولون - فى ذلك الوقت - حلها.

لقد كان من شأن الوحدة السياسية والعسكرية، التى قامت أثناء أزمة الحرب الأهلية وكان قوامها السلاح والبلاغة الحماسية، أن تطمس الوعى الطبقى. كان الشعار المرفوع فى هذه الحرب هو أنها حرب من أجل الحرية، لكن فى حقيقة الأمر، لو تجرأ أحد من العمال على الإضراب، كان يتعرض لهجوم الجنود، ومن المعروف أن الهنود الغاضبين تعرضوا لمذابح فى كلورادو على أيدى الجيش الأمريكى، كما أنه تم سجن من تجرءوا بالنقد لسياسات لينكولن دون محاكمات، حتى بلغ عددهم ما يقرب من ٣٠ ألف سجين سياسى. غير أن ذلك لم يمنع وجود علامات على سخط الفقراء على الأثرياء، وتمرد القوى المُهمشة على القوى السياسية والاقتصادية المهيمنة.

كان من بين ما جلبته الحرب الأهلية فى الشمال، أنها أدت إلى رفع أسعار الطعام وضروريات الحياة الأخرى؛ فقد زادت أسعار الحليب والبيض والجبن بنسبة ٦٠ إلى ١٠٠٪ بالنسبة للأسر التى لم تكن قادرة على شراء هذه السلع بأسعارها القديمة. فى كتابه الظروف الاجتماعية والصناعية فى الشمال إبان الحرب الأهلية،

يقول المؤرخ إمرسون فايت " : Fite لقد استأثر أصحاب العمل لأنفسهم، بكل الأرباح الآتية من رفع الأسعار، دون أدنى رغبة فى منح الموظفين والعمال نصيبًا عادلاً من هذه الأرباح من خلال رفع الأجور."

عمت الإضرابات كل البلاد أثناء الحرب، وفى عام ١٨٦٣، جاء فى جريدة " Republican " التى كانت تصدر فى مدينة سبرنج فيلد أن "عمال كل فرع ـ تقريبًا ـ من فروع التجارة قاموا بإضراب خلال الأشهر القليلة الماضية"، كما جاء فى جريدة سان فرانسيسكو المسائية أن "الغضب المنتشر بين عمال مدينة سان فرانسيسكو الآن، يتمثل فى الإضراب من أجل رفع الأجور." وقامت النقابات والاتحادات كنتيجة لهذه الإضرابات، وأعلن عمال الأحذية فى فلادلفيا، فى عام ١٨٦٣، أن الأسعار المرتفعة جعلت مسألة تنظيمات العمال أمرًا حتميًا.

كان العنوان الرئيسى، الذى صدرت به جريدة "" Fincher's Trades' Review فى ٢١ نوفمبر عام ١٨٦٣: "الثورة فى نيويورك". رغم أن هذا العنوان كان مبالغة كبيرة، ولكن ما نشرته الجريدة من قائمة الأنشطة العمالية كان دليلاً ساطعًا على الغضب الذى كان يخفيه الفقراء أثناء الحرب. وهذا بعض ما نشرته الجريدة:

> **لقد أصابت ثورة الجماهير العاملة فى نيويورك أصحاب رؤوس المال فى هذه المدينة بالفزع... .**
>
> **يتخذ العاملون على الماكينات موقفًا صلبًا... رأيهم منشور فى عمود آخر.**
>
> **أضرب عمال السكك الحديدية بالمدينة لمدة يومين من أجل رفع أجورهم، وهو ما جعل سكان المدينة يلجأون للخيول كوسيلة للانتقال..**
>
> **اتخذ نقّاشو بروكلين خطوات من أجل مواجهة محاولات أصحاب العمل لخفض الأجور...**

وحقق النجارون، كما ورد إلينا، مطالبهم.

حصل صانعو الخزائن على زيادة فى الأجور، وعادوا الآن إلى العمل...

يبذل عمال المطابع جهودًا كبيرة لضمان أجور أفضل.

ولا يزال عمال الحديد يقاومون محاولات المقاولين لخفض الأجور... وحصل دهّانو ستائر النوافذ على زيادة فى الأجر قدرها ٢٥٪.

ويتحصّن صنّاع حداءات الخيل ضد مراوغات التجار... ويطالب قُطّاع الزجاج بزيادة ١٥٪ فى الأجور ورغم اعترافنا بأن هذه القائمة ربما تكون غير دقيقة، فإن فيها ما يكفى لإقناع القارئ بأن الثورة الاجتماعية، التى بدأت فى شق طريقها، سوف يُكتب لها النجاح، على شرط أن يُخلص العمال بعضهم لبعض.

ثمة إضراب آخر قام به حوالى ٨٠٠ من سائقى المركبات العامة. ولم يتخلف عمال بوسطن... فبالإضافة إلى إضراب العمال الذى عم شارلز تاون، فقد أضرب العاملون على السفن.

ويُشاع الآن، ونحن نكتب هذه القائمة، أن عمال مصانع الحديد فى جنوب بوسطن ومناطق أخرى منها، يفكرون فى القيام بإضراب عام.

أدت الحرب الأهلية، فيما أدت، إلى نزول النساء للعمل فى المحال والمصانع، وهو الأمر الذى أثار اعتراضات الرجال الذين رأوا أن ذلك كفيل بخفض معدلات الأجور. فى مدينة نيويورك، كانت الفتيات اللاتى تعملن بحياكة المظلات، تكسبن ثلاث دولارات فى الأسبوع، ويعملن من السادسة صباحًا وحتى منتصف الليل، فضلاً عن أن أصحاب العمل كانوا يخصمون من أجورهن ثمن الإبر والخيط. وكانت الفتيات

العاملات فى صناعة القمصان القطنية، تتقاضين أربعة وعشرين سنتًا عن يوم عمل مقداره ١٢ ساعة. لكن فى أواخر عام ١٨٦٣، عقدت النساء العاملات فى نيويورك اجتماعًا كبيرًا من أجل حل مشاكلهن. وتشكلت نقابة لحماية النساء العاملات، وقامت صانعات المظلات بإضراب كبير فى نيويورك وبروكلين. كما تشكلت نقابة "صانعات السيجار" فى بروفيدانس، وورود آيلاند.

ساعد كل ذلك على أنه بحلول عام ١٨٦٤ أصبح هناك مائتا ألف من العمال، رجالاً ونساءً، فى النقابات التجارية، حيث استطاعوا تشكيل نقابات قومية لبعض أنواع التجارة، وإصدار صحف عمالية.

وجدير بالذكر أن جنود اتحاد الولايات كان يتم إرسالهم فى مهمات من أجل إنهاء الإضرابات، وإجبار العمال على العودة إلى عملهم، كما حدث مع عمال الماكينات والخياطين المضربين فى سان لويز. وفى تينيسى، أمر أحد القادة بجيش الاتحاد، بإلقاء القبض على مائتين من عمال الماكينات وطردهم خارج الولاية. وعندما أضرب مهندسو السكك الحديدية، أوقفت القوات العسكرية هذا الإضراب تمامًا كما فعلوا مع عمال المناجم فى مقاطعة تيوجا ببنسلفانيا.

لم يكن العمال البيض فى الشمال متحمسين من أجل حرب بدت لهم أنها كانت من أجل العبيد السود أو من أجل أصحاب رؤوس الأموال، أو من أجل أى أحد إلا هم. فقد كانوا يعملون فى ظروف تشبه ظروف العبيد، وكانوا يرون أن الحرب تفيد طبقة المليونيرات الجديدة؛ إذ رأوا بعيونهم كيف يبيع التجار أسلحة معيوبة للجيش، وكانوا يبيعون الرمل على أنه سكر ونبات الجاودار على أنه قهوة، ويصنعون من بواقى المحلات ملابس وأغطية، وأحذية شبه ورقية للجنود، كما كانوا يصنعون سفن البحرية من خشب عطن، وملابس الجنود كانوا يصنعونها من مواد رخيصة، إذ كان يبلى الزى الرسمى للجنود بمجرد تعرضهم للمطر.

أما العمال الأيرلنديون فى نيويورك، فلم يكن لديهم، وهم الفقراء المهاجرون والمزدرون من قِبل الأمريكيين، تعاطف مع سكان المدينة السود، الذين كانوا يزاحمونهم فى وظائف كالحلاقة والخدمة بالمطاعم والفنادق أو الخدمة المنزلية. وكان السود، المطرودون من تلك الوظائف، يُستخدمون فى إنهاء الإضرابات. ثم جاءت الحرب والتجنيد واحتمال الموت فى الحرب. وكان قانون التجنيد لعام ١٨٦٣ قد نص على أن الأغنياء بإمكانهم تجنب تأدية الخدمة العسكرية بأن يدفع الفرد ٣٠٠ دولاراً أو يوفِّر بديلاً له. وفى صيف عام ١٨٦٣، تداول الآلاف فى نيويورك ومن ولايات أخرى "أغنية المجندين"، التى جاء فى أحد مقاطعها:

أبانا إبراهام! إنا قادمون! قادمون!

بمئات الألوف قادمون!

نغادر بيوتنا ومدافئنا بقلوب نازفة.

ولأن الفقر جريمتنا، فإننا نطيع أوامرك.

نحن الفقراء لا نملك المال لشراء حريتنا.

عندما بدأ تجنيد الناس للجيش فى يوليو عام ١٨٦٣، قام جماعة من العامة بتحطيم مركز التجنيد الرئيسى فى نيويورك. وبعد ذلك، وعلى مدار ثلاثة أيام، قامت جموع كبيرة من العمال البيض بمسيرات فى المدينة. وكانت مظاهرات التجنيد مركبة العناصر؛ فكان هناك المناهضون للسود والمناهضون للأثرياء والمناهضون للجمهوريين. فى خلال أيام المظاهرات، قام المتظاهرون، بعد هجومهم على مبنى التجنيد، بمهاجمة بيوت الأثرياء ثم قاموا بعمليات قتل للسود. وساروا فى الشوارع وأجبروا المصانع على غلق أبوابها وجندوا أعداداً كبيرة من العامة فى صفوفهم. بعد ذلك، أحرقوا ملجأ الأيتام الملونين، وأطلقوا النار على من صادفوهم من السود فى الشوارع وأحرقوا بعضاً آخر وشنقوا آخرين. كما ألقوا ببعض السود فى الأنهار كى يموتوا غرقاً.

وفى اليوم الرابع لهذه المظاهرات، جاء إلى المدينة الجنود العائدون من معركة جيتسبرج وأنهوا المظاهرات التى مات فيها حوالى ٤٠٠ فرد، ورغم عدم وجود أرقام دقيقة للذين ماتوا، فان العدد أكبر من أى عدد آخر فى حادثة عنف محلية فى التاريخ الأمريكى.

ويقدم جولى تايلر هيدلى Joel Tyler Headley فى كتابه نيويورك وصفًا تفصيلياً نابضًا بالحياة لما حدث فى ذلك الوقت يومًا بيوم:

> **اليوم الثانى... . زادت أجراس إنذارات الحريق، التى كانت تدق باستمرار، من الرعب المنتشر بين الناس، خاصة بين الزنوج... . وفى أحد المرات، ظلت جثة زنجى ملقاة عند ناصية الشارع السابع والعشرين والطريق السابع، ولا يسترها أى ثوب، ويدور حولها جمع من الأيرلنديين يرقصون ويتصايحون كالهنود البريين... وهوجم محل للحلاقة يمتلكه زنجى وأُشعلت فيه النار. وأصبح نُزل يمتلكه زنجى آخر فى نفس الشارع أنقاضًا بعد تعرضه للهجوم. كما تعرض شيوخ يبلغون السبعين عامًا من العمر وأطفال صغار لا يفهمون ما يجرى للضرب والقتل أثناء هذه المظاهرات... .**

كان ثمة مظاهرات مناهضة للتجنيد غير دموية فى مدن شمالية أخرى مثل نيو آرك، تروْىِ (طروادة)، بوسطن، توليدو، وايفانزفيل. غير أن بوسطن شهدت موت مجموعة من العمال الأيرلنديين على أيدى الجنود، وكان هؤلاء العمال يقومون بمهاجمة مستودع للأسلحة.

أما فى الجنوب، فكان ثمة غليان يمور تحت الوحدة الظاهرة للكونفدرالية البيضاء، إذ لم يكن معظم البيض ـ ثلثا عددهم تقريبًا ـ يملكون عبيدًا، وكانت النخبة التى تملك المزارع الكبرى تتألف من عدة آلاف قليلة من الأُسر. وقد أوضح المسح السكانى الفيدرالى لعام ١٨٥٠ أن ألف أسرة جنوبية على قمة الاقتصاد كان يبلغ دخلها خمسين مليون دولارًا سنويًا، أما باقى الأسر وعدد ٦٦٠ ألفًا فكان دخلها حوالى ستين مليونًا من الدولارات.

وفى الجنوب كان ملايين البيض مزارعين فقراء، يعيشون فى بيوت مهجورة، ويزرعون أرضًا هجرها ملاك المزارع لفقر تربتها. قبل الحرب الأهلية مباشرة، كان العبيد العاملون فى مصانع القطن يتلقون أجرًا مقداره عشرون سنتًا فى اليوم شاملة الإقامة، بينما يتلقى العمال البيض فى المصنع نفسه ثلاثين سنتًا. فى أغسطس عام ١٨٥٥، ذكرت صحيفة فى كارولاينا الشمالية، أن "مئات الآلاف من أسر الطبقة العاملة يعيشون نصف جوعى... ".

رغم صرخات المعارك والروح الأسطورية للجيش الكونفدرالى، لم يكن الجيش متحمسًا للقتال. لقد تساءل إى. ميرتون كولتر **E. Merton Coulter**، وهو مؤرخ متعاطف مع الجنوب، قائلاً: "لماذا فشلت الكونفدرالية؟ لقد كانت القوى المؤدية للهزيمة عديدة، لكن يمكن تلخيصها فى حقيقة واحدة: لم تكن المشكلة فى الأموال أو الجنود ولكن قوة العزيمة والروح المعنوية كانت حاسمة.

علاوة على ذلك، فإن قانون التجنيد الخاص بالكونفدرالية نصَّ على أن الأغنياء بإمكانهم تجنب التجنيد. هل بدأ جنود الكونفدرالية يشكون فى أنهم كانوا يقاتلون لكسب مزيد من المزايا لنخبة يعرفون أنهم لا يستطيعون الانتماء إليها؟ فى أبريل ١٨٦٣، قامت فى ريشموند مظاهرة خبز، وفى صيف العام نفسه، قامت مظاهرات مناهضة للتجنيد فى مدن عديدة بالجنوب. وفى سبتمبر، قامت مظاهرة خبز فى موبايل بآلاباما، وتقول جورجيا لى تاتوم **Lee Tatum**، فى دراستها **الخيانة فى عصر الكونفيدرالية**: "قبل نهاية الحرب، كان ثمة سخط كبير فى كل ولاية، وكان كثيرون من الخونة قد نظموا أنفسهم فى جماعات، وفى بعض الولايات كانت لهم مجتمعات نشطة وعالية التنظيم."

كانت الحرب الأهلية واحدة من النماذج الأولى فى عالم الحرب الحديثة؛ إذ احتوت على قاذفات المدفعية القاتلة وبنادق "جاتلنج" الآلية، والقتل العشوائى للحرب الآلية، فضلاً عن القتال وجهًا لوجه. وربما لم يستطع تصوير المشاهد الكابوسية لهذه الحرب سوى ستيفن كرِيْن **Crane** فى روايته الشهيرة **شارة الشجاعة الحمراء**

The Red Badge of Courage. ففى إحدى المهمات بالقرب من بترسبيرج، فرجينيا، فقدت كتيبة، تتكون من ٨٥٠ جنديًا من ولاية مينْ، ٦٣٢ رجلاً من أفرادها فى نصف ساعة. لقد كانت مجزرة كبرى، مات فيها ٦٢٣ ألفًا من الجانبين، وأُصيب ٤٧١ ألف، أى أن أكثر من مليون فرد ماتوا أو جرحوا فى بلد يبلغ سكانه ثلاثون مليونًا.

فلا عجب أن زاد معدل هرب الجنود فى الجنوب مع مرور الحرب. أما فيما يخص جيش اتحاد الولايات، فبانتهاء الحرب، كان قد فر ٢٠٠ ألف جندى من صفوف الجيش.

والجدير بالذكر أن ٦٠٠ ألف فرد كانوا قد تطوعوا لصالح الكونفدرالية عام ١٨٦١، كما كان كثير من صفوف جيش اتحاد الولايات متطوعين. لقد كان للروح الوطنية وحب المغامرة والسحر الأخلاقى للموت فى سبيل حملة ما، مفعول كبير فى طمس الغضب الطبقى ضد الأثرياء وذوى النفوذ، وتوجيه درجة هذا الغضب إلى "العدو" ويصف أدموند ويلسون هذا الأمر فى كتابه « الدماء الوطنية Patriotic Gore » الذى كتب بعد الحرب العالمية الثانية قائلاً:

> **لقد رأينا، فى أحدث حروبنا، كيف يمكن أن يتحول رأى عام منقسم إلى ما يشبه الإجماع بين عشية وضحاها، حتى يصبح فيضانًا مُطيعًا من الطاقة يحمل الشباب إلى الهلاك. إن إجماع الناس على الحرب يشبه إجماع سرب من السمك عندما ينحرف، فى وقت واحد وبدون قيادة، بمجرد رؤيته ظل عدو يقترب، أو يشبه حركة طيران سرب من الجراد ـ يحجب السماء، ذلك السرب الذى، لدافع واحد، يهبط ويأتى على المحاصيل.**

وفى ظل الدوى والصخب العالى للحرب، كان الكونجرس يمرر ولينكولن يوقِّع على سلسلة من القوانين تحقق مصالح الأثرياء، وتنجز ما كان الجنود يحولون دون

إنجازه قبل الانفصال. لقد كان البرنامج السياسى للحزب الجمهورى، فى عام ١٨٦٠، موجهاً إلى تحقيق مصالح رجال الأعمال. وفى عام ١٨٦١ مرر الكونجرس القانون الخاص بتعريفة موريل **Morrill Tariff**، الذى جعل السلع والبضائع الأجنبية أعلى سعراً، وسمح لأصحاب المصانع الأمريكية برفع الأسعار، ومن ثم أجبر المستهلكين الأمريكيين على دفع سعر أعلى للبضائع والسلع المحلية.

وفى العام التالى، صدر ما عرف بأنه قانون المنزل أو بيت الأسرة ووفقًا لهذا القانون، منح أى فرد يستطيع أن يقوم بزراعة الأرض لمدة خمس سنوات مساحة ١٦٠ آكر من الأراضى الغربية التى لم يكن يشغلها أحد. وكان من يرغب فى دفع دولار وربع مقابل كل آكر، يشترى منزلاً. استطاع عدد قليل من الناس العاديين من دفع المائتى دولار من أجل تملك الأرض وشراء المنزل، لكن كبار المُلاك والتجار هم الذين تحركوا وقاموا بشراء معظم هذه الأراضى، الأمر الذى أضاف خمسين مليون آكر للأراضى المزروعة. لكن أثناء الحرب، قدم الكونجرس والرئيس الأمريكى مائة مليون آكر من الأراضى إلى شركات السكك الحديدية مجانًا. كما قام الكونجرس بتأسيس بنك قومى، بحيث تصبح الحكومة شريكًا فى الفوائد البنكية إذ أنها تضمن تحقيق الأرباح.

وبانتشار الإضرابات، قام أصحاب الأعمال بالضغط على الكونجرس طلبًا للمساعدة. وبالتالى، فقد صدر قانون عقد العمل فى عام ١٨٦٤ وهو القانون الذى منح أصحاب الأعمال حرية توقيع عقود مع عمال أجانب متى شاءوا، إضافة إلى أن هؤلاء العمال الأجانب يوقعون على العقد بالتزامهم دفع أجر عام لصاحب العمل من أجل تغطية تكاليف الهجرة. ولقد حقق ذلك لأصحاب الأعمال عمالة رخيصة جداً أثناء الحرب الأهلية، كما كان ذلك أيضًا سلاحًا فى أيديهم لإنهاء إضرابات العمال.

ربما كان الأهم من إصدار القوانين الفيدرالية التى جاء بها الكونجرس لصالح الأغنياء هو ما كان يحدث كل يوم من إجراءات لقوانين الولايات والتى كانت تسير فى

محاذاة مع مصالح ملاك الأراضى والتجار. يُعلق على هذه النقطة المؤرخ جوستافوس مايرز Gustavus Myers فى كتابه **تاريخ الثروات الأمريكية العظمى** History of the Great American Fortunes أثناء مناقشته لنمو ثروة عائلة آستور Astor الشهيرة، والتى جاء معظمها من إيجار المساكن فى مدينة نيويورك. يقول:

> **أليس من القتل أن يسكن الناس، مدفوعين بالحاجة، فى مساكن تملؤها الميكروبات ولا تقترب منها الشمس وحيث تجد الأمراض تربة خصبة للانتشار والتمكن؟ لقد ماتت آلاف مؤلفة بسبب استئجارهم هذه الأماكن، غير أن ذلك من الحقائق المسكوت عنها. ولكن، على حد تطبيق القانون، فإن الأموال التى جمعتها أسرة آستور وغيرها أموال اكتُسبت بأمانة وشرف. إن المؤسسة القانونية بكاملها لم تر فى ظروف سكنى هذه الأماكن شيئًا غريبًا، بل إن الغريب والمدهش أن القانون والقائمين عليه لم يمثلوا الأخلاق والقيم العليا للبشرية المتقدمة. لقد كان القانون وواضعوه يعكسون مطالب ومصالح الطبقة الغنية كما تعكس البحيرة الصافية وجه السماء... .**

وفى الثلاثين عامًا التى سبقت الحرب الأهلية، كان كثيرًا ما يتم تفسير القوانين فى المحاكم بحيث تناسب التطور الرأسمالى للبلاد. وفى مناقشته لهذا الأمر فى كتابه تحوّل القانون الأمريكى، يبين مورتون هورفيتس Horwitz أن القانون الإنجليزى لم يعد مقدسًا طالما تعارض مع تطور البيزينس. كما أُسيئ استعمال قانون حق الحكومة فى مصادرة الأملاك الشخصية "eminent domain" وذلك من أجل مصادرة أراضى المزارعين وإعطائها إلى شركات حفر القنوات أو شركات السكك الحديدية على سبيل الدعم لنشاطهم. وكانت الأحكام الخاصة بتقدير خسائر أصحاب الأملاك المصادرة، لا تصدر عن محلفين، بل عن طريق القضاة مباشرة، لأن تقديرات هيئات المحلفين لم يكن يتوقعها أحد. كما أُلغى نظام التحكيم على النزاعات بين الأفراد،

وحل محله نظام آخر تقوم به المحاكم، الأمر الذى أكثر من الاعتماد على المحامين ومن ثم زادت أهمية مهنة المحاماة.

ويعطى هورفيتس مثالاً واضحًا على أن القانون الذى ينظم العمل كان تمييزًا ضد العمال من أجل صالح رجال الأعمال، وهذا المثال يعود إلى بدايات القرن التاسع عشر: قالت المحاكم إنه إذا وقَّع عامل على عقد عمل لمدة عام، ثم ترك العمل قبل نهاية العام، فليس من حقه أى أجور بما فى ذلك المدة التى عملها. فى الوقت نفسه، قالت المحاكم نفسها إنه لو فسخت شركة ما عقداً، فإن من حقها أن تحصل على أجر ما قامت به حتى وقت فسخ العقد!

وكان زعم هذا القانون يقوم على أن طرفى العقد متساويان. ولذلك، حكم أحد القضاة بولاية ماساتشوستس بأن عاملاً مصابًا لا يستحق تعويضًا، لأنه، بتوقيعه على العقد، كان يعلم بمخاطر ما سيقوم به من عمل. "اكتملت الدائرة، فقد جاء القانون لا لشىء سوى للتصديق على أشكال الظلم التى أفرزها نظام السوق."

كان هذا زمنًا لم يحاول القانون فيه أن يتظاهر بأنه يحمى طبقة العمال، كما سيفعل فى القرن التالى. أما قوانين الصحة والسلامة فإما أنها كانت غير موجودة أو أنها كانت هناك ولم تُطبق. فعلى سبيل المثال، انهار، فى لورانس بماساتشوسيتس فى عام ١٨٦٠، مصنع بيمبيرتون، وكان بداخله تسعمائة من العمال معظمهم من النساء. مات ٨٨ من العمال، وعلى الرغم من وجود دليل على أن بناء المصنع لم يكن قويًا إلى الدرجة التى يستوعب معها الماكينات الثقيلة التى يحتويها،، وعلى الرغم أن ذلك كان يعرفه مهندس الإنشاء تمام المعرفة، فقد جاء قرار لجنة المحلفين بأنه "ليس هناك دليل على وجود نية جنائية."

ويُلخص هورفيتس ما حدث فى المحاكم عند اندلاع الحرب الأهلية بقوله:

بحلول منتصف القرن التاسع عشر، كان النظام القانونى قد أُعيد تشكيله لصالح رجال التجارة والصناعة وعلى

حساب المزارعين والعمال والمستهلكين والجماعات الأخرى الأقل نفوذًا داخل المجتمع... لقد قام هذا النظام بإعادة توزيع قانونى للثروة بما لا يتفق مع مصالح أكثر الجماعات استضعافًا فى المجتمع.

كان سوء توزيع الثروة، قبل العصور الحديثة، يتم عن طريق القوة فحسب. أما فى العصور الحديثة، تخفى الاستغلال، بحيث أصبح يتحقق عن طريق القانون الذى تبدو عليه صفتا الحياد والعدل. وبحلول وقت الحرب الأهلية كانت حركة تتشكل على قدم وساق فى الولايات المتحدة.

وعند انتهاء الحرب، تباطئ السعى لتحقيق الوحدة القومية، وعاد الناس العاديون إلى حياتهم اليومية ومشاكل كسب قوتهم. وأصبحت الجيوش المُسرِّحة عاطلة تجوب الشوارع بحثًا عن عمل، وفى يونيو ١٨٦٥، نشرت " Fincher's Trades' Review ": "تفيض الشوارع، كما كان متوقعًا، بالجنود العائدين الذين يشكون البطالة."

كانت المدن التى عاد إليها الجنود أفخاخًا للموت، إذ كان ينتشر فيها التيفوس والسل والجوع. ففى نيويورك، على سبيل المثال، كان يعيش مائة ألف من الناس فى أحياء عشوائية قذرة، وتعمل اثنى عشر ألف امرأة فى بيوت الدعارة لكسب القوت، والفئران تترع فى أكوام القمامة المتراكمة فى الشوارع بارتفاع قدمين. وبينما كان الأغنياء يحصلون، فى فلادلفيا، على الماء الطازج من نهر شولكيل، كان بقية الناس يشربون من نهر ديلاوير الذى كان يُلقى فيه ١٣ مليون جالون من مياه الصرف الصحى كل يوم. وفى "حريق شيكاغو الكبير" فى عام ١٨٧١، انهارت المساكن سريعًا، واحدًا تلو الآخر، حتى ظن الناس أن ثمة زلزالاً.

أما الحركة فى سبيل تخفيض ساعات العمل اليومية إلى ثمانية ساعات، فقد بدأت بين العمال بعد انتهاء الحرب، وساهم فى نجاح هذه الحركة تشكيل أول اتحاد قومى للنقابات هو الاتحاد القومى للعمال. وكانت الحركة قد بدأت بإضراب لمدة ثلاثة

شهور قام به مائة ألف من العمال فى نيويورك، وأتى الإضراب بثماره، وقام مائة وخمسون ألفًا من العمال فى يونيو من عام ١٨٧٢ بمسيرات احتفالية بشوارع المدينة، وأبدت جريدة "نيويورك تايمز" اندهاشها مما حدث وتساءلت عن نسبة "الأمريكيين الخالصين" الذين شاركوا فى الإضراب.

من ناحية أخرى، قامت النساء، اللائى دخلن إلى مجال العمل الصناعى أثناء الحرب، بتشكيل نقابات عديدة للعاملات فى مجالات صناعة السيجار والحياكة وصناعة القبعات والطباعة وتنظيف الملابس وصناعة الأحذية. لقد نجحن فى تشكيل جماعة بنات القديس كريسبين، ونجحن فى إقناع نقابة العاملين فى صناعة السيجار والنقابة الوطنية للطباعة بقبول أعضاء من النساء لأول مرة. وأصبحت إحدى النساء العاملات من نيويورك، وتُدعى جوسى لويس سكرتيرة مراسلات للنقابة الوطنية للطباعة. غير أن هاتين النقابتين كانت استثناء من بين ما يزيد على ثلاثين نقابة أخرى. وكان الاتجاه العام هو استبعاد النساء.

وفى عام ١٨٦٩، أضربت العاملات بتنظيف الياقات، بمنطقة طروى بنيويورك، فى احتجاج على أجرهن المجحف، إذ كان يتطلب عملهن الوقوف "على حوض الغسيل وطاولة الكواء إلى جوار الأفران، مع ارتفاع كبير لدرجة الحرارة التى كانت تبلغ ١٠٠ درجة [فهر نهيت] ، ويتراوح أجرهن بين دولارين وثلاثة دولارات أسبوعيًا" وذلك وفق ما سجلته الوثائق المعاصرة لهذا الإضراب. كانت قائدة الإضراب كيت مولانى، النائب الثانى لرئيس النقابة الوطنية للعمال. وجاء سبعة آلاف شخص فى مسيرة لدعم المضربات. وقامت النساء بتأسيس مصنع تعاونى صغير لعمل الياقات والأساور من أجل توفير عمل ودعم استمرار الإضراب. ولكن، قل الدعم الخارجى بمرور الوقت. وفشل الإضراب خاصة بعد أن بدأ أصحاب العمل فى تصنيع الياقات الورقية، الأمر الذى جعلهم فى حاجة إلى عدد قليل من عاملات التنظيف.

ومن ناحية أخرى، دفعت مخاطر العمل فى المصانع العمال إلى بذل مزيد من الجهود من أجل تنظيم أنفسهم. لقد كان العمل، فى بعض الأحيان، يستمر

على مدار ساعات اليوم كاملة. وفى بروفيدانس، رود آيلاند، اندلع حريق بأحد المصانع ذات ليلة من عام ١٨٦٦، وانتشر الهلع بين العمال الستمائة، ومعظمهم من النساء، الأمر الذى دفع كثيرين منهم للقفز من النوافذ العليا إلى الشوارع حيث لقوا حتفهم.

وفى منطقة "فول ريفر" بولاية ماساتشوستس، قامت عاملات النسيج بتكوين نقابة منفصلة عن الرجال، بعد أن رفضن خفض الأجور بنسبة ١٠٪ مثلما حدث مع الرجال. فقمن بإضراب فى ثلاثة مصانع للغزل والنسيج، وحازوا تأييد الرجال، وأوقفوا ٣٠٠٥٠٠ نولاً و١٥٦ ألف مغزلاً عن العمل بعد أن أضرب أكثر من ثلاثة آلاف من العمال والعاملات. غير أن أطفال هؤلاء العاملات كانوا فى حاجة إلى الطعام، ولم يكن أمام الأمهات سوى العودة إلى العمل والتوقيع على "قسم صارم" (أطلق عليه فيما بعد "العقد التنصلى " yellow - dog contract) وهو عقد يلزم العمال الموقعين عليه بعدم الانضمام إلى أى نقابة طوال مدة سريانه.

أما العمال السود، فقد وجدوا أن النقابة الوطنية للعمال غير متحمسة فى ذلك الوقت لقبولهم أعضاء بها، ومن ثم فقد كونوا نقابات ورابطات خاصة بهم، وكانت لهم إضراباتهم، وهى الإضرابات التى قام بها، على سبيل المثال، عمال الميناء فى موبايل بآلاباما عام ١٨٦٧، أو عمال تفريغ المراكب فى شارلزتون،أو حمالو بضائع السفن فى سافانا.

ولعل هذا ما دفع النقابة الوطنية للعمال، فى مؤتمرها عام ١٨٦٩، أن تعلن قبولها انضمام السود و النساء إليها، مقرة بأن اللون و الجنس لا علاقة لهما فى حقوق العمال. لقد كتب أحد الصحفيين منوها بالعلامات الواضحة للوحدة العرقية فى ذلك المؤتمر. قال:

> **عندما يشير أحد أبناء ميسيسيبى، وأحد ضباط الكونفدرالية السابقين، إلى أحد أفراد الوفد الملونين والذى سبقه فى الحديث، على أنه "جنتلمان من جورجيا"... وعندما**

يعلن أحد أنصار الحزب الديمقراطى، من نيويورك، فى لكنة أيرلندية قوية إنه كمواطن لن يقدم أى تنازلات إلى أى أنسان أخر أبيض كان أم أسود... فللمرء أن يقول فى يقين أن الزمن يحمل فى جيوبه تغييرات جريئة....

غير أن معظم النقابات كانت لا تسمح للزنوج بالاقتراب منها، أو تطلب منهم أن يكونوا نقابات خاصة بهم.

وبدأت النقابة الوطنية للعمال فى توجيه معظم طاقاتها على قضايا سياسية، خاصة إجراء إصلاحات فى نظام دفع الأجور؛ أى ضمان الحصول عليها فى شكل أموال ورقية لا سندات. ولما قل تنظيمها و نضالها فى نطاق القضايا العمالية، وأصبحت قوية الصلة بالكونجرس وبعملية التصويت فى الانتخابات، فقدت النقابة حيويتها حتى أن إف. إيه. سورج F . A. Sorge، وهو أحد المراقبين لنضال العمال، كتب إلى كارل ماركس فى إنجلترا عام ١٨٧٠ يقول له: "لقد سمم المال الأخضر (الدولارات) النقابة الوطنية للعمال، التى كان لها فى بدايتها طموحات كبيرة، الأمر الذى يدفعها إلى الموت. وحتى لو كان هذا الموت بطيئا فإنه آت بلا ريب".

ربما كان من العسير على النقابات أن تدرك حدود الإصلاح التشريعى فى زمن كانت تصدر فيه قوانين الإصلاح لأول مرة، والآمال كانت عالية.

وقد أصدر المجلس التشريعى فى بنسلفانيا قانونا خاصا بتوفير السلامة داخل المناجم عام ١٨٦٩ وكان ينص على "تنظيم و تهوية المناجم و حماية أرواح العمال بها". ولن يكتشف العمال أن هذه الكلمات لم تكن أكثر من خدعة لامتصاص غضبهم ألا بعد مائة عام من الحوادث داخل هذه المناجم.

وفى عام ١٨٧٣ ضربت البلاد أزمة اقتصادية أخرى. وكان إغلاق البنك الذى يملكه جاى كوك Jay Cooke بداية الأزمة و الهلع الذى أصاب الناس.

كان جاى كوك يحقق أرباحًا تصل إلى ثلاثة ملايين دولارًا كل عام أثناء فترة الحرب، وكانت هذه الأرباح عبارة عن العمولات الناتجة عن بيع السندات الحكومية. وبينما كان الرئيس الأمريكي جرانت نائمًا في ضيعة جاى كوك بفلادلفيا يوم ١٨ سبتمبر ١٨٧٣، اتجه صاحب البنك إلى وسط المدينة وقام بإغلاق البنك. ومن ثم لم يستطع الناس دفع ديون أملاكهم المرهونة مما أدى إلى إغلاق أكثر من خمسة آلاف عمل وتشريد العمال بها في الشوارع.

غير أن الأمر كان أكبر من حادثة بنك كوك. لقد قامت الأزمة داخل نظام كان فوضويًا في طبيعته ولم يضمن الأمان سوى لذوى الثراء الكبير. لقد كان نظامًا ألف الأزمات الكبرى التى تحدث على فترات ـ ١٧٩٣، ١٨٥٧، ١٨٧٣ (و ١٨٩٣، ١٩٠٧، ١٩١٩، ١٩٢٩ بعد ذلك). إنه النظام الذى قضى على الأعمال الصغيرة وجلب البرد والجوع والموت للطبقات العاملة بينما يحافظ نفس النظام على زيادة ثروات عائلات أستور Astore وفاندربيلتس Vanderbilts وروكفيللر Rockefellers، ومورجان Morgans حتى أثناء الحروب والأزمات. وأثناء أزمة عام ١٨٧٣ كان كارنيجى Carne-gie يحتكر سوق الحديد بينما كان روكفيللر يقضى على منافسه فى تجارة النفط.

وكان العنوان الرئيسى فى جريدة "هيرالد" النيويوركية فى نوفمبر ١٨٧٣ هو: "أزمة عمالية فى بر وكلين." وقامت الجريدة بنشر قائمة بالمشروعات والأعمال التى اضطرت إلى التوقف والإفلاس. واستمرت الأزمة طوال سنوات العقد. وأثناء الشهور الأولى من عام ١٨٧٤، لم يجد تسعون ألفًا من العمال، ومعظمهم من النساء، مكانًا ينامون فيه سوى مراكز الشرطة فى نيويورك. وكان يطلق على هؤلاء لقب "الدائرون" لأنه لم يكن مسموحًا لهم بالمكوث سوى يوم أو يومين داخل أحد مراكز الشرطة شهريًا، الأمر الذى دفعهم إلى الحركة الدائمة بحثًا عن مركز شرطة لم يمكثوا فيه اليومين المحددين مرة قبل ذلك. لقد كان يتم إخلاء الناس من البيوت فى كل أرجاء البلاد، وكان كثيرون يتجولون فى المدن بحثًا عن طعام.

وحاول اليائسون من العمال السفر إلى أوروبا أو أمريكا الجنوبية. وفى عام ١٨٧٨ غادرت السفينة "إس. إس. ميتروبوليس" الولايات المتحدة، وهى مملوءة عن

آخرها بالعمال، متجهة إلى أمريكا الجنوبية، لكنها غرقت فى الطريق هى وكل من عليها. وجاء بجريدة "تريبيون" النيويوركية: "بعد ساعة واحدة من وصول خبر غرق السفينة إلى فلادلفيا، قام بمحاصرة مكتب آل كوينز مئات من ذوى الهيئات المحترمة الذين قرصهم الجوع، حيث جاءوا يتسولون أى معلومات عن أماكن العمال الذين غرقوا." وعمت البلاد مظاهرات العاطلين، وأنشأ العاطلون مجالس خاصة بهم، ونظمت النقابات التجارية اجتماعًا كبيرًا فى معهد كوبر بنيويورك أواخر عام ١٨٧٣ كما اشترك فى التنظيم لهذا الاجتماع القطاع الأمريكى للمؤتمر الدولى الأول (الذى أسسه كارل ماركس وآخرون فى أوروبا عام ١٨٦٤). وقد جذب هذا الاجتماع جمهورًا غفيرًا ملأ الشوارع، وطالب الاجتماع بأن تخضع القوانين للتصويت العام قبل أن تصبح واجبة التنفيذ وبألا يزيد ما يمتلكه شخص ما من أموال عن ,ثلاثين ألف دولار. كما طالب المجتمعون بألا يزيد يوم العمل عن ثمانية ساعات. ومن بين ما جاء فى هذا الاجتماع:

قررنا، نحن المواطنين الجادين الملتزمين بالقانون والذين قاموا بدفع كل الضرائب وقدموا الدعم والولاء للحكومة، أن نعمل فى هذا الوقت العصيب على توفير المأكل والمسكن المناسب لنا ولأسرنا، ولسوف نقوم بإرسال فواتير كل هذا إلى خزانة المدينة لدفعها نيابة عنا إلى أن نحصل على عمل... .

وفى شيكاغو، اتجه عشرون ألفًا من العاطلين فى مسيرة بالشوارع حتى بلغوا مبنى مجلس المدينة وطالبوا المسؤولين بأن يوفروا "خبزًا للمحتاجين وملبسًا للعرايا ومساكن للمشردين." وكان من شأن مثل هذه الأفعال أن تبعث فى نفوس عشرات الآلاف من الأسر بعضًا من الراحة.

وفى مدينة نيويورك اتجهت مسيرة كبرى للعمال، فى يناير عام ١٨٧٤، إلى ميدان طومكينز بعد أن حال رجال الشرطة بينهم وبين مبنى مجلس المدينة، وفى ذلك

الميدان أخبرتهم الشرطة أنه ليس من المسموح لهم عقد أى اجتماعات، لكن الناس بقوا فى الميدان وهاجمتهم الشرطة. ونشرت إحدى الصحف:

> **ارتفعت عصى الشرطة فى الهواء وهوت على من هوت وجرى النساء والأطفال مطلقين صرخاتهم، فى كل اتجاه، وسقط منهم الكثيرون تحت الأقدام نتيجة التدافع المذعور، وأخذ رجال الشرطة يطرحون الواقفين فى الشوارع أرضًا وأوسعوهم ضربًا لا يعرف أى رحمة.**

وقامت الإضرابات مرة ثانية فى مصانع الغزل فى "فول ريفر" بماساتشوستس، وكان ثمة ما عرف "بالإضراب الطويل" بحى الفحم فى بنسلفانيا، وهو الإضراب الذى اتهم فيه عمال أيرلنديون بارتكاب أعمال عنف وهى اتهامات غالبًا ما كانت تقوم على شهادة مخبر سرى زُرع زرعًا بين عمال المناجم. كان هؤلاء المتهمون، الذين حكموا وادينوا، هم أفراد جماعة "مولى ماجايرز". ويرى فيليب فونر، بعد دراسته لأدلة الاتهام، أن هؤلاء وضعوا فى ذلك الإطار لأنهم كانوا نشطاء فى الحركة العمالية ويقتبس فونر بعض كلمات نشرة "أيريش ورلد" (العالم الأيرلندى) التى وصفتهم "بالرجال الأذكياء الذين قوىً توجههم مقاومة عمال المناجم للإجحاف غير الإنسانى لأجورهم." كما أشار فونر إلى "صحيفة عمال المناجم"، التى صادرها أصحاب المناجم، والتى أشارت إلى مَنْ أُعدموا قائلة: "ماذا فعلوا؟ كل ما فعلوه هو أنهم كانوا ينظمون إضرابًا متى كانت الأجور مجحفة ولا تناسب ما يقومون به من عمل."

وقد بلغ عدد مَنْ أُعدموا تسعة عشر، وفق ما ورد فى كتاب أنطونى بيمبا The Molly Maguires . وقد أثارت أحكام الإعدام مظاهرات فى بعض الأماكن، غير أنه لم تكن هناك حركة جماعية من أجل وقف تنفيذ الأحكام.

كان أصحاب العمل فى ذلك الوقت يقومون بجلب المهاجرين الجدد، الذين يبحثون عن عمل ويختلفون عن المتظاهرين والمضربين فى اللغة والثقافة، وكان هذا

اسلوبًا فعالاً فى إنهاء الإضرابات. فقد جئ، على سبيل المثال، بالمهاجرين الإيطاليين فى العام ١٨٧٤ للعمل فى مناجم الفحم حول بيتسبرج وحل كثيرٌ منهم محل العمال المضربين، الأمر الذى أدى إلى مقتل ثلاثة إيطاليين والى محاكمات قام فيها المحلفون بتبرئة المضربين وإلى إثارة مشاعر الكراهية بين الإيطاليين والعمال المضربين.

جاءت المئوية الأولى لإعلان الاستقلال وحملت معها عددًا من الإعلانات الجديدة (قام فيليب فونر بإعادة نشرها فى كتابه: **نحن الآخرين** (We, The Other People عبر فيها البيض والسود، كلٌ على حدة، عن تحرره من الوهم الذى حمله إعلان الاستقلال. فقد أدان "الإعلان الزنجى للاستقلال" الحزب الجمهورى الذى اعتمد عليه السود من أجل كسب حريتهم كاملة، واقترح الإعلان عملاً سياسيًا مستقلاً يقوم به الناخبون السود. وقال حزب العمال فى ألينوى، فى احتفال لعيد الاستقلال نظمَّه الاشتراكيون الألمان فى شيكاغو، فى إعلان الاستقلال الخاص به:

> **لقد مكَّن النظام القائم الرأسماليين من إصدار قوانين تخدم مصالحهم وذلك على حساب قهر العمال. لقد جعلوا كلمة الديمقراطية، تلك الكلمة التى حارب آباؤنا وماتوا فى سبيلها، مسخًا لا معنى له وأمرًا يثير السخرية، عندما جعلوا للثروة والملكية اليد العليا فوق التشريع. ... لقد ضمِن الرأسماليون، بفضل النظام القائم، المساعدات الحكومية والمنح والقروض، وبذلك تمكنت هيئات مد السكك الحديدية، باحتكارها وسائل المواصلات والنقل، من استغلال المنتج والمستهلك على السواء.**
>
> **لقد قدَّم النظام القائم إلى العالم الصورة العبثية لحرب أهلية مميتة وروَّج أنها قامت من أجل إلغاء الرق، فى وقت لا تزال فيه غالبية السكان البيض، الذين بنوا ثروة هذه الأمة، مضطرة إلى أن تعانى تحت سطوة قيود مُذِّلة إلى أبعد**

الحدود... . لقد سمح هذا النظام بأن يكون نصيب الرأسماليين – بوصفهم طبقةً– من الإنتاج السنوى للبلاد خمسة أسداس...، ومن ثم فقد منع هذا النظام البشر من أن يعيشوا حياتهم كما ينبغى لها أن تكون على الأرض، إذ كثيرًا ما تسبب فى وأد طموح مَنْ كان طموحًا وحال دون نجاح زيجات أو تسبب فى استمرار زيجات تعسة، وقصف أعمارًا وأتى على أخلاقيات وساهم فى وقوع جرائم وأفسد قضاة ووزراء وساسة، فضلاً عن أنه ساهم فى ضياع الثقة والمحبة بين الناس وجعل من الحياة شيئًا أنانيًا وصراعًا لا يرحم من أجل البقاء بدلاً من أن تكون كفاحًا كريمًا نبيلاً تتساوى فيه الفُرص أمام الجميع وتتخفف فيه حياة الناس من الصراع غير الطبيعى والتكالب المهين على لقمة العيش... .

بُناءً على ما تقدم، فإننا ـ ممثلو عمال شيكاغو ـ نعلن بكل وقار وفى جمعنا الغفير هذا... أننا فى حلٍ من أى تحالف مع الأحزاب السياسية القائمة فى البلاد، وأننا ـ كمنتجين مستقلين أحرار ـ سوف نسعى فى سبيل أن تكون لنا قوة إصدار قوانيننا وإدارة إنتاجنا وحُكم أنفسنا غير معترفين بحقوق دون الواجبات أو بواجبات دون الحقوق. ومن أجل دعم هذا الإعلان، فإننا نتعهد جميعًا، وبفضل الاعتماد الكامل على دعم وتعاون كافة العمال، بأن نحمى حياة بعضنا البعض ووسائل إنتاج بعضنا البعض وشرف بعضنا البعض.

وفى عام ١٨٧٧، كانت البلاد فريسة للكساد الاقتصادى، ومرض الأطفال بأعداد كبيرة فى ذلك الصيف، ولاسيما أولئك الذين يعيش ذووهم الفقراء فى المدن الحارة، حيث كانوا يسكنون غرفًا تشبه الزنزانات ويشربون ماءً ملوثًا، حتى أن النيويورك

تايمز كتبت تقول: "... وقد بدأ بالفعل سماع أنين الأطفال المحتضرين. وقياساً إلى ما حدث فى الماضى، سوف يكون هناك فى القريب ألف رضيع يموتون كل إسبوع فى المدينة." وقد شهد الأسبوع الأول من يوليو ذلك الصيف وفاة ١٣٩ رضيعًا فى بالتيمور حيث طفحت مياه الصرف وغمرت الشوارع.

شهد العام نفسه سلسلة من الإضرابات قام بها عمال شركات مد السكك الحديدية فى أكثر من عشر مدن، الأمر الذى هز الأمة كما لم تهزها أزمة عمالية على مدار تاريخها. بدأت الإضرابات بعد عدة تخفيضات فى أجور العمال فى أوقات عصيبة لم يكونوا يتقاضون فيها أجوراً عالية (كان عامل الفرامل مثلاً يتقاضى أجراً يومياً مقداره دولاراً وخمسة وسبعين سنتاً مقابل ١٢ ساعة من العمل). وفى الوقت الذى كانت تحقق فيه الشركات أرباحًا عالية، كان العمال يعملون فى ظروف صعبة وغير آمنة الأمر الذى تسبب فى وفاة البعض وإصابة آخرين إصابات بالغة من قبيل فقد اليد أو القدم أو الأصابع أو الوقوع تحت عجلات العربات.

وفى محطة بالتيمور وأوهايو بمنطقة مارتينزبيرج بغرب فرجينيا، قام العمال، الذين صمموا على محاربة خفض الأجور، بإضراب وأوقفوا الماكينات وأعلنوا عدم مغادرة أى قطارات لمارتينزبيرج إلا بعد إلغاء العشرة بالمائة التى أخذت من أجورهم. وتجمع معهم حشد كبير لمناصرتهم حتى أن قوات الشرطة فشلت فى تفريقهم، فما كان من مسئولى الشركة الا أن طلبوا من الحاكم الحماية العسكرية، فقام الحاكم من فوره بإرسال قوة عسكرية وحاول قطار مغادرة المحطة فى حماية القوة العسكرية، فحاول أحد المضربين أن يوقفه فتبادل إطلاق النار مع أحد أفراد القوة العسكرية، فأصيب فى فخذه وذراعه التى بُترت فى وقت لاحق من اليوم نفسه وبعد تسعة أيام مات.

وتراكمت قطارات الشحن فى مارتنزبيرج حتى بلغ عددهم ستمائة، الأمر الذى دفع حاكم غرب فرجينيا بالتقدم إلى الرئيس الأمريكى المنتخب حديثًا روثر فورد هايز يطلب منه الموافقة على إرسال قوات فيدرالية بعد أن أبلغه أن قوات الولاية غير كافية.

وحقيقة الأمر أن المشكلة كانت تتمثل فى أنه لا يمكن الاعتماد على القوة العسكرية لأنها كانت تتشكل من الكثيرين من عمال السكك الحديدية. وكان ذلك أحد نتائج اشتباك الجيش الأمريكى فى حروبه ضد الهنود فى غرب البلاد. ولما كان الكونجرس لم يخصص بعد ميزانية للجيش، فقد عرض أصحاب البنوك من أمثال جى. بى. مورجان وأوجست بيلمونت وآخرين إقراض الحكومة بعض الأموال لدفع رواتب الضباط (وليس المجندين). وبعد وقت قصير، وصلت القوات الفيدرالية وبدأت قطارات الشحن فى مغادرة المحطة.

وفى بالتيمور أحاط حشد من آلاف المتعاطفين مع المضربين من العمال بمخزن السلاح الخاص بالحرس الوطنى والذى كان الحاكم قد استدعى أفراده بناءً على طلب أصحاب شركة بالتيمور وأوهايو للسكك الحديدية. وقام الحشد برشق الحرس الوطنى بالحجارة، فخرج الجنود يطلقون أعيرتهم النارية، وباتت الشوارع مسرحًا لمعركة دموية. ولما حل الصباح، انتشرت الأخبار بوفاة عشرة من الرجال والأولاد وإصابة كثيرين آخرين إصابات بالغة، بينما جُرح جندىُ واحد. ورحل نصف عدد قوات الحرس الوطنى البالغة ١٢٠ جنديًا، واتجه النصف الآخر إلى محطة القطارات حيث قام حشد يتألف من مائتى فرد بتحطيم محرك قطار للمسافرين وكسَّروا القضبان واشتبكوا مرة أخرى مع أفراد القوة العسكرية فى معركة جديدة.

فى ذلك الوقت كان خمسة عشر ألفًا من الناس يحيطون بمحطة القطارات وبعد قليل أضرموا النار فى رصيف المحطة وثلاثة قاطرات للمسافرين، وطلب الحاكم إمداده بقوات فيدرالية واستجاب له الرئيس هايز. ووصل خمسمائة جندى وعمَّ بالتيمور الهدوء. كان خبر إضراب عمال السكك الحديدية وتمردهم قد انتشر، وكتب جوزيف داكوس الذى كان رئيسًا لتحرير "سانت لويز ريببليكان":

> **كانت الإضرابات تحدث فى كل ساعة تقريبًا، وأصبحت ولاية بنسلفانيا فى ذعر شديد، وأصيبت نيو جيرسى بخوف**

مقيم، بينما كانت نيويورك تحشد جيشًا مُسلحًا، واهتزت أوهايو من ليك إيرى إلى نهر أوهايو. أما إنديانا فكانت خائفةً تترقب ما تأتى به الأحداث، بينما كانت إلينوى على حافة الفوضى ولاسيما فى شيكاغو. كانت سانت لويز قد شعرت لتوها بتأثير حركات التمرد والغضب قبل قيامها... .

وانتقل الإضراب إلى شركات السكك الحديدية فى بيتسبيرج وبنسلفانيا، ومرة ثانية حدث ذلك خارج إطار الاتحاد أو النقابة، وخرج الإضراب على هيئة غضب منفجر ودون خطة مسبقة. وفى كتابه: **عام العنف** (١٨٧٧) يتناول روبرت بروس، مؤرخ إضرابات عام ١٨٧٧، ما قام به عامل إشارة يُدعى جاص هاريس، حيث رفض العمل على قطار يجر عربات أكثر من العدد المتعارف عليه، وهو الأمر الذى كان قد اعترض عليه العمال من قبل لأن ذلك كان يتطلب عدداً أقل من العمال يزيد من خطورة عمل رجال الفرامل. يقول بروس:

كان القرار قراره وحده وليس جزءًا من خطة منظمة أو إطار عام. هل قضى الليلة الماضية منصتًا إلى صوت المطر أو سائلاً نفسه عما إذا كان من معه من العمال سينضمون إليه إذا تجرأ ورفض العمل، أم أنه قضى تلك الليلة يقارن ويفاضل بين فرص العمل؟ أم تُراه قام من نومه فى بساطة إلى فطور غير مشبع ونظر إلى أطفاله فى ثيابهم الرثة وهيئتهم المزرية ومعداتهم شبه الخاوية، وخرج يفكر عبر صباح معتم، ثم أسلم نفسه إلى غضب طال كتمانه؟

وعندما قال هاريس إنه لن يباشر عمله هذا، رفض بقية الطاقم أن يباشروا عملهم أيضًا. وزادت الإضرابات وانضم إليها شبان ورجال من عمال المصانع (يذكر أن بيتسبيرج كان بها ٣٢ مصنعًا للحديد و٧٣ مصنعًا للزجاج و٢٩ مصنعًا لتكرير

الزيت و١٥٨ منجمًا للفحم). وتوقفت قطارات الشحن عن مغادرة المدينة لعدم وجود عمال. لم يقم اتحاد عمال السكك الحديدية بتنظيم ما حدث، لكنه تحرك كي يُمسك بزمام الأمر، فنادى بعقد اجتماع ودعى "العمال جميعًا إلى مشاركة إخوانهم عمال السكك الحديدية فى قضيتهم."

وقرر المسئولون المحليون وأصحاب شركات السكك الحديدية المطالبة بإرسال قوات عسكرية من فلادلفيا لأن أفراد القوة العسكرية الخاصة بمدينة بيتسبيرج لن يطلقوا الرصاص على أبناء مدينتهم. فى ذلك الوقت، كان هناك ألفا عربة قطار تقف عاطلة فى بيتسبيرج. فلما وصلت قوات فلادلفيا وبدأت فى خطوات محاولة عودة تسيير القطارات، تطايرت الحجارة فى الهواء من جديد، وتبادل حشد المضربين والمتظاهرين إطلاق النار مع القوات العسكرية، وقُتل عشرة أشخاص على الأقل، كلهم من العمال ومعظمهم لا يعملون بشركات السكك الحديدية.

عند ذلك الحد هبَّت المدينة فى غضب شديد، وأحاط حشدٌ بالقوات العسكرية التى بدأت تدخل إلى المبنى الخلفى للمحطة، ولم تلبث النار أن اشتعلت فى عربات القطارات حتى انتهت بالمبنى الخلفى نفسه، فبدأت القوات فى الخروج من ذلك المبنى طلبًا للنجاة. ثم لحقت النار بمستودع المحطة وزاد إطلاق النار، وقام الآلاف بنهب عربات الشحن التى كانت تقف بالمحطة، وارتفعت ألسنة اللهب من إحدى رافعات الغلال ومن جزء صغير من المدينة. وفى خلال أيام قليلة، قُتل أربعة وعشرون شخصًا، بينهم أربعة جنود، وأتت النار على تسعة وسبعين مبنىً، لاح فى بيتسبيرج شئ يشبه الإضراب العام نظمَّه عمال الطواحين والمناجم والعاملون فى مصنع كارينجى للحديد الصلب.

واستُدعى الحرس الوطنى الخاص ببنسلفانيا بكامل عدده البالغ تسعة آلاف فرد، غير أن كثيرًا منهم لم يتمكن من الحركة لأن المتظاهرين بالمدن الأخرى كانوا يقومون بإغلاق الطرق. وفى لبنان ببنسلفانيا، سيطر الغضب على إحدى فرق الحرس

الوطنى وقامت بمسيرة فى شوارع المدينة الغاضبة. وفى ألتونا أحاط المتظاهرون بقوات الحرس الوطنى وقاموا بتعبئتهم، فما كان منهم إلا أن استسلموا وألقوا بالسلاح وانضموا إلى حشد المتظاهرين ثم سُمح لهم بالعودة إلى منازلهم بصحبة فرقة غنائية من السود.

وفى هاريسبيرج، عاصمة الولاية، وكذلك فى أماكن أخرى كثيرة، كان المراهقون يشكلون جزءًا كبيرًا من حشد المتظاهرين، وكان بينهم بعض الزنوج. فى طريقهم إلى منازلهم، قامت القوات العسكرية الخاصة بفلادلفيا بمصافحة المتظاهرين، وألقوا بأسلحتهم وساروا كالأسرى فى الشوارع، وقام أحد الفنادق بتقديم الطعام لهم قبل عودتهم إلى المنازل. وافق حشد المتظاهرين على اقتراح العمدة بتسليم الأسلحة للمدينة. وتوقفت المصانع والمحلات عن العمل، لكن النظام عاد إلى المدينة مع قدوم الليل. أما فى الأماكن التى لم يتمكن المتظاهرون من السيطرة عليها، كان السبب هو عدم اتحاد المتظاهرين أنفسهم، وقد كتب المتحدث باسم شركة فلادلفيا للحديد والفحم قائلاً: "ليس للمتظاهرين منظمة ينتمون إليها، كما أن الغيرة العرقية تنتشر بينهم إلى درجة يصعب معها تشكيل تنظيم واحد." أما فى ريدنج ببنسلفانيا، فلم تكن هناك مشكلة التنظيم هذه، حيث كان ٩٠٪ من العمال من مواليد المدينة والنسبة الباقية من العمال الألمان. كانت أجور العمال متأخرة مدة شهرين، وتشكّل فرع لاتحاد العاملين بشركات السكك الحديدية، فما لبث أن تجمَّع ألفان من العمال، بينما قام آخرون بتسويد وجوههم بالفحم وخرجوا فى مظاهرة قاموا خلالها بإخراج القاطرات عن قضبانها الحديدية وأشعلوا النار فى أحد الكبارى الحديدية.

وصلت على الفور فرقة من الحرس الوطنى، وبدأ المتظاهرون فى إلقاء الحجارة على قوات الحرس وأطلقوا النيران فى الهواء، غير أن الجنود صوَّبوا نيرانهم إلى المتظاهرين. كتب بروس: "سقط ستة متظاهرين قتلى برصاص الجنود، أحدهم رجل إطفاء حرائق وآخر مهندس كان يعمل قبل ذلك فى شركة ريدنج، فضلاً عن نجار وبائع جوَّال وعامل طواحين وحمَّال... بينما كان رجل شرطة وشخص آخر

يحتضران." مات خمسة من بين المصابين، وزاد غضب المتظاهرين وصاروا أكثر خطرًا. أعلنت فرقة من الجنود أنها لن تقوم بإطلاق النار، وقال أحد الجنود إنه يود لو يصوب طلقة على رأس رئيس شركة فلادلفيا وريدنج للفحم والحديد. كما ألقت الكتيبة ١٦ من متطوعى موريس تاون أسلحتها، وقامت بعض القوات العسكرية بإلقاء السلاح وسلموا ذخيرتهم إلى المتظاهرين. وبعد قليل، وصلت القوات الفيدرالية وتولت زمام الأمور وبدأ رجال الشرطة فى إلقاء القبض على المتظاهرين.

وفى الوقت نفسه، أنكر قادة المنظمات الكبرى، المُشكَّلة فى شركات السكك الحديدية، الإضراب، وكذلك رابطة المهندسين ورجال الإطفاء. وكان هناك حديثٌ فى الصحافة عن "مدى الاحتفاء... من قِبل عمال المناجم والمصانع وشركات السكك الحديدية... ببعض الأفكار الشيوعية."

كان ثمة حزب نشيط للعمال فى شيكاغو له من الأعضاء عدةُ آلاف معظمهم مهاجرون من ألمانيا وبوهيميا. كان هذا الحزب على اتصال بالمؤتمر الدولى الأول فى أوروبا، وقد دعا، فى أثناء الإضرابات من ذلك الصيف ١٨٧٧، إلى مسيرة، جاء إليها ستة آلاف طالبوا بتأميم شركات السكك الحديدية. وألقى ألبرت بارسونز خطابًا حماسيًا. كان بارسونز من آلاباما وحارب فى صفوف الاتحاد الكونفدرالى إبان الحرب الأهلية، كما أنه كان متزوجًا من امرأة سمراء تجمع بين الدماء الهندية والإسبانية. ورغم أنه كان مصلحًا للآلات الكاتبة، فقد كان واحدًا من أفضل خطباء الحزب حديثًا باللغة الإنجليزية.

وفى اليوم التالى، بدأ جمعٌ من الشباب، لا تربطهم علاقة خاصة بالمسيرة التى تحركت المساء السابق، فى التجوال داخل أفنية شركات السكك الحديدية وأغلقوا الأبواب على البضائع المزمع شحنها، ثم ذهبوا إلى المصانع ودعوا عمال المخازن وطاقم عمال السفن فى ليك ميتشجان ومصانع الآجر إلى التوقف عن العمل. فى اليوم نفسه، فُصل ألبرت بارسونز من عمله بجريدة شيكاغو تايمز وأُضيف اسمه إلى القائمة السوداء. وقام البوليس بالهجوم على أفراد الجمع الحاشد، ونشرت الصحف:

"كان صوت الهراوات على رؤوس الناس موجعًا ثم ما لبثوا أن اعتادوا عليه. لقد بدا أن متظاهرًا كان يسقط بعد ضربة كل هراوة، لأن الأرض كانت مليئة بالمتظاهرين..." ثم وصلت فرقتا مشاه وانضمتا إلى قوات الحرس الوطنى ومحاربى الحرب الأهلية القدماء. فهاجم الحشد مرة أخرى، فأطلق البوليس الرصاص، فقتل ثلاثة من أفراد الحشد. غير أن اليوم التالى كان يحمل مفاجأة، حيث ظهر حشد مُسلح من المتظاهرين يبلغ عدده خمسة آلاف. فأخذ أفراد البوليس فى إطلاق الرصاص مرة بعد مرة، وبعد أن انتهى الاشتباك وأُحصى القتلى، كانوا - كالعادة - من العمال والشباب، وكانت جماجم ثمانية عشرة منهم قد سحقتها الهراوات واهترأت أعضاؤهم تحت طلقات الرصاص.

وكانت المدينة الوحيدة التى قاد فيها حزب العمال حركة التمرد بشكل واضح هى مدينة سان لويز التى كانت معروفة بأنها مدينة الطواحين ومصانع الجعة والمسابك وإنشاء المنازل ومحلات بيع الآلات وشركات السكك الحديدية. وقد شهدت المدينة، كما شهد غيرها، تخفيضات كبيرة فى الأجور. وكان بالمدينة حوالى ألف عضو فى حزب العمال. وكان معروفًا أن الحزب يتكون من أربعة أقسام، حسب الجنسية، حيث كان هناك القسم الألمانى، والقسم الإنجليزى، والقسم الفرنسى، والقسم البوهيمى.

عبرت الأقسام الأربعة لحزب العمال نهر الميسيسيبى للانضمام إلى اجتماع جماهيرى حاشد لعمال السكك الحديدية فى شرق سان لويز، وقام واحدُ منهم موجهًا خطابه للجماهير قائلاً: "أيها السادة الكرام، لأنكم تملكون قوة عددية كبيرة، فإن ما عليكم فعله هو أن تتحدوا حول فكرة واحدة وهى أن العمال هم الذين سيحكمون البلاد، إنما يملك الإنسان ما تصنعه يداه، ولقد صنع العمال هذه البلاد." ثم أعلن عمال السكك الحديدية فى شرق سان لويز إضرابهم، وكان عمدة المدينة مهاجرًا أوروبيًا، وكان ثوريًا فى شبابه ومن ثم كانت أصوات رجال السكك الحديدية الانتخابية تهيمن على المدينة.

أما فى مدينة سان لويز نفسها، فقد دعا حزب العمال إلى اجتماع جماهيرى مفتوح حضره خمسة آلاف من الحضور. وكان واضحًا أن الحزب هو الذى كان

وراء قيادة الإضراب. وأصبح المتحدثون أكثر ثورية نتيجة الحضور الحاشد، وكان من بين كلماتهم: "... لقد حوَّل رأس المال الحرية إلى عبودية، ولا نملك إلا أن نحارب ذلك أو أن نموت." كما أن المتحدثين نادوا بتأميم شركات السكك الحديدية وكافة الصناعات.

وفى اجتماع كبير آخر، وقف رجل أسود مدافعًا عن الذين يعملون على البواخر وحمَّالى الموانئ. تساءل: "هل ستساندوننا بغض النظر عن لوننا؟" فصاح الحشد: "سوف نفعل!" فتشكَّلت لجنة تنفيذية ودعت إلى إضراب عام فى سان لويز. وعمَّت المنشورات الداعية إلى الإضراب العام المدينة. ثم قامت مسيرة من أربعمائة زنجى من عمال البواخر والموانئ وستمائة من عمال المصانع يحملون لافتات: "لا للاحتكار - من أجل حقوق العمال." وسار موكب عظيم فى شوارع المدينة وانتهى بمسيرة قوامها عشرة آلاف يستمعون إلى خطباء شيوعيين. كان من بين ما قاله الخطباء: "تعلن جماهير العمال فى ثورتها أنها لن تستسلم لقهرها تحت وطأة رأس المال."

فى كتابه عن أحداث سان لويز، وتحت عنوان **حكم الغوغاء Reign of the Rabble**، يقول ديفيد بوربانك:

> **لم يمتد الإضراب العام بصورة منتظمة ومُنسَّقة حتى صار إضرابًا عامًا بمعنى الكلمة وأوقف العمل فى كافة الميادين الصناعية سوى فى سان لويز. هناك فقط صارت القيادة، بشكل حاسم، للاشتراكيين... . لم تقترب مدينة أمريكية من أن يحكمها عمالٌ كما حدث فى سان لويز، ميزورى فى عام ١٨٧٧ .**

كانت أخبار إضرابات عمال السكك الحديدية تصل إلى أوروبا، وكتب ماركس إلى إنجلز: "كيف ترى حركة العمال فى الولايات المتحدة؟ إن هذا الانفجار الأول ضد هيمنة رأس المال، والذى وقع منذ الحرب الأهلية، سوف يتعرض بالطبع لقمع الحكومة. غير أنه، فى الوقت نفسه، من الممكن أن يُشكِّل أساسًا قويًا لحزب عمال حقيقى... ."

وفى نيويورك، اجتمع عدة آلاف فى ميدان تومكينز، غير أن نبرة الاجتماع كانت معتدلة وتدور حول "ثورة سياسية من خلال صناديق الانتخاب" وكلمات من قبيل: "بإمكاننا أن نقيم هنا جمهورية اشتراكية فى خلال خمسة أعوام إذا اتحدتم جميعًا، ثم يُشرق صباحُ جميلُ على هذه الأرض المظلمة." لقد كان اجتماعًا سلميًا ما لبث أن انفّض. وكانت آخر كلمات جاءت من المنصة: "مهما حُرمنا من الحقوق، فإن لدينا حرية حق التعبير، ولن يستطيع أحدُ أن يصادرها منا." بعدها تدخل البوليس وهراواته.

لم تستمر القوة الدافعة، فى سان لويز كما فى غيرها من المدن، للحشود والاجتماعات والحماس، ولم تكد تضعف حتى سيطرت السلطات على الموقف من جديد، وما لبثت قوات البوليس، وبمساعدة الفرق العسكرية والقوات الفيدرالية، أن أغارت على مبنى حزب العمال وألقت القبض على سبعين شخصًا. واقتيدت اللجنة التنفيذية التى كانت تكاد تكون هى المسئولة عن حكم المدينة إلى السجن. واستسلم المضربون، وبقيت الأجور منخفضة كما كانت قبل الإضراب العام، وفصلت شركة بيرلنجتون للسكك الحديدية ١٣١ من قادة الإضراب.

وعندما انتهت إضرابات عام ١٨٧٧ بموت مائة فرد وسَجن ألفٍ آخرين، قام مائة ألف عامل بإضراب جديد وأثارت الإضرابات ما لا يُحصى عدده من العاطلين فى المدن الأخرى. فاضطرت شركات السكك الحديدية، بعد أن تعطلت نصف طاقتها، إلى تقديم بعض التنازلات تمثلت فى سحب قرارها بتخفيض الأجور، غير أنها عززت من قوة "بوليس الفحم والحديد". وفى عدد من المدن الكبرى، بُنيت بعض القواعد الخاصة بالحرس الوطنى زوِّدت بفتحات سرية لإطلاق الرصاص منها عند الحاجة. ويرى روبرت بروس أن الإضرابات علّمت كثيرين من الناس دروسًا لا تُنسى، كما أنها أدت إلى إجراء بعض التعديلات فى عمل شركات السكك الحديدية. وربما عززت الإضرابات من روح الاتحاد التى سادت "اتحاد العمل الأمريكى" والروح الوطنية العمالية لدى "فرسان العمل" و "أحزاب الفلاحين المستقلة" فى العقدين التاليين.

في ذلك العام (١٨٧٧)، تعلَّم السود درسًا مهمًا وهو أنهم لم يملكوا ما يكفى من القوة كى يحققوا الوعد بالمساواة، وهو الوعد الذى قُدِّم إليهم أثناء الحرب الأهلية. كما تعلَّم العمال درسًا مفاده أنهم لم يكونوا على اتحادٍ كافٍ ولم يملكوا ما يكفى من القوة كى يهزموا تحالف رأس المال وقوة الحكومة. غير أن الأيام كانت لا تزال حبلى بالكثير من الأحداث.

الفصل الحادى عشر

لصوص وثوار

فى عام ١٨٧٧ ظهرت إشارات تدل على كيفية مسار السنوات الباقية من ذلك القرن، إذ سيزيد تراجع السود إلى الوراء، وستواجه إضرابات العمال البيض بحسم أشد. أما النخب السياسية والصناعية فسوف تُحكِم قبضتها على البلاد شمالها وجنوبها وستقوم بتأسيس أضخم مسيرة للنمو الاقتصادى فى تاريخ الجنس البشرى. وقد قامت هذه المسيرة على أكتاف، وعلى حساب، الأيدى العاملة من السود والبيض والنساء والصينيين والأوربيين المهاجرين وقد تمت مكافأة كلٍ من هؤلاء على نحو مختلف حسب الجنس والعِرق والأصل القومى والطبقة الاجتماعية الأمر الذى ضمن خلق مستويات مختلفة من القهر والظلم، وتلك طريقة ماهرة تضمن استقرار هرم الثروة.

فى الفترة ما بين الحرب الأهلية وعام ١٩٠٠، حلَّ البخار والكهرباء محل الجهد البشرى، وحلَّ الحديد محل الخشب، ثم حل الصُلب محل الحديد. وصارت الآن الماكينات تدير الأدوات والوسائل الصُلبة، وصار الزيت يُشحِّم الماكينات وينير البيوت والشوارع والمصانع. وبات بمقدور الناس والبضائع أن ينتقلوا من مكان لآخر عن طريق السكك الحديدية، حيث امتدت هذه الخطوط لمسافة ١٩٣,٠٠٠ ميلاً بحلول عام ١٩٠٠ وساعد اختراع التليفون والآلة الكاتبة والآلة الحاسبة على سرعة إنجاز العمل.

وفى مجال الزراعة، غيرت الماكينات نظام فلاحة الأرض. فقبل الحرب الأهلية كان الآكر الواحد من القمح يحتاج إلى أكثر من ستين ساعة من العمل. أما فى عام ١٩٠٠ لم تكن نفس المساحة تحتاج لأكثر من ثلاث ساعات وتسع عشرة دقيقة. وساعد الثلج المُصنَّع على نقل الطعام محفوظًا لمسافات بعيدة الأمر الذى أدى إلى ميلاد صناعة حفظ وتعبئة اللحوم.

وكان هناك البخار لإدارة ماكينات النسيج وماكينات الخياطة. وكان البخار يُستخرج من الفحم وصارت هناك حفارات أكبر للحفر أعمق بحثًا عن الفحم. وفى عام ١٨٦٠ كانت تستخرج كمية ١٤ مليون طن من الفحم، بلغت فى عام ١٨٨٤ مائة مليون طن. وكان المزيد من الفحم يعنى المزيد من الصُلب لأن أفران الفحم كانت تحِّول الحديد إلى صُلب. فى عام ١٨٨٠ كان إنتاج الصلب مليون طن بلغ فى عام ١٩١٠ خمسة وعشرين مليونًا. فى ذلك الوقت، كانت الكهرباء فى طريقها لتحل محل البخار. وكانت الأسلاك الكهربائية تحتاج إلى النحاس. وكان إنتاج النحاس فى عام ١٨٨٠ ثلاثين ألف طن بلغ نصف مليون طن فى عام ١٩١٠ .

وكان إنجاز ذلك كله يحتاج إلى مخترعين فى مجالات مختلفة ومنظمين أذكياء ومديرين أكفاء لإدارة الكيانات الاقتصادية الجديدة. كان لابد أن يكون وراء ذلك العمل الخطير بل والمهلك فى بعض الأحيان بلدُ غنى بالأرض والموارد ورصيد كبير من الإمداد البشرى للاضطلاع بتلك المهمة. قد أدى هذا الأمر إلى قدوم مهاجرين من أوروبا والصين. واضطر الفلاحون غير القادرين على شراء الماكينات الجديدة أو دفع رسوم السكك الحديدية الجديدة للانتقال إلى المدن. وقد شهدت هذه الفترة هجرة داخلية وخارجية ضخمة، إذ صار يسكن نيويورك أربعة ملايين نسمة فى عام ١٩١٤ بعد أن كان عدد سكانها ٨٥٠ ألفًا وبلغ عدد سكان شيكاغو مليونين بعد أن كان ١١٠ ألفًا وصار يسكن فلادلفيا مليون ونصف المليون بعد أن كان يسكنها ٦٥٠ ألفًا.

وفى بعض الأحيان، كان المخترع نفسه هو الذى يدير الأعمال كما كان الحال مع توماس إديسون صاحب الاختراعات الكهربائية. وفى حالات أخرى كان رجال الأعمال يقومون بجمع اختراعات المخترعين كما كان الحال مع جوستافوس سويفت - جزار شيكاغو الذى حوَّل إحدى عربات القطار إلى مخزن مثلج وقام بتأسيس أول شركة وطنية لحفظ وتعبئة اللحوم فى البلاد عام ١٨٨٥, واستخدم جيمس ديوك ماكينة جديدة للف السجائر كان باستطاعتها أن تلف السجائر وتقطعها، وبلغ إنتاج هذه الماكينة مائة ألف سيجارة فى اليوم عام ١٨٩٠، وقام ديوك بجمع أكبر أربعة منتجين للسجائر كى يكوِّن شركة التبغ الأمريكية The American Tobaco Company.

وبينما بدأ بعض أصحاب الملايين فقراء، فإن غالبية المليونيرات لم تكن كذلك حيث أوضحت دراسة عن أصول أصحاب ٣٠٢ شركة سكك حديدية ومصانع نسيج أن تسعين بالمائة من أصحابها قد جاءوا من الطبقة المتوسطة أو المتوسطة العليا. ولم تكن قصص هوراشيو ألجر Horatio Alger عن "البداية من الصفر" صادقة إلا فى حالات قليلة. ولم تكن كذلك سوى أسطورة مفيدة فى إحكام السيطرة. وقد تم تحقيق معظم الثروات بطريقة قانونية عن طريق التعاون بين الحكومة والمحاكم وهو تعاون كان يتم فى بعض الأحوال فى مقابل مادى. فقد وعد توماس إديسون ساسة نيو جيرسى بأن يدفع لكل منهم ألف دولار فى مقابل السعى لإصدار تشريع تستفيد منه أعماله، كما أنفق دانيل درو وجاى جولد مليونًا من الدولارات لرشوة مُشرِّعى نيويورك من أجل إصدار تشريع لا يجرِّم قيامهم بإصدار ثمانية ملايين دولار فى شكل watered stock أى فى شكل رصيد لا يمثل قيمة حقيقية، وذلك فى شركات السكك الحديدية التى يمتلكانها.

وقامت أول شركة سكك حديدية عبر قارية على العَرَق والدم والسرقة والسياسة وذلك بعد التقاء شركتى يونيون باسيفيك وسينترال باسيفيك، حيث بدأت الثانية على الساحل الغربى متوجهة نحو الشرق وأنفقت ٢٠٠ ألف دولار فى واشنطن على

الرشاوى من أجل الحصول على تسعة ملايين آكر من الأراضى المجانية وأربعة وعشرين مليون دولار فى شكل سندات ودفعت ٧٩ مليونًا من الدولارات - بزيادة قدرها ٣٦ مليونًا - إلى شركة إنشاء كانت تملكها فى الأساس. وقام بالإنشاء ثلاثة آلاف عامل أيرلندى وعشرة آلاف صينى على مدار أربعة سنوات مقابل دولار أو دولارين للعامل فى اليوم.

أما شركة يونيون باسيفيك، فقد بدأت فى نبراسكا واتجهت غربًا وحصلت على ١٢ مليون آكر من الأراضى المجانية و٢٧ مليون دولار فى شكل سندات. وأنشأت الشركة شركة للإنشاء هى "كريديت موبايلر" وأعطتها ٩٤ مليون دولار من أجل عملية الإنشاء بينما التكلفة الحقيقية كانت ٤٤ مليونًا. وقد بيعت أسهم كثيرة بثمن بخس لأعضاء الكونجرس لتجنب أية تحقيقات وكان ذلك بناء على اقتراح عضو الكونجرس عن ولاية ماساتشوستس أوكس ايمز - وكان صاحب مصنع جواريف ومديرًا لكريديت موبايلر - إذ قال: "ليس هناك صعوبة فى الحصول على رجال يرعون ملكيتهم." وقد اعتمدت يونيون باسيفيك على تشغيل عشرين ألفًا من العمال - معظمهم من المحاربين القدماء والمهاجرين الأيرلنديين كانوا يقومون بتمهيد مسافة خمسة أميال كل يوم ومات منهم المئات تحت حرارة الشمس وفى قسوة البرد وفى المعارك مع الهنود الحمر الذين كان يقومون بغزو أراضيهم. وقد سلكت الشركتان الكبيرتان طرقًا أكثر طولاً وتعرجًا لكسب المزيد من دعم المدن والبلدان التى كانا يمران بها وفى عام ١٨٦٩ تقابلت الشركتان بخطوطهما الحديدية فى أوتاه وسط الموسيقى والاحتفالات. أدى الخداع الكبير فى مجال السكك الحديدية إلى سيطرة أكبر من قِبل أصحاب البنوك على الأموال الخاصة بهذا المجال حيث كان أصحاب البنوك يهدفون إلى تحقيق استقرار أكثر - أى ربحًا عن طريق القانون أكثر منه عن طريق السرقة. وبحلول تسعينيات القرن التاسع عشر، تركزت معظم أنشطة السكك الحديدية فى البلاد داخل ستة أنظمة كُبرى، يسيطر على أربعة منها على نحو شبه كلى بنك "هاوس أوف مورجان" ويهيمن على النظامين الباقيين كل من كوون ولويب وشركاهما.

وكان جى. بى. مورجان قد بدأ قبل الحرب الأهلية بوصفه ابنًا لأحد أصحاب البنوك وبدأ ببيع معدات السكك الحديدية مقابل عمولات مجزية. وأثناء الحرب اشترى خمسة آلاف بندقية من إحدى ترسانات الجيش مقابل ثلاثة دولارات ونصف للواحدة ثم باعها لأحد جنرالات الحرب مقابل ٢٢ دولارًا لكل بندقية. كانت البنادق فاسدة؛ أى تصيب أصابع الجنود. ورغم أن لجنة من رجال الكونجرس نوهت بذلك، فقد قام قاضٍ فيدرالى بتعليق القضية قائلاً إن الصفقة تمت وفقًا لعقد قانونى. وكان مورجان قد تفادى الخدمة العسكرية فى الحرب الأهلية ودفع ٣٠٠ دولارًا لبديل له وكذلك فعل جون دى. روكفيللر وآندرو كارنيجى وفيليب آرمور وجى جولد وجيمس ميلون. كان والد ميلون قد كتب إليه قائلاً: "بإمكان المرء أن يكون وطنيًا دون أن يخاطر بحياته أو يضحى بصحته. فهناك كثيرون حياتهم أقل قيمة للقيام بذلك." وكان مورجان وشركاء له قد حصلوا على عقد من الحكومة الأمريكية لطرح سندات قيمتها ٢٦٠ مليون دولار وكان بإمكان الحكومة أن تبيع السندات مباشرة لكنها اختارت أن تدفع لأصحاب البنوك عمولة قدرها خمسة ملايين دولار. وكما يكتب جوستافوس مايزر، فى الثانى من يناير ١٨٨٩:

> **... أصدرت البنوك الثلاثة (دريكسل - مورجان وشركاهما وإخوان براون وشركاؤهم وكيدر - بيبودى وشركاهما) نشرة كُتب عليها "خاصة وسرية" وكان ذلك الحرص الشديد دافعه ألا تعرف النشرة طريقها إلى الصحافة أو ما شابه ومن ثم يعرف بها الناس... ولكن لماذا كل هذا الخوف والحذر؟ لأن تلك النشرة كانت دعوة... إلى أقطاب السكك الحديدية الكبار للتجمع فى بيت مورجان الواقع فى ٢١٩ ماديسون أفينيو وذلك لتشكيل تجمع حديدى، على حد تعبير ذلك الوقت،... وهو تجمع يمنع المنافسة بين عدة أسماء من شركات السكك الحديدية ويوحد من المصالح فى اتفاق من شأنه أن يستنزف شعب الولايات المتحدة على نحو أكثر فاعلية من ذى قبل.**

كان هناك بالطبع ثمن بشرى لهذه البراعة المالية إذ أوضحت سجلات لجنة التجارة فيما بين الولايات أن ذلك العام (١٨٨٩) شهد مقتل وإصابة ٢٢ ألفًا من عمال السكك الحديدية. وفى عام ١٨٩٥ استُنزف رصيد الذهب للولايات المتحدة بينما يملك ستة وعشرون بنكًا فى نيويورك ١٢٩ مليون دولار ذهبًا فى سراديبها. وعرضت جماعة من أصحاب البنوك، يرأسها بنك مورجان وشركاه وأوجست بيلمونت وشركاه وبنك ناشيونال سيتى وآخرون، أن تقدم للحكومة ذهبًا فى مقابل سندات ووافق الرئيس الأمريكى جروفر كليفلاند. عندئذ قام أصحاب هذه البنوك بإعادة بيع السندات بأسعار أعلى محققين أرباحًا قدرها ١٨ مليون دولار الأمر الذى جعل أحد الصحفيين يقول: "إذا أراد رجل أن يشترى لحومًا، فإنه يذهب إلى الجزار... أما إذا أراد مستر كليفلاند مزيدًا من الذهب، فعليه أن يذهب إلى المصرفى الكبير." كان مورجان يلتزم التعقل وحسن الإدارة والتنظيم فى رحلة صناعة الثروة وقد حافظ على ذلك النظام على نحو مستقر وثابت وكان من أقواله: "لا نريد اضطرابات مالية بحيث تظهر لنا مشكلة ما يومًا ما ثم مشكلة أخرى فى يوم آخر"، فقد ربط خطوط السكك الحديدية بعضها ببعض ثم ربطهم جميعًا بالبنوك ثم ربط البنوك بشركات التأمين حتى استطاع، بحلول عام ١٩٠٠ أن يسيطر على ١٠٠ ألف ميلٍ من خطوط السكك الحديدية وهى مسافة تصل إلى نصف الخطوط بالولايات كلها. وكانت مجموعة مورجان تدير ثلاثة شركات للتأمين وكان رصيد أصول هذه الشركات بليون دولار وكان لديها خمسون مليون كل عام لاستثمارها وكانت هذه الملايين الخمسون تأتى من الناس العاديين لوثائق التأمين التى يوقعونها مع هذه الشركات. ويصف لويس برانديز **Louis Brandeis** هذا الأمر (قبل أن يصبح رئيسًا للمحكمة الدستورية العليا) فى كتابه **أموال الآخرين** **Other People's Money** بقوله: "إنهم يتحكمون فى الناس بأموال الناس أنفسهم."

أما جون دى. روكفيللر فقد بدأ كصاحب مكتبة ثم أصبح تاجرًا وتراكمت معه الأموال وقرر - فى مجال صناعة البترول - أن من يملك معامل تكرير البترول هو من

يستطيع السيطرة على هذه الصناعة. اشترى أول معمل تكرير عام ١٨٦٢ وبعد ثمانية أعوام أنشأ شركة "ستاندارد أويل كمبانى" وعقد اتفاقيات سرية مع شركات السكك الحديدية لتسويق البترول عن طريقهم لو منحوه تخفيضات خاصة ومن ثم استطاع أن يتخلص من منافسيه فى هذا المجال حتى أن أحد أصحاب معامل التكرير المستقلين قال: "إذا لم نقم بالبيع... فسوف نضيع... كان ثمة مشترٍ أوحد فى السوق وكان لابد أن نبيع وفقًا لشروط مَنْ يشترى." وبلغ الأمر حد أن قام مسئولو شركة ستاندارد أويل أن رتَّبوا مع كبير الفنيين فى معمل تكرير منافس ببافالو عملية تفجير للمعمل. وفى عام ١٨٩٩ صارت ستاندارد أويل شركة قابضة تسيطر على أرصدة شركات أخرى كثيرة وبلغ رأسمالها مائة وعشرة ملايين دولار وحققت أرباحًا مقدارها خمسة وأربعين مليونًا كل عام. أما ثروة جون دى. روكفيللر فى ذلك الوقت فقد قُدِّرت بمائتى مليون دولار وكان ذلك قبل تحوله إلى مجالات صناعة الحديد والنحاس والفحم والشحن والصرافة (بنك شيز مانهاتن) حيث ستصير الأرباح السنوية واحدًا وثمانين مليونًا من الدولارات وستبلغ ثروته بليونى دولار.

أما آندرو كارنيجى فكان موظفًا بمكتب تلغراف وهو فى السابعة عشرة. ثم أصبح سكرتيرًا لرئيس شركة بنسلفانيا للسكك الحديدية ثم سمسارًا فى وول ستريت يبيع سندات شركات السكك الحديدية مقابل عمولات كبيرة ولم يلبث أن أصبح مليونيرًا فى وقت قصير. سافر إلى لندن فى عام ١٨٧٢ وعلم بطريقة "بيسيمر" الجديدة لإنتاج الصلُب وعاد إلى الولايات المتحدة كى يُنشئ مصنعًا لإنتاج الصلب بتكلفة مليون دولار. أما المنافسة الخارجية فلم تكن قوية نتيجة التعريفة العالية التى أرساها الكونجرس وبحلول عام ١٨٨٠ كان كارنيجى ينتج مائة ألف طن من الصلُب شهريًا محققًا أرباحًا بلغت مليونًا ونصف المليون من الدولارات سنويًا ووصلت أرباحه بمجىء عام ١٩٠٠ إلى أربعين مليون دولار سنويًا وفى العام نفسه، وعلى حفلة عشاء، وافق على بيع شركة الصلب إلى مورجان وكان السعر كما كتبه بخط يده على ورقة هو ٤٩٢ مليون دولار.

وقام مورجان بعد ذلك بتأسيس شركة "يو إس ستيل كوربوريشان" جامعًا بين مؤسسة كارنيجى ومؤسسات أخرى حيث باع أرصدة وسندات تبلغ قيمتها ١٣٠٠ مليون دولار (أى بزيادة قدرها ٤٠٠ مليون دولار عن قيمة الشركات المندمجة) وحصل على أتعاب قدرها ١٥٠ مليونًا مقابل ترتيب الاندماج بين هذه الشركات. ولكن كيف كانت تُدفع أرباح لأصحاب كل هذه الأرصدة والأسهم؟ كان ذلك يتم عبر أكثر من طريق: الأول هو التأكد من أن الكونجرس يفرض تعريفة عالية للتخلص من المنافسة الأجنبية ثم ثانيًا الحفاظ على سعر ٢٨ دولارًا لطن الصُلب وثالثًا عن طريق تشغيل ٢٠٠ ألف عامل لمدة اثنى عشر ساعة يوميًا لقاء أجور لا تكاد تقيم أود أُسر هؤلاء العمال.

وهكذا سارت الأمور من صناعة لأخرى حيث يقوم عدد من رجال الأعمال القادرين ببناء إمبراطوريات واحتكار أعمال دون منافسة وبفرض أسعار عالية ودفع أجور منخفضة والاستعانة بدعم الحكومة. كانت هذه الأعمال والصناعات هى أول المستفيدين من "دولة الرخاء". وبنهاية القرن التاسع عشر، احتكرت شركة AT&T (American Telephone and Telegraph) نظام الاتصالات فى الأمة كلها وكذلك الحال فى شركة انترناشيونال هارفستر التى كانت تقوم بتصنيع ٨٥٪ من ماكينات الزراعة فى البلاد كلها. وهكذا سارت الأمور فى باقى الأعمال والصناعات حيث تركزت الموارد فى أيدى عدد قليل جدًا من رجال الأعمال. وكانت البنوك تستفيد من هذه الاحتكارات بهدف خلق شبكة تربط بين مديرى الشركات والمؤسسات الذين كانوا يديرون أكثر من مؤسسة وهيئة، فحسب تقرير أصدره مجلس الشيوخ فى بدايات القرن العشرين كان مورجان على رأس إدارة ثمانية وأربعين مؤسسة بينما كان روكفيلر يترأس سبعة وثلاثين.

وفى الوقت نفسه، كانت حكومة الولايات المتحدة تتصرف بطريقة ينطبق عليها ما قاله كارل ماركس عن الدولة الرأسمالية: أى تتظاهر بالحياد بهدف الحفاظ على النظام، لكنها فى واقع الأمر تخدم مصالح الأغنياء. وليس هذا معناه أن مصالح

الأغنيـاء كـانت واحـدة وأنه لم تـكن بينهــم خـلافات ونزاعـات. فـقـد كـانت هناك خـلافات بينهم بشـأن السـياسات المتبعة فى البلاد. ولكن هدف الدولة كان إنهاء هـذه الخـلافـات على نحـو سلـمى والسيـطرة على تمرد الطبـقـات الدنيـا وتبنى سـياسات من شـأنها ضمان استـقرار النـظام على المدى البعيد. وكان الترتيب الذى تم بين الديمقراطيين والجمهوريين بانتخـاب روثر فورد هايز فى ١٨٧٧ قد أرسى هذه النبرة وأسس لها بحيث لا تختلف السياسة الوطنية العامة سواء فاز أولئك أو هؤلاء.

وعندما تقدم الديمقراطى جروفر كليفلاند لانتخابات الرئاسة فى عام ١٨٨٤ كان الانطباع العام فى البلاد أنه مُعارض لسياسة الاحتكارات وأن الحزب الجمهورى، الذى تقدم عنه جيمس بلينْ فى الانتخابات، كان يدافع عن مصالح الأغنياء. غير أنه بعد هزيمة بلينْ، اتصل جى جولد بكليفلاند هاتفيًا وقال له: "أشعر... أن مصالح البلاد ستكون آمنة تمامًا بين يديك." وكان جولد على صواب.

كان وليم ويتنى من بين كبار مستشارى كليفلاند، وكان مليونيرًا ومحاميًا لإحدى المؤسسات كما كان على صلة وثيقة بشركة ستاندارد أويل حتى عيَّنه كليفلاند وزيرًا للبحرية. وقد انطلق ويتنى مباشرة نحو تأسيس شركة بحرية لتجارة الصُلب وكان يقوم بشراء الصلب من مصانع كارنيجى نظير تخفيضات عالية لم يكن يُعلن عنها. وكان كليفلاند قد أكد لأصحاب الصناعات والأعمال أن انتخابه لا يجب أن يخيفهم وطمأنهم على مصالحهم: "لن تُضار مصلحة أى عمل... طالما كنت رئيسًا للبلاد... إن انتقال السلطة التنفيذية من حزب إلى الآخر لا تعنى أى اضطراب أو قلق فى الأوضاع القائمة."

وكانت انتخابات الرئاسة نفسها قد تجنبت الخوض فى قضايا حقيقية؛ فلم يكن هناك فهمٌ واضح لمسألة المصالح وأيها سيعلو وأيها سينخفض إذا ما تبنَّت الحكومة سياسات معنية. لكنها سارت على الشكل المعتاد: حملات انتخابية لا توضح مدى التشابه الأساسى بين الأحزاب وتعتمد فى أساسها على الشخصيات وأخبار النميمة

والتفاهات. لقد كتب هنرى آدمز، وهو مُعلق أدبى بارع على ذلك العصر، إلى أحد أصدقائه عن الانتخابات يقول:

إننا هنا نشهد نظامًا سياسيًا يبعث على الضحك على نحو لا تستطيع الكلمات تصويره... فهناك قضايا عظيمة لكن الشيء الطريف أن أحدًا لا يتحدث عن المصالح الحقيقية وكأن الجميع قد وافق بالإجماع على عدم الاقتراب منها إننا نخشى مناقشتها. وبدلاً من ذلك تنشغل الصحافة بقضية مسلية تتناول قضية ما إذا كان مستر كليفلاند لديه طفل غير شرعى وما إذا كان لديه أكثر من عشيقة.

وفى عام ١٨٨٧ وفى ظل وجود فائض ضخم فى الخزانة، عارض كليفلاند تخصيص مائة ألف دولار كمساعدة لمزارعى تكساس لشراء بذور بعد أن تعرضوا لموجة جفاف. وقال الرئيس: "إن المساعدة الفيدرالية فى مثل هذه الحالات... من شأنها أن تغذى مبدأ الرعاية الأبوية لدى الحكومة وتُضعف من إصرار الشخصية القومية." غير أن كليفلاند، فى العام نفسه، استعان بفائض الذهب فى الميزانية كى يدفع لحائزى السندات الأغنياء ثمن هذه السندات بمعدل ٢٨ دولارًا فوق قيمتها الأصلية وهى مائة دولار ـ الأمر الذى كلف الحكومة ٤٥ مليون دولارًا.

إن الإصلاح الرئيسى لإدارة كليفلاند يفضح سر تشريع الإصلاح فى أمريكا. فقد كان من المفترض أن يقوم قانون التجارة فيما بين الولايات الصادر عام ١٨٨٧ أن ينظم شركات السكك الحديدية لصالح المستهلكين. لكن ريتشارد أولنى، محامى شركات السكك الحديدية فى بوسطن ومينْ وغيرهما والرجل الذى سيصبح بعد وقت قصير المدعى العام للرئيس الأمريكى، أخبر مسئولى شركات السكك الحديدية الذين اشتكوا من لجنة التجارة فيما بين الولايات بأنه لن يكون من الحكمة إلغاء اللجنة "بمبادرة من شركات السكك الحديدية نفسها." وشرح الأمر قائلاً:

إن وجود هذه اللجنة... فيه فائدة كبرى لشركات السكك الحديدية إذ إنها تُرضى الوجدان الشعبى بأن ثمة إشرافًا حكوميًا على الشركات فى الوقت الذى لا يكاد يكون فيه هذا الإشراف موجودًا. ولذلك فليس من الحكمة إلغاء اللجنة بل الإبقاء عليها واستثمار وجودها.

وقد قال الرئيس كليفلاند نفسه، فى خطاب الاتحاد عام ١٨٨٧، شيئًا مشابهًا وأضاف محذرًا: "أمامنا الآن فرصة لإجراء إصلاح آمن ودقيق ومحدد ولا يجب أن يكون أحدنا غير واعٍ بأن وقتًا قد يجئ يُصر فيه المظلومون... على تصحيح جذرى وشامل للأوضاع الخاطئة." أما الجمهورى بنيامين هاريسون الذى خلف كليفلاند كرئيس للولايات المتحدة فى الفترة من عام ١٨٨٩ إلى عام ١٨٩٣ فقد وصفه ماثيو جوزيف صن فى دراسته لسنوات ما بعد الحرب الأهلية وعنوانها **محترفو السياسة Politicos** قائلاً: "لقد خدم بنيامين هاريسون شركات السكك الحديدية على نحو استثنائى إذ ساعدها بمقدرة مزدوجة تجمع بين مقدرة المحامى ومقدرة الجندى معًا. فقد قام بمقاضاة المُضربين فى عام ١٨٧٧ فى المحاكم الفيدرالية... كما نظم وقاد مجموعة من الجنود أثناء الإضراب... ."

كما شهدت فترة تولى هاريسون للإدارة الأمريكية التفاتة نحو الإصلاح، فقد وُصف قانون شيرمان لمقاومة الاحتكار (١٨٩٠) بأنه "قانون يحمى التجارة من القيود غير القانونية" واعتبر تكوين "أى اندماج أو تآمر بين الشركات" قيدًا على التجارة الخارجية والتجارة فيما بين الولايات واعتبر ذلك أمرًا غير قانونى. وقد شرح السيناتور شيرمان، صاحب القانون، أهمية الحاجة إلى ترضية منتقدى الاحتكار بقوله: "لقد كان لديهم احتكارات قديمة ولكنها لم تكن على النحو الذى نشهده اليوم ولابد أن نخضع ولو قليلاً لمنطقهم وإلا فعلينا أن نستعد لاستقبال الاشتراكيين والشيوعيين والعدميين. إن المجتمع يضطرب الآن بقوى لم نشعر بها من قبل."

ولما أُعيد انتخاب كليفلاند رئيسًا للبلاد فى عام ١٨٩٢، تلقى آندرو كارنيجى، الذى كان فى أوروبا، خطابًا من مدير مصانعه لإنتاج الصلب هنرى كلاى فريك يقول فيه: "أشعر بالأسف من أجل الرئيس هاريسون ولكنى لا أرى أن مصالحنا سوف تتأثر على أى نحو من الأنحاء بسبب تغيير الإدارة." وقد لجأ كليفلاند إلى استخدام القوات العسكرية، فى مواجهة حالة الغضب التى عمت البلاد بسبب الكساد الذى ضرب البلاد عام ١٨٩٣، وذلك لكسر شوكة "جيش كوكسى" وهو اسم المظاهرة التى قام بها المتعطلون حتى وصلوا إلى واشنطن، وكذلك لإنهاء الإضراب الوطنى فى شركات السكك الحديدية فى العام التالى.

فى الوقت نفسه ، قدمت المحكمة الدستورية العليا نصيبها من الانحياز للصفوة الحاكمة على الرغم من أنها تتزيا الروب الأسود رمز العدالة. كيف يمكن لها أن تكون مستقلة وأعضاؤها يختارهم الرئيس الأمريكى بنفسه ويصدِّق مجلس الشيوخ على ذلك الاختيار؟ كيف تتصف بالحياد بين الأغنياء والفقراء بينما غالبية أعضائها محامون أثرياء سابقون وعادة ما ينتمون إلى الطبقات العليا؟ كيف يتأتى لها كل ذلك وهى التى أرست فى بدايات القرن التاسع عشر الأساس القانونى للاقتصاد القومى عن طريق فرض سيطرة فيدرالية على التجارة فيما بين الولايات كما أرست الأساس القانونى للرأسمالية بجعلها العقد شيئًا مقدسًا؟ لقد كان عليها هى الأخرى أن تؤدى دورها! ففى عام ١٨٩٥ قدمت المحكمة تفسيراً لقانون شيرمان على نحو يجعله غير ضار بالمصالح القائمة. قالت المحكمة إن احتكار تكرير السكر على سبيل المثال يعنى مسألة التصنيع وليس التجارة ومن ثم لا تخضع مسألة التجارة فى السكر لقانون شيرمان الذى أقره الكونجرس كما قالت المحكمة إن قانون شيرمان من الممكن أن يُطبَّق على الإضرابات فيما بين الولايات (إضراب السكك الحديدية عام ١٨٩٤) لأنها كانت "قيداً" على التجارة. علاوة على ذلك، فقد اعتبرت المحكمة محاولة الكونجرس فرض ضريبة أكبر على الدخول العليا مسألة غير دستورية. وفى سنوات تالية سوف ترفض المحكمة الدستورية إنهاء احتكارات شركتى ستاندارد أويل وأمريكان توباكو

وقالت إن قانون شيرمان يمنع الاحتكارات والاندماجات "غير المعقولة" بوصفها عائقًا للتجارة.

وفى عام ١٨٩٥ سخر مصرفى نيويوركى من المحكمة الدستورية العليا قائلاً: "أيها السادة! أقدم لكم المحكمة الدستورية العليا للولايات المتحدة - حارسة الدولار وحامية الملكية الخاصة... والملاذ الأخير للجمهورية."

وبعد وقت قصير من تحول التعديل الرابع عشر إلى قانون، بدأت المحكمة الدستورية فى هدمه بوصفه حماية للسود فى الولايات المتحدة وشرعت فى تطويره كى يصبح حاميًا للهيئات والمؤسسات الكبرى. ورغم ذلك فقد أقر قرار أصدرته المحكمة الدستورية فى عام ١٨٧٧ قوانين أصدرتها الولاية لتنظيم الأسعار التى على الفلاحين دفعها نظير استخدام مخازن الغلال. دفعت شركة المخازن بقولها إنها بمثابة شخص يتم حرمانه من ملكيته الأمر الذى يُعتبر انتهاكًا لنص التعديل الرابع عشر الذى يُحرِّم على أى ولاية أن تحرم أى شخصٍ من حياته أو حريته أو ملكيته دون أن يأخذ القانون مجراه. غير أن المحكمة الدستورية رفضت ذلك قائلة إن مخازن الغلال ليست مجرد ملكية خاصة ولكنها تمثل "مصلحة عامة" ومن ثم يمكن تنظيمها من قِبل الولاية.

وبعد عام واحد من هذا القرار، بدأت نقابة المحامين الأمريكية، وهى هيئة شكلها محامون معتادون على خدمة الأثرياء، حملة تعليمية كى تعكس قرار المحكمة فى الاتجاه الآخر. ومن بين ما قاله رؤساء النقابة: "لو أن الاحتكارات سلاح دفاعى للملكية الخاصة فى مواجهة التيار الشيوعى، فأهلاً بها" و"غالبًا ما يكون الاحتكار مزية وضرورة."

وبحلول عام ١٨٨٦ نجح المحامون فى سعيهم حيث أصدرت السلطات التشريعية بالولاية، تحت ضغط المزارعين الغاضبين، قوانين من شأنها تنظيم هذه المسألة. ولكن المحكمة الدستورية، فى العام نفسه، قالت إن الولايات ليس لها أن تفعل ذلك ، لأن ذلك

يعتبر تعدياً على السلطة الفيدرالية. وفى هذا العام وحده أسقطت المحكمة الدستورية ٢٣٠ قانوناً أصدرتها الولايات لتنظيم عمل الشركات والإشراف عليها.

فى ذلك الوقت، كانت المحكمة الدستورية قد قبلت القول بأن الشركات تعتبر "أشخاصاً" وأن أموالها تعتبر ملكية خاصة تنطبق عليها العبارة الواردة فى التعديل الرابع عشر والذى يضمن حمايتها. وهكذا فإن التعديل الرابع عشر الذى من المفترض أنه صدر لحماية حقوق الزنوج وقد تم تطويعه لخدمة مصالح الشركات؛ ففى الوقت الذى نظرت فيه المحكمة الدستورية فى ١٩ قضية من قضايا الزنوج فى الفترة من عام ١٨٩٠ إلى عام ١٩١٠، نظرت فى ٢٨٨ قضية من قضايا الشركات فى الفترة نفسها.

لم يكن قضاة المحكمة الدستورية العليا مجرد مفسرين للدستور ولكنهم كانوا رجالاً لهم خلفيات معينة ومصالح يخدمونها. كان أحدهم (القاضى صامويل ميلر) قد قال فى عام ١٨٧٥: "إنه لمن غير المجدى أن يتنافس المرءُ مع قضاة ظلوا مدافعين لمدة أربعين عاماً عن شركات السكك الحديدية وكل أشكال رأس المال المتحد...." وفى عام ١٨٩٣ قال قاضى المحكمة الدستورية ديفيد ج. بروير مخاطباً نقابة المحامين بنيويورك:

> **إنه القانون الذى لا يتغير: تتركز ثروة المجتمع فى أيدى القلة... والغالبية العظمى من الناس تعانى حرمانها الدائم. ذلك ما يجعل تراكم الأموال فى أيدى القلة أمراً ممكناً... ومن هنا، وحتى تتبدل الطبيعة البشرية، سوف يظل هذا القانون قائماً: قلة تحوز ثروة الأمة بينما تعيش الكثرة من أفرادها على كدها اليومى.**

لم يكن ذلك مجرد نزوة وقعت فى ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر دون غيرها، فالأمر قديم يرجع إلى الآباء المؤسسين الذين تعلموا قانونهم فى فترة تعليقات

بلاكستون Blackstone's Commentaries التى ورد بها: "يحتل قانون الملكية الخاصة مرتبة عليا حتى إنه لا يتهاون فى أدنى انتهاك له حتى لو كان هذا الانتهاك فى سبيل خير المجتمع كله."

يتطلب فرض النظام فى العصور الحديثة ما هو أكثر من القوة وما هو أكثر من القانون. إنه يحتاج إلى أن يتعلم المتكدسون فى المدن والمصانع ومَنْ يملكون أكثر من سبب للانتفاضة والثورة أن كل شئ على ما يُرام، وأنه لابد من قبول الأمور كما هى، ومن ثم قامت المدارس والكنائس وأدب الثقافة الشعبية بتكريس ذلك فى عقول الناس بحيث يتعلمون أن الثراء دليل على رُقى المرتبة، وأن الفقر ليس إلا فشلاً شخصيًا، وأن الطريق الأوحد للصعود أمام الشخص الفقير هو التسلق للوصول إلى مراتب الأثرياء وهو ما يحتاج إلى جهدٍ غير عادى وحظٍ استثنائى.

فى تلك السنوات التى أعقبت الحرب الأهلية، قام رجل يدعى راسل كونويل Russell Conwell وهو متخرج من جامعة ييل حيث درس القانون وكان راعيًا كنسيًا ومؤلفًا لكتب ذائعة الصيت ـ بإلقاء نفس المحاضرة وعنوانها "قراريط من الماس" أكثر من خمسة آلاف مرة لجموع مختلفة فى أرجاء البلاد؛ أى إنه وصل بكلامه لعدة ملايين من الناس. كان مضمون رسالته أن أى إنسان بمقدوره أن يصير غنيًا لو أنه حاول بإخلاص. وتلك بعض كلماته فى تلك المحاضرة:

> **إننى أرى أن عليكم أن تصيروا أغنياء، بل إنه من الواجب عليكم أن تكونوا كذلك ... . ربما كان أغنياء المجتمع هم أكثر الناس أمانة وإخلاصًا... . دعونى أعلن هنا بكل وضوح ... أن ثمانية وتسعين بالمائة من أغنياء أمريكا أُمناء. وهذا هو سبب ثرائهم وهو أيضًا السبب فى أنهم مؤتمنون على المال. ولذلك تراهم يُنشئون المؤسسات والشركات ويتدافع عليهم الكثير من الناس للعمل لديهم. إنما يعود ذلك إلى أمانتهم. ... إننى أتعاطف مع الفقراء غير أن عدد من يستحقون التعاطف من**

الفقراء قليلٌ جدًا. وإنه لمن الخطأ... أن نتعاطف مع إنسانٍ عاقبه الرب بالفقر نتيجة ارتكابه الخطايا... . ولنتذكر جميعًا أن الولايات المتحدة ليس بها فقيرٌ لا يعود فقره إلى عيوب فيه أو إلى تقاعسٍ منه.

وقام كونويل بتأسيس جامعة تيمبل وتبرع روكفيلر لبناء كليات كثيرة فى ولايات مختلفة كما ساهم فى تأسيس جامعة شيكاغو وقدَّم هانتجتون صاحب شركة سينترال باسيفيك عونًا ماديًا لكليتين من كليات الزنوج ولمعهدى هامبتون وتاسكيجى. وكذلك تبرع كارنيجى بأموال كثيرة للكليات والمكتبات. وأسس أحد التجار الأثرياء جامعة جونز هوبكنز. وقام مليونيرات مثل كورنيليوس فاندربلت وإزرا كورنيل وجيمس ديوك وليلاند ستانفورد بإنشاء جامعات تحمل أسماءهم.

لقد أصبح الأغنياء، عن طريق تبرعهم بجزء من ثرواتهم الكبيرة، معروفين بأنهم محسنون ومحبون لأفعال الخير. وبالطبع لم تكن هذه المؤسسات التعليمية تشجع على الغضب والتمرد فقد كانت تعلم المتوسطين فى النظام الأمريكى - أى المدرسين والأطباء والمحامين والمهندسين والساسة؛ أى أولئك الذين سيتلقون رواتب مقابل أن يحافظوا على استمرار النظام وأن يكونوا حوائط صد ضد الاضطرابات.

فى الوقت نفسه، ساعد انتشار تعليم المدارس العامة على التمكن من محو أمية جيل كامل من العمال الذين أصبحوا الطاقة الكبرى للعصر الصناعى. لقد كان من المهم أن يتعلم هؤلاء الناس أهمية إطاعة السُلطة وقد كتب أحد الصحفيين الذين كانوا يقومون بملاحظة التعليم داخل هذه المدارس فى تسعينيات القرن التاسع عشر: "إن الروح غير الودودة للمدرِّسة واضحة تمامًا، أما الدارسون فإنهم، فى خضوعهم الكامل لإرادة المدرِّسة، صامتون لا يحركون ساكنًا، أما الفصل الذى يدرسون فيه فإنه مظلم وبارد."

في عام ١٨٥٩ قام أمين الإدارة التعليمية في ماساتشوستس بالحديث عن رغبة أصحاب المصانع في مدينة لويل في تعليم عُمالهم. قال:

> **يهتم أصحاب المصانع، أكثر من غيرهم، بذكاء عُمالهم. ذلك أنه لو أصبح العمال حسني التعليم وتمتع أصحاب العمل بمعاملة العمال معاملة عادلة، فلن تكون هناك اضطرابات أو إضرابات فضلاً عن أن عقول الجماهير لن تقع فريسة لغواية الديماجوجيين أو يقعون تحت سيطرة اعتبارات مؤقتة مثيرة للشغب.**

أصبح كتاب **إدارة الفصل المدرسي** **Classroom Management** الذي وضعه وليم باجلي **Bagley** الكتاب الأمثل لتدريب المدرس حتى في القرن العشرين، حيث أُعيد طبع الكتاب ثلاثين مرة. يقول باجلي: "بإمكان من يدرس النظرية التعليمية كما ينبغي أن يرى في النظام الروتيني للفصل المدرسي كيف تتكاتف القوى التعليمية لتقوم في بطء تدريجي بتحويل الطفل من همجي صغير إلى مخلوق يعرف القانون والنظام ويصير لائقًا لحياة المجتمع المتحضِّر."

وقامت المدارس الثانوية في منتصف وأواخر القرن التاسع عشر كوسائل مساعِدة للنظام الصناعي وزادت الحاجة إلى دخول مادة التاريخ في المناهج الدراسية من أجل تقوية النزعة الوطنية. وكثر الحديث عن أشياء مثل أيمان الولاء ، وشهادة المدرس عن سلوك الطلاب وطلب المواَطَنة. وكان ذلك من أجل إحكام السيطرة على الفكر السياسي والتعليمي لدى المدرسين. وفي أواخر القرن التاسع عشر كان للمسئولين عن التعليم ـ وليس المدرسين ـ سلطة التدخل في الكتب الدراسية حيث قامت الولايات بإصدار قوانين تحظر تدريس كتب معينة. على سبيل المثال منعت أيدهو ومونتانا تدريس الكتب التي تتناول المذاهب "السياسية" ومنعت داكوتا المكتبات المدرسية من أن تحوي "النشرات أو الكتب السياسية التي تشايع أفكار حزبٍ من الأحزاب."

وفى مقابل هذا التنظيم الضخم للمعرفة والتعليم، نهض أدبُ للسخط والاحتجاج عرف طريقه من قارئ لآخر عبر حواجز كبيرة ، فقد ألَّف هنرى جورج، الذى خرج من أسرة فقيرة فى فيلادلفيا، وعلم نفسه بنفسه حتى صار صحفيًا ورجل اقتصاد، كتابًا عنوانه **التقدم والفقر** Progress and Poverty نشره فى عام ١٨٧٩ وطُبعت منه ملايين النُسخ إذ لقى الكتاب رواجًا لا فى الولايات المتحدة فحسب ولكن فى أماكن متفرقة من العالم ولقد انطلق كتابه هذا من فكرة أساسية تقول إن الأرض هى أساس الثروة والأرض تكاد تكون محتكرة من قبِل فئة محددة وأن فرض ضريبة واحدة على الأرض مع إلغاء كافة الضرائب الأخرى كفيل بأن يشكل موردًا ماليًا يحل مشكلة الفقر ويُقِّرب بين طبقات الأمة. ربما كان قراؤه غير مقتنعين بحلوله التى طرحها، لكنهم كانوا يرون فى تفاصيل حياتهم اليومية مدى دقة ووضوح ملاحظاته ومن بين كلماته فى الكتاب:

> **صحيح أن الثروة زادت إلى حد كبير وأن مستوى الراحة واليسر قد ارتفع، لكن هذه المكاسب ليست للجميع حيث لا تنال الطبقات الدنيا شيئًا من ذلك... الأمر الذى يجعل من ارتباط الفقر بالتقدم لغزًا فى زماننا هذا. ... هناك شعور غامض لكنه عام. هذا الشعور هو الإحباط كما أن هناك مرارة متزايدة بين الطبقات العاملة فضلاً عن الإحساس بأن اضطرابًا ما أو ثورة ما على الأبواب. ... إن العالم المتحضر يتأرجح على حافة حركة ما عظمى من شأنها أن تكون إما قفزة إلى الأمام تفتح الطريق إلى تطورات لم يحلم بها أحد وإما ردة قوية تأخذنا باتجاه البربرية... .**

وكان ثمة نوع آخر مختلف لتحدى النظام الاقتصادى والاجتماعى تمثل فى قيام إدوارد بيلامى Bellamy، وهو محام وكاتب من غرب ماساتشوستس، بكتابة رواية **النظر إلى الوراء** Looking Backward وقد كتبها فى لغة بسيطة آسرة. وفى هذه

الرواية ينـام البـطل ويصـحـو فى عـام ٢٠٠٠ كى يجد أمامه مجتمعًا اشتراكيًا يعيش الناس فيه فى تعاون. وقد باعت الرواية، التى تصف الاشتراكية فى وضوح محبٍّ، ملايين النسخ فى سنوات قليلة وكان أن أسهمت فى تشكيل حوالى مائة جماعة فى مختلف أرجاء الولايات المتحدة ، وكان همّ هذه الجماعات هو تحقيق الحلم الذى تتناوله الرواية.

كان باديًا أنه بالرغم من الجهود الضخمة للحكومة والنخبة الثرية والكنيسة والمدارس للسيطرة على تفكير الأمريكيين، كان ملايين منهم على استعداد دائم للنظر فى النقد القاسى الموجه للنظام السياسى القائم والبحث عن سبل أخرى للعيش. ساعد على ذلك الحركات الكبرى للفلاحين والعمال التى اكتسحت البلاد فى ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر. كانت هذه الحركات مجاوزةً للإضرابات المتفرقة وكفاح المستأجرين فى الفترة ما بين عام ١٨٣٠ و١٨٧٧ إذ كانت حركات على مستوى البلاد كلها وكانت أكثر تهديداً للنخبة الحاكمة كما كانت موحية بالخطورة. كان ذلك زمنًا تصدرت فيه التنظيمات الثورية المدن الرئيسية فى البلاد وكان الكلام ذو الطابع الثورى موجوداً فى كل مكان.

وفى ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر كان المهاجرون يتدفقون من أوروبا بمعدل أسرع من ذى قبل حيث مر جميعهم برحلة الفقراء عبر المحيط المزمجر. لم تعد الهجرة الآن مقتصرة على الأيرلنديين والألمانيين ولكن كان هناك الإيطاليون والروس واليهود واليونانيون - وكلهم أتوا من جنوب وشرق أوروبا وكان هؤلاء المهاجرون أكثر غربة من ذوى الأصل الأنجلو ساكسونى الذين وفدوا إلى البلاد مبكرًا.

ولكن كيف ساهمت هجرة جماعات من أصول عرقية مختلفة إلى تفتيت أو تشظى الطبقة العاملة وكيف تطورت النزاعات بين الجماعات التى تواجه نفس الظروف؟ تجيب عن هذين السؤالين مقالة فى جريدة بوهيمية اسمها "سفورنوست" Svornost فى ٢٧ فبراير عام ١٨٨٠ حيث وقّع أكثر من نصف دافعى الضرائب

بأحد الأحياء على التماس قدَّمه ٢٥٨ من أولياء أمور التلاميذ فى مدرسة "ثروب" بنيويورك جاء فيه: "إن الملتمسين يتمتعون بالحق فى المطالبة بتدريس اللغة البوهيمية كما أن للألمانيين الحق فى تعليم أطفالهم اللغة الألمانية فى المدارس العامة. ... وفى معارضته لذلك الطلب، يزعم المستر فوك أن هناك فرقًا كبيراً بين الألمانيين والبوهيميين، الأمر الذى يعنى أن الألمانيين أرقى وأسمى."

بدأ الأيرلنديون، وفى ذاكرتهم تعيش ذكريات الكراهية التى لاقوها بعد وصولهم، بدأوا فى الحصول على وظائف مع الكيانات السياسية الجديدة التى كانت تهدف إلى الحصول على أصواتهم فى الانتخابات. وواجه مَنْ أصبح منهم يعمل ضمن قوة البوليس المهاجرين اليهود الجدد؛ فقد أقامت الجماعة اليهودية فى نيويورك، فى ٣٠ يوليو عام ١٩٠٢، جنازة مهيبة لحَبْرٍ عالى المكانة وقامت مظاهرة قادها الأيرلنديون الذين كرهوا مجىء اليهود إلى منطقتهم السكنية. ولما كانت القوة البوليسية أيرلندية فى معظمها، فقد أشار التحقيق الرسمى إلى أن البوليس قام بمساعدة المتظاهرين.

اشتعل التنافس الاقتصادى الشديد بين الوافدين الجدد؛ فبحلول عام ١٨٨٠ بلغ عدد المهاجرين الصينيين، الذين جُلبوا عن طريق شركات السكك الحديدية للقيام بأعمال تقصم الظهور نظير أجور زهيدة، ٧٥ ألفًا فى كاليفورنيا - أى عُشر ما تبلغه الولاية من عدد سكانى. وقد صار هؤلاء الصينيون عُرضة دائمة للعنف حتى أن الروائى بريت هارت Bret Harte كتب فى جريدة ينعى رجلاً صينيًا اسمه وان لى بقوله:

مات وان لى يا أصدقائى الأجلاَّء، مات رجمًا بالحجارة، فى العام الميلادى ١٨٦٩، فى شوارع سان فرانسيسكو على أيدى عدد من السوقة من الصبية اليافعين وأطفال المدارس المسيحية.

وفى روك سبرنجس بولاية وايومينج هاجم البيض، فى صيف عام ١٨٨٥، حوالى خمسمائة من عمال المناجم الصينيين حيث ذبحوا منهم ثمانية وعشرين عاملاً دون أن تهتز فيهم شعرة. أصبح المهاجرون الجدد عمالاً بالمصانع ونقاشين وقاطعى أحجار وحفارين وغالبًا ما كان يجلبهم المقاولون بأعداد غفيرة، الأمر الذى يعنى أنهم كانوا يواجهون ظروفًا غاية فى الصعوبة. فقد قيل لرجل إيطالى بأنه سوف يعمل فى ولاية كونيكتيكت فى إحدى شركات السكك الحديدية، لكنه أُخذ إلى مناجم الجنوب حيث كان يخضع فى عمله هو وزملاؤه لحراسة مسلحة ولم يتقاض هؤلاء سوى القليل الذى يعينهم على العيش وعلى شراء الأدوات الشخصية اللازمة لعملهم ولم يكونوا يجدوا من الطعام إلا ما يقيم الأود. فما كان منه ومن غيره إلا أن قرروا الهرب من هناك، غير أنه أُلقى القبض عليهم لدى إحدى نقاط الحراسة وخُيِّروا بين العمل أو الموت لكنهم رفضوا العمل فمثلوا للمحاكمة أمام قاضٍ ووضعت الأصفاد فى أياديهم وبعد خمسة شهور فُصلوا من العمل. يقول هذا الإيطالى: "استقل رفاقى القطار إلى نيويورك ولم يكن معى سوى دولار واحد ولم أكن أعرف البلاد ولا لغتها، فلم يكن أمامى إلا أن أسافر إلى نيويورك سيرًا على الأقدام وبعد رحلة دامت اثنين وأربعين يومًا وصلت المدينة منهك القوى."

وأحيانًا ما أدت هذه الظروف الصعبة إلى حركات تمرد من قِبل هؤلاء العمال، فقد حكى أحد المعاصرين "كيف قام بعض العمال الإيطاليين، الذين تأخرت أجورهم، بالقبض على المقاول وقاموا بحبسه فى أحد الأكواخ حيث ظل به سجينًا حتى جاء عمدة المدينة - نيو ديل بنيو جيرسى - مع قوة بوليسية لإنقاذه."

ظهرت أيضًا التجارة فى عمالة الأطفال سواء عن طريق التعاقد مع الآباء المحتاجين فى البلد الأم أو عن طريق اختطاف هؤلاء الأطفال. كان الأطفال يقيمون فيما يشبه المساكن الجماعية وكأنهم عبيد وأحيانًا ما كانوا يُرسلون إلى الشوارع كموسيقيين متسولين وكم كانت جماعات كبيرة منهم تجوب الشوارع فى نيويورك وفلادلفيا.

ودارت أيام هؤلاء المهاجرين وصاروا مواطنين أمريكيين ودخلوا النظام السياسى ذى الحزبين حيث وُظفِّت طاقتهم السياسية داخل العمليات الانتخابية. وخرجت جريدة "ليطاليا" بمقالة فى نوفمبر عام ١٨٩٤ تدعو الإيطاليين إلى تأييد الحزب الجمهورى:

عندما يرفض المواطنون الأمريكيون من الأصول الأجنبية أن يتحالفوا مع الحزب الجمهورى، فإنهم بذلك يحاربون رفاهيتهم. فالحزب الجمهورى يمثل كل ما تحارب الشعوب فى سبيل تحقيقه فى العالم القديم. إنه حارس الحرية والتقدم والنظام والقانون كما إنه العدو اللدود للحكم الملكى.

كان عدد المهاجرين الجدد خمسة ملايين ونصف فى ثمانينيات القرن التاسع عشر وأربعة ملايين فى تسعينياته، الأمر الذى أدى إلى وجود فائض فى الأيدى العاملة ومن ثم انخفاضٍ فى الأجور. كذلك كان المهاجرين أكثر طاعة وأسلس قياداً وأكثر ضعفاً من العمال من أهل البلاد، فالمهاجرون لا يزالون غرباء ثقافيًا وغير مترابطين ، ومن هنا كان اللجوء إليهم أو إلى تشغيلهم من أجل إفساد الإضرابات. وغالبًا ما كان يعمل أطفال المهاجرين وهو أمر آخر ساهم فى تخفيض الأجور وزيادة عدد المتعطلين. ففى عام ١٨٨٠ كان هناك مليون ومائة وثمانية عشر ألف طفل يعملون وهم دون السادسة عشرة فى الولايات المتحدة مما يعنى أن من بين كل ستة أطفال كان واحد منهم يعمل.

ولما كان معظم أفراد الأسرة يعملون ولساعات طويلة، كثيراً ما تحولت الأُسر إلى جماعة من الغرباء. وقد كتب أحدهم ويدعى موريس روزينفيلد قصيدة ذاعت وانتشرت فى ذلك الوقت وعنوانها "ولدى" جاء فيها:

لدى ولدٌ صغير بالبيت

ابنٌ جميلٌ صغير

أرى، أحيانًا، أن العالم

صارًا ملكًا لى من خلاله

يوقظنى عملى قبل الفجر

ولا أتحرر منه إلا فى الليل

غريبٌ أنا فى عينى طفلى

وغريب طفلى فى عينى.

وعملت النساء المهاجرات خادمات أو ربات بيوت أو عملن بالدعارة أو بالمصانع، وفى بعض الأحيان عملن بالكفاح والنضال. ولدت ليونورا بارى فى أيرلندا وجاءت إلى الولايات المتحدة. تزوجت ومات زوجها واضطرت للعمل بأحد المصانع من أجل تربية أطفالها الثلاثة وكان أجرها فى الأسبوع الأول خمسة وستين سنتًا. وانضمت إلى صفوف جماعة "فرسان العمل" Knights of Labor الذى كان يضم فى عام ١٨٨٦ خمسين ألف امرأة فى عضويته مقسَّمه إلى ١٩٢ مجلسًا أو تجمعًا. وصارت ليونورا بارى رئيسة لتجمعها الذى كان يضم ٩٢٧ امرأة وتم تعيينها من قِبل تنظيم "فرسان العمل" كمحقق عام "تقوم بالخروج والسعى من أجل تعليم زميلاتها وعامة الناس فيما يخص احتياجاتهم الضرورية." وقد وصفت المشكلة الكبرى للنساء العاملات قائلة: "اكتسبت النساء العاملات، بحكم السنوات الطويلة من المعاناة والألم، ما قد يمثل بالنسبة لهن طبيعة ثانية، وأقصد بذلك عادة الإذعان والقبول بأية أشياء. إنهن ينطلقن فى ذلك من نظرة تشاؤمية للحياة التى لا يرون فيها أملاً يلوح بالخلاص." يُبين تقريرها عن عام ١٨٨٨ أن هناك ٥٣٧ طلبًا لمساعدة النساء على التنظيم والقيام بزيارة مائة مدينة وبلدة وتوزيع ١,٩٠٠ نشرة.

فى عام ١٨٨٤، أضربت تجمعات النساء العاملات فى النسيج وصناعة القبعات وفى العام التالى فى نيويورك قام الرجال والنساء الذين يعملون بصناعة القمصان،

وكانوا يعقدون لقاءات منفصلة ويصلون إلى قرارات يتم تعميمها على الجميع. وأطلقت جريدة "وورلد" في نيويورك على هذه الإضرابات "ثورة في سبيل الخبز والزبد." وكان أن حصل المضربون والمضربات على أجور أعلى وساعات عملٍ أقل.

في يونكرز، وفي نفس ذلك الشتاء، فُصل عدد من العاملات بنسيج السجاد لانضمامهن إلى تنظيم الفرسان، وخرجت النساء في برد فبراير القارس وقمن بتطويق المصنع. وكان سبعمائة فقط من هؤلاء النساء أعضاء بتنظيم الفرسان ولكن لم يكد الإضراب يقوم حتى انضمت إلى التنظيم كل المضربات. وأُلقي القبض على جميع النساء المضربات غير أن المحلفين الذين نظروا في القضية رأوا أنهن غير مذنبات. فأقام العمال في نيويورك عشاءً ضخمًا لتكريم مَنْ قُمن بالإضراب جاء إليه ألفا وفدٍ من مختلف اتحادات ونقابات المدينة. واستمر الإضراب ستة أشهر وكسبت النساء بعضاً من المطالب وعاد منهن مَنْ كن فُصلن من العمل.

ليس المدهش في هذه الحركات النضالية أن المضربات لم يحصلن على كل ما أردنه ولكن المدهش حقًا هو أن هؤلاء النساء واتتهن الجرأة في أن يقاومن وأن طاقتهن لم تنفد.

ربما كان الاعتراف بأن الكفاح يومًا بيوم لم يكن كافيًا وأنه لابد من العمل على التغيير الجذري للأحوال القائمة، لكن ربما كان ذلك ما ساعد على تنامي الحركات الثورية في ذلك الوقت. كان حزب العمل الاشتراكي، الذي تشكَّل في عام ١٨٧٧، صغيراً وممزقًا نتيجة المجادلات الداخلية لكنه كان يملك بعض التأثير والنفوذ في تنظيم الاتحادات والنقابات فيما بين العمال الأجانب ، ففي نيويورك نظَّم الاشتراكيون اليهود أنفسهم وأصدروا صحيفة ، وفي شيكاغو قام الاشتراكيون الألمان ومعهم بعض الراديكاليين من أهل البلاد من أمثال ألبرت بارسونز بتشكيل الأندية الاجتماعية الثورية، وفي عام ١٨٨٣ تشكَّل مجلس الفوضويين في بيتسبيرج وقام بوضع مانفستو جاء فيه:

... تقع أعباء القوانين على الطبقة العاملة... . وحتى المدرسة فإنها تقوم بشىء واحد هو إمداد أبناء الأثرياء بالمواصفات الضرورية للحفاظ على هيمنتهم الطبقية. ولا يكاد أطفال الفقراء يحصلون على تدريب أولى رسمى، وفى هذا ما هو كفيل بتوليد مشاعر كالتحيز والغطرسة والذل والخنوع. إن الكنيسة فى آخر الأمر تود أن تجعل من الناس جماعة من البلهاء تعدهم بجنة خيالية وتطلب منهم أن ينسوا أو يزهدوا فى الفردوس المقام على الأرض. ومن ناحية أخرى، تتولى الصحافة الرأسمالية أمر حيرة وارتباك الأرواح فى الحياة العامة... . ومن ثم فعلى العمال ألا ينتظروا أى مساعدة من أى حزب رأسمالى فى نضالهم ضد النظام القائم وعليهم أن يحققوا حريتهم بأيديهم وجهدهم. وكما كان الحال فى الأزمان الغابرة، لا يمكن أن تقوم طبقة مميزة من الناس بالتنازل طواعية عن طغيانها. كما أنه ليس يُنتظر من رأسمالى هذا العصر أن يتنازلوا عن سيادتهم دون أن يُجبروا على ذلك إجبارا... .

وطالب المانفستو "بحقوق متساوية للجميع دون تمييز جنسى أو عرقى" واقتبس من المانفستو الشيوعى الكلمات الشهيرة: "يا عمال العالم اتحدوا! ليس لديكم ما تخسرونه سوى قيودكم! أمامكم عالم ففوزوا به!"

وفى شيكاغو كان هناك رابطة العمال الدولية التى كان بها خمسة آلاف عضو وكانت تقوم بإصدار صحف فى خمس لغات وتنظم المظاهرات والمسيرات. وكان لقيادتها نفوذ قوى على الاثنين وعشرين اتحاداً ونقابة التى تُشكِّل اتحاد العمل المركزى بشيكاغو. وعلى الرغم من وجود اختلافات فى النظرية بين هذه الجماعات الثورية، فغالبًا ما كان يخضع المُنظِّرون للاحتياجات العملية لنضال العمال وما كان أكثرها فى منتصف ثمانينيات القرن التاسع عشر.

وفى أوائل عام ١٨٨٦ قامت شركة تكساس وباسفيك لخطوط السكك الحديدية بفصل قائد عُمالى ينتسب إلى "فرسان العمل" مما أدى إلى قيام إضراب ما لبث أن انتشر فى أرجاء الجنوب الغربى وهو ما أدى بدوره إلى تعطل مواصلات سانت لويز وكانساس سيتى. كانت الشركة قد جنَّدت تسعة من الشباب فى نيو أورلينز وكان منوطا بهم القيام بحماية ملكية الشركة. عندما علم هؤلاء بالإضراب، تركوا وظيفتهم وقالوا: "لا يمكن أن نسمح لأنفسنا أن نبرر ذهابنا إلى العمل وقيامنا بانتزاع الخبز من أفواه إخواننا العمال مهما كان احتياجنا إليه."

فقُبض عليهم لقيامهم بالاحتيال على الشركة برفضهم الذهاب إلى العمل وحُكم عليهم بالسجن مدة ثلاثة شهور فى سجن مقاطعة جالفستون.

ودخل المضربون فى سلسلة من أحداث السلب والنهب حيث جاءت رسالة إخبارية من آتكسون بكانساس تقول:

> **فى الساعة الثانية عشرة وخمسة وأربعين دقيقة من صباح اليوم فوجئ حُراس المبنى الخاص بإيواء القاطرات بشركة ميزورى باسيفيك بظهور ما يقرب من أربعين رجلاً يرتدون الأقنعة، حيث قاموا بجمع الحراس فى غرفة الزيوت... كما قاموا بتعطيل اثنى عشرة قاطرة كانت تقف بالمخازن... .**

وفى إبريل من العام نفسه قامت معركة فى شرق سانت لويز بين المضربين وقوات الشرطة حيث قُتل سبعة من العمال وقام المضربون بإشعال النيران فى مخازن شركة لويزفيل وناشفيل، وأعلن الحاكم الأحكام العرفية وأرسل يطلب سبعمائة من قوات الحرس الوطنى. ولم يستطع المضربون الاستمرار فى المقاومة بسبب ما واجهوه من عنف على أيدى العُمد ونوابهم ولعدم وجود دعم من قِبل عمال شركات السكك الحديدية الأكثر مهارة والأعلى أجراً. بعد عدة أشهر استسلم المضربون وبات كثير منهم يتصدرون القوائم السوداء.

وبمجىء ربيع عـام ١٨٨٦ نمت حـركـة المطالبـة بيـوم عـمل لا يزيد عن ثمـانى ساعات، ففى أول مايو دعت منظمة العمل الأمريكية، التى مر على تأسيسـها خمسة أعوام، إلى إضـرابات فـى الأمـاكن التى ترفض تنفـيـذ يوم العـمل الذى لا يزيد على ثمـانيـة سـاعـات فى أى من الولايات الأمـريكيـة. لكن تيـرنيس باودرلى زعـيم تنظيم "فرسان العمل" عارض الإضرابات ونادى بضرورة تعليم العمال وأصحاب العمل أولاً معنى يوم العمل ذى السـاعـات الثمـانى، غير أن جماعات فرسان العمل مضـوا فى الدعـوة إلى الإضـراب. وكـذلك عـارض رئيس رابطة مهندسى الشحن فكرة اليوم ذى الساعات الثمانى قائلاً: "إن طرح ساعتين من ساعات العمل يعنى أن العمال سيكون لديهم مزيد من الوقت للتسكع والشراب." لكن العمال لم يوافقوا على ذلك وأيدوا حركة يوم العمل الأقصر.

وبذلك بلغ عدد من قاموا بالإضراب فى أحد عشر ألفًا وخمسمائة واثنين وستين مؤسسة فى مختلف أنحاء البلاد - بلغ عددهم ثلاثمائة وخمسين ألف عامل حيث قام أحد عشر ألفًا من العمال فى ديترويت بمسيرة مؤيدة لحركة يوم العمل ذى الثمانية ساعات، وفى نيويورك قام خمسة وعشرون ألف عامل بمسيرة بالمشاعل فى برودواى وتصدرها ثلاثة آلاف وأربعمائة من أعضاء اتحاد الخبازين، وفى شيكاغو أضرب أربعون ألفًا ومُنح خمسة وأربعون ألفًا يوم عمل أقصر كوسيلة تمنعهم من القيام بالإضـراب وتوقـفت كـافـة خطوط السكك الحديدية وأُصيبت مـعظم الصناعـات فى شيكاغو بالشلل كما أُغلقت كافة المخازن.

وتشكل مـا أُطلق عليه "لجنة المواطنين" التى تتـألف من عدد من رجال الأعـمال بشكل يومى لوضع استراتيجية تحدد كيفية التعامل مع الأحداث، واستدعيت القوات العسكرية وأخذت قوات الشرطة وضع الاستعداد، وطالبت جريدة "ميل" بشيكاغو بمراقبـة كل من ألبرت بارسونز Albert Parsons وأوجست سبايز August Spies - وهمـا من القادة الثوريين لرابطة "عمال العالم" حيث ورد بالجريدة: "ضعوهم تحت أبصاركم واعتبروهم المسئولين بصفة شخصية عن أى اضطراب قد يقع، وليكن هذان الشخصان عبرة لمن يعتبر إذا وقع اضطراب."

كان اتحاد العمل المركزى تحت قيادة بارسونز وسبايز، بالإضافة إلى اثنين وعشرين اتحاداً ونقابة، قد تبنوا قراراً عنيفاً وغاضباً فى خريف عام ١٨٨٥ جاء به:

... إننا ندعو الطبقة الكادحة إلى أن تقوم على وجه عاجل بتسليح نفسها كى تستطيع أن تواجه ظلم مستغليها وإننا نرى أن هذه هى السبيل الوحيدة الفعالة. لابد من العنف والمزيد من العنف. وبغض النظر عن أننا لا نتوقع خيراً كثيراً من تطبيق نظام يوم العمل ذى الثمانية ساعات، فإننا بكل حسم سوف نساعد اخوتنا فى هذا النضال الطبقى بكافة الوسائل وبكل القوة التى نملكها طالما ظلوا جبهة صامدة فى وجه قاهرينا من الأوغاد الأرستقراطيين والمستغلين. ولتكن صرختنا لهذه الحرب هى "الموت لأعداء البشر."

وفى الثالث من مايو، وقعت سلسلة من الأحداث بحيث أصبح بارسونز وسبايز فى الموقف الذى تحدثت عنه جريدة "ميل" فى شيكاغو عندما طالبت برصد تحركاتهما وجعلهما عبرة للجميع إذا وقعت أية اضطرابات. فى ذلك اليوم وفى المكان الذى تجمع عنده المضربون والمتعاطفون معهم، أطلقت قوات الشرطة نيرانها فى جمع من المضربين الفارين من المكان حيث وقع منهم أربعة قتلى وعدد كبير من المصابين. فقام سبايز الذى استشاط غضباً بالذهاب إلى مطبعة آربتير زايتونج وقام بطبع منشور بالإنجليزية والألمانية جاء به:

الثأر والانتقام!

إلى السلاح أيها العمال!!!

لقد تحملتم لسنوات طويلة أشد أنواع الذل ... وقتلتم أنفسكم عملاً... وضحيتم بأطفالكم فى سبيل خدمة صاحب المصنع - باختصار، كنتم عبيداً أذلاء بائسين مطيعين كل هذه

السنوات: لماذا كل ذلك؟ من أجل سد جشع سيدكم اللص الذى لا يعرف حدًا ومن أجل ملء خزائنه بالأموال؟ وها انتم اليوم تطلبون من سادتكم أن يخففوا قليلاً من أعبائكم فيرسلون كلاب صيدهم كى يطلقوا النار عليكم ويقتلوكم! ... ندعوكم جميعًا إلى حمل السلاح، إلى السلاح!

ودُعى إلى اجتماع فى هاى ماركت سكوير مساء الرابع من مايو حضره آلاف الأشخاص. كان اجتماعًا هادئًا، وبدأ العدد يتناقص حتى بلغ عدة مئات نتيجة البرد وتأخُر الوقت. وظهرت قوة بوليس يبلغ عددها مائة وثمانين فرداً تقدموا نحو منصة المتحدثين وأمروا الجمع بالانصراف. فقال المتحدث إن الاجتماع قد انتهى وقته تقريبًا. وفجأة انفجرت قنبلة وسط رجال البوليس فأصابت منهم ستة وستين فرداً مات عدد منهم فيما بعد متأثراً بجراحه، وقام الباقون من قوة البوليس بإطلاق النار على الجمع فقُتل منهم عدة أفراد وأصيب مائتان.

ولما لم يكن ثمة دليل على من ألقى القنبلة، قام البوليس بإلقاء القبض على ثمانية من القادة الثوريين فى شيكاغو وقالت جريدة "جورنال" بشيكاغو: "يجب أن تأخذ العدالة مجراها سريعًا فى التعامل مع الفوضويين الذين قُبض عليهم، والقانون المتعلق بمن يساعد على ارتكاب الجريمة فى هذه الولاية واضح بدرجة تجعل محاكمات هؤلاء لا تستغرق وقتًا طويلاً." وحسب القانون فى ولاية إلينوى فإن مَنْ يحض على ارتكاب جريمة قتل أو يساعد فى ارتكابها يعتبر متهمًا بارتكاب الجريمة. وكان دليل اتهام الفوضويين الثمانية يكمن فى أفكارهم وكلماتهم ولم يكن أحدُ منهم موجوداً بهاى ماركت سكوير سوى فيلدين الذى كان يتحدث وقت انفجار القنبلة.

وحُكم على القادة الثمانية بالإعدام بعد أن أدانتهم هيئة المحلفين وبعد أن قالت المحكمة الدستورية العليا إنها لا تملك سلطة قضائية فى هذه القضية. وأثار ذلك الحكم بالإعدام ردود فعل دولية وجرت لقاءات فى فرنسا وهولندا وروسيا وإيطاليا و

إسبانيا. وفى لندن تزعَّم برنارد شو ووليم موريس وآخرون لقاءً احتجاجيًا. وعلَّق شو على رفض المحكمة الدستورية العليا النظر فى الحكم بالإعدام قائلاً بطريقته المعروفة: "لو أن على العالم أن يخسر حياة ثمانية من الناس، فمن الأفضل أن يكون هؤلاء الثمانية هم أعضاء المحكمة الدستورية العليا فى إلينوى."

وبعد عام من المحاكمة، شُنق أربعة من المتهمين الفوضويين الثمانية وهم ألبرت بارسونز (عامل طباعة) وأوجست سبايز (منجِّد أثاث) وأودلف فيشر وجورج اينجل. وفجَّر لويس لينج، وكان نجارًا فى الحادية والعشرين من عمره، نفسه بأن أشعل أنبوب ديناميت فى فمه داخل زنزانته. وبقى ثلاثة فى السجن.

وأثار تنفيذ الحكم بإعدام أربعة من المتهمين الناس فى كافة أرجاء البلاد واشترك خمسة وعشرون ألفًا من المشيعين فى الموكب الجنائزى فى شيكاغو. ثم ظهر دليل مفاده أن رجلاً يُدعى رودلف شانوبيلت، يفترض أنه من الفوضويين، كان عميلاً للبوليس وكان فى هذه الواقعة عميلاً مُحرِّضًا استأجره البوليس كى يقوم بإلقاء القنبلة ومن ثم يتم تبرير عمليات القبض على المئات وبالتالى تدمير القيادة الثورية فى شيكاغو. ولكن وإلى يومنا هذا لم يُكتشف بعد مَنْ قام بإلقاء القنبلة.

وبينما كان المردود المباشر هو قمع الحركات الراديكالية، فقد كان المردود غير المباشر وطويل المدى هو إبقاء روح الغضب الطبقى لدى الكثيرين حيةً وإلهام الآخرين خاصة شباب ذلك الجيل الذى بدأ رد فعله يظهر فى القضايا الثورية، فقد وقَّع ستون ألفًا التماسات رفعوها إلى حاكم إلينوى الجديد جون بيتر اولتجيلد الذى نظر فى التحقيقات وندَّد بما حدث وأصدر عفوًا عن السجناء الثلاثة الذين لم يُنفَّذ فيهم الحكم بالإعدام. وعامًا بعد عام، عقدت لقاءات تذكارية فى أنحاء البلاد تشيد بما قدمه شهداء هاى ماركت، ومن المستحيل أن يعرف المرء عدد الأفراد الذين حدثت لهم يقظة سياسية بسبب حادثة هاى ماركت وهو ما حدث مع إيما جولدمان وألكسندر بيركمان وهما ثائران شجاعان من الجيل التالى.

(ظلت أحداث هاى ماركت حية فى الذاكرة. ففى عام ١٩٦٨ قامت جماعة من الراديكاليين الشباب فى شيكاغو بتحطيم النصب التذكارى الذى كان قد أُقيم تخليداً لذكرى رجال البوليس الذين ماتوا فى انفجار هاى ماركت. كما أثارت محاكمة جرت فى شيكاغو لثمانية من الشباب المناهضين للحرب فى فيتنام فى نفس الوقت تقريبًا ذكرى "ثمانية شيكاغو" القدامى الذين كانوا قد حوكموا وأُدينوا لأفكار كانوا يعتنقونها.)

وبعد حادثة هاى ماركت، استمر الصراع الطبقى واستمر العنف واستمرت الإضرابات. وكانت هناك القوائم السوداء والمخبرون السريون ورجال البوليس لفض الإضرابات بالقوة وكانت هناك أيضًا المحاكم لفضها عن طريق القانون. ففى أثناء إضراب قام به مُحصلُو الحافلات العامة على خط "ثيرد أفينيو" فى نيويورك بعد شهر واحد من حادثة هاى ماركت، قام رجال البوليس بمهاجمة العمال المضربين واستخدموا الهراوات دون تمييز "وكان رجال محطمو الرءوس يزحفون بعيداً عن المكان فى كل الاتجاهات..." على حد قول جريدة "ذا نيويورك صن".

وذهب بعضٌ من طاقة الغضب فى أواخر عام ١٨٨٦ إلى الحملة الانتخابية لانتخاب عمدة نيويورك فى ذلك الخريف. وشكلت الاتحادات والنقابات حزبًا مستقلاً هو "حزب العمل" وقاموا بترشيح هنرى جورج لمنصب العمدة حيث كان معروفًا لديهم كاقتصادى راديكالى وصاحب كتاب **التقدم والفقر** Progress and Poverty الذى قرأه عشرات الآلاف من العمال. وكان من بين مطالب هنرى جورج التى وعد بالعمل على تحقيقها:

- إلغاء مؤهلات الملكية لأعضاء هيئات المحلفين.
- اختيار كبار المحلفين من الطبقة الدنيا كما هو الحال بالنسبة للطبقة العليا التى تسيطر على ذلك الأمر.
- عدم تدخل البوليس فى الاجتماعات طالما كانت سلمية.

- القيام بالكشف الصحى على المبانى.
- إلغاء عقود العمل فى الأعمال العامة.
- دفع أجور للنساء بحيث تصبح متساوية مع أجور الرجال.
- تملُّك الحكومة المحلية للحافلات العامة.

وقام الديمقـراطيون بترشيح أحد أصحاب المصانع الكبار وهو إبرام هيويت Abram Hewitt ورشح الجمهوريون تيودور روزفلت وذلك فى مؤتمر نظَّمه إليهو روت Elihu Root محامى إحدى الشركات وألقى خطبة الترشيح تشونسى ديبيو رئيس إحدى شركات السكك الحديدية. وفى انتخابات تسيطر عليها القوة والرشوة فاز هيويت بنسبة ٤١ بالمائة وتلاه هنرى جورج بنسبة ٢١ بالمائة وجاء روزيفلت فى المرتبة الثالثة بنسبة ٢٧ بالمائة من إجمالى الأصوات، ورأت جريدة "ذا نيويورك وورلد" فيما حدث إشارة إلى شئ مهم:

> **يجب أن يكون الاحتجاج الغاضب، المتمثل فى ٦٧ ألفًا من الأصوات الانتخابية التى ذهبت إلى هنرى جورج فى مواجهة القوة المتحدة للأحزاب السياسية ومصالح الوول ستريت ورجال الأعمال والصحافة، رسالة تحذير للمجتمع كى يعمل على تحقيق مطالب حزب العمل طالما أنها عادلة ومعقولة... .**

وفى مدن أخرى دخل مرشحون عماليون الانتخابات وحصلوا على ٢٥ ألفًا من الأصوات الانتخابية فى شيكاغو البالغة ٩٢ ألفًا، وانتُخب مرشحهم عمدةً فى ميلوكى، وحصلوا على عدة مناصب محلية فى فورت ورث بتكساس وإيتون بأوهايو وليدفيل بكولورادو.

لم تفُت حادثة هاى ماركت فى عضد الحركة العمالية كما توقع الكثيرون؛ فقد بات عام ١٨٨٦ معروفًا لمعاصريه باسم "عام الانتفاضة العمالية الكبرى"، وكانت

الإضرابات فى الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٨٨٥ تتراوح بين ٥٠٠ إضراب كل عام ويشترك فيها نحو ١٥٠ ألفًا من العمال، أما فى عام ١٨٨٦ فقد تجاوز عدد الإضرابات ألفًا وأربعمائة إضرابًا واشترك فيها حوالى نصف مليون عامل، الأمر الذى جعل جون كومانز John Commons، فى كتابه **تاريخ الحركة العمالية فى الولايات المتحدة** History of Labor Movement in the United States يرى فى ذلك:

> **مؤشرات حركة كبرى من قِبل الطبقة الدنيا التى نهضت أخيرًا وعرفت طريق التمرد. ... لقد حملت الحركة فى كل أشكالها ملامح حرب اجتماعية، وظهرت كراهية طبقة العمال الشديدة لرأس المال فى كل إضراب مهم... . وظهرت المرارة الشديدة التى يشعر بها العمال تجاه رأس المال فى كل ما تقوم به حركة "فرسان العمل" وأينما وضع القادة رأس المال داخل حدود ما فإن تابعيهم يتخلون عنهم... .**

وحتى بين السود الجنوبيين، حيث كانت القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية للولايات الجنوبية تتركز أهدافها فى استمرار السود عمالاً مطيعين، انتشرت حركات التمرد. ففى حقول القطن كان هناك حرص على تفريق العمال السود أما فى حقول السكر فكان العمل يتم بشكل جماعى الأمر الذى أعطى فرصة للعمال من أجل تنظيم أنفسهم حيث كانوا قد أضربوا عن العمل من أجل الحصول على أجرٍ قدره دولار فى اليوم بدلاً من خمسة وسبعين سنتًا وإلا غادروا الولاية. وأُلقى القبض عليهم وأودعوا السجون لكنهم هربوا بمحاذاة حقول السكر حاملين لافتات تقول: "دولار فى اليوم أو الذهاب إلى كانساس." غير أنه أُعيد القبض عليهم مرة بعد مرة حتى تم القضاء على الإضراب.

وبحلول عام ١٨٨٦ كان تنظيم "فرسان العمل" يتشكل فى حقول السكر وكان هذا العام هو ذروة تأثير الفرسان. وعاد العمال السود، الذين لم تكن تكفى أجورهم إعالة أُسرهم، إلى المطالبة بدولار لأجر اليوم. وفى خريف العام التالى قام حوالى

عشرة آلاف من عمال السكر بإضراب وكان تسعون بالمائة منهم من الزنوج وكان هؤلاء أعضاءً فى تنظيم فرسان العمل. غير أن القوات العسكرية جاءت إلى مكان الإضراب وبدأت معارك بينهم وبين المضربين.

واندلع العنف فى بلدة "ثيبيدو" التى كانت قد أصبحت نوعًا من الملاذ تجمَّع فيها مئات العمال المضربين أو المطرودين من المزارع حيث كانوا يلجأون إليها مفلسين ويرتدون ما لا يكاد يستر أجسادهم ويحملون حاجيات نومهم وأطفالهم على الظهور. والحقيقة أن رفض المضربين العودة إلى العمل قد هدد محصول السكر كاملاً حتى اضطرت السلطات إلى فرض الأحكام العرفية فى البلدة، وأُلقى القبض على هنرى وجورج كوكس وهما أخان زنجيان وقادة فى تنظيم فرسان العمل، ثم زُج بهما إلى السجون ولم يعرف أحدُ ماذا حدث لهما. وفى ليلة ٢٢ من نوفمبر نشب قتال بين الجانبين حيث أعلن كل جانب أن الجانب الآخر هو المخطئ وبمجيء ظهيرة اليوم التالى، قُتل حوالى ثلاثون زنجيًا وجُرح اثنان من البيض، وكتبت إحدى صحف الزنوج فى نيو أورلينز:

> **... أُطلق الرصاص على نساء مكفوفات البصر ورجال عُرج، بل وحتى على كبار السن والأطفال. ولم يبد الزنوج مقاومة لأنه لم يخطر ببالهم أن القتل ينتظرهم. وفرَّ كثير من الناجين إلى الغابات واتخذ كثيرُ آخرون من هذه المدينة ـ ثيبيدو ـ ملاذًا... . إن مواطنين أمريكيين يتعرضون للقتل بناء على أوامر رسمية... . وعمال يطالبون برفع أجرهم فلا يعاملون إلا كأنهم كلاب! ... فى وقت كهذا وظروف كتلك تسقط كلمات الشجب والإدانة سقوط قشرات الثلج على الرصاص المصهور. على السود أن يدافعوا عن حياتهم بل عليهم أن يموتوا إذا تطلب الأمر، فأفضل لهم أن يموتوا ووجوههم متجهة صوب قاهريهم دفاعًا عن بيوتهم وحياتهم وأطفالهم وحقوقهم القانونية.**

لم يكن فقراء البيض أفضل حالاً كثيراً عن السود، ففى الجنوب كان يُسمح لهم أن يستأجروا الأراضى أكثر من أن يمتلكوها وكذلك كان الحال مع المنازل، ويرصد سى. فان وودوارد C. Vann Woodward فى كتابه **أصول الجنوب الجديد Origins of the New South** أن أعلى معدل للإيجار (٩٠ بالمائة) فى الولايات المتحدة كان فى مدينة بيرمنجهام وأن أحياء المدن الجنوبية كانت من بين أسوأ المدن حيث يعيش البيض الفقراء مثل السود فى شوارع قذرة غير مُمهدة "وتملؤها القمامة والأوحال" حسب ما ورد بأحد التقارير الحكومية.

كانت هناك حركات احتجاج ضد قانون عمل السُجناء فى الجنوب، حيث كان يتم استئجار السجناء للعمل فى الشركات ومن أجل خفض المعدل العام للأجور ومن ثم إحباط الإضرابات. ففى عام ١٨٩١ طُلب من العمال بمناجم الفحم فى تينيسى التوقيع على عقد يضمن عدم القيام بإضرابات والموافقة على استلام الأجور فى شكل سندات والتنازل عن الحق فى وزن الفحم الذى يستخرجونه (حيث كان الأجر مرتبطاً بمقدار الفحم المستخرج) فلما رفض العمال التوقيع على العقد قامت الشركات بترحيلهم من البيوت وجاءوا بسجناء مستأجَرين كى يحلوا محلهم.

وفى ليلة ٣١ اكتوبر ١٨٩١، قام ألف عامل مسلح بالسيطرة على منطقة التنقيب عن الفحم وأطلقوا سراح خمسمائة سجيناً وحرقوا الحظائر ذات الأسلاك الشائكة التى كان السجناء يُحتجزون فيها. فلم يكن أمام الشركات سوى الإذعان لرغبة العمال ووافقت على ألا تجلب مسجونين للعمل فى المناجم وألا تشترط توقيع العمال على ذلك العقد كما وافقت على السماح للعمال بمراجعة وزن ما استخرجوه من فحم.

وفى العام التالى، تكررت حوادث كثيرة كهذه وهى أحداث يطلق عليها وود وورد "حركات عصيان مسلح" حيث تغلب عمال المناجم على حراًس شركة تينيسى للحديد والفحم وقاموا بحرق حظائر اعتقال السجناء وبعدها قاموا بشحنهم إلى ناشفيل وكان العون يأتيهم من اتحادات ونقابات أخرى فى تينيسى حتى أن أحد المراقبين كتب عما حدث إلى اتحاد تشاتا نوجا للتجارة يقول:

أود أن أنقل للناس المدى الذى بلغته هذه الحركة. لقد رأيت تأكيدات وضمانات مكتوبة تلتزم بتقديم تعزيزات ٧,٥٠٠ عاملاً إلى عمال المناجم التزموا فيها بأن يكونوا فى ميدان القتال فى خلال عشر ساعات من أول إطلاق للرصاص... . لقد صار الحى كله كرجلٍ واحد يرفع شعارًا: "لابد أن يُطلق سراح السجناء". لقد أحصيت ٨٤٠ بندقية يحملها عمال المناجم والحشد الأكبر منهم يحمل مسدسات... ويقف البيض والسود فى ذلك جنبًا إلى جنب.

وفى العام نفسه فى نيو أورلينز، قام اثنان وأربعون اتحادًا محليًا، تضم فى عضويتها أكثر من عشرين ألفًا معظمهم من البيض (كانت لجنة الإضراب تشمل رجلاً أسود) بالدعوة إلى إضراب عام يقوم به نصف سكان المدينة. فتوقف العمل فى نيو أورلينز وبعد ثلاثة أيام وحضور مفسدى الإضراب وفرض الأحكام العرفية وتهديد القوات العسكرية، انتهى الإضراب بحل وسط فيما يخص ساعات العمل والأجور ولكن دون الاعتراف بالاتحادات والنقابات وكيلاً عن العمال.

كما شهد العام ١٨٩٢ إضرابات فى أرجاء البلاد؛ ففضلاً عن الإضراب العام فى نيو أورلينز وإضراب عمال مناجم الفحم فى تينيسى، كان هناك إضراب عمال التحويلات بشركة السكك الحديدية فى بافالو بنيويورك وإضراب عمال مناجم النحاس فى كور دالين بأيديهوْ وقد شهد هذا الإضراب معارك بين المُضربين وبين مفسدى الإضرابات مما أسفر عن وقوع عدد من القتلى وجاء بإحدى الصحف الصادرة فى ١١ يوليو ١٨٩٢:

انتهى أخيرًا الصراع الطويل بين قوات المضربين وبين من أخذوا مكانهم من عمال لا ينتمون إلى اتحاد العمال ونتيجة لمعارك وقعت بين الجانبين وقع خمسة قتلى وأصيب ستة عشر عاملاً وأخذوا إلى المستشفى وتحطم مصنع فريسكو وأصبح

حطامًا واستولى المضربون على منجم للأحجار الكريمة كما استولوا على كم كبير من الأسلحة. وفى غمرة سعادتهم بما حققوه من نصر فإن العناصر النشطة من بين المضربين يعدون عدتهم للانطلاق إلى معاقل العمال غير المنتمين إلى الاتحاد... .

غير أن حاكم الولاية أتى بالحرس الوطنى الذى وتم تعزيزه بقوات فيدرالية حيث قاموا جميعًا بمحاصرة العمال المضربين وألقوا القبض على ستمائة منهم وألقوا بهم فى السجون وأعادوا مفسدى الإضرابات إلى العمل. وتم فصل قادة اتحاد العمال ومن ثم قُضى على الإضراب.

وفى أوائل عام ١٨٩٢، كان مصنع كارنيجى للصلب فى هومستيد ببنسلفانيا، أى خارج بيتسبيرج مباشرة، يخضع فى إدارته لهنرى كلاى فريك بينما كان كارنيجى فى جولة بأوروبا. وقرر فريك أن يخفض أجور العمال من أجل القضاء على اتحاد العمال فقام ببناء سور يبلغ طوله ثلاثة أميال وارتفاعه اثنا عشر قدمًا حول مصنع الصُلب وأضاف أسلاكًا شائكة فى أعلى السور تضمنت فتحات من أجل استعمالها فى إطلاق الرصاص على من يشكلون خطرًا على المكان. ولما رفض العمال تخفيض أجورهم، قام فريك بفصل العمال جميعًا وأتى بقوات بوليس خاصة لحماية من جلبهم من مفسدى الإضرابات الذين حلوا محل العمال.

وعلى الرغم من أن ٧٥٠ فقط من بين عمال هومستيد البالغ عددهم ٣,٨٠٠ عامل ينتمون إلى اتحاد العمال، فقد اجتمع ثلاثة آلاف عامل فى مبنى دار الأوبرا وصوتوا بأغلبية مطلقة لصالح القيام بإضراب. ولما كان المصنع يقع على نهر مونونجايلا، فقام ألف من الخفراء بحراسة مسافة عشرة أميال بامتداد النهر. وقامت لجنة من المضربين بالاستيلاء على المدينة ولم يعد العمدة قادرًا على حشد أى قوة من بين أهل البلدة ضد المضربين.

وفى ليلة ٥ يوليو ١٨٩٢ قام خمسمائة من القوة البوليسية الخاصة بالتحرك على متن مركب كبير يبعد خمسة أميال عن هومستيد داخل مياه النهر. وتحرك المركب نحو

مصنع الصلب حيث كان عشرة آلاف من المضربين والمتعاطفين معهم ينتظرون. فلما رأى الجمع المركب يقترب حذروا مَنْ على متنه من الاقتراب أو النزول من المركب. رقد أحد المضربين على المعبر الخشبى الذى مدَّه أصحاب المركب من المركب إلى البر ولما حاول أحد النازلين من المركب دفعه جانبًا، أطلق المُضرب النار عليه فأصابه فى فخذه، وفى القتال الذى تبع ذلك، سقط سبعة عمال قتلى.

واضطرت قوات بينكرتون الخاصة إلى العودة إلى مراكبهم وهاجمهم المضربون من كل جانب حتى أنهم أعلنوا الاستسلام لكن الجمع الغاضب أوسعهم ضربًا وركلا وسقط عدد من القتلى من الجانبين. وعلى مدى الأيام القليلة التالية، أحكم المضربون سيطرتهم على المنطقة. وهنا تحركت الحكومة حيث أتى حاكم الولاية بقوات عسكرية مسلحة بأحدث الأسلحة وذلك من أجل فض الإضراب وحماية مفسديه.

وأُلقى القبض على قادة الإضراب ووجهت إليهم تهمة القتل وحوكم ١٦٠ آخرون عن جرائم أخرى غير أن الجميع أُطلق سراحه بعد أن برأتهم هيئات محلفين تفهَّمت ما حدث جيداً. ثم قُبض على أعضاء لجنة الإضراب جميعًا بتهمة الخيانة ضد الدولة لكن هيئة المحلفين لم تكن لتوجه إليهم هذه التهمة. وعلى الرغم من استمرار الإضراب لمدة أربعة شهور، فقد كان المصنع مستمراً فى إنتاج الصلب عن طريق جلب مفسدى الإضرابات الذين يحلون محل العمال المُضربين، وغالبًا ما كان هؤلاء يُجلبون فى قطارات مغلقة بحيث لا يعرفون وجهتهم أو أن هناك إضرابًا. ولما استنفذ المضربون مواردهم اضطروا إلى العودة للعمل ووضع قادة الإضراب فى القوائم السوداء.

كان أحد أسباب هزيمة هذا الإضراب أنه كان مقتصراً على هومستيد كما أن مصانع أخرى يملكها كارنيجى لم تتوقف عن العمل. أضرب العاملون على أفران الحديد لكنهم هُزموا سريعًا وكان الحديد المصهور فى هذه الأفران يستخدم غالبًا فى هومستيد فى ذلك الوقت. وحالت الهزيمة دون تنظيم العمال واتحادهم واستمر ذلك فى القرن العشرين ولم يستطع العمال مقاومة خفض الأجور وزيادة ساعات العمل على نحو منظم.

ووسط إضراب هومستيد، جاء إلى بيتسبيرج شاب ثورى من نيويورك اسمه ألكسندر بيركمان ودخل مكتب مدير مصانع كارنيجى وهو هنرى كلاى فريك مصمماً على قتله. جاء بيركمان ومعه خطة أعدها أصدقاء فوضويون فى نيويورك من بينهم محبوبته إيما جولدمان. لقد كان هدف بيركمان متواضعاً تعيساً إذ أصاب فريك وهو يحاول قتله ثم لم يتحمل ما حدث وقُبض عليه وحوكم بتهمة الشروع فى ارتكاب جريمة قتل وأمضى أربعة عشر عاماً فى سجن حكومى. وقد كتب بيركمان كتابه **مذكرات سجين فوضوى** **Prison Memoirs of An Anarchist** حيث يقدم الكتاب وصفاً تفصيلياً لمحاولة الاغتيال التى أقدم عليها وذكرياته فى السجن. ورغم أنه غير رأيه فى جدوى الاغتيال فقد ظَلَّ ثورياً مخلصاً. وكذلك تتناول السيرة الذاتية التى كتبتها إيما جولدمان حياتى **Living My Life**ا لشعور بالغضب والإحساس بالظلم والرغبة فى عيش حياة جديدة وكيف كان ذلك ما يشعر به الشباب الراديكاليون فى ذلك الوقت.

وفى عام ١٨٩٣ شهدت البلاد أكبر أزمة اقتصادية فى تاريخها، فبعد عقود كثيرة من النمو الصناعى المتوحش والاستغلال غير المحدود وصناعة الثروات، انهارت كل الأشياء حيث أفلس ستمائة واثنان وأربعون بنكاً وانهار ستة عشر ألفاً من كافة أنواع الأعمال والتجارة. وزاد عدد العاطلين عن العمل حيث كان هناك ثلاثة ملايين من العاطلين من مجمل قوة العمل البالغة خمسة عشر مليوناً. ورغم أن الحكومات المحلية للولايات لم تعلن عن أى عون يقدم، فقد أجبرتها المظاهرات التى عمت البلاد على إنشاء مطابخ لتقديم الحساء للناس وتقديم بعض الأعمال للعاطلين فى الشوارع والحدائق.

وفى مدينة نيويورك وبالتحديد فى يونيون سكوير خطبت إيما جولدمان فى حشد كبير من العاطلين وحرَّضت مَنْ كان لديهم أطفال على اقتحام المحلات وأخذ ما يحتاجه الأطفال من طعام، فأُلقى القبض عليها بتهمة "التحريض على المظاهرات" وحكم عليها بعامين سجناً. وفى شيكاغو كان عدد العاطلين مائتى ألف وكانت ممرات

وسلالم مجلس المدينة ومراكز الشرطة تعج كل ليلة بالمشردين الباحثين عن مكان ينامون فيه.

استمرت الأزمة الاقتصادية سنوات وأدت إلى موجة من الإضرابات فى مختلف أنحاء البلاد، كان أكبرها ذلك الإضراب الذى قام به عمال شركات السكك الحديدية فى عام ١٨٩٤ الذى بدأ فى شركة بولمان بولاية إلينوى ـ خارج مدينة شيكاغو.

بلغت الأجور السنوية لمهندسى شركات السكك الحديدية ـ والذين يمثلون الطبقة الأرستقراطية داخل هذه الشركات ـ فى عام ١٨٩٠ تسعمائة وسبعة وخمسين مليون دولار، أما المحصلون فقد كانت أجورهم السنوية ٥٧٥ مليونًا و٢١٢ مليونًا لعمال الفرامل و١٢٤ مليونًا للعمال الآخرين. كان العمل فى شركات السكك الحديدية من أكثر الوظائف خطرًا فى أمريكا حيث كان يلقى أكثر من ألفين من العمال حتفهم كل عام ويصاب ما يقرب من ثلاثين ألفًا. وكانت شركات السكك الحديدية تطلق على هذه الحوادث أنها "إرادة الله" أو أنها وقعت نتيجة إهمال من جانب الضحايا وقالت مجلة "لوكوموتيف فايرمن" بأن مديرى شركات السكك الحديدية يقللون من قوتهم ويطالبون العمال بالقيام بعمل مضاعف مما يحرمهم النوم والراحة... أما الحوادث فإنها تعود إلى جشع الشركات.

كانت الأزمة الاقتصادية عام ١٨٩٣ السبب الرئيسى الذى دفع يوجين ديبس Eugene Debs إلى أن يُسخِّر حياته كلها لخدمة مبادئ الاتحادية والاشتراكية. كان ديبس من تيرى هووت بإنديانا حيث كان يدير أبواه متجرًا وكان قد عمل مدة أربعة سنوات حتى صار عمره تسعة عشر عامًا لكنه قرر ترك هذا العمل بعد أن قُتل صديقه تحت عجلات إحدى القاطرات. غير أنه عاد للعمل مرة أخرى ككاتب حسابات، وفى أثناء إضرابات عام ١٨٧٧ عارضها ديبس وكان يرى أنه ليس ثمة "صراع بين رأس المال والعمل." لكنه تأثر على نحو عميق بما كتبه إدوارد بيلامى فى روايته **النظر إلى** الوراء **Looking Backward** وبدأ فى متابعة أحداث هومستيد وكور دالين وإضراب عمال التحويلات فى بافالو وكتب:

لو كان هناك درس عظيم قدمه عام ١٨٩٢ للعمال ويستحق الاعتبار فهو أن الطبقة الرأسمالية كانت تجرهم ـ كشيطان البحر ـ إلى أعماق لا أغوار لها من الانحطاط. ويمثل الهرب من مخالب هذه الوحوش تحدياً كبيراً للعمل المنظم عام ١٨٩٣ .

ووسط الأزمة الاقتصادية فى عام ١٨٩٢، قامت جماعة صغيرة من عمال السكك الحديدية - كان ديبس من بين أعضائها بتشكيل الاتحاد الأمريكى للسكك الحديدية وذلك من أجل توحيد صفوف العاملين بها. ومن بين ما قاله ديبس:

كان هدف حياتى أن أرى اتحاداً يضم كافة عمال السكك الحديدية. لقد كان توحيد هؤلاء العمال فى هيكل واحد هو هدفى الأسمى... ذلك لأن التصنيف الطبقى يؤدى إلى الأنانية والتحيزات الطبقية... لقد كانت رغبتى فى الحياة هى أن أوحد العمال وأقضى على الأرستقراطية العمالية... بحيث يصير كل العمال متساوين... .

وجاء "فرسان العمل" وقاموا تقريباً بدمج الفرسان القدامى مع الاتحاد الأمريكى للسكك الحديدية وهذا هو ما يقول به المؤرخ العمالى ديفيد مونتجمرى.

أراد ديبس أن يضم الاتحاد جميع العمال، لكن السود تم استبعادهم حيث تم ذلك فى مؤتمر عام ١٨٩٤ بعد أن صوّت لصالح هذا القرار ١١٢ مقابل ١٠٠ أيدوا انضمام السود. وفيما بعد اعتقد ديبس أن ذلك القرار ربما كان له تأثير مهم فى نتائج إضراب بولمان حيث لم يتعاون العمال السود فى ذلك الإضراب.

وفى يونيو عام ١٨٩٤، أضرب العمال بشركة بولمان للسيارات. وقد تلقى العمال المضربون دعماً كبيراً جاء أغلبه من المناطق المجاورة لشيكاغو، وخاصة فى الشهور الأولى للإضراب. وقد قام القس وليم كارواردين **William H. Carwardine** وهو راعى ميثودى فى مدينة بولمان (قامت الشركة بعد ذلك بفصله بعد أن علمت بدوره فى دعم

الإضراب) بجمع الدعم القادم من جهات مختلفة. كان من بين هذه الجهات الاتحاد رقم ١٦- لعمال المطابع والاتحاد رقم ١٣ للنجارين ونادى الجناح الجمهورى رقم ٣٤ واتحاد تجار الألبان والفرقة الغنائية الألمانية وتجار الخمور بهايد بارك واتحاد النقاشين وعمال الديكور رقم ١٤٧ وغيرهم.

وقام مضربو شركة بولمان بإرسال التماس طلبًا للدعم والتأييد إلى أحد مؤتمرات الاتحاد الأمريكى للسكك الحديدية جاء فيه:

السيد الرئيس والاخوة أعضاء الاتحاد الأمريكى للسكك الحديدية: لقد قمنا بإضراب فى شركة بولمان لأنه لم يعد لدينا أمل والتحقنا بالاتحاد الأمريكى للسكك الحديدية لأنه أعطانا بريقًا من الأمل الذى نبحث عنه. إن عيون وأرواح عشرين ألفًا من العمال رجالاً ونساءً وأطفالهم تتطلع إلى مؤتمركم اليوم فى شوق ووسط جزع مظلم بحثًا عن رسالة أمل لا يملك إرسالها إليهم سواكم على هذه الأرض... . من المؤكد أن جميعكم تعلمون أسباب إضرابنا. لقد قامت الشركة بفصل اثنين من أعضاء لجنة التظلمات... وخفضت أجورنا خمس مرات... آخرها كانت الأشد قسوة حيث بلغت ثلاثين بالمائة تقريبًا بينما ظلت إيجارات المساكن كما هى.... إن الشركة (بولمان) تشترى الماء من المدن بسعر ثمانية سنتات لكل ألف جالون وتبيعه لنا بارتفاع يصل إلى خمسمائة بالمائة... . والغاز الذى تشتريه الشركة من هايد بارك الواقعة شمالنا مباشرة بسعر ٧٥ سنتًا لكل ألف قدم تبيعه لنا مقابل دولارين وربع الدولار. ولما ذهبنا نشكو الأمر إلى السيد بولمان قال لنا إننا جميعًا "أولاده"... إن بولمان، الرجل والبلدة التى تحمل اسمه، يمثل قرحة فى الجسم السياسى. إنه يملك البيوت والمدارس وحتى كنائس الرب... .

ولسوف تستمر هذه الحرب إلى الأبد ما لم تقوموا انتم يا اخوتنا بالاتحاد الأمريكى للسكك الحديدية بوقفها... .

واستجاب الاتحاد حيث طلب من أعضائه فى كافة أنحاء البلاد ألا يتعاملوا مع سيارات بولمان. ولما كانت كل قطارات المسافرين تقريبًا تستخدم عربات بولمان، فقد وصل الأمر إلى ما يشبه الإضراب الوطنى. وبعد وقت قصير توقفت تقريبًا كل خطوط شركات السكك الحديدية الخارجة من شيكاغو. وقام العمال بإخراج عربات الشحن من على الخطوط الحديدية وسدوا الطرق وأخرجوا المهندسين من القطارات إذا رفضوا التعاون مع المضربين.

وتحركت هيئة المديرين العموميين الذين يمثلون شركات السكك الحديدية بالتدخل لفض الإضراب. غير أنهم لم ينجحوا فى ذلك. وتدخل النائب العام للولايات المتحدة، وقد كان محاميًا سابقًا بإحدى شركات السكك الحديدية، فأصدر إنذارًا قضائيًا ضد مَنْ يقومون بتعطيل حركة القطارات استنادًا إلى القول بأن البريد الفيدرالى يتعرض للتعطيل والتلصص على أسراره. وعندما تجاهل المضربون الإنذار، أمر الرئيس الأمريكى كليفلاند بتحريك قوات فيدرالية إلى شيكاغو. فى السادس من يوليو قام المضربون بحرق مئات السيارات.

وفى اليوم التالى، تحركت القوات العسكرية الحكومية وكتبت "شيكاغو تايمز" ما حدث بعد ذلك:

قامت السَرية الثانية من الكتيبة الثانية... بتأديب جمع من المتظاهرين عند التقاء شارعى فورتى ناينث ولوميس وذلك عصر أمس. وساعد البوليس فى ذلك الأمر. ولم يعرف أحد كم يبلغ عدد القتلى والمصابين حيث حمل المتظاهرون قتلاهم وجرحاهم بعيدًا عن مسرح الأحداث. وتجمع حشدٌ من خمسة آلاف شخص قاموا بإلقاء الحجارة على القوات العسكرية التى صدرت إليها الأوامر بإطلاق النار على المتظاهرين.

سيكون من التبسيط إذا قلنا إن حشد المتظاهرين أصابهم هياج شديد. وبداية من تلك اللحظة استخدمت سناكى البنادق فقط... وتلقى حوالى ثلاثة عشر متظاهرًا فى الصفوف الأمامية طعنات السناكى... وتسلح المتظاهرون بالحجارة... وصدرت أوامر أن يتولى كل ضابط من القوات الحكومية حماية نفسه بنفسه... وحسب حركة المتظاهرين أطلقت القوات النار مباشرة وعلى نحو صريح فى جمع المتظاهرين... وتبعتهم قوات الشرطة بالعصى والهراوات. وقامت القوات أيضًا بشد سور سلكى خلف المتظاهرين مما أوقعهم داخل ما يشبه الفخ وقامت قوات الشرطة بضربهم ضربًا مبرحًا لا يعرف أى رحمة... وقام المتظاهرون خارج السور السلكى بمساعدة إخوانهم المتظاهرين بأن قاموا بإمطار قوات الشرطة بالحجارة. ... لقد تحولت أرض الأحداث إلى ما يشبه أرضًا لمعركة خلفت وراءها المتظاهرين الذين قتلهم رصاص القوات العسكرية وقوات الشرطة ....

فى ذلك اليوم قُتل فى شيكاغو ثلاثة عشر شخصًا، وجُرح ثلاثة وخمسون بجروح خطيرة، وقُبض على سبعمائة آخرين. وقبل أن ينتهى الإضراب، كان عدد من ماتوا أربعة وثلاثين. وتم سحق الإضراب بعد الاستعانة بألف وأربعمائة فرد من القوات العسكرية وقوات الشرطة فى شيكاغو. وقُبض على ديبس بتهمة ازدراء المحكمة واستمراره فى انتهاك نص الإنذار القضائى الذى حذر من العمل على دعم واستمرار الإضراب. وقال ديبس للمحكمة: "يبدو لى أنه لولا مقاومة الأحوال المنحطة، لظلت حضارتنا تتجه إلى أسفل، وبعد قليل سوف نصل إلى حيث اللامقاومة ويعود نظام الرق من جديد."

وفى المحكمة أنكر ديبس أنه ينتمى إلى الاشتراكية لكن أثناء الشهور الستة التى قضاها فى السجن، قام بدراسة الاشتراكية وتحدث إلى رفاقه السجناء الذين كانوا

ينتمون إليها. فيما بعد، كتب يقول: "كان لابد من تعميدى فى ذروة الصراع... وسط بريق السيوف والأسلحة، كشف الصراع الطبقى عن وجهه... كان هذا أول نضال بالنسبة لى فى سبيل الاشتراكية." بعد عامين من خروجه من السجن، كتب ديبس فى صحيفة ريل واى تايمز:

إن القضية هى قضية الاشتراكية فى مواجهة الرأسمالية. وأنا من جانبى أنتمى إلى الاشتراكية لأننى أنتمى إلى الجنس البشرى. كفانا اللعنات التى أصابتنا من حكم الذهب. إن المال لا يشكلُ الأساس الصحيح للحضارة، وقد آن الأوان كى نجدد مجتمعنا... فنحن الآن على مشارف تغيير كونى.

لذلك، شهدت الثمانينيات والتسعينيات هبَّات تمرد من قِبل العمال كانت أكثر تلقائية وتنظيماً من إضرابات ١٨٧٧ .لقد أصبح هناك حركات ثورية ملهمة لنضال العمال، واستلهم القادة العماليون مبادئ الاشتراكية، وبدأ الأدب الراديكالى فى الظهور وكان همه هو الحديث عن التغييرات الرئيسية والجذرية فى المجتمع.

فى الفترة ذاتها تجاوز الفلاحون ـ فى الشمال والجنوب وسواء كانوا من البيض أو السود ـ حدود احتجاجات المستأجرين فى فترة ما قبل الحرب الأهلية وكونوا أكبر حركة إصلاح زراعى شهدتها البلاد. وبينما كان قانون هومستيد يُناقش فى مجلس النواب فى عام ١٨٦٠، قال نائب وسكنسن إنه يؤيد ذلك القانون، مبرراً رأيه قائلاً بأن تطبيق ذلك القانون سوف يؤجل لقرون، إن لم يكن إلى الأبد، الصراع الخطير بين رأس المال والعمال فى الولايات التى تحررت مبكراً .لم يُحرز قانون هومستيد هذه النتيجة؛ فلم يجلب الهدوء والاستقرار إلى شرق البلاد عن طريق دفع الأمريكيين إلى الحركة باتجاه الغرب. كما لم يكن هذا القانون صمام أمان ضد الغضب الذى كان أكبر من أن يُحتوى بتلك الطريقة. وعلى حد قول هنرى ناش سميث **Henry Nash Smith** فى كتابه الأرض البكر **Virgin Land** على العكس مما هو متوقع، فإن العقود

الثلاثة التى تلت صدور هذا القانون قد شهدت أكثر المشاكل مرارة وانتشاراً فى مجال العمل بالولايات المتحدة."

كما لم ينجح هذا القانون فى أن يجلب السلام إلى مزارع الغرب، وكتب هاملين جارلاند Hamlin Garland، الذى عرَّف كثيراً من الأمريكيين بحياة المزارع، فى مقدمة روايته **جيسون إدواردز** Jason Edwards : لم تعد ثمة أرض بالمجان، حيث صار آخر آكر من أرض المزارع فى أيدى الشركات أو فى أيدى بعض الأفراد." فى رواية جيسون إدواردز يأخذ مواطن من بوسطن، يعمل بالميكانيكا، أسرته باتجاه الغرب مدفوعاً بالإعلانات التى كانت تملأ البلاد. لكنه يجد أن الأرض الواقعة فى نطاق ثلاثين ميلاً قد أخذها كبار المُلاَّك والتجار. ويظل جيسون يكافح لمدة خمس سنوات كى يسدد ديونه ويحتفظ بالقليل لمزرعته الصغيرة، غير أن عاصفة تأتى على محصول القمح قبل الحصاد بوقت قصير.

من المؤكد أن وراء ذلك اليأس الذى يسجله الأدب الذى كُتبَ عن حياة المزارع فى ذلك الوقت، كان ثمة رؤىً بطرق أخرى للعيش. فى رواية أخرى لهاملين جارلاند تحمل عنوان: **غنيمة المنصب** A Spoil of Office، تقول البطلة فى إحدى نزهات المزارعين:

> **أرى زمنًا لن يحتاج المزارع فيه أن يعيش فى كابينة داخل مزرعة نائية وحيدة. أرى المزارعين يأتون فى جماعات، لديهم وقت مخصص للقراءة ووقت آخر لتبادل الزيارات. أراهم يستمتعون بالمحاضرات التى يحضرونها فى قاعات جميلة نُصبت فى كل قرية. وأراهم مثل الساكسون القدماء يتجمعون فى الحدائق فى أمسيات الغناء والرقص. كما أرى مدنًا تقوم بالقرب من المزارع بها مدارس وكنائس وقاعات للموسيقى ومسارح. ويلوح أمامى يوم لن يكون المزارع فيه خادمًا وزوجته خادمة، وأرى أمامى رجالاً ونساءً يقومون إلى أعمالهم بالغناء داخل مزارعهم المثمرة، ويقوم أمام عينى زمن لن يتجه فيه**

الأولاد والبنات نحو الغرب أو المدن، حيث ستكون الحياة جديرة بأن تُعاش. فى ذلك اليوم سيكون القمر أكثر ضياءً وبهاءً والنجوم أكثر بهجة. وفى ذلك اليوم ستعود البهجة والشعر وحب الحياة إلى الإنسان الذى يضرب بفأسه فى الأرض.

جدير بالذكر أن هاملين جارلاند قد أهدى روايته جيسون إدواردز، التى كتبت فى عام ١٨٩١، إلى رابطة المزارعين التى كانت بمثابة لب الحركة الكبرى التى عرفت فيما بعد باسم الحركة الشعبية فى ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر.

مهَّد الجيش الأمريكى، بقيامه بهدم قرى الهنود الحمر فى السهول العظمى فيما بين عام ١٨٦٠ و ١٩١٠، الطريق لدخول السكك الحديدية ومن ثم سهل الاستيلاء على أجود الأراضى، ثم جاء المزارعون بعد ذلك لأخذ ما تبقى. وفى الفترة من عام ١٨٦٠ إلى عام ١٩٠٠، زاد عدد سكان الولايات المتحدة من ٣١ مليونًا إلى ٧٥ مليونًا وصار حوالى عشرين مليونًا يعيشون غرب الميسيسيبى وزاد عدد المزارع من مليونى مزرعة إلى ستة ملايين. ولقد زادت حركة السوق الداخلية للطعام نتيجة ازدحام المدن فى شرق البلاد حتى أن ٨٢٪ من إنتاج المزارع كان يُباع داخل الولايات المتحدة.

فى ذلك الوقت عرفت الزراعة طريق الميكنة حيث صار هناك المحاريث الحديدية وماكينات للعزق وحصادات وماكينات لحليج القطن. وبلغ الأمر أن تطورت مسألة تخصص المناطق فى محاصيل محددة، حيث صار الجنوب يزرع القطن والتبغ بينما صار القمح والذرة من نصيب الغرب الأوسط.

كانت الأرض والماكينات تحتاج إلى المال، ومن ثم كان المزارعون مضطرين للاقتراض، أملين أن تظل أسعار محاصيلهم عالية كى يستطيعوا سداد ديونهم للبنك ولشركة السكك الحديدية التى تتولى نقل المحاصيل ولتاجر الغلال الذى يتولى جمع غلالهم ولأصحاب المخازن نظير عملية التخزين. غير أن آمالهم كان مصيرها الإحباط لأن أسعار المحاصيل ما كانت لتبقى عالية، بينما ترتفع أجرة الخدمات الأخرى كفائدة

البنك وأجرة النقل عبر السكك الحديدية والتخزين وما شـابه. ذلك أن المزارع الفرد لم يكن يملك أى درجة تحكم فى غلاله، فى الوقت الذى يستطيع المصرفى وشركة السكك الحديدية اللذان يحتكران محاصيل المزارعين فرض الرسوم كما شاءوا.

فى روايته **القرية** The Hamlet يصف وليم فوكنر Faulkner الرجل الذى كان يعتمد عليه مزارعو الجنوب بقوله:

> **كان أكبر مالك للأراضى... فى الإقليم وقاضيًا للمصالحات فى الإقليم الذى يليه وسمسارًا للانتخابات فى كلا الإقليمين... كان مزارعًا ومرابيًا وبيطريًا... وكان يمتلك معظم الأراضى عالية الجودة فى الإقليم ويمتلك رهونًا على بقية أراضى الإقليم... .**

أما المزارعون الذين لم يستطيعوا دفع ديونهم، فكانت الحكومة تقوم بمصادرة أراضيهم وبيوتهم حتى صار ٢٥٪ منهم مستأجرين بمجىء عام ١٨٨٠ وظلت هذه النسبة فى ازدياد. لقد بلغ الأمر أن كثيرًا من المزارعين لم يستطيعوا دفع الإيجار ومن ثم أصبحوا عمالاً بالمزارع. وبمجىء عام ١٩٠٠ كان هناك أربعة ملايين ونصف عامل فى البلاد. كان ذلك هو مصير كل مزارع لا يستطيع دفع ديونه.

هل كان بمقدور المزارع المطحون البائس أن يتوجه إلى الحكومة طلبًا للعون؟ يقول لورانس جودوين Lawrence Goodwyn فى دراسته **الوعد الديمقراطى** The Democratic Promise والذى يدور حول الحركة الشعبية إن الرأسماليين كانوا يسيطرون على كلا الحزبين فى أعقاب الحرب الأهلية، الأمر الذى جعل من الصعب قيام حزب إصلاحى يوحد بين الفئة العاملة فى شمال البلاد وجنوبها ـ هذا فضلاً عن فئات أخرى مثل السود والأجانب الذين هاجروا إلى العالم الجديد.

ولقد لعبت الحكومة دورها فى مساعدة أصحاب البنوك وإلحاق مزيد من الضرر بالمزارعين، وذلك بأن حافظت على كمية الأموال التى لها رصيد من الذهب ثابتة دون

أن تسمح لها بالزيادة ، هذا فى الوقت الذى كان عدد السكان فى ازدياد، ومن ثم كانت الأموال المتداولة تقل مع مرور الأيام. كان على المزارع أن يدفع ديونه بالدولار الذى كان عزيزاً لا يسهل الحصول عليه ، أما أصحاب البنوك فكانوا يُحصِّلون القروض بالدولار الذى زادت قيمته، وكان هذا فائدة جديدة تضاف إلى فائدة الإقراض الأصلية ، ولعل هذا كان وراء مطالبة حركات المزارعين للحكومة بطرح المزيد من الأموال للتداول عن طريق إصدار أوراق مالية ليس لها رصيد من الذهب أو باعتماد الفضة رصيداً للأموال مثل الذهب.

لقد بدأت حركة اتحاد المزارعين فى تكساس وذلك لأن نظام رهن المحصول كان أشد قسوة فى الجنوب. كان المزارع - وفقًا لهذا النظام - يحصل على كل ما يحتاجه من التاجر من قبيل استعمال ماكينات حلج القطن وما شابه. لم يكن المزارع يملك مالاً، فيأتى التاجر ليوفر ما يحتاجه المزارع عن طريق رهن المحصول فى مقابل الحصول على فائدة قدرها ٢٥٪ على ما يدفعه. يقول جودوين: "لقد صار نظام رهن المحصول بالنسبة لملايين المزارعين من أهل الجنوب شكلاً مُعدلاً من أشكال العبودية. كان الرجل "ذو الدفتر" هو المموِّل لمحصول المزارع الذى تتراكم ديونه محصولاً بعد محصول حتى تُصادر مزرعته ويصير مستأجراً أو حتى مجرد أجير."

ليس من المعروف عدد حركات التمرد التى قامت ضد هذا النظام. غير أن دلهى بولاية لويزيانا شهدت اقتحام مجموعة من صغار المزارعين لوسط المدينة حيث قام هؤلاء بتحطيم محلات التجار "لكى يلغوا ديونهم" كما قالوا . كان ذلك فى عام ١٨٧٧ .

وفى ذروة الأزمة الاقتصادية التى شهدتها البلاد عام ١٨٧٧ تجمع عدد من المزارعين البيض فى مزرعة بتكساس وشكلوا أول رابطة للمزارعين لم تلبث أن انتشرت فى الولاية كلها فى سنوات قليلة، حتى أصبح هناك ١٢٠ رابطة فرعية بحلول عام ١٨٨٢ فى اثنتى عشرة مقاطعة وفى عام ١٨٨٦ صار هناك مائة ألف مزارع

انضموا إلى ألفى رابطة وتنظيم. وبدأ هؤلاء فى تقديم بدائل للنظام القديم وتشكيل تكوينات تعاونية كأن يشتروا ما يحتاجونه معًا للحصول على أسعار أقل، أو أن يقوموا بجمع قطنهم وبيعه على نحو تعاونى.

وقامت حركة تعاونية زراعية فى بعض الولايات وتمكنت هذه الحركة من المساعدة فى إصدار قوانين من شأنها مساعدة المزارعين. غير أن هذه الحركة، على حد قول إحدى الصحف، "محافظة فى أساسها وتشكل معارضة منظمة ومستقرة وعقلانية لتضييق الحريات على الناس، وهذا وقتًا عصيبًا. غير أن ما كانت تفعله الحركة التعاونية الزراعية كان قليلاً، وبينما بدأت الحركة فى فقد كثير من أعضائها، كانت "رابطة المزارعين" [التى تأسست عام ١٨٧٧] فى نمو متزايد.

وأظهرت رابطة المزارعين منذ البداية تعاطفها الكبير مع الحركة العمالية المتنامية، فعندما قام رجال حركة "فرسان العمل" بإضراب اعتراضًا على إنشاء خط للبخار فى جالفستون بولاية تكساس، قام وليم لام Lamb أحد قادة رابطة تكساس ـ بكتابة خطاب ينطق بلسان كثير من أعضاء الرابطة وقام بإرساله إلى الكثير منهم: "لما كان اليوم الذى سيضطر فيه أعضاء الرابطة لاستخدام أسلوب مقاطعة أصحاب المصانع من أجل الحصول على البضائع بشكل مباشر ـ لما كان هذا اليوم ليس ببعيد، فإننا نعتقد أن هذا فرصة لمساعدة "فرسان العمل". يقول جودوين فى كتابه **الوعد الديمقراطى**: "لقد بدأت راديكالية الرابطة، أو مبادئ حزب الشعب فى أمريكا، بهذا الخطاب".

وبينما عارض رئيس رابطة تكساس الانضمام إلى مسألة المقاطعة، قامت جماعة من أعضاء الرابطة باتخاذ قرار:

> **فى الوقت الذى نرى فيه التجاوزات والانتهاكات التى يرتكبها الرأسماليون فى حق كثير من العمال... فإننا نعلن تعاطفنا الكامل مع فرسان العمل فى نضالهم الشجاع ضد الظلم والاحتكار... إننا نطالب بمساندة الفرسان.**

فى صيف عام ١٨٨٦، وفى مدينة سليبورن القريبة من دالاس، تجمع أعضاء "رابطة المزارعين" وقاموا بوضع ما عُرف باسم "مطالب سليبورن" وهى أول وثيقة لحركة حزب الشعب تطالب "بتشريع يضمن للناس عدم التعرض للانتهاكات المشينة التى تعانيها الطبقات العاملة على أيدى الرأسماليين المتغطرسين والهيئات الاقتصادية العملاقة." كما نادوا بعقد مؤتمر قومى تشارك فيه كل المنظمات أو الهيئات العمالية "لمناقشة الإجراءات التى تمثل مصالح الطبقات العاملة." علاوة على ذلك، طالب الأعضاء بتنظيم أسعار استخدام السكك الحديدية، وطالبوا بفرض ضرائب أكبر على الأراضى المحجوزة لأغراض المضاربة وبتوفير سيولة مالية.

واستمرت الرابطة فى النمو والانتشار ، ففى بداية عام ١٨٨٧ كان بها مائتا ألف عضو فى ثلاثة آلاف رابطة فرعية ، وبحلول عام ١٨٩٢ كان المحاضرون والخطباء من الفلاحين قد انتشروا فى ثلاثة وأربعين ولاية ووصلوا إلى مليونى أسرة من أُسر المزارع فيما يسميه جودوين: "أكبر قوة منظمة فى أمريكا القرن التاسع عشر." لقد كانت تقوم هذه القوة على فكرة التعاون - أى فلاحون يقومون بتشكيل ثقافتهم الخاصة وأحزابهم الخاصة مكتسبين احتراماً لم يمنحه لهم قادة الأمة البارزين فى الصناعة والسياسة على السواء.

وجاء إلى جورجيا منظمون من تكساس لضم أعضاء للرابطة وفى خلال ثلاث سنوات أصبح فى جورجيا مائة ألف عضو فى ١٣٤ من مقاطعاتها البالغ عددها ١٣٧ مقاطعة. وفى ولاية تينيسى أصبح هناك مائة وخمسة وعشرون ألف عضو وثلاثة آلاف وستمائة رابطة فرعية وذلك فى اثنين وتسعين مقاطعة من مقاطعات تينيسى البالغ عددها ستة وتسعين مقاطعة. كما وصلت رابطة المزارعين إلى ميسيسيبى ولويزيانا وكارولاينا الشمالية، ثم شمالاً إلى كانساس وداكوتا الشمالية والجنوبية حيث أُقيمت خمسة وثلاثون منشأة تعاونية.

كان هنرى فنسنت Vincent أحد الشخصيات البارزة فى كانساس. وقد أنشأ فنسنت جريدة The American Nonconformist and Kansas Industrial Liberator

التى دشن عددها الأول بقوله: "سوف تهتم هذه الجريدة بنشر كل ما يرمى إلى تربية وتعليم الطبقات العاملة والمزارعين... وسوف تحاول الجريدة، فى كل نضال لها، أن تنتصر للمظلومين ضد ظالميهم...".

وبحلول عام ١٨٨٩ وصل عدد أعضاء الرابطة فى كانساس إلى خمسين ألفًا وكانت الرابطة تنتخب مرشحين محليين لانتخابات الرئاسة. فى ذلك الوقت، كان هناك أربعمائة ألف عضو فى الرابطة القومية للمزارعين، وكانت الأحوال تزداد سوءًا، وهو الأمر الذى حفز الرابطة وأعضاءها كثيرًا. لقد بلغ سوء الأحوال أن ٩٠٪ من المزارعين كانوا يعيشون على الاقتراض.

ولمواجهة هذا الموقف، كوَّنت رابطة تكساس هيئة تعاونية للصرافة على مستوى الولاية، حيث تولت هذه الهيئة جمع القطن من المزارعين وبيعه مرة واحدة مما يضمن للمحصول سعرًا أفضل، غير أن هيئة الصرافة نفسها كانت فى حاجة إلى قروض لكى تتمكن من توفير المال لمن يحتاج من المزارعين، لكن البنوك رفضت. ووجهت الرابطة نداءً إلى المزارعين لإحضار أى أموال يستطيعون جمعها إلى هيئة الصرافة التعاونية، وتوافد عدد كبير من المزارعين فى التاسع من يونيو عام ١٨٨٨ ووصل المبلغ إلى مائتى ألف من الدولارات، غير أن المبلغ الذى جمع بالفعل كان ثمانين ألفًا، وهذا لم يكن كافيًا إذ منع الفقر المزارعين من أن يقدموا شيئًا لمساعدة أنفسهم، وانتصرت البنوك وهو ما أقنع أعضاء الرابطة أن الإصلاح النقدى شئ مهم لابد من الالتفات إليه.

تمثل النصر الوحيد الذى أحرزه المزارعون فى أكياس القطن التى قاطعوها وبدءوا فى صناعة أكياس بديلة من القطن نفسه، الأمر الذى أرغم صانعى أكياس القطن على بيع الياردة مقابل خمس سنتات بدلاً من أربعة عشر سنتًا.

وقد تجسدت المشكلة الكبرى لمذهب حزب الشعب فى أمريكا فى واحد من أهم قادته وهو تشارلز ماكيون Charles Macune، الذى كان راديكاليًا فى الاقتصاد

ومحافظًا فى السياسة، كما كان عنصريًا، ولقد خرج ماكيون بخطة أصبحت شيئًا مركزيًا ومهمًا فى أفكار الحزب ونقصد بذلك خطة الخزانة الفرعية أو البديلة ، وكان المقصود بذلك أن تبنى الحكومة مخازنها ويقوم المزارعون بتخزين منتجاتهم فى هذه المخازن ويحصلوا على شهادات من هذه الخزانة الفرعية، ويحصل المزارعون على أموالهم ويصير هناك تداول أكثر للأموال حيث تقوم الحكومة بإصدار أوراق مالية لا تعتمد بالضرورة على ما يساويها من رصيد الذهب أو الفضة ولكن تعتمد على كمية إنتاج المزرعة.

كانت هناك تجارب كثيرة للرابطة، ففى ولايتى داكوتا الشمالية والجنوبية قامت هيئة تأمين تعاونية بالتأمين على المزارعين ضد خسارة المحاصيل. وبينما كانت شركات التأمين الكبرى تطلب ٥٠ سنتًا على كل آكر، طلبت الهيئة التعاونية ٢٥ سنتًا وربما أقل من ذلك. لقد أصدرت هذه الهيئة ثلاثين ألفًا من بوليصات التأمين.

اعتمدت خطة الخزانة الفرعية، التى أتى بها ماكيون، على الحكومة. ولما كان الحزبان (الديمقراطى والجمهورى) غير متحمسين لمثل هذه الخطة، فكان ذلك معناه تنظيم حزب ثالث، وهذا شئ يتناقض مع أفكار ماكيون نفسه. استمرت الرابطات فى العمل، وفى عام ١٨٩٠ انتُخب ثمانية وثلاثون من رجال "رابطة المزارعين" أعضاءً فى مجلس النواب، وفى جورجيا وتكساس انتخب حاكمان من رجال الرابطة. لقد انتصرت الرابطة على الحزب الديمقراطى فى جورجيا وفازت بثلاثة أربا ع المقاعد فى المجلس التشريعى.

كان هذا، على حد قول جودوين، "ثورة مرواغة لأن إدارة الحزب بقيت فى أيدى التجمع القديم، كما أن رئاسة اللجان المهمة فى الكونجرس والمجالس التشريعية ظلت فى أيدى المحافظين ، وكانت السلطة، سواء فى الولايات أو على مستوى الأمة كلها، تحصل بأموالها على ما تريد."

لم تكن هذه الرابطات أو المنظمات لتحصل على قوة حقيقية، لكنها كانت تقوم بنشر أفكار جديدة وروح جديدة. لقد أصبحت هذه الرابطات حزبًا سياسيًا هو حزب الشعب أو الحزب الشعبى. عقد أعضاء هذه المنظمات مؤتمرهم فى عام ١٨٩٠ فى توبيكا بولاية كانساس، حيث وقفت خطيبة فصيحة من هذه الولاية وهى مارى إلين لِيسْ Ellen Lease تخطب فى جمع محتشد:

إن الوول ستريت تملك البلاد ، ولم تعد الحكومة حكومة الشعب من أجل الشعب، لكنها حكومة الوول ستريت يأتى بها الوول ستريت لمصلحة الوول ستريت... وقوانين البلاد هى نتاج نظام يُجِلّ الأوغاد على حساب الشرفاء... .

يقول الساسة إننا نعانى من وفرة الإنتاج! هذا فى الوقت الذى يموت فيه عشرة آلاف طفل جوعًا كل عام فى الولايات المتحدة وتُجبر فيه فتيات (أكثر من مائة ألف) على بيع شرفهن مقابل الطعام.... إن بالولايات المتحدة ثلاثين رجلاً تربو ثروة الواحد منهم على المليار ونصف المليار من الدولارات ، وبالولايات المتحدة أيضًا أكثر من نصف مليون شخص يبحثون عن فرصة عمل... إننا نحتاج إلى المال والأرض ووسائل النقل ، ونريد إلغاء البنوك الوطنية ونريد أن نكون قادرين على أخذ قروض من الحكومة مباشرة. نريد إلغاء قانون حبس الرهن الملعون الذى يحرم الراهنين من استرجاع أشيائهم التى قاموا برهنها... سوف نحمى بيوتنا مستخدمين القوة إذا لزم الأمر ولن ندفع ديوننا إلى الشركات المتوحشة حتى تدفع الحكومة ديونها إلينا.
لقد فاض بالناس الكيل. ألا فليحذر كلاب المال الذين لا يزالون يطاردوننا!

وفى المؤتمر الوطنى لحزب الشعب الذى عقد فى سان لويز عام ١٨٩٢، وقف إجناثيوس دونللى Ignatius Donnelly، وهو خطيب آخر فصيح من خطباء الحركة، يقرأ على الناس مقدمة المؤتمر التى أعدها بنفسه:

نلتقى اليوم وأمتنا على حافة انهيار أخلاقى وسياسى ومادى؛ فالفساد يهيمن على صناديق الاقتراع... والناس ضاعت أخلاقها... والصحف صارت إما مدعومة من الحكومة وإما مكممة، والرأى العام مقموع... والعمل كاسد وبيوتنا التى نسكنها تكبلها الديون والأرض لا تزال فى أيدى الرأسماليين. وعمال المدن محرومون من الحق فى التنظيم لحماية أنفسهم، وتضرب العمالة المستوردة أجور العمال فى مقتل، وهناك جيش مستعد دائمًا لإطلاق النار عليهم إذا لزمت الضرورة. والأغنياء يسرقون فى صفاقة عرق الملايين كى تعلو ثرواتهم يومًا بعد يوم... . إن ثمة طبقتين تخرجان من رحم الظلم الحكومى: الفقراء والمليونيرات... .

قام حزب الشعب فى مؤتمره الذى عُقد فى يوليو عام ١٨٩٢ فى أوماها بترشيح جيمس ويفر، وهو جنرال سابق بالجيش، لخوض انتخابات الرئاسة الأمريكية. لقد أصبحت الحركة الشعبية الآن مرتبطة بالنظام الانتخابى ، وكان "بوك"، المتحدث بلسان الحزب، قد قال إن بإمكانهم "أن يتكاتفوا ويمسك بعضهم بأيدى بعض فى مسيرة إلى صندوق الاقتراع من أجل استعادة مبادئ الآباء وإدارة البلاد بما فيه صالح الشعب." ورغم حصول ويفر على أكثر من مليون صوت، فقد خسر.

وصار هناك حزب سياسى جديد أخذ على عاتقه توحيد الجماعات المختلفة والمتنوعة - فقد وحَّد بين الجمهوريين الشماليين والديمقراطيين الجنوبيين، ووحَّد بين عمال المدن ومزارعى الريف، كما وحد بين البيض والسود. المقصود بهذا الحزب هو الرابطة الوطنية للمزارعين الملونين التى بلغ أعضاؤها أكثر من مليون عضو، لكن قادتها كانوا من البيض. كان هناك منظمون من السود لكن لم يكن من السهل عليهم أن يقنعوا المزارعين السود بأنهم سيتمتعون بالمكاسب التى جلبتها الإصلاحات

الاقتصادية. كان السود قد ربطوا أنفسهم بالحزب الجمهورى - حزب لينكولن وقوانين الحقوق المدنية ، أما الديمقراطيون فإنهم يمثلون حزب العبودية والتمييز العنصرى.

وكان هناك أيضاً بعض البيض الذين شعروا بالحاجة إلى الوحدة العرقية. فقد كتب أحدهم فى إحدى صحف ألاباما:

> **يتحد البيض والسود فى حربهم ضد السياسات الاقتصادية الجائرة ويتوحدون فى دعوتهم بأن على المزارعين إنشاء كيانات تعاونية وأن يصدروا صحفهم ويديروا مدارسهم وأن يكون لهم كلمة فى كل ما يعنيهم كمواطنين سواء على المستوى الفردى أو على المستوى الجمعى.**

وقام بعض السود من رجال الرابطة بإطلاق دعوات مشابهة للوحدة بين البيض والسود؛ إذ قال أحد قادة رابطة الملونين فى فلوريدا: "نحن ندرك أن مصلحة العامل الأبيض ومصلحة العامل الأسود شئ واحد." عندما تأسس حزب الشعب فى دالاس/تكساس فى صيف عام ١٨٩١، كان متعدد الأجناس وكان راديكالياً ، وكان هناك جدال شديد بين البيض والسود؛ إذ وقف أحد الناشطين السود فى "فرسان العمل" يعبر عن غضبه من بعض العبارات الغامضة التى وردت فى أدبيات الحزب والخاصة بالمساواة:

> **إذا كنا متساوين، فلماذا لا يقوم العمدة بالاستعانة بالسود فى هيئات المحلفين؟ ولماذا تُعلق علامة "زنجى" فى عربات القطار والحافلات. أريد أن أبلغ الناس عندى بما سيفعله حزب الشعب.**

ورد أحد البيض قائلاً إنه يجب أن يُعين شخص أسود من كل حى فى هيئات المحلفين وقال: "إنهم فى نفس الخندق الذى نقف فيه." وعندما اقترح أحدهم أن يكون للبيض من الرابطة أنديتهم الخاصة وكذلك الحال بالنسبة للسود، اعترض آر. إم

همفرى الزعيم الأبيض لرابطة الملونين قائلاً: "هذا لن يجدى؛ فالملونون جزء من الشعب ولابد أن يُعرفوا كذلك." وكان أن انتُخب اثنان من السود فى اللجنة التنفيذية للحزب بالولاية.

كان السود والبيض فى موقعين مختلفين، حيث كان السود إما عمالاً فى المزارع أو أجراء بينما كان معظم البيض فى الرابطة مُلاكًا للمزارع ، ولذلك فعندما أعلنت رابطة الملونين إضرابًا عن العمل فى حقول القطن عام ١٨٩١ للمطالبة بدولار فى اليوم لجامعى القطن، أدان ليونيداس بوك هذا الإضراب وقال إنه ينال من مزارعى الرابطة الذين سيضطرون إلى دفع هذه الزيادة ، وفى أركانساس، قاد شاب فى الثلاثين من عمره ويدعى بن باتيرسن **Ben Patterson** الإضراب متنقلاً من مزرعة لأخرى للحصول على مزيد من الدعم والتأييد. ازداد عدد المنضمين إليه واضطر هو وجماعته للدخول فى معارك مع بعض المعارضين البيض وكان أن قُتل مدير إحدى المزارع وحُرق أحد مخازن القطن ، وفى نهاية الأمر أُلقى القبض على باتيرسن وجماعته وقتل خمسة عشر شخصًا منهم.

وكانت هناك لحظات من الوحدة العرقية؛ فقد وجد لورانس جودوين تحالفًا غير عادى بين المسئولين البيض والسود فى شرق تكساس ، ورغم أن الحكومة كانت تسيطر على الديمقراطيين البيض، فقد فاز السود بالمناصب المحلية فى مقاطعة جرايمز، بل وأرسلوا أعضاء للمجالس التشريعية إلى عاصمة الولاية. كان ثمة نواب للعمدة من السود، كما كان هناك ناظر أسود لإحدى المدارس ، وهذا ما أثار جماعة من البيض كونوا عصابة ترهب الناس ليلاً فى محاولة لفض ذلك التحالف بين البيض والسود، بل لقد لجأت هذه العصابة إلى القتل أحيانًا. وفى كتابه **الوعد الديمقراطى،** الذى أشرنا إليه من قبل، يشير جودوين إلى "السنوات الطويلة من التعاون بين البيض والسود فى مقاطعة جرايمز" ويتعجب للفرص التى ضاعت.

كانت هناك عنصرية شديدة، وهو الأمر الذى استثمره الديمقراطيون واستطاعوا أن يكسبوا كثيراً من المزارعين الأعضاء فى حزب الشعب ، ولقد اشتدت الكراهية

العرقية عندما أُخلى عدد من المستأجرين البيض عن أراض كانوا يزرعونها وحل محلهم مستأجرون سود وذلك بعد فشل البيض فى زراعتها، وكانت ولايات الجنوب تضع دساتير جديدة من شأنها أن تحول بين السود وبين صناديق الانتخاب وذلك عن طريق وضع عبارات ملتوية المعانى فى تلك الدساتير، كما حاولت هذه الدساتير أن تُبقى على سياسة الفصل العنصرى فى شتى مناحى الحياة.

كانت اختبارات الأمية ومؤهلات الملكية من بين الأشياء التى لجأت إليها الحكومة لحرمان السود وفقراء البيض من حق التصويت ، ولقد كان القادة السياسيون بالجنوب على علم بذلك ، ففى المؤتمر الدستورى فى ألاباما وقف أحد القادة السياسيين وقال إنه يريد حرمان "كل من كان غير لائق أو غير مؤهل حتى لو أصاب ذلك بعض البيض." وفى كارولاينا الشمالية وصفت صحيفة "شارلوت أوبزيرفر" الحرمان من حق التصويت بأنه "نضال البيض فى كارولاينا الشمالية كى يخلصوا أنفسهم من خطر حكم الزنوج أو الطبقة الدنيا من البيض."

كان لتوم واطسنْ Tom Watson، أحد قادة حزب الشعب فى جورجيا، رأى يدافع عن الوحدة بين السود والبيض؛ قال موجهًا كلامه إليهما معًا:

> **هناك من يعمل على أن تظلا منفصلين كى يسهل الاستفراد بكل منكما على حدة. هناك من يعمل على أن يكره كل منكما الآخر لأن هذا هو المدخل الأساسى للاستبداد المالى الذى يستعبدكما معًا، لقد خُدعتم وعميت عيونكم كى لا تروا أن الكراهية العرقية تقوى من دعائم نظام نقدى من شأنه أن يحولكما إلى شحاذين.**

فى نظرته لحركة الحزب الشعبى فى كتابه **مصلحون متأففون** Reluctant Reformers يرى الباحث الأسود روبرت ألين Robert Allen أن واطسن إنما كان يسعى إلى تأييد ودعم السود لحزب أبيض ، وليس ثمة شك فى أن واطسن عندما

رأى أن هذا الدعم والتأييد كان مُربكًا ولم يعد مجديًا، تحولت فصاحته إلى الناحية العكسية - أى العنصرية التى كان يعارضها، بل ويهاجمها.

غير أنه من المؤكد أن واطسن قد أثار مشاعر حقيقية لدى فقراء البيض الذين وحَّد الظلم الطبقى بينهم وبين السود، وعندما تلقى إس.دويل Doyle، وهو شاب أسود يعمل بالوعظ وكان يدعم واطسن فى انتخابات الكونجرس، تهديداً بالحرق حيًا من جماعة عنصرية بيضاء، لجأ إلى واطسن طلبًا للحماية وقد ساعده كثيرون على الهرب.

كان ذلك زمنًا يعكس بحق التعقيدات العميقة للصراع الطبقى والعرقى، ففى جورجيا عام ١٨٩١ وبعد تكوين المجلس النيابى الذى تهيمن عليه "الرابطة"، أصدر ذلك المجلس أكبر عدد من القوانين المناهضة للسود خلال عام واحد فى تاريخ جورجيا، على حد قول روبرت ألان وقد أدان حزب الشعب فى عام ١٨٩٦ جريمة حرق السود أحياء وطالب الحزب بإلغاء نظام تأجير السجناء.

يشير سى. فان وودوارد Woodward إلى المزية الفريدة فى تاريخ حزب الشعب فى الجنوب بقوله: "لم يحدث من قبل ولا من بعد أن اقترب البيض والسود فى الجنوب كما حدث فى فترة نضال أصحاب حزب الشعب." كما قامت الحركة الشعبية بمحاولة جريئة ولافتة وهى محاولة تكوين ثقافة جديدة ومستقلة للمزارعين. لقد استطاع مكتب التثقيف بالحزب أن يصل إلى مختلف أنحاء البلاد إذ كان لديه خمسة وثلاثون ألفًا من المحاضرين ، وقد أصدر الشعبيون كتبًا ونشرات من مطابع خاصة بهم. يقول وودوارد:

> **يستطيع المرء أن يدرك من واقع النشرات التى أصدرها الشعبيون أنهم أخذوا على عاتقهم إعادة تعليم المزارعين، وذلك بأن لفظوا "كتب التاريخ كما يُدرَّس فى المدارس "بوصفها" عديمة القيمة، فى واقع الأمر." ثم قرروا أن يعيدوا كتابة التاريخ**

منذ تاريخ الإغريق فصاعداً. وفى جرأة لا تعرف ندمًا أو تراجعًا أعملوا أياديهم فى مراجعة الاقتصاد والنظرية السياسية والقانون والحكومة.

ولقد بلغ عدد قراء مجلة ناشيونال ايكونومست، التى يصدرها أصحاب حزب الشعب، مائة ألف قارئ، ويشير جودوين إلى وجود أكثر من ألف صحيفة تابعة لحزب الشعب فى تسعينيات القرن التاسع عشر، فقد كانت هناك صحف مثل Comrade (الرفيق) التى كانت تصدر فى لويزيانا وصحيفة تويلرز فريند (صديق الكادح) فى ريف جورجيا. وكانت هناك أيضًا صحيفة ريفوليوشن (الثورة) فى جورجيا. وقد قام أعداء الحزب بإحراق مطبعته فى كارولاينا الشمالية. وفى ألاباما، هاجم بعض من أعضاء الحزب مقر صحيفة ليفنج تروث (الحقيقة الحية) فى عام ١٨٩٢, وفى العام التالى أحرقوا المبنى غير أن الصحيفة ظلت تصدر ولم تمتنع عن الصدور حتى ولو لمدة عدد واحد.

الجدير بالذكر أن الحركة الشعبية أخرجت مئات من القصائد والأغانى منها على سبيل المثال أغنية "المزارع هو الإنسان":

المزارع هو الإنسان

يعيش بالقروض حتى الخريف

وفوائد القروض عالية

والعجيب أنه لا يموت

بينما يحصد مانح القروض كل شئ

المزارع هو الإنسان

يعيش بالقروض حتى الخريف

وسرواله ممزق قديم

ينسى أنه الذى يطعم الجميع

المزارع هو الإنسان

انتشرت قراءة بعض الكتب التى ألفها قادة الحركة الشعبية مثل كتاب هنرى ديماريست لويد Henry Demarest Lloyd: الثروة ضد الكومنولث Wealth against Commonwealth وكتاب وليم هارفى كوين William Harvey Coin المدرسة المالية Financial School . ووصف مؤرخ من ألاباما هو وليم جاروت براون William Garrott Brown الحركة الشعبية وأثرها بقوله: "لم تغير حركة من الحياة فى الجنوب على نحو عميق كما غيرت الحركة الشعبية بما فى ذلك حركات أعوام ١٧٧٦ و١٨٦٠-١٨٦١" وفقًا لرأى لورانس جودوين، فلو استطاعت الحركة العمالية فى المدن أن تفعل ما فعلته حركة المزارعين فى المناطق الريفية - أى لو تعلم العمال فى المدن ثقافة التعاون واحترام النفس والقدرة على التحليل الاقتصادى، فربما كان هناك حركة تغيير عظيمة فى الولايات المتحدة. نعم كان هناك بعض اتصالات بين الحركتين لكن لم يُلب أحدهما احتياجات الآخر ولا تكلم عنها بفصاحة ، كما كانت هناك علامات وعى مشترك بين الحركتين كان من شأنه، لو اختلفت الظروف، أن يؤدى إلى حركة كبيرة موحدة.

بعد دراسة عن قرب لصحف الحركة الشعبية فى الوسط الغربى الأمريكى، يرى نورمان بولاك Pollack أن "الحركة الشعبية اعتبرت نفسها حركة طبقية منطلقة من فكرة أن العمال والفلاحين ينتمون لطبقة واحدة فى المجتمع." تتحدث افتتاحية رابطة المزارعين عن إنسان يعمل لمدة أربعة عشر أو ستة عشر ساعة يوميًا: "إنه يُعامل معاملة وحشية بدنيًا ومعنويًا. ليس لديه أفكار بل ميول غريزية، وليس لديه معتقدات بل غرائز." ويرى بولاك فى ذلك صيغة مبسطة لفكرة ماركس عن تغريب العامل عن نفسه فى ظل الرأسمالية، كما يرى تشابهات أخرى كثيرة بين فكر حزب الشعب وبين الماركسية.

ولا شك أن الشعبين كانت لديهم - كمعظم الأمريكيين البيض - عنصرية فى تفكيرهم. غير أنهم لم ينظروا إلى العرق بوصفه مهمًا كأهمية النظام الاقتصادى. ولقد جاء بمجلة "فارمرز ألايانس" : "لقد خرج حزب الشعب ليس لتحرير الإنسان الأسود ولكن لتحرير الناس جميعًا ... من أجل أن يكتسبوا الحرية الصناعية التى لا تتوافر بدونها الحرية السياسية..."

كان الشىء الأكثر أهمية من الصلات النظرية يكمن فى عبارات التأييد للعمال فى نضالهم؛ فخلال الإضراب الكبير فى مصانع كارنيجى للحديد الصلب، جاء بمجلة The Alliance Independent فى نبراسكا: "سوف يرى كل الذين لا يتوقفون عند سطح الأشياء أن المعركة الدموية التى وقعت فى هومستيد لم تكن غير حلقة صغيرة فى سلسلة الصراع بين رأس المال والعمل. من جهة أخرى أثارت مسيرة كوكسى للعاطلين عن العمل تعاطفًا كبيرًا فى المناطق الريفية؛ ففى أوسيولا بنبراسكا، خرج حوالى خمسة آلاف فى نزهة على شرف كوكسى ، وفى أثناء إضراب بولمان كتب فلاح إلى حاكم كانساس: "لا جدال فى أن كل أعضاء رابطة المزارعين تقريبًا متعاطفون تمامًا مع المضربين."

وعلى قمة الإخفاقات فى التوحيد بين السود والبيض أو بين عمال المدن ومزارعى الريف، كان هناك شَرَك السياسة الانتخابية - وكل هذا تجمع من أجل تقويض الحركة الشعبية. فإذا تحالفت الحركة الشعبية مع الحزب الديمقراطى فى تأييد وليم جيننجس برايان William Jennings Bryan فى انتخابات الرئاسة عام ١٨٩٦، كان عليها أن تغرق فى بحر من سياسة الديمقراطيين ، كما دفع الضغط من أجل النصر فى الانتخابات هذه الحركة إلى أن تعقد صفقات مع الأحزاب الرئيسية فى مدينة بعد الأخرى ، فلو فاز الديمقراطيون، فسيقوم هذا الحزب باستيعاب الحركة الشعبية وإذا خسروا، فسوف تتفكك الحركة تلقائيًا. لقد جلبت سياسة الانتخابات سماسرة سياسيين إلى قمة قيادة الحركة بدلاً من أن يكون على قمتها الراديكاليون.

كـان هناك راديكاليـون شـعـبـيـون يشـهـدون ذلك، فـرأوا أن الاندمـاج مع الديمقراطيين من أجل محاولة الكسب فى الانتخابات سوف يجعلهم يخسرون أهم شئ يحتاجونه وهو أنهم يمثلون حركة سياسية مستقلة ، وقد رأى هؤلاء أن قيام الحكومة بسك العملات الفضية لن يغير من أمر النظام الرأسمالى شيئًا ، وقال أحد الراديكاليين فى تكساس أن سك العملات الفضية لن "يغير من الظروف التى تدعم تركيز الثروة على هذا النحو." وقد لاحظ هنرى ديماريست لويد أن ترشيح برايان كان يدعـمـه كل من مـاركـوس دالى (صـاحب شـركـات أنا كـوندا للنحـاس) ووليم راندولف هيرست (المستفيد الأكبر من فوائد الفضة فى الغرب) ، واستطاع لويد أن يسبـر غور بلاغة برايان التى أثارت جمعًا يتألف من عشرين ألفًا من البشر فى مؤتمر الحزب الديمقراطى حيث قال برايان: "كم توسلنا وكانت توسلاتنا موضع الاحتقار ، وكم رجونا! لكن أحدًا لم يهتم برجائنا! وكم تسوَّلنا وكانوا يسخرون منا. لن نتسول بعد اليوم! ولن نتوسل إلى أحد منهم بعد اليوم! نحن نتحداهم." وكتب لويد فى مرارة:

> **أفراد الشعب المساكين يلقون بقبعاتهم فى الهواء ابتهاجًا بالذين يعدونهم بالخروج من التيه عن طريق العُملة.... على هؤلاء المساكين أن يضربوا فى تيه العملة أربعين سنة تمامًا كما قضوا أربعين سنة يضربون فى تيه قانون التعريفة.**

وفى انتخابات عام ١٨٩٦، ومع وقوع الحركة الشعبية تحت غواية الحزب الديمقراطى، هُزم برايان، مرشح الحزب الديمقراطى، والذى احتشدت من أجله الشركات والصحافة فى أول استخدام واسع المدى لتأثير المال فى الحملات الانتخابية ، لقد هزم برايان أمام وليم ماكينلى **McKinley**، لقد ذابت الحركة الشعبية داخل الحزب الديمقراطى حتى لم يكن هناك إشارة إلى الحركة داخل الحزب، وخرجت المدافع الكبيرة للمؤسسة ومعها ذخيرتها من باب الاحتياط.

وكعهد أوقات الانتخابات فى الولايات المتحدة، جاء وقت الانتخابات التى هزم فيها برايان لكى تدعم النظام القائم بعد سنوات من الغضب والتمرد. وفى الجنوب كان السود لا يزالون تحت السيطرة والهنود يدفعون بعيداً والى الأبد من السهول الغربية، حيث قام جنود الجيش الأمريكى فى ليلة باردة بقتل ثلاثمائة من الهنود كان منهم شيوخ ونساء وأطفال وذلك فى "ووندِيدْ نى" Wounded Knee بداكوتا الجنوبية. كان ذلك قمة أربعة قرون من العنف الذى بدأ بوصول كولومبس إلى هذه البلاد، وبذلك أُرسى مبدأ أن هذه القارة تنتمى إلى البيض ، ولكن ليس إلى جميع البيض بل إلى شريحة منهم، لأنه بمجىء العام ١٨٩٦ كان واضحًا أن الدولة كانت مستعدة لسحق أى إضرابات عمالية وذلك عن طريق القانون ما أمكن وعن طريق استخدام القوة ما دعت الضرورة لذلك ، وحيثما تكونت حركة تمثل خطراً على النظام القائم، نهض الديمقراطيون والجمهوريون لإرسال أحد أعمدتهم لاحتواء تلك الحركة وتجفيف منابع الحيوية فيها.

ودائمًا، وكطريقة لإغراق السخط الطبقى فى فيضان من الشعارات التى تتكلم عن الوحدة الوطنية، كانت هناك الكلمة ذات الرنين الخاص: الوطنية، وكان الرئيس ماكينلى قد قال فى ربط بلاغى نادر بين المال وعَلَم البلاد:

> **... سيكون هذا العام عام الوطنية والإخلاص للبلاد. ويسعدنى أن أعرف أن الشعب فى كل أرجاء البلاد ينوى كل الإخلاص لعلَم البلاد، لنجومه وخطوطه العظيمة وأن شعب هذه الأمة ينوى أن يصون الشرف المالى لهذه البلاد صونه شرف العلَم.**

وكان الفعل الأسمى للوطنية هو الحرب، فبعد عامين من تسلم ماكينلى مقاليد الحكم، أعلنت الولايات المتحدة الحرب على إسبانيا.

الفصل الثانى عشر

الإمبراطورية والشعب

فى عام ١٨٩٧ كتب تيودور روزفلت إلى صديق: "يجب علىَّ أن أرحب، بكل ثقة، بأى حرب لأننى أعتقد أن بلدنا فى احتياج إليها." وفى عام المذبحة التى وقعت فى ووندد نى Wounded Knee (١٨٩٠) ، أعلن مكتب الإحصاء رسميًا بأن الجبهة الداخلية قد أُغلقت، وأن نظام الأرباح بميله الطبيعى إلى التوسع، قد بدأ بالفعل يتطلع إلى ما وراء البحار ، ومن المعروف أن الأزمة الاقتصادية التى بدأت فى عام ١٨٩٣ قد دعمت فكرة كانت تتطور داخل النخبة السياسية والاقتصادية فى البلاد مفادها أن الأسواق الخارجية التى تستوعب البضائع الأمريكية من الممكن أن تخفف من المشاكل الاقتصادية للبلاد وتمنع حدوث الأزمات الاقتصادية التى أدت إلى حرب طبقية فى تسعينيات القرن التاسع عشر.

ألن يكون حريًا بمغامرة خارجية أن تصرف الطاقة المتمردة التى ظهرت فى الإضرابات وحركات الاحتجاج - إلى عدو خارجى؟ ألن يوحد أمر كهذا بين الشعب وبين الحكومة والقوات المسلحة بدلاً من أن يعاديها؟ ربما لم تكن هذه خطة واعية بين معظم أفراد النخبة ـ لكنها كانت تطوراً طبيعياً للتوأمين: الرأسمالية والقومية.

لم يكن التوسع فى ما وراء البحار بالشىء الجديد. حتى قبل أن تحمل الحرب ضد المكسيك الولايات المتحدة إلى المحيط الهادى، فقد اتجه مذهب مونرو إلى الجنوب صوب الكاريبى بل وإلى ما هو أبعد من ذلك. بصدور هذا المذهب فى عام ١٨٢٣،

عندما كانت دول أمريكا اللاتينية تحصل على استقلالها من الحكم الأسبانى، فقد أعلن هذا المذهب للدول الأوربية أن الولايات المتحدة تعتبر أمريكا اللاتينية مجالاً لنفوذها ، ولم يكد يمر بعض الوقت حتى بدأ بعض الأمريكيين فى التفكير باتجاه المحيط الهادى: إلى هاوايى واليابان والأسواق الكبرى فى الصين. بل كان هناك ما هو أكثر من التفكير، فقد كانت القوات المسلحة قد بدأت بالفعل فى غاراتها فى ما وراء البحار ؛ ثمة قائمة أصدرتها وزارة الخارجية تشمل "حالات لجوء الولايات المتحدة إلى القوات المسلحة (١٧٩٨ ـ ١٩٤٥)". قدم هذه القائمة وزير الخارجية دين راسك إلى لجنة مجلس الشيوخ عام ١٩٦٢ كى يذكر سوابق استخدام القوة المسلحة ضد كوبا. وتكشف القائمة عن ١٠٣ تدخل فى شئون البلاد الأخرى فى الفترة من عام ١٧٩٨ إلى عام ١٨٩٥ وها هى عينة من القائمة مصحوبة بالوصف الذى قدمته وزارة الخارجية لكل تدخل:

- ١٨٥٢ـ٥٣ الأرجنتين. أُنزلت قوات المارينز فى بيونيس أيريس وبقيت هناك لحماية المصالح الأمريكية أثناء قيام ثورة هناك.

- ١٨٥٣ـ نيكاراجوا. لحماية الأمريكيين والمصالح الأمريكية هناك أثناء اضطرابات سياسية.

- ١٨٥٣ـ٥٤ ـ اليابان. "فتح اليابان" وحملة بيرى (لا تقدم الخارجية تفاصيل كافية) لكن هذا التدخل شمل استخدام سفن حربية لإجبار اليابان على فتح موانيها أمام تجارة الولايات المتحدة.

- ١٨٥٣ـ٥٤ ـريوكيو وجزر بونين. قام كومودور بيرى بثلاث زيارات قبل الذهاب إلى اليابان ، وفى أثناء انتظاره رداً من اليابان، قام باستعراض بحرى حيث أنزل قوات مارينز مرتين وضمن امتيازاً بالتنقيب عن الفحم من حاكم ناها بجزيرة أوكيناوا ، كما قام بيرى بنفس الاستعراضات فى جزر بونين. كل ذلك من أجل ضمان تسهيلات للتجارة الأمريكية.

• ١٨٥٤ ـ نيكاراجوا. دمر الأمريكيون جراى تاون ليثأروا لإهانة لحقت بالسفير الأمريكى فى نيكاراجوا.

• ١٨٥٥ ـ أوروجواى. نزلت القوات البحرية الأمريكية والأوربية هناك لحماية المصالح الأمريكية أثناء محاولة القيام بثورة.

• ١٨٤٩ ـ الصين. من أجل حماية المصالح الأمريكية فى شنغهاى.

• ١٨٦٠ ـ أنجولا. غرب أفريقيا. لحماية الأملاك الأمريكية والمواطنين الأمريكيين فى كيسيمبو عندما صار أهل البلاد مثيرين للمشاكل.

• ١٨٩٣ ـ هاوايى. دخلت القوات الأمريكية تحت زعم حماية أرواح الأمريكيين والأملاك الأمريكية ولكنها فى حقيقة الأمر دخلت لدعم حكومة مؤقتة تحت قيادة سانفورد بى. دول ، وأنكرت الحكومة الأمريكية قيامها بهذا.

• ١٨٩٤ ـ نيكاراجوا. من أجل حماية المصالح الأمريكية فى بلوفيلد فى أعقاب ثورة هناك.

وبحلول العقد الأخير من القرن التاسع عشر، كانت هناك خبرة كبيرة فى مجال التدخلات والمغامرات فيما وراء البحار. كانت أيديولوجية التوع منتشرة بين الدوائر العليا للعسكريين والسياسيين ورجال الأعمال وحتى بين زعماء حركات المزارعين الذين اعتقدوا أن الأسواق الأجنبية من شأنها أن تحل بعض مشاكل المزارعين.

كان للكابتن إيه. تى. ماهان Mahan، صاحب الخبرة البحرية الكبيرة وأحد مروجى فكرة التوسع، تأثير كبير على تيودور روزفلت وكذلك على قادة أمريكيين آخرين. كان ماهان يقول إن الأمم التى تملك أكبر سلاح بحرى هى التى سترث الأرض. وقال: "على الأمريكيين الآن أن يبدءوا فى النظر إلى الخارج." وكتب هنرى كابوت لودج، سيناتور ماساتشوستس، فى إحدى مقالاته:

إنه لمن صميم مصالحنا التجارية... أن ننشئ قناة نيكاراجوا. ومن أجل حماية هذه القناة ومن أجل تفوقنا التجارى فى المحيط الهادى، علينا أن نهيمن على الجزر الهاوايية ونبقى على نفوذنا فى ساموا... وببناء قناة نيكاراجوا، ستصبح قناة كوبا... ضرورة أخرى... . الأمم العظيمة تمتص فى سرعة كل الأراضى اليباب من أجل توسعها المستقبلى ومن أجل الدفاع عن قوتها. إنها حركة صناعة الحضارة وتقدم الجنس البشرى. وكأمة من بين أمم العالم العظيمة، على الولايات المتحدة ألا يفوتها هذا.

وخرجت إحدى افتتاحيات واشنطن بوست، عشية الحرب الأسبانية الأمريكية، تقول:

يبدو أنه قد أشرق علينا وعى جديد - هو وعى القوة وجاء معه شوق جديد لإظهار هذه القوة. نحن الآن يحركنا إحساس جديد هو إحساس الطموح والفخر والحرص على المصالح - إحساس بمجرد متعة القتال، سمِّه ما شئت. نحن الآن فى مواجهة مع مصير غريب. إن مذاق الإمبراطورية يملأ أفواه الناس... .

هل كان هذا المذاق فى أفواه الناس نتيجة شهوة غريزية للعدوان أو نتيجة لمصلحة ما عاجلة؟ أم أنه كان مذاقًا (إذا كان هناك شئ بهذا الاسم) خلقته وشجعته وروجت له فى مبالغة شديدة صحافة المليونيرات والحكومة والمؤسسة العسكرية فضلاً عن الباحثين الجاهزين دائمًا ليميلوا حيث تميل الحكومة. يقول أستاذ العلوم السياسية جون بيرجيس إن الأجناس الأنجلو ساكسونية والجرمانية "تتمتع بقدرة خاصة على بناء الدول القومية... إنهم يحملون مهمة بناء الحضارة السياسية للعالم الحديث."

قبل سنوات عدة من انتخابه رئيساً للبلاد، قال وليم ماكينلى: "نريد سوقًا أجنبية للفائض من منتجاتنا." وأعلن سيناتور انديانا ألبرت بيفريدج فى أوائل ١٨٩٧: "إن المصانع الأمريكية تنتج أكثر مما يحتاجه الأمريكيون، والأراضى الأمريكية تنتج أكثر مما يستهلك الناس. لقد كتب القدر سياستنا؛ إن التجارة فى العالم لنا وسوف تظل كذلك." وجاء شرح وزارة الخارجية فى عام ١٨٩٨:

> **يبدو أنه يجب التسليم بأننا يواجهنا كل عام فائض متزايد من البضائع المصنعة للبيع فى أسواق أجنبية إذا ما استمرينا فى توظيف نفس العدد من العمال والحرفيين على مدار العام. إن التزايد فى الاستهلاك الأجنبى لمنتجاتنا أصبح مشكلة سياسية بقدر ما هو مشكلة تجارية.**

كان العسكريون والسياسيون المؤمنون بمذهب التوسع على اتصال بعضهم ببعض. يحكى لنا أحد كتاب سيرة تيودور روزفلت: "بحلول العام ١٨٩٠ كان لودج وروزفلت وماهان يتبادلون وجهات النظر فيما بينهم." وقد حاول لودج وروزفلت أن يجعلا ماهان يترك الخدمة البحرية "حتى يتمكن من الاستمرار للتفرغ من أجل الترويج لدعايته الخاصة بمذهب التوسع." أرسل روزفلت ذات مرة نسخة من قصيدة لروديارد كيبلنج إلى صديقه هنرى كابوت لودج وقال له "إنها فقيرة فى شعرها لكنها غنية من ناحية مضمونها التوسعى."

وعندما لم تقم الولايات المتحدة بضم هاوايى فى العام ١٨٩٣ بعد أن أقام بعض الأمريكيين (المصلحة المشتركة بين التبشير وتجارة الأناناس لعائلة دولْ) حكومتهم الخاصة، أطلق روزفلت على هذا التردد وصف "جريمة ضد الحضارة البيضاء." وقال أمام كلية الحرب البحرية: "دائمًا ما كانت الأجناس العظيمة أجناسًا مقاتلة... إن انتصاراً سلمياً لا يدانى فى عظمته انتصاراً حربيًا." كان روزفلت يحتقر الأجناس والأمم التى يعتبرها أقل مرتبة. فعندما قامت جماعة من الغوغاء فى نيو أورلينز بحرق عدد من المهاجرين الإيطاليين، رأى روزفلت أن على الحكومة الأمريكية أن تدفع بعض

التعويض إلى الحكومة الإيطالية. لكن بينه وبين نفسه كتب إلى أخته قائلاً إنه يرى أن مسألة حرق بعض الإيطاليين أحياءً "ربما كان شيئًا طيبًا."

كتب الفيلسوف وليم جيمس، الذى أصبح واحداً من المناهضين البارزين للإمبريالية فى ذلك الوقت، عن تيودور روزفلت قائلاً إنه "يجرى وراء الحرب كظرف مثالى للمجتمع البشرى وذلك للنشاط والحماس الذى تخلقه الحرب، ويرى روزفلت أن السلام يشى بالخنوع والخسة ولا يليق إلا بالضعفاء ويسكن المناطق الرمادية كما إنه عاطل من الحياة الأسمى... ."

لم يكن حديث روزفلت عن التوسع مجرد نوع من الرجولة والوطنية، لقد كان واعيًا بمسألة "علاقتنا التجارية مع الصين." وكان لودج، من ناحية أخرى، واعيًا بمصالح صناعة الغزل والنسيج فى ولاية ماساتشوستس التى كانت تتطلع إلى الأسواق الأسيوية. لقد كتبت المؤرخة مارلين يونج عن عمل الشركة الأمريكية لتنمية الصين التى كان هدفها توسيع النفوذ الأمريكى فى الصين لأسباب تجارية. كما كتبت عن تعليمات الخارجية الأمريكية لمبعوثها هناك بأن "يوظف كل الطرق من أجل تمديد المصالح الأمريكية فى الصين." تقول هذه المؤرخة فى كتابها بلاغة الإمبراطورية إن الحديث عن الأسواق فى الصين كان أكبر كثيراً من المبلغ الفعلى من الدولارات العائدة فى ذلك الوقت، غير أن هذا الحديث كان مهمًا فى تشكيل السياسة الأمريكية تجاه هاواى والفلبين وكل آسيا.

وبينما كان صحيحًا أن ٩٠٪ من المنتجات الأمريكية كانت تباع داخل الوطن فى عام ١٨٩٨، فقد وصل الباقى الذى يُباع فى الخارج إلى مليار دولار. فى كتابه **الإمبراطورية الجديدة The New Empire**، يقول والتر لافيبر: "بمجىء عام ١٨٩٣ تجاوزت التجارة الأمريكية تجارة أى دولة فى العالم باستثناء إنجلترا. اعتمدت المنتجات الزراعية فى ازدهارها طويلاً على الأسواق الأجنبية لاسيما المحاصيل الكبرى كالتبغ والقطن والقمح." وفى العشرين عامًا التى سبقت عام ١٨٩٥، وصلت الاستثمارات الجديدة للرأسماليين الأمريكيين فيما وراء البحار إلى مليار دولار ، وفى

عام ١٨٨٥ كتبت مطبوعة صناعة الحديد "إيج أوف ستيل" تقول إن الأسواق الداخلية لم تكن كافية لاستيعاب الإنتاج وأن زيادة الإنتاج فى المنتجات الصناعية "يجب أن تخفف وتمنع فى المستقبل... ."

أما البترول فقد صار سلعة كبيرة للتصدير فى ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر، ففى عام ١٨٩١ كانت شركة "ستاندرد أويل كامبنى" التى تملكها عائلة روكفيللر مسئولة عن ٩٠٪ من صادرات أمريكا من الكيروسين كما كانت الشركة تسيطر على ٧٠٪ من أسواق العالم. كان البترول هو السلعة الثانية بعد القطن فى منتجات التصدير.

كانت هناك مطالبات بالتوسع عن طريق كبار المزارعين بمن فيهم القادة الشعبيين كما وضح وليم آبل مان وليامز فى كتاب **جذور الإمبراطورية الأمريكية** الحديثة The Roots of the Modern American Empire كذلك تحدث جيرى سيمبسون رجل الكونجرس عن ولاية كانساس لأعضاء الكونجرس عن الفائض الكبير فى الإنتاج الزراعى وقال إن "على المزارعين أن يبحثوا عن سوق أجنبى." ورغم أنه لم يكن يدعو إلى عدوان أو غزو، فإنه بمجرد رؤية الأسواق الأجنبية على أنها مهمة من أجل رخاء البلاد، فإن السياسات التوسعية بل وحتى الحرب تصبح مقبولة على نطاق كبير.

مثل هذا القبول يصير قويًا لاسيما إذا بدا التوسع كأنه فعل كريم كمساعدة جماعة متمردة فى الإطاحة بحكم أجنبى مثل الحال فى كوبا. ففى عام ١٨٩٨ كان المتمردون الكوبيون يحاربون غزاتهم الأسبان لثلاث سنوات فى محاولة لتحقيق الاستقلال. فى ذلك الوقت، كان من الممكن خلق مزاج قومى يبرر التدخل. بيد أن مصالح العمل الخاصة بالأمة لم تكن فى البداية فى حاجة إلى التدخل العسكرى فى كوبا. فالتجار الأمريكيون لم يحتاجوا مستعمرات ولا حروب للغزو طالما وصلوا إلى الأسواق المنشودة. ومن هنا، أصبحت فكرة "الباب المفتوح" هى المهيمنة على السياسة الخارجية الأمريكية فى القرن العشرين. كانت هذه الفكرة مدخلاً مركبًا عميقًا

للإمبريالية وهو ما يختلف عن البناء التقليدى للإمبراطوريات على النمط الأوروبى. وفى كتابه **مأساة الدبلوماسية الأمريكية** **The Tragedy of American Diplomacy** يقول وليم آبل مان وليامز:

> **عادة ما يُفسَّر هذا الجدال القومى بوصفه معركة بين الإمبرياليين بقيادة تيودور روزفلت ولودج وبين المعادين للإمبريالية بقيادة وليم جيننجز وكارل شورز. غير أن الأمر يصير أكثر دقة ووضوحًا إذا نظرنا لهذا الجدل على أنه يمتلك ثلاث زوايا. الزاوية الثالثة فى هذا الجدل تمثلها جماعة من تحالف رجال الأعمال والمثقفين والسياسيين الذين كانوا يعارضون الاستعمار التقليدى وكانوا يفضلون عليه سياسة الباب المفتوح الذى من خلاله يستطيع الاقتصاد الأمريكى بقوته أن يدخل كل المناطق المتخلفة فى العالم ويهيمن عليها.**

كان هذا التفضيل من جانب بعض رجال الأعمال والسياسيين لما يسميه وليامز "الإمبراطورية غير الرسمية" التى تقوم دون حرب دائمًا موضع تغيير. فلو ثبت أن الإمبريالية المسالمة مستحيلة، فلا مانع من استخدام الإجراء العسكرى.

على سبيل المثال، فى أواخر عام ١٨٩٧ وأوائل عام ١٨٩٨ كانت الصين منهكة بعد حربها مع اليابان. هنا تحركت القوات الألمانية واحتلت ميناء تسينج تاو فى فم خليج كياوتشاو وطالبت بأن يكون لها ميناء بحرى هناك مع الحق فى استخدام السكك الحديدية ومناجم الفحم فى شبه جزيرة شانتونج القريبة. وخلال الشهور القليلة التالية، تحركت قوى أوربية أخرى باتجاه الصين وكان تقسيم الصين بين القوى الإمبريالية فى طريقه للحدوث وتركت هذه القوى الولايات المتحدة دون نصيب. هنالك قامت صحيفة "جورنال أوف كوميرس" بنيويورك، التى كانت تدافع عن التطور السلمى للتجارة الحرة، بالتحريض على الاستعمار العسكرى التقليدى وفيها يصف يوليوس برات، مؤرخ مذهب التوسع، نقطة التحول تلك بقوله:

لقد رأت هذه الصحيفة، التى تميزت بإيمانها بالسلام ومعاداتها للإمبريالية وكرست نفسها لتنمية التجارة فى عالم التجارة الحر، أن أساس إيمانها يتقوض كنتيجة للتهديد بتقسيم الصين. بإعلانها أن الوصول الحر إلى الأسواق الصينية بتعداد سكانها البالغ ٤٠٠ مليون نسمة من شأنه أن يحل مشكلة الفائض الصناعى لدينا، خرجت الصحيفة ليس فقط من أجل الإصرار على حقوق متساوية فى الصين ولكن أيضًا من أجل الحصول على قناة برزخية وضم هاوايى وزيادة فى حجم القوة البحرية الأمريكية ، وليس ثمة ما هو أكثر دلالة من هذا التحول الذى مرت به الصحيفة فى أسابيع قليلة... .

كان هناك تحول مشابه فى توجهات البيزنس تجاه كوبا فى عام ١٨٩٨ فمنذ بداية تمرد **الكوبيين** ضد إسبانيا، كان رجال الأعمال الأمريكيون مهتمين بالإمكانيات التجارية للجزيرة وهى التى لخصها الرئيس جروفر كليفلاند فى ١٨٩٦ تقول التقديرات المعقولة بأن من ٣٠ إلى ٥٠ مليون دولار من رأس المال الأمريكى مستثمر فى مزارع ومناجم ومؤسسات الجزيرة. كما إن حجم التجارة بين الولايات المتحدة وكوبا، الذى كان قد بلغ ٦٤ مليون دولار فى عام ١٨٨٩، ارتفع فى عام ١٨٩٣ إلى ١٠٣ ملايين دولار، وقد كان التأييد الشعبى للثورة الكوبية قائمًا على فكرة أنهم مثل الأمريكيين فى عام ١٧٧٦، كانوا يخوضون حربًا من أجل التحرير أما الحكومة الأمريكية، وهى النتاج المحافظ لحرب ثورية، فكانت الأرباح والقوة تشغل ذهنها وهى تشاهد ما يحدث فى كوبا. لم يعترف الرئيس كليفلاند رسميًا، أثناء السنوات الأولى للثورة الكوبية، ولا الرئيس ماكينلى الذى خلف كليفلاند، بأن المتمردين كانوا محاربين. كان مثل هذا الاعتراف القانونى من شأنه أن يمكن الولايات المتحدة من مساعدة المتمردين دون حاجة لإرسال جيش ، ولكن ربما كان هناك خوف من أن ينتصر المتمردون وتبقى الولايات المتحدة خارج الصورة.

كان هناك على ما يبدو نوع من الخوف، وقالت إدارة كليفلاند إن انتصاراً كوبياً قد يؤدى إلى "إقامة جمهورية للبيض وجمهورية للسود" لأن كوبا كان بها خليط من الجنسين ، وربما تكون الجمهورية السوداء هى المهيمنة. هذه الفكرة عبر عنها مقال نشر فى عام ١٨٩٦ فى مجلة "ذا ساتدرداى ريفيو" كتبه شاب إمبريالى فصيح أمه أمريكية وأبوه إنجليزى واسمه: ونستون تشرشل. قال تشرشل إنه بالرغم من سوء الحكم الإسبانى والدعم الذى يلقاه المتمردون من الشعب، فإنه من الأفضل أن يظل الحكم الإسبانى موجوداً: "إن خمسى المتمردين من الزنوج. وهؤلاء، فى حالة نجاحهم، سوف يطالبون بنصيب أكبر فى حكومة البلاد، والنتيجة أن جمهورية سوداء أخرى ستكون فى الطريق."

والإشارة إلى جمهورية سوداء "أخرى" تعنى هايتى التى أدت ثورتها ضد فرنسا فى عام ١٨٠٣ إلى أن تكون أول دولة يحكمها رجال سود فى العالم الجديد. كتب السفير الإسبانى لدى الولايات المتحدة إلى وزير الخارجية الأمريكى:

> **فى هذه الثورة، يلعب العنصر الزنجى أهم الأدوار. فليست المشكلة فى أن القادة الكبار ملونون ولكن ثمانية أعشار من المؤيدين على الأقل ملونون. ونتيجة الحرب إذا قامت هى استقلال الجزيرة، فسيكون هناك انفصال للعنصر الزنجى، بل وستكون هناك جمهورية سوداء.**

يقول فيليب فونر Foner فى دراسته ذات المجلدين **الحرب الإسبانية الكوبية** الأمريكية The Spanish-Cuban-American War إن "إدارة ماكينلى كان لديها خطط بشأن التعامل مع الموقف الكوبى ولكن هذه الخطط لم تتضمن شيئًا عن استقلال الجزيرة." ويشير فونر إلى تعليمات الإدارة الأمريكية لسفيرها لدى إسبانيا ستيوارت وودفورد طالبة منه أن يحل مشكلة الحرب لأنها "ذات ضرر كبير فى تأثيرها على المجرى الطبيعى للبيزنس وتأخيرها حلول الازدهار والرخاء." ولكن دون ذكر مسألة الحرية والعدل من أجل الكوبين ، ويشرح فونر اندفاع إدارة ماكينلى إلى الحرب

(حيث لم تمهل إسبانيا وقتًا كافيًا للتفاوض) بأنه "لو انتظرت الولايات المتحدة وقتًا أطول، لانتصرت القوات الثورية الكوبية وحلت محل النظام الإسباني المنهار."

وفى فبراير عام ١٨٩٨ دمَّر انفجار ملغز السفينة البحرية "مينْ" وأغرقها. وكانت هذه السفينة تقف فى ميناء هافانا كرمزٍ على الاهتمام الأمريكى بما يحدث فى كوبا وغرق مَنْ كانوا على متنها ٢٦٨ رجلاً. لم يظهر هناك أى دليل على سبب الانفجار غير أن الإثارة زادت سريعًا فى الولايات المتحدة وبدأ الرئيس ماكينلى يتحرك باتجاه الحرب. يقول والتر لافيير:

> **لم يكن الرئيس يريد الحرب، لقد كان صادقًا ومخلصًا فى جهوده من أجل السلام. وبمجيء منتصف مارس بدأ الرئيس يكتشف أنه بالرغم من أنه لم يكن يريد الحرب، فقد كان بالفعل يريد ما يمكن أن تجلبه الحرب: أى اختفاء الشك المخيف فى الحياة الأمريكية السياسية والاقتصادية ، كما أن الحرب ستعطيه أساسًا يستأنف منه بناء الإمبراطورية الأمريكية التجارية الجديدة.**

وعند نقطة ما فى ذلك الربيع، بدأ الرئيس ماكينلى ومجتمع البيزنس يرون أن هدفهم - إخراج إسبانيا من كوبا - لا يمكن تحقيقه دون الحرب وأن الهدف الثانى المصاحب للأول - تأمين النفوذ العسكرى والاقتصادى الأمريكى فى كوبا - لا يمكن تركه بأيدى المتمردين الكوبيين ولكنه مضمون عن طريق التدخل الأمريكى. حتى مجلة "كوميرشيال أدفرتايزر"، التى تصدر فى نيويورك وكانت معارضة لفكرة الحرب، طالبت فى ١٠ من مارس بالتدخل فى كوبا من أجل "الإنسانية وحب الحرية وقبل هذا وذاك من أجل أن تتمتع التجارة والصناعة فى كل جزء فى العالم بالحرية الكاملة فى التنمية بما فيه مصلحة العالم كله.

قبل ذلك، كان الكونجرس قد طالب الإدارة الأمريكية بعدم ضم كوبا ، وكانت هذه الدعوة قد بدأت ولاقت دعمًا على أيدى الذين كان يهمهم استقلال كوبا وكانوا

معارضين للإمبريالية الأمريكية. كما عارض التدخل العسكرى أيضًا رجال الأعمال الذين رأوا أن سياسة "الباب المفتوح" كانت كافية وأنه ليس هناك ضرورة للتدخل العسكرى. غير أن رأى مجتمع البيزنس لم يدم طويلاً حيث ظهرت مصالح خاصة ستستفيد مباشرة من الحرب. ففى بيتسبيرج ـ مركز صناعة الحديد ـ دافعت الغرفة التجارية عن استخدام القوة. وقالت مجلة "تشاتانوجو تريدزمان" أن احتمال قيام الحرب "ساهم فى ازدهار صناعة الحديد." كما لاحظت المجلة نقطة أخرى وهى أن "الحرب الفعلية من شأنها أن توسع من شبكة وسائل النقل." وفى واشنطن، قيل إن "الروح المحاربة" قد أصابت أفراد البحرية الذين تشجعوا "بوجود المقاولين الذين كانوا يتوافدون على سلاح البحرية منذ تدمير السفينة البحرية مينْ ـ جاءوا كى يوقعوا عقودًا بتوفير الإمدادات اللازمة للحرب."

قال المصرفى راسل سيج إن الحرب لو قامت، "فليس هناك شك فى مسألة أين يقف الأثرياء." وجاء بمسح عن رجال الأعمال أن جون جاكوب آستور ووليم روكفيلر وتوماس فورتشن رايان كانوا يشعرون أنهم يملكون "روحًا حربية." وكان جى. بى. مورجان يرى أن المزيد من المباحثات مع إسبانيا لن يفضى إلى شئ. فى ٢١ من مارس عام ١٨٩٨ كتب هنرى كابوت لودج خطابًا مطولاً إلى الرئيس ماكينلى يقول فيه إنه تحدث مع "مصرفيين وسماسرة ورجال أعمال ورؤساء تحرير عدد من الصحف ورجال دين وآخرين" فى كل من "بوسطن" و"لينْ" و"ناهنت" وأن "كل" من تحدث معهم بمن فيهم "أكثر الطبقات محافظة" يتمنون "حل" المشكلة الكوبية. وأضاف لودج: "لقد قالوا إنه من الأفضل للبيزنس أن تكون هناك صدمة واحدة وتنتهى بدلاً من صدمات متكررة فيما إذا استمرت الحرب فى كوبا." وفى ٢٥ مارس وصلت برقية إلى البيت الأبيض من ناصح تقول: "ترى الهيئات الكبرى أننا سندخل الحرب. وأعتقد أن الجميع يرحبون بها كنهاية لهذا الانتظار القلق."

وبعد يومين من وصول البرقية، أعطى الرئيس ماكينلى إسبانيا مهلة وطالب بهدنة. لم يقل شيئًا عن استقلال كوبا ، ففسر متحدث باسم المتمردين الكوبيين، وهم

جزء من جماعة كوبية فى نيويورك، ذلك بأن الولايات المتحدة أرادت ببساطة أن تحل محل إسبانيا. وقال:

> **من الضرورى بالنسبة لنا، فى مواجهة الاقتراح الحالى بالتدخل دون اعتراف مسبق بالاستقلال، أن نذهب خطوة أبعد ونقول بأننا لابد أن ننظر إلى مثل هذا التدخل بوصفه إعلانًا للحرب من قِبل الولايات المتحدة ضد الثوار الكوبيين...**

وفى حقيقة الأمر، عندما طالب الرئيس ماكينلى الكونجرس بالموافقة على التدخل العسكرى فى ١١ إبريل، لم يعترف بالمتمردين كمحاربين ولم يطالب باستقلال كوبا. وبعد تسعة أيام، وفى قرار مشترك، أعطى الكونجرس الرئيس ماكينلى السلطة فى التدخل. عندما تحركت القوات الأمريكية فى كوبا، رحب المتمردون بهم أملين أن التعديل الدستورى المعروف باسم **Teller Amendment** يضمن لهم الاستقلال. قالت كثير من كتب التاريخ عن الحرب الأمريكية الإسبانية إن "الرأى العام" فى الولايات المتحدة أدى بالرئيس ماكينلى إلى إعلان الحرب على إسبانيا وإرسال قوات إلى كوبا ومن الصحيح أن عدداً من الصحف ذات التأثير الواسع كان يدفع بقوة فى اتجاه الحرب وأحيانًا على نحو هستيرى. كما أيد أمريكيون كثيرون هذه الفكرة لاعتقادهم أن الهدف هو استقلال كوبا ، ولكن هل كان ممكنًا أن يذهب ماكينلى إلى الحرب بسبب كلام الصحف وجزء من الرأى العام (ليس هناك أى مسح عن الرأى العام فى ذلك الوقت) دون تشجيع من مجتمع البيزنس؟ بعد عدة سنوات من الحرب الكوبية، كتب رئيس مكتب التجارة الخارجية، التابع لوزارة الخارجية، عن تلك الفترة:

> **كانت علاقتنا الاقتصادية مع الهند الغربية أو جمهوريات أمريكا الجنوبية هى التى تقف وراء التعاطف الشعبى، الذى ربما يكون قد تبخَّر مع الوقت، الذى دفع بالولايات المتحدة إلى حمل السلاح ضد الحكم الإسبانى فى كوبا... . لم تكن الحرب**

الأمريكية الإسبانية إلا حلقة من حلقات حركة عامة للتوسع تمثلت جذورها فى البيئة التى تغيرت حيث وصلت القدرة الصناعية إلى ما هو أبعد كثيرًا من قوة الاستهلاك المحلى. كان من الضرورى لنا ليس فقط أن نجد مشترين لبضائعنا ولكن أيضًا أن نجعل الوصول إلى الأسواق الأجنبية يتم بطريقة سهلة واقتصادية وآمنة.

كانت النقابات العمالية الأمريكية متعاطفة مع المتمردين الكوبيين بمجرد بدء التمرد ضد إسبانيا فى عام ١٨٩٥ ولكنهم عارضوا التوسع الأمريكى فكل من جماعة "فرسان العمل" و"الاتحاد الأمريكى للعمل" هاجما فكرة ضم هاوايى التى اقترحها ماكينلى فى عام ١٨٩٧ ورغم التعاطف مع المتمردين، فقط أُحبط قرار بالتدخل الأمريكى فى مؤتمر "الاتحاد الأمريكى للعمل" فى عام ١٨٩٧ وكتب صامويل جومبرز من "الاتحاد الأمريكى للعمل" إلى أحد أصدقائه يقول: "إن تعاطف حركتنا مع كوبا تعاطف حقيقى وصادق ومخلص، لكن هذا لا يعنى على الإطلاق أننا ملتزمون تجاه أى مغامرين من الواضح أنهم يعانون من الهستريا... ."

عندما وقع انفجار السفينة الحربية "مينْ" فى فبراير وأدى إلى نداءات فى الصحافة تدعو إلى الحرب، قالت الجريدة الشهرية للاتحاد الدولى لعمال الميكانيكا إن ما حدث شئ فظيع لكنها قالت إن موت العمال فى الحوادث الصناعية لم يكن ليثير مثل هذه الضجة. وأشارت الجريدة إلى "مذبحة لاتيمر" التى وقعت فى ١٠ سبتمبر عام ١٨٩٧ أثناء إضراب لعمال مناجم الفحم فى بينسلفانيا. مشى العمال فى مسيرة على الطريق السريع إلى منجم "لاتيمر". ورفض هؤلاء العمال النمساويون والألمانيون والإيطاليون - الذين كانوا قد جُلبوا فى الأساس كى يكونوا مفسدين للإضراب حيث كانوا يعملون مكان العمال المضربين - أن تنفض مسيرتهم. عندئذ أمر العمدة ونوابه بفتح النار على العمال، فقتل ١٩ منهم، معظمهم أُطلق الرصاص عليهم من الخلف، دون أن تذكر الصحافة كلمة عما قيل.

نادت بعض الاتحادات بالتدخل الأمريكى بعد إغراق السفينة الحربية "مينْ" مثل "عمال المناجم المتحدين." لكن الغالبية كانت ضد ذلك. كتب أمين صندوق أحد الاتحادات المعارضة للحرب مخاطباً العمال الأمريكيين:

> **إذا قامت الحرب، سيكون من نصيبكم الجثث والضرائب، وسيحصد آخرون المجد. سيجنى المضاربون أموالاً من هذه الحرب - أى منكم أنتم. سيفتنى أناس من جراء بيعكم بضائع رخيصة الجودة بأسعار عالية مثل المراكب رديئة الصنع والملابس سيئة الخامات والأحذية المصنوعة من الورق المقوى. وسوف تدفعون كل ذلك ولن تجنوا من هذه الحرب سوى كراهيتكم لإخوانكم من العمال الإسبانيين الذين هم إخوانكم حقًا والذين لم يستطيعوا أن يفعلوا إلا القليل مثلكم تجاه الأخطاء المرتكبة فى كوبا.**

عارض الاشتراكيون الحرب. وكان الاستثناء الوحيد تمثله جريدة "ديلى فوروارد" اليهودية. أما جريدة "ذا بيبول" (الشعب)، لسان حال حزب العمل الاشتراكى فقد أطلقت على قضية الحرب الكوبية أنها "حجة" وأن الولايات المتحدة أرادت أن تشن الحرب "كى تشتت انتباه العمال عن مصالحهم الحقيقية." وقالت صحيفة أبيل تو ريزن Appeal To Reason (نداء إلى العقل)، وهى صحيفة اشتراكية أخرى، أن التحرك من أجل الحرب كان "طريقة مفضلة لدى الحكام كى يحولوا بين الناس وبين تصحيح الأخطاء داخل الوطن." وفى مجلة "فويس أوف ليبر" Voice of Labor (صوت العمل) كتب أحد محرريها: "إنه لشىء فظيع أن يفكر المرء فى أن فقراء العمال فى هذه البلاد يُرسلون من أجل قتل فقراء العمال الأسبان لمجرد أن عدداً من القادة يحرضونهم على ذلك."

ويقول فونر إنه لما أُعلنت الحرب، "استسلم غالبية الاتحادات لحمى الحرب." وصف صامويل جومبرز هذه الحرب بأنها "صائبة ومجيدة" وزعم أن ٢٥٠ ألفًا من

أعضاء النقابات العمالية قد تطوعوا فى صفوف الجيش. وأشار "عمال المناجم المتحدون" إلى ارتفاع أسعار الفحم كنتيجة للحرب وقالوا: "لم تشهد صناعة الفحم والحديد ازدهاراً كالذى تشهده الآن."

لقد جاءت الحرب بعمالة أكثر وأجور أعلى، لكنها أيضاً جاءت بالأسعار المرتفعة. يقول فونر: "لم يكن هناك فقط زيادة فظيعة فى تكاليف المعيشة ولكن كان هناك أيضاً غياب ضرائب الدخل. لقد وجد الفقراء أنفسهم يدفعون تكاليف الحرب كاملة تقريباً وذلك من خلال الضرائب المرتفعة على السكر والعسل الأسود والتبغ وضرائب أخرى... ." حتى جومبرز، الذى كان مع الحرب فى العلن، أشار فى كلامه الخاص إلى أن الحرب أدت إلى انخفاض بنسبة ٢٠٪ فى القوة الشرائية لأجور العمال.

فى عيد العمال عام ١٨٩٨، نظم حزب العمل الاشتراكى مسيرة مناهضة للحرب فى مدينة نيويورك لكن السلطات لم تكن لتسمح بشىء مثل هذا، بينما سمحت لمسيرة نظمتها جريدة ديلى فوروارد اليهودية كانت تدعو فيها العمال اليهود إلى تأييد الحرب. وقالت مجلة "شيكاغو ليبر ورلد": "هذه حرب الإنسان الفقير ويدفع ثمنها الإنسان الفقير - الأثرياء هم المستفيدون، كما هى الحال دائماً."

تأسس الاتحاد الغربى للعمل فى سولت ليك سيتى فى ١٠ مايو عام ١٨٩٨ لأن الاتحاد الأمريكى للعمل لم يكن يضم العمال غير المهرة فى عضويته. أراد الاتحاد الغربى أن يضم كل العمال معاً "بغض النظر عن المهنة أو الجنسية أو العقيدة أو اللون" وأن "يقرع ناقوس الموت لكل هيئة أو شركة سلبت العمال ثمار كفاحهم." وقالت مطبوعة الاتحاد، بعد ضم هاوايى أثناء الحرب، أن هذا أثبت أن "الحرب التى بدأت من أجل إنقاذ الكوبيين الذين كانوا على حافة الموت جوعاً تغيرت فجأة كى تكون حرب غزو وفتح."

ثبت أن توقع مفرِّغ المراكب بولتون هول عن فساد الحرب والتربح من ورائها كان سليماً ودقيقاً. ولعل ما تقدمه **موسوعة التاريخ الأمريكى** **Encyclopedia of American History** لريتشارد موريس من أرقام مفزعة يدل على ذلك:

من بين أكثر من ٢٧٤،٠٠٠ ضابطًا وجنديًا خدموا فى الجيش أثناء الحرب الأمريكية الإسبانية وأثناء فترة التسريح، مات ما يقرب من ستة آلاف فى مسارح مختلفة للعمليات العسكرية وفى المعسكرات فى الولايات المتحدة. كان ٣٧٩ فقط من الأموات من ضحايا معارك الحرب أما الباقون فقد ماتوا نتيجة المرض وأسباب أخرى.

وردت هذه الأرقام نفسها فى كتاب والتر موريس **الروح العسكرية** The Martial Spirit . وجاءت أيضًا فى الموسوعة ولكن على نحو مقتضب ودون ذكر "اللحوم المحفوظة" (وهذا مصطلح أطلقه أحد جنرالات الجيش) التى بيعت إلى الجيش من قِبل شركات تعبئة اللحوم فقد كانت هذه اللحوم محفوظة بحمض البوريك ونترات البوتاس ومواد صناعية ملونة. ففى مايو عام ١٨٩٨ باعت شركة "آرمز آند كومبانى"، وهى شركة تعبئة اللحوم الضخمة فى شيكاغو، ٥٠٠،٠٠٠ رطل من اللحوم إلى الجيش، وكانت هذه اللحوم قد أُرسلت إلى ليفربول قبل عام ورفضت فعادت إلى الشركة حيث باعتها للجيش. بعد شهرين، اختبر أحد مفتشى الجيش لحوم الشركة ووجد أن ٧٥١ عبوة كانت تحتوى على لحم عفن. وكانت هذه اللحوم قد أجازها أحد مفتشى الصحة. أصيب آلاف الجنود بالتسمم. وليست هناك أرقام عن كم من بين الخمسة آلاف الذين ماتوا من غير المحاربين - يُحتمل أن يكونوا من بين من أصيبوا بالتسمم.

هُزمت القوات الإسبانية فى ثلاثة شهور فيما سماه جون هاى Hay وزير الخارجية الأمريكى فيما بعد "حرب صغيرة رائعة." تظاهر الجيش الأمريكى بأن جيش المتمردين الكوبيين غير موجود. وعندما استسلم الإسبانيون، لم يُسمح لأى كوبى أن يتفاوض بشأن الاستسلام. حيث أعلن الجنرال وليم شافتر ألا يدخل أى متمردين مسلحين العاصمة سانتياجو وأبلغ زعيم المتمردين الكوبيين الجنرال كاليكسيكو جارثيا، بأن السلطات الإسبانية المدنية القديمة، وليس المتمردين، سوف يظلوا مسئولين عن إدارة المكاتب المحلية فى سانتياجو.

تجاهل المؤرخون الأمريكيون بصفة عامة دور المتمردين الكوبيين فى الحرب، وكان فيليب فونر أول من نشر خطاب جارثيا إلى الجنرال شافتر:

لم أتشرف ولو بكلمة واحدة منك تخبرنى بها عن مفاوضات السلام أو اتفاقية الاستسلام بالنسبة للإسبانيين... . عندما تظهر مسألة تعيين سلطات فى سانتياجو... أشعر بأسى عميق لأن هذه السلطات لم ينتخبها الكوبيون، لكنها نفس السلطات التى عينتها ملكة إسبانيا... . ثمة شائعة سخيفة يصعب تصديقها، أيها الجنرال، تصف سبب إجراءاتك وأوامرك بمنع جيشى من دخول سانتياجو خشية ارتكاب مذابح ضد الأسبان. اسمح لى، يا سيدى، أن احتج على مجرد ذكر مثل هذه الفكرة. لسنا برابرة نتجاهل أصول الحرب المتحضرة. إنما نحن جيش فقير أشعث، مثله مثل جيش آبائك فى حربهم النبيلة من أجل الاستقلال... .

كان ثمة شئ آخر دخل كوبا جنبًا إلى جنب مع الجيش الأمريكى، وهذا هو رأس المال الأمريكى. يكتب فيليب فونر:

حتى قبل أن ينزل العلم الإسبانى فى كوبا، انطلق رأس المال الأمريكى يبحث عن مصالحه. توافد على كوبا التجار ووكلاء العقارات والمضاربون فى البورصة والمغامرون وكل الحالمين بالاغتناء بالآلاف. تنافست إلى حد التقاتل سبع نقابات للحصول على امتيازات شركة هافانا للسكك الحديدية وفازت بها فى النهاية شركة بيرسيفال فاركور التى تمثل مصالح وول ستريت فى نيويورك. وبالتالى، وفى الوقت نفسه، دخل مع الاحتلال العسكرى احتلال تجارى... .

وجاء فى نشرة قاطعى الأخشاب "لمبرمينز ريفيو"، وهى الناطقة بلسان صناعة الأخشاب فى أمريكا: "فى اللحظة التى تسقط فيها صلاحيات الحكومة فى كوبا، ... ستكون اللحظة المناسبة لمصالح صناعة الأخشاب الأمريكية كى تدخل إلى الجزيرة لتنهل من الغابات الكوبية. فلا تزال كوبا تمتلك عشرة ملايين آكر من الغابات البكر الغنية بالخشب ذى القيمة العالية... حيث يقبل كل قدمٍ منها أن يُباع فى الولايات المتحدة وبأسعار عالية."

وتسلم الأمريكيون السكك الحديدية والمناجم وحقول قصب السكر ومصانعه عندما انتهت الحرب. وفى خلال سنوات قليلة استثمر رأس المال الأمريكى أكثر من ٣٠ مليون دولار. وصلت شركة يونايتد فروت ودخلت مجال صناعة السكر الكوبية، واشترت ما يقرب من مليون آكر مقابل عشرين سنتًا للآكر، كما وصلت الشركة الأمريكية للتبغ. ويقدر فيليب فونر أنه بنهاية الاحتلال فى عام ١٩٠١ كان ٨٠٪ على الأقل من صادرات كوبا من المعادن فى أيدى أمريكية ومعظم ذلك فى أيدى شركة بيت لحم لصناعة الصلب.

أثناء الاحتلال العسكرى، وقعت سلسلة من الإضرابات. فى سبتمبر عام ١٨٩٩ بدأ جمع من آلاف العمال إضرابا عامًا من أجل تطبيق يوم العمل ذى الثمانية ساعات. وقال هذا الجمع: "نحن عازمون على دعم كفاح العمال فى مواجهة أصحاب رأس المال. ذلك أن عمال كوبا لن يقبلوا بعد اليوم أن يبقوا تحت ذل الخضوع." فأمر الجنرال الأمريكى وليم لدلو عمدة هافانا بأن يلقى القبض على أحد عشر قائداً من قادة الإضراب، وقامت القوات الأمريكية باحتلال محطات السكك الحديدية. وتحرك البوليس فى الشوارع لفض الاجتماعات. ولكن النشاط الاقتصادى للمدينة كان قد توقف تمامًا، حيث أضرب عمال التبغ. وأضرب عمال المطابع. وأضرب الخبازون. وأُلقى القبض على مئات من المضربين وتعرض بعض من القادة المسجونين للترهيب كى ينادوا بوقف الإضراب.

لم تــقم الولايات المتــحــدة بضم كـوبا ، ولكن أُبلغ الكوبيـون أن جـيش الولايات المتــحــدة لن يغـادر كـوبا قـبل أن تضم كـوبا تـعـديل "بلات"، الذى أقـره الكونجـرس الأمـريكى فـى فبـــراير عـام ١٩٠١، إلى دسـتورها. كان هذا التـعـديل يعطى الولايات المتحدة "الحق فى التدخل للحفاظ على الاستقلال الكوبى وللمساعدة فى إقامـة حكومة سليمة تحافظ على حياة الفرد وممتلكاته وحريته الفردية..." كما أعطى هـذا التعديل الولايات المتـحـدة الحق فى الحـصـول على بعض المواقع البـحـرية ومناجم الفـحـم فى أماكن معينة.

جـعل الحـديث عن حـرية كـوبا قـبل الحـرب وأثنـاءها كـثـيراً من الأمـريكيـين ـ والكوبيين بالطبع ـ أن يتـوقعوا استقلالاً حقيقيًا. لكن ما حدث أن "تعديل بلات" اتضح أنه كان بمثابة خيانة، ليس فقط فى عيون الصحـافة الراديكالية والعمالية ولكن أيضًا فى رأى كثير من الصحف والجماعات السياسية فى الولايات المتحدة كلها. قـام جمع من "الجمعية الأمريكية المناهضـة للإمبريالية" بعقد اجتمـاع جماهيرى فى قـاعة فانويل ببـوسطن وإدانـة هذا التـعـديل ، وقـال الحـاكم السـابق جـورج باوتويل: "هـانحن، دون اكتراث بوعـدنا لكوبا بالحـرية والسـيـادة، نقوم بفـرض أنفسنا على الجـزيرة وبفـرض شروط التبعية الاستعمارية."

وفى هافانا خرجت مسيرة تحمل المشاعل واشترك فيها خمسة عشر ألفًا من الكوبيين، اتجهوا إلى المؤتمر الدستورى مطالبين إياه برفض التعديل ، ولكن الجنرال ليونارد وود، رئيس قوات الاحتلال، أكد للرئيس ماكينلى: "إن الشعب الكوبى يقوم فى نشاط واستعداد كبيرين بكل أنواع المظاهرات والمسيرات، ولكن لا يجب أن نقرن أية أهمـية بـهذه الأنشطة." وأوفدت لجنة المؤتمر الدستورى للرد على الإصـرار الأمـريكى على إضافة "تعديل بلات" إلى الدستور الكوبى. وكان تقرير هذه اللجنة قد كتبه رجل أسود من سانتياجو. جاء فى التقرير:

أن تحـفظ الولايات المتـحـدة لنفـسـهـا بسلطة تحـديد مـتى
يكون الاستقلال مـهدداً ومـتى تتدخل هى للحفاظ عليه لهو شئ

يشبه تسليمنا مفاتيح منزلنا بحيث تستطيع الولايات المتحدة أن تدخله فى أى وقت متى رغبت فى ذلك ليلاً أو نهارًا وسواء كانت حسنة النوايا أم سيئتها.

ولن تكون هناك حكومات سوى تلك التى تعتمد على تأييد وطبيعة الولايات المتحدة وستكون النتيجة الواضحة لذلك الموقف أن يكون لدينا أضعف الحكومات وأكثرها بؤسًا. تعيش وقد كُتب عليها أن تبذل كل ما فى وسعها كى تنال بركات الولايات المتحدة وليس من أجل خدمة مصالح كوبا والدفاع عنها... .

ووصف التقرير الطلب الأمريكى بالسيطرة على بعض المحطات البحرية وبعض المواقع فى مناجم الفحم بأن هذا "بتر وتشويه لأرض الأجداد." وانتهت إلى ما يلى:

شعب محتل عسكريًا يقال له أن عليه، قبل الرجوع إلى حكومته وقبل أن يكون حرًا فى أرضه، أن يمنح محتليه العسكريين الذين جاءوا كأصدقاء وحلفاء، حقوقًا وسلطات تلغى سيادة أفراد هذا الشعب نفسه. هذا هو الموقف الذى خلقته وتتبناه الولايات المتحدة. هل هناك ما هو أكثر بغضًا من هذا؟

وبهذا التقرير، رفض المؤتمر "تعديل بلات" على نحو ساحق. غير أنه فى الثلاث شهور التالية، وفى ظل ضغوط الاحتلال العسكرى ورفض الولايات المتحدة أن يقوم الكوبيون بتشكيل حكومتهم، اضطر المؤتمر، بعد مرات رفض عديدة إلى تبنى تعديل بلات. هنالك كتب الجنرال ليونارد وود إلى تيودور روزفلت فى عام ١٩٠١ يقول: "بالطبع لا يكاد يكون هناك شئ اسمه الاستقلال للكوبيين فى ظل تعديل بلات."

بهذا دخلت كوبا إلى المجال الأمريكى ولكن ليس كمستعمرة صريحة. ورغم ذلك، أدت الحرب الإسبانية الأمريكية إلى عمليات ضم مناطق جديدة إلى الولايات المتحدة

مــثل بورت ريكو المجـاورة لكوبا والتى كـانت تنتـمى إلى إسـبـانيـا . كـذلك ضــمت الولايات المتحدة، بعد قرار مشترك من الكونجرس فى يوليو عام ١٨٩٨، جزر هاوايى، التى تشـكل ثلث الــطريق عـبـر المحـيـط الهـادى، وكـان قـد اخـتـرقـهـا المبـشـرون الأمـريكيـون ومالكو مزارع الأناناس وكـان المسئولون الأمـريكيـون يصفون هذه الجزر بأنهـا "ثمـرة كمـثـرى نضـجت وحـان أوان قطفـهـا." فى الوقت نفسـه تقريبـًا، احـتلت الولايات المتحدة "ويك آيلاند" التى تقع غرب هاواى على مسافة ألفين وثلاثمائة ميلاً فى الطريق إلى اليابـان ، كذلك احتلت أمريكا منطقة "جوام" التى كانت ملكية إسبانية وهى تمثل تقريبًا كل الطريق إلى الفليبين ، وفى ديسمبر عام ١٨٩٨ وقعت إسبانيا وأمريكا اتفـاقيـة سلام آلت إلى أمريكا بموجبـهـا كل من جوام وبورت ريكو والفليبين مقابل ٢٠ مليون دولارا .

كـانت هنـاك مـجـادلة حـامـيـة حـول مـا إذا كـان على الولايات المتـحـدة أن تضـم الفليبين وفقًا لإحدى القصص، حكى الرئيس ماكينلى لعدد من الوزراء.كانوا يزورون البيت الأبيض كيف وصل إلى قرار بشأن الفليبين:

قـبل أن تنصـرفـوا أود أن أقـول لكم كلمـة عن مـوضـوع الفليـبين... الحقـيقة أننى لم أكن أريد الفليبين وعندمـا جـاءتنا كهدية من الآلهة، لم أعرف ماذا أنا فاعل بها... سعيت للمشورة بشـأن ذلك عند الديمـقراطيين والمحـافظين على الســواء. لكنى لم أجد عونًا كافيًا. فكرت فى البداية أن نأخذ مـانيلا ثم لوزون وربما نضم جـزرًا أخـرى أيضـًـا. وأخـذت أتمشى فى البـيت الأبيض ليلة بعد ليلة حتى منتصف الليل. ولست أرى خجلاً فى أن أخـبـركم، أيهـا السـادة، أننى ركـعت مـتـوسـلاً إلى الله أن يهدينى إلى طريق النور والرشاد وذلك لأكثر من ليلة. وفى إحدى الليالى، جاءتنى الفكرة هكذا ـ لست أعرف كيف حدث ذلك، لكن هذا ما حدث:

١ - إننا لا نستطيع أن نعيد هذه الجزر إلى إسبانيا، فشئ كهذا سيبدو فعلاً جباناً معيباً.

٢ - لا نستطيع أن نحولها إلى فرنسا أو ألمانيا وهما منافسانا التجاريان فى الشرق ، ومثل هذا يعد عملاً سيئًا ولا نفع من ورائه.

٣ - لا يمكننا أن نترك هذه الجزر لنفسها، فأهلها لا يعرفون كيف يحكمون أنفسهم، وسوف تعم الفوضى هناك وسيكون الوضع أسوأ من فترة الحكم الإسبانى.

٤ - لم يكن هناك بد من أن نأخذ نحن هذه الجزر كلها كى نعلم الفلبينيين ونرتقى بهم ونمدنهم ونحولهم إلى المسيحية ونفعل ـ بفضل من الله ـ ما فى وسعنا لهم كأخوة لنا مات المسيح من أجلهم أيضًا. ثم أويت إلى فراشى ونمت قرير العين.

بيد أن الفلبينيين لم يتلقوا نفس الرسالة من الله كما حدث مع الرئيس ماكينلى، ففى فبراير عام ١٨٩٩، ثاروا على الحكم الأمريكى كما ثاروا من قبل مرات ومرات ضد الحكم الإسبانى. وأصبح إيميليو أجينالدو، القائد الفليبينى الذى استدعته الولايات المتحدة من الصين كى يقود الجنود ضد الأسبان، قائداً للمتمردين فى حربهم ضد الولايات المتحدة. اقترح أجينالدو استقلالاً فلبينيًا تحت الحماية الأمريكية، لكن اقتراحه قوبل بالرفض. احتاجت الولايات المتحدة لثلاثة سنوات لردع التمرد، واستخدمت فى ذلك ٧٠ ألفًا من القوات الأمريكية ـ أى ما يعادل أربعة مرات عدد الجنود الذين نزلوا كوبا، وكان هناك آلاف الضحايا الذين قتلوا فى المعارك. كان معدل الموت بالنسبة للفلبينين عاليًا سواء بسبب شدة الحرب أو بسبب المرض.

كان مذاق الإمبراطورية الآن على شفاه السياسيين ورجال الأعمال فى كل أنحاء البلاد. واختلط الحديث عن الثروة مع العنصرية والأبوية واختلط كل ذلك بالحديث عن قدر الولايات المتحدة والحضارة. وفى مجلس الشيوخ، دافع السيناتور ألبرت بيفيريدج فى التاسع من يناير عام ١٩٠٠ عن مصالح البلاد الاقتصادية والسياسية. ومن بين ما قاله:

السيد الرئيس: هذا الوقت يقتضى منا الصراحة. إن جزر الفليبين ملك لنا وإلى الأبد... ووراء هذه الجزر تمتد الأسواق الصينية التى لا حدود لها. لن نتراجع عن أى منهما... ولن نتنازل عن المهمة التى هى قدر جنسنا كحارس لحضارة العالم. إن هذه إرادة الله، ... . المحيط الهادى محيطنا... إلى أين نتجه بحثًا عن مستهلكين للفائض من منتجاتنا؟ ...إن جزر الفليبين تعطينا قاعدة عند باب الشرق... . ليس فى أمريكا أرض فى خصوبة سهول ووديان لوزون... الأرز والقهوة والسكر وجوز الهند والتبغ... إن أخشاب الفليبين تكفى أثاث العالم أجمع لمدة قرن قادم. عند جبال "سيبو" قال لى أعلم الناس بالمكان أن أربعين ميلاً من سلسلة الجبال هذه هى بالفعل جبال من الفحم... . إن لدى كتلة من الذهب الخالص وجدت كما هى فى شكلها الحالى على ضفة نهر فلبينى... . إيمانى يقول لى أن مَنْ يفهمون ماذا يعنى الحكم الذاتى منهم وفقًا للمفهوم الأنجلو- ساكسونى لا يصل إلى مائة شخص. وهناك خمسة ملايين فى حاجة لمن يحكمهم. لقد اتُهمنا بأن سلوكنا فى الحرب كان قاسيًا. حقيقة الأمر هى عكس ذلك، أيها السادة الأعضاء... . عليكم أن تتذكروا أننا لا نتعامل فى هذه الحالة مع أمريكيين أو أوربيين. بل نتعامل مع شرقيين.

بدأ القتال مع المتمردين عندما هاجموا القوات الأمريكية ـ هكذا قال الرئيس ماكينلى ، ولكن فيما بعد، شهد الجنود الأمريكيون أن الولايات المتحدة هى التى بدأت بإطلاق النار. بعد الحرب، قال ضابط أمريكى فى قاعة فانويل ببوسطن، إن قائده أعطاه أوامر بأن يثير مشكلة مع المتمردين.

فى فبراير عام ١٨٩٩ أقام رجل المنسوجات الثرى دبليو. ب. بلانكت وليمة فى بوسطن للاحتفال بتصديق مجلس الشيوخ على اتفاقية السلام مع إسبانيا. كانت هذه الوليمة هى الأكبر فى تاريخ الولايات المتحدة، حيث كان هناك ألفان من المدعوين وأربعمائة من القائمين على خدمة المدعوين. وفى هذه الوليمة، التى كان الرئيس ماكينلى مدعواً إليها، أعلن الرئيس أن "ليس ثمة أى أفكار إمبريالية فى العقل الأمريكى." غير أن مدير البريد العام وقف فى نفس الوليمة وقال "إن ما نريده هو سوق للفائض من إنتاجنا."

كان وليم جيمس، فيلسوف هارفارد، جزءاً من حركة تضم البارزين من رجال الأعمال والساسة والمثقفين الذين كونوا "جماعة مناهضة الإمبريالية" فى عام ١٨٩٨ وقاموا بحملة طويلة يعلِّمون الرأى العام الأمريكى ويحكون له عن فظائع الحرب فى الفليبين وعن شرور الإمبريالية. كانت هذه جماعة غريبة (انضم إليها أندرو كارينجى)، إذ كانت تضم أرستقراطيين معادين للعمال والحركة العمالية ولكن جمع أعضاءها غضب أخلاقى عام بشأن ما كان يتم فى الفليبين باسم الحرية. ومهما كانت الاختلافات بينهم فى أمور أخرى، فإن جميعهم كانوا متفقين مع العبارة الغاضبة التى نطق بها وليم جيمس: "لعن الله الولايات المتحدة لسلوكها المشين فى جزر الفليبين!"

وقامت جماعة مناهضة الإمبريالية بنشر خطابات الجنود الذين كانوا يخدمون فى الفليبين. قال رئيس فرقة عسكرية: "كان من المفترض أن منطقة كالوكان تضم ١٧ ألفًا من المواطنين... الآن ليس بها إنسان واحد." واعترف جندى من نفس الفرقة بأنه قام "بإشعال الحرائق بيدى هذه فى أكثر من خمسين منزلاً فلبينيًا بعد النصر فى

كالوكان." وكتب متطوع من ولاية واشنطن: "كان دم القتال عندنا فائرًا وكلنا كنا نريد قتل 'الزنوج'... إن قتل البشر يفوق فى متعته صيد الأرانب."

كان ذلك زمن عنصرية شديدة فى الولايات المتحدة ، ففى السنوات من ١٨٨٩ إلى ١٩٠٣ كان زنجيان، فى المتوسط الأسبوعى، يُحرقان أحياءً إذ يقوم الغوغاء بشنقهم أو حرقهم أو بتر أعضائهم. كان الفليبينيون سُمر البشرة ومن السهل معرفتهم من ملامحهم الواضحة وكلامهم غريب وكذلك ملامحهم بالنسبة للأمريكيين. وبهذا أُضيف إلى وحشية الحرب التى لا تميز عامل العداء العرقى.

فى نوفمبر عام ١٩٠١ كتب مراسل "فلادلفيا ليدجر" فى مانيلا:

لم تأخذ جنودنا أى رحمة، فقد قتلوا الرجال والنساء والأطفال والسجناء والأسرى والمتمردين والمشتبه فيهم من سن العاشرة فيما فوق، والفكرة السائدة فى عقول الجنود أن الفليبينى أفضل قليلاً من كلب... لقد ضخ جنودنا الماء المالح داخل الرجال لإجبارهم على الكلام وأخذوا الأسرى الذين رفعوا أياديهم مستسلمين وبعد ساعة، وبدون أى دليل على كون هؤلاء من المتمردين، يوقفونهم على جسر ويقتلونهم واحدًا واحدًا بحيث تسقط جثة الواحد منهم فى الماء وتطفو كى تكون الجثث عبرة لمن يعثر عليها ويرى اختراقات الرصاص فيها.

وفى أوائل العام نفسه، قال جنرال أمريكى عائد إلى الولايات المتحدة من جنوب لوزون:

اختفى فى الفترة الأخيرة سدس أهالى مدينة لوزون إما عن طريق القتل أو الموت من الحمى الدنجية. كان معدل القتل عاليًا، لكننى أعتقد أن أحدًا لم يقتل دون أن يكون فى قتله خدمة للأهداف الشرعية للحرب.

رد وزير الحرب الأمريكى إليهو روت على الاتهامات بوحشية الجنود فى الحرب بقوله: "لقد سلك الجيش الأمريكى فى حربه فى الفليبين سلوكًا فيه احترام كبير لقواعد الحرب المتحضرة... . مراعيًا ضبط النفس فى إنسانية لم تحدث من قبل." وفى مانيلا اتّهم أحد رجال المارينز برتبة رائد ويدعى ليتل تاون ووالر بقتل أحد عشر فلبينيًا أعزل ودون محاكمة فى جزيرة سامار ، وقد وصف ضباط مارينز آخرون شهادة الرائد كما يلى :

قال الرائد ووالر إن الجنرال سميث أعطاه تعليمات بالقتل والحرق، وقال إنه كلما كان يقتل أكثر، كان شعوره بالسعادة أكبر، وأنه لم يكن هناك وقت لأخذ أسرى وأنه كان فى طريقه لجعل جزيرة سامار قفرًا يبابًا. سأل الرائد ووالر الجنرال سميث أن يحدد له سن من يستحقون القتل فقال الجنرال: "كل شئ فوق العاشرة."

وفى مقاطعة باتانجاس، قدَّر سكرتير المقاطعة أن من بين سكان المقاطعة البالغ عددهم ٣٠٠,٠٠٠ نسمة، ضاع ثلثهم عن طريق القتل والمجاعة والمرض.

علق مارك توين على الحرب الفليبينية بقوله:

أسكتنا بعض الآلاف من سكان جزر الفليبين ودفناهم ودمرنا حقولهم وأحرقنا قراهم وشردنا أراملهم وأطفالهم، وأوجعنا قلوب بعض الوطنيين المشاكسين بأن نفيناهم خارج البلاد، واستعبدنا العشرة ملايين الباقية عن طريق الاستيعاب الكريم، وهذا هو الاسم التقى الجديد للبندقية. وقد آلت لنا ملكية الثلاثمائة خليلة وعبيد آخرين من شريك عملنا سلطان سولو، ورفعنا علمنا الحامى فوق ذلك الفَوْر، وهكذا، وبعون من الله - وهذه عبارة الحكومة وليست عبارتى - فإننا الآن قوة عالمية.

كانت قوة القوات الأمريكية تفوق قوة المتمردين جميعًا. ففى أول معركة فى الحرب، جعل الأدميرال ديوى نهر باسيج يغضب ويزمجر حيث أطلقت قوات الأدميرال قذائف يبلغ وزنها ٥٠٠ رطلاً فى خنادق الفلبينيين. كانت جثث الفلبينيين تتكوم فوق بعضها حتى استخدمها الجنود الأمريكيون كمتاريس. قال شاهد بريطانى: "هذه ليست حربًا، إنها ببساطة مذبحة وسفك وحشى للدماء." كان هذا الشاهد مخطئًا. فقد كانت حربًا.

وكان معنى أن يقاوم المتمردون هذه الفظائع لسنوات أن كل الشعب كان يقف وراءهم. وقال الجنرال آرثر ماك آرثر قائد القوات الأمريكية فى تلك الحرب: "كنت اعتقد أن قوات أجوينالدو كانت تمثل مجرد فصيل من الفصائل. لم أرغب فى أن أصدق أن أهل لوزون كلهم كانوا يعارضوننا." لكنه قال إنه "أُضطر وعلى مضض أن يصدق ذلك لأن تكتيكات حرب العصابات للجيش الفليبينى اعتمدت على وحدة الفعل الكاملة لأهل البلاد جميعًا."

وعلى الرغم من زيادة الأدلة على وحشية تلك الحرب وعلى الرغم من وجود جمعية مناهضة الحرب، فقد كانت بعض النقابات فى الولايات المتحدة تؤيد ما كان يحدث فى الفلبين. فالاتحاد الطوبوغرافى فضل فكرة ضم مزيد من الأراضى لأن مدارس اللغة الإنجليزية فى هذه الأراضى سيساهم فى ازدهار الطباعة. ورأت نشرة صناع الزجاج قيمة كبيرة فى هذه الأراضى انتظاراً لازدهار تجارة الزجاج. وكذلك كان الحال بالنسبة لعمال السكك الحديدية. لقد كررت بعض الاتحادات ما كان يقول به أصحاب الأعمال الكبرى من أن مسألة التوسع فى ضم الأراضى - عن طريق فتحها لأسواق جديدة لاستيعاب فائض الإنتاج - ستمنع حدوث أزمة اقتصادية كبرى.

وعندما دار جدل فى الكونجرس حول اتفاقية ضم الفلبين فى أوائل عام ١٨٩٩، عارضتها النقابات العمالية المركزية لبوسطن ونيويورك. وكان هناك اجتماع حاشد فى نيويورك ضد مسألة الضم. ونشرت جماعة مناهضة الإمبريالية أكثر من مليون عدد

من نشـرات تعـارض ضـم الفلبـين. (يقـول فـيليب فـونر فى الوقت الذى يشـرف فـيـه المثقفون ورجال الأعمال على الجمعية، فإن عدداً كبيراً من أعضائها البالغ عددهم نصف مليون عضواً كانوا من العمال بمن فيهم النساء والسود). وعقد القادة المحليون للجمعية اجتماعات فى كل أنحاء البلاد. كانت الحملة ضد الضم قوية جداً وعندما صدق عليها مجلس الشيوخ، كان ذلك بأغلبية صوت واحد.

كانت ردود أفعال الجنود السود تجاه الحرب مختلطة، فقد كانت هناك أحلام بالتقدم الاجتماعى من خلال فرص للنجاح لا يحصل عليها الإنسان الأسود فى الأوقات العادية. كانت المؤسسة العسكرية تقدم مثل هذه الفرص. وكانت هناك نعرة عرقية، حيث كان السود فى حاجة إلى إظهار أنهم شجعان ووطنيون مثل أى أحد آخر. وفى أثناء كل هذا، كان هناك الوعى بوجود حرب وحشية موجهة ضد أناس ملونين وكان هذا معادلاً للعنف الموجّه ضد السود داخل الولايات المتحدة. يحلل ويلارد جيتوود، فى كتاب أعده عن أحلام اليانكى وبناء الإمبراطورية الأمريكية، ١١٤ خطاباً كان قد أرسلهم جنود سود إلى صحف سوداء فى الفترة من عام ١٨٩٨ إلى عام ١٩٠٢ تعكس الخطابات كل هذه المشاعر المختلطة. لقد عانى الجنود السود فى معسكر تامبا بفلوريدا من مرارة الكراهية العنصرية على أيدى السكان البيض هناك. وبعد أن حاربوا بكل تميز فى كوبا، لم ينل الزنوج مكافأة كالبيض وكان قادة الكتائب السوداء ضباطاً من البيض.

وقام جنود زنوج فى ليكلاند بفلوريدا بإطلاق النار على صاحب صيدلية رفض أن يبيع أحدهم شيئًا ما وفى تامبا قامت انتفاضة عرقية عندما قام جنود بيض ذهب السكر برءوسهم باتخاذ طفل أسود كهدف لاختبار البراعة فى الرماية، فرد الجنود السود على البيض و"تحولت الشوارع إلى اللون الأحمر بدم الزنوج" وفقًا لما قاله مراسلو الصحف، وجرح سبعة وعشرون جندياً أسود وثلاثة من البيض بجروح خطيرة. كتب قس إحدى الكتائب السوداء فى تامبا إلى "كليفلاند جازيت":

هل أمريكا أفضل من أسبانيا من أى وجه؟ أليس لديها مواطنون يُقتلون كل يوم دون محاكمة من قاض أو محلفين؟ أليس لديها مواطنون داخل حدودها يأكل أطفالهم نصف ما يحتاجونه من طعام ويرتدون نصف ما يحتاجونه من ثياب لا لشيء سوى أن بشرة أبائهم سوداء... ومع كل هذا يظل الزنجى وفيًا مخلصًا لعلم بلاده.

ويتحدث نفس القس، جورج برايولو، عن المحاربين السود العائدين من الحرب الكوبية وكيف استقبلوا "بسخرية واستهزاء وعلى نحو غير كريم" فى كانساس سيتى بولاية ميزورى، حيث يقول إن "هؤلاء الأولاد السود، أبطال بلادنا، لم يُسمح لهم بالجلوس إلى طاولات المطاعم لتناول ساندويتش أو لشرب كوب من القهوة، بينما نال نظراؤهم البيض كل الحفاوة وكان يُدعون إلى الأكل والشرب مجانًا."

كان الموقف فى الحرب الفليبينية هو ما أثار كثيرًا من السود فى الولايات المتحدة إلى حد المعارضة المسلحة للحرب. أطلق المطران الأكبر للكنيسة الميثودية الأسقفية الأفريقية - هنرى م.تيرنر على الحملة فى الفليبين لقب "حرب غزو غير مقدسة" وأشار إلى الفليبينيين بوصفهم "الوطنيين السود."

كان هناك أربع كتائب من السود تخدم فى جزر الفليبين. أقام كثير من الجنود السود علاقات صداقة مع أهل الجزيرة ذوى البشرة السمراء وكان يغضبهم نداء الجنود البيض على الفليبينيين بلفظ "زنوج". كان معظم من هربوا من القوات الأمريكية أثناء الحرب فى الفليبين من الجنود السود، على حد قول جيتوود. كان المتمردون يخاطبون الجندى الأمريكى الأسود بكلمات "الجندى الأمريكى الملون" فى النشرات والصور الموجهة إلى الجنود السود، مذكرين إياهم بعمليات حرق السود أحياءً فى الولايات المتحدة، ومطالبين إياهم بألا يخدموا الإمبرياليين البيض ضد الملونين الآخرين.

انضم بعض الهاربين من الخدمة العسكرية الأمريكية إلى المتمردين الفليبينيين. وكان أكثرهم شهرة هو ديفيد فيجان من الكتيبة ٢٤ مشاه الذى "أنزل الدمار لمدة عامين بالجيش الأمريكى" وفقًا لجيتوود. ومن الفليبين، كتب وليم سيمز:

أذهلنى سؤال سألنى إياه ولد فليبينى. كان السؤال كالتالى: "لماذا يأتى الأمريكى الزنجى... كى يحاربنا ونحن نكاد نكون أصدقاءً له ولم نفعل شيئًا ضده إنه مثلى وأنا مثلك. لماذا لا تذهب وتحارب هؤلاء الناس فى أمريكا، أولئك الذين يحرقون الزنوج ويعاملونك كأنك حيوان...؟"

وجاء فى خطاب جندى آخر فى عام ١٨٩٩:

تعاطفنا العرقى بالطبع مع الفلبيين. إنهم يحاربون بكل شجاعة فى سبيل حماية مصالحهم. لكننا لا نستطيع، فى سبيل تعاطفنا، أن ندير ظهورنا إلى بلادنا.

وكتب جندى مشاه أسود يُدعى وليم فولبرايت من مانيلا فى يونيو عام ١٩٠١ إلى محرر إحدى الصحف فى انديانا بوليس: "لم يكن ما يحدث على جزر الفلبين إلا مخططًا عملاقًا للسرقة والظلم." وبينما كانت الحرب دائرة ضد الفليبينيين، وجه مجموعة من زنوج ولاية ماساتشوستس رسالة إلى الرئيس ماكينلى:

نحن ملونى ولاية ماساتشوستس فى اجتماع حاشد لنا... قررنا أن نكاشفكم فى خطاب مفتوح على الرغم من صمتكم غير العادى وغير المفهوم على مظالمنا... لقد رأيت معاناتنا وشهدت من برجك المظالم الفظيعة التى لحقت بنا ورغم ذلك فإنك لم تفتح شفتيك فى أى وقت ولا فى أى مناسبة متحدثًا عن محنتنا... لقد اتجهنا إليك، نحن ملونى الولايات المتحدة، بالإجماع وبلهفة أوجعت قلوبنا عندما حوصرت ويلمنجتون

بولاية كـارولاينا الشـمـاليـة لمدة يومـين وليلـتين فظيـعـتـين تحت مـخـالب ثورة دموية عندمـا ذُبح الزنوج كـالكلاب فى شـوارع هذه البلدة المنحـوسـة، لا لشىء سـوى لون بشـرتهم ورغـبـتـهـم فى ممارسـة حـقـوق مـواطَنَتـهـم الأمـريكيـة ـ وذلك عندمـا طالبـوا بمسـاعدة فـيـدرالية لم تقـدمـهـا لهم ـ يا سـيـادة الرئيس ـ ولن تفعل... .

حدث الشىء نفسه مع فورة الغوغاء فى فينكس بكارولاينا الجنوبيـة عندمـا قـتل رجـال سـود وأطلق الرصـاص على رجـال بيض (كان هؤلاء راديكاليين بيض) وطردوا من ذلك المكان على أيدى مـجـموعة من الهـمـجيين البيض.... وبدون جدوى، انتظرنا كلمة أو فعلاً يأتى منك... وعندما قمت بجولتك الجنوبية بعد ذلك بقليل، دللت واحـتـضـنت الكراهيـة العنصـرية فى الجنوب... وطالبت بالصـبـر والجَلَد والاعـتـدال من المواطنـين السـود الذين عـانوا طويلاً، وغـذيت نزعـة الشـوفـينيـة والإمبـرياليـة لدى المواطنين البيض.

بيد أن درس "الصـبر والجَـلَد والاعتـدال" بالنسـبة للسود و"الوطنية" بالنسبة للبيض لم يُفهم جيداً. ففى السنوات الأولى للقرن العشرين، وبالرغم من القوة الظاهرة للدولـة، أصـبح عـدد كـبـيـر من السـود والبـيـض ـ رجـالاً ونسـاءً ـ أقل صـبـراً واعتدالاً ووطنية.

الفصل الثالث عشر

التحدى الاشتراكى

قد تقوم الحرب أو الوطنية المفرطة بتأجيل الغضب الطبقى النابع من حقائق الحياة اليومية، ولكن هذه أو تلك لا يمكن أن تخمده تماماً. فمع بداية القرن العشرين، ظهر هذا الغضب من جديد. ففى اجتماع تم بعد بضع سنوات من الحرب الإسبانية الأمريكية، وقفت "إيما جولدمان" (الثورية والمنادية بالمساواة بين الرجل والمرأة والتى تشكل إدراكها السياسى من العمل فى المصانع والمشاركة فى الإضرابات ومدة السجن الطويلة لرفيق دربها ألكسندر بيركمان وسجنها فى جزيرة بلاك ويل) - وقالت:

> **كم تحترق قلوبنا بالسخط ضد السفاحين الأسبان! لكن عندما خمدت الحرب ودُفن الموتى وارتدت تكاليف الحرب على الأفراد فى زيادة لأسعار المنتجات والإيجارات - وعندما همدت ثورتنا الوطنية – فجأة أفقنا على أن السبب فى الحرب الأمريكية الأسبانية كان سعر السكر. ... إن حياة ودماء ونقود الشعب الأمريكى استخدمت لحماية مصالح الرأسماليين الأمريكيين.**

لم يكن مارك توين **Mark Twain**، الذى كان من أبرز كتاب القصص الهزلية والجدية ذات الروح الأمريكية، ثورياً أو فوضوياً ، ولكنه فى سنة ١٩٠٠ - أى وهو فى الخامسة والستين - رأى الولايات المتحدة ودولاً غربية أخرى تتوسع فى أرجاء العالم، فكتب فى صحيفة "نيويورك هيرالد": "إنى أنبهكم - وأنا عائد من رحلتى رث الثياب

وملطخاً بالعار من جراء غارات القراصنة فى كياوشو ومانشيوريا وجنوب أفريقيا والفليبين - إلى أن القيمة المسماة بالمسيحية قد أصبحت روحها مليئة بالخسة وجيوبها بالرشاوى وفمها بالنفاق."

وكان هناك كتَّاب فى بدايات القرن العشرين دافعوا عن الاشتراكية وانتقدوا النظام الرأسمالى بقسوة ، ومن بين أبرز هؤلاء الأدباء الأمريكيين أبتون سنكلير Upton Sinclair وجاك لندن Jack London وتيودور دريزر Theodore Dreiser وفرانك نوريس Frank Norris .

فى عام ١٩٠٦ نُشرت رواية **الغابة** The Jungle لأبتون سنكلير حيث تستحضر أحوال مصانع تعليب اللحوم فى شيكاغو ، وقد جذبت هذه الرواية انتباه المدينة كلها بحثها على المطالبة بوجود قوانين تنظم هذه الصناعة، وذلك من خلال قصة عامل مهاجر يتحدث عن الاشتراكية وعن جمال الحياة لو أن جميع الناس تعاونوا وامتلكوا وعملوا و اشتركوا فى مكاسب الأرض ، ونشر سنكلير روايته أول مرة فى الجريدة الاشتراكية "أبييل تو ريزون" وبعد ذلك نشرها ككتاب منفرد و قرأه الملايين وترجم إلى سبعة عشر لغة.

ومن بين العوامل التى أثرت على تفكير أبتون سنكلير كتاب **ناس من جهنم** People of the Abyss لجاك لندن الذى كان عضواً فى الحزب الاشتراكى و جاء من أحياء الفقراء فى سان فرانسيسكو طفلاً لأم لم تتزوج. عمل فى البداية كموزع جرائد ثم عاملاً فى معمل تعليب ثم ملاحاً وصياداً وعاملاً فى مغسلة ، وبلغ من سوء حاله أنه كان يتسول فى خطوط السكك الحديدية وقبض عليه فى شوارع نيويورك وقبض عليه أيضا بتهمة التشرد عند شلالات نياجرا وتم تعذيبه داخل السجن ورأى كيف يُعذَّب الناس داخل السجون، وقام بالقرصنة فى خليج سان فرانسيسكو و قرأ لفلوبير وتوليستوى وميلفيل. وقام بعد قراءته البيان الشيوعى The Communist Manifesto بالدعوة إلى الاشتراكية فى معسكرات الذهب بألاسكا فى شتاء عام ١٨٩٦ وأصبح من أشهر كتاب المغامرات. وفى سنة ١٩٠٦ كتب روايته **الكعب الحديدية** The Iron Heel

التى تحذر من الفاشية الأمريكية وتنادى بالاشتراكية المثالية بين جميع البشر ومن خلال شخصيات الرواية كان ينتقد النظام. ومن أقواله:

إن الإنسان المعاصر يعيش فى بؤس وشقاء أكثر من إنسان الكهف مع أن طاقته الإنتاجية تزيد ألف مرة عن طاقة إنسان الكهف ولا يمكن أن نقول غير أن الطبقة الرأسمالية أساءت الإدارة ... فى أنانية وإجرام. دعونا لا ندمر هذه الآلات التى تنتج بكفاءة أعلى وتكلفة أقل. دعونا نتحكم فيها. دعونا نتربح من وراء كفاءتها ورِخصها، دعونا نشغلها لمصلحتنا نحن، وهذه أيها السادة هى الاشتراكية.

كان ذلك فى وقت قال فيه الروائى هنرى جيمس Henry James، الأديب المنفى المقيم فى أوروبا والذى لم يكن مبالياً بالأوضاع السياسية، عندما قام بزيارة الولايات المتحدة فى عام ١٩٠٤ إنها بلد تبدو "كحديقة كبيرة ولكن نباتها مسموم بحب المال." وحتى "جامعى الروث" فقد ساهموا فى خلق الأجواء المنشقة بكلامهم عما يرونه وقامت بعض المجلات الواسعة الانتشار فى الولايات المتحدة بالحديث عن فساد النظام السائد بشىء من السخرية للوصول إلى الربح.

وبحلول عام ١٩٠٠ لم تستطع الوطنية الحماسية للحرب ولا الطاقات المهدرة فى الانتخابات إنكار مشاكل النظام، وظهر بشكل واضح التركيز على دور البنوك، ومع تطور التكنولوجيا والمؤسسات، وجدوا أنهم فى حاجة إلى رؤوس أموال ، وأصحاب البنوك هم من يملكون رؤوس الأموال ، وفى عام ١٩٠٤ اندمج أكثر من ألف خط للسكك الحديدية فى ست تكتلات، ودخلوا جميعاً فى تحالف إما مع مورجان أو روكفيللر.

وحسب ما قال كوشران Cochran وميللر Miller :

إن إمبراطور الاحتكار الجديد هو مؤسسة مورجان، حيث استطاعت من خلال عملياتها أن تحصل على مساعدة من البنك

الوطنى الجديد فى نيويورك ورئيسه جورج بيكر وبنك سيتى الوطنى ومديره جميس ستيلمن وكيل مصالح روكفيللر ويملك هؤلاء الثلاثة وشركاتهم المالية ٣٤١ شركة داخل ١١٢ مؤسسة كبرى. وقد بلغت موارد هذه المؤسسات فى عام ١٩١٢ما يقارب ثلاثة وعشرين مليوناً من الدولارات، وهو ما يزيد على قيمة الممتلكات فى الولايات الاثنتين والعشرين والضواحى الواقعة غرب الميسيسيبى.

كان مورجان يعشق الانضباط والاستقرار والقدرة على التنبؤ. قال عنه أحد مساعديه فى عام ١٩٠١ "مع رجل مثل مورجان كرئيس لصناعة كبيرة بالمقارنة بالخطة القديمة المبنية على مصالح متنوعة، سيصبح الإنتاج أكثر انتظاماً والعمال أكثر استقرارا فى عملهم بأجور ثابتة وستصبح المشاكل الناتجة عن زيادة الإنتاج أمراً من أمور الماضى."

ولكن حتى مورجان وشركاءه لم يستطيعوا التحكم الكامل فى النظام ، ففى عام ١٩٠٧ حدث انهيار مالى وأزمة كبيرة. صحيح أن الشركات العملاقة لم يصبها أذى ولكن الأرباح بعد عام ١٩٠٧ لم تكن كما أرادها الرأسماليون، وبدأ رجال الصناعة فى التفكير فى أساليب جديدة لخفض التكاليف.

أحد هذه الأساليب هو "التيلوريزم" الذى سُمى بهذا الاسم نسبة إلى فريدريك تيلور الذى كان ملاحظ عمال فى شركة لتصنيع الحديد والذى كان يحلل بدقة كل وظيفة فى المصنع وتوصل لنظام جديد لتقسيم العمل بين العمال، الأمر الذى أدى إلى زيادة عمل الآلات ومن ثم زيادة الإنتاج والأرباح. وفى عام ١٩١١ أصدر كتابه **الإدارة العلمية** **The Scientific Management** والذى اصبح ذا تأثير كبير فى عالم البيزنس وهو يرتكز على أن الإدارة الجديدة تستطيع التحكم فى أدق التفاصيل الخاصة بجهد ووقت العامل فى المصنع ، كما قال هارى بريفمان فى كتابه **العمل واحتكار رأس المال** **Labor and Monopoly of Capital** إن الهدف من نظام تيلور هو جعل العمال قابلين

للتغيير وأن يصبحوا أكثر دقة فى أداء المهام البسيطة التى يتطلبها التقسيم الجديد للعمل -أى أن يصبحوا أجزاء يشبه بعضها بعضا، لا فرادة فيهم ولا إنسانية، ويباعون ويشترون كالسلع. وكانت نظرية تيلور مناسبة تماما لمجال صناعة السيارات، ففى عام ١٩٠٩ باعت شركة فورد حوالى ١٠ ٦٠٧ سيارة وبلغ العدد بعد أربع سنوات ١٦٨,٠٠٠ سيارة ووصل إلى ٢٤٨,٠٠٠ فى العام التالى (٤٥٪ من عدد السيارات التى تم إنتاجه)، وبلغت الأرباح ٣٠ مليونا من الدولارات ، ومع زيادة أعداد المهاجرين القادمين من أوروبا الشرقية فى عام ١٩٠٧، أصبحت التيلوريزم بوظائفها البسيطة غير المعقدة أكثر فاعلية وملائمة.

وفى نيويورك ذهب المهاجرون الجدد للعمل فى محلات الحلوى ، وكتب الشاعر إدوين ماركهام Edwin Markham فى مجلة "كوزموبوليتان" فى يناير ١٩٠٧:

> **فى غرف عديمة الهواء، يحيك الأباء والأمهات الملابس ليل نهار. لابد من ذلك حتى يكونوا أرخص ممن يعملون فى مصانع الحلوى و بالنسبة للأطفال فهم يُأخذون من اللعب إلى العمل والكدح مع أهاليهم، وعلى مدار العام، سواء كان ذلك فى نيويورك أو فى المدن الأخرى، يمكنك أن تجد أطفالا يعملون بجانب عائلاتهم الفقيرة. فإن شاهدتهم، ستجدهم شاحبين ضعافا، بائسى الوجوه، ومحنيى الظهور من حمل الأثواب على الرؤوس والأكتاف. أليست هذه حضارة قاسية تلك التى تجعل هذه الأفئدة الصغيرة والأكتاف الضعيفة ترزح تحت حمل مسئوليات الكبار وفى ذات الوقت والمدينة تجد حيوانات أليفة مدللة ومزينة بالمجوهرات تتمشى فى الحدائق والطرق خلف سيدة غنية؟**

و فى أغسطس عام ١٩٠٥ أصبحت المدينة ساحة قتال كما جاء فى جريدة التربيون التى نشرت أن إضرابا فى مخبز فديرمان فى الجانب الشرقى أدى إلى وقوع عنف عندما حاول فيدرمان استخدام عمال الماشية للاستمرار فى الإنتاج:

قام المضربون والمتعاطفون معهم بتكسير محل الخبز المملوك لفيدرمان الكائن فى ١٨٣ شارع أوركيد فى المساء وسط مشاعر غضب عنيف، وقام البوليس بضربهم بالعصى على رؤوسهم بعد اعتداء بعضهم على اثنين من رجاله.

وأما الحال بالنسبة لمصانع الملابس التى كانت تبلغ حوالى ٥٠٠ مصنعا فى نيويورك، فقد قالت سيدة فى وقت لاحق وهى تتحدث عن أوضاع العمل:

... سلالم مكسورة... سلالم لا تمسح سوى مرة فى العام ... شبابيك قليلة وغير نظيفة. لا يكاد يكون هناك مصدر آخر للإضاءة غير لمبات الجاز صباحاً أو مساءً ... مراحيض قذرة وكريهة الرائحة ومظلمة. ليس هناك ماء نظيف للشرب ... فئران وصراصير... فى الشتاء معاناة من البرد الشديد و فى الصيف معاناة من شدة الحر. فى هذه الجحور الممرضة نكدح نحن صغار السن مع الرجال والنساء من سبعين إلى ثمانين ساعة فى الأسبوع بما فى ذلك أيام الأحد والسبت ولافتة تعلق يوم السبت ظهرا "إن لم تحضر يوم الأحد لا داعى للحضور يوم الاثنين" ... وتتلاشى أحلامنا بيوم إجازة، فلا نجد شيئاً نفعله غير البكاء، إذ كنا لا نزال أطفالا.

وأما فى شركة ترايانجل للملابس النسائية، ففى شتاء عام ١٩٠٩ اجتمعت النساء وقررن الإضراب ووجدن أنهن لن ينجحن طالما تعمل بقية المصانع. لذلك طالبن بقية المصانع بالاشتراك فى الإضراب ووقفت متحدثة فصيحة تدعى كلارا ليمليتش وقالت "أنا أعرض عليكن الحل وهو القيام بالإضراب الآن." وصوتت كل الحاضرات لصالح المشاركة فى الإضراب. تتذكر واحدة من المضربات، وهى بولين نيومان ما حدث فى ذلك الإضراب:

ترك الآلاف من كل مكان مصانعهم واتجهوا جميعا إلى ميدان يونيان. كان ذلك فى نوفمبر والشتاء قارص وليس لدينا

معاطف فرو تدفئنا ولكن كانت هناك روح تدفعنا جميعا إلى مكان معين. لقد شاهدت شبابا أغلبهم من الفتيات يسيرون فى الإضراب غير مبالين بما سوف يحدث... من تعرض للجوع والبرد والوحدة. لم يبالوا بأى شىء. فقد كان ذلك اليوم يومهم المشهود .

ومرة أخرى تقول بولين نيومان:

حاولنا أن نعلم أنفسنا بأنفسنا، كنت أستضيف الفتيات فى غرفتى ونبدأ بالتناوب فى قراءة الشعر الإنجليزى لكى نقوى لغتنا، وكان من أكثر القصائد التى نحبها قصيدة "أغنية القميص" لتوماس هود وقصيدة "قناع الثورة" للشاعر الرومانتيكى الإنجليزى شيلى والتى يقول فيها:

انهضوا كالأسود بعد السبات

بأعداد لا يمكن هزيمتها!

وكسِّروا قيودكم التي ذهبت بحريتكم

في غفلة من الزمن.

وتذكَّروا أنكم كثيرون

وأنهم قليلون.

لم تتغير الأحوال فى المصانع كلية، ففى ظهر يوم ٢٥ مارس سنة ١٩١١، حدث حريق فى مخزن بشركة تراينجل فى الدور الثامن والتاسع والعاشر بارتفاع لم يمكن سلالم الإطفاء من الوصول إليه. رئيس الإطفاء فى نيويورك قال إن السلالم تستطيع أن تصل إلى الدور السابع فقط، ولكن ٥٠٠ ألفاً من العمال أمضوا حوالى ١٢ ساعة فوق الطابق السابع. ومع أن القوانين تنص على أن أبواب المصانع

يجب أن تفتح للخارج، فإن الأبواب فى شركة تراينجل كانت تفتح للداخل، والقوانين تنص على أن الأبواب لا تغلق خلال ساعات العمل ولكن فى تراينجل الأبواب موصدة حتى تتمكن الشركة من مراقبة العمال ولذلك ماتت العاملات حرقا وهن جالسات على مكاتبهن أو حشرن فى الأبواب أو قفزن من فتحات المصاعد. كتبت جريدة نيويورك ورلد:

> **... تجمع الرجال والنساء والأولاد والبنات وهم يصرخون عند أفاريز النوافذ وألقوا بأنفسهم فى الشوارع. كانوا يقفزون وملابسهم مشتعلة وشعور الفتيات مشتعلة وهم يقفزون كومة تلو كومة على الرصيف. وفى منظر فظيع أصبح شارعا جرين ستريت وواشنطن بليس ممتلئين بالموتى أو بمن فى طريقهم إلى الموت. ومن الشبابيك المقابلة رأى شهود عيان مناظر قاسية لأكثر من فتاتين تتعلق الواحدة بالأخرى وهم يقفزون.**

وعندما انتهى كل شئ، وُجد أن ١٤٦ عاملاً أغلبهم من النساء ماتوا محترقين، وشيع جنازتهم أكثر من مائة ألف شخص.

وفى عام ١٩٠٤ كان هناك حرائق أخرى وحوادث وأمراض، ولقى سبعة وعشرون ألف عامل حتفهم وهم يعملون فى المصانع والنقل والزراعة. وفى عام واحد وقعت خمسون ألف حادثة فى مصانع نيويورك فقط، حيث كان العاملون فى مصانع القبعات يعانون من مشاكل فى التنفس، وعمال الحجارة يستنشقون كيماويات مميتة، والعاملون بالمطابع الحرارية يستنشقون الزرنيخ.

كتب مكتب التحقيق لولاية نيويورك تقريراً عام ١٩١٢ عن إحدى العاملات جاء فيه:

> **كانت سادى فتاة ذكية، مهندمة ونظيفة ، وفى مصنع التطريز حيث عملها ، كانت تستخدم مسحوقاً أبيض (طباشير**

أو ما شابه) يدهن على التصميمات ثم ينقل للملابس. كانت التصميمات تُرفض إذا كانت مصنوعة من هذه المادة البيضاء، فقام صاحب العمل باستحضار نوع أخر من المساحيق وهو مسحوق الرصاص، الأمر الذى أدى إلى تقليل النفقات. لم تعلم الفتيات عن هذا التغير فى المسحوق ولا عن خطر استخدامه. سادى كانت قوية وتتمتع بصحة جيدة ولون بشرة جميل وشهية جيدة للطعام، بدأت تعانى عدم رغبة فى الطعام وبدأ ظهور تورم فى يدها وقدمها وفقدت استعمال إحدى يديها. تحولت أسنانها ولثتها إلى اللون الأزرق إلى أن اضطرت إلى ترك العمل بعد أن عولجت لشهور من مشاكل بالمعدة، ونصحها طبيبها بدخول مستشفى، حيث أثبتت الفحوصات أنها تعانى من تسمم الرصاص.

وحسب ما جاء فى تقرير لجنة العلاقات الصناعية فى عام ١٩١٤، فإن حوالى خمسة وثلاثون ألف عاملاً لقوا حتفهم من حوادث صناعية وجرح سبعمائة ألف فى تلك السنة ، ووجدت هذه اللجنة أن دخل ٤٤ أسرة فقط كان يصل إلى مليون دولار، أى ما يوازى دخل مائة ألف عائلة دخلها ٥٠٠ دولار فى السنة ، وفى مقابلة بين عضو من لجنة العلاقات الصناعية ومدير إحدى شركات الفحم التابعة لروكفيللر، دار هذا الحديث:

عضو اللجنة: إذا فقد أحد الموظفين حياته، هل يحصل من يعولهم على تعويض؟

صاحب المصنع: ليس بالضرورة.

عضو اللجنة: لو حدث عجز. هل يتم تعويضه؟

صاحب المصنع: لا يا سيدى.

عضو اللجنة: إذاً الحِمل كله يقع على كواهلهم!

صاحب المصنع: نعم.

عضو اللجنة: المصنع لا يتحمل أى شئ؟

صاحب المصنع: لا! المصنع لا يتحمل أى شئ.

وفى هذه الأثناء أخذت النقابات فى النمو. باختصار بعد نهاية القرن أصبح هناك أكثر من ٢ مليون عضو فى اتحادات العمال (واحد فى كل ١٤ عامل) ٨٠٪ منهم فى اتحاد العمال الأمريكى، الذى كان عبارة عن اتحاد أغلبه من الرجال كلهم تقريبا من البيض وأصحاب مهارات. وبالرغم من أن عدد النساء العاملات أصبح فى تزايد وتضاعف من ٤ ملايين فى عام ١٨٩٠ إلى ٨ ملايين فى عام ١٩١٠ والعاملات أصبحن ١/٥ من القوى العاملة، فإن واحدة فقط من بين كل ١٠٠ كانت عضواً فى هذه النقابات.

وقد كان ما يحصل عليه العمال السود فى عام ١٩١٠ يمثل ١/٣ مما يكسبه العمال البيض، وعلى الرغم من أن صامويل جومبرز رئيس اتحاد العمال الأمريكى كان يلقى خطباً عن الفرص المتكافئة لجميع العمال، كان السود خارج جميع تشكيلات اتحاد العمال الأمريكى وقد قال فى حديث له إنه لا يريد التدخل فى العلاقات الداخلية وأن المشكلة العرقية لابد أن تحل من قبل الجنوب من غير تدخل الوسطاء.

فى نيو أورلينز عام ١٩٠٧ قام إضراب ضم ١٠,٠٠٠ من عمال شحن وتفريغ السفن وسائقى الشاحنات من السود والبيض استمر ٢٠ يوماً، وقد قال رئيس العمال السود:

لم يقف السود والبيض من قبل فى قوة وتلاحم وفى رباط مشترك كما هم اليوم ، وعلى مدار خبرتى البالغة تسعة وثلاثين عاماً، لم أر مثل هذا التضامن ، ففى كل الإضرابات السابقة،

كان يتم استخدام الرجل الأسود ضد الأبيض ، ولكن هذا زمان ولّى ، فالآن يقف البيض والسود معاً فى سبيل تحقيق مصالحهم المشتركة.

كان هذا استثناءً لأن السود كانوا دائماً خارج أى حركات نقابية، وقد كتب دى بوا Du Bois فى عام ١٩١٣ "ما يمكن أن يقال بعد كل هذا هو أن السود لابد أن يقتنعوا أن العدو الأكبر هو صاحب العمل الذى يقوم بسرقتهم وليس زميلهم الأبيض."

كانت العنصرية تسود اتحاد العمال الأمريكى حيث كانت النساء والأجانب مستثنيين من الاتحاد. كانوا فى نظر اتحاد العمال الأمريكى لا يملكون مهارة كافية والفيدرالية مقتصرة فقط على ذوى المهارات، فقط كانت تقوم على المزج بين احتكار الإنتاج من قِبل صاحب العمل واحتكار العمال من قِبل الاتحاد. بمعنى آخر إنها كانت تحتكر أحسن العمال لإلحاقهم بالعمل وبذلك تضمن لهم ظروف عمل مناسبة مع ترك غالبية العمال دون عمل ، وكان الرؤساء فى هذا الاتحاد يحصلون على مرتبات كبيرة بمشاركة أصحاب العمل. كانوا يحمون أنفسهم من أى نقد يمكن أن يوجه إليهم بواسطة عقد اجتماعات دورية واستخدام مجموعة من المتملقين للوقوف فى وجه أى من المعروفين بإثارة الإضرابات ، وبعد فترة استُخدم هؤلاء لإرهاب وضرب المعارضين داخل الاتحاد.

فى هذه الظروف حدثت تغيرات رهيبة فى اتحادات العمال وأراد الناس إحداث تغيرات جذرية وباتوا متيقنين أن أساس المعاناة تكمن فى النظام الرأسمالى، وفى يوم من أيام شهر يونيو عام ١٩٠٥، تجمع فى شيكاغو أكثر من مائتين من الاشتراكيين والثوريين وأعضاء من اتحادات التجارة من جميع الولايات، وشكلوا ما عرف بمنظمة "عمال العالم Industrial Workers of the World ".

وقام عضو يدعى هايوود، وكان من زعماء هذه المنظمة الجديدة، وألقى خطبة جاء فيها:

إخوانى العمال! يعتبر هذا مؤتمراً على مستوى القارات للطبقة العاملة، نحن هنا للعمل على تحالف عمال هذه المدينة للقيام بتحركات من أجل تحرير الطبقة العاملة من عبودية الرأسمالية... . إن هدف هذه المنظمة هو جعل الطبقة العاملة تمتلك الموارد الاقتصادية ووسائل الحياة والتحكم فى آليات الإنتاج والتوزيع دون تحكم الرأسماليين.

وكان مع هايوود على المنصة يوجين ديبس زعيم الحزب الاشتراكى والأم مارى جونز (٧٥ عاماً) التى كانت تعتبر من المنظمين لاتحاد عمال مناجم أمريكا ، وأصدر الاجتماع دستوراً تقول مقدمته:

لا شئ مشتركاً بين الطبقة العاملة وأصحاب العمل. لا يمكن أن يقوم سلام بينهما طالما وجد الجوع بين ملايين العمال بينما الطبقة القليلة العدد المتحكمة تمتلك كل سبل الحياة. فهناك صراع بين الطبقتين وسوف يستمر إلى أن يستطيع كل الكادحين الحصول على ما ينتجون من خلال مؤسسة اقتصادية لهم دون التحالف مع أى جهة سياسية.

وفى إحدى الكراسات نرى شرحاً للاختلاف بين منظمة "عمال العالم IWW وبين اتحاد العمال الأمريكى بشأن موضوع اتحاد الحرفيين كالآتى: إن ملف اتحادات شيكاغو أظهر أنه فى عام ١٩٠٣ كان هناك ٥٦ تحالفا مختلفاً مقسمين إلى ١٤ منظمة أهلية وهذا يعتبر انقساماً وانشقاقاً فكيف لجيش مقسم فيما بينه أن يواجه تحالف أصحاب العمل.

كانت منظمة "عمال العالم" تهدف إلى تنظيم كل العاملين فى كل مجال من مجالات الصناعة فى اتحاد واحد كبير لا يهتم بالجنس أو العرق أو المهارة، وكان ضد أن يمضى العمال عقوداً مع أصحاب العمل لأنهم يستخدمون ذلك فى منعهم من القيام بأى إضراب، فهم يرون أن العمل المباشر كما يطلقون عليه هو العمل الصناعى الذى يؤدى فى النهاية إلى إنتاج بدون مساعدة زعماء العمال الخائنين أو السياسيين

الماكرين وأن الإضراب الذى يتم ويتحكم فيه العمال يؤثر على العمل المباشر. ذلك يعنى أنه فى حالة قيام العمال بأى إضراب فإن ذلك يُعتبر عملاً مباشراً وسوف يعود بالنفع عليهم، فالعمل المباشر الذى يقوم به العمال هو الديمقراطية الصناعية.

وتقول واحدة من كراسات منظمة "عمال العالم": "هل أقول لكم ماذا يعنى العمل المباشر؟ إنه يعنى أن العامل يستطيع أن يقول لرئيسه متى وأين سيعمل وكم من الوقت سيأخذ ليتم العمل وتحت أى ظروف عمل يرتضيها هو وما المرتب الذى يريده."

وكان أعضاء "عمال العالم" مناضلين شجعاناً على الرغم من السمعة التى عرفت عنهم من خلال الصحافة فهم كانوا لا يرغبون فى اختلاق العنف ولكن يؤكدون على الدفاع عن النفس إذا تم الهجوم عليهم، لقد نظموا إحدى الإضرابات فى شركة للصلُب وتحدوا رجال الأمن ودخلوا فى عراك معهم ووعدوا بأن حياة أى فرد من أفراد الأمن أمام أى فرد يقتل منهم ، وبالفعل قتل ثلاثة من رجال الأمن مقابل أربعة من المضربين واستمروا إلى أن كسبوا المعركة. كان رأيهم أن الإضراب هو مقياس للقوة وطريقة يتم من خلالها تدريب العاملين لأنفسهم للقيام بأعمال متفق عليها. هذا التدريب مطلوب لإعداد الجموع للإضراب العام الذى سوف يؤدى إلى مصادرة ملكية أصحاب الهيمنة.

وقد بدأ يظهر بشدة فى إسبانيا وإيطاليا وفرنسا فى نفس الوقت ما عرف بنظرية الثورة النقابية وهى أن العمال يحصلون على ما يريدون ليس بالاستحواذ على وسائل الإنتاج من خلال ثورة مسلحة ولكن بجعل النظام الاقتصادى يتوقف تماما من خلال إضراب عام وبعد ذلك يستغلون الظروف المواتية لصالحهم. وأيد أحد منظمى "عمال العالم" ذلك بالقول: "إذا أراد عمال العالم أن ينتصروا فما عليهم سوى الاتحاد، ليس عليهم إلا أن يعقدوا أيديهم وسيتوقف العالم. إن العمال وأيديهم فى جيوبهم أكثر قوة من كل ما يملكه الرأسماليون."

لقد كانت نظرية قوية بشكل هائل ، ففى العشر سنوات التالية لمولدها، أصبحت "عمال العالم" تمثل خطراً على طبقة الرأسماليين خاصة عندما كان نموهم كبيراً

وأرباحهم هائلة. لم يسجل فيها أكثر من خمسة إلى عشرة آلاف عضو فى وقت واحد. كان أعضاء ينضمون وأعضاء يرحلون ولكن طاقتهم وإصرارهم وتأثيرهم على الأخريين وقابليتهم لتحريك الآلاف جعلهم ذوى تأثير كبير على الدولة بغض النظر عن عددهم. لقد كانوا يذهبون إلى كل مكان (بعضهم كان بدون عمل أومن المهاجرين). لقد كانوا يجتمعون ويكتبون ويقرءون ويتكلمون ويغنون وينشرون رسالتهم وروحهم المعنوية فى كل مكان.

قامت الحكومة بالهجوم عليهم بشتى الطرق الممكنة فى الصحف والقضاء والبوليس والجيش، وأصدرت السلطات الداخلية قوانين لمنعهم من الحديث ولكن استطاعوا أن يتحدّوا هذه القوانين، فى ميزولا، مونتانا التى تعتبر منطقة أخشاب ومناجم. حضر مئات من "عمال العالم" فى عربات شرطة بعد أن منع بعض منهم من الحديث وبعد أن تم القبض عليهم واحداً تلو الآخر حتى أصبحوا يعوقون الحركة بالسجون والمحاكم، الأمر الذى أجبر المدينة على إلغاء الحكم عليهم بعدم الكلام.

وفى سبوكن بواشنطن فى عام ١٩٠٩، صدر أمر بوقف أى اجتماعات بالشوارع وأصر أحد منظمى "عمال العالم" على إلقاء خطبته، فتم القبض عليه. وتقدم آلاف من "عمال العالم" إلى وسط المدينة للتحدث، واحداً تلو الآخر يتكلم ويتم القبض عليه ويوضع بالسجن حتى أصبح عدد من تم القبض عليهم ستمائة وكانت ظروف السجن قاسية ولقى العديد من الرجال حتفهم وهم مسلسلين بالحديد ولكن فى النهاية استطاعت منظمة "عمال العالم" أخذ حقوقهم.

وفى عام ١٩١١ فى فريزنو بكاليفورنيا، كانت هناك معركة على الحق فى إلقاء الخطب وكان تعليق إحدى الصحف: "إنه واحد من أغرب المواقف التى تحدث فجأة ويصعب فهمها. إن بعض آلاف الحرفيين أصبحوا مشردين ويقومون بسرقة الركاب ويواجهون خطر دخول السجن. ..."

وفى السجون كانوا يغنون ويصرخون ويقومون بإلقاء الخطب من وراء القضبان لجموع الناس المجتمعين بالخارج. وكما قالت جويس كورنبلو **Joyce Kornbluh** التى قامت بتجميع وثائق منظمة "عمال العالم" فى كتابها **أصوات ثائرة Rebel Voices** :

كانوا يأخذون دورهم فى إلقاء المحاضرات عن الصراع الطبقى وينشدون أغانيهم وعندما رفضوا التوقف عن ذلك قام مشرف السجن باستدعاء قسم الإطفاء وأمر باستخدام خراطيم الإطفاء ولم يجد المساجين ما يحميهم غير مخداتهم لمواجهة المياه ولم يسكن الحال إلا بعد أن وصلت المياه إلى ما بعد رُكبهم.

وعندما علم المسئولون أن آلافاً آخرين ينوون الحضور للمدينة، قاموا بالإفراج عن المسجونين على فترات فى جماعات صغيرة العدد ، وفى نفس العام فى واشنطن صدر قانون ضد إلقاء الخطب وحدثت أيضا حالات قبض وسجن وأيضا حالات انتصار فى النهاية. كتب أحد المحررين عن هذه الواقعة:

كانوا ثمانية عشر رجلاً فى ريعان الشباب ويمتلؤن قوةً ونشاطاً، منهم من جاء عبر مسافات طويلة فى الثلوج ومن مدن لا ترغب فى وجودهم. كانوا مفلسين وجوعى. جاءوا إلى مكان كان دخول السجن فيه أهون شئ متوقع ومنهم من أُجبر على المضى فى البرك ومنهم من ضُرب حتى الموت ، وتراهم يضحكون كالصبية الصغار على أشياء تراجيدية ولكن بالنسبة لهم كانت تعتبر نكات ، ولكن دعنا نتساءل: ما الدافع وراء هؤلاء الرجال؟ لماذا كانوا هنا؟ هل نداء الأخوة بين البشر أقوى من الخوف على الرغم من جهود من كانوا يرغبون فى انتزاع فكرة الأخوة من عقولنا على مدى ستة آلاف سنة؟

وفى سان دييجو عام ١٩١٢ تم القبض على جاك وايت وهو يلقى خطبة وحكم عليه بستة شهور فى سجن المدينة على الخبز والماء فقط. وعندما سئل عن ما إذا كان يرغب فى أن يقول أى شئ للمحكمة، كان من بين ما قاله:

فى دعوته إلى المحلفين اتهمنى وكيل النيابة بأننى قلت على منصة عامة فى اجتماع عام: "فلتذهب المحاكم إلى الجحيم! إننى

أعرف ما تعنيه العدالة." والحق إنه نطق بحقيقة كبرى عندما كذب، لأنه لو بحث فى داخل تلافيف عقلى، لوجد هذه الفكرة التى لم أعبر عنها من قبل ولكنى أعبر عنها الآن: "فلتذهب المحاكم إلى الجحيم! إننى أعرف ما تعنيه العدالة." لقد جلست فى هذه القاعة من قبل ولأكثر من مرة، ورأيت أناساً يقفون على ما تسمونه "منصة العدالة" وقد رأيتك أيها القاضى ورأيت قضاة آخرين مثلك يرسلون بالناس إلى السجن لا لشىء سوى أنهم تجرءوا وانتهكوا حقوق الملكية المقدسة. لقد صرتم صماً وعمياناً فيما يتعلق بحقوق الإنسان فى الحياة والسعادة، وحطمتم هذه الحقوق فى سبيل حماية قانون الملكية. وتطلبون منى الآن أن احترم القانون. لا لست احترمه! لقد انتهكت القانون كما إننى سوف انتهك أى قانون لكم. وسأمثل أمامكم مرة بعد مرة وسأقول لكم كل مرة" "فلتذهب المحاكم إلى الجحيم! إننى أعرف ما تعنيه العدالة."

وتحدث أحد الأعضاء (وكان قد تم الإفراج عنه مع زميل له فى منتصف الليل) قائلاً:

أجبرونا على الدخول فى سيارة وأخذونا خارج المدينة على بعد ٢٠ ميلاً وتوقفت العربة فى ذلك المكان وقام رجل كان جالساً فى المؤخرة بضربى على رأسى بعصىً وقام آخر بلكمى فى وجهى وبعد ذلك تقدم بعض الرجال الجالسين فى المؤخرة وركلونى فى بطنى وحاولت الهرب بعد ذلك وسمعت صوت طلقة مرقت بجانبى، وفى الصباح علمت أن الطلقة كانت فى رأس صديقى الذى كان برفقتى فى العربة.

وفى عام ١٩١٦ فى إيفريت بواشنطن كانت هناك سفينة محملة بأعضاء منظمة "عمال العالم" وقام جنود مسلحون وأحد الضباط بإطلاق النار عليهم وأردوا خمسة

منهم قتلى وواحداً وثلاثين جريحاً. وقتل أيضا اثنان من الجنود وجرح تسع عشرة منهم. وفى غضون هذه السنة دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى وقام الجنود بالقبض على أحد زعماء منظمة "عمال العالم" وعذبوه وقاموا بتعليقه على محطة السكة الحديدية.

كتب جو هيل **Joe Hill** أحد منظمى "عمال العالم" كثيرا من الأغانى الحماسية والمؤججة للمشاعر كانت تظهر فى شكل منشورات وأصبح هذا الرجل أسطورة فى ذلك الوقت ، وقد اتخذت أغنية "الواعظ والعبد" الكنيسة هدفاً توجه إليه النقد اللاذع. تقول بعض كلماتها:

الكهنة ذوو الشعور الطويلة

يخرجون إلينا كل مساء

ليقولوا لنا ما الخطأ وما الصواب

وإذا طلبنا شيئًا نأكله

يردون بكلمات معسولة:

سوف تأكلون في السماء

اعملوا وصلوا وعيشوا ولو على القش

وستحصلون على كعكة في السماء عندما تموتون.

وهناك أيضا أغنية "الفتاة الثورية" استوحاها من إضراب السيدات فى مشاغل القماش فى لورانس وخاصة من زعيمة الإضراب اليزابيث فلين:

في هذا العالم الكبير هناك نساء

من مختلف الأشكال

كما يدرك كل شخص

بعضهن يعيشن في منازل فخمة

ويلبسن أفخر الثياب.

وهناك ملكات وأميرات

يملكن مجوهرات ولآلي

ولكن الوحيدة المنحدرة من أصول عريقة

هى الفتاة الثورية

وفى نوفمبر سنة ١٩١٥، اتُهم جو هيل بقتل بقّال فى حادث سطو فى سولت ليك سيتى ولم يكن هناك دليل قوى على إدانته فى المحكمة ولكن كانت هناك أدلة صغيرة كثيرة لدى المحكمة لتجده مذنباً، وعرفت القضية فى كل أنحاء العالم، وجاءت آلاف من خطابات الاحتجاج إلى حاكم الولاية ، ولكن فى مواجهة الأسلحة التى تحرس مدخل السجن، ذهبت الجهود سدى وقاموا بتنفيذ حكم الإعدام فى جو هيل رمياً بالرصاص ، وكان قد كتب إلى بيل هايوود قائلاً: "لا تنتحبوا من أجلى ـ اتحدوا."

وفى يناير فى الشتاء القارص، عندما وصلت خطابات الأجور إلى مجموعة من عاملات النسيج تقول إن أجورهم سوف تقل فى الوقت الذى لا يستطيعون فيه أن يوفروا الطعام لأسرهم، أوقفوا أنوالهم وغادروا المصنع ، وفى اليوم التالى ترك خمسة آلاف عامل أعمالهم ودخلوا على بقية المصانع وقاموا بوقف الأنوال عن العمل وطالبوا العاملين بالخروج إلى الشارع ، وأصبح العدد الإجمالى للمضربين عشرة آلاف.

وصل إلى جوزيف إتور Ettor، الإيطالى الذى يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً ويعتبر من قادة "عمال العالم"، تلغراف يطلب منه الحضور إلى لورانس لتنظيم الإضراب، وذهب إتور من فوره وتشكلت لجنة من خمسين فرداً يمثلون جنسيات مختلفة للوصول إلى قرارات هامة. انضم حوالى ألف عامل إلى منظمة "عمال العالم" لأن اتحاد العمال الأمريكى كانت قد أهملت العمال غير المهرة ولذلك تحول هؤلاء إلى

منظمة "عمـــال العـــالم"، التى كانت تدافع عن حقـــوق كل العاملين مهرة كانوا أم غير مهرة.

وقد قامت منظمة "عمال العالم" بتنظيم لقاءات، وقام المضربون بتوفير الطعام والوقود بحيث يكفى ٥٠,٠٠٠ فرداً (كان عدد سكان لورانس ٨٦,٠٠٠) وقاموا بتجميع الأموال اللازمة من كل أنحاء المدينة ومن النقابات التجارية والجمعيات الاجتماعية ومن بعض الأفراد.

وقام عمدة المدينة بطلب الجنود وقام حاكم الولاية باستدعاء قوات البوليس وقد تعرض المضربون للهجوم من قبل رجال الشرطة ، وحدثت أعمال شغب فى هذا اليوم. وفى المساء قتلت واحدة من المضربات تدعى آنا لوبيز، وقال بعض الشهود إن أحد رجال البوليس هو الذى قتلها ، ولكن السلطات قامت بالقبض على جوزيف إتور وأحد الشعراء (أرتورو جيوفانيتى Arturo Giovanitti) . ورغم أنهما لم يكونا فى مسرح إطلاق الرصاص، فقد قالت المحكمة: "إن إتور وجيوفانيتى كانا يحرضان الناس ويدبران لجريمة القتل المذكورة."

لما أُودع جوزيف إتور السجن (وكان هو قائد الإضراب)، تم استدعاء بيل هايوود كى يحل محله ، وجاء منظمون آخرون مثل اليزابيث جيرلى فلينْ إلى لورانس ، وصار هناك اثنان وعشرون مجموعة من الميليشيا وقوتان من قوات الفرسان فى المدينة. أعلنت السلطات الأحكام العرفية ومنعت الناس من الكلام فى الشوارع ، وانتشرت قوات الأمن فى الشوارع لوقف المضربين وتم القبض على ٣٦ منهم وأودعوا السجن. وفى يوم ٣٠ يناير قتلت قوات الأمن أحد المضربين وهو سورى الجنسية يدعى جون رامى بطعنة حربة وقال إتور فى حديث له: "إن الحراب لا تنسج الملابس".

وفى شهر فبراير، بدأ المضربون بالتجمع صفاً صفاً حتى انضم إليهم من ٧٠٠٠ إلى ١٠٠,٠٠٠ فرداً فى سلسلة لا نهائية فى المناطق التى توجد بها المصانع وعلقوا على أذرعهم شارات تقول: "لا تكن إنسانا محتقَراً." ولكن فى نفس الوقت كان ما لديهم من طعام يوشك على النفاد وبدأ الجوع يعصر أطفالهم ، ونشرت جريدة "كول"

الاشتراكية اقتراحاً بأن يذهب أطفال من يقومون بالإضراب إلى عائلات فى مدن أخرى للقيام برعايتهم، وكان هذا قد حدث من قبل فى أوروبا وليس فى الولايات المتحدة ، ولكن فى غضون ثلاثة أيام تلقت الجريدة أربعمائة طلباً برعاية الأطفال ، وبدأت منظمة "عمال العالم" والحزب الاشتراكى بتنظيم عملية ترحيل الأطفال.

وفى يوم ١٠ فبراير غادر اكثر من ١٠٠ طفل (من سن الرابعة إلى سن الربعة عشر) لورانس إلى نيويورك ، وقام باستقبالهم فى محطة القطار أكثر من خمسة آلاف من الإيطاليين الاشتراكيين وهم يقومون بالغناء ، وبعد أسبوع وصل مائة طفل آخرون قدموا إلى نيويورك وذهب ٣٥ آخرون إلى فيرمونت. كان من الواضح أن ترحيل الأطفال سوف يجعل المضربين يشعرون بالراحة لذلك استصدر بعض من ذوى السلطة فى المدينة قانوناً يمنع مغادرة الأطفال للمدينة ، وبالرغم من القرار الذى صدر، تجمع أربعون طفلاً فى يوم ٢٤ فبراير ليرحلوا إلى فيلادلفيا. امتلأت محطة القطار برجال الشرطة وما حدث بعد ذلك روته لرجال الكونجرس إحدى أعضاء لجنة النساء فى فيلادلفيا:

> **عندما حان موعد الرحيل، تجمع الأطفال اثنين اثنين فى طابور طويل ، وكان الآباء والأمهات على مقربة منهم ، وعندما توجه الأطفال لركوب القطار، تجمع رجال الشرطة وقاموا بسد الطريق المؤدى إلى القطار وقاموا بالضرب يمينا وشمالا غير مباليين بوجود الأطفال الذين كانوا فى رعب يكاد يصل بهم إلى الموت. بعد ذلك أُخذت الأمهات والأطفال إلى شاحنة عسكرية ووضعت الكلبشات فى أيديهم وسط بكاء الأطفال والسيدات.**

واستمر الإضراب لمدة أسبوع ، واستمر المضربون فى الغناء والهتاف ، وفى نهاية المطاف قررت شركة الصوف الأمريكية أن تستسلم وعرضت زيادات من ٥ إلى ١١٪ وصمم المضربون أن تذهب الزيادات إلى أصحاب الأجور الأدنى ، كما عرضت الشركة ساعة وربع لكل ساعة عمل إضافية ووعدت بعدم حدوث تمييز ضد من قاموا

بالإضراب. وفى ١٤ مارس عام ١٩١٢ اجتمع ١٠,٠٠٠ من المضربين فى لورانس لإنهاء الإضراب بناء على ما تم عرضه من قبل الشركة.

ذهب إتور وجيوفانيتى للمحاكمة وانتشر مؤيدوهم فى جميع أرجاء البلاد وقامت مظاهرات فى نيويورك وبوسطن. فى ٣٠ سبتمبر قام ١٥, ٠٠٠ عاملاً فى لورانس بالإضراب لمدة ٢٤ ساعة تعبيرا عن مناصرتهم للرجلين. بعد ذلك تم فصل ألفين من أكثر المضربين نشاطا من العمل ، وهددت منظمة "عمال العالم" بالإضراب مرة أخرى. فى النهاية أعلنت هيئة المحلفين براءة الرجلين وفى المساء من هذا اليوم اجتمع ١٠, ٠٠٠ شخص من لورانس للاحتفال.

اتخذت منظمة "عمال العالم" شعارها "تجمع واحد كبير" بجدية أى إنه أصبح يضم النساء والسود والعاملين الأقل مهارة عند إنشاء أى مصنع أو مشغل ، وعندما تكونت فى لويزيانا رابطة عمال الأخشاب ودعى بيل هايوود لإلقاء خطبة فى عام ١٩١٢ بعد الانتصار الكبير فى لورانس، أظهر دهشته لعدم وجود سود فى الحضور وعندما قالوا له إن ذلك ضد قانون لويزيانا الذى يمنع اجتماعات بين أجناس مختلفة، قال:

> **أنتم تعملون فى نفس المصنع وأحيانا يقوم رجلان أحدهما أبيض والآخر أسود بتقطيع نفس الشجرة. إنكم تجتمعون الآن لمناقشة الظروف التى تعملون فيها ، فكيف لا يحضر سود هذا الاجتماع، وإن كان هذا ضد القانون، فإن هذا هو الوقت الذى يتوجب فيه عدم تنفيذ القانون.**

وعلى ذلك قاموا بدعوة السود لحضور الاجتماع وصوتوا على الانضمام إلى منظمة "عمال العالم."

فى عام ١٩٠٠ كان هناك ٥٠٠,٠٠٠ امرأة تعملن (فى عام ١٨٧٠ كانوا ١٩,٠٠٠) كممرضات، وعاملات سويتش وبائعات، وكان نصف مليون يعملن بالتدريس وقد قامت المدرسات بتكوين "اتحاد للمدرسات" من أجل محاربة طرد النساء من العمل

بمجرد حدوث الحمل ، وهذه بعض "قواعد عمل المدرسات" التى وضعها مجلس إدارة إحدى المدارس فى ولاية ماساشوسيتس:

١ - عدم الزواج.

٢ - عدم مغادرة المدينة دون موافقة من مجلس المدرسة.

٣ - عدم الاختلاط بالرجال.

٤ - عدم مغادرة المنزل ما بين الثامنة مساءً والسادسة صباحاً.

٥ - عدم التجول فى المتاجر ومحلات الآيس كريم.

٦ - عدم التدخين.

٧ - عدم التواجد فى أى وسيلة مواصلات إلا مع الوالد أو الأخ.

٨ - عدم صبغ الشعر.

٩ - عدم ارتداء ملابس ترتفع عن الكعب بأكثر من بوصتين.

وكانت الأحوال فى مصنع للجعة بولاية ميلوكى كما وصفتها الأم مارى جونز (التى كانت على مشارف الثمانين فى ذلك الوقت) كالآتى:

> **تعمل الفتيات المسكينات كالعبيد مبتلات الأحذية والملابس وسط ملاحظين قساة تنبعث من أفواههم رائحة الجعة الكريهة. ترفع الفتيات حاويات الجعة الفارغة والمليئة والتى تزن من ١٠٠ إلى ١٥٠ رطلاً. إن الروماتيزم من أكثر الأمراض المزمنة وغالباً ما يتبعه داء السل. بلغ من قسوة الملاحظ أنه كان ينظم الوقت الذى تقضيه الفتيات فى دورة المياه ... ومعظم هؤلاء الفتيات كانوا بلا عائلات أو بيوت ، ومن ثم فهن مجبرات على توفير طعام ومأوى لأنفسهن بالثلاثة دولارات التى تكسبها الواحدة منهن كل أسبوع.**

وفى المغسلات التى تعمل بالبخار، نظمت النساء أنفسهن ، ففى عام ١٩٠٩ كتبت النساء فى "دليل" الرابطة الصناعية لاتحاد النساء ما يلى عن أحوال العاملات فى المغسلات:

كيف لك أن تقوم بكى قميص فى الدقيقة؟! تخيل الوقوف فوق غرفة الغسيل والبخار الساخن ينصب على الأرض لمدة ١٤ أو أحيانا ١٧ ساعة يوميا وفى أحيان كثيرة تكون الأرضيات مصنوعة من الأسمنت وتكاد تحس أنك واقف على فحم ساخن. والعاملات تتصببن عرقاً وتتنفسن هواء فاسداً من ذرات الصودا والأمونيا وكيماويات أخرى ، وقد قام اتحاد عمال المغاسل فى مدينة من المدن بتقليل يوم العمل إلى ٩ ساعات وزيادة الأجور بنسبة ٥٠٪.

إن كفاح العمال يمكن أن يفعل الكثير ولكن موارد الدولة ظلت فى أيدى المؤسسات الكبرى التى كان كل هدفها الربح والتى كانت لها قوة مؤثرة فى حكومة الولايات المتحدة. كانت هناك فكرة فى الهواء تزداد وضوحاً وقوة، ليس فقط فى نظريات كارل ماركس، ولكن أيضاً فى أحلام الفنانين والكتاب عبر العصور، وهى أن الشعب كله يستطيع أن يستخدم كنوز الأرض لتكون الحياة أفضل لكل إنسان وليس القلة القليلة الحاكمة. مع قرب نهاية القرن التاسع عشر، بدأ عدد الإضرابات يتضاعف ، ففى عام ١٨٩٠ كان هناك ما يقرب من ١٠٠٠ إضراب وفى عام ١٩٠٤ وصل العدد إلى ما يقرب من ٤,٠٠٠ كانت دائما القوة العسكرية والقانون فى جانب الأغنياء وأصبح الوقت مواتياً لأن يبدأ مئات الآلاف فى التفكير فى الاشتراكية.

كتب ديبس فى عام ١٩٠٤ أى بعد تكوين الحزب الاشتراكى بثلاث أعوام:

إن فكرة الاتحادات التجارية البسيطة التى كانت سائدة فى الماضى لا تلبى احتياجات اليوم. ... إن محاولة كل اتحاد أن يحافظ على استقلاله منفردا وبعيدا عن الآخرين أدى إلى ازدياد

الخلافات والتمزق وتبديد الجهود ... فعلى أعضاء الاتحادات أن يتعلموا ... أن حركة العمال تعنى أكثر بكثير من مجرد زيادة الأجور وتحسين ظروف العمل. إن هدفها الأكبر يتمثل فى إلحاق الهزيمة بالنظام الرأسمالى الذى يعتمد على الملكية الفردية لعناصر الإنتاج وفى تحرير العمال من عبودية الأجور وبالتالى الوصول إلى الحرية ليس للطبقة العاملة فحسب بل لكل الجنس البشرى.

لم يكن ما حققه ديبس فى النظرية والتحليل فقط بل التعبير بفصاحة عما يجول فى عقول الناس وعما يشعرون به. ذات مرة، اقتبس الكاتب هايوود برون كلمات أحد الاشتراكيين عن ديبس جاء فيها: "إن هذا الرجل العجوز ذى العيون الملتهبة يؤمن أنه بالإمكان تحقيق أخوة بين البشر ، وليس هذا هو الجانب الطريف فى الأمر، إنما الطريف هو أننى أومن بذلك طالما ظل حياً بيننا."

كان يوجين ديبس قد أصبح اشتراكياً عندما كان مسجوناً نتيجة مشاركته فى إضراب بولمان ، والآن أصبح المتحدث الرسمى للحزب الذى جعله مرشحه فى انتخابات الرئاسة الأمريكية لخمس مرات متتالية. انضم للحزب ١٠٠,٠٠٠ عضواً وأصبح لديه ١٢٠٠ مكتباً ومقراً فى ٣٤٠ منطقة وأصبح لهم جريدة تعرف باسم "أبيل تو ريزون" Appeal to Reason (نداء إلى العقل) ووصل المشتركون فى الجريدة إلى نصف مليون مشترك وأصبحت هناك جرائد اشتراكية أخرى فى أرجاء البلاد. أى كان هناك أكثر من مليون قارئ للصحافة الاشتراكية.

خرجت الاشتراكية من دوائر المهاجرين من اليهود والألمان الاشتراكيين الذين كانوا يتحدثون لغتهم ثم أصبحوا أمريكيين ، وكان اكبر تنظيم اشتراكى موجوداً فى أوكلاهوما، وهو التنظيم الذى كان به فى عام ١٩١٤ اثنا عشر عضواً يدفعون الاشتراكات وانتخب هذا التنظيم أكثر من مائة اشتراكى فى المناصب المحلية ومن بينهم ستة أعضاء فى المجلس التشريعى لأوكلاهوما ، وكان هناك ٥٥ جريدة أسبوعية فى أوكلاهما وتكساس ولويزانا وأركنساس وكانت تقام معسكرات صيفية تجذب الآلاف.

فى كتابه **اشتراكية العامة** Grass-Roots Socialism يصف جيمس جرين راديكاليى الجنوب الغربى بأنهم الأشخاص الذين كان لهم أقوى تأثير على الحركة الاشتراكية وهم الفلاحون والمهاجرون وعمال المناجم وعمال السكك الحديدية والمدرسون والواعظون، فقد كانت وجهة نظره أن الحركة الاشتراكية تشكلت باجتهاد أعضاء سابقين من الحزب الشعبى الأمريكى وبعض عمال السكك الحديدية الواردة أسماؤهم فى القائمة السوداء ، وقد وجد هؤلاء مساعدة من بعض الثوار السياسيين والمعلمين وأيضا وجدوا المساعدة من الزيارات التى قام بها بعض أعلام الوطنية أمثال يوجين ديبس والأم جونز. كان هناك أيضا دور المحرضين الهواة الذين ملئوا المنطقة يبيعون الصحف ويكّونون حلقات للقراءة ويلقون الخطب لتحريض الناس.

كان هناك ما يشبه الحماسة الدينية فى الحركة، وقد كتب ديبس بعد سجن بيل هايوود مع اثنين آخرين فى جريمة القتل الملفقة مقالة حماسية فى جريدته "أبيل تو ريزون": "إن عملية القتل المتهم فيها هايوود كانت ملفقة وتم تنفيذها تحت اسم القانون. ... إنها جريمة حقيرة ومؤامرة لعينة." وأضاف:

> **إنهم إذا أرادوا قتل موير وهايوود ورفاقهما، فسوف يجدون مليوناً على الأقل من الثوار يقابلونهم بالبنادق. ... إن المحاكم الرأسمالية لم تفعل ولن تفعل شيئا للطبقة العاملة. ... ولذلك لابد من إقامة مؤتمر ثورى خاص لطبقة الكادحين وليقم إضراب عام يؤدى إلى إصابة المصانع بالشلل كتمهيد للوصول إلى ثورة عامة ... .**

بعد قراءة هذه المقالة، بعث تيودور روزفلت بصورة إلى المدعى العام دبليو. مودى وكتب عليها تعليقاً يقول: "هل من الممكن رفع دعوى جنائية على ديبس وصاحب الجريدة؟ "

أصبح الاشتراكيون أكثر نجاحاً فى صناديق الانتخاب (حصل ديبس على تسعمائة ألف صوت فى ١٩١٢، أى ضعف ما حصل عليه فى ١٩٠٨) وصاروا أكثر انتقاداً لمنظمة "عمال العالم" متهمين إياها بانتهاج "العنف" طريقاً لها. وفى ١٩١٣ أبعدوا بيل هايوود عن اللجنة التنفيذية للحزب الاشتراكى بزعم أنه كان يدافع عن العنف (رغم أن كتابات ديبس كانت أكثر حماساً).

كانت النساء نشيطات فى الحركة الاشتراكية وانخرطن فيها كعاملات أكثر منهن قادة، وكن أحياناً شديدات فى نقد السياسة الاشتراكية. علقت هيلين كيلر الصماء العمياء الخرساء الموهوبة، برؤيتها الاجتماعية غير العادية، على استبعاد هايوود من اللجنة التنفيذية فى جريدة "كول" بنيويورك بقولها:

شعرت بأسى عميق وأنا أقرأ الهجوم على الرفيق هايوود... هذا الصراع المؤلم بين الفصيلين اللذين كان من الواجب أن يكونا فصيلاً واحداً فى هذه الفترة الحرجة من نضال البروليتاريا... هل نعطى الأولوية للخلافات بشأن تكتيكات الحزب على حساب احتياجات العمال؟... بينما تنقصم ظهور سيدات وأطفال لا حصر لهم فى أيام العمل الطويلة، نحارب نحن بعضنا بعضاً. عار علينا!

فى عام ١٩٠٤ كانت النساء تمثلن ٣٪ فقط من أعضاء الحزب الاشتراكى ، ففى المؤتمر القومى لذلك العام، بلغت وفود النساء ثمانية فقط ، ولكن فى خلال سنوات قليلة، بدأت المنظمات الاشتراكية للنساء ومجلتهم القومية "سوشاليست وومان" (المرأة الاشتراكية) فى ضم نساء أكثر وأكثر إلى عضوية الحزب حتى ارتفعت نسبة النساء إلى ١٥٪ بحلول عام ١٩١٣, وأصرت رئيسة تحرير هذه المجلة "جوزفين كونجر - كانيكو" على أهمية المجموعات المنفصلة من النساء. قالت:

فى المجموعة المنفصلة من النساء، ربما تتعلم سريعاً أقل النساء معرفة كيف تدير اجتماعاً أو تتخذ تدابير وتدافع عن

موقفها فى "خطبة" صغيرة. بعد عام أو اثنين من هذا النوع من الممارسة، تصبح جاهزة لكى تعمل مع الرجال. وهناك فرق كبير بين العمل مع الرجال وبين مجرد الجلوس فى احترام وتوقير تحت ظل قوة هؤلاء الرجال.

وكانت النساء الاشتراكيات نشيطات فى الحركة النسائية أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، فوفقاً لما كتبته كيت ريتشاردز أوهير، الزعيمة الاشتراكية من أوكلاهوما، كانت النساء الاشتراكيات فى نيويورك شديدى التنظيم. ففى أثناء حملة نظمتها الاشتراكيات فى نيويورك للمطالبة بحقوق المرأة فى الاقتراع، قمن بتوزيع ٦٠٠,٠٠٠ منشوراً باللغة الإنجليزية و٥٠,٠٠٠ منشوراً باللغة اليديشية وباعوا ٢,٥٠٠ كتاباً فئة السنت الواحد و١,٥٠٠ كتاباً فئة الخمس سنتات وقاموا بتوزيع ما يقرب من ٤٠,٠٠٠ ملصقاً وعقدوا مائة اجتماع.

ولكن هل كانت هناك مشكلات للنساء تتجاوز السياسة والاقتصاد والتى كان يصعب حلها عن طريق نظام اشتراكى؟ وهل تأتى المساواة إذا ما تم تصحيح الأساس الاقتصادى للقهر الجنسى؟ هل كان من غير المجدى الكفاح من أجل حق الانتخاب أو من أجل شئ أقل ثورية؟ احتد النقاش مع نمو الحركة النسائية فى بدايات القرن العشرين، عندما تحدثت النساء أكثر وأصبحن أكثر تنظيماً وعندما قمن بالتظاهر والاحتجاج - فى سبيل المطالبة بالحق فى التصويت فى الانتخابات وبالمساواة فى كل مناحى الحياة بما فى ذلك العلاقات الجنسية والزواج.

عندما ذهبت سوزان أنتونى، وهى فى الثمانين، كى تستمع إلى خطبة يوجين ديبس (كان ديبس قد ذهب قبل خمسة وعشرين عاماً لكى يستمع إليها وهى تلقى خطبة، ولم يلتقيا منذ ذلك الوقت)، أمسك كل منهما بيدى الآخر فى حرارة ثم تبادلا الكلمات التالية: قالت ضاحكة: "أعطونا حق الاقتراع، نعطيكم الاشتراكية". ورد ديبس: "أعطونا الاشتراكية نعطيكم حق الاقتراع."

كانت ثمة نساء صممن على توحيد هدفى الاشتراكية والنسوية مثل كريستال إيستمان التى تخيلت وجود طرق أخرى مختلفة عن الزواج لعيش الرجل والمرأة معاً،

مع احتفاظ كل منهما باستقلاله. كانت اشتراكية، ولكنها كتبت يوماً تقول: "إن المرأة تعرف أن نظام الربح لا يعنى استعبادها تماماً وأن سقوط الرأسمالية لا يضمن تحريراً كاملاً لها."

فى الخمس عشرة سنة الأولى من القرن العشرين، كانت هناك نساء كثيرات فى قوة العمل ومنهن كثيرات يمتلكن خبرات نضالية كبيرة. كانت بعض نساء الطبقة المتوسطة، بوعيهن بالظلم الواقع على المرأة وحاجتها لأن تفعل شيئاً، تذهب إلي الجامعة وينظرن إلى أنفسهن بوصفهن أكثر من مجرد ربات بيوت. كانت هؤلاء النساء يتحدين ثقافة مجلات الثقافة الشعبية التى كانت تقوم بنشر رسالة واحدة مفادها أن المرأة رفيقة وزوجة وربة بيت.

كافح كل هؤلاء فى سبيل مشكلة العلاقة بينهن وبين الرجال ، وكانت من بين هؤلاء مارجريت سانجر **Margaret Sanger** رائدة تعليم تنظيم النسل التى كانت تعانى من انهيار عصبى داخل زواج ناجح لكنه خانق ، لقد تركت زوجها وأطفالها كى تحقق ذاتها وتشعر بالتحقق. كتبت سانجر فى كتابها « المرأة والعنصر الجديد » **Woman and the New Race** : " لا تستطيع امرأة أن تصف نفسها بالحرة حتى تستطيع أن تختار بإرادتها أن تكون أماً أو لا تكون."

كانت هذه مشكلة مركبة. على سبيل المثال، آمنت كيت ريتشاردز بالبيت ولكنها أيضاً كانت ترى أن الاشتراكية من شأنها أن تجعل البيت فى صورة أفضل ، فعندما خاضت انتخابات الكونجرس فى عام ١٩١٠ فى كانساس سيتى، قالت: "أشتاق كثيراً إلى الحياة الأسرية وإلى الأطفال بكل ذرة من كيانى... إننا فى حاجة إلى الاشتراكية لاستعادة البيت."

من ناحية أخرى، كتبت إليزابيث جيرلى فلين **Elizabeth Gurley Flynn** فى سيرتها الذاتية **فتاة متمردة** **Rebel Girl** :

> **لا تروقنى الحياة الأسرية أو الأسرة الكبيرة ... كنت أحب**
> **أن أتكلم وأكتب وأسافر وأقابل الناس وأرى الأماكن وأشارك فى**

تنظيم "عمال العالم." لم أر سبباً يجعلنى ـ كامرأة ـ أترك عملى فى سبيل تكوين أسرة.... .

بينما كانت هناك نساء كثيرات راديكاليات واشتراكيات وثوريات، فإن عدداً أكبر من النساء شاركن فى حملة الحصول على الحق فى الاقتراع. بل إن الدعم الأكبر للحركة النسائية جاء من هؤلاء. انضمت ذوات الخبرة النقابية الكبيرة إلى حركة حملة الحصول على حق الاقتراع مثل روز شنايدرمان التى ردت على سياسى قال إن حصول النساء على حق الاقتراع سيسقط أنوثتهن. قالت:

تقف النساء العاملات فى المغسلات ... لمدة ثلاثة عشر أو أربعة عشر ساعة وسط البخار والحرارة الفظيعين وأياديهن فى النشاء الساخن. من المؤكد أن هؤلاء النساء لن يخسرن من جمالهن وسحرهن لمجرد القيام بوضع ورقة الاقتراع فى صندوق الاقتراع مرة فى السنة أكثر مما يخسرن من وقفتهن فى المغسلات على مدار العام.

فى ربيع عام ١٩١٣، جاء فى تقرير من واشنطن نشرته نيويورك تايمز:

فى مظاهرة نسائية قامت من أجل الحصول على الحق فى الاقتراع اليوم، شهدت العاصمة أعظم مسيرة نسائية فى تاريخها. ...فى هذه المسيرة... مرت خمسة آلاف امرأة من شارع بنسلفانيا أفينيو... كانت مسيرة مدهشة... قالت التقديرات إن حوالى خمسمائة ألف شخصاً قد شاهدوا النساء فى مسيرتهن تلك.

كانت بعض النساء الراديكاليات متشككات مثل إيما جولدمان النسوية الثورية التى عبرت عن رأيها فى مسألة حق المرأة فى الاقتراع قائلة:

هدفنا الحديث هو حق الاقتراع على المستوى العالمى... تستطيع النساء المشاركة فى الانتخابات وصياغة القوانين فى استراليا ونيوزيلندا. هل الظروف هناك أفضل؟ ...إن تاريخ

> **النشاط السياسى للرجل يثبت أن هذا النشاط لم يكن ليمنحه أى شئ لولا جهده وسعيه الدائمين من أجل تحقيقه بطريقة مباشرة... ففى حقيقة الأمر، إن أى بوصة من الأرض التى اكتسبها الرجل جاءت من خلال كفاحه الدائم ونضاله الذى لم يتوقف من أجل إثبات ذاته وليس من خلال الحق فى الاقتراع. ليس هناك سبب لكى نفترض أن طريق المرأة إلى التحرر كان أو سيكون عن طريق الحق فى الاقتراع... يجب أن يأتى تطور المرأة وحريتها واستقلالها من خلالها هى. وذلك ـ أولاً ـ عن طريق تحقيق ذاتها. وثانياً – بأن لا تمنح أحداً الحق فى جسدها وأن ترفض حمل أطفال إلا إذا أرادت هى ذلك وأن ترفض أن تكون خادمة للرب أو الدولة أو المجتمع أو الزوج أو الأسرة ...الخ. كما يتحقق لها ذلك عن طريق حياة أبسط تنتهجها المرأة، نعم بسيطة ولكن عميقة وأغنى... هذا ـ وليس حق الاقتراع ـ هو الذى سيجلب لها الحرية... .**

وكتبت هيلين كيلر فى عام ١٩١١ إلى إحدى المطالبات بالحق فى الاقتراع فى إنجلترا:

> **ليست ديمقراطيتنا إلا اسماً فارغاً. نحن نصوت فى الانتخابات؟ ماذا يعنى ذلك؟ إنه يعنى أننا نختار بين اثنين من الأتوقراط. تطالبون بحق الاقتراع للنساء؟ أى خير سيجلبه ذلك إذا كانت تسعة أعشار أرض بريطانيا العظمى يملكها مائتا ألف والعُشر الباقى لبقية أهل البلاد البالغ عددهم أربعين مليوناً؟ هل حرر رجالكم أنفسهم من هذا الظلم بامتلاكهم الحق فى الاقتراع؟**

لم تكن إيما جولدمان تؤجل تغيير أحوال المرأة إلى عصر اشتراكى يأتى فى المستقبل ، إنها كانت تريد فعلاً فورياً ومباشراً يفوق فى أهميته الحق فى الاقتراع.

ورغم أنها لم تكن ثورية، فقد آمنت هيلين كيلر بالكفاح المستمر بعيداً عن صندوق الاقتراع. ولأنها حرمت نعمة السمع والبصر والكلام، فقد كانت تحارب بروحها وقلمها. وعندما أصبح اتجاهها الاشتراكي واضحاً، نشرت مجلة "إيجل" في بروكلين كلمات تقول: "تأتي أخطاؤها]كيلر [من الإعاقات الواضحة التي تعوق تطورها." لم تقبل "إيجل" أن تنشر رد هيلين كيلر، ومن ثم نشرت كيلر ردها في "كول" التي تصدر في نيويورك، قالت إنها عندما قابلت رئيس تحرير "إيجل" ذات مرة، حياها تحية كبيرة. "أما الآن وبعد تحولي إلى الاشتراكية، فإنه يذكّرني ويذكّر القراء بأنني عمياء وصماء ومن ثم فإنني لابد معرضة للوقوع في الخطأ..." ثم أضافت:

> **أيتها المطبوعة السخيفة "إيجل"! يالك من طائر غير شجاع! إن هذه المجلة بعماها وصممها الاجتماعي تدافع عن نظام لا يُطاق، نظام هو السبب وراء كثير من العمى والصمم البدني الذي نحاول أن نمنعه... أنا و"إيجل" في نزاع، فأنا أكره النظام الذي تمثله. أرجو عندما ترد "إيجل" على كلامي أن يكون ردها شريفاً... فليس من الشرف أو من أدب الحوار أن تذكرني هذه المجلة وتذكّر الآخرين بأنني لا أستطيع أن أرى أو أقرأ. إنني أستطيع أن أقرأ كل الكتب الاشتراكية بالإنجليزية والألمانية والفرنسية. لو قرأ رئيس تحرير "إيجل" بعض هذه الكتب، ربما اكتسب بعض الحكمة بل، وربما يستطيع إصدار مطبوعة أفضل. إن الكتاب الذي أحلم بكتابته أعرف عنوانه منذ الآن. سيكون العنوان: العمى الصناعي والصمم الاجتماعي.**

لم تُبد الأم جونز اهتماماً خاصاً بالحركة النسائية. كانت مشغولة في تنظيم عمال النسيج وعمال المناجم وزوجاتهم وأطفالهم. كان من بين ما أنجزته تنظيم مسيرة للأطفال إلى واشنطن للمطالبة بإنهاء عمالة الأطفال (في بداية القرن العشرين، كان هناك أكثر من ربع مليون طفل بين العاشرة والخامسة عشرة يعملون في المصانع). قالت الأم جونز:

فى ربيع ١٩٠٢ ذهبت إلى كينسنجتون بولاية بنسلفانيا حيث كان خمسة وسبعون ألفاً من عمال النسيج مضربين. كان من هذا العدد عشرة آلاف طفل صغير. كان العمال مضربين للمطالبة بزيادة فى الأجر وتخفيض عدد ساعات العمل. وكان الأطفال يتوافدون كل يوم إلى مقر الاتحاد بعضهم فقد أصابع يده أو ذراعه أو رجله. كانوا محنيى الظهور ويبدو عليهم الجوع والتعب... سألت بعض أولياء أمور الأطفال إن كانوا يسمحون لى باصطحاب أولادهم وبناتهم لمدة أسبوع أو عشرة أيام واعدة أن أعيدهم آمنين أصحاء... حمل الأطفال حقائبهم على ظهورهم وبكل حقيبة شوكة وسكينة وكوب صفيحى وطبق طعام، وحمل طفل طبلة وحمل آخر نايا... ورفعنا لافتات تقول: "نريد وقتاً للعب..."

ومشى الأطفال فى مسيرتهم مارين بنيو جرسى ونيويورك ثم إلى أويستر باى كى يحاولوا رؤية الرئيس تيودور روزفلت، لكنه رفض أن يراهم. تقول الأم جونز: "لكن مسيرتنا حققت غرضها. لقد جذبنا اهتمام الأمة كلها إلى جريمة عمالة الأطفال."

فى العام نفسه، أضرب الأطفال العاملون فى مصانع النسيج فى فيلادلفيا. كانت ساعات عملهم الأسبوعية ستين ساعة. وأثناء الإضراب حمل الأطفال لافتات تقول: "نريد أن نذهب إلى المدرسة!" و "٥٥ ساعة وإلا فلا!"

أما النساء السود، فكان الظلم الواقع عليهن مضاعفاً. كتبت ممرضة سوداء إلى إحدى الصحف فى عام ١٩١٢ تقول:

نحن الملونات العاملات فى الجنوب نخوض معركة رهيبة... فمن ناحية يقع علينا ظلم الرجال السود الذين من المفترض أن يكونوا حُماتنا الطبيعيين ، ومن ناحية أخرى، فإننا نلهث دائماً سواء فى المطابخ أو على أحواض الغسيل أو على ماكينات

الخياطة أو وراء عربات الأطفال أو على طاولة المكواة وكأننا لسن إلا عبيداً وحيوانات...!

فى هذه الفترة المبكرة من القرن العشرين، تلك الفترة التى أطلقت عليها الأجيال من الباحثين البيض "الفترة التقدمية"، كان لا يزال هناك حرق للزنوج وهم أحياء. كانت ترد الأخبار كل أسبوع بحرق واحد منهم. كان ذلك هو الدرك الأسفل الذى ينتظر الزنوج، على حد قول المؤرخ الأمريكى الأسود رايفورد لوجان. فى عام ١٩١٥ كان بالولايات المتحدة عشرة ملايين زنجى يعيش تسعة ملايين منهم فى الجنوب. لقد شاهدت الحكومة الأمريكية (فى الفترة من عام ١٩١٥ إلى عام ١٩٢١ وكان رؤساء البلاد تيودور روزفلت، ووليم هاورد تافت، وودرو ويلسون) الزنوج وهم يُحرقون كما شاهدت الأذى الواقع عليهم فى ستيتسبورو وجورجيا وبراونزفيل وتكساس ولم تفعل شيئاً.

كان هناك زنوج فى الحزب الاشتراكى ولكن الحزب لم يترك قضيته الأساسية كى يعرِّج على المشكلة العرقية. كتب راى جينجر عن ديبس قائلاً: "عندما كانت تطرح مشكلة التمييز العرقى على ديبس، يمتنع عن الحديث وكان يصر دائماً على المساواة المطلقة. لكنه لم يكن يقبل بأن بعض الإجراءات الخاصة يتوجب اتخاذها فى سبيل تحقيق تلك المساواة."

وبدأ السود يعرفون التنظيم. فقد تشكل مجلس أفرو ـ أمريكى قومى فى العام ١٩٠٣ من أجل الاحتجاج على حرق السود وعلى السخرة فى العمل والتمييز ضد السود وعلى الحرمان من حق الانتخاب ، وأدانت الرابطة الوطنية للنساء الملونات، التى تشكلت فى نفس الوقت تقريباً، عملية الفصل العنصرى وعمليات حرق السود. فى جورجيا عام ١٩٠٦ كان هناك مؤتمر للحقوق المتساوية حيث أشار هذا المؤتمر إلى مائتين وستين حالة حرق للسود منذ عام ١٨٨٥ ، وطالب المؤتمر بالحق بالتصويت فى الانتخابات وبالحق فى الدخول فى تشكيل هيئات المحلفين. وافق المؤتمر على أن السود يتوجب عليهم العمل بكل جدية: "وفى الوقت نفسه لابد أن نحرض الناس ونتقدم بالشكاوى ونحتج ونستمر فى الاحتجاج على سلب حقوقنا ... ."

وفى عام ١٩٠٥ أرسل دى بوا Du Bois، الذى كان يدرس فى أطلنطا، خطاباً إلى القادة الزنوج فى مختلف أرجاء البلاد داعياً إياهم إلى مؤتمر على الحدود الكندية من بافالو بالقرب من شلالات نياجرا. كان هذا بداية "حركة نياجرا." كان دى بوا، المولود فى ماساشوسيتس، أول أسود يحصل على درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد عام (١٨٩٥) قد كتب كتابه الرائع **روح الشعب الأسود** The Souls of Black Folks وكان متعاطفاً مع الاشتراكيين رغم أنه انضم للحزب الاشتراكى لفترة قصيرة.

كان أحد رفاقه فى الدعوة إلى اجتماع نياجرا هو وليم مونرو ترونز وهو شاب أسود من بوسطن يعتنق أفكاراً راديكالية وكان يحرر صحيفة أسبوعية أسماها "الجارديان." فى هذه الصحيفة، هاجم تروتر الأفكار الوسطية التى نادى بها بوكر تى. واشنطن. فى صيف عام ١٩٠٣، عندما تحدث واشنطن إلى جمهور من ألفى شخص فى إحدى كنائس بوسطن، أعد تروتر ومؤيدوه تسعة أسئلة مستفزة وهو ما تسبب فى عراك بالأيدى داخل هذا اللقاء. أُلقى القبض على تروتر وأحد أصدقائه، وربما يكون هذا مما زاد من روح السخط التى دفعت دى بوا فى التفكير فى عقد اجتماع نياجرا. كانت نبرة مجموعة نياجرا قوية كما تعكس الكلمات التالية:

> **نرفض أن يبقى الانطباع بأن الأمريكى - الزنجى يرضى بالدونية وأنه خاضع للقهر وأنه يعتذر أمام الإهانات. ربما نذعن من العجز وقلة الحيلة، لكن صوت الغضب لعشرة ملايين أمريكى لا يجب أن يتوقف عن الهدير فى آذان إخوانهم طالما بقيت أمريكا ظالمة.**

أدت مظاهرة عرقية فى سبرنج فيلد بولاية إلينوى إلى تكوين الرابطة الوطنية لتحسين أحوال الملونين NAACP فى عام ١٩١٠ كان البيض يسيطرون على قيادة المنظمة الجديدة، وقد كان دى بوا الأسود الوحيد فى قيادة المنظمة، وكان أيضاً أول رئيس تحرير للمجلة الفصلية التى كانت تصدرها الرابطة بعنوان "ذا كرايسيز" (الأزمة). كانت رابطة NAACP تركز على التعليم وعلى الفعل القانونى، لكن دى بوا

كان يمثل في هذه الرابطة الروح التي تجسدت في تصريح حركة نياجرا الذي كان يقول: "التحريض القوي والمستمر هو الطريق إلى الحرية."

الشيء الذي كان واضحاً في هذه الفترة بالنسبة للسود وللنسويين والاشتراكيين والمنظمين العماليين هو أنهم لا يمكن أن يعولوا على الحكومة الوطنية. من الصحيح أن هذه كانت "الفترة التقدمية" وبداية عصر الإصلاح، لكنه كان إصلاحاً على مضض يهدف إلى تهدئة وامتصاص الفورات الشعبية لا إلى إجراء تغييرات أساسية.

إن الذي أعطى هذه الفترة صفة "تقدمية" هو تمرير عدد من القوانين والتغييرات ، ففي عهد تيودور روزفلت، صدر قانون فحص اللحوم وقانون آخر ينظم عمل شركات السكك الحديدية وقانون ثالث يتعلق بنظافة وسلامة الطعام والدواء. وفي عهد الرئيس تافت وضع قانون مان ـ إلكينز التليفون والتلغراف تحت إشراف لجنة التجارة ما بين الولايات. وفي ظل رئاسة وودرو ويلسون كان منوطاً بلجنة التجارة الفيدرالية أن تسيطر على زيادة الاحتكارات. كذلك أُقترح التعديل السادس عشر في الدستور الذي سمح بضريبة متدرجة على الدخل في عهد الرئيس تافت. وفي عهده أيضاً أُقترح التعديل السابع عشر الذي سمح بانتخاب مجلس الشيوخ عن طريق تصويت المواطنين بدلاً من المجلس التشريعي لكل ولاية. في الوقت نفسه تقريباً، أصدر عدد من الولايات عدة قوانين تنظم الأجور وعدد ساعات العمل وتعليمات السلامة والأمان داخل المصانع ودفع تعويضات للمصابين من العمال.

كان هذا وقتاً تسعى فيه الحكومة إلى تهدئة الغضب العام في عام ١٩١٣ درست لجنة بوجو المشكَّلة من الكونجرس مسألة تركيز القوة في صناعة البنوك كما عقدت لجنة مجلس الشيوخ للعلاقات الصناعية جلسات عن مشكلة إدارة الأعمال.

وليس هناك من شك في أن الناس العاديين استفادوا إلى حد ما من هذه التغييرات. كان النظام غنياً ومنتجاً ومعقداً أيضاً، فقد أعطى نصيباً من الثروة إلى الطبقة العاملة ممثلة في بعض زيادات في الأجور وذلك من أجل خلق درع حامية بين قاع المجتمع وقمته ، وقد وجدت دراسة عن المهاجرين في نيويورك بين عام ١٩٠٥

و ١٩١٥ أن ٣٢٪ من الإيطاليين والهنود انتقلوا من الطبقة العاملة إلى مستويات أعلى، ولكن كان من الصحيح أيضاً أن كثيراً من المهاجرين الإيطاليين لم يجدوا فرصاً كبيرة تغريهم بالبقاء ، ففى فترة أربعة أعوام، كان يغادر نيويورك ثلاثة وسبعون إيطالياً من كل مائة يصلون إليها ، ورغم ذلك أصبح كثير منهم عمالاً فى الإنشاء والتعمير وصار عدد من اليهود رجال أعمال ومهنيين حتى خلقوا ما يشبه طبقة وسطى تخفف من حدة الصراع الطبقى.

لم تتغير الظروف الأساسية بالنسبة لأغلبية المزارعين المستأجرين أو عمال المصانع أو ساكنى الأحياء الفقيرة أو عمال المناجم وعمال المزارع سواء كانوا من السود أو من البيض. يرى روبرت ويبى Wiebe فى الحركة التقدمية محاولة من قِبل النظام ليؤقلم نفسه مع الظروف المتغيرة وذلك بهدف تحقيق استقرار أكبر، ويرى ويبى أن النظام بهذه الخطوة "قد أعطى الحكومة سلطة أكبر وشجع على مركزية السلطة." ويرى هارولد فوكنر أن التأكيد الجديد على وجود حكومة قوية كان فيه فائدة كبرى "لأقوى الجماعات الاقتصادية."

يُسمى جابريل كولكو ما حدث بأنه ظهور "الرأسمالية السياسية" حيث أصبح لرجال الأعمال تحكم أكبر فى النظام السياسى لأن الاقتصاد الخاص لم يكن لديه من الكفاءة ما يسمح له بأن يمنع الغضب والاحتجاج القادمين من قاع المجتمع. يقول كولكو إن رجال الأعمال لم يعارضوا الإصلاحات الجديدة، لقد أخذوا بأنفسهم زمام المبادرة فى محاولة لتحقيق استقرار فى النظام الرأسمالى فى وقت يسوده الشك والقلق.

ساعد الخوف الذى عم البلاد فى عام ١٩٠٧ وزيادة قوة الاشتراكيين ومنظمة "عمال العالم" والنقابات ـ ساعد ذلك على الإسراع فى عملية الإصلاح. وفقاً لما يقوله ويبى: "فى عام ١٩٠٨ حدثت نقلة نوعية فى النظرة الخاصة برجال السلطة..." كان التركيز فى ذلك الوقت منصباً على "التوفيقات والحلول الوسط"، واستمر الحال كذلك

فى عهد الرئيس ويلسون و"صدَّق مواطنون كثيرون ممن يحملون فى عقولهم بذور الإصلاح وهم التحقق التقدمى."

فى عام ١٩٠٩، ظهر بيان التقدمية الجديدة فى شكل كتاب وضعه هيربرت كرولى Croly رئيس تحرير "نيو ريبابليك" وأحد المعجبين بالرئيس تيودور روزفلت. كان عنوان الكتاب: **وعد الحياة الأمريكية** The Promise of American Life . كان كرولى يرى أن هناك حاجة إلى وجود مبادئ إذا كان للنظام الأمريكى أن يستمر. قال إن على الحكومة أن تفعل أكثر وتمنى أن يرى "اقتداءً متحمساً ومخلصاً بالأبطال والقديسين" - وربما كان يقصد بهؤلاء تيودور روزفلت.

فى الفصل اللاذع من كتابه عن الرجل الذى كان ينظر إليه الناس بوصفه المحب العظيم للطبيعة والنموذج الأمثل للياقة البدنية وبطل الحرب فى البيت الأبيض، يقول المؤرخ ريتشارد هوفستاتر: "كان المستشارون الذين يستمع إليهم تيودور روزفلت تقريباً ممثلين لرأس المال الأمريكى - من أمثال روبرت بيكون وحنا وجورج بيركينز وإليهو روت والسيناتور نيلسون دبليو.ألدريتش وجيمس ستيلمان ممثل مصالح عائلة روكفيللر." وكان من بين ما قاله روزفلت: "أنا من أكبر المحافظين ويهمنى فوق مصلحة الشركات وفوق أى شئ مصلحة البلاد."

أما بالنسبة للرئيس وودرو ويلسون، فيشير هوفستاتر إلى أنه كان محافظاً من البداية. كتب ويلسون، كمؤرخ وعالم سياسى كتاب **الدولة** The State يقول فيه: "فى السياسة لا يجب الأخذ بكل جديد." كان متحمساً للتغيير "البطىء والمتدرج." وكان، كما يقول هوفستاتر، "معادياً بشكل عام" للعمل والعمال وكان كثيراً ما يتكلم عن مؤيدى حزب الشعب بوصفهم "أصحاب العقول الجاهلة."

تناول جيمس واينستاين، فى كتابه **الشركة النموذج فى الدولة الليبرالية**، إصلاحات الفترة التقدمية خاصة تلك العملية التى من خلالها أجرت الحكومة ورجال الأعمال - وبمساعدة القادة العماليين أحياناً - التغييرات التشريعية التى رأوا أهمية فى إجرائها. يرى واينستاين أن "الجهد الناجح والواعى لإرشاد السياسات الاقتصادية

والاجتماعية والسيطرة عليها سواء على المستوى الفيدرالى أو على مستوى الولاية أو المحليات من شأنه - أى هذا الجهد - أن يكون فى صالح تجمعات البيزنس على المدى البعيد... ." بينما خرج "الجنين الأصلى" للإصلاح من الراديكاليين وأصحاب الأصوات الاحتجاجية "فقد أُجريت عدة إصلاحات... لاسيما على المستوى الفيدرالى دون موافقة أو توجيه من مصالح الشركات الكبرى." جمَّعت هذه الإصلاحات بين الإصلاحيين الليبراليين والمثقفين كى يساعدوا فى مثل هذه الأمور.

وفى عام ١٩٠٠ قام رجل يُدعى رالف إيسلى، وهو جمهورى محافظ وكان يعمل مدرساً وصحفياً، بتشكيل "الاتحاد الوطنى المدنى NCF ". كان هدف هذا الاتحاد هو تحسين العلاقات بين أصحاب رأس المال والعمال، وكان قادة الاتحاد من أصحاب الأعمال الكبار والشخصيات السياسية المهمة ولكن كان نائب رئيس الاتحاد لمدة طويلة هو صامويل جومبرز الذى كان ينتمى إلى الاتحاد الأمريكى للعمل AFL. لم يلق هذا الاتحاد مباركة كل أصحاب الأعمال الكبار. قال أيسلى عن الذين انتقدوا الاتحاد وانتقدوا تقويم النظام: "إن أعداءنا، فى حقيقة الأمر، هم الاشتراكيون من بين العمال والفوضويون من بين الرأسماليين."

أراد الاتحاد الوطنى المدنى مدخلاً أكثر عمقاً إلى النقابات التجارية إذ رأى أنها حقيقة حتمية وأنه من الأفضل الاتفاق معها وليس محاربتها؛ فمن الأفضل التعامل مع كيان محافظ وليس مع كيان مسلح.

لم يكن الاتحاد الوطنى المدنى NCF يمثل كل الآراء فى مجال الأعمال، فالرابطة الوطنية لأصحاب المصانع، على سبيل المثال، لم تُرد أن تعترف بالتنظيم فى مجال العمل على أى نحو. وكثير من رجال الأعمال لم يوافقوا على الإصلاحات المراوغة التى اقترحها الاتحاد الوطنى المدنى - لكن مدخل الاتحاد كان يمثل عمق وسلطة الدولة الحديثة. كان هذا المدخل حريصاً على ما فيه خير للطبقة الرأسمالية ككل حتى لو ضايق بعض الرأسماليين. كان هذا المدخل الجديد مهتماً باستقرار النظام الرأسمالى على المدى البعيد حتى لو جاء ذلك أحياناً على حساب الأرباح قصيرة الأجل.

بذلك رسم الاتحاد الوطنى المدنى نموذجاً لمشروع قانون يتعلق بتعويض العمال فى عام ١٩١٠، وفى العام التالى وافقت اثنا عشر ولاية على قانون ينظم تعويضات العمال والتأمين ضد الحوادث ، وعندما قالت المحكمة الدستورية العليا فى ذلك العام بأن قانون تعويض العمال فى نيويورك غير دستورى، غضب تيودور روزفلت وقال إن شيئاً كهذا "من شأنه أن يضيف رصيداً كبيراً إلى قوة الحزب الاشتراكى." بحلول عام ١٩٢٠، وافقت اثنان وأربعون ولاية على قانون تعويض العمال. "لقد مثل هذا القانون" كما يقول واينستاين "نضجاً متزايداً وعمقاً كبيراً من قبل قادة كثير من الشركات الكبرى الذين وعوا، كما قال لهم تيودور روزفلت، أن الإصلاح الاجتماعى كان محافظاً حقاً."

أما بالنسبة للجنة التجارة الفيدرالية، التى أنشأها الكونجرس فى عام ١٩١٤ بغرض ترتيب السندات، فقد قال أحد قادة الاتحاد الوطنى المدنى، بعد سنوات عديدة من العمل مع هذه اللجنة، أن اللجنة "كانت تؤدى عملها بهدف تأمين الثقة لدى حسنى النية من رجال الأعمال وأعضاء الشركات الكبرى وأفراد آخرين."

فى هذه الفترة أجرت المدن أيضاً عدداً من الإصلاحات كان من شأنها منح سلطة أكبر إلى مجالس المدن (بدلاً من العُمد) أو استئجار مديرين للمدن. وكان الهدف تحقيق قدر أكبر من الكفاءة والاستقرار. يقول واينستاين: "كان الهدف من وراء ذلك هو وضع حكومة المدينة بإحكام فى أيدى رجال الأعمال." وما رآه المصلحون مزيداً من الديمقراطية فى حكومات المدن، يراه المؤرخ صامويل هايز **Hays** تركيزاً للسلطة فى عدد قليل من الأيادى، الأمر الذى يعطى رجال الأعمال سلطة أكبر فوق حكومات المدن.

بدا أن الحركة التقدمية، سواء قادها مصلحون أمناء مثل السيناتور روبرت لا فوليت من ويسكنسون أو قادها محافظون مقنَّعون مثل تيودور روزفلت (الذى كان مرشحاً عن الحزب التقدمى لانتخابات الرئاسة فى عام ١٩١٢) - بدا أن هذه الحركة كانت تفهم أنها تتقى خطر الاشتراكية. قالت صحيفة "جورنال" التقدمية بولاية ميلوكى إن المحافظين "يحاربون الاشتراكية على نحو أعمى... بينما يحاربها التقدميون بذكاء

ويسعون إلى معالجة العيوب والأحوال التى تكتسب الاشتراكية نجاحاً كبيراً من الحديث عنها."

كتب فرانك مانسى مدير شركة "يو إس ستيل" إلى روزفلت مؤكدا أنه أفضل مرشح للرئاسة عام ١٩١٢ ثم أسر إليه بأن على الولايات المتحدة أن تتحرك نحو القيام بدور "الحراسة الأبوية للشعب" الذى هو فى حاجة إلى "اليد المرشدة للدولة." وقال "إن عمل الدولة هو التفكير للشعب والتخطيط له."

يبدو واضحاً أن النشاط الكبير للإصلاح التقدمى كان يهدف إلى محاربة الاشتراكية. تحدث أيسلى عن "خطر الاشتراكية كما يظهر من انتشارها فى الجامعات والكنائس والصحف." فى عام ١٩١٠ أصبح فيكتور بيرجر أول عضو من الحزب الاشتراكى يُنتخب فى الكونجرس، وفى عام ١٩١١ انتُخب ثلاثة وسبعون عمدة من الاشتراكيين وتولى ألف ومائتان من الاشتراكيين مناصب أقل فى ٣٤٠ مدينة وبلدة. وبدأت الصحافة تتحدث عن "المد المتزايد للاشتراكية."

واقترحت مذكرة سرية على أحد أقسام الاتحاد الوطنى المدنى: "فى ظل الانتشار السريع للأفكار الاشتراكية فى الولايات المتحدة" فإن ما نحتاجه هو "جهد حكيم موجه إلى تعليم الرأى العام المعنى الحقيقى للاشتراكية." واقترحت المذكرة أن على الحملة أن "تُنَفَّذ على نحو ماهر ولبق" بحيث أنها "لا يجب أن تهاجم الاشتراكية والثورية فى عنف" وعلى هذه الحملة أن تتحلى بصفتى "الصبر والإقناع" وأن تدافع عن أفكار ثلاثة: "الحرية الفردية والملكية الخاصة وحرمة العقد."

من الصعب أن نحدد عدد الاشتراكيين الذين رأوا كيف كان الإصلاح نافعاً للرأسمالية ، ولكن فى عام ١٩١٢، قال اشتراكى من ولاية كينيتكت يُدعى روبرت لا مونت إن المعاشات والتأمين ضد المرض والحوادث والبطالة هى أشياء لا تكلف النظام الرأسمالى كثيراً، ولكنها على أية حال أفضل من السجون والبيوت والأحياء الفقيرة والمستشفيات والمصحات النفسية ، ثم قال إذا كان للإصلاحيين أن يمضوا فى

إصلاحهم، فإن على الاشتراكيين أن يقدموا "مطالب مستحيلة" من شأنها أن تكشف عن عجز الإصلاحيين.

هل نجحت الإصلاحات التقدمية في تحقيق نياتها - أي في استقرار النظام الرأسمالي عن طريق إصلاح عيوبه وإيقاف الحركة الاشتراكية واستعادة بعض السلام الطبقي في وقت شهد صراعاً مراً بين رأس المال والعمال؟ ربما تكون نجحت إلى حد ما. لكن الحزب الاشتراكي استمر في نموه واستمرت منظمة "عمال العالم" في التحريض ، وبعد أن تولى الرئيس وودرو ويسلون مهام منصبه، بدأت في كولورادو واحدة من أقوى وأمر حلقات النضال بين العمال ورأس المال في تاريخ البلاد.

كان هذا هو إضراب عمال الفحم في كولورادو الذي بدأ في سبتمبر ١٩١٣ ووصل إلى ذروته في "مذبحة لدلو" في إبريل ، ١٩١٤ كان أحد عشر ألفاً من عمال المناجم في جنوبي كولورادو، معظمهم من المهاجرين اليونانيين والإيطاليين والصرب، يعملون لدى شركة "كولورادو للوقود والحديد" التي كانت تملكها أسرة روكفيللر. وأضرب العمال بعد أن أثارهم مقتل أحد منظميهم، فضلاً عن ثورتهم على قلة الأجور والهيمنة الإقطاعية على معيشتهم التي تسيطر عليها شركات المناجم ، ووصلت الأم جونز، التي كانت تقوم بتنظيم "عمال المناجم المتحدين"، إلى مكان الإضراب وراحت تشعل المضربين حماساً بكلماتها التحريضية مما كان له أكبر الأثر في تقوية الروح المعنوية للعمال في الأشهر الأولى للإضراب حتى أُلقي القبض عليها ووضعت في زنزانة تحت الأرض قبل أن يصدر قرار بطردها من الولاية.

عندما بدأ الإضراب، طرد العمال من أكواخهم في مناطق المناجم. أقام العمال خياماً بمساعدة اتحاد عمال المناجم المتحدين فوق الهضاب القريبة واستمروا في إضرابهم. أغار أفراد مسلحون من شركة بولدوين - فيلتس للحراسة الخاصة على مناطق الخيام ، وانسحبت فرقة الحراسة ثم عادت أكثر تسلحاً ، ومع مقاومة العمال ورفضهم الاستسلام ومع تعطل المناجم، قام حاكم كولورادو باستدعاء أفراد الحرس الوطني بعد أن تعهد آل روكفيللر بدفع أجور الحرس.

اعتقد عمال المناجم فى البداية أن الحرس الوطنى جاء لحمايتهم وقابلوا أفراده بالرايات وصيحات الترحيب. ثم اكتشفوا بعد قليل بأن الحرس ما جاء إلا لفض الإضراب. جاء الحرس ومعه مفسدون للإضراب أتى بهم تحت جنح الظلام دون أن يخبروهم بشىء عن الإضراب. ضرب أفراد الحرس الوطنى العمال وألقوا القبض على المئات منهم ودهسوا تجمعات نسائية فى ترينداد، البلدة المركزية فى المنطقة. ورغم كل هذا، رفض المضربون الاستسلام ، وعندما استمروا فى الإضراب خلال شتاء عام ١٩١٣ـ١٩١٤ ، صار واضحاً أنه لابد من اتخاذ إجراءات غير عادية لفض الإضراب.

وفى إبريل ١٩١٤ وضعت فرقتان من الحرس الوطنى فوق الهضاب بحيث تطلان على أكبر تجمع من خيام المضربين وهو ذلك التجمع الذى يضم ألفاً من الرجال والنساء والأطفال. وفى صباح العشرين من إبريل بدأ هجوم على الخيام. رد المضربون على النار بمثلها ، وطُلب من قائدهم "لو تيكاس" أن يذهب للتفاوض من أجل توقيع هدنة، ولكنه ما لبث أن وصل إلى منطقة الهضاب حتى أطلق جماعة من الحرس الوطنى النار عليه فأردوه قتيلاً. كانت النساء والأطفال يحفرون خنادق صغيرة للاحتماء بها من طلقات الرصاص. بعد الغروب، نزل جنود الحرس الوطنى من فوق الهضاب وأضرموا النيران فى الخيام، فهرب سكان الخيام إلى التلال وسقط منهم ثلاثة عشر قتيلاً.

وفى اليوم التالى، بينما كان أحد عمال التليفونات يمر بأطلال الخيام فى "لدلو"، رفع غطاءً حديدياً فوجد تحته أشلاء لأحد عشر طفلاً وامرأتين ، وصار ذلك معروفاً "بمذبحة لدلو."

وانتشرت الأخبار سريعاً فى كل أرجاء البلاد. فى دينفر، أصدر "عمال المناجم المتحدون" نداء لحمل السلاح: "اجمعوا ما استطعتم من السلاح والذخيرة المتاحة وذلك من أجل أهداف دفاعية." انتقل ثلاثمائة من المضربين المسلحين من خيامهم إلى منطقة خيام لدلو المنكوبة وقاموا بتقطيع أسلاك التليفونات والتلغراف وأخذوا استعدادهم للمعركة ، ورفض عمال السكك الحديدية نقل الجنود من ترينداد إلى لدلو ، وفى

كولورادو ترك ثلاثمائة من عمال المناجم عملهم وتوجهوا إلى منطقة ترينداد حاملين البنادق والمدافع الصغيرة.

وفى ترينداد نفسها أقام عمال المناجم جنازة للستة وعشرين قتيلاً الذين سقطوا فى لدلو ثم ذهبوا من الجنازة إلى مبنى قريب حيث كانوا يخزنون أسلحتهم. حملوا أسلحتهم واتجهوا نحو التلال حيث دمروا المناجم وقتلوا حراسها وفجروا الممرات المؤدية إليها.

فى دينفر، رفض اثنان وثمانين من الجنود الذهاب إلى ترينداد. وقالت الصحف: "أعلن الرجال أنهم لن يتورطوا فى عمليات قتل النساء والأطفال ، وأطلق هؤلاء صيحات الازدراء على ٣٥٠ رجلاً كانوا متجهين إلى ترينداد وشيعوهم باللعنات."

تظاهر خمسة آلاف فى المطر أمام عاصمة الولاية فى دينفر مطالبين بمحاكمة أفراد الحرس الوطنى عما اقترفوه من قتل فى لدلو ووجهوا السباب إلى حاكم الولاية. صوت "اتحاد صناع السيجار" فى دينفر لصالح إرسال خمسمائة فرد مسلحين إلى لدلو وترينداد ، وأعلنت النساء فى "اتحاد عمال الأقمشة" أن أربعمائة منهم وافقوا على التطوع كممرضات لمساعدة المضربين. كانت هناك اجتماعات ومظاهرات فى كل أنحاء البلاد. رابط كثيرون أمام مكاتب شركات روكفيللر فى برودواى بمدينة نيويورك ، وقام راع بالاحتجاج أمام الكنيسة التى يقوم روكفيللر بالوعظ فيها أحياناً ، وألقى القبض على ذلك الراعى. حملت نيويورك تايمز افتتاحية عن الأحداث فى كولورادو، تلك الأحداث التى كانت قد بدأت فى جذب الاهتمام الدولى. لم يكن تأكيد نيويورك تايمز على الفظائع المرتكبة هناك بل على خطأ القوات فى التخطيط. فى الافتتاحية التى كُتبت عن مذبحة لدلو، بدأت الافتتاحية هكذا: "ارتكب شخص ما حماقة... ." بعد يومين، وعمال المناجم مسلحون على التلال، كتبت الصحيفة نفسها: "فى ظل وجود أفتك الأسلحة فى أيدى أناس همجيى العقول، لا يمكن لأحد أن يتنبأ بما يمكن أن تصل إليه الحرب فى كولورادو إلا إذا وضع حد لذلك بالقوة. ...على الرئيس أن يصرف نظره عن المكسيك بما يكفى لاتخاذ إجراءات رادعة فى كولورادو."

وطالب حاكم كولورادو بقوات فيدرالية من أجل استعادة النظام، واستجاب الرئيس ويلسون. بتحقيق ذلك، انتهى الإضراب وجاءت لجان الكونجرس وعادت بآلاف الصفحات تتضمن شهادات عما حدث. لم ينل الاتحاد اعتراف الدولة وقتل ستة وستون من الرجال والنساء والأطفال. ولم يُتهم أى من حراس المناجم أو الحرس الوطنى بارتكاب أى جريمة.

كانت كولورادو لا تزال مسرحاً لصراع طبقي شديد زحفت تداعياته إلى كل أرجاء البلاد. وكان لا يزال التمرد الطبقى موجوداً فى أحوال العمال فى المصانع بالولايات المتحدة وفى روح التمرد التى تحملها الطبقة العاملة بالرغم من أى تشريع جديد أو إصلاحات ليبرالية وبالرغم من كل التحقيقات التى أُجريت وكلمات الأسف والاسترضاء التى قيلت.

وكانت نيويورك تايمز قد أشارت إلى المكسيك. فى الصباح الذى اكتشفت فيه الأشلاء فى حفرة بموقع الخيام فى لدلو، كانت السفن الحربية الأمريكية تهاجم مدينة فيرا كروز على ساحل المكسيك ثم قامت باحتلالها بعد إمطارها بوابل من القنابل مخلفة مائة قتيل - لمجرد أن المكسيك كانت ألقت القبض على عدد من البحارة الأمريكيين ورفضت أن تقدم اعتذاراً للولايات المتحدة فى شكل تحية تتضمن إطلاق إحدى وعشرين طلقة مدفع.

والسؤال الآن: هل استطاعت الروح الوطنية والعسكرية أن تغطى على الصراع الطبقى؟ كانت البطالة قد بدأت تدب فى البلاد بما يوحى أنها مقدمة على أوقات عصيبة. هل استطاعت المدافع أن تشتت الانتباه وتخلق إجماعاً قومياً ضد عدو خارجى؟ من المؤكد أن قصف مدينة فيرا كروز فى وقت الهجوم على مخيمات المضربين فى لدلو كان مصادفة ، أو ربما كانت، كما وصف أحدهم التاريخ الإنسانى، "الانتخاب الطبيعى للحوادث." ربما كان الأمر فى المكسيك استجابة غريزية من النظام فى سبيل البقاء، أى أن النظام أراد خلق وحدة قتالية بين شعب يمزقه الصراع الداخلى. كان قصف مدينة فيرا كروز حادثة صغيرة ، ولكن فى خلال أربعة شهور، كان على الحرب العالمية الأولى أن تبدأ فى أوروبا .

المراجع

1. Columbus, the Indians, and Human Progress

Brandon, William. *The Last Americans: The Indian in American Culture*. New York: McGraw-Hill, 1974.

*Collier, John. *Indians of the Americas*. New York: W. W. Norton, 1947.

*de las Casas, Bartolomé. *History of the Indies*. New York: Harper & Row, 1971.

*Jennings, Francis. *The Invasion of America: Indians, Colonialism, and the Cant of Conquest*. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1975.

*Koning, Hans. *Columbus: His Enterprise*. New York: Monthly Review Press, 1976.

*Morgan, Edmund S. *American Slavery, American Freedom: The Ordeal of Colonial Virginia*. New York: W. W. Norton, 1975.

Morison, Samuel Eliot. *Admiral of the Ocean Sea*. Boston: Little, Brown, 1942.

———. *Christopher Columbus, Mariner*. Boston: Little, Brown, 1955.

*Nash, Gary B. *Red, White, and Black: The Peoples of Early America*. Englewood Cliffs: Prentice-Hall, 1970.

Vogel, Virgil, ed. *This Country Was Ours*. New York: Harper & Row, 1972.

2. Drawing the Color Line

*Aptheker, Herbert, ed. *A Documentary History of the Negro People in the United States*. Secaucus, N.J.: Citadel, 1974.

Boskin, Joseph. *Into Slavery: Radical Decisions in the Virginia Colony*. Philadelphia, Lippincott, 1966.

Catterall, Helen. *Judicial Cases Concerning American Slavery and the Negro*. 5 vols. Washington, Negro University Press, 1937.

Davidson, Basil. *The African Slave Trade*. Boston: Little, Brown, 1961.

Donnan, Elizabeth, ed. *Documents Illustrative of the History of the Slave Trade to America*. 4 vols. New York: Octagon, 1965.

Elkins, Stanley. *Slavery: A Problem in American Institutional and Intellectual Life*. Chicago: University of Chicago Press. 1976.

Federal Writers Project. *The Negro in Virginia*. New York: Arno, 1969.

Franklin, John Hope. *From Slavery to Freedom: A History of American Negroes*. New York: Knopf, 1974.

*Jordan, Winthrop. *White Over Black: American Attitudes Toward the Negro, 1550–1812.* Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1968.

*Morgan, Edmund S. *American Slavery, American Freedom: The Ordeal of Colonial Virginia.* New York: W. W. Norton, 1975.

Mullin, Gerald. *Flight and Rebellion: Slave Resistance in Eighteenth-Century Virginia.* New York: Oxford University Press, 1974.

Mullin, Michael, ed. *American Negro Slavery: A Documentary History.* New York: Harper & Row, 1975.

Phillips, Ulrich B. *American Negro Slavery: A Survey of the Supply, Employment and Control of Negro Labor as Determined by the Plantation Regime.* Baton Rouge: Louisiana State University Press, 1966.

Redding, J. Saunders. *They Came in Chains.* Philadelphia: Lippincott, 1973.

Stampp, Kenneth M. *The Peculiar Institution.* New York: Knopf, 1956.

Tannenbaum, Frank. *Slave and Citizen: The Negro in the Americas.* New York: Random House, 1963.

3. Persons of Mean and Vile Condition

Andrews, Charles, ed. *Narratives of the Insurrections 1675–1690.* New York: Barnes & Noble, 1915.

*Bridenbaugh, Carl. *Cities in the Wilderness: The First Century of Urban Life in America.* New York: Oxford University Press, 1971.

Henretta, James. "Economic Development and Social Structure in Colonial Boston." *William and Mary Quarterly,* 3rd Series, Vol. 22, January 1965.

Herrick, Cheesman. *White Servitude in Pennsylvania: Indentured and Redemption Labor in Colony and Commonwealth.* Washington: Negro University Press, 1926.

Hofstadter, Richard. *America at 1750: A Social History.* New York: Knopf, 1971.

Hofstadter, Richard, and Wallace, Michael. eds. *American Violence: A Documentary History.* New York: Knopf, 1970.

Mohl, Raymond. *Poverty in New York, 1783–1825.* New York: Oxford University Press, 1971.

*Morgan, Edward S. *American Slavery, American Freedom: The Ordeal of Colonial Virginia.* New York: W. W. Norton, 1975.

*Morris, Richard B. *Government and Labor in Early America.* New York: Harper & Row, 1965.

*Nash, Gary B., ed. *Class and Society in Early America.* Englewood Cliffs: Prentice-Hall, 1970.

*———. *Red, White, and Black: The Peoples of Early America.* Englewood Cliffs: Prentice-Hall, 1974.

*———. "Social Change and the Growth of Prerevolutionary Urban Radicalism," *The American Revolution*, ed. Alfred Young. DeKalb: Northern Illinois University Press, 1976.
*Smith, Abbot E. *Colonists in Bondage: White Servitude and Convict Labor in America*. New York: W. W. Norton, 1971.
*Washburn, Wilcomb E. *The Governor and the Rebel: A History of Bacon's Rebellion in Virginia*. New York: W. W. Norton. 1972.

4. Tyranny Is Tyranny

Bailyn, Bernard, and Garrett, N., eds. *Pamphlets of the American Revolution*. Cambridge: Harvard University Press, 1965.
Becker, Carl. *The Declaration of Independence: A Study in the History of Political Ideas*. New York: Random House, 1958.
Brown, Richard Maxwell. "Violence and the American Revolution," *Essays on the American Revolution*, ed. Stephen G. Kurtz and James H. Hutson. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1973.
Countryman, Edward, " 'Out of the Bounds of the Law': Northern Land Rioters in the Eighteenth Century," *The American Revolution: Explorations in the History of American Radicalism*, ed. Alfred F. Young. DeKalb: Northern Illinois University Press, 1976.
Ernst, Joseph. " 'Ideology' and an Economic Interpretation of the Revolution," *The American Revolution: Explorations in the History of American Radicalism*, ed. Alfred F. Young. DeKalb: Northern Illinois University Press, 1976.
Foner, Eric. "Tom Paine's Republic: Radical Ideology and Social Change," *The American Revolution: Explorations in the History of American Radicalism*, ed. Alfred F. Young. DeKalb: Northern Illinois University Press, 1976.
Fox-Bourne, H. R. *The Life of John Locke*, 2 vols. New York: King, 1876.
Greene, Jack P. "An Uneasy Connection: An Analysis of the Preconditions of the American Revolution," *Essays on the American Revolution*, ed. Stephen G. Kurtz and James H. Hutson. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1973.
Hill, Christopher. *Puritanism and Revolution*. New York: Schocken, 1964.
*Hoerder, Dirk. "Boston Leaders and Boston Crowds, 1765–1776," *The American Revolution: Explorations in the History of American Radicalism*, ed. Alfred F. Young. DeKalb: Northern Illinois University Press, 1976.
Lemisch, Jesse. "Jack Tar in the Streets: Merchant Seamen in the Politics of Revolutionary America," *William and Mary Quarterly*, July 1968.
Maier, Pauline. *From Resistance to Revolution: Colonial Radicals and the Development of American Opposition to Britain, 1765–1776*. New York: Knopf, 1972.

Aptheker, Herbert, ed. *A Documentary History of the Negro People in the United States.* Secaucus, N.J.: Citadel Press, 1974.

Bailyn, Bernard. "Central Themes of the Revolution," *Essays on the American Revolution*, ed. Stephen G. Kurtz and James H. Hutson. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1973.

———. *The Ideological Origins of the American Revolution.* Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1967.

*Beard, Charles. *An Economic Interpretation of the Constitution of the United States.* New York: Macmillan, 1935.

Berlin, Ira. "The Negro in the American Revolution," *The American Revolution: Explorations in the History of American Radicalism*, ed. Alfred F. Young. DeKalb: Northern Illinois University Press, 1976.

Berthoff, Rowland, and Murrin, John. "Feudalism, Communalism, and the Yeoman Freeholder, *Essays on the American Revolution*, ed. Stephen G. Kurtz and James H. Hutson. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1973.

Brown, Robert E. *Charles Beard and the Constitution.* New York: W. W. Norton, 1965.

Degler, Carl. *Out of Our Past.* Harper & Row, 1970.

Henderson, H. James. "The Structure of Politics in the Continental Congress," *Essays on the American Revolution*, ed. Stephen G. Kurtz and James H. Hutson. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1973.

*Hoffman, Ronald. "The 'Disaffected' in the Revolutionary South," *The American Revolution: Explorations in the History of American Radicalism*, ed. Alfred F. Young. DeKalb: Northern Illinois University Press, 1976.

Jennings, Francis. "The Indians' Revolution," *The American Revolution: Explorations in the History of American Radicalism*, ed. Alfred F. Young. DeKalb: Northern Illinois University Press, 1976.

Levy, Leonard W. *Freedom of Speech and Press in Early American History.* New York: Harper & Row, 1963.

*Lynd, Staughton. *Anti-Federalism in Dutchess County, New York.* Chicago: Loyola University Press, 1962.

———. *Class Conflict, Slavery, and the Constitution.* Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1967.

———. "Freedom Now: The Intellectual Origins of American Radicalism," *The American Revolution: Explorations in the History of American Radicalism*, ed. Alfred F. Young. DeKalb: Northern Illinois University Press, 1976.

McLoughlin, William G. "The Role of Religion in the Revolution," *Essays on the American Revolution*, ed. Stephen G. Kurtz and James H. Hutson. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1973.

Morgan, Edmund S. "Conflict and Consensus in Revolution," *Essays on the American Revolution*, ed. Stephen G. Kurtz and James H. Hutson. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1973.

Morris, Richard B. "We the People of the United States." Presidential address, American Historical Association, 1976.

*Shy, John. *A People Numerous and Armed: Reflections on the Military Struggle for American Independence.* New York: Oxford University Press, 1976.

Smith, Page. *A New Age Now Begins: A People's History of the American Revolution.* New York: McGraw-Hill, 1976.

Starkey, Marion. *A Little Rebellion.* New York: Knopf, 1949.

Van Doren, Carl. *Mutiny in January.* New York: Viking, 1943.

*Young, Alfred, ed. *The American Revolution: Explorations in the History of American Radicalism.* DeKalb: Northern Illinois University Press, 1976.

6. THE INTIMATELY OPPRESSED

Barker-Benfield, G. J. *The Horrors of the Half-Known Life.* New York: Harper & Row, 1976.

*Baxandall, Rosalyn, Gordon, Linda, and Reverby, Susan, eds. *America's Working Women.* New York: Random House, 1976.

*Cott, Nancy. *The Bonds of Womanhood.* New Haven: Yale University Press, 1977.

*———, ed. *Root of Bitterness.* New York: Dutton, 1972.

Farb, Peter. "The Pueblos of the Southwest," *Women in American Life*, ed. Anne Scott. Boston: Houghton Mifflin, 1970.

*Flexner, Eleanor. *A Century of Struggle.* Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1975.

Gordon, Ann, and Buhle, Mary Jo. "Sex and Class in Colonial and Nineteenth-Century America," *Liberating Women's History*, ed. Berenice Carroll. Urbana: University of Illinois Press, 1975.

*Lerner, Gerda, ed. *The Female Experience: An American Documentary.* Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1977.

Sandoz, Mari. "These Were the Sioux," *Women in American Life*, ed. Anne Scott. Boston: Houghton Mifflin, 1970.

Spruill, Julia Cherry. *Women's Life and Work in the Southern Colonies.* Chapel Hill: University of North Carolina, 1938.

Tyler, Alice Felt. *Freedom's Ferment.* Minneapolis: University of Minnesota Press, 1944.

Vogel, Lise. "Factory Tracts," *Signs: Journal of Women in Culture and Society*, Spring 1976.

Welter, Barbara. *Dimity Convictions: The American Woman in the Nineteenth Century.* Athens, Ohio: Ohio University Press, 1976.

Wilson, Joan Hoff. "The Illusion of Change: Women in the American Revolution," *The American Revolution: Explorations in the History of American Radicalism*, ed. Alfred F. Young. DeKalb: Northern Illinois University Press, 1976.

7. As Long as Grass Grows or Water Runs

Drinnon, Richard. *Violence in the American Experience: Winning the West.* New York: New American Library, 1979.

Filler, Louis E., and Guttmann, Allen, eds. *The Removal of the Cherokee Nation.* Huntington, N.Y.: R. E. Krieger, 1977.

Foreman, Grant. *Indian Removal.* Norman: University of Oklahoma Press, 1972.

*McLuhan, T. C., ed. *Touch the Earth: A Self-Portrait of Indian Existence.* New York: Simon & Schuster, 1976.

*Rogin, Michael. *Fathers and Children: Andrew Jackson and the Subjugation of the American Indian.* New York: Knopf, 1975.

*Van Every, Dale. *The Disinherited: The Lost Birthright of the American Indian.* New York: Morrow, 1976.

Vogel, Virgil, ed. *This Country Was Ours.* New York: Harper & Row, 1972.

8. We Take Nothing by Conquest, Thank God

*Foner, Philip. *A History of the Labor Movement in the United States.* 4 vols. New York: International Publishers, 1947–1965.

Graebner, Norman A. "Empire in the Pacific: A Study in American Continental Expansion," *The Mexican War: Crisis for American Democracy*, ed. Archie P. McDonald.

———, ed. *Manifest Destiny.* Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1968.

Jay, William. *A Review of the Causes and Consequences of the Mexican War.* Boston: B. B. Mussey & Co., 1849.

McDonald, Archie P., ed. *The Mexican War: Crisis for American Democracy.* Lexington, Mass: D. C. Heath, 1969.

Morison, Samuel Eliot, Merk, Frederick, and Friedel, Frank. *Dissent in Three American Wars.* Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1970.

O'Sullivan, John, and Meckler, Alan. *The Draft and Its Enemies: A Documentary History.* Urbana: University of Illinois Press, 1974.

Perry, Bliss, ed. *Lincoln: Speeches and Letters.* Garden City, N.Y.: Doubleday, 1923.

*Schroeder, John H. *Mr. Polk's War: American Opposition and Dissent 1846–1848.* Madison: University of Wisconsin Press, 1973.

*Smith, George Winston, and Judah, Charles, eds. *Chronicles of the Gringos: The*

U.S. Army in the Mexican War 1846–1848. Albuquerque: University of New Mexico Press, 1966.

*Smith, Justin. *The War with Mexico*. 2 vols. New York: Macmillan, 1919.

*Weems, John Edward. *To Conquer a Peace*. New York: Doubleday, 1974.

Weinberg, Albert K. *Manifest Destiny: A Study of Nationalist Expansion in American History*. Baltimore: Johns Hopkins Press, 1935.

9. Slavery Without Submission, Emancipation Without Freedom

Allen, Robert. *The Reluctant Reformers*. New York: Anchor, 1975.

*Aptheker, Herbert. *American Negro Slave Revolts*. New York: International Publishers, 1969.

*———, ed. *A Documentary History of the Negro People in the United States*. New York: Citadel, 1974.

———. *Nat Turner's Slave Rebellion*. New York: Grove Press, 1968.

Bond, Horace Mann. "Social and Economic Forces in Alabama Reconstruction," *Journal of Negro History*. July 1938.

Conrad, Earl. *Harriet Tubman*. Middlebury, Vt.: Eriksson, 1970.

Cox, LaWanda and John, eds. *Reconstruction, the Negro, and the Old South*. New York: Harper & Row, 1973.

Douglass, Frederick. *Narrative of the Life of Frederick Douglass*, ed. Benjamin Quarles. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1960.

Du Bois, W. E. B. *John Brown*. New York: International Publishers, 1962.

Fogel, Robert, and Engerman, Stanley. *Time on the Cross: The Economics of American Negro Slavery*. Boston: Little, Brown, 1974.

Foner, Philip, ed. *The Life and Writings of Frederick Douglass*. 5 vols. New York: International Publishers, 1975.

*Franklin, John Hope. *From Slavery to Freedom*. New York: Knopf, 1974.

*Genovese, Eugene. *Roll, Jordan, Roll: The World the Slaves Made*. New York: Pantheon, 1974.

*Gutman, Herbert. *The Black Family in Slavery and Freedom, 1750–1925*. New York: Pantheon, 1976.

*———. *Slavery and the Numbers Game: A Critique of "Time on the Cross."* Urbana: University of Illinois Press, 1975.

Herschfield, Marilyn. "Women in the Civil War." Unpublished paper, 1977.

*Hofstadter, Richard. *The American Political Tradition*. New York: Knopf, 1973.

Killens, John O., ed. *The Trial Record of Denmark Vesey*. Boston: Beacon Press, 1970.

Kolchin, Peter. *First Freedom: The Response of Alabama's Blacks to Emancipation and Reconstruction*. New York: Greenwood, 1972.

*Lerner, Gerda, ed. *Black Women in White America: A Documentary History*. New York: Random House, 1973.

Lester, Julius, ed. *To Be a Slave.* New York: Dial Press, 1968.
*Levine, Lawrence J. *Black Culture and Black Consciousness: Afro-American Folk Thought from Slavery to Freedom.* New York: Oxford University Press, 1977.
*Logan, Rayford. *The Betrayal of the Negro: From Rutherford B. Hayès to Woodrow Wilson.* New York: Macmillan, 1965.
*MacPherson, James. *The Negro's Civil War.* New York: Pantheon, 1965.
*———. *The Struggle for Equality.* Princeton: Princeton University Press, 1964.
*Meltzer, Milton, ed. *In Their Own Words: A History of the American Negro.* New York: T. Y. Crowell, 1964–1967.
Mullin, Michael, ed. *American Negro Slavery: A Documentary History.* New York: Harper & Row, 1975.
Osofsky, Gilbert. *Puttin' on Ole Massa.* New York: Harper & Row, 1969.
Painter, Nell Irvin. *Exodusters: Black Migration to Kansas After Reconstruction.* New York: Knopf, 1977.
Phillips, Ulrich B. *American Negro Slavery: A Survey of the Supply. Employment and Control of Negro Labor as Determined by the Plantation Regime.* Baton Rouge: Louisiana State University Press, 1966.
Rawick, George P. *From Sundown to Sunup: The Making of the Black Community.* Westport, Conn.: Greenwood Press, 1972.
*Rosengarten, Theodore. *All God's Dangers: The Life of Nate Shaw.* New York: Knopf, 1974.
Starobin, Robert S., ed. *Blacks in Bondage: Letters of American Slaves.* New York: Franklin Watts, 1974.
Tragle, Henry I. *The Southampton Slave Revolt of 1831.* Amherst, Mass.: University of Massachusetts Press, 1971.
Wiltse, Charles M., ed. *David Walker's Appeal.* New York: Hill & Wang, 1965.
*Woodward, C. Vann. *Reunion and Reaction: The Compromise of 1877 and the End of Reconstruction.* Boston: Little, Brown, 1966.
Works Progress Administration. *The Negro in Virginia.* New York: Arno Press, 1969.

10. The Other Civil War

Bimba, Anthony. *The Molly Maguires.* New York: International Publishers, 1970.
Brecher, Jeremy. *Strike!* Boston: South End Press, 1979.
*Bruce, Robert V. *1877: Year of Violence.* New York: Franklin Watts, 1959.
Burbank, David. *Reign of Rabble: The St. Louis General Strike of 1877.* Fairfield, N.J.: Augustus Kelley, 1966.
*Christman, Henry. *Tin Horns and Calico.* New York: Holt, 1945.
*Cochran, Thomas, and Miller, William. *The Age of Enterprise.* New York: Macmillan, 1942.

Coulter, E. Merton, *The Confederate States of America 1861–1865*. Baton Rouge: Louisiana State University Press, 1950.

Dacus, Joseph A. "Annals of the Great Strikes of the United States," *Except to Walk Free: Documents and Notes in the History of American Labor*, ed. Albert Fried. New York: Anchor, 1974.

*Dawley, Alan. *Class and Community: The Industrial Revolution in Lynn*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1976.

*Feldstein, Stanley, and Costello, Lawrence, eds. *The Ordeal of Assimilation: A Documentary History of the White Working Class, 1830's to the 1970's*. New York: Anchor, 1974.

Fite, Emerson. *Social and Industrial Conditions in the North During the Civil War*. New York: Macmillan, 1910.

*Foner, Philip. *A History of the Labor Movement in the United States*. 4 vols. New York: International Publishers, 1947–1964.

*———, ed. *We, the Other People*. Urbana: University of Illinois Press, 1976.

Fried, Albert, ed. *Except to Walk Free: Documents and Notes in the History of American Labor*. New York: Anchor, 1974.

*Gettleman, Marvin. *The Dorr Rebellion*. New York: Random House, 1973.

Gutman, Herbert. "The Buena Vista Affair, 1874–1875," *Workers in the Industrial Revolution: Recent Studies of Labor in the United States and Europe*, ed. Peter N. Stearns and Daniel Walkowitz. New Brunswick, N.J.: Transaction, 1974.

———. *Work, Culture and Society in Industrializing America*. New York: Random House, 1977.

———. "Work, Culture and Society in Industrialising America, 1815–1919," *American Historical Review*, June 1973.

Headley, Joel Tyler. *The Great Riots of New York, 1712–1873*. Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1970.

*Hofstadter, Richard, and Wallace, Michael, eds. *American Violence: A Documentary History*. New York: Knopf, 1970.

*Horwitz, Morton. *The Transformation of American Law, 1780–1860*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1977.

Knights, Peter R. *The Plain People of Boston 1830–1860: A Study in City Growth*. New York: Oxford University Press, 1973.

Meyer, Marvin. *The Jacksonian Persuasion*. New York: Vintage, 1960.

Miller, Douglas T. *The Birth of Modern America*. Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1970.

Montgomery, David. "The Shuttle and the Cross: Weavers and Artisans in the Kensington Riots of 1844," *Journal of Social History*, Summer 1972.

*Myers, Gustavus. *History of the Great American Fortunes*. New York: Modern Library, 1936.

Pessen, Edward. *Jacksonian America.* Homewood, Ill.: Dorsey, 1969.
———. *Most Uncommon Jacksonians.* Albany: State University of New York Press, 1967.
Remini, Robert V. *The Age of Jackson.* New York: Harper & Row, 1972.
Schlesinger, Arthur M., Jr. *The Age of Jackson.* Boston: Little, Brown, 1945.
Stearns, Peter N., and Walkowitz, Daniel, eds. *Workers in the Industrial Revolution: Recent Studies of Labor in the United States and Europe.* New Brunswick, N.J.: Transaction, 1974.
Tatum, Georgia Lee. *Disloyalty in the Confederacy.* New York: A.M.S. Press, 1970.
*Wertheimer, Barbara. *We Were There: The Story of Working Women in America.* New York: Pantheon, 1977.
Wilson, Edmund. *Patriotic Gore: Studies in the Literature of the American Civil War.* New York: Oxford University Press, 1962.
Yellen, Samuel. *American Labor Struggles.* New York: Pathfinder, 1974.
Zinn, Howard. "The Conspiracy of Law," *The Rule of Law,* ed. Robert Paul Wolff. New York: Simon & Schuster, 1971.

11. Robber Barons and Rebels

Allen, Robert. *Reluctant Reformers: Racism and Social Reform Movements in the United States.* New York: Anchor, 1975.
Bellamy, Edward. *Looking Backward.* Cambridge: Harvard University Press, 1967.
Bowles, Samuel, and Gintis, Herbert. *Schooling in Capitalist America.* New York: Basic Books, 1976.
Brandeis, Louis. *Other People's Money.* New York: Frederick Stokes, 1914.
Brecher, Jeremy. *Strike!* Boston: South End Press, 1979.
Carwardine, William. *The Pullman Strike.* Chicago: Charles Kerr, 1973.
*Cochran, Thomas, and Miller, William. *The Age of Enterprise.* New York: Macmillan, 1942.
Conwell, Russell H. *Acres of Diamonds.* New York: Harper & Row, 1915.
Crowe, Charles. "Tom Watson, Populists, and Blacks Reconsidered," *Journal of Negro History,* April 1970.
David, Henry. *A History of the Haymarket Affair.* New York: Collier, 1963.
Feldstein, Stanley, and Costello, Lawrence, eds. *The Ordeal of Assimilation: A Documentary History of the White Working Class, 1830's to the 1970's.* Garden City, N.Y.: Anchor, 1974.
*Foner, Philip. *A History of the Labor Movement in the United States.* 4 vols. New York: International Publishers, 1947–1964.
———. *Organized Labor and the Black Worker 1619–1973.* New York: International Publishers, 1974.

George, Henry. *Progress and Poverty.* New York: Robert Scholkenbach Foundation, 1937.

Ginger, Ray. *The Age of Excess: The U.S. from 1877 to 1914.* New York: Macmillan, 1975.

*———. *The Bending Cross: A Biography of Eugene Victor Debs.* New Brunswick: Rutgers University Press, 1949.

*Goodwyn, Lawrence. *Democratic Promise: The Populist Movement in America.* New York: Oxford University Press, 1976.

Hair, William Ivy. *Bourbonism and Agrarian Protest: Louisiana Politics, 1877–1900.* Baton Rouge: Louisiana State University Press, 1969.

Heilbroner, Robert, and Singer, Aaron. *The Economic Transformation of America.* New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1977.

Hofstadter, Richard, and Wallace, Michael, eds. *American Violence: A Documentary History.* New York: Knopf, 1970.

*Josephson, Matthew. *The Politicos.* New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1963.

*———. *The Robber Barons.* New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1962.

Mason, Alpheus T., and Beaney, William M. *American Constitutional Law.* Englewood Cliffs, N.J.: Prentice-Hall, 1972.

*Myers, Gustavus. *History of the Great American Fortunes.* New York: Modern Library, 1936.

Pierce, Bessie L. *Public Opinion and the Teaching of History in the United States.* New York: DaCapo, 1970.

Pollack, Norman. *The Populist Response to Industrial America.* Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1976.

Smith, Henry Nash. *Virgin Land.* Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1970.

Spring, Joel H. *Education and the Rise of the Corporate State.* Boston: Beacon Press, 1973.

Wasserman, Harvey. *Harvey Wasserman's History of the United States.* New York: Harper & Row, 1972.

*Wertheimer, Barbara. *We Were There: The Story of Working Women in America.* New York: Pantheon, 1977.

*Woodward, C. Vann. *Origins of the New South.* Baton Rouge: Louisiana State University Press, 1972.

*———. *Tom Watson, Agrarian Rebel.* New York: Oxford University Press, 1963.

*Yellen, Samuel. *American Labor Struggles.* New York: Pathfinder, 1974.

12. The Empire and the People

Aptheker, Herbert, ed. *A Documentary History of the Negro People in the United States.* New York: Citadel, 1973.

Beale, Howard K. *Theodore Roosevelt and the Rise of America to World Power.* New York: Macmillan, 1962.

Beisner, Robert. *Twelve Against Empire: The Anti-Imperialists, 1898–1902.* New York: McGraw-Hill, 1968.

*Foner, Philip. *A History of the Labor Movement in the United States.* 4 vols. New York: International Publishers, 1947–1964.

*———. *The Spanish-Cuban-American War and the Birth of American Imperialism.* 2 vols. New York: Monthly Review Press, 1972.

Francisco, Luzviminda. "The First Vietnam: The Philippine-American War, 1899–1902," *Bulletin of Concerned Asian Scholars,* 1973.

*Gatewood, Willard B. *"Smoked Yankees" and the Struggle for Empire: Letters from Negro Soldiers, 1898–1902.* Urbana: University of Illinois Press, 1971.

Lafeber, Walter. *The New Empire: An Interpretation of American Expansion.* Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1963.

Pratt, Julius. "American Business and the Spanish-American War," *Hispanic-American Historical Review,* 1934.

Schirmer, Daniel Boone. *Republic or Empire: American Resistance to the Philippine War.* Cambridge, Mass.: Schenkman, 1972.

Williams, William Appleman. *The Roots of the Modern American Empire.* New York: Random House, 1969.

———. *The Tragedy of American Diplomacy.* New York: Dell, 1972.

Wolff, Leon. *Little Brown Brother.* Garden City, N.Y.: Doubleday, 1961.

Young, Marilyn. *The Rhetoric of Empire.* Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1968.

13. The Socialist Challenge

*Aptheker, Herbert. *A Documentary History of the Negro People in the United States.* New York: Citadel, 1974.

*Baxandall, Rosalyn, Gordon, Linda, and Reverby, Susan, eds. *America's Working Women.* New York: Random House, 1976.

Braverman, Harry. *Labor and Monopoly Capital: The Degradation of Work in the Twentieth Century.* New York: Monthly Review, 1975.

Brody, David. *Steelworkers in America: The Non-Union Era.* Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1960.

Chafe, William. *Women and Equality: Changing Patterns in American Culture.* New York: Oxford University Press, 1977.

Cochran, Thomas, and Miller, William. *The Age of Enterprise.* New York: Macmillan, 1942.

Dancis, Bruce. "Socialism and Women," *Socialist Revolution*, January-March 1976.

Dubofsky, Melvyn. *We Shall Be All: A History of the Industrial Workers of the World.* New York: Quadrangle, 1974.

Du Bois, W. E. B. *The Souls of Black Folk.* New York: Fawcett, 1961.

Faulkner, Harold. *The Decline of Laissez Faire 1897–1917.* White Plains, N.Y.: M. E. Sharpe, 1977.

*Flexner, Eleanor. *A Century of Struggle.* Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1975.

Flynn, Elizabeth Gurley. *The Rebel Girl.* New York: International Publishers, 1973.

Foner, Philip, ed. *Helen Keller: Her Socialist Years.* New York: International Publishers, 1967.

*———. *A History of the Labor Movement in the United States.* 4 vols. New York: International Publishers, 1947–1964.

Gilman, Charlotte Perkins. *Women and Economics.* New York: Harper & Row, 1966.

*Ginger, Ray. *The Bending Cross: A Biography of Eugene Victor Debs.* New Brunswick: Rutgers University Press, 1969.

Goldman, Emma. *Anarchism and Other Essays.* New York: Dover, 1970.

Green, James. *Grass-Roots Socialism: Radical Movements in the Southwest, 1895–1943.* Baton Rouge: Louisiana State University Press, 1978.

Hays, Samuel. "The Politics of Reform in Municipal Government in the Progressive Era," *Pacific Northwest Quarterly*, October 1964. (Reprinted by New England Free Press.)

Haywood, Bill. *The Autobiography of Big Bill Haywood.* New York: International Publishers, 1929.

Hofstadter, Richard. *The American Political Tradition.* New York: Random House, 1954.

James, Henry. *The American Scene.* Bloomington: Indiana University Press, 1968.

Jones, Mary. *The Autobiography of Mother Jones.* Chicago: Charles Kerr, 1925.

Kaplan, Justin. *Mr. Clemens and Mark Twain: A Biography.* New York: Simon & Schuster, 1966.

*Kolko, Gabriel. *The Triumph of Conservatism.* New York: Free Press, 1977.

*Kornbluh, Joyce, ed. *Rebel Voices: An I.W.W. Anthology.* Ann Arbor: University of Michigan Press, 1964.

*Lerner, Gerda, ed. *Black Women in White America.* New York: Random House, 1973.

*———. *The Female Experience: An American Documentary.* Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1977.

London, Jack. *The Iron Heel.* New York: Bantam, 1971.

Naden, Corinne J. *The Triangle Shirtwaist Fire, March 25, 1911.* New York: Franklin Watts, 1971.
Sanger, Margaret. *Woman and the New Race.* New York: Brentano's, 1920.
Schoener, Allon, ed. *Portal to America: The Lower East Side, 1870–1925.* New York: Holt, Rinehart and Winston, 1967.
Sinclair, Upton. *The Jungle.* New York: Harper & Row, 1951.
Sochen, June. *Movers and Shakers: American Women Thinkers and Activists, 1900–1970.* New York: Quadrangle, 1974.
Stein, Leon. *The Triangle Fire.* Philadelphia: Lippincott, 1965.
Wasserman, Harvey. *Harvey Wasserman's History of the United States.* New York: Harper & Row, 1972.
*Weinstein, James. *The Corporate Ideal in the Liberal State, 1900–1918.* Boston: Beacon Press, 1968.
*Wertheimer, Barbara. *We Were There: The Story of Working Women in America.* New York: Pantheon, 1977.
Wiebe, Robert H. *The Search for Order, 1877–1920.* New York: Hill & Wang, 1966.
*Yellen, Samuel. *American Labor Struggles.* New York: Pathfinder, 1974.
Zinn, Howard. *The Politics of History.* Boston: Beacon Press, 1970.

المؤلف فى سطور:

هوارد زنْ

مؤرخ أمريكى وناشط اجتماعى وكاتب مسرحى . اشتغل عاملاً فى شحن السفن لمدة ثلاثة أعوام . ثم اشترك فى سلاح الطيران الأمريكى أثناء الحرب العالمية الثانية . التحق بعد الحرب بالجامعة حيث حصل على الدكتوراه من جامعة كولومبيا عام ١٩٥٨ . قام بالتدريس فى سبيلمان كوليدج فى أطلنطا بولاية جورجيا حتى عام ١٩٦٣ وفى جامعة بوسطن حتى عام ١٩٨٨ . عمل أستاذاً زائراً فى جامعتى باريس وبولونيا . حصل على جائزة توماس ميرتون وجائزة يوجين دييس وجائزة أبتون سنكلير وجائزة لانان الأدبية . يعيش فى أوبرنديل بولاية ماساتشوستس .

المترجم فى سطور:

شعبان مكاوى

من مواليد منشية النور - بنها - محافظة القليوبية .

حاصل على دكتوراه الأدب الإنجليزى موضوعها : تجربة حرب فيتنام على المسرح الأمريكى ، جامعة عين شمس ١٩٩٩ .

عضو هيئة تدريس بقسم اللغة الإنجليزية - كلية الآداب - جامعة حلوان .

نشر عدداً من الدراسات فى مجلات « المنار » و« إبداع » و« فصول » و« أدب ونقد » .



فى هذا الكتاب يقوم المؤلف بما يمكن تسميته إعادة توزيع الأدوار على الأبطال والأشرار، حتى إن الكتاب جاء - على حد تعبير الكاتب الأمريكى إيريك فونر - كأنه نيجاتيف فوتوغرافى للتاريخ الأمريكى الرسمى، بحيث تتبادل البقاع المظلمة والبقاع المضيئة أماكنها.





الغلاف/ عمر جهان